

العرب في أفريقيا

الجدور التاريخية والواقع المعاصر

إشراف

دكتور رؤوف عباس حامد

مقرر سمنار التاريخ
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر

دار الثقافة العربية

٢ شارع لبلتديان بالمدينة زينب - القاهرة

حقوق النشر محفوظة لقسم التاريخ

كلية الآداب — جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

oboeikan.com

تقديم

درج سمنار التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة منذ تأسيسه عام ١٩٨٠ على الاهتمام بتاريخ أمتنا العربية ، وتأسيس البحث فيه ، ورعاية مدرسة علمية تعنى باعداد جيل جديد من الباحثين الذين يغوصون فى أعماق تاريخ أمتهم ، يجلون ما غمض منه بمنهجية سليمة ، واستقراء دقيق لمصادر التاريخ العربى ، واعادة تقييم الحقب البارزة فيه ، والقاء المزيد من الضوء على الحقب التى ألقى عليها التاريخ بظلال كثيفة .

فى حلقات السمنار نصف الشهرية تلتقى بحوث من أساتذة مصريين وعرب وأجانب من مختلف الجامعات يدور حولها نقاش مثمر يشارك فيه الجيل الجديد من شباب الباحثين ، فيتم تبادل الخبرات ، ويتحقق التواصل بين أجيال الباحثين ، وتتسع الحلقات لتشمل بحوثا يلقيها شباب الباحثين ، يتناولها الحضور من الأساتذة المؤرخين بالنقد المثمر والحوار البناء الذى يثرى تلك البحوث ويفيد أصحابها ويعمق تجاربهم .

ولم يكتف السمنار بهذا ، بل حرص على أن يكون احتفاله بمرور خمس سنوات على تأسيسه بعقد ندوة يشارك فيها الباحثون العرب والأجانب حرس موضوع « مصر وعالم البحر المتوسط » فى ابريل ١٩٨٥ لقيت نجاحا ملحوظا ، ونشر الجزء الأول من البحوث التى أقيمت فيها فى كتاب صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر بالقاهرة عام ١٩٨٦ . وكان من بين توصيات تلك الندوة أن يعقد السمنار ندوات مماثلة كل عامين وأن يكون موضوع الندوة الثانية « العرب فى افريقيا » .

وكانت للتوصية مبرراتها التى لا تخلو من قيمة ، فالأمة العربية أكبر الأمم الافريقية على الاطلاق ، اذ يشكل العرب نحو ثلث سكان افريقيا ، وصنع العرب فى أوطانهم الافريقية حضارة شاع نورها فى مناطق كثيرة من القارة الافريقية ، حملها العرب معهم عبر الصحراء الكبرى الى غرب

أفريقيا حيث استطاعت الثقافة العربية والعقيدة الإسلامية أن تكسب مواعظ هامة في غرب القارة ، كما امتدت من مصر عبر وادي النيل الى قلب القارة ، ووسطع نورها في شرق القارة وامتد عبر وسطها الى حوض الكونغو على يد العرب الحضارمة والعمانيين ، وكانت اللغة العربية دائما من أقدم اللغات المكتوبة ذات الأدبيات الرفيعة في القارة الافريقية ، وظلت الثقافة العربية تحظى بمكان مرموق حتى قدوم الاستعمار الى القارة فبذلت جهود كبيرة من جانب القوى الاستعمارية لاستئصال شأفة الثقافة العربية في أفريقيا . وقطع أواصر العلاقات التاريخية العميقة بين الأمة العربية والأمم الافريقية ، وتشويه تاريخ العرب في أفريقيا .

كما أن العرب والأفارقة تجمعهم هموم مشتركة في عالمنا المعاصر ، فهم يواجهون معا مشكلات الأمن القومي والتنمية وبناء الدولة القومية وغيرها من مشكلات مرحلة ما بعد الاستقلال . وترتبط بين الاثنين مصالح مشتركة تخلق مجالا رحبا للتعاون بين الأمة العربية والأمم الافريقية ، وتتطلب ارساء هذا التعاون على أسس جديدة .

ورغم ذلك كله لم تمن الدراسات العربية الحديثة بأفريقيا عناية كافية ، ولم تنل تجربة العرب في أفريقيا الاهتمام الواجب من الجامعات ومعاهد البحوث العربية ، لذلك كان لابد أن يتصدى سمنار التاريخ بأداب القاهرة لسد جانب من هذا النقص المعيب بتخصيص ندوته الثانية لدراسة « العرب في أفريقيا » ، وتم — بعون الله وتوفيقه — عقد الندوة في المدة من ٤ — ٦ ابريل ١٩٨٧ ، وشارك فيها عدد كبير من المؤرخين وعلماء السياسة والاقتصاد من المعنيين بالعلاقات العربية — الافريقية سواء بتقديم البحوث أو المشاركة في المناقشات أو المساهمة في حلقات النقاش الثلاث التي وصلت الماضي بالحاضر ، وألقت الأضواء على الواقع المعاصر للعلاقات العربية الافريقية .

وكانت ثمار تلك الندوة هذه الباقة من البحوث التي تتشرف أسرة سمنار التاريخ بتقديمها اليوم الى القارئ العربي ، لعلها تسد فراغا ملحوظا في الدراسات العربية الافريقية .

وقد ختمت الندوة اعمالها باصدار التوصيات التالية :

١ — دعوة الجهات والمؤسسات المعنية بالتعاون العربى الافريقى والعلاقات العربية الافريقية الى تيسير سبل نشر الوثائق والبيانات والوصول اليها حتى تتاح للباحثين على مختلف أجيالهم .

٢ — مناشدة المجلس الأعلى للجامعات بتوجيه اقسام التاريخ بالجامعات المصرية الى الاهتمام بتاريخ أفريقيا من حيث تأكيد التراث المشترك بين العرب والأفارقة والمصير المشترك ، وتوجيه الدراسات العليا بالجامعات المصرية نحو اعداد جيل جديد من الباحثين المتخصصين فى الشؤون الافريقية .

٣ — الدعوة الى اعادة دراسة وتقييم الاسس والجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية وصولا الى ارساء العلاقات الراهنة على أسس متينة من الفهم المتبادل ، مع توضيح أبعاد القضايا المثارة على الساحتين العربية والافريقية .

٤ — دعم الدراسات الاكاديمية العربية — الافريقية من خلال عرض وتحليل وجهات النظر الافريقية والمشكلات التى تواجه البلاد العربية والافريقية فى واقعها المعاصر ، مع العمل على إبراز ونشر وجهات النظر العربية للرأى العام الافريقى بهدف الوصول الى أرضية مشتركة للفهم المتبادل .

٥ — الدعوة الى ارساء الخطوات القادمة من سبل ومستويات التعاون العربى — الافريقى على اساس المصالح المشتركة وارتباط الأمن العربى بالأمن الافريقى .

٦ — دعوة المنظمات القومية والاقليمية فى الوطن العربى والقارة الافريقية الى تبني ميثاق عربى أفريقى يهدف الى وقف الصراعات الاقليمية فى القارة لمدة زمنية يتفق عليها ، وتحديد استراتيجية مشتركة لتحرير الوطنى والتنمية .

واذا كانت الندوة قد حققت نجاحا ملحوظا فالفضل كل الفضل يرجع الى كل من ساهموا فى تحقيق هذا النجاح ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء ادارة

كلية الآداب بجامعة القاهرة وعلى رأسها الاستاذ الدكتور عبد العزيز حمودة
عميد الكلية الذى شمل الندوة برعايته الكريمة ، وخصص لها الاعتمادات
المالية اللازمة .

وما كنا لنحقق هذا النجاح لولا مساهمة بعض الأساتذة الأجلاء فى
معاونتنا على تنظيم الندوة وخاصة الاستاذ الكبير الدكتور عبد الملك عودة ،
والاستاذ الدكتور على الدين هلال مدير مركز الدراسات والبحوث السياسية
بجامعة القاهرة ، والاستاذ الدكتور جودة عبد الخالق استاذ الاقتصاد
بجامعة القاهرة ، والاستاذ الدكتور سلوى لبيب رئيس قسم النظم السياسية
والاقتصادية بمعهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ، والدكتور
أسامة الغزالى الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام .
فبفضل الآراء الحكيمة والعون الصادق الذى لقيناه من أولئك العلماء والاعلام
خرجت الندوة فى ثوب قشيب بإمكانات مادية محدودة ، فحققت النجاح
المرجو ، ولا نملك — باسم أسرة سمنار التاريخ — سوى تقديم أجزل الشكر
والعرفان بالفضل لهم جميعا .

كما حظيت الندوة بتعاون صادق من جانب الادارة الافريقية بوزارة
الخارجية المصرية وعلى رأسها السفير أحمد حجاج والوزير المفوض
محمد شلبيبة ، فالى سيادتهما نتوجه بالشكر الخالص والامتنان الصادق .

كما ننوه بما بذله شباب أسرة سمنار التاريخ من جهد كبير فى الاعداد
للندوة وتنظيمها بعطاء سخى وانكار للذات ، يبعثان الطمأنينة فى النفس
على مستقبل العمل العلمى فى هذا البلد الأمين .

والله والوطن العزيز من وراء القصد ..

القاهرة فى ٧ يونيو ١٩٨٧

د. رعوف عباس حاتم

مقرر سمنار التاريخ

كلية الآداب — جامعة القاهرة

تاريخ العرب في أفريقيا

سبيل للتقارب أم للتباعد

الدكتور
جمال زكريا قاسم

على الرغم مما حظى به التاريخ الإفريقي من دراسات هامة أسهم في أعدادها كثير من الباحثين إلا أن ما يؤخذ على معظم هذه الدراسات عدم توجيهها عناية كبيرة إلى وضع التاريخ الإفريقي في إطاره المنهجي السليم إذ كثيرا ما تأثرت مناهج أولئك الباحثين بأهدافهم المرتجاة عندها يتعرضون لأحد موضوعات ذلك التاريخ حيث يجمعون الحقائق التي تتناسب مع تلك الأهداف ويترجون جانباً ما يتعارض معها .

ولعلنا نلاحظ في تأملنا للدراسات التي عنت بتاريخ أفريقيا وجنات نظر متباينة فيما يتعلق بذلك التاريخ تبرز من بينها وجهة النظر الاستعمارية التي تبدو واضحة في كثير من المصادر التاريخية التي وضعت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن الحالي . ورغم القيمة العلمية الكبيرة التي حظيت بها تلك المصادر إلا أنها لم تخرج في غالبيتها عن دراسة استعمار وتقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية أو دراسة الانظمة الاستعمارية التي طبقتها تلك الدول في المناطق التي خضعت لها ، ولذلك فإن النقد الرئيسى الذى يوجه الى تلك المصادر يقوم على عدم اهتمامها بتاريخ أفريقيا قبل الفترة الاستعمارية بل وتجاهلها المتعمد في كثير من الأحيان لما كان يوجد في أفريقيا من ممالك عربية افريقية أو بأن ماواجهته القوى الاستعمارية من مقاومة كان دليلا على وجود القوى المنظمة في القارة الافريقية قبل مجيء الاستعمار الأوروبى .

والى جانب وجهة النظر الاستعمارية تبرز وجهة النظر الافريقية التى تتضح فى الكثير من الكتابات التى وضعت عن افريقيا خلال مرحلتى التحرر الوطنى والاستقلال وغالبيتها كانت تعنى بابرار الشخصية الافريقية ومحاولة تعميق انتمائها فى جذور التاريخ الافريقى ومع ذلك فقد تلاقت وجهة النظر الافريقية فى هذه المرحلة — من تلاحم حركات التحرر العربى الافريقى — مع وجهة النظر العربية حتى وصل الأمر فى مؤتمر اكرا عام ١٩٥٨ — وهو أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة — الى الدعوة لاعادة كتابة تاريخ افريقيا وتحمس كوامى نكروما رئيس جمهورية غانا بصفة خاصة لهذا الاتجاه — كما رصدت حكومته فى عام ١٩٦٢ الاعتمادات المالية لاصدار موسوعة افريقية خطت على أساس تصحيح المفهوم الشامل لافريقيا وجعلت من الثقافة العربية جزءا لا يتجزأ من تراث القارة الافريقية ثم تحولت فكرة الموسوعة الى كتابة تاريخ الشخصيات الافريقية البارزة بعد وفاة نكروما وعبد الناصر . غير أن تلك النظرة المتلاحمة بين العرب والافريقيين لم تلبث، أن حادت عن طريقها حيث بدأنا نطالع العديد من الأدبيات الافريقية المتأثرة بالنزعة الاستعمارية التى نجد فيها تشويها واضحا لتاريخ العرب فى افريقيا يضاف الى ذلك ما عمدت اليه كثير من الدراسات الاستعمارية الى استغلال سلبيات تاريخ العرب فى افريقيا بطريقة طفت على كل ايجابياته ولذا لم يكن من الغريب أن ينظر الافريقيون والعرب الى بعضهم البعض من خلال أمين استعمارية . وترتب على ذلك أن أصبح تاريخ العرب فى افريقيا عبئا على صانعى السياسة المحدثين وعلى دعاة التعاون العربى الافريقى بسبب ما ألقى فى طرقات ذلك التاريخ من شوائب استغفلت استغلالا متعمدا لفهم العلاقات بين العرب والأفارقة تلك العلاقات التى برزت بصفة خاصة خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات من ذلك القرن . ومن ثم كانت عنايتنا فى كثير من المؤتمرات والندوات العلمية التى أتاحت لنا فرصة المشاركة فيها خلال هذه الفترة والخاصة بالتعاون العربى الافريقى او بالعلاقات العربية الافريقية بصفة عامة الى التأكيد بأن أى قرار سياسى أو اقتصادى لن تكون له أدنى فاعلية ما لم يرتكز على قاعدة صلبة تجعل من التجربة التاريخية التى مر بها العرب والافريقيون مجالا للتفاهم فيما بينهم غير أننا لا نعنى بطبيعة الحال استغلال بعض الحقائق التاريخية وتجاهل بعضها وإبرازها جميعا بمنهج موضوعى تتضح فيه السلبيات فتعالج وتستبين فيه الايجابيات فتدعم

ولعل ما كان يدفعنا الى الالحاح فى تأكيد تلك الدعوة قناعتنا بأن تاريخ العرب فى افريقيا لم يوضع فى اطاره المنهجى السليم ولا يزال فى حاجة الى جهود مكثفة من الباحثين عربا وافارقة خاصة فى الوقت الذى تكالبت فيه قسوى 'الاستعمار الجديد وبعض بقايا الاستعمار القديم للنيل من التراث العربى الافريقى والذى وصل فيه الأمر الى حد توجيه العديد من الدراسات التى تستهدف فصم الروابط التاريخية بين العرب والافارقة . وفى مقابل ذلك قد تكون السنوات الأخيرة قد شهدت ظهور بعض الدراسات العربية التى حاولت تعميق الروابط العربية الافريقية وتأصيلها تاريخيا الا ان ما يؤخذ على كثير من هذه الدراسات التحيز الواضح للوجود العربى فى افريقيا والتركيز على جوانبه الايجابية فحسب بل تحمس بعض الدارسين لقوة التماسك العربى الافريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على استخدام مصطلحى عرب وافارقة فى القارة الافريقية على أساس أنه لا توجد افريقيا دون عرب كما أنه ليس للعرب وجود مستقل عن القارة الافريقية . واستند أولئك الدارسون فى تدعيم نظريتهم الخاصة بالتفاعل العربى الافريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على الشعوب الى الجريرة العربية ليس فى شرق افريقيا وحدها وانما فى غرب افريقيا أيضا كما ان اللغة العربية استخدمت كلفة ثقافية لدى كثير من الشعوب الافريقية وبذلك أمكن القول بتفاعل الرباطات اللغوية والثقافية والحضارية بين العرب والافارقة فضلا عن عدم وجود خصائص سلالية تفصل فيما بينهم وفيما يبدو أن جانباً من هذا الاتجاه كان فى ذهن منظمى هذه الندوة ولذلك عمدوا الى تغيير عنوانها الى العرب فى افريقيا بدلا من العرب وافريقيا وهى التسمية التى أعلن عنها قبل ذلك بعامين .

واذا سلمنا بالنماذج اللغوى والثقافى والى السلالى بين العرب والافارقة فان ذلك التسليم يكون فى حد ذاته كافيا لهدم النظرية التى تستهدف تقسيم افريقيا الى شمال الصحراء وجنوبها والتى تعتمد على انكار تلك الأسس جميعها ومع ذلك فاذا كان دعاة التقسيم يجدون مجالا للجدل فى عمليات التفاعل الحضارى والثقافى والى السلالى بين العرب والافارقة فان موقفهم سيتضاءل تماما اذا ما أخذنا بالمنظور السياسى الذى يتضح فى التداخل بين العالمين العربى والافريقى فهناك تسع دول عربية تقع فى القارة الافريقية

يجمع مواطنوها بين هويتهم العربية والافريقية أو اذا ما أخذنا بالمنظور الجغرافى حيث يسكن العرب الجزء الشمالى من الاراضى الافريقية وتبلغ مساحة مواطنهم فى تلك القارة أكبر من مساحتها فى آسيا ووصل تعدادهم فى افريقيا الى أكثر من ثلث سكانها وبالتالي فلا يوجد فى افريقيا كلها شعب يدانهم فى العدد أو يشغل من أرضها قدر ما يشغلونه . ولعل هذه الحقائق الجغرافية والسياسية والديموجرافية والحضارية تقف حائلا أمام دعاة الانفصال من يحرصون على فصم الروابط العربية الافريقية ولذلك لم يبق أمامهم سوى التذرع بالصحراء الكبرى باعتبارها فاصلا بين ما أسموه افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من الدراسات تسميات تدور حول ذلك التقسيم كالقول بـافريقيا البيضاء أو افريقيا العربية أو المتوسطية مقابل افريقيا السوداء أو افريقيا الزنجية وقد استخدم الفرنسيون بصفة خاصة تلك التسميات بينما شاعت فى كتابات الانجليز تسميات أخرى تهدف الى التركيز على أن المقصود بـافريقيا هى افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من من القارة الافريقية ! ومن المفارقات التى نوردها فى ذلك الصدد أيضا أن افريقيا جنوب الصحراء لم تسلم بدورها من التقسيم اذ يقتطع منها عدة جمهورية جنوب افريقيا التى يطلق عليها اسم افريقيا ذات السيادة البيضاء . وبالإضافة الى ذلك فكثيرا ما تبرز أمامنا مصطلحات عديدة تعتمد اللغة الأجنبية أساسا للتقسيم كالقول مثلا بـافريقيا الانجلوفرنسية أو افريقيا الغرانكوفونية وغيرها وقد ظهرت تلك المصطلحات نتيجة للاستقطابات الثقافية التى تمت خلال عملية الاحتواء الحضارى التى قامت بها الدول الأوروبية والتى كانت تستهدف عزل المثقفين الافريقيين عن افريقيا العربية بنفس قدر عزل المثقفين العرب عن الثقافات الافريقية . وعلى الرغم من تلك التقسيمات العديدة التى تظهر واضحة فى كثير من الدراسات الا أن الحقائق التاريخية تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك أن الصحراء الكبرى كانت وسيلة للترباط ولم تكن وسيلة للانفصال فى كثير من عصور التاريخ . ولعل مما يستلفت الانتباه أن معظم الدراسات التاريخية بما فى ذلك الدراسات الأجنبية قد أكدت على وحدة القارة الافريقية وذلك قبل أن تظهر فكرة تقسيم القارة بعد الحرب العالمية الثانية فقد عنى ساجمان فى عشرينيات ذلك القرن بتتبع الصلات الحضارية بين مصر الفرعونية وافريقيا جنوب الصحراء

وتبعه كثير من الدارسين الذين اهتموا بابرار تأثير الحضارة المصرية فى الحضارات التى ظهرت فى غرب افريقيا كما دلل بدفيل بالحقائق التاريخية والجغرافية على أن الصحراء الكبرى كانت عاملا هاما من عوامل الاتصال ولم تكن عاملا من عوامل الانفصال واستند فى ذلك على ما يتخللها من مسالك ومفاوز ودروب استخدمتها القوافل العربية التى نشطت فى تحركاتها من الشمال الافريقى الى ما وراء الصحراء الكبرى . على أن هذه النظرة التى وثقت الصلات بين افريقيا الشمالية وافريقيا جنوب الصحراء لم تلبث أن تضاءلت بعد الحرب العالمية الثانية واتجهت اتجاها معاكسا وكان ذلك رد فعل لما حدث من تلاحم بين حركات التحرر الوطنى والاستقلال فى العالمين العربى والافريقى فعلى سبيل المثال رفضت جامعة السوربون فى أوائل الخمسينات رسالة تقدم بها استاذ سنغالى يدعى انتاديوب للحصول على درجة علمية ذهب فيها الى أن حضارة مصر القديمة انما هى حضارة افريقية صميمة وجاء فى رسالته أيضا ان لغة الولوف فى السنغال لغة وثيقة الصلة باللغة المصرية القديمة . كما ظهرت انتقادات شديدة لما ذهب اليه قس نيجيرى يدعى لوكاس من وجود ألفاظ مصرية قديمة فى ديانة شعب اليوروبا على الرغم مما ذهب اليه للتدليل على صحة رأيه بايراد معجم للألفاظ المصرية التى لا تزال متداولة الى اليوم بين شعب اليوروبا . واذا كان هناك ثمة جدل كبير حول الصلات القديمة بين شمال الصحراء وجنوبها فان ذلك الجدل سوف ينهار حتما بعد تأسيس مدينة القيروان فى منتصف القرن الأول الهجرى لما سيطرت على ظهورها تعميق الصلات الاقتصادية والثقافية بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء . وعلى الرغم من ذلك فان دعاة التقسيم يتجاهلون الحقائق التاريخية بل أنهم قد يقعون فى تناقض صارخ حين يدعون أن افريقيا المتوسطة لم تقم بدور يذكر فى تاريخ القارة الافريقية باستثناء الجهود التى قامت بها بعض شعوب البحر المتوسط فى حركة الاستكشافات البحرية الكبرى وواضح أن تلك المقولة قد تجاهلت عن عمد ما قام به الشمال الافريقى من نقل المؤثرات العربية والاسلامية الثقافية والحضارية عبر الصحراء الكبرى الى غرب القارة الافريقية ودواخلها . وهناك من الدراسات التى حرصت أيضا على ايجاد انطباع فى ذهن قارئها عن سلبية الاتصالات بين العرب والأمازيغة ومن ثم بالغت فى ترويج ما اسسته بالتجارة الصامتة Silent Trade التى كانت تقوم بين شمال الصحراء وما ورائها حيث خصصت لدعم تلك النظرية دراسات كثيرة .

وعلى الرغم من ضرورة التصدي لتلك الدعاوى الانفصالية إلا أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أن المنهج الموضوعي لا يفترض بطبيعة الحال أن تعالج إفريقيا كوحدة تاريخية على إطلاقها كما لا يعترض في نفس الوقت على تقسيم إفريقيا ولكن بشرط أن يستفاد من ذلك التقسيم في استخراج الأنماط الحضارية أو التاريخية أو الاقتصادية وبشرط ألا يكون من وراء ذلك التقسيم هدف يرمي إلى تمزيق القارة أو إضعاف الروابط بين أجزائها أو محاولات متعمدة لفصل العرب عن بقية القارة الإفريقية .

ولعل مما يستلفت الانتباه أن فكرة تقسيم القارة وإن كانت قد ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية كما سبق أن أوضحنا إلا أنه لم يلبث أن عاد التركيز عليها خلال العقد الأخير وكان ذلك رد فعل لسقوط الدعاوى الانفصالية على المستويات التاريخية والجغرافية والسياسية بعد أن أصرت دول القارة الإفريقية على التعامل فيما بينها على مستوى وحدة القارة وظهر ذلك واضحا في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية في عام ١٩٦٣ كما برز أيضا على المستوى الأكاديمي الدولي حين تبنت هيئة اليونسكو في عام ١٩٦٤ مشروعا لإعادة كتابة تاريخ إفريقيا ركز في خطته على ضرورة النظر إلى إفريقيا ككل وتجنب التمييز بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء . ومما هو جدير بالاهتمام أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان لها أثر كبير فيما يتعلق بتوثيق الروابط العربية الإفريقية حيث عبرت إفريقيا الصحراء نحو الشمال لتتداخل وتتلاحم مصيريا مع العرب وبالتالي اختفت الصحراء كفاصل أو كعازل سياسي بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء ولذلك حين برز التعاون العربي الإفريقي في أعقاب تلك الحرب وخلال حقبة السبعينيات كان من الطبيعي أن يستغل أعداء ذلك التعاون الدعاوى الانفصالية للتشكيك في الروابط العربية الإفريقية حتى أن فلسفة الزنجية لم تلبث بدورها أن حادت عن طريقها فبعد أن كانت طريقا للاتحاد ضد الاستعمار والأمريالية تحولت إلى دعوى للتقسيم والفرقة لخدمة المصالح الاستعمارية بعد أن وقع كثير من دعائها تحت تأثير كتاب الغرب الذين روجوا مقولة جاء فيها أن تجارة العرب في الرقيق كانت المعول الذي عدم إفريقيا السوداء وهكذا انتزعت الزنجية عن مسارها فبينما كانت في نشأتها تعد ثلاثينيات ذلك القرن ردة فعل إفريقية ضد الاستعمار الأوربي وتجارة الرقيق الأطلنطية أصبحت ردة

فهل لتجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهندي بل أصبحت ردة فعل للوجود العربى فى افريقيا ولم تعد نظرة الافريقيين للعرب أكثر من كونهم عناصر أجنبية وفدت على افريقيا وأن العرب المسلمين لبس شأنهم أكثر من شأن الأوروبيين المسيحيين بل أن صورة العرب والاسلام أصبحت أكثر ارتباطا فى ذهن الافريقى بصورة العبودية والاستغلال وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فقد وجهت الأدبيات الزنجية الانتقادات اللاذعة لمسئولية العرب عن المصير التاريخى السيء الذى وصلت اليه القارة الافريقية او بمعنى أوضح مسئولية التجريد السياسى والاقتصادى لامبراطوريات افريقية كبيرة . وقد يكون حقيقة أن تلك المواقف السلبية لا تعكس كل الضمير الافريقى ازاء العرب الا أنه لا ينبغى فى نفس الوقت اهمال ردود أفعال الصنوة الافريقية ضد كافة أشكال الهيمنة السياسية وكافة عمليات الاستيعاب الثقافى التى تعرضت لها القارة الافريقية حتى أنها تعتبر الاستعمار الأوربى وما تطلق عليه (الغزو العربى) وجهان لعملة واحدة .

ومع ذلك فليس مجالنا فى هذه الورقة الإشارة الى مختلف التجارب الطيبة أو المؤسفة التى عاشتها الشعوب الافريقية خلال اتصالاتها بالعرب أو المسلمين على مر الترون ولكننا سنقتصر فى هذا المجال على ابراز بعض أوجه المقارنة بين العلاقات العربية الافريقية والعلاقات الأوربية الافريقية فبينما تكشف لنا الدراسات التاريخية المتأنية للعلاقات العربية الافريقية عن ظهور حضارة عربية افريقية واضحة المعالم تؤكد لنا الحقائق التاريخية بما اتسمت به العلاقات الأوربية الافريقية من شتى انواع الاستغلال المادى والبشرى .

وعلى الرغم من أننا لا نتمشى مع كثير من الدراسات العربية التى بالفت فى عروبة الكينونات التى اقامها العرب فى افريقيا وخاصة فى ساحل الشرق فى الفترة السابقة للعصر الاستعمارى الا أن الأمر الذى لا شك فيه أن القارة الافريقية شهدت ازدهارا حضاريا فى الفترة التى سبقت اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وسيطرتهم على سواحل شرق افريقيا وترتب على الاستعمار البرتغالى شيوع التخلف والركود الاقتصادى فى القارة الافريقية ولعل مما يسترعى الانتباه أن حالة التخلف والركود التى تعرضت لها القارة الافريقية كانت انعكاسا لما حدث فى

المنطقة العربية ذاتها بفعل ذلك المؤثر نفسه ونعنى به الاستعمار البرتغالى ولعل هذه الملاحظة يمكن أن نجد لها ما يدعمها بعد ذلك فى القرن التاسع عشر حين نجد أن حركات اليقظة التى حدثت فى العالم العربى قد أحدثت انعكاساتها على بعض المناطق الافريقية وهكذا يمكن القول بصفة عامة ان المصير التاريخى بين العالم العربى والافريقى وصل فى كثير من الأحيان الى درجة التطابق الذى بلغ أكثر وضوحا حين تكالبت القوى الاستعمارية والامبريالية على العالمين العربى والافريقى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كما يمكننا ايضا ملاحظة التلاحم العربى الافريقى فى المواجهة التى قامت ضد الاستعمار البرتغالى لشرق افريقيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وضد القوى الامبريالية فى كثير من الأقطار الافريقية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولعل ذلك التلاحم يوضح لنا الدواعى التى دفعت بالقوى الامبريالية الى ادراك أهمية تفكيك الروابط بين الفريقين وهو أمر بدى واضحا فى تفكيك بريطانيا والمانيا للسلطنة العربية الافريقية فى زنجبار وفيما اتجهت اليه القوى الاستعمارية وبخاصة بريطانيا لتجريد مصر من المناطق التى امتدت اليها فى القارة الافريقية وعلى الرغم من الدور الحضارى الذى قامت به كل من مصر وزنجبار فى المناطق التى امتدت اليها حتى أن دولة الكونغو الحرة على سبيل المثال قد اعتمدت فى بناء هيكلها الاقتصادى على التنظيمات الاقتصادية التى أقامها التجار العرب فى أعالي الكونغو بعد ان عصفت بالوجود العربى فى تلك الانحاء الا ان الكتابات الاستعمارية تحاملت على دور العرب الحضارى والاقتصادى باعتباره نمطا استعماريا قامت به القوى العربية ضد الشعوب الافريقية ولا نجد أمامنا ابلغ رد على تلك الاتهامات أكثر مما ذكره جرينفيل وزير الدولة فى حكومة بانريس لوممبا الذى كتب يتول « لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الكونغو فليست مدينة ستانلى فيل سوى مدينة تيبوتيب التى أقامها ذلك التساجر العربى قبل قدوم الرحالة ستانلى وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق وانما هم تلك الموجة الانسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة وليس أعز علينا شىء سوى هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى كما سال وسال دمننا الآن فى بلادنا على أيدي نفس أعداء العرب فى القرن الماضى » وند تصل الخطورة بالنسبة لمصر الى محاولة بعض المصادر تبرير التوسيع

المصرى فى افريقيا باعتبار أن مصر فى توسعها هذا لم تكن مسئولة تاريخيا بسبب خضوعها للحكم التركى وهو تبرير خطير فى تقديرنا لأن الأخذ به ممانه التجاهل التام لمسئولية مصر الحضارية فى القارة الافريقية .

ولا تكفى المصادر الاستعمارية بالتركيز على ما اسمته بالغزو العربى لافريقيا فى القرن التاسع عشر بل ينسحب ذلك أيضا على علاقة العرب بالقارة الافريقية فى الفترة السابقة للاستعمار الأوروبى وتهدف هذه المصادر للوصول الى نتيجة مؤداها أن العرب والمسلمين دخلاء على افريقيا وعلى ذلك فليس هناك فرق بين (استعمار عربى) واستعمار غربى الا أن الأخير جاء بمدنية متفوقة وحضارة متقدمة ولعل من اليسير الرد على هذه المقولات أنه بينما كانت الحضارة العربية مصدر اشعاع فكرى للشعوب الافريقية التى احتكت بها فان النهضة الأوربية الحديثة قامت على اضعاف المقومات الافريقية ويكفى تدليلا على ذلك بتلك الملايين من الافارقة الذين انتزعوا من بلادهم للعمل فى مزارع العالم الجديد خلال الفترة من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . ومع ذلك فان المصادر الاستعمارية تنفوضى عن تلك الحقائق وتركز على دور أوربا فى تحضير القارة الافريقية واكتشافها برغم أن أوربا لم تستطع أن تصل الى دواخل القارة الا باعتمادها على سجلات العرب ومدوناتهم والكثير من تلك المصنفات ترجم الى اللغات الأوروبية المختلفة كما اعترف رواد حركة الكشف والارتياح الأوروبى بالدور الرائد الذى قام به العرب فى التعرف على الأجزاء الداخلية من افريقيا ولم يجرؤ واحد من أولئك المستكشفين على التوغل فى القارة الافريقية الا بالاعتماد على طرق القوافل العربية وعلى المراكز التجارية والحضرية التى أنشأها العرب على طول خطوط القوافل كما استعان كثير منهم بأغوا بالادلاء العرب فى عملياتهم الاستكشافية التى لم تكن فى حقيقتها كشفا وانما تسجيلا علميا لمناطق كانت معروفة — بطبيعة الحال — لدى سكانها من العرب والافريقيين . وليس من شك فى أن الدراسة الموضوعية تستلزم بسهولة أن تدفع جانبا مما تعطيه المصادر الاستعمارية من انطباع مؤداه أن النشاط العربى فى افريقيا كان بمثابة غزو استعمارى يستهدف فى الدرجة الاولى عمليات التسلط والاستغلال ولا تزال تلك المقولات تستخدم حتى الوقت الحاضر ضمن الجهود الرامية الى فصم الروابط العربية الافريقية (م ٢ — العرب فى افريقيا)

كالدعوى على سبيل المثال أن العرب يمثلون استعماراً جديداً في إفريقيا أو أن هدفهم لا يزال كما كان عليه الحال قديماً وهو نشر الإسلام ومحاربة الأديان الأخرى بل قد يصل الأمر إلى تشكيك القيادات الإفريقية المسيحية وخاصة في الدول الإفريقية التي تسكنها مجموعات إسلامية كبيرة العدد ولعل ما يدحض تلك المقولات تشابه المصير العربي مع المصير الإفريقي خاصة فيما يتعلق بالسمات المشتركة في نضال العرب والإفريقيين لمواجهة قوى الاستعمار القديم والجديد وحاجة كل فريق إلى دعم ومساندة الفريق الآخر سياسياً واقتصادياً ولعل مما ينفي فكرة الاستعمار عن العرب أنه لم تكن لديهم في حقيقة الأمر تلك النظرة في علاقتهم بالشعوب الإفريقية التي اختلطوا بها فعلى امتداد عدة قرون من تاريخ العرب في إفريقيا امتزجت الثقافة العربية بالثقافات المتعددة للشعوب الإفريقية أو فيما يطلق عليه علماء الاجتماع التداخل الحضاري بين الثقافات المتعددة *Acculturation* وهو أمر أسفر عن ظهور ثقافة عربية إفريقية واضحة المعالم بعد أن وجدت كثير من الشعوب الإفريقية في ذلك المزيج المركب أساساً لبناء مستقبلها السياسي والاجتماعي هذا فضلاً عن توغل العرب واندماجهم في الشعوب الإفريقية وما ترتب على ذلك من ظهور جنس يجمع الكثير من الصفات العربية والإفريقية بل أن اللغات الإفريقية نفسها أصبحت تجمع في مفرداتها وتراكيبها بين العربية والإفريقية كما نشأت حضارة عربية إسلامية لها لمابع إفريقي وكان لأثر هذه المشاركة جانب إيجابي وهو ذلك الميراث الثقافي والديني الذي منحه العرب للأفارقة وامتزاجه مع ما كان قد تهيأ لهم من حضارة وثقافة خاصة بهم على امتداد التاريخ . وقد يكون من المفيد في سائر المجال التركيز على أن العرب لم يفرضوا على الإفريقيين ثقافتهم كما فعل المستعمرون وإنما حافظوا على الثقافات الإفريقية كما لم يقم العرب بهدم المؤسسات المحلية عند دخولهم بل أن تلك المؤسسات اتخذت أشكالاً جديدة وبدأ السكان الأصليون في تكيف أنفسهم على التعاليم الجديدة وطبقوا ما يذكره بعض الدارسين أن ما حدث في الحقيقة هو أنه عندما تقابل العربي مع الإفريقي في موطنه حدث اندماج صحي وليس نوعاً من الإمتصاص أو القمع التعسفي غير المناسب ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة بقاء اللغات واللهجات الإفريقية إلى جانب اللغة العربية التي احتفظت بمركزها كلفة لثقافة والتعامل ولا ينفي ذلك أن كثيراً من المفردات العربية دخلت اللغات

واللهجات الافريقية او أن هذه اللغات قد دونت بالحرف العربى فان هذا التداخل انما يتضمن دليلا على التفاعل والامتزاج الثقافى وفى ذلك الصدد يؤكد بومان وزميله وشرمان فى كتابهما افريقيا وحضاراتها التدوين بالكتابة العربية بعد دليلا على الذكاء الفطرى والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء فى القارة الافريقية بل أن اللغة العربية فى عملية التمازج هذه لم تجد بدا من أن تقنّبس بعض المفردات من تلك اللغات ولم يكن قيام الافريقيين بتدوين عدد من لغاتهم المحلية بالابجدية العربية الماثرة الوحيدة التى خلفوها لنا فى الفترة السابقة للاستعمار كما لم تكن النتيجة الوحيدة التى أسفرت عن وضوح المؤثرات العربية بل شارك الافريقيون فى الدراسات العربية الاسلامية وازدهرت مواطن كثيرة لها فى بلادهم ونبغ من الأفارقة الكثيرون فى الفقه والأدب والتاريخ ومختلف العلوم الاسلامية ويؤكد لنا ذلك آلاف المخطوطات التى نقل الأوروبيون الكثير منها الى مكتبات بلادهم ولعل مما تجدر الاشادة اليه بصدد ذلك أن هناك شعوب كثيرة قد أسهمت فى بناء صرح الثقافة العربية الاسلامية وكان للشعوب الافريقية دور فى ذلك أيضا وقد تكون اضافاتهم دون اضافات غيرهم ولكن هذا القصور يرجع فى تقديرنا الى أن الثقافة العربية وصلتهم متأخرا ومن ثم اقتصر دورهم فى المحافظة عليها والعمل على نشرها فى الوقت الذى كانت تواجه فيه خطر التدهور والانحسار منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ومما يسترعى الانتباه أيضا أن العرب تفاعلوا ثقافيا وسلاليا مع الأفارقة وتم ذلك التفاعل عن تراض واقتناع اذ لم يعرف عن العرب ممارسة العنصرية أو كراهيتهم أو اضطهادهم للافريقيين وذلك على عكس المستعمرين الأوروبيين الذين عملوا على فرض ثقافتهم ولغتهم على الافريقيين ولم يندمجوا معهم وانما على العكس من ذلك كونوا مجتمعات بيضاء متعالية تمزّل الافريقيين وتحول بينهم وبين ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية كما يظهر ذلك واضحا فى جنوب افريقية وكنيا وروديسيا وغيرها . وينبغى الإشارة هنا أيضا الى أن الاستعمار الأوروبى وجد فى الثقافة العربية والاسلامية أكبر معوق له لنشر نفوذه فى القارة الافريقية ولعل ذلك مما دفع بانجلترا الى فصل جنوب السودان عن شماله وكذلك ما عمدت اليه فرنسا من اتخاذ أساليب التعليم والتبشير أدوات لنسف جسور العروبة والاسلام فى المناطق التى آلت اليها فى شمال وغرب افريقيا وأكثر من ذلك عمد كثير من الباحثين الاوروبيين فى فروع

الانثروبولوجيا والاستشراق والاستغراق الى دراسة المجتمعات الافريقية. توطئة لخدمة الأهداف الاستعمارية متخذين من التبشير والتفريب والتحديث عوامل لفصل شخصية الافريقيين عن ماضيهم وتراثهم تمهيدا لاستغلالهم ماديا وبشريا والهيمنة عليهم سياسيا وفكريا وقد يكون حقيقة أن جهود أوبنك العلماء والذى يبرز من بينهم ليفى بروفنسال ورينيه باسيه وهويداس وترمنجهام وغيرهم كثيرون قد أدت خدمة للشعوب الافريقية وذلك بما أحتيت ما اندرس من التراث الافريقى وبما تم تجميعه وتدوينه من تراث متناقل إلا أنه مع ذلك لا ينبغي أن تبعدنا تلك الانجازات عما استهدفه من مسخ الثقافة الافريقية وتشويه معالمها بالاضافة الى ما تعهدته من تشويه تاريخ العرب والاسلام فى افريقيا ومن ذلك مثلا ما عمدت اليه بعض المصادر من التاكيد بأن الأثنى عشر قرنا من الصلات بين العرب والأفارقة كانت غير متماثلة اذ اخترق العرب افريقيا جنوب الصحراء واستعبدوا سكانها وفرضوا دينهم وثقافتهم فى الوقت الذى لم يقم فيه الأفارقة باختراق مضاد للمنطقة العربية وكذلك الحال بالنسبة لشرق أفريقيا التى سيطر عليها العرب وأنشأوا بها عدة مستعمرات عربية وذلك على نحو ما ذهب اليه السير ريجنالد كوبلاند فى كتابه الذى أطلق عليه شرق افريقيا وغزاتها حيث اعتبر العرب عنصرا من العناصر الفازية أو المستعمرة ولعل ذلك مما دفع بعض المهتمين بالعلاقات العربية الانثريكية الى محاولة تعديل تلك الصورة بالدعوة الى التركيز على دور الأفارقة فى العالم العربى سواء بعلاقتهم بالجزيرة العربية قبل الاسلام أو بتاريخ الزواج فى البلاد العربية واستخدامهم فى الجيش العباسى والثورات التى قاموا بها والتى تبرز من بينها ثورة الزنج بين عامى ٨٦٩ و ٨٧١ والتى نجحوا بها فى السيطرة على البصرة وجنوب العراق عدة سنوات .

على أن الأمور الأشد خطورة ما تهدف اليه الدعاوى الاستعمارية من خلق انطباع لدى الأفارقة بأن الاسلام انتشر بينهم بحد السيف وواضح أن تلك الدعاوى كانت تستهدف فى الدرجة الأولى الى التمهيد لدور المستعمر وذلك بترسيخ القناعات التاريخية لدى الافريقيين بأن المجتمعات الافريقية مجتمعات مستكنة خاضعة والحقيقة أن الاسلام انتشر فى افريقيا بصورة عامة انتشارا سلميا وحدث ذلك عن طريق التجار سواء من العرب أو البربر

ولم يلبث أن تولى نشر الاسلام الافريقيون انفسهم وفضلا عن ذلك فان الاسلام لم ينتشر فى طبقة اجتماعية واحدة وانما جاء انتشاره شاملا لكل طبقات المجتمع بمعنى أنه لم يكن دينا للطبقة المسيطرة وبالتالى يبقى بيتائها ويذهب بذهابها وبالإضافة الى ذلك تذهب المصادر الاستعمارية ومن حذا حذوها الى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب والمسلمين هم الذين خربوا عمران افريقيا ودولها ومن الأمثلة التى تساق دائما بصدد ذلك اجتياح المرابطين لدولة غانا ١٠٦٧ م وغزو السعديين لدولة الاسكس بسنغاي فى عام ١٥٩١ م والحقيقة التى لا مرأى فيها أن الاسلام كان قد امتشر فى غانا انتشارا سلميا قبل أن يجتاحها المرابطون ويؤكد ذلك أن المؤثرات الثقافية العربية والاسلامية كانت واضحة فى مملكة غانا الوثنية قبل سقوطها اذ كان فى عاصمتها كمبى كما يروى لنا البكرى أحياء ومساجد خاصة بالمسلمين حيث اعتاد التجار من الشمال الافريقى أن يجتمعوا فى تلك الأحياء بل وتشير بعض المصادر العربية الى أن التجار العرب أخذوا يحتلون مراكز عليا فى مملكة غانا كالوزراء والكتاب . أما ما تركز عليه بعض الدراسات من اعتبار غزوة المنصور الذهبى لمملكة سنغاي السبب فى تدهور أوضاع غرب افريقيا حضاريا واقتصاديا فان تلك الأوضاع كانت قد تدهورت بالفعل قبل حدوث تلك الغزوة وذلك بسبب ما نجم عن اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح من تدهور الأوضاع الاقتصادية فى منطقة البحر المتوسط . ومن ثم فقدت منطقة غرب افريقيا ما كانت تعتمد عليه من مقومات اقتصادية وثقافية كانت تفد اليها من الشمال وبذلك لم تكن الغزو المغربية الا بمثابة اسدال الستار على تلك الحقيقة المزدهرة التى عاشتها المنطقة من قبل . وقد يكون من المناسب أن أشير هنا الى ما واجهته شخصيا من اعتراضات أحد الأساتذة الافريقيين الذين وضع تأثرهم بالمنهج الاستعماري أو الشيفونية الافريقية على بعض الآراء التى أولعت بها فيما يتعلق ببعض تلك الموضوعات فى حلقة دراسية عقدت بداكار فى عام ١٩٨٤ وكانت خاصة بدراسة العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية حيث أصر على أن انتشار الاسلام فى افريقيا كان فيه القضاء على التطور الطبيعى للاديان الافريقية التقليدية وأفقد الافريقيين شخصيتهم وفضلا عن ذلك فقد قضى المسلمون على الكثير من الممالك الافريقية التى كان من الممكن لها أن تتطور تطورا طبيعيا وقد يكون حقيقة أن انتشار الاسلام فى افريقيا قد قضى بالفعل على كثير من الاديانات

الطبيعية ولكنه مهد فى نفس الوقت لظهور ديانة عالمية اعطت للانفارقة الكثير وقد يكون حقيقة أيضا أن المسلمين قضاوا على بعض الممالك الافريقية كما حدث فى اسقاط مملكة غانا الوثنية ولكن ذلك مهد الطريق لظهور ممالك اسلامية افريقية كانت أكثر حضارة وثراء من مملكة غانا اذ أنه رغم ما وصلت اليه تلك المملكة من ثراء ومن درجة عالية من التنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى والعمرانى الا انها لم تتعدى مع ذلك نطاق الاقليمية الضيقة والقبلية المحدودة ومن ثم كان لحركة المرابطين رغم ما صاحبها من عنف اثر كبير فى تقريب منطقة غرب افريقيا الى منطقة البحر المتوسط لى تتأثر بها ثقافيا واقتصاديا وحضاريا كما أن الغزوة المغربية على سنغى لم تكن فى تقديرنا سوى محاولة بائسة لتوحيد القوى العربية والافريقية لمواجهة التحديات التى كانت متمثلة فى ذلك الوقت فى الضغوط الاسبانية والبرتغالية وذلك بالاستعانة بالموارد الافريقية فى تقوية الجهة العربية الافريقية ولا يحى ذلك اغفالنا الاثار السلبية التى ترتبت على تلك الغزوة من الفوضى والاضطراب وعزل المنطقة عن الشمال افريقى .

ولعل من أكثر الأمور اثارة ما تعتمد اليه بعض الدراسات الاستعمارية من ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب هم الذين استعبدوا اجدادهم وقد اشتدت تلك الحملات ضد العرب فى السنوات الأخيرة فى الصحانة ووسائل الاعلام والأجهزة التى تسمل لحساب الشركات الاستغلالية بهدف النيل من التعاون العربى الافريقى ومن الأسف أن الباحثين العرب والأفارقة لم يتصدوا بجدية لتلك الحملات اذ لم تظهر دراسات موضوعية — عربية أو افريقية — تواجه تلك الاتهامات بل أصبحنا نجد من بين المثقفين العرب أو دعاة الزنجية من الأفارقة من أصبح يردد تلك المقولات كأن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم من البشر ولعله من نافله القول الاشارة هنا الى أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق فى أفريقيا أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة الافريقية خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى الى اضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الامبريالية فى السيطرة عليها وذا كانت الحقائق التاريخية تؤكد لنا أن كلا من العرب والاوروبيين عملوا فى تجارة الرقيق فان التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة الرقيق وفى مسؤولية نزع تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية لتعمل فى أرض الغربة على

اننا لا نعننى بذلك التساؤل أن نقف موقفا تبريريا أو اعتذاريا فيما يتعلق بتجارة العرب فى الرقيق وانما معنى فى الدرجة الأولى ارجاع الأمور الى ظواهرها وأصولها الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن ملامستها التاريخية مع تسليمنا فى الوقت نفسه أن الاسترقاق هو الاسترقاق سواء صغر أم كبر حجمه وسواء حسنت أم ساءت أساليبه وان كان ذلك لا يمنعنا فى نفس الوقت من دحض ما روجته المصادر الاستعمارية من أن القطاع الجغرافى من العالم القديم كان بمثابة سوق كبير يحتاج الى أعداد ضخمة من الرقيق إذ أن هذه المصادر فى تقديرنا لم تفرق بين الرق فى العالم العربى والعالم الغربى فعلى حين اتخذ الأوروبيون والأمريكيون من الرق نظاما اقتصاديا فانه كان بشكل عند العرب على الأغلب نظاما اجتماعيا كما أنه ليس حقيقيا ما ذهبت اليه بعض الدراسات الاستعمارية من أن تجارة الرقيق كانت هى السمة التى اتصف بها النشاط الاقتصادى للعرب إذ أن سوق الرقيق فى العالم العربى كان محدودا وسهل التشبع اذا ما قورن بسوق لرقيق الغربى وفضلا عن ذلك فان الرجوع الى المصنفات العربية التى كتبت عن افريقيا يمكن بسهولة أن نتعرف على المنتجات الافريقية التى كان يقوم العرب بالاشتغال بها أو بالمبادلة عليها غير الرقيق وفضلا عن ذلك فقد تعتمدت المصادر الاستعمارية التركيز على الجوانب السلبية فيما يتعلق بالثب. ائل التجارى بين العرب والافريقيين إذ أن مجيء السنن الشراعية من سواحل الخليج والجزيرة العربية الى سواحل شرق افريقيا لم يكن يجلب التجار والنحاسين فحسب وانما كان يجلب الرخاء الاقتصادى والازدهار الحضارى الذى ظهر فى تأسيس العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية الافريقية على طول السواحل الشرقية الافريقية وهى التى أشاد بها الرحالة المسمون والتى دهش لها البرتغاليون أنفسهم حين وفدوا الى تلك السواحل . كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء الكبرى نشوء العديد من الممالك والحواضر الاسلامية كشنقيط وتمبكتو وغانا ومالى وسنقى وكاثم وبرنو وغيرها . وبينما كانت تجارة الرقيق العربية تقوم على جهود فردية فان تجارة الرقيق الأوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التى ضيقت الخناق على القارة وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الاسود الذى اجتاحت أوروبا فى القرن الرابع عشر الميلادى ففضى على ما يقرب من ثلث سكانها بل كانت تلك التجارة أسوأ لأن نتائجها

الاجتماعية ورواسبها النفسية كانت أقسى من ذلك الوباء الاسود الذى انقضى وانقضت معه آثاره . ولعل ما تجدر الإشارة اليه فى هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا قد استغلت تجارة العرب فى الرقيق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لى تتغلغل استعماريا فى القارة الافريقية بدعوى القضاء على تلك التجارة فى مصادرها الداخلية ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يهولون من تجارة العرب فى الرقيق بهدف إثارة الرأى العام الأوروبى وكان من نتيجة ذلك أن مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى عقد أساسا لتقسيم القارة الافريقية بين الدول الاستعمارية قد أشار فى ميثاقه الى مسؤولية الدول الأوروبية فى حل رسالة الحضارة الى أفريقيا واثنى على جهود جمعيات التبشير والغاء الرق وان كانت الحقيقة التى لا مرأى فيها أن المستعمرين ابطلوا الرق الفردى لى يستبدلوا به رقا جماعيا اذ أن استغلال الافريقيين فى المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الاجبارى كان هو الاسترقاق بعينه وليست وقائع ارباب المطاط الأحمر عند بداية الاستعمار البلجيكى للكونغو بخافية عن أذهان الكثير من الباحثين ولعل ذلك مما دفع بعض المنصفين منهم نذكر من بينهم بازل واغيدسون الى وصف ذلك الخطر الاستغلالى باعتباره رقا حديثا وبذلك لم تكن الأساليب الاستعمارية لتختلف عن الرق التتليدى الا فى وسائلها وان كانت أشد منها استغلالا وقسوة .

نستخلص مما سبق أن الدراسات الاستعمارية أو الافريقية المتأثرة بالمنهج الاستعمارى أو المخالية فى نزعتها القومية كرسست مفاهيمها وتصوراتها ومناهجها للتباعد بين العرب والأفارقة وجعلت ذلك التباعد يرتكز على رواسب نفسية حشدت لها ما يدعمها من الأدلة التاريخية التى استمدتها من الصورة المشوهة التى رسمها المستعمر عن تاريخ العرب فى افريقيا وقد عمدت تلك الدراسات التى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأهمية الوجود الاستعمارى كما اتجهت الى التقليل من أهمية التراث العربى فى افريقية واستبدلته بالروايات الشفهية المتناقلة على نحو ما ذهب اليه كل من بول مارثى ودى لافوس فى غرب افريقيا . وعلى الرغم مما كان متوقعا أن تتغير تلك المفاهيم مع زوال المستعمر وبالتالي تتوثق الروابط بين العرب والأفارقة اذ بنا فاجأ بأن التباعد يزداد اتساعا اذ أنه مع استقلال الدول الافريقية حلت النخبة التى ارتبطت اقتصاديا وثقافيا بالاستعمار الجديد محافظت على سياسة

الاستعمار القديم فى أزياء من الوطنية الضيقة بل أصبحنا نجد من بعض الأفارقة من يقف موقفا متباعدا من العرب حيث تعرض هؤلاء لتأثيرات ثقافية بلغت من قوتها درجة كادت تطمس معها المؤثرات الثقافية العربية والإسلامية وكان ذلك حصادا لجهود المبشرين فى التنشئة السياسية والتعليمية لأجيال من الأفارقة الذين أشربوا كراهية الإسلام والثقافة العربية ولذلك فإن الأمر يقتضى فى تقديرنا إعادة دراسة الحقبة الاستعمارية ومراجعة بعض المفاهيم السائدة التى أصبح يرددها كثير من الباحثين عن دور المستعمر فى تنصير المجتمعات الأفريقية أو رفع مستواها الثقافى فعلى سبيل المثال لم يكن هدف المستعمر من التعليم رفع المستوى الثقافى بقدر ما كان يهدف الى نشر لفته أو اعداد الكوادر التى يحتاج اليها فى ادارته الاستعمارية ومن ناحية أخرى فلا بد من تكثيف الجهود من أجل حوار عربى أفريقى يهدف الى إعادة كتابة تاريخ العرب فى افريقيا برؤية موضوعية وذلك فى اطار الظروف الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية . ولما كانت المادة المدونة الوحيدة التى سجلت للتاريخ الأفريقى قبل المرحلة الاستعمارية هى المخطوطات التى دونها العرب والأفارقة سواء باللغة العربية أو باللفات الأفريقية المدونة بالأحرف العربية لذلك فقد يكون من الأهمية العناية بحصر ذلك التراث الذى هو ملك مشترك للعرب والأفارقة على السواء على أنه ينبغى أن نكون فى حوارنا أكثر تفهما للشخصية الأفريقية التى قد تتجه فى بعض الأحيان الى ردود فعل مضادة لتحقيق ذاتيتها بعد استعادة سيادتها السياسية . ورغم الصورة القاتمة التى عرضنا لها فى بعض الكتابات الأفريقية الا أنه مما يدعو للتفاؤل ظهور صفة أفريقية أصبحت تدعو للاعتزاز بالتراث الثقافى العربى باعتباره تراثا أفريقيا وذلك لدحض ما كان يحرص المستعمر على ترويجه من أن الأفريقيين عاشوا خلال العصور السابقة للاستعمار هملا لا تاريخ ولا ثقافة لهم .

oboiikan.com

صفة افريقيا فى المصادر العربية حتى نهاية القرن العاشر الهجرى

للدكتور أيمن فؤاد سيد

بدأت أوربا فى التعرف على الشواطىء الافريقية فى منتصف القرن الخامس عشر عندما بدأ البرتغاليون فى التجارة مع شواطىء غينيا واقامة مستوطنات هناك . ثم تبعهم فى ذلك الألمان ثم الدانماركيون ثم الفرنسيون ثم الانجليز وغيرهم .

وكانت معارف أوربا عن افريقيا حتى ذلك الوقت معارف نظرية تعتمد فى جزء كبير منها على ما نقل الى اللغات الأوروبية من نتاج الجغرافيا العربية . وتزايدت معارف أوروبا عن افريقيا بعد أن تم نقل كتابى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للدريسي و« وصف افريقيا » للحسن بن الوزان (جبرليون الافريقى) الى اللغة الايطالية فى أواخر القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فان معارف العرب المسلمين عن افريقيا فى العصور الوسطى كانت أوسع وأدق بكثير من معارف الأوروبيين ، رغم أن معرفتهم العملية بافريقيا لم تتعدى اطلاقا ما كان يطلق عليه « دار الاسلام » أو المناطق المجاورة لها والتي كان التجار المسلمون يترددون عليها .

وترجع معرفة العرب بافريقيا الى ما قبل ظهور الاسلام وكانت تتلخص فيما كان يمكنهم الحصول عليه من معلومات عن طريق التجارة عبر البحر الأحمر مع الحبشة . أما الاتصالات المباشرة للعرب مع افريقيا فقد بدأت منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الاسلامية . فلم تكد تمض سبع سنوات على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا وقد فتح المسلمون مصر البيزنطية فى سنة ١٩ هـ كنتيجة حتمية لفتحهم الشام وفلسطين ، ثم امتد نفوذ العرب المسلمين بعد ذلك الى ممالك النوبة المسيحية التى ظلت لمدة سبعة قرون حاجزا أمام التوسع العربى الاسلامى فى هذا الاتجاه ، وفى مقابل استمرار

حالة السلام بينهم وبين الدولة الاسلامية كان عليهم ان يدفعوا لها ضريبة
من المال والرؤوس تعرف بالبقط (١) .

وبعد فتح مصر اكتمل الفتح الاسلامى لبقية افريقيا الشمالية على
فترات متلاحقة . ولم يكد القرن الهجرى الأول يشرف على نهايته الا وكان
العرب المسلمون قد اتموا فتح الشمال الافريقى بكماله . ولكن بدلا من أن
يتجه العرب جنوبا فى الأراضى القاحلة جنوب الصحراء ، اتجه الجيش
الاسلامى الفاتح مدعما بالعناصر البربرية شمالا عابرا المضيق الذى يفصل
بلاد المغرب عن شبه جزيرة ايبيريا والذى يحمل الى اليوم اسم الفاتح
الاسلامى (مضيق جبل طارق) ليمدوا النفوذ الاسلامى الى جنوب غرب
أوروبا .

أما معرفة العرب المباشرة بافريقيا الغربية فالفضل فيها يرجع الى تجار
الشمال الافريقى الذين قاموا بالاشتراك مع بعض العرب والفرس بفتح باب
التجارة والدعوة مع غرب افريقيا فى العصر الاسلامى . وعن طريق هؤلاء
التجار وانتقالهم عبر وادى النيل وعلى طول شواطئ افريقيا الشرقية من
جهة وعبر الصحراء من جهة أخرى ، أخذ الكتاب العرب معظم معلوماتهم
عن افريقيا السوداء . ولكن الجغرافيين العرب لم يقدموا لنا معلومات مترابطة
عن شعوب ودول افريقيا الا فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وإن كنا
نجد الكثير من المعلومات النظرية المستمدة من كتب الجغرافيا اليونانية القديمة
متناثرة فى كتابات الموسوعيين الاسلاميين قبل هذا التاريخ .

فحتى القرن الرابع الهجرى . كانت المعلومات التى يقدمها الجغرافيون
العرب قليلة الوضوح وكثيرا ما توقع الباحث فى الحيرة . وبعد ذلك بدأت
الصورة تتضح شيئا فشيئا ، وكانت أكثر المعلومات وضوحا ما يتعلق منها
بوادى النيل فيما وراء صعيد مصر ، فقد كان الاهتمام بهذه المواضع راجع
الى جانب الأهمية التجارية الى الاهتمامات الدفاعية من أجل حماية الاسلام
من الأخطار التى يمكن أن تحدث به من ناحية أعالي النيل .

(١) عن هذه الضريبة راجع ، البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٨١-٢٨٢ ،
المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٩ — ١٣٠ ، المقرئى : الخطط : ١٩٩ —
Lokkogaard, F., El., ant. «Bakt», I, p. 996. ٢٠٢

نفى أواسط القرن الرابع ، وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر ، أرسل القائد جوهر الصقلى واحدا من سكان صعيد مصر يدعى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى سفيرا له لدى قيرقى ملك النوبة المسيحية يدعوهم الى إعادة دفع البقط الى حكام مصر الجدد ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن دفعه فى أواخر الدولة الاخشيدية(٢) ويدعوهم كذلك الى الاسلام . ويبدو أن ابن سليم لم يوفق فى مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة الى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ، حيث أنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البجة .

وبعد عودته الى مصر ألف ابن سليم الأسوانى ، تقريبا فى أوائل خلافة الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ، كتابا عنوانه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ضمنه وصفا جغرافيا لهذه المناطق وخلفيتها التاريخية مع عرض دقيق لحالتها فى وقت زيارته مع بعض الروايات الأسطورية(٣) . أما وصفه للنيل فيمتاز بالكثير من الدقة ، رغم أنه كان يخضع فيما يبدو أحيانا لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد فى الأدب العربى الذى يبين لنا المدى الذى وصلت اليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل فى هذه الفترة(٤) .

ولأسف فقد فقد هذا الكتاب اليوم وان كان موجودا متداولاً بين الناس على الأقل حتى القرن العاشر الهجرى ، فقد حفظت لنا شذرات منه لدى ثلاثة مؤرخين هم : المقرئى فى خطه وابن اياس فى « نشق الأزهار » والمنوفى فى تاريخه ، ولكن أهم هذه النقول وأوسعها هى ما نقله المقرئى فى الخط .

(٢) المقرئى : المتنى (مخ . باريس) ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقرئى : الخطط ١ : ١٩٠ ،

Brock., GAL SI, 410, Troupeau G., «La description de la Nubie d'al-Uswàni», Arabica I (1954), pp. 276-288; Yusuf. F. Hasan, El., art. «Ibn Sulaym al - Uswàni» III, p. 979; Kheir H. M., « A Contribution to a Textual problem. Ibn Suleym al-Uswàni's Kitāb Akhbār al - Nūba wal - Maqurra wal - Beqa wal - Nil», An. Isl. XXI (1985) pp. 9-72.

(٤) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢ — ١٩٣ .

وربما من أجل الخلفاء الفاطميين كذلك أن خصص ابن حوقل فقرات مطولة فى كتابه « صورة الأرض » لهذه البلاد فقد كان هذا الجغرافى الرحالة، الذى بدأ رحلته من بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ متخذاً من التجارة مهنة له (٥) ، كان داعياً سياسياً فى الحقيقة . وقد كان ابن حوقل بلا ريب جاسوساً للفاطميين وإن كان لينى بروفنسال لا يقطع بذلك وإنما يراه فقط عميلاً للعباسيين أو الفاطميين (٦) . فابن حوقل يبدى دهشته لاحتفاظ الامويين فى الأندلس باستقلالهم حتى هذا الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى (٧) . ويمكن أن يؤخذ قوله هذا بمثابة اعزاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل .

ويرى كراتشكوفسكى فى ابن حوقل الخبر الأول من بين جغرافى المدرسة الكلاسيكية العربية فى شئون المغرب وكذلك فيما يخص إفريقيا الشرقية ، فهو يورد وصفا مفصلاً لمنطقة البجة وتاريخهم ولارتريا مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر مع وصف دقيق للواحات (٨) .

والى هذه الفترة كذلك يرجع مؤلف الحسن بن أحمد المهلبى عن المسالك والممالك الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز ، ولذا فكثيراً ما يرد اسمه فى المصادر بعنوان « المقرئى » . ونحن لا نعرف هذا الكتاب إلا عن طريق اقتباسات متفرقة حفظها لنا ياقوت الحموى وأبو الفدا . ويمثل هذا الكتاب أهمية حقيقية للسودان الإفريقى ، ويتضح لنا من متابعة المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون أنه اهتم فى الأساس بأوصاف الطرق وخاصة طرق إفريقيا .

وعلى كل حال فقبل استقرار الفاطميين فى مصر نجد أن المؤرخ والجغرافى الشيعى أحمد بن على بن واضح اليعقوبى يقدم لنا فيما بين سنتى ٢٦٠ و ٢٧٨ هـ سواء فى تاريخه أو فى كتاب « البلدان » وصفا للمسالك الواقعة الى جنوب مدينة سجلماسة ، وللبلاد الواقعة بين أعالى النيل والبحر الأحمر الغنية بمناجمها ومواضعها الاستراتيجية .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ٣ .

(٦) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٤ .

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠٩ .

(٨) نفسه ١٠٤ — ١٠٧ .

وإذا كان وادى النيل يعد طريقا تقليديا للتجارة منذ العصور القديمة ويمثل أهمية هامة للدولة الإسلامية ، فالى الغرب من هذا الطريق كان يوجد طريق آخر غير تقليدى وأقل أهمية من الناحية الدفاعية للدولة الإسلامية ولكنه حيوى بالنسبة لتجارها يمتد من شمال أفريقيا تجاه نيجيريا الحالية . وفى الوقت الذى ارتبط فيه تاريخ هذه المنطقة بالصراع بين الفاطميين فى شمال أفريقيا وأمويو الأندلس للاستيلاء على رؤوس طرق القوافل الواقعة شمال الصحراء نجد أن ابن حوقل يهتم أيضا بذكر المراكز المسيطرة على هذه المسالك وهى من الشمال الى الجنوب : سجلماسة وأوداغست وغانا بالإضافة الى العناية التى يضيفها على فزان وعلى طريق غانا — مصر القديم (٩) .

وفى نفس الفترة التى بدأ فيها ابن حوقل رحلته نجد المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين قد بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى « مروج الذهب » الذى سجل فيه نتائج مشاهداته خلال رحلته التى زار خلالها الكثير من الأقطار . وهذا الكتاب هو فى الأساس كتاب تاريخى وإن كان المسعودى نفسه أديب يهتم قبل كل شيء بالعرض الأدبى . ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أفضل تصوير للحياتين الثقافية والاجتماعية للدولة الإسلامية فى عصر الخلافة العباسية . وقد رسم المسعودى فى كتابه صورة أمينة لأفريقيا ولنهر النيل (١٠) ، ولكن الأهمية التى يعطيها المسعودى لأفريقيا تختلف عن تلك التى شغلت ابن حوقل أو ابن سليم الأسوانى ، فهى عنده ترجع الى حجم الدور الذى لعبه بعض أبناء هذه القارة فى أحداث التاريخ الإسلامى وعلى الأخص الدور الذى قام به « الزنج فى جنوب العراق » (١١) .

وآخر المثليين الكبار للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية والتى تضم جغرافيين من أمثال : ابن خرداذبه والاصطخرى وابن الفقيه وابن رسته واليعقوبى وابن حوقل ، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى الذى يعتبره شبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » . وإذا كانت تشوب هذا الراى بعض المبالغة فإن واحدا من الذين توفروا على

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠١ .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ١ : ١١٤ — ١١٥ و ٢ : ٦٥ — ٧٣ .

(١١) نفسه : ٥ : ١٠٣ — ١٠٤ .

دراسة كتاب المقدسى وهو كرامرز ، يرى فيه أكثر الجغرافيين العرب أصالة وفى مصنفه « أحسن التقاسيم » واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة (١٢) .

وقد قدم المقدسى عن افريقيا معلومات أقل فى القيمة من تلك التى خلفها لنا معاصره ابن حوقل .

وحتى نهاية القرن الرابع كانت النصوص العربية تهتم فى الأساس بافريقيا الشرقية أكثر من اهتمامها بغرب افريقيا . وكما اتضح لنا فان كل المؤلفين الذين سبق ذكرهم هم من المشاركة وهذا لا يعنى أن التأليف فى المغرب الاسلامى قد تأخر ، وانما أخذت مؤلفاتهم الادبية والجغرافية فقط صبغة محلية ولم تظهر مؤلفات الأندلسيين والمغاربية وتأخذ مكانتها فى المشرق الاسلامى الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى .

وأول هذه المؤلفات وأهمها فى مجال الجغرافيا هو مؤلف أبو عبيد البكرى (١٣) الذى يحمل أيضا اسم « الممالك والمسالك » وقد اعتبر دوزى البكرى « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة » (١٤) ، وقد انتهى من تأليف كتابه نحو سنة ٤٦٠ هـ . وللأسف لم يحفظ لنا نص هذا الكتاب كاملا ولكن مخطوطاته استمرت فى الظهور الى وقت قريب بحيث أن الناقص من الكتاب يعد اليوم شيئا قليلا (١٥) . والجزء الذى خصصه البكرى لافريقيا الشمالية أصبح فى متناول الباحثين منذ أن نشره وترجمه الى الفرنسية دى سسلان سنة ١٨٥٧ (١٦) . وقد اعتمد البكرى فى وصفه لافريقيا على كتاب مفقود لمؤلف من أهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله محمد بن يوسف

(١٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٨ .

(١٣) انظر كتاب عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الكويت ١٩٧٤ م . .

(14) Dozy, R. Recherches su L'histoire et la litterutuse de é' Espagne pendant le moyen - age, Leiden 1881, I, p. 282.

(١٥) انظر تحقيق عبد الله يوسف الغنيم لقسم جزيرة العرب وقسم مصر من كتاب « الممالك والمسالك » للبكرى ، الكويت ١٩٧٧ و ١٩٨٠ م .

(١٦) نشر بعنوان : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، كذلك نشر عبد الرحمن الحجى « جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب البكرى فى بيروت » ، ١٩٦٨ .

«لوراق المتوفى سنة ٣٦٢ هـ الذى ألف نحو هذا التاريخ للحكم المستنصر الأموى كتابا ضخما فى مسالك وممالك افريقيا» (١٧) .

واذا ما تركنا البكرى وانتقلنا الى القرن السادس الهجرى نجد أن الأدب الجغرافى العربى قد فقد بعض مكانته فى الشرق الاسلامى ، وأن مغرب العالم الاسلامى أصبحت له الصدارة فى هذا المجال بفضل مؤلف الشريف الإدريسي « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ورغم أن الإدريسي ، كما يقول كراتشكوفسكى هو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الاطار العام لتطور الادب الجغرافى العربى ، فان كتابه أصبح أكثر الكتب العربية رواجاً وصيتاً فى أوروبا اذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الإدريسي ، وقد مر وقت كان فيه مؤلفه المثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى فى الدوائر العلمية الأوروبية (١٨) .

وقد ألف الإدريسي هذا الكتاب لروجر الثانى ملك صقلية لذلك فإنه يعرف أيضاً فى الأوساط العلمية باسم « كتاب روجار » . وكان الأصل العربى لهذا الكتاب من أوائل المطبوعات العربية التى أخرجتها مطابع أوروبا فقد طبع أول مرة فى روما سنة ١٥٩٢ . ونقل الكتاب بعد ذلك الى اللاتينية فى سنة ١٦١٩ ، أما الترجمة الفرنسية الكاملة للكتاب فلم تتم الا فى منتصف القرن التاسع عشر وقام بنشرها جوبير أحد علماء الحملة الفرنسية فى جزاير بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ .

وبين هذين التاريخين ظهرت طبعتان جزئيتان للكتاب ، أما الطبعة الكاملة الصحيحة والتى اعتمدت على مقابلة مخطوطاته المختلفة فلم تظهر الا منذ سنوات قليلة بفضل جهود المعهد الجامعى الشرقى بنابولى ومعهد الدراسات الشرقية بروما وظهرت فى تسعة أقسام مع فهرس شاملة ونشرتها مؤسسة بريل بليدن فى الفترة بين سنتى ١٩٧٠ و ١٩٨٣ م (١٩) .

(١٧) انظر العقدى : الوافى بالوفيات ٥ : ٢٥١ و Brock., GAL SI, p. 233,

(١٨) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٧٩ .

(19) Al-Idrisi, Opvs Geographicvm (I - IX) Niapoli- Romae 1970-1983.

وأهم أجزاء هذا الكتاب هي تلك التي أفردها الإدريسي لأفريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحي إيطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شيء خلافاً للاقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف . وذلك لأن معلوماته عن مصر مثلاً ليست جديدة على الإطلاق لأنه نقلها حرفياً عن كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل .

أما وصفه لأفريقيا فلا يخلو من الفائدة رغم أنه يعتمد فيه اعتماداً كلياً على وصف بطليموس . فوصفه لمجرى النيل الغربى ، أى نهر النيجر ، قد أكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . كذلك فإنه كان على معرفة جيدة بطرق التجارة مع داخل أفريقيا وأورد أسماء المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت مثل : غانا وسلا وبلاد التكرور (٢٠) . وقد وضع المستشرق الألماني هارتمان فى أواخر القرن الثامن عشر بحثاً عن أفريقيا عند الإدريسي كان له شأنه فى ذلك الوقت وإن كان قد عفى عليه الزمان الآن (٢١) .

وإذا ما تركنا الإدريسي وانتقلنا إلى القرن السابع الهجرى نجده قد خلف لنا أكبر معجم جغرافى فى اللغة العربية ، أعنى به « معجم البلدان » لياقوت ابن عبد الله الرهمى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ . وهو أشبه ببوسوعة كبيرة فى الأدب والتاريخ والجغرافيا والأجناس مرتبة على أسماء البلدان . وفيما يخص البلدان الأفريقية فإن المادة التي يقدمها لنا لياقوت محدودة وغير واضحة المصدر .

ويأتى فى نفس الأهمية كتاب « الجغرافيا » لعلى بن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ الذى يقدم لنا معطيات هامة عن سواحل أفريقيا الغربية والشرقية رغم أنه لم يزرها بنفسه وإنما استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئاً يدعى ابن فاطمة ، وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لأفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلاً عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يسمون إليه فى ذلك الوقت منطقة بحيرة تشاد (٢٢) .

(٢٠) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٨٧ .
(21) Hartmann, J. M., Edrisi Africa, Getttingen 1796.
(٢٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٣٥٩ .

أما فى شرق أفريقيا فان ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو ، وعرف جيدا مدغشقر وربما ترجع اليه تلك الرواية الهامة التى ينفرد بروايتها ابن سعيد والمتعلقة باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر (٢٢) .

وقبل نهاية القرن السادس الهجرى نجد الأدب الجغرافى العربى يستعيز عن كتب المسالك والممالك بنوع آخر من التأليف هو : كتب الرحلات . حقيقة أن الأدب الجغرافى العربى قد عرف رحلات سابقة على هذه الفترة مثل : رحلة ابن بطلان الى بلاد البلغار ورحلة ناصر خسرو الى مصر والشام وبلاد العرب الا أنهما كانا يفتنيان الى مشرق العالم الاسلامى وكانت تحركهما دوافع سياسية للقيام بهذه الرحلات . أما الرحلات التى عرفت بعد ذلك فنقد قام بها جديدها ، اذا استثنينا رحلة عبد اللطيف البغدادى الى مصر ، رحالة مغاربة وأندلسيون ، وكان الهدف الأساسى لأصحابها هو أداء فريضة الحج ولكنهم استطاعوا خلال رحلتهم الطويلة فى الذهاب والعودة أن يتوقفوا ويقيموا فى العديد من البلاد والمدن التى مروا بها ، وقدموا لنا أوصافا دقيقة ومعاصرة لحالة هذه البلاد من خلال زيارتهم لها ، وان اختلفت طريقة العرض من واحد الى آخر . فاذا كان ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى يقدمون لنا وصفا حيا للمجتمع والعادات وما شاهدوه من آثار فى البلاد التى زاروها فان رحالة آخرين مثل ابن رشيد الفهرى يقدمون لنا مادة غزيرة عن الحياة الثقافية والعلوم التى كانت تدرس بالمدارس فى مصر والشام على الأخص فى هذا العصر .

وربما لم يهتم هؤلاء الرحالة بارتداد بلاد أفريقيا الداخلية . فيما عدا واحدا منهم تمكن بعد أن أدى فريضة الحج أربع مرات وتجول فى أنحاء المعمورة تقريبا حيث زار شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز واستامبول والموصل وبغداد واليمن والهند والصين وجنوب أوروبا ، تمكن من زيارة جوف أفريقيا ذلك هو الرحالة المغربى الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى

(23) Ferraud, G., Relation de Voyages et textes Géographiques Arabes, persans et turks relatifs à L'EXtrême - Orient du XIII Siscles. paris 1914, pp. 317-320.

الطنجى المعروف بابن بطوطة والذي قام برحلته فى الفترة بين سنتى ٧٢٥ و٧٥٣ هـ (٢٤) .

فى سنة ٧٥٣ قام ابن بطوطة برحلة الى قلب افريقيا بتكليف من السلطان أبو عنان المرينى مر فيها على سجلماسة وتغازا وتاسرهلا ومسوفة ومالى وزاغرى وكارسخو وكابرة وزاغة وتنبكتو وكوكو ومولى وىفى . وكانت زيارة ابن بطوطة للمالى فى ايام ملكهم منسا سليمان (اى السلطان سليمان) . وقد ظل وصف ابن بطوطة لافريقيا جنوب الصحراء لا يفضلها شئ الى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الفترة التى قام فيها ابن بطوطة برحلته عرفت مصر والشام فى زمن المماليك نمط جديد من التأليف الموسوعى اضطلع به موظفوا ديوان الانشاء الممالكى الذين لم يروا نى أنفسهم علماء بل كتابا نابهى الشأن اكتسبوا نتيجة خدمتهم فى ديوان الانشاء خبرة كبيرة فى هذا المجال (٢٥) .

ونعد موسوعة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » خير ممثل لهذا النمط وهى مصدر من الدرجة الاولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة او متقطعة بدولة المماليك . فقد هيا له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق ولقاء الكثير من الرجال والسفراء ، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من اخراج لوحة مفصلة فى وصف العالم المعاصر له .

وقد خصص ابن فضل الله العمرى الأبواب من الثامن الى الحادى عشر من النوع الثانى الخاص بالممالك نى ذكر ممالك افريقيا السوداء . فجعل الباب الثامن لذكر ممالك المسلمين بالحبشة ، والباب التاسع لذكر ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد الى مصر وهى : مملكة الكانم (منطقة

(٢٤) طبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرة وقد رجعت الى الطبعة المصرية بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » فى جزاين ، مصر ١٩٢٩ .

(٢٥) راجع مقدماتى لممالك مصر والشام والحجاز واليمن من مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ، القاهرة ١٩٨٥ .

تشاد الحالية) ومملكة النوبة ، والباب العاشر لذكر مملكة مالى ، اما الباب الحادى عشر فجعله لذكر مملكة جبال البربر .

وقبل ان نستطرد فى ذكر قيمة ما كتبه العمرى عن ممالك افريقيا نشير الى ان القلقشندى فى القرن التالى اعتمد اعتمادا كليا على موسوعة العمرى فى القسم الذى خصصه فى كتابه « صبح الاعشى » لذكر تاريخ ممالك الاسلام ، غير أنه تميز على كتاب العمرى بدقة النبوي ووضوح العرض ، الا انه لا يمثل عصره تماما اذ هو تكرر لما ذكره العمرى مع شيء من التوسيع والاسهاب ويرسم صورة لما كانت عليه تلك الممالك فى القرن الثامن الهجرى الذى ألف فيه ابن فضل الله العمرى موسوعته (٢٦) .

وهذا القسم لم ينشر بعد فى أصله العربى وإنما نقله الى الفرنسية مع تعليقات هامة المستشرق الفرنسى جودفرى دى مومبين سنة ١٩٢٧ (٢٧) .

أما آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب فهو الحسن بن محمد الوزان المعروف بجون ليو الانريقى (٢٨) . صاحب كتاب « وصف افريقيا » وقد ولد الحسن الوزان فى غرناطة نحو سنة ٩٠١ ونشأ فى فاس ثم كلفه بنو وطاس بثلاث سفارات دبلوماسية فى جنوب المغرب ، ثم زار مكة فى سنة ٩٢١ ثم استامبول ومصر وعند عودته اختطفه قراصنة سقليون وحملوه الى نابولى سنة ٩٢٦ ثم الى روما حيث عمده البابا باسم Johannes Leo والى وهو فى روما عددا من المؤلفات لم يصل إلينا منها فى اللغة العربية الا واحدا عبارة عن معجم عربى - عبرى - لاتنى ألفه سنة ٩٣٠ هـ . أما مصنفه الرئيسى فغير معروف الا فى ترجمانه الأوروبية فى حين

(٢٦) القلقشندى : صبح الاعشى : ٦٧٣ - ٣٣٧ .

(27) Gaudefroy - Demombynes, Masàlik al-Absàr fī Mamà al-Absàr. I. L'Afrique mām L'Égypt, BGA, Paris 1927.

(٢٨) انظر : مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ، ٣ : ٢٢ - ٢٣ وفى الطبعة الثانية ٥ : ٧٢٨ - ٧٢٩ ، كارتشكوفسكى : المصدر السابق ٥٠ - ٤٥٥ ، مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان (ليو الانريقى) ، اضاء على رحلته فى بلاد السودان ومصر ، مجلة جامعة القاهرة - فرع الخرطوم ١٩٧٠ . وفقد منه الطبعتين العربيتين للكتاب .

أن أصله العربى مفقود تماما ذلك ان الحسن الوزان ترجم كتابه بنفسه الى الإيطالية فى ١٠ مارس سنة ١٥٢٦ .

وقد استطاع الحسن الوزان خلال رحلاته العديدة ، التى لا نعرف دوافعه اليها ، أن يتعرف بصورة جيدة على افريقيا الداخلية والشمالية وقد ختم رحلته بذكر الأهداف التى وضعها نصب عينيه أثناء تأليفه مصنفه يقول : « هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا جيوفانى ليونى ، عن جميع افريقيا التى عبرتها من أقصاها الى أقصاها ، وقد سجلت بعناية ، يوما فيوما ، كل الأشياء التى رايتها بعينى راسى وبدأ لى أنها تستحق الذكر وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهودى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح » (٢٩) .

وينقسم الكتاب الى تسعة أقسام يعالج الأول منها الكلام على افريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ، أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتطوان والخامس لبجاية وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر . بينما يقدم التاسع وصفا موجزا للأنهار والحيوان والأسماك والطيور والمعارف والنباتات الموجودة بافريقيا .

وقليلا ما يشير الحسن الوزان الى مصادره وهى تنحصر فى المسعودى والبكرى والادريسى ولسان الدين ابن الخطيب وابن بشكوال ، أما أكثر نقوله فعن طريق ابن الرقيق الذى ألف كتابا فى تاريخ افريقية فى أواسط القرن الرابع الهجرى وابيه يدين الحسن الوزان بمعلوماته عن القبائل العربية والبربرية ويتردد كبير من المعطيات المختلفة . وعلى كل حال فان قيمة كتاب « وصف افريقيا » لم تكن فيما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه (٣٠) .

(٢٩) وصف افريقيا ٦٢٢ (ترجمة عبد الرحمن حميدة) .

(٣٠) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٤٥٣ .

ولقد لقي هذا المصنف الهام اهتماما من الأوساط العلمية الأوروبية فترجم إلى اللاتينية والفرنسية سنة ١٥٥٦ ثم ترجم حوالى عام ١٦٠٠ إلى الانجليزية. أما أحدث نشرات الكتاب فتحقيق شيفر للترجمة الفرنسية والتي ظهرت بين عامى ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ونشرة براون للترجمة الانجليزية والتي صدرت سنة ١٨٩٦ . ثم ظهرت طبعة حديثة للترجمة الفرنسية فى سنة ١٩٥٦ قام بها اييولار .

وللأسف فإن هذا المؤلف الهام ظل بعيدا عن التراث العربى رغم أن مؤلفه صاغه فى أول الأمر باللغة العربية الى أن ظهرت له فى العشر سنوات الأخيرة ترجمتين الأولى فى الرياض سنة ١٩٧٨ بتحقيق الاستاذ عبد الرحمن حميدة ظهرت بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى فى الرياض ثم ترجمة أدق ظهرت فى المغرب وبيروت فى سنتى ١٩٨٠ و ١٩٨٣ بعناية الاستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر .

obeikan.com

محاولة العرب المسلمين كشف منابع النيل فى القرون الأولى للإسلام

١. د. عطية القوصى

النهر الخالد .. نهر النيل من الأنهار الهامة التى لقت حبا فى قلوب العرب المسلمين منذ أن وطأت أقدامهم أرض الكنانة ، وكانت له المكانة المقدسة عندهم كما كانت له عند أهله منذ القدم . وزادت هذه المكانة لما ورد عنه من فضائل فى الروايات الدينية الإسلامية المتعددة التى أوردتها كتب الفقه والتفسير وكتب السيرة والتاريخ .

فى هذه الروايات نرى راووها يعتبرون النيل من أعظم عجائب مصر الظاهرة لأعين الناس ، وأنه صاحب الفضل على جميع الأنهار والبحار . وأنه تشرف بذكر الله له فى قرآنه الكريم حين أورد فيه مقولة فرعون مصر « اليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى » . وأنه ينبع من سدرة المنتهى بالجنة تبعا لروايات الأحاديث الشريفة التى نقلها كل من البغوى وابن ظهيرة عن كعب الأحبار وأنس بن مالك وهما من أئمة المحدثين .

وأبلغ ما وصف به نهر النيل ما أورده ابن فضل الله العمري فى كتابه مسالك الأبصار (١) ، حيث يقول عنه ما نصه : « هو النهر الأعظم الذى لا يعد له فى عظيم نفعه شئ لعظم ما عليه من البلاد وطوله فى الأمم ، وهو ينصب من جبل القمر وهو احدى الكبر وأولى العبر . آية من آيات الله فى أرضه وعجبية لمن تأمل من خلقه . ساقه الله تعالى الى مصر وأحيا به بلدة ميتا وستاه أمة عظمى وان لم تكن هى المتفردة بنفعه فانها كالمفردة به

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ١ ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٦٧ .

لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به . يجيء اليها أحوج ما كانت في مجيئه
وينصرف أحوج ما كانت الى انصرافه ، وذلك تقدير العظيم العليم (ذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

ولقد تحدث المقرئى عن نهر النيل وفضله في خطبه (٢) تحت عنوان :
« ذكر شئ من فضائل النيل » فقال : « أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله
عنه في حديث المعراج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثم رفعت لى
سدره المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت :
ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه سدره المنتهى ، واذا أربعة أنهار : نهران باطنان
ونهران ظاهران . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في
في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وقد لقي نهر النيل كل الاهتمام من حكام مصر المسلمين عبر العصور ،
وهو ذات الاهتمام الذى لقيه في عهد من حكم مصر قبل الاسلام باعتباره
واهب الحياة وصانع حضارتها على أرض مصر . وكان من مظاهر هذا
الاهتمام الذى شمل النيل في عهد حكام مصر الاسلامية محاولة معرفة أحوال
الزيادة والنقصان في مائه ، والاطمئنان على وصول ما تحتاج اليه البلاد
منه . فاقاموا لذلك المقياس عليه وعملوا على تجديدها كل مدة (٣) ، وواظبوا
على الاحتفال بفيضانه ووفائه بالماء ، واقامة عيد خاص له يخرج فيه حكام
مصر المسلمين في مواكبهم ويشاركون الناس فرحتهم بهذا العيد (٤) ، ويقومون
بتخليق المقياس (٥) وتعطيره والتصدق بالأموال شكرا لله وحيدا على نعمة
اجراء مائه .

وقد حرص معظم المؤرخين الذين أرخوا لمصر الاسلامية منذ الفتح
الحربى على ذكر مبلغ الزيادة والنقصان في ماء النيل علما بعام في مؤلفاتهم،
نجد ذلك في كتب البكرى والادريسي والمسعودى وابن خلدون وابن فضل
الله العمري والقلقشندي والمقرئى وابن تفرى بردى والسيوطى وابن اياس

-
- (٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ٤٩ .
(٣) ناصرى خسرو سفرنامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠ ،
ص ٨١ ، ٨٢ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٩٣ — ٩٧ .
(٥) التخليق هو طلاء عمود المقياس بالخلق وهو نوع من الطيب .

وابن عبد السلام ، الأمر الذى يعكس لنا مدى اهتمام المسلمين بأمر هذا النيل العظيم على مر العصور .

وتحدثت مصادر كثيرة تاريخية وجغرافية عن منابع هذا النهر الخالد ، واجمع غالبيتهم على ما انتهى اليه علمنا الآن عن هذه المنابع ، أن لنهر النيل منبعين أحدهما دائم والآخر صيفى ، وحددوا المنبع الدائم عند خط الاستواء ، بينما حددوا المنبع الصيفى بأنه أبطار بلاد الحبشة التى تسبب فيضان مائه فى فصل الصيف .

ولئن كان ستانلى وسيك قد نجحا فى كشف منابع نهر النيل فى القرن الماضى ، واناطوا اللثام للعالم عن هذه المنابع المجهولة ، فلقد سبق الكشافون المسلمون زملاءهم فى العالم الغربى فى مجال الكشف عن هذه المنابع بقرون عديدة . وقد ثبت فى المصادر أن هؤلاء الكشافين المسلمين اخترقوا الصحارى والفيافى والأدغال الإفريقية ، منذ القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى للوصول الى منابع النيل . وأنهم دونوا دراساتهم الجلية فى مؤلفات قيمة أناد منها السالم من بعدهم وأناد منها ، دون شك ، ستانلى وسيك وأقرانهم ممن اهتموا بكشف منابع النيل فى أعقاب عصر النهضة الأوروبية والكشوف البحرية منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . ولقد بدأوا حيث انتهى المسلمون ، فتضافرت بذلك جهود الفريقين فى كشف منابع هذا النهر العظيم .

وقبل الحديث عن محاولات الكشف الإسلامية نشر الى ما ورد فى المصادر العربية عن أمر هذه المنابع التى اتفق معظم كتابها من أنها تكمن عند جبل القمر الواقعة عند خط الاستواء . ولقد وقع الاختلاف فى ضبط هذه اللفظة وهى لفظة « القمر » ، فضببطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة لقمر السماء لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء كما يقول المقرئى (٦) ، كذلك لشدة بياضه وكثرة ضوئه . وضبطها البعض الآخر بضم القاف وسكون الميم « القمر » نسبة الى قوم يسكنون هناك (٧) .

وقد حددت هذه المصادر مكان جبل القمر أو جبال القمر ، وقالوا أنها

(٦) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٢ .

تقع وراء خط الاستواء . واختلف أصحاب هذه المصادر فى تحديد خط العرض الذى تقع عليه جنوب هذا الخط ، فقال ابن ممتى والبغدادى انها تقع وراء هذا الخط باحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة ، وقال المسعودى والأدريسى وابن سعيد الاندلسى وابن خلدون أنها عند خط ١٦ درجة جنوبا ، بينما انفرد صاحب كتاب الاستبصار بالقول بأنها تقع عند خط ٩ درجات وثلاثين دقيقة جنوباً (٨) .

وقد ذكر ابن خلدون ان هذه الجبال « جبال عظيمة ليس فى الأرض من هو أعلى منها وتخرج من أعلاها عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل » (٩) .

واتفق معظم الكتاب الأقدمين على أن نهر النيل يخرج من منطقة البحيرات ويمر ببلاد النج (السودان) ثم بلاد النوبة ، ثم بلاد مصر ، وتكون نهايته عند البحر الرومى (البحر المتوسط) . وقد أخطأ بعضهم فى تصور أن نهر النيجر يشترك مع نهر النيل فى منبعه . من هؤلاء ابن خلدون الذى زار بلاد مالى بغرب افريقية وأضى فيها ثمانية أشهر وشاهد نهر النيجر وأعتقد أنه متصل بنهر النيل . يقول ابن خلدون : « ويخرج من البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمت ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا حاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ، ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمتة الى أن يصب فى البحر المحيط ، وهو نهر السودان وامهم كلها على ضفتيه ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك » (١٠) .

ولقد اکتفى بعض الجغرافيين المؤرخين المسلمين ممن لم يتأكد من حقيقة منبع النيل ومن لم يصدق روايات من قال أنه ينبع من جبال القمر وتؤكد من

(٨) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، رسالة ماجستير لم تنشر ، القاهرة .

(٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦ .

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠ — ٥٢ .

صعوبة واستحالة الوصول الى هذه المنابع ، اكتفى بالإشارة الى عدم علمه
بمكان المنبع ، وقال بعض منهم أنه ينبع من مفازة ، أى من خراب .

يقول الاصطخرى (١١) ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى : « وأما
النيل فان ابتداء مائه لا يعلم وذلك انه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج
لا تسلك حتى ينتهى الى حد الزنج ثم يقطع فى مفاوز وعمارات متصلة الى
أن يقع فى أرض مصر » .

ويقول ابن فضل الله العمري (١٢) : « والأقوال فى أول مجرى النيل
كثيرة ذكر منها المسعودى وغيره ما لا فائدة فيه . والشائع على السنة الناس
أن احدا ما وقف على أوله بالمشاهدة وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف
على حقيقة أوله . وقال بعضهم أنه لتوغل منبعه فى الخراب المنقطع من
وراء خط الاستواء تعذر السلوك اليه لبعد المسافة وثدة الحر » .

ورغم اختلاف الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى بصدد تحديد
مكان منابع النيل الا أنهم جميعهم اتفقوا على أن للنيل منبعين أحدهما دائم
والآخر صيفى ، وأن فيضان نهر النيل فى فصل الصيف يأتى بسبب الأمطار
التي تسقط على بلاد الحبشة فى هذا الفصل . يقول البغدادى : « فجرية
النيل الأصلية مادتها عيون (بحيرات) وأما زيادته الصيفية فمادتها
أمطار » (١٣) . ويقول المقريزى : « ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ،
نانه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع مأؤه مسافيا من الكدرة فاذا
فرغت أنام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه وبال لونه الى الخضرة
وصار بحيث اذا وضع فى اناء برسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب ،
وسبب ذلك أن البطيخة التى فى اعلى الجنوب تردما الفيلة ونحوها من
الوحوش حتى يتغير مأؤها . فاذا كثرت امطار الجنوب فى فصل الصيف
وعظمت السيول الهابطة من هذه البطيخة فاض منها ما تغير من الماء وجرى
الى أرض مصر ، فيقال عند ذلك توحم النيل . ولا يزال الماء كذلك حتى
يعقبه ماء متغير ويزداد عكره بزيادة الماء فاذا وضع منه أيام الزيادة شئ فى
اناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٠ .

(١٢) مسالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(١٣) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، ص ٧٤ .

تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها . وان العادة ان السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون الا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب وامطار الجنوب لا تكون الا فى ايام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء . وسبب زيادة المطر هبوب ريح تسمى ريح الملتن وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد الحبشة والسودان فيأتى ورده الى أرض مصر بزيادة النيل « (١٤) .

ويقول المقرئى فى رواية أخرى : « وزيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة » ، ويحدد بداية الفيضان فى شهر أبيب القبطى (يوليو) ويقول أن المصريين يقولون اذا دخل أبيب كان للماء ديب (١٥) .

هذا ملخص لما ورد عن منابع النيل فى المصادر العربية ، ولنا ان نتساءل عن المصدر الذى استقت منه هذه المصادر مادتها عن منابع النيل وعن الباب الذى وصلتهم منه هذه المعرفة ؟ . هل جاءت حقا عن ارتياد فعلى ووصول الى هذه الأماكن ومشاهدتها بالعين ؟ أم جاءت منقولة عن الجغرافيين الاغريق والرومان الذين حاولوا فك طلاسم منابع النيل قبل ظهور الاسلام بسنين عديدة ؟

للإجابة على هذا التساؤل علينا ان نتتبع أولا الجهود التى بذلها الرحالة والجغرافيون أيام حكم المصريين القدماء والاعريق والرومان قبل الاسلام لكشف منابع النيل . ومن نتاج دراسة هذه الجهود اتضح لنا أن جميع هؤلاء الرواد الذين حاولوا كشف منابع النيل مثل هيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وبلينى وسنيك وغيرهم لم يستطيعوا سوى الوقوف عندما ألقاه عليهم الكهنة عند منابع النيل من أنها مصدر الهى وانه آت من الظلمات ، ولذلك لم يتجاوزوا فى مباحثة ما وراء الشلالات (١٦) . والى ذلك أشعار هيرودوت الذى قال ان النيل يعرف مبدؤه بعد سفر أربعة أشهر سواء أكان ذلك برا أو بحرا وهى المدة التى يستغرقها المسافر للوصول الى أسوان . ومن المعروف أن هيرودوت تتبع فى سنة ٤٦٠ ق.م مجرى النيل قاصدا

(١٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦١ .

(١٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(١٦) انطون زكرى : النيل فى عهد الفراعنة والعرب ، القاهرة

١٩٢٦ ، ص ٩ .

الوصول الى منابعه ولم يتعد فى كشفه الشلال الأول عند أسوان ولم يصل الى هذه المنابع (١٧) .

وكان ملوك الفراعنة : رمسيس الثانى وغيره قد بذلوا جهدا كبيرا من عنايتهم للوقوف على حقيقة منابع النيل فما استطاعوا . وقام ابسماتيك (أحد ملوك الأسرة ٢٦) بتأليف بعثة تكونت من ٢٤٠٠ رجل وأمدّها بكل ما تحتاجه لكشف منابع النيل فقضت بعض السنين وعادت دون الوصول الى هذه المنابع . كذلك استحكمت هذه الفكرة لدى الاسكندر المقدونى وقمبيز ورتب كل منهم فى عهده رحلة خاصة وأمدّها بكل ما تحتاج للاهتمام لهذه المنابع دون جدوى . وفى القرن الثالث قبل الميلاد كرر المحاولة أحد ملوك البطالمة (بطليموس افيرجت) ولم يصل الى شىء . وكان قدماء الباحثين يضرّبون الأمثال بمعرفة منابع النيل فى استحالة الوصول الى غرض يرضى ويقتنع الباحثين .

واستمر أمر منابع النيل غامضا فى عصر الرومان الى أن أرسل نيرون بعثة رسمية لكشف هذه المنابع ، ووصلت هذه البعثة الى منطقة السدود النباتية والمستنقعات فظنوها المنابع الأولى للنيل .

ولقد ادعى تاجر يونانى يدعى ديوجينيس Diogenes (١٨) ، عاش فى القرن الأول الميلادى ، أنه قام برحلة وصل فيها الى جبل القمر حيث ينبع النيل ، وقد نقل هذا القول عن ديوجينيس هذا الجغرافى ماريانوس ، الذى نقله ، بدوره عنه ، الجغرافى الرومانى الشهير كلاودوس بطليموس ، الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . وبعد كلاودوس بطليموس من أعظم الجغرافيين القدماء ، وقد قام برسم خرائط عديدة للعالم ولنهر النيل ظلت تدرس فى أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر (١٩) .

ولقد زعم ديوجينيس أنه سافر الى ساحل افريقية الشرقى وأنه توغل فى قلب القارة الافريقية ووصل الى منابع النيل التى وصفها بأنها ينبوعان

(١٧) جوزفين كام : المستكشفون فى افريقية ، ترجمة السيد يوسف ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٨ .

(١٨) جوزفين كام : المستكشفون فى افريقية ، ص ١٩ .

(١٩) محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٠ .

عظيمان يتحدان ويتجهان شمالا ويتصل بهما نهر الحبشة ، وأنه في جنوب
الينابيع العظيمة (ويقصد البحيرات الاستوائية) جبال عالية تغطيها الثلوج
تسمى جبال القمر . ولقد نقل كلاودوس بطليموس عن ديوجينيس وصف
الينابيع الاستوائية في خريطة رسمها عام ١٥٠ م (٢٠) .

وبرجع بعض الكتاب فضل المعلومات التي حصل عليها بطليموس عن
منابع النيل الى ما جمعه عن الرحالة العرب الذين جئوا حول منطقة المنابع
وبالتقرب منها قبل الاسلام ، وقالوا أنه عن طريق هؤلاء الرحالة والتجار
العرب تسربت تلك المعلومات عن منابع النيل الى التجار الاغريق مثلاً ،
ديوجينيس وبطليموس .

ولقد أكد بعض كتاب المسلمين هذه الجولات العربية عند المنابع قبل
الاسلام ، فذكر ابن عبد السلام (ت نهاية القرن التاسع الميلادي) في كتابه
« الفيض المديد في أخبار النيل السعيد » أن الوليد آخر ملوك مصر من العرب
العماليق (الهكسوس) عن له أن ينظر مخرج النيل ، أقام ثلاث سنين يستعد
لذلك ثم جمع ما يحتاج اليه واستخلف على مصر احد عماله ويدعى (عون) ،
ثم توجه حتى وصل الى منابع النيل وصعد على جبل القمر ورأى كيف ينبع
النيل منه (٢١) .

وذكر المقرئزي ، نقلاً عن ابن زولاق ، أن رجلاً من ولد العيص بن
اسحق من نسل سيدنا ابراهيم واسمه « حديد » وصل الى تلك المنابع ،
وأورد أن حديد كان تاجراً ونبياً وحكيماً وأنه سأل الله تعالى أن يريه
منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك ، فيقال أنه قام يمشي عليه ثلاثين سنة
في عمران وعشرين سنة في خراب . وأضاف ابن ظهيرة (٢٢) ، صاحب كتاب
الفضائل الباهرة ، عن حديد هذا أنه لما وصل الى مصر قادماً من منابع
النيل تقابل مع ابي صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد وأنه منكى
له ما رآه بصدد منابع النيل وما لقيه في رحلته .

وايا كانت صحة الروايات التي وردت في المصادر العربية عن محاولة

(٢٠) جوزفين كام : نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٢١) ابن عبد السلام : الفيض المديد في أخبار النيل السعيد ،
مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ١٥ ، ٥ ب .

كشفت العرب لمنابع النيل قبل الاسلام ومدى اسهام الكشافين العرب فيما وصل اليه جغرافيو الاغريق والرومان من معلومات عن هذه المنابع . فانه من المؤكد ان كشف منابع النيل قد استحوذ على اهتمام حكام مصر الاسلامية ، وان هؤلاء الحكام لم يدخروا وسعا فى هذا المجال بقدر امكانياتهم المتاحة آنذاك لمثل هذا العمل الكبير . وكان ذلك رغبة منهم فى معرفة سر هذا النهر الخالد وأملا فى الوصول الى منابعه حتى يتخذوا السبل الممكنة لتطويع هذا النهر لحاجتهم من مياهه والعمل على استمرارية وصول هذه المياه الى مصر لتستمر حياة دولهم على واديه . ولقد أيقن حكام مصر الاسلامية ، كما أيقن من حكم مصر قبلهم ، ان مصر هبة النيل وان النيل قادر على ان يهلك مصر غرقا او حرقا .

قال عبد الله بن عمر لقوم من مصر : « انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر ، قالوا له : ما يخرجنا منها يا ابا محمد . . اعدو ؟ قال : لا ، ولكن يخرجكم منها نيلكم هذا ، يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل وتاكل سباع الأرض حيتانه » (٢٣) .

ولقد بدأ الاهتمام بكشف منابع النيل فى مصر الاسلامية فى عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فى عهد حكم احمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧ هـ) على حسب رواية المسعودى . فلقد روى المسعودى أن ابن طولون كان على اهتمام وافر بأمر منابع النيل — ل ومحاولة كشفها والوصول اليها ، وأنه أعد من يقوم بكشفها ووضع الخطة لذلك سنة كذا وستين ومائتين (٢٤) . وأنه أخذ المعلومات الوافية عن هذه المنابع من رجل معمر من الأقباط كان يعيش فى صعيد مصر يبلغ مائة وثلاثون عاما من العمر وكان عالما بأحوال النيل ومنابعه . فسأله عنه وأخلى له نفسه ليال وایام كثيرة لیسمع كلامه عن النيل ومنابعه (٢٥) .

-
- (٢٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤٦٠ ، ورقة ٤٥ .
(٢٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .
(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .
(٢٥) جلال الدين المحلى : مقدمة النيل السعيد ، القاهرة ١٢٨١ هـ ، ص ١٨ .

ومما يدل على اهتمام ابن طولون بكشف منابع النيل واحتمال ارساله من يقومون بكشفه ، أنه ألف فى عهده كتاب عن جغرافية النيل ، مؤلفه مجهول ، ولقد أشار المسعودى الى هذا الكتاب بقوله عنه : « رأيت فى كتاب جغرافيا النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنى عشر عينا فنقب تلك المياه الى بحيرتين هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا غير برمالي هنالك وجبال ويخرق أرض السودان فيها يلى بلاد الزنج فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ فى عامر وغامر من عمران وخراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر » (٢٦) .

وجاء اهتمام الفاطميين الزائد أيضا بكشف منابع النيل ، وكان مرد هذا الاهتمام الى سببين رئيسيين : الأول هو الرغبة فى كشف هذه البلاد التى تمتد مع النيل جنوب مصر لنشر الاسلام والدعوة الفاطمية والمذهب النشيعي فيها بعد أن نفلوا دولتهم الى مصر ، والثانى ، محاولة تأمين مصر من خطر النيل وضمان وصول مياهه اليها بعد الجذب الذى تعرضت له البلاد أيام حكمهم سنوات عديدة بسبب نقص هذه المياه ، وبخاصة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) .

وقد بدأ الفاطميون اكتشافهم لمانبع النيل منذ قيام دولتهم فى مصر ، ويشهد على ذلك تلك المحاولة التى قام بها الرحالة الجفرانى عبد الله بن أحمد ابن سليم الأسوانى ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، بتكليف من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وقائده جوهر الصقلى لكشف منابع النيل .

وابن سليم الأسوانى داعية فاطمى كلفه الخليفة المعز عقب الفتح الفاطمى لمصر بكشف منابع النيل والذهاب الى بلاد النوبة والسودان لدعوة مليكها لدخول الاسلام . وقد مر ابن سليم بجميع بلاد النوبة (مملكة مقرة) وعرج على مملكة علوة ووصل الى عاصمتها سوبا (الخرطوم الحالية) ، وحاول النوغل من الخرطوم شمالا فى جنوب السودان ولكنه لم يوفق فى الوصول الى أبعد من الخرطوم . ويحدثنا ابن سليم الأسوانى عن هذه المحاولة قائلا بما نصه : « ولقد أكثر السؤل عن هذه المانبع وحاولت كشفها

من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول أنه وقف على جميع نهايه هذه الأنهار، والذي انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين أن نهايتها الى خراب » (٢٧) .
وقد دون ابن سليم الأسوانى جميع ما شاهده بعينه أو سمع عن النيل ومنابعه وعن بلاد السودان فى كتاب صنفه للخليفة المعز وجعل عنوانه : « أخبار النوبة والمقره وعلوة والبجة والنيل » وأهداه اليه . غير أن هذا الكتاب للأسف قد فقد وجاءتنا أخباره فى مصادر جغرافية وتاريخية كثيرة نقلت عنه ، وحفظ لنا المقريزى فى خططه الكثير مما نقله عنه فيما يتعلق بالنيل وبشعوب البجة والنوبة نقلا حرفيا . كذلك نقل عنه ابن عبد السلام فصلا عن النيل ومنابعه فى كتابه : « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » .

وذكرت لنا المصادر التاريخية ومصادر الدولة الفاطمية أن عالما مصريا برز فى عهد دولة العزيز بالله الفاطمى ، ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر ، يدعى الحسن بن محمد المهلبى ، قد قام برحلة طويلة فى بلاد السودان بتكليف من الخليفة ، وأنه ألف فى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م كتابا فى الطرق والمسالك للخليفة بعد عودته من رحلته ، عنى فيه بتتبع منابع النيل ووصف ما شاهده بصدد هذه المنابع ، كذلك وصف بلاد السودان وصفا دقيقا . ولسوء الحظ أيضا فقد ضاع هذا الكتاب مثلما ضاع كتاب ابن سليم الأسوانى . ولم تصلنا الا معلومات قليلة عنه وعن محتوياته فى بعض المصادر (٢٨) .

وورد أنه كانت للخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » ، اهتمامات بنهر النيل ومنابعه ، بعد انخفاض حدث فى مياه هذا النهر فى عهده ، فرغب فى تأمين وصول مياه النيل الى مصر . لذلك استقدم من البصرة العالم العربى الشهير « الحسن بن الهيثم » لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل (٢٩) وعمل بحيرة تخزين فيها مياه النيل بالقرب من منابعه يؤخذ منها الماء وقت الحاجة . لكن هذا المشروع لم يتم لأن ابن الهيثم بعد أن قدم الى

(٢٧) ابن سليم الأسوانى : أخبار النوبة والمقره وعلوة والبجة والنيل، نقلا عن خطط المقريزى ، نشر فيبى ، القاهرة ١٩٢٢ ، ج ٣ ، ص ٢٦١ .

(٢٨) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤ .

(٢٩) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة

١٩٦٦ ، ص ١٨٠ .

مصر وراجع حساباته مع النيل اكتشف وجود خطأ فى تلك الحسابات فاعتذر للخليفة عن اتمام المشروع .

ولعل أهم تلك المحاولات الكشفية لمنابع النيل التى جرت فى العهد الفاطمى تلك المحاولة التى تمت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، والتى رواها لنا الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو ، الذى زار مصر أيام حكم هذه الخليفة .

يقول ناصرى خسرو : « ويقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف ، وسمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة ودرسه ، ولكن احدا لم يعرف حقيقة منبعه ، ويقال انه يأتى من جبل فى الجنوب يسمى جبل التمر » (٣٠) .

وقال الحافظ بن كثير ، عما رواه عن ابن زولاق ، فى تاريخه عن هذه المحاولة الكشفية فى عهد المستنصر أن الخليفة « أمر قوما بالمسير الى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا الى جبل عال والماء ينزل من أعلاه وله دوى حتى لا يكاد يسمع أحدهم صاحبه وأن أحدهم صعد الى الجبل لينظر نأراد ذلك فلما وصل أعلاه رقص وصفق وضحك ، ثم مضى فى الجبل ولم يعد ، فلم يعلم أصحابه ما شأنه . وفعل آخر مثل الأول فحدث له مثله ، وكذلك ثالث فقال اربطوا فى وسطى جبلا فإذا أنا وصلت الى ما وصلوا اليه ثم فعلت ذلك فأجذبونى حتى لا أبرح موضعى . ففعلوا ذلك فلما صار فى أعلى الجبل فعل كفعلهم فجذبوه اليهم فقليل أنه خرس فلم يرد جوابا فمات من ساعته ، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك » (٣١) .

ولعل السبب الذى دفع الخليفة المستنصر الى هذه المحاولة الكشفية لمنابع النيل ذلك الانخفاض الشديد الذى تعرض له منسوب النيل عدة مرات لسبع سنوات متصلة فى عهد هذه الخليفة ، مما تسبب فى الضائقة الاقتصادية والمجاعة الشديدة التى تعرضت لها مصر فى عهده ونسبت اليه وعرفت فى التاريخ بـ «شدة المستنصرية» (٤٥٧ — ٤٦٤ هـ) .

(٣٠) ناصرى خسرو : سفرنامه ، ص ٨١ .

(٣١) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ١٠ .

ولقد تحدث المقرئى عن هذه الشدة فى كتابه « اغائة الأمة بكشف الغمة » ، وفى كتابه الخطط ، كما تحدث عنها كل من القلقشندى وابن تفرى بردى ، واكدوا أن الناس فى هذه المجاعة أكلوا الكلاب والقطط ، ثم تزايد بهم النال حتى أكل بعضهم البعض .

يقول القلقشندى عن نقص مياه النيل فى عهد المستنصر وما قرأه عنه فى كتاب النيل : « أن الماء زمن المستنصر مكث سنتين لم يطلع وطلع فى السنة الثالثة وأقام الى الخامسة لم ينزل ، ثم نزل فى وقته ونضب الماء عن الأرض فلم يوجد من يزرعها لقله الناس . ثم طلع فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة ولم يبق الا صباة من الناس ولم يبق فى الأقاليم ما يمشى على أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر » (٢٢) .

ويقول أبو المحاسن بن تفرى بردى : « أن القحط فى أيام المستنصر كان سبع سنين مثل سنى يوسف الصديق من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة ، أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل ولا يوجد من يزرع لموت الناس . فاستولى الخراب على كل البلاد ومات أهلها وانقطعت السبل برا وبحرا ، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين » (٢٣) .

ويتحدث المقرئى تفصيلا عن هذه المجاعة الشديدة التى أصابت مصر آنذاك بسبب نقص مياه النيل بقوله : « وعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات لما فسد من الأعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقف أرباب الفساد فى الطريق فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر . فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب والفتنة ما لا يمكن حصره . واستولى الجوع لعدم القوت وصار الحال الى أن بيع رغيف من الخبز وزنه رطل بزقاق القناديل بأربعة عشر درهما ، وبيع أردب من القمح بثمانين دينارا ، ثم عدم ذلك واكلت الكلاب والقطط ، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا » (٢٤) .

(٢٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٢ .

(٢٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٦٣ ،

ص ٣ .

(٢٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٦ .

وواصل الأيوبيون جهود حكام الفاطميين فى محاولة كشف منابع النيل بعد أن ورثوا حكم مصر عنهم . وجاء هذا الاهتمام مع بداية قيام الدولة فى عهد حكم صلاح الدين على يد وزيره العالم القاضى الفاضل (أبو على عبد الرحيم بن الحسن البيهقى) المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . ولقد ورد عن القاضى الفاضل اهتمامه بأمر النيل ورغبته فى كشف منابعه (٢٥) ، وكان قد عرف عنه حب الرحلة والاستكشاف وحبه لنهر النيل وتغنيه بأفضاله فى أشعار كتبها عنه ، اقتطف المقرئى بعضا منها وأوردها فى كتاب خطه . ولم تحدثنا المصادر صراحة عن جهود فعلية قام بها القاضى الفاضل لكشف منابع النيل ، ويبدو أن مشاغله الكثيرة فى وقت تطلب التفرغ لجاهدة الصليبيين حال بينه وبين ذلك .

وجاءت المحاولة الفعلية للكشف فى العهد الأيوبي على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ) . وقد ذكر هذه المحاولة كل من المؤرخين علاء الدين بن عبد الله الغزولى (ت ٨١٥ هـ) فى كتابه : « مطالع البدور فى منازل السرور » ، وابن ظهيرة فى كتابه : « الفضائل الباهرة » .

يقول الغزولى فى ذلك بما نصه : « كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشتري عبيد صفار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير فاذا مهرأ تصنع لهم مراكب صفار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل » (٢٦) .

ولعل محاولة الملك الصالح أيوب لكشف منابع النيل ، قد جاءت نتيجة لتعرض مصر لانخفاض فى مياه نيلها زمن حكم أخيه الملك العادل سيف

(٢٥) محمد حمدي المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٦ .

(٢٦) الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

— ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة ، ورقة ٤٣ .

— ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧٢ ، حاشية رقم (١) .

الدين أبو بكر سنوات ٥٩١ — ٥٩٨ هـ ، وما ترتب على ذلك من مجاعة تحدثت عن تفاصيلها الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي ، الذي زار مصر آنذاك (سنة ٥٩٧ هـ) .

وقد تحدث المقرئ في خطه عن هذا الانخفاض في مياه نهر النيل في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر فقال :
« توقفت زيادة النيل ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضي مصر الا الأقل ، وغلت الأسعار وتندر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا . وتبع ذلك فناء كبير ، وامتد ذلك ثلاث سنين ، فبليت عدة من كنفه العادل وحده من الأموات في مدة يسيرة نحو مائتي ألف وعشرين ألف انسان ، فكان بلاء شنيعا » (٢٧) .

ولم تذكر المصادر التي تحدثت عن دولة الأيوبيين مصير البعثة الكشفية التي أرسلها الملك الصالح أيوب الى أعلى النيل . هل نجح السلطان في تنفيذ خطته على نحو ما رسم ، أو هل توقف المشروع ولم تصل البعثة الى بغيتها بسبب تعرض البلاد آنذاك لهجوم الصليبيين ، هذا ما لم تستطع المصادر الاجابة عنه وصمت بمدنا بالمزيد عن معلومات هذه الرحلة الكشفية الهامة لمنابع النيل .

هذا وقد أشار ابن فضل الله العمري في كتابه « مسالك الأبصار » عن محاولات فردية قام بها بعض المغاربة في وقت قريب لتلك الحقبة ، وذكر أن أصحابها بالفعل وصلوا الى منابع النيل .

يقول العمري : « حدثني أفضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي أن الأمير أبا دبوس (أبو العلاء ادريس الوراق بالله) ووالده آخر سلاطين بر العدو من بني عبد المؤمن (٢٨) . قد وصلوا الى هذه البحيرة (بحيرة فيكتوريا) في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن بفاس (سنة ٦٦٧ هـ) » (٢٩) .

(٢٧) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٢٨) وهو آخر سلاطين دولة الموحدين بالمغرب ، وحكم في الفترة ما بين ٦٦٥ — ٦٦٧ هـ .
(٢٩) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٦٨ .

كذلك يحكى ابن فضل الله العمري أن الشيخ سعيد الدكالي ، الذي أقام بمالى خمسا وثلاثين سنة مضطربا فى بلادهما مجتمعا بأهلها ، حكى له قائلا : « ولقد توغلت فى أسفارى فى الجنوب مع النيل فرأيت متفرقا على سبعة أنهر تدخل فى صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا يخرج من البحيرة الكبيرة » (٤٠) .

فى نهاية الأمر نقول ان العرب المسلمين حارلوا قدر جهدهم كشف منابع النيل فى العصور الاسلامية الوسطى ، وبتوقف محارلاتهم تجمدت هذه الجهود الى العصر الحديث . وظلت منابع النيل لغزا لم يمت اللثام عنه الا فى منتصف القرن التاسع عشر ، على يد بعض الرحالة والمستكشفين الأوروبيين أمثال : بروس وسبيك وجرانت وصموئيل بيكر . ولقد استفاد هؤلاء الرجال ، دون شك ، من جهود المستكشفين العرب المسلمين وساروا على نفس دربهم . كذلك استفادوا من التسهيلات التى قدمت لهم حكومات محمد على وإسماعيل وسط أدغال افريقية من مواصلات حديثة متقدمة وغيرها ، والتى لولاها ولولا الأمان الذى وفرته هذه الحكومات لهم لتأخر زمن كشف منابع هذا النهر العظيم الى تاريخ لا يعرف توقيته الا الله .

علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

دكتور قاسم عبده قاسم

كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) قوة عالمية عظمت ، كما كانت هى القوة الكبرى فى أفريقيا وعالم البحر الأحمر ومن ناحية أخرى ، كان البحر الأحمر فى ذلك الزمان بحيرة عربية اسلامية تسيطر عليها الأساطيل المصرية ، وتحرم على سفن غير المسلمين دخوله لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وأمنية (١) . وكانت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قد أولت اهتماما متزايدا للبحر الأحمر باعتبارها حامية الحرمين الشريفين فى الحجاز من ناحية ، وبسبب ارباحها من التجارة العالمية المارة بهذا البحر من ناحية ثانية ، ثم اهتمامها بأحوال المسلمين فى شرق افريقيا من ناحية ثالثة فضلا عن اهتمامها التقليدى بأمنها الذى يشكل البحر الأحمر محورا هاما من محاوره .

وعلى الجانب الآخر كانت الحبشة تلعب دور القوة المسيحية الكبرى فى شرق القارة السمراء (٢) وعالم البحر الأحمر أيضا ، كما كانت مصالحها

(١) عرف البحر الأحمر فى المصادر التاريخية العربية باسم « بحر القلزم » أو « بحر الحجاز » المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥ ، ص ٢١٢ ، ص ٣٤١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٢) كانت الحبشة آنذاك تمتد من حدود امبراطورية مالى فى غرب افريقيا ، ويتضح من كلام المقرئى والقلقشندي أنها كانت تضم الى جانب الحبشة الحالية ، أقاليم دارفور وبحر الغزال والنيل الأبيض فى السودان الحالى ، فضلا عن سيادتها على مناطق شرق افريقيا التى عرفت باسم « الطراز الاسلامى » - انظر :

المقرئى ، الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٢٨ .

Ziada, M. M., Forlign Relations of Egypt in the 15th century (Liverpoole 1930), p. 114.

السياسية والاقتصادية والدينية تفرض عليها أن تمد خيوط علاقاتها لتلتقى مع خيوط المصالح المصرية ، فوق مياه البحر الأحمر ، وعلى تراب القسرة السمراء .

وهكذا كانت علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك محكومة بحقائق الجغرافيا ، وتوجهات السياسة ، وخبرة التاريخ ، فضلا عن المصالح الاقتصادية والروابط الدينية . ومن نافلة القول أن ننبه الى أن هذه كلها لم تكن من نتاج العصر الذى نهتم بدراسته وانما كانت نتاجا لتراكمات تاريخية فرضتها حقائق الموقع والمجال الحيوى لكل من مصر والحبشة آنذاك .

لقد فرضت الظروف والأحداث التاريخية التى شهدتها المنطقة فى منتصف القرن الثالث عشر أن تقوم مصر بدور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامى وعن الحضارة العربية الاسلامية(٣) . أما الحبشة ، فقد سيطرت سياسيا على جزء من ساحل أفريقيا الشرقى الذى قامت على ترابه عدة امارات ودويلات عرفها مؤرخو ذلك الزمان باسم «الطراز الاسلامى»(٤) . كما أن نجاشى الحبشة — الذى عرفته مصادر عصر سلاطين المماليك باسم الحطى — كان يعتبر نفسه مسئولا عن حماية الأقباط فى مصر . وقد تدخل لصالحهم أكثر من مرة كما سنرى فى هذه الدراسة .

بيد أن المصالح التجارية لعبت هى الأخرى دورا هاما فى تحديد مسار العلاقات بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك ، اذ كانت امارات «الطراز الاسلامى» ، ولا سيما امارة «أوفات» ، تتحكم فى الطريق

(٣) قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على الممولى فى معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات . ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد احياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) قال القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤) انها فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند (وهى ما يعرف حثيا باسم « القرن الافريقى ») ، ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له . وهى سبع امارات : وفات (أوفات) وهى جبرة التى ينسب اليها الجبرتى ، وزيلع ، ودوارو ، وأرابينى ، هدية ، شرعا ، بالى ، ثم دارة .

التجارى الذى كان يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر . وقد أدى هذا الموقف الى تعاظم ثروة امارات الطراز الاسلامى بحيث أسالت لعاب الطمع فى الحبشة المسيحية . من ناحية أخرى ، كانت لمصر مصالح تجارية حيوية فى هذا الجزء من أفريقيا . كما لفتت أنظارها ومشاعرها تلك الحملات العنيفة التى بدأ الأحباش المسيحيون يشنونها على المسلمين فى شرق أفريقيا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وعندما تصاعد الدور الأوروبى فى عالم البحر المتوسط — نتيجة نجاح الحملة الصليبية الأولى — فى القرن الثانى عشر ، ثم بداية الالتفاف والتوغل الأوروبى فى مياه المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر ، وجد ملوك الحبشة المسيحيون فى هذه التطورات العسكرية والسياسية الناجمة عن نشاط الصليبيين فى البحر المتوسط ، والنشاط البرتغالى فى المحيط الهندى ما يغريهم على صياغة مشروعات صليبية الطابع مع القوى الأوروبية ضد مصر . وكان ذلك انعطافا خطيرا فى العلاقات بين مصر والحبشة آنذاك .

لقد اتخذت العلاقات المصرية/الحبشية فى عصر سلاطين المماليك أبعادا ثلاثة : أولها : البعد الاقتصادى ، الذى تمثل فى المصالح التجارية لكل من البلدين فى داخل أفريقيا وفى تجارة البحر الأحمر العالمية . وثانيها : البعد الدينى الذى تجسد فى الروابط الدينية التى جمعت بين مصر ومسلمى الطراز الاسلامى من ناحية ، والحبشة وكنيسة الأقباط فى مصر من ناحية أخرى . أما البعد الثالث : فقد جسده العلاقات السياسية والعسكرية التى كانت بدورها انعكاسا لحركات المد والجزر فى العلاقة فى بعدها الاقتصادى وبعدها الدينى . ولنبدأ فى معالجة كل من المسارات الثلاثة التى اتفقتنا عليها .



وإذا بحثنا فى البعد الاقتصادى لوجدنا أن الظروف الناجمة عن الفزو المغولى ، الذى بدأ يجتاح المناطق الاسيوية منذ عهد جنكيزخان حتى داهم الخلافة العباسية ببغداد فى خمسينيات القرن الثالث عشر الميلادى ، قد أدت الى تحول طرق التجارة العالمية الى مصر وطريق البحر الأحمر . وبذلك صارت لمصر مصالح تجارية حيوية فى البحر الأحمر . فقد وصل المغول

الى فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى ، وبذلك انقطعت القوافل التجارية بين أوروبا والشرق عن ارتياد ذلك الطريق ، وتحولت الى الطريق عبر مصر والبحر الأحمر .

وقد تميز طريق البحر الأحمر التجارى بميزتين هامتين تتعلق أولاهما بالتجارة العالمية وهى سيادة الأمن على طول هذا الطريق بسبب قوة الدولة الملوكية ومهابتها فى طور صعودها ، على حين تتصل الميزة الثانية بتجارة البحر الأحمر الداخلية ، اذ كان هذا البحر سوقا لتبادل المنتجات التى توفرها البلاد الافريقية الداخلية والتى تطل على البحر ، فتدكان البحر الأحمر الطريق الأساسى لمنتجات امارات الطراز الاسلامى ، فضلا عن منتجات الحبشة وافريقيا الوسطى وبلاد البجاة . ومن المهم ان نشير الى أن البجاة كانوا يقومون بدور الوساطة فى العلاقات التجارية بين مصر والحبشة . وكانت عاصمتهم سواكن . وقد وصفهم القلقشندى بأنهم سكان المنطقة الواقعة ما بين نهر النيل والبحر الأحمر جنوبى الصعيد ، وفى عصر المماليك الجراكسة كان حاكمهم عربيا ، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية (٥) . وهكذا امتدت خطوط الروابط التجارية بين مصر والحبشة فى اتجاهين : أحدهما يهتم بمصالح مصر ودورها فى التجارة العالمية التى تستخدم البحر الأحمر ، على حين يهتم الانجاه الثانى بالتجارة الداخلية بين الدول الافريقية ، سواء الداخلية منها أو تلك التى تطل على البحر الأحمر .

هذه المصالح التجارية ، بجناحيها العالمى والمحلى ، هى التى حكمت علاقات مصر بعالم البحر الأحمر على مستوى العلاقات الاقتصادية التى تبادلته التأثير والنأثر مع العلاقات السياسية والدينية . وقد اهتم سلاطين المماليك

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ . وكان البجاة خليطا من المسلمين والمسيحيين والوثنيين . ومنذ القرن السابع الميلادى ذكرهم المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم وهو يتحدث عن حملات عبد الله بن سعد ابن أبى السرح . ومنذ ذلك الحين اختلطت بهم بعض القبائل العربية التى استوطنت أرض البجاة ، ومع مرور الزمن تصاعد الوجود العربى فى تلك الأنحاء حتى انتشرت اللغة العربية والاسلام فى مناطق البجاة لتقترب من حدود الحبشة التى كانت تضم بعض مناطق السودان الحديث (حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ١٩٩ — ص ٢٢٥) .

بأنشاء الوكالات التجارية المصرية على طول شاطئ هذا البحر ، كما اهتموا بتأمين طرق القوافل التجارية على البر . وأخذ الأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأحمر من السويس الى عدن مطاردا القراصنة كما امتدت فوق الأرض المصرية شبكة من الطرق البرية والنهرية ، وقامت على ضفاف نهر النيل عدة موانئ لخدمة التجارة العالمية كان أهمها فى القرن الأول من عصر سلاطين المماليك ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومدينة قوص فى الوادى (٦) .

والواقع ان التجارة على الساحل الشرقى لافريقيا قد نشطت منذ القرن الثانى عشر الميلادى بسبب الحروب الصليبية التى أدت الى استخدام طرق القوافل البرية التى امتدت شبكتها فى القارة الافريقية ، وكان أهم ما نلته هذه القوافل العاج والذهب اللذين اشدت الطلب عليهما فى أسواق غرب أوروبا (٧) . وكانت امارات الطراز الاسلامى على الشاطئ الشرقى لافريقيا تقوم بدور المعبر الهام لهذه التجارة التى ازداد نشاطها بعد غزوات المغول .

ومنذ البداية اشدت المنافسة بين موانئ البحر الأحمر على نقل التجارة العالمية وتجارة افريقيا الداخلية . فكانت موانئ مصوع وسواكن تختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة حيث كانت القوافل القادمة عن طريق البر تحمل اليها الرقيق والشمع والعسل من بلاد النوبة . كذلك كانت سفن دول افريقيا والبحر الأحمر تتجمع بمينائى زيلع وبربرة اللذين كانا بمثابة المركز الذى تتجمع فيه تجارة الحبشة والنوبة . وفى ميناء زيلع كانت تعقد أسواق العبيد والمعادن واللؤلؤ (٨) .

وكانت امارة أوفات الاسلامية (جيرة أو جبرت) تتحكم فى الطريق

(٦) المقرئى ، الخط ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، وقد ظل تجار الحبشة ، وغيرهم ، يردون فى البحر الأحمر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الشرقية الى قوص ثم العاصمة المصرية . وقد استمر الحال كذلك حتى سنة ٧٦٠ هجرية ، فتلاشى أمر ميناء عيذاب واحتلت عدن مكانتها (الخط ، ج ١ ، ص ٢٠٢) .

(٧) الشاطر بصلى ، تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط (الهيئة العامة للكتاب) ، ص ٢٠٠ .

(٨) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

التجارى الذى يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر (٩) . وقد ذكر « القلقشندى » أن إمارة أوفات كانت أوسع الممالك الإسلامية السبع التى تكون « الطراز الإسلامى » وأنها أقربها إلى مصر (١٠) أما إمارة هدية فكانت مركزا لتوريد الرقيق الذين كانوا يخصونهم فى قرية قريبة منها (١١) . وقد ازدهرت هذه الإمارات وزاد ثراؤها من دورها فى تجارة أفريقيا والبحر الأحمر بحيث استقلت عن الحبشة ، ثم دخلت معها فى سلسلة من الحروب الطاحنة كما سنرى فى صفحات هذا البحث .

ومنذ البداية أدرك سلاطين الممالك أهمية تأمين الطريق التجارى البحرى والبرى بين مصر وأفريقيا ، فقد ذكر « ابن عبد الظاهر » أن صاحب سواكن المسمى « علم الدين أسبعانى » ، الذى كان معاصرا للسلطان « الظاهر بيبرس » كان قد اعتاد التعرض للتجار المصريين وأخذ ميراث من يموت منهم فى البحر ، ومنع أولاده منه ، فأرسل يحذره هو وصاحب جزر ذلك المواجهة لمصوع ، ولما لم يجد منهما استجابة لاحتجازه أمر بتجريد حملة بحرية لاختضاع سواكن فى سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٥ م) . وبالفعل قامت حملة بقيادة والى قوص وأخميم ، وهرب صاحب سواكن التى تم إخضاعها لمصر . ومنذ ذلك الحين كانت هناك حامية عسكرية مصرية دائمة فى سواكن عاصمة بلاد البجاة التى كانت ممرا للتجارة بين مصر والحبشة (١٢) .

(٩) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، ص ٢١٣ —
ص ٢١٥ ، حسن محمود ، الإسلام والنقائنة العربية فى أفريقيا ، ص ٤٣٢ —
ص ٤٣٣ .

(١٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ .

(١١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(١٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٢٤٨ — ص ٢٤٩ . والجدير بالذكر أن مصر كانت تصدر إلى الحبشة البلسان أو البلسم الذى كان ينمو فى المطرية من ضواحي القاهرة ، وكان المسيحيون يحرسون عليه ولا يساوونه بذهب أو فضة لاعتقادهم أنه يروى من بشر اغتسل فيها ' مسيح حين قدمت به أمه إلى مصر (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) كذلك كان شحم البقر يصدر من مصر إلى دول الساحل الأفريقى وغيرها لاستخدامه فى دهان السفن ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٣٤ .

وظلت سياسة المالك قائمة على أساس الحفاظ على أمن طريق التجارة بين مصر وأفريقيا ودول البحر الأحمر .

يبد أن تدهور البناء الداخلى لدولة المالك الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها التجارية بعالم البحر الأحمر وأفريقيا . ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة الى الأموال جعلتهم يشترطون فى تقدير قيمة الضرائب التى فرضوها على التجار القادمين فى البحر الأحمر الى ميناء جدة الخاضع لهم . وقد تدهورت الموانئ المصرية لدرجة أن « ابن اياس » يذكر فى حوادث سنة ٩٢٠ هجرية (١٥١٥ م) أن المراكب لم تدخل جدة مدة تقرب من ست سنوات (١٢) .

ومن ناحية أخرى ، ادى نجاح البرتغاليين فى الوصول الى مياه المحيط الهندى فى سنة ١٤٨٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » الى حصار المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بحيث تحرلت السفن المحملة بالتوابل الى لشبونة عن طريق رأس الرجاء الصالح . وقد ذكر « المؤرخ اليمنى » يحيى بن الحسين « أن البرتغاليين قد فشلوا عدة مرات فى الدوران حول أفريقيا للوصول الى المحيط الهندى ، ثم « ... دلهم على الطريق رجل ماهر من أهل البحر يقال له « أحمد بن ماجد » بسبب أن كبير الفرنج أحسن اليه ولطفه ... » (١٤) . فقد كان « فاسكو دا جاما » فى ملندى بشرق أفريقيا سنة ١٤٩٨ م يبحث عن أحد الأدلاء ليقوده الى الهند ، وهناك لم يجد سوى « أحمد بن ماجد » الذى كان ملحا ممتازا ، وكان قد وضع دليلا بحريا استند فيه الى خبرته الشخصية الى جانب كتب السابقين (١٥) .

وهكذا بات الخطر البرتغالى يهدد البحر الأحمر ذاته . وعلى الرغم من النجاح الجزئى الذى أحرزه السلطان « قنصوه الفورى » ، وقائد اسطوله

(١٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ، كما يذكر فى موضع آخر (ج ٥ ، ص ٩٠) أن التجار امتنعوا عن دخول ميناء جدة « ... وآل أمره الى الخراب ... » .

(١٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ — ص ٦٣٢ .

(١٥) جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحه فى المحيط الهندى (ترجمة الدكتور يعقوب بكر — الأنجلو ١٩٥٨ م) ، ص ٢٣٧ .

« حسيں الكردى » فى ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ، فان تدهور الأحوال الداخلية فى مصر فى اواخر عصر سلاطين المماليك جعل مقاومة المحاولات البرتغالية غير ذات جدوى (١٦) . فمنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أخذ طريق البحر الأحمر التجارى يفقد قيمته تدريجيا . وكان طبيعيا أن تتدهور موانئ هذا البحر منذ ذلك الحين . وضاع طريق البحر الأحمر ليعود ثانية بعد افتتاح قناة السويس .

وعلى صعيد العلاقات الدينية ، كانت علاقة مصر بالحبشة محكومة بحقيقتين هامتين **أولاهما** : تتمثل فى الوجود الإسلامى شرق الحبشة ، **وثانيتهما** : العلاقة الوثيقة التى كانت تربط كنيسة الحبشة بالكنيسة القبطية .

وبالنسبة للوجود الإسلامى فى شرق الحبشة ، فان التاريخ يذكر لنا أن ثمة علاقة مبكرة قد قامت بين المسلمين والحبشة منذ هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة فرارا من اضطهادات المكيين لهم .

بيد أن أول احتكاك بين الدولة العربية الإسلامية والحبشة كان فى عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » حين أرسل أسطولا صغيرا لغزو الحبشة سنة ٢٠ هـ تقريبا بقيادة « علقمة بن مجزر المدلجى » (١٧) . وباعت تلك الحملة بالفشل . وطوال العصور التالية زاد الوجود العربى الإسلامى بطريقة سلمية فى الحبشة وشرق افريقيا ، خصوصا فى أرخبيل دهلك المواجه لمصوع على الساحل الصومالى . ومن ناحية أخرى كان من نتيجة التبادل التجارى ، بين اليمن والحجاز من ناحية والحبشة وشرق افريقيا من ناحية ثانية ، أن رحلت مجموعة من التجار العرب المسلمين الى هذه الأنحاء ، واستقروا فى جبرت (أوفات) وسموا بعد ذلك « الجبرية » (١٨) . وكانت تلك نواة إمارات

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٢ — ص ١٨٥ م .
وقد ذكر فى حوادث سنة ٩١٦ هجرية أن أمير مكة قبض على ثلاثة من البرتغاليين متخفين فى زى الأروام .

(١٧) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٤٢٦ — ٤٣٣ .
(١٨) كانت هذه المجموعة من المستوطنين المسلمين الأوائل من قبيلة قریش على ما يبدو وذكر بعضهم أنهم من بنى هاشم من سلالة بنى عبد الدار ، على حين زعم البعض الآخر أنهم من سلالة على بن أبى طالب — انظر :
المقرئزى ، الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٩ .

« الطراز الاسلامى » التى ازدهرت فيما بين القرن الرابع الهجرى والقرن السابع الهجرى (العاشر/الثالث عشر الميلادى) . وقد امتد نفوذهم على مناطق الساحل الشرقى الافريقى بحيث تكونت ممالكهم السبع بفضل دورهم فى التجارة المحلية وتحكمهم فى طريق تجارة الحبشة الى موانئ البحر الأحمر .

وقد وصف « القلقشندى » و« المقرئى » هذه الامارات وصفا دقيقا اعتمادا على ما ذكره « العمرى » صاحب « مسالك الأبصار » ، وروايات التجار والفقهاء الذين زاروا هذه المناطق . وقد حددها « القلقشندى » جغرافيا بأنها تقع على الساحل الشرقى لافريقيا « ... المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر التلزم وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها الطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له ... » (١٩) . وقد عرفت هذه البلاد فى مصر وبلاد الشام باسم « بلاد الزيلع » على الرغم من أن الزيلع « ... قرية من قراها ، وجزيرة من جزائرها غلب عليها اسمها ... » (٢٠) .

هذه الامارات السبع هى : أوفات (جبرة ، أو جبرت) التى كانت أقوى امارات الطراز الاسلامى وأكثرها عسكرا وأقربها الى مصر ، وكانت زيلع احدى مناطقها يفد اليها التجار فيرحب بهم أهلها ، وكانت مركزا هاما من مراكز التبادل التجارى لمنتجات داخل الحبشة ودول البحر الأحمر . والامارة الثانية هى « دوارو » ، والثالثة « أرابينى » ، والرابعة « هدية » التى كانت مركزا هاما من مراكز تجارة الرقيق الافريقية . وكانت هناك قرية قريبة اسمها « وشلو » يخصصون بها العبيد « ... أهلها همج لا دين عندهم ، فتخصى بها العبيد ، ولا يقدم على هذا فى جميع بلاد الحبشة سواهم .. » . والامارة الخامسة « شرعا » ، والسادسة « بالى » ، ثم الامارة السابعة « دارة » التى كانت أضعف امارات « الطراز الاسلامى » (٢١) .

وكانت هذه الامارات السبع خاضعة للنفوذ السياسى لملك الحبشة

(١٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .

(٢٠) المقرئى ، الامام ، ص ٢ .

(٢١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .

المقرئى ، الامام ، ص ٢ — ٩ .

(م ٥ — العرب فى افريقيا)

الذى كان نفوذه يشمل نسعة وتسعين ملكا من حكام الولايات منهم سبعة مسلمون كانوا يؤدون له ضريبة سنوية من المال والقماش وغيره .

وقد تداخلت العلاقات السياسية بالعلاقات الدينية فى ذلك الزمان بشكل يصعب تحديد مداه . ومن ثم كانت العلاقات بين الحبشة وامارات « الطراز الاسلامى » من أهم نقاط التوتر فى العلاقة بين مصر والحبشة ، فقد كان سلاطين المماليك يعتبرون أنفسهم مسئولين عن المسلمين فى تلك الانحاء . كما أن موقع هذه الامارات فى منطقة القرن الافريقى ذات الموقع الحاكم فى البحر الأحمر كان يجعل مصر والحبشة يهتمان بهذه المنطقة لاعتبارات أمنية .

وعلى الصعيد السياسى/العسكرى تدهورت العلاقات بين البلدين أحيانا بسبب الحروب التى شنها الملوك الأحباش ضد امارات الطراز الاسلامى . وهى حروب استمرت ، بشكل متقطع منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . ولم يكن سلاطين المماليك بقادرين على التدخل المباشر لصالح مسلمى الحبشة ، ومن ثم فأنهم لجأوا الى الطرق الدبلوماسية أحيانا ، والضغط عن طريق بطريك الأقباط الذى كان الزعيم الروحى للأقباط أحيانا أخرى . والحقيقة أن قانون كنيسة الأحباش الذى كان يجعل من الضرورى تعيين مطران يعقوبى قبطى لرئاسة الكنيسة الحبشية هو الذى جعل ملوك الأحباش يهتمون برد فعل سلاطين المماليك ولا يواصلون حروبهم الوحشية ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى .

والجدير بالذكر أن العلاقات بين مصر والحبشة كانت قد توقفت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بسبب الحروب الأهلية واضطراب الأمن فى الحبشة . وفى سنة ١٢٧٠ م بدأ حكم الأسرة السليمانية عندما اعتلى العرش النجاشى « يكونو أملاك » (٧٠ — ١٢٨٥ م) ، فتمت المصالحة بينه وبين الكنيسة الحبشية . وعلى الرغم من كراهيته لمسلمى الطراز الاسلامى بسبب اتساع نفوذهم وسيطرتهم على الموانئ والتجارة ، فإنه سعى لتحسين العلاقات مع مصر حيث يقيم البطريرك القبطى صاحب السلطة على كنيسة الحبشة . وأرسل « يكونو أملاك » الى السلطان « الظاهر بيبرس » سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) برسالة ضمن كتاب صاحب اليمن ، الذى طلب نجاشى الحبشة وساطته ، يطلب مطرانا لكنيسة الحبشة . وقد حفظت

لنا المصادر العربية نص هذه الوثيقة والرد المصرى عليها (٢٢) . وتشير الوثيقة الى أن الملك الحبشى قد أرسل هدية الى السلطان بيبرس ، كما تحمل بين سطورها تهديدا خفيا بذكر المسلمين الخاضعين لسلطة ملك الحبشة . وقد رفض الظاهر بيبرس ارسال المطران الى الحبشة نظرا لما بلغه من هجوم « يكونو أملاك » على امارة أوفات وحلفائها . ومع ذلك فان الرد الرسمى رفض الطلب الحبشى بحجة عدم حضور رسول من جهة نجاشى الحبشة « .. حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ... » . وقد أدى هذا الموقف من جانب بيبرس الى عقد هدنة مع أوفات (٢٣) .

والواقع أننا لا نقصد أن نقدم هنا رسدا زمنيا تتابعيا (كرونولوجى) لأخبار الحروب بين مسلمى الحبشة والملوك الأحباش المسيحيين ، ولكن ما يهمنا أن نضع بعض نماذج التدخل المصرى فى عصر سلاطين المالك لصالح المسلمين . ففى سنة ٧٢٦ هـ وصلت رسالة من نجاشى الحبشة « عمدا صهيون » (١٤ — ١٣٤٤ م) الى السلطان الناصر « محمد بن قلاون » يعبر فيها النجاشى عن غضبه لما حدث من تخريب لكنائس الآباط ، ويهدد باضطهاد المسلمين فى الحبشة ، ويسد مجرى النيل حتى لا يسير الى مصر فسخر منه السلطان ورد رسله . وربما كان موقف الناصر محمد ناجما عن الأخبار التى وصلتته عن هجوم الملك الحبشى على المسلمين وهو ما جعله يأمر البطريك بالتدخل (٢٤) .

(٢٢) ابن عبد الظاهر ، تشرىف الأيام والعصور ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٣٨٣ — ٣٨٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٣) حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٥٢ — ٤٥٤ ، زاهر رياض ، الاسلام فى أثيوبيا ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية/١٤/١٩٨٦ ، ص ١٦ .

(٢٤) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ . وربما كان هذا الموقف ناتجا عن وجود البعثة الدومينيكانية التى أرسلتها البابوية الى أفريقيا للبحث عن القديس جون ومملكته الأسطورية — انظر : الشاطر بصلى : تاريخ وحضارات السودان ، ص ١٢٠ — ١٢٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

وفى عهد النجاشى « سيف أرعد » (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) تم القبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين فى الحبشة ، وأعدم بعضهم على حين أرغم البعض الآخر على اعتناق المسيحية ، كما سارت فرقة من الجيش الحبشى لاعتراض طريق القوافل التجارية بين مصر والحبشة . ولكن السلطان الناصر « حسن بن محمد بن تالون » تدخل فى حل المشكلة التى تسبب فيها « الأمير شيخو » وطالب من البطريرك مكتبة ملك الحبشة وأرسل له عددا من الأساقفة (٢٥) .

وفى عصر الجراكسة استمرت العلاقات السياسية بين مصر والحبشة على ما هى عليه من تذبذب بسبب الروابط الدينية التى تربط بين مسلمى الحبشة ومصر . وكانت أولى الحوادث فى صفحة العلاقات السياسية بين الدولتين هى تلك الحادثة التى أشارت إليها المصادر المعاصرة (٢٦) وملخصها أن نجاشى الحبشة « داود بن سيف أرعد » (١٣٨١ — ١٤١١ م) قد هاجم حدود مصر الجنوبية سنة ٧٨٣ هجرية (١٣٨١م) وعاث فيها نسيباً « ... ونال أهل الإسلام منهم بلاء كبير ... » . فقام الأمير الكبير برقوق (الذى اعتلى العرش ، بما بعد تحت لقب الظاهر برقوق) باستدعاء الأنبا متاؤس بطريرك الاقباط وأمره بكتابة رسالة الى النجاشى ينهيه فيها عن مهاجمة مصر مرة ثانية . وعلى الرغم من أن كلا من « المقرزى » « وابن حجر » يذكران أن سفارة سافرت من مصر الى الحبشة برسالة حملها « برهان الدين الدمياطى » ، وعادت بعد ثلاث سنوات (٢٧) ، فإننا نميل الى رأى الشاطر بصيلى الذى يستبعد قيام الأحباش بهذه الغارة لبعده المسافة ووعورة الطريق (٢٨) .

وعلى أية حال ، فإن العلاقات بين الدولتين سادها طابع السود

(٢٥) كان الأمير شيخوقد سجن البطريرك فى الاسكندرية فاهتاج ملك الحبشة لذلك وأخرج السلطان عن البطريرك وراسل ملك الحبشة بقصد التخفيف عن المسلمين هناك . (الشاطر بصيلى ، المرجع السابق ، ص ٥٦) .

(٢٦) المقرزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

(٢٧) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، المقرزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

(٢٨) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

والاستقرار فى عهد السلطان « الظاهر برقوق » وابنه « الناصر فرج » كما يبدو واضحا من أخبار السفارات المتبادلة التى حملتها لنا مصادر تلك الفترة ، فقد سافر « برهان الدين الدمياطى » الى الحبشة كما أسلفنا القول وعاد منها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) . وبعد وصوله بعامين جاء الى مصر وفد حبشى بهدايا فاخرة « ... فيها من طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على قدر الحمص ... » (٢٠) كذلك فان لدينا وثيقة هامة هى نص خطاب النجاشى « داود بن سيف أرعد » للسلطان برقوق (٢١) . وفى هذه الوثيقة يقرر الملك الحبشى أن بلاده مفتوحة أمام التجار والمسافرين ، ويذكره بما كان بين جده « عبد سنون » ، والملك « الناصر محمد بن قلاون » من محبة واتفاق . ويخبره بوصول رسالة البطريك متاؤس والرسالة التى حملها « برهان الدين الدمياطى » . ثم يدخل فى صميم موضوع رسالته حين يقول انه لا يلحق بالمسلمين فى بلاده أى أذى ، وأن أى أخبار تصل السلطان المصرى عن اضطهاد المسلمين فى الحبشة أخبار كاذبة . ومن الطريف انه يزعم انه يأمر قومه بصرف المياه الزائدة عن النيل حتى لا يصل الى مصر ويفرقها . وبعد أن يتحدث عن حسن معاملة التجار الواردين من الديار اليمنية والمصرية والحجازية يقول ان المسلمين فى بلاده ينعمون بالأمان . ثم يطلب حسن معاملة النصارى بالديار المصرية ويهدد صراحة « ... ومهما فعلتموه مع أبينا البطرك واخوتنا النصارى من الخير والشر ، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين فى حوزتنا وفى سلطاننا ... » . ثم يختم الرسالة باستعراض قوة بلاده وعظمتها .

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت من جديد بين مصر والحبشة بسبب الهجمات التى شنها هذا النجاشى وخلفاؤه ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى منذ سنة ٨٠٥ هجرية (١٤٠٢ م) وربما يكون السبب فى هذا التحول ما طرأ على تسليح الجيش الحبشى وتدريبه من تحسن وتطور بفضل

(٢٩) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٣١) ضمن مجموعة سيرة بلام يواصف — مخطوط بمكتبة الأقباط الارثوذكس ، نقلا عن كتاب : أمين حكيم عبد السيد ، قيام دولة المهاليك الثانية ، ص ١٧٦ — ص ١٨٠ .

مساعدة بعض امراء المماليك وبعض ارباب الادارة المصريين الذين رحلوا الى بلاط النجاشي . فقد ذكر المقرئى أنه فى عهد النجاشي « اسحق بن داود بن سيف أرعد » (١٤١٤—١٤٢٩ م) فر والى قوص المدعى « الطنبغا مفرق » الى بلاط هذا الملك ، وعلم أتباعه لعب الرمح ، ورمى النشاب وغير ذلك من ادوات الحرب ، ثم لحق به بعض المماليك الجراكسة ممن لديهم الخبرة فى ترتيب خزائن السلاح (الزردخانة) « ... فعمل له زردخانه ملوكية ، وتوجه اليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى — يقال له فخر الدولة — فرتب له مملكته ، وجبى له الأموال ، وجند له الجنود ... » (٣٢) .

فقد شن هذا الملك هجوما عنيفا ضد امارات الطراز الاسلامى سنة ٨٢٢ هـ مما جعل السلطان المؤيد شيخ يتخذ بعض الاجراءات ضد المسيحيين فى مصر والشام (٣٢) وفى سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) قام السلطان الجديد « برسباى » باغلاق كنيسة القيامة فى بيت المقدس انتقاما مما جرى للمسلمين فى الحبشة ، وبسبب غارات القراصنة الكتلان على الشواطىء العربية فى تلك السنة . وكان رد الفعل عنيفا من جانب النجاشي اسحق بن داود (جبرا مصقل) الذى وضع السيف فى رعاياه المسلمين ، وهاجم اوفات وأهان المساجد والمسلمين . وهاج برسباى عندما بلغته تلك الانباء . وهدد بمذبحة عامة ضد جميع رعاياه المسيحيين (٣٤) .

ويبدو ان هجوم ملوك الحبشة المسيحيين على دول الطراز الاسلامى قد بلغ مستوى عاليا من العنف بسبب تطور الجيش الحبشى بفضل الخبرة المصرية ، بحيث فر ولدا « سعد الدين المجاهد » الى اليمن سنة ٨٢٥ هـ حيث استقبلهما سلطان تفر فى جنوب اليمن واكرمهما وجهازهما بمائتى فارس

(٣٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٩٤—١٩٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٨١ — ٨٤ ، العينى عقد الجمان ، حوادث ٨٢٢ هـ (مخطوط) .

(٣٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٢٦٠ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٤٩ .

بعتادهم فعادا الى الحبشة لمواصلة الحرب ضد الأقباش (٢٥) . وفى سنة ٨٣٣ هـ هاجم نجاشى الحبشة أوفات « ... فقتل وسبى وأسر عالما عظيما ، وكان ممن أسره منصور ومحمد ولدا السلطان سعد الدين بن أحمد بن على ابن ولصم الجبرتي .. ملك المسلمين بالحبشة ... » (٢٦) .

ولكن النجاشى « زرعاً يعقوب » (١٤٣٤ — ١٤٦٨ م) أرسل سفارة تحمل طلبا بإعادة العائلات الودية بين مصر والحبشة ، ووصلت السفارة سنة ٨٤٧ هجرية (١٤٤٣ م) ، وتضمنت الرسالة بعض عبارات التهديد التى أثارت غضب السلطان « دقمق » (٢٧) . فقد جاء بها ما نصه « ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع ازديادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم ، لأن لنا بلادا انفتح لها أماكن سوقانية يتصرف فيها الى أماكن أخرى قبل أن يجيئكم ، ولا يمنعا من ذلك الا تقوى الله والشفقة على عباده ... » .

وغضب السلطان جقمق « ... ولكنه سلك طريقة وسطى ... » وأرسل سفارة بهدية الى الحبشة ، رفض فيها مطالب ملك الحبشى ، ولم يشأ الاستماع الى دعاوى النجاشى « زرعاً يعقوب » بشأن التسامح تجاه المسلمين الأقباش ، لأنه كان يعرف تماما جهوده من خلال رجال السلك الكهنوتى من المصريين والأقباش فى مجمع فلورنسا للحصول على مساعدة أوروبا لتدمير القوى الاسلامية فى الحبشة (٢٨) .

والواضح من سياق الأحداث أن « زرعاً يعقوب » لم يرض برد السلطان الملوكى فاحتجز الرسول المصرى وهدده بالقتل ، ثم أرغم الرسول المصرى على الركوب لميدان القتال حيث شاهد بنفسه هزيمة « شهاب الدين » ملك عدل وذبح أخيه « خير الدين » . وكان رد الفعل عنيفا لدى « جقمق » ،

(٣٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ .
(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩ .
(٣٧) انظر نص رسالة الملك الحبشى فى : السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ — ٧١ .

(38) Ziada, Foreign relations, no. 282-85.

وانظر ما يلى عن مجمع فلورنسا فى الصفحات التالية .

وكنه سمح للتشاور المنعقل أن يستمر لأنه لم يكن يملك غير ذلك ، فأمر بطريك الأقباط بمكاتبة ملك الحبشة . وبعد ذلك قرر « جتقى » الدخول فى علاقة مباشرة مع مسلمى الحبشة بزعامة « محمد بن شهاب الدين » سلطان أوغات الذى طلب من السلطان الملوكى أن يفعل ما فيه خير الاسلام دون النقيذ بموقفهم فى الحبشة (٢٩) .

هكذا ، كانت السفارات المبادلة بين مصر والحبشة تحاول استخدام الوسائل السلمية والدبلوماسية فى صالح المسلمين فى شرق الحبشة من جهة ومسيحي مصر من جهة أخرى . وإذا كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك قد استخدمت أساليب الدبلوماسية والضغط السياسى للخنفة ، عن مسلمى الحبشة ، فان ملك الحبشة التابع فى معاقلة الجبلية الحصينة عند منابع النيل الأزرق كان من أشد المدامعين عن أقباط مصر النصارى حماسة بسبب العلاقات الوثيقة بين الكنيسة المصرية والكنيسة الحبشية التى كانت بمثابة فرخ من أفراخها . ولم تقف جهود ملك الحبشة عند حد الرسائل الودية والسفارات المحملة بالهدايا ، وإنما تعدت ذلك الى التهديد بمنع مياه النيل عن مصر ، ثم محاولة صياغة مشروعات صليبية مشتركة مع الغرب الأوروبى ضد مصر والمنطقة العربية عامة . وتلك قصة تستحق أن تروى .

ترجع العلاقة بين الكنيستين ، الحبشية والمصرية ، الى النصف الاول من القرن الرابع الميلادى حين استطاع « فرومنتيوس » تحويل الحبشة الى

(٣٩) السخاوى ، القبر المسبوك ، ص ٦٧—٧٣ .

(٤٠) بعد مرسوم ميلانو ٣١٣ م تسربت المسيحية الى الحبشة بفضل العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية ، ولكن تأسيس الكنيسة الحبشية يرجع الى أخوين من صورهما : فرومنتيرس وايدسيوس اللذين كانا ضمن بعثة تبشيرية قتلت كلها ولم ينج سواهما ، وتمكنا من اقناع ملك اكسوم باعتراف المسيحية وعين فرومنتيوس أول أسقف لكنيسة الحبشة . واعتنق الملك عزانة المسيحية وجعلها دين الدولة الرسمى حوالى منتصف القرن الرابع . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان مطران كنيسة الحبشة من الأقباط — انظر :

سميد عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٨ — ١٠ ، طرخان ، الاسلام والممالك المسيحية ، ص ١١ — ١٤ .

Atiya, The Crusades in the later Middle Ages, p. 276.

المسيحية الأرثوذكسية . ومنذ اعتماد فرومونتوس ورسامته مطرانا للحبشة ، أصبح بطاركة الاسكندرية يولون اساقفة الحبشة (٤٠) . ومنذ قيام المسيحية فى الحبشة اعتبر الأقباش أنفسهم أبناء الكنيسة القبطية فى مصر ، كما اعتبروا أن بطريك الاسكندرية زعيمهم الروحي (٤١) .

ومنذ ذلك الحين كانت الحبشة دائما تحتاج الى الكتب الدينية من مصر ، فضلا عن أن رأس الكنيسة الحبشية كان مطرانا قبطيا يعينه بطريك الأقباط الأرثوذكس فى مصر ، وكانت الأوامر السلطانية — فى عصر سلاطين المماليك — تخرج للبطريك بارسال المطران المطلوب الى الحبشة بعد أن ترد رسالة النجاشى فى طلب ذلك ومعها الهدايا والتحف الثمينة . وكان هذا المطران يتمتع باحترام كبير من جانب الأقباش ، كما أن وجوده فى بلادهم كان على جانب كبير من الأهمية نظرا للمهام الاجتماعية والدينية التى ارتبطت بالكنيسة فى حياة الأقباش والتى لم يكن من الممكن انجازها فى غياب رأس الكنيسة ، إذ أن غيابه كان يعرض الكثير من الشؤون الاجتماعية فى الحبشة لخطر الانهيار (٤٢) . وقد ذكرت المصادر التاريخية العربية ما يدل على أهمية بطريك الأقباط الأرثوذكس بالنسبة للأقباش ، فقد ذكر القلقشندى أن البطريك « .. صار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم يتصرف فيهم بالولاية والعزل ، ولا تصح ولاية ملك منهم الا بتوليته .. » (٤٣) كما ذكر « ابن فضل الله العمري » أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريك (٤٤) . وقد ذكر المقرئى عبارة عامة تدل على مدى تعصب الأقباش لذهب الطبيعة الواحدة الذى اعتنقته الكنيسة المصرية ، فقال ان الأقباش « .. يعتنقون مذهب اليعقوبية تشددا زائدا ... » (٤٥) .

(41) Leo Honsberry, «Ethiopian Ambassadors to Latin Courts and Latin emissioma ries to Prester John», in : Ethiopia Observer, IX, 2, 1965, p. 91.

- (٤٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٣٠ — ٣١ ، المقرئى ، الامام ، ص ٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ٤٧ من المقدمة .
 (٤٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
 (٤٤) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٣٠ .
 (٤٥) المقرئى ، الامام ، ص ٣ .

ومن مظاهر تجليل الملك الحبشى لأوامر بطريرك الأقباط أنه حين كان يرد إليه كتاب البطريرك يأمر بأن يتلى فى الكنيسة يوم الأحد ، والملك واقف فلا يجلس سوى بعد الفراغ من قراءته وتنفيذ أوامر البطريرك الواردة فيه (٤٦) .

كذلك عرفت الحبشة النظام الديرى نتيجة علاقاتها بمصر منذ القرن الخامس الميلادى وتأسست عدة أديرة للرهبان الأقباش ، كما أن الأقباش كان لهم دير فى بيت المقدس — الذى كان تحت الحكم المصرى آنذاك — ووجد منهم عدد فى أديرة مصر (٤٧) ، بل أن الأقباش اليعاقبة كان لهم دير مستقل فى وادى النطرون (٤٨) . وهو ما يدل بوضوح على مدى عمق الرابطة الدينية التى كانت تربط الأقباش بالكنيسة المصرية .

من ناحية أخرى ، حرصت السلطات المملوكية على أن تهسك بخيوط العلاقة بين الأقباش والكنيسة المصرية فى يدها . ويستناد من الوثائق التى حفظتها لنا مؤلفات المؤرخين المعاصرين أن السلاطين كانوا يحتاطون كثيرا على أمر هذه العلاقة خوفا من أن تستغل ضد الدولة ومصالحها لا سيما عندما بدأت تصل الى المصريين أنباء عن مؤامرات الأقباش ضد المصريين والمسلمين لفتوى المنطقة من الشمال والجنوب .

ولدينا وثيقة تجسد هذه المخاوف ، وهى عبارة عن « توقيع (٤٩) لبطرك النصارى اليعاقبة » يرجع تاريخه الى سنة ٧٦٤ هجرية ، ويهمنى التحذير

-
- (٤٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ص ٣٠٩ .
 (٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٩ م) ، ص ١٣٠-١٣٢ .
 (٤٨) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٠-٥٠١ .
 (٤٩) التوقيع : وجمعه تواقع ، معناه الأساسى فى اللغة وضع خاتم أو علامة أو شعار فى أسفل وثيقة رسمية ، ثم اكتسبت الكلمة معنى اصطلاحيا فى العصر الأيوبرى والفاطمى بحيث يعنى منشور ادارى عام صادر عن السلطان ويحتاج الى توقيعه أو علامته أو كليهما معا — انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ ، قاسم ، أهل الذمة ، ص ٦٦ — وكذلك :

Bosworth, Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria, JMES, vol. 3, 1972, pp. 199-200.

الصادر الى بطريرك البعاقبة فى الوصية الصادرة لبطريرك البعاقبة بعد هذا التوقيع تحمل التعليمات المتعلقة بالوظيفة . فالدولة فى هذه الوثيقة توجه تحذيرها المشدد للبطريرك بالا يحاول الاتصال سرا بالحبشة « . . . حتى اذا قدر لا يشتم اطراف الجنوب . . . » (٥٠) وبالضرورة كان اهتمام دولة سلاطين المماليك باستقرار واستمرار عزل الكنيسة القبطية عن القوى الخارجية كبيرا . ومع أن الأقباط كان لديهم تراث طويل من العداء المذهبى تجاه مسيحيى الغرب الأوربى وذكريات اليمة عن التعذيب الذى نال الأقباط من البيزنطيين ، وعلى الرغم من أن امكانية اعتبار القبط جواسيس يعملون لصالح القوى المسيحية الخارجية لم تكن واردة على الاطلاق ، فان الدولة الملوكية حرصت على أن تكون علامة الكنيسة المصرية بالاحباش من خلالها .

ونستطيع من خلال الوثائق والمصادر التاريخية المتوفرة لدينا أن نتابع جهود الأحباش فى صالح المسيحيين المصريين . ولدينا طائفة من أخبار السفارات الحبشية التى جاءت الى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك تطلب تعيين مطران جديد ، أو بعض الكتب ، أو تطلب السماح لبعض الحجاج الأحباش بزيارة بيت المقدس ، أو إعادة فتح بعض الكنائس والتخفيف عن الأقباط . . . وما الى ذلك .

والجدير بالذكر أن العلاقات المصرية/الحبشية كانت قد توقفت فترة حوالى نصف قرن ، منذ بداية القرن الثالث عشر ، بسبب اضطراب الأحوال الداخلية فى الحبشة ، ولكن الامبراطور يكونو أملاك الذى اعتلى المرش سنة ١٢٧٠ م ، أرسل يطلب مطرانا ويعيد العلاقات ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رفض طلبه ، كما أوضحنا من قبل (٥١) . ثم أراد النجاشى «يجباصهيون» أن يصلح العلاقات بين البلدين لأن والده كان قد عين مطرانا من السوربان لرئاسة الكنيسة الحبشية مما أثار حفيظة شعب الحبشة ضد النجاشى « يكونو أملاك » . وأرسل « يجباصهيون » وفدا برئاسة عربى اسمه

(٥٠) نص التوقيع فى القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٣٩٧—
٣٩٩ . ونص « الوصية » فى ابن فضل الله العمري : التعريف ، ص ١٤٦ .
(٥١) انظر ما سبق وأيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٢١٩ (مخطوط) .

« يوسف بن عبد الرحمن » ، ومعه ثلاثة كتب ، أولها للسلطان « المنصور قلاون » تاريخه شهر رمضان ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠ م) .

وهذه الوثيقة التى حفظها لنا « ابن فضل الله العمري » (٥٢) تكشف عن مدى اهتمام الأقباط بالروابط الدينية التى تربطهم بالكنيسة المصرية ، وطلب ارسال مطران لاصلاح بلاد الحبشة . وفى هذه الوثيقة يقول النجاشي انه ليس مثل والده فى عدائه للمسلمين « ... واننى احفظ المسلمين فى جميع مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ، ويدا واحدة ، وتتواصل الرسل من الجهتين ... » .

وكان الكتاب الثانى مرسلا الى البطريك « يؤنس السابع » بطريك الأقباط الأرثوذكس وهذه الوثيقة (٥٣) . يعتذر النجاشي فيها عن أن والده أحضر مطارنة من السوريان « ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خلبناهم عندنا وطردهناهم ، وما كانوا قعدوا عندنا الا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك ... » .

أما الكتاب الثالث ، فهو الرد الذى كان السلطان « الظاهر بيبرس » قد أرسله الى « يكونو أملاك » فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هـ .

وفى سنة ٧٢٦ هجرية وردت رسل النجاشي « عمدا صيون » الذى خاض حروبا متواصلة ضد مسلمى الحبشة تطلب من السلطان « الناصر محمد بن قلاون » إعادة فتح الكنائس ومعاملة المسيحيين بالحنونة ويهدد بانسهاد المسلمين فى الحبشة وبتحويل مجرى نهر النيل لتجربع المصريين (٥٤) .

وعلى الرغم من ذلك ظلت الرسل والسفارات ترد الى القاهرة طوال عصر سلاطين المماليك ، فلدينا أنباء عن سفارة أرسلها النجاشي « يعقوب

(٥٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ١٧٠ — ١٧٢ . نسخة خطاب صاحب الحبشة يجباييون (صهيون) والملقب أيضا سلمون سليمان حكم (١٢٨٤ — ١٢٩٣ م) .

(٥٣) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٥٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

ابن داود بن سيف أُرعد « سنة ٨٤١ هجرية تحمل كتابا منه ومعه هدية ما بين ذهب ، وزباد ، (وهو نوع من العطور التي اشتهرت بها الحبشة) ، وغير ذلك » ... فتضمن السلام والتودد والوصية بالنصارى وكنائسهم « (٥٥) . وفى سنة ٨٤٧ هـ جاءت رسل الحبشة بكتاب يتضمن التهديد بقطع النيل وطلب معاملة النصارى بالحنى (٥٦) ، وفى سنة ٨٥٧ هـ وفدت رسل ملك الحبشة الى السلطان « جقمق » الذى استقبلهم على سرير المرض ثم توفى فاستقبلهم رسميا ابنه « المنصور عثمان » (٥٧) . وفى عهد السلطان الأشرف تاييتباى وفدت سفارة أخرى الى مصر لنفس الغرض (٥٨) .

بعد ذلك انقطعت رسل الحبشة عن القدوم الى مصر لمدة تقرب من ست وثلاثين سنة ٨٨٦ — ٩٢٢ هجرية . وفى السنة الأخيرة وفدت سفارة حبشية ومعها وفد من الحجاج الأحباش فى طريقهم الى بيت المقدس . ويصف لنا المؤرخ ابن اياس آخر سفارة حبشية استقبلتها القاهرة فى عصر سلاطين المماليك فيقول ان السفارة ضمت خمسة من أمراء الحبشة « .. والباقي لبط ، فيهم من هو عريان الرأس ، وعلى رأسه شوشة بشعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة ، وفى أياديهم أساور ذهب .. وكان مجموع ذلك الحبشة الذى حضر الى مصر نحو ستمائة انسان .. وكان صحبتهم البترك الكبير . واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم .. » (٥٩) .

ويبدو أن الهدية التى جلبوها معهم كانت ضئيلة القيمة بحيث وبخ السلطان من أحضرها وأحضر قوائم بهدايا ملوك الحبشة الى أسلافه من سلاطين المماليك . والراجح لدينا أن تدهور مكانة مصر العالمية وضعفها البادى كان وراء استهانة ملوك الأحباش بالسلاطين وهو ما انعكس على تفاهة الهدية التى كانت فى عرف السياسة فى ذلك الزمان عنوانا على التقدير والاحترام . كما أنه يبدو أن اندماج ملوك الحبشة فى المشروعات الأوربية لحصار المسلمين كان وراء ذلك الموقف .. وتلك قصة أخرى .

-
- (٥٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٠٢٤ .
 (٥٦) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٧٤٥ — ٧٤٦ (مخطوط) .
 (٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .
 (٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ .
 (٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ — ١١ .

وهكذا لم يكن ملوك الحبشة الأقوياء قادرين على تجاهل ما كان يتعرض له المسيحيون في مصر وبلاد الشام ، أحيانا ، من متاعب تحت حكم سلاطين المماليك . وقد سلك ملوك الحبشة طرقا أربع لصالح الأقباط ، أولها : التهديد باغلاق منابع النيل الأزرق لمنع مياه الفيضان من الوصول الى مصر ، وثانيها : شن الحملات الانتقامية على مسلمي الحبشة ، وثالثها : ارسال السفارات الودية المحملة بالهدايا الى سلاطين المماليك ، ورابعها : محاولة التحالف مع القوى الأوروبية ضد مصر . وبينما لم تثمر الطريقة الأولى والطريقة الأخيرة شيئا ، آتت اضطهادات مسلمي الحبشة بنتائج عكسية تماما ، على حين استطاعت السفارات والرسائل الودية تحقيق بعض النتائج الطيبة لصالح الأقباط .

يبقى الآن نقطة أخيرة في هذه الدراسة ، وهي الاتصالات الحبشية مع بلدان أوروبا بقصد العمل المشترك ضد مصر . ويبدو أن صعود الأسرة السلিমانيّة على عرش الحبشة ، التي بدأت بحكم النجاشي يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) ، كان بداية لصحوة دينية وسياسية في الحبشة ، فقد زاد نشاط المبشرين بين القبائل الوثنية في الحبشة ، كما بدأ الهجوم الحبشي المنظم ضد امارات « الطراز الاسلامي » . ومن ناحية أخرى بدأ ملوك الحبشة يحاولون الاتصال بالقوى الصليبية العاملة في البحر المتوسط لتطويق مصر من الشمال والجنوب . وربما كانت المشروعات الصليبية المتأخرة ، والتي نتجت عن نجاح المصريين في القضاء على الوجود الصليبي فوق الأرض العربية في فلسطين أواخر القرن الثالث عشر ، وراء تلك الروح العدوانية التي غلبت على سياسة الأحباش .

وغنى كثير من أخبار الرحلات التي حفظها لنا الزمن ، قبل الحروب الصليبية وبعدها ، يتحدث الرحالة الأوروبيون عن أنهم قابلوا حجاجا من الأحباش في الأرض المقدسة . كما أن المصادر التاريخية تخبرنا عن أن كثيرين من الأمراء الصليبيين قد دفنوا في كنيسة الأحباش القريبة من الضريح المقدس (٦٠) . بيد أن هذا لم يكن شكلا للعلاقة الوحيدة بين الأوروبيين والأحباش في ذلك الزمان . فقد شاعت في أوروبا في القرن الرابع عشر فكرة

أن نجاشى الحبشة هو « برسترجون » الذى ذاعت حوله قصص خيالية كثيرة منها أنه يمكنه فتح بوابات مياه النيل لتفرق مصر . ولكن ما يلفت النظر هنا أن الأوروبيين لم يحاولوا قبل الحملة الصليبية السابعة أن يبذلوا أى جهد لاكتشاف مكان هذا الحليف المسيحى القوي (٦١) . وحتى نهاية الحروب الصليبية لم يكن هناك مبعوثون الى بلاد النوبة أو الحبشة التى كان الأوروبيون يعتقدون أن مملكة برسترجون فى احداها أو فى الهند . وعندما عرفت أوروبا أن ملك الحبشة المسيحى هو « برسترجون » ، اكتشفوا أنه ليس ثريا أو قويا كما صورته الأسطورة ، ولكنه مسيحى . وكان هذا كافيا بالنسبة لمشروعات البابوية .

ووفقا لوثيقة هامة من وثائق البابوية ، يتضح أن اثنى عشر من بابوات روما الذين جلسوا على عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٩ م وسنة ١٤٢٤ م ، أرسلوا خطابات ملوك الحبشة خلال هذه الفترة . كما أن وثائق بابوية ورهبانية أخرى تخبرنا أن عددا كبيرا من الأوروبيين سافروا فرادى ، أو ضمن بعثات دينية ، أو دبلوماسية ، أو عسكرية ، الى مملكة النوبة المسيحية ومملكة الحبشة فيما بين سنة ١٢٥٤ م وسنة ١٦٣٢ م . وقد أمضى بعضهم بقية عمره فى الحبشة ، على حين عاد الآخرون الى بلادهم ليقدموا انطباعاتهم من خلال الكلمة المكتوبة ، أو الحكايات الشفوية ، عن بلاد الحبشة البعيدة (٦٢) .

فى سنة ١٢٧٥ م قام « يكونو أملاك » مؤسس الأسرة السلیمانية بإيفاد سفارة الى الامبراطور البيزنطى « ميخائيل الثامن باليولوجوس » ومع السفارة

(61) E. Denison Ross, «Prester Johs and the Empire of Ethiopia» in : Newton, Arthur Percival (ed.), Travel and travellers of the Middle Ages (London 1930). p. 180.

(62) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90;

فى سنة ١٣١٦ أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون ثمانية من الرهبان الدومينكان الى الحبشة ، وقامت احدى الرهبان بتأسيس دير للبنات ، واستطاع الرهبان أن يوطدوا علاقتهم بالأحباش — انظر : الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٠٨ — ١١٠ ،

Ross, «Prester John», pp. 192-193.

هدية نادرة . وبعد ذلك بثلاثين سنة جاءت سفارة حبشية من حوالى ثلاثين
نردا الى البابا « كليمنت الخامس » فى افينون ووصلت سنة ١٣٠٨ م . وفى
١٤٠٢ م شهدت مدينة البندقية ضجة واثارة بسبب قدوم سفارة حبشية معها
عدد من الفهود الانريقية على سبيل الهدية . كما حدث فى سنة ١٤٠٨ م
أن قام الحجاج الأحباش بزيارة بولونا فى طريقهم الى روما بعد زيارة بيت
المقدس . وبعد ذلك بتسع عشرة سنة قام « الفونسو الخامس » ملك
اراجون باستقبال اثنين من السفراء الأحباش فى بلاطه فى بلنسية بحضور
المنسوب البابوى الكاردينال « فويكس » الذى قدم تقريره عن الزيارة للبابا
« مارتن السادس » . وفى ١٤٣١ م زارت روما سفارة حبشية استقبلها
البابا « يوجين الرابع » استقبالا حافلا (١٣) .

ويبدو أن الأمر لم يقف عند حد المشاورات ، إذ أن كتب التاريخ تخبرنا
أن الهجوم الغادر الذى شنه ملك قبرص الصليبي « بطرس لوزينان » على
الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٢٦٥ م كان جزءا من خطة عامة أعدت على أساس
هجوم قوات بطرس من الشمال وهجوم القوات الحبشية من الجنوب ، ولكن
انسحاب الصليبيين السريع من الاسكندرية جعل ملك الحبشة يتردد العودة
بعد أن خسر عددا كبيرا من رجاله بسبب وعورة الطريق (١٤) . وعندما
سمع اسحق الاول نبالى الحبشة بهزيمة مسيحيي قبرص وأسر ملكها على
أيدى القوات المصرية سنة ١٣٠٠ هـ دعا المسيحيين فى أوروبا الى شن حملة
صليبية شاملة من الشمال والجنوب ، كما كتب الى ملوك الفرنجة محرضا
اباهم على استئصال المسلمين . وكان رسوله الى الغرب الأوربي تاجر مسلم
هو « الخواجا نور الدين على التبريزي العجمي » الذى حمل رسالة ملك
الحبشة الى ملوك الفرنج « ... عندما بلغه أخذ قبرص وأسر ملكها جينوس ،
يحثهم فيه على القيام لازالة دين الاسلام ، وغزو المسلمين ، واقامة الملة
العيسوية ونصرتها ، وأنه يسير فى بلاد الحبشة فى البر بعساكره ، وأن
الفرنج تسير فى البحر بعساكرها ... » واتفق معه على كل التفاصيل
حتى رى جنود الحملة . ولكن التاجر وقع فى قبضة السلطات المصرية أثناء

(63) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90; Ross,
«Prester John» , p. 193.

عودته في ميناء الاسكندرية ، ومعه راهبان حبشيان ، وأعدم سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) (٦٥) .

وما تزال توجد بعض السجلات والذكريات عن الدور الذي لعبه السفراء الأحباش في مشرعر آخر أكثر طموحا ، وأقل نجاحا ، في تاريخ التكتلات المسيحية ضد المسلمين في العصور الوسطى . وهو مجمع « فلورنسا الكوني » الذي دعا اليه ابابا يوجين الرابع (٣١ — ١٤٤٧ م) على أمل أن يجد وسيلة يمكن بها تجميع المسيحيين في اتحاد كبير بقيادة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يقوم بحملة موحدة ضد مسلمي الشرق . وقد اجتمع هذا المجمع أولا في فرازا ، ثم في فلورنسا وأخيرا في روما فيها بين سنة ١٤٣٨ وسنة ١٤٤٢ م . وكان البابا متأثرا مثل سائر الأوربيين آنذاك بما يشاع عن القوة العسكرية الفاتكة لمملكة برسترجون ولذلك كان شغوفًا بمشاركة الأحباش في هذا الاتحاد المسيحي الكبير (٦٦) .

وفي ،طار ذلك المشروع أرسل البابا واحدا من الرهبان الفرنسيين هو « البرتو دي سارتانو » الى المسيحيين في المنطقة العربية يدعوهم الى المشاركة في مشروع الاتحاد المسيحي . ومن بين الخطابات التي حملها « سارينو » خطاب الى « حنا الحادي عشر » بطريرك الأتباط في مصر ، و« برسترجون » ملك الحبشة . ولم يتحمس البطريرك القبطي للمشروع البابوي . وطلب « ساريتانو » من السلطان « الأثراف برسباي » الاذن بالسفر الى الحبشة ، ولكن السلطان الذي كان قد أسر ملك قبرص قبل سنوات قليلة وجعله يمشي عاري الرأس مقيدا بالسلاسل خلال شوارع القاهرة ويقبل الأرض بين قدميه ، رفض طلب الراهب الفرنسيين الذي سافر الى القدس حيث ناقش مشروع الاتحاد مع « نيقوميديوس » رئيس دير الأحباش في المدينة المقدسة .

وفي سنة ١٤٤١ م خرج الوفد الحبشي لحضور المجمع الكنسي « الكوني » ، وكان الوفد يضم اثني عشر راهبا حبشيا ومرشدهم الذي كان

(٦٥) المقریزی ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٥ — ٧٩٧ ، ابن تغرى بردی ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٦ .
(66) Leo Hansberry, « Ethiopian Ambassadors », p. 91.

تاجرا ايطاليا عاش عدة سنوات فى المنطقة العربية . ووصلت الأنباء الى ايطاليا تسبق الوفد الحبشى . وكان البابا يأمل فى انضمام الأحباش الى الاتحاد ضد المسلمين(٦٧) . ولذلك أمر بأن ينقل مكان الجمع الى روما حتى تكون « ... السفارة العظيمة التى أرسلها امبراطور الحبشة العظيم السامى ... » فى رحاب المدينة الخالدة روما « ... عاصمة العالم المسيحى كله ... » بدلا من عقد الجمع فى مدينة صغيرة مثل فلورنسا . ومن المؤكد أن البابا والمشاركين فى الجمع الكونى قد استقبلوا الوفد الحبشى بأذرع مفتوحة ، واحاطوهم بكافة مظاهر التكريم . ولكن الأمر كله انتهى الى نتيجة سلبية تماما . وفى سنة ١٤٤٨ م جاءت الأخبار الى شارل السابع ملك فرنسا عن انذار ملك الحبشة لمصر بالحرب وتحويل مجرى النيل . وفى منتصف القرن الخامس عشر أخذ « ألفونس الخامس » ملك راجون يفكر فى احياء مشروع غزو مصر من الجنوب وأرسل سفارة لهذا الغرض الى الحبشة(٦٨) .

وفى سنة ١٤٨٤ م قام « جون الثانى » ملك البرتغال بخطوة عملية لاقامة نوع من الاتصال المباشر مع الحبشة ، فأرسل سفارة يرأسها « بارتلميو دياز » الذى سار بحذاء شاطئ أفريقيا لبحث امكانية الوصول الى الحبشة عن طريق البحر . كما رتب لارسال سفارتين أخريين عن طريق البحر المتوسط ومصر . وكانت البعثة البرية من اثنين هما « بطرس دى كوفلهام » و « ألفونسو دى بافيا » . وبفضل اجادة الانين للغة العربية تمكنا من دخول ميناء الاسكندرية باعتبارهما من المغاربة . وبعد عدة تقلبات مات « دى بافيا » ووصل « كوفلهام » الى الحبشة واستحوذ على ثقة الملكة هيلانة الوصية على العرش ثم ابنها الملك داود حين بلغ سن الرشد وبقي كوفلهام بالحبشة واتخذها وطنا ثانيا له بعد أن تزوج سيدة حبشية ثرية وأنجب منها عدة أبناء(٦٩) .

(67) Ibid, pp. 91-2.

(٦٨) Ibid, p. 92. ، الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ،

ص ١٣٤ وما بعدها .

(69) Ziada, Foreign Relations, pp. 287—88; Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 93.

وأثناء إقامته بالحبشة دون « كوفلهام » الكثير من المعلومات القيمة عن الحبشة والنشاط التجارى فى البحر الأحمر على طول شاطئى أفريقيا الشرقى، ثم أرسل يستحث الملك البرتغالى على اكتشاف هذا الطريق ، وربما كانت هذه المعلومات من العوامل التى أفرزت رحلة « فاسكو دا جاما » الشهيرة ١٤٩٨ — ١٤٩٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » (٧٠) .

وفى سنة ١٥٠٩ م قامت الملكة هيلانة — أثناء وصايتها على ابنها داود الثانى — بإرسال سفارة الى الملك عمانويل ملك البرتغال بسبب خوفها من تقدم العثمانيين فى المنطقة العربية . وكانت تعتقد أن البرتغال يمكن أن يمدوا الأحباش بالأسلحة النارية التى يستخدمها العثمانيون (٧١) .

وقد أدى سقوط مصر تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧ م الى أن يرث العثمانيون حكم مصر من سلاطين المماليك ، ويرثون بالتالى مسئولية ادارة الصراع ضد القوى الأوروبية والأحباش فى البحر الأحمر ، وبذلك انطوت صفحة العلاقات بين مصر والحبشة فى تلك الفترة التاريخية لتبدأ صفحة جديدة أهم ما يميزها هو فقدان مصر لاستقلالها ودورها ، وفقدان البحر الأحمر لقيمه التجارية والعسكرية بشكل مؤقت .

هكذا تداخلت خيوط العلاقة بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك بين مجالات الاقتصاد والدين والسياسة ، ولكن هذا لم يمنع وصول المؤثرات الحضارية المصرية الى الحبشة المسيحية والمسلمة ، سواء عن طريق الكتب أو الفقهاء ، أو الحج والتعليم فى مدارس مصر بالنسبة للمسلمين ، أو المطارنة ورجال الدين وحجاج بيت المقدس والرهبان الأحباش بالنسبة للمسيحيين . كما ساهم عدد من المصريين فى تطوير التنظيمات الادارية والمالية والعسكرية فى مملكة الحبشة المسيحية .

(٧٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠—٦٣٢ ، جورج حورانى ، العربى والملاح فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ .

(71) Leo Hansberry, op. cit., p. 94.

ومن المهم أن نلاحظ أن معلومات المصريين عن الحبشة فى عصر المماليك كانت وافرة بالقدر الذى يكشف عن مدى اهتمام مصر بعلاقاتها مع الحبشة . فقد حفلت كتب « ابن فضل الله العمري » ، و « القلقشندي » ، و « المقرئى » و « النويرى » و « ابن عبد الظاهر » وغيرهم بالمعلومات الهامة عن الحبشة ، من حيث الموقع الجغرافى والمساحة والأقاليم ، فضلا عن أنواع الطيور والحيوان والنبات الموجودة فى تلك البلاد ، والمعادن وأنواع العملات ، والأسعار ، الى جانب أزياء الأقباش وأسلحتهم ونظمهم الادارية والمالية .

التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكية

د. على السيد على محمود

على الرغم من أن كلمة « التكرور » أو « التكرارة » أو « التكرانة » بالعامية وكذلك « الدكرانة » تدل على جماعات الزوجات التي استوطنت حوض نهر السنغال ، والتي تأثرت كثيرا بسبب الموجات المتتابعة من المهاجرين والفاثحين (١) فإن المصادر العربية في العصور الوسطى أطلقت هذه الكلمة على جميع سكان السودان الغربي والأوسط أو على أهالي غرب أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بأقاليمهم وقبائلهم العديدة المختلفة (٢) . ومن المرجح أن هذه التسمية وهي بلاد « التكرور » قد غلبت عليهم بسبب سبق أهالي إقليم التكرور في الدخول إلى الاسلام ، فضلا عن جهادهم مع المرابطين في نشر الاسلام في تلك المناطق منذ القرن الحادي عشر للميلاد (٣) . هذا بينما يرى بعض المؤرخين الأوروبيين أن شهرة التكرارة في الشرق الاسلامي ترجع

(١) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٨٣ — ٨٤ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ج ١ ، ص ٢١٨ — ٢٢٥ .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ، ص ١٥٢ ، ياتوت الحوى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، ١٣٨ ، العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٧ .
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ، محمد بلو : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، ص ٢٧ — ٢٩ .

Bovill . The Golden Trade of the Moors, London 1958, pp. 83-84.

(٣) د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، ص ٧ — ٥٧ ، د. حسن أحمد محمود : « المرحلة الافريقية في تاريخ المرابطين » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ، ص ١١٤ — ١١٥ .

Bovill : op. cit., p. 84.

بالإضافة الى ما سبق الى كونهم كانوا تجارا مهرة نشيطين ، كان لهم نشاط تجارى ملحوظ فى كثير من بلدان السودان الغربى (٤) .

وعلى هذا الأساس فان اسم « التكرور » أو « بلاد التكرور » كان يطلق على جميع سكان الدول والممالك التى ظهرت فى السودان الغربى والأوسط فى عهدها الإسلامى بوجه خاص ، أمثال دول غانا ، ومالى ، صنغى ، والبرنو ، وكانم ، ودولة التكرارة (٥) . وهى التى قامت فى الاقاليم الواقعة شمالي الغابات الاستوائية وجنوبى الصحراء الكبرى أى فى منطقة « السافانا » ومن اجل هذا توصف أحيانا بامبراطوريات السافانا ، ولهذه الدول أصول وثنية ، غير انها بلغت الذروة فى عهدها الإسلامى ، وقد كانت هناك علاقات قوية متنوعة بين هذه الامبراطوريات وبين البلدان الإسلامية ، وهى علاقات قديمة ، لكنها ازدادت بانتشار الإسلام فى غربى أفريقيا ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تجهل تماما قلب أفريقيا جهلا تاما ، بسبب وعورة الصحراء ، وتحكم المسلمين فى مسالكها ودروبها واحتكارهم لعمليات الاتصال بها لأسباب دينية وتجارية ، فمثلا عن أن هذا الاتصال هو الذى أمد كتاب المسلمين بالمعارف الأصلية عن تلك البلاد ، وجعلهم المصدر الأول للحديث والكتابة عن تاريخ بلاد السودان الغربى والأوسط . كما أتاح هذا الاتصال لهذه البلاد الفرصة للتعرف على أرقى الحضارات الانسانية المعاصرة ، مما كان له اكبر الأثر فى تشكيل وتوجيه تاريخها (٦) . يضاف الى هذا ان بيئة السافانا هذه — على حد تعبير أحد الأوربيين — بيئة تسهل الهجرات . وتتيح الاحتكاك الثقافى وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية (٧) . وعلى هذا الأساس يمكننا — بلا أى تردد — رفض الفكرة التى روج لها الاستعمار زمنا طويلا بأن غرب أفريقيا لم يكن له تاريخ الا عندما اتصل به الأوربيون .

(٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية ، ص ١٧٢ ، العمرى : المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤ ، القلثشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٢-٢٩٣ .
(٥) ابن حجر : انباء الفهر ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٦) د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ، ص

واذا كانت علاقات مصر ببلاد غربى أفريقية قديمة ، ترجع الى ما قبل الميلاد ببضعة قرون ، فليس من شك انها ازدادت منذ العصر الاسلامى ، ولا سيما أن مصر كانت من بين المنابع التى جاء منها الاسلام الى هذه البلاد (٨) وعلى أية حال فان ما يهمنا فى المقام الأول من هذه العلاقات أن تشير الى التبادل التجارى وانعكاساته على أحوال مصر والذى تجلت مظاهره فى :

١ — مواكب الحج وأثرها فى التبادل التجارى :

كان موسم الحج مناسبة هامة فى حياة أبناء كل من مصر وبلاد النكرو؁ فى مصر كانت تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع ، فغزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ، وينتظر الناس هذه المناسبة بشوق وتلهف (٩) كما أصبح دخول مصر بالنسبة لحجاج هذه البلاد لا يعنى فقط مجرد المرور فى طريقهم الى مكة ومصاحبة ركب الحجاج المصرى ، بل أصبح فى نظـر أولئك الحجاج اتصالا عميقا بحضارة عربية اسلامية متطورة ذات تراث عربى اسلامى عميق الجذور (١٠) . حيث غدت مصر منذ احياء الخلافة العباسية بها فى عهد السلطان الظاهر بيبرس قبلة العديد من الدول الاسلامية فى العقيدة والثقافة (١١) كما يبدو أن ملوك وسلاطين هذه البلاد قد أدركوا مدى حرص سلاطين مصر المملوكية على تأكيد سلطان مصر الشرعى على الحجاز بمقتضى التقليد الذى فوض فيه الخليفة العباسى — الى سلطان المماليك بمصر منذ أيام الظاهر بيبرس — حكم البلاد الاسلامية بما فيها الحجاز ، وابتداء من سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م اضيفت الى مظاهر سيادة مصر على الحرمين ارسال المحمل كل عام وعليه كسوة الكعبة ، وتعين على شريف مكة أن يخرج الى مشارف مكة لاستقبال ركب الحج المصرى وأن يقبل خف الجمل ، ويتقوم

(٨) د. ابراهيم على طرخان : الاسلام واللغة العربية فى السودان الأوسط والغربى ، ص ٩ وما يليها ، دولة مالى ، ص ١٦٨ .

(٩) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ١٩٧٩ ، ص ١٢٦ .

(١٠) سر الختم على : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى ، رسالة ماجستير — جامعة القاهرة ، ص ١٠٣—١٠٧ .

(١١) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، ص ٢٦ .

بتعليق الكسوة على الكعبة يوم وقفة عرفات مقرونا بالدعاء للخليفة والسلطان (١٢) . لذلك حرصت مواكب حجاج التكرور وكذلك المغاربة على أن نسير فى ركاب موكب الحج المصرى ، الذى كان يخرج من القاهرة كل عام فى اعقاب المحمل الذى غالبا ما كان يخرج فى الثانى والعشرين من شهر شوال من كل عام (١٣) .

ومما ساعد على كثرة قوافل الحج الآتية من هذه البلاد — بحيث لا يمر عام الا ونسمع عن موكب ضخم قادم منها — انتشار الاسلام بشكل كبير فى تلك البلاد ، الى جانب حالة الأمن والاستقرار التى تمتعت بها سلطنة المماليك ، فضلا عن ازدهار الحياة الاقتصادية فى مصر فى بداية ذلك العصر (١٤) .

يضاف الى ذلك حداثة الانتاج الصناعى فى بلاد السودان الغربى ، وبخاصة صناعة النسيج ، بحيث لم تفى باحتياجات السكان (١٥) فضلا عن أنه فى تلك الفترة كانت المعادن فى أوج استغلالها من قبل الافريقيين فى غرب القارة ، مما اتاح لهم موردا ماليا ضخما (١٦) . هذا الى جانب اتمن طرق القوافل ، ووجود الاستراحات الجاهزة لقضاء الليل مع وفرة المؤن بها للمسافرين وبوجه خاص حتى اواخر القرن الرابع عشر الميلادى (١٧) .

ومن المؤكد أن مواكب الحج لعبت دورا رئيسيا وهاما فى زيادة التبادل التجارى بين مصر وغرب افريقيا منذ بداية العصر المملوكى ، اذ انها اتاحت الفرصة لأبناء هذه البلاد للتعرف على ما هو معروض فى الأسواق المصرية وبخاصة فى القاهرة ، حيث اعتاد هؤلاء الحجاج أن يقضوا فترة فى القاهرة

-
- (١٢) د. أحمد دراج : « ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ... » ، المجلة التاريخية ، الموسم الثمانى ١٩٦٧ — ٦٨ ، ص ١٩٩ .
- (١٣) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٧ — ٩١٩ .
- السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .
- (١٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩١ .
- (١٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١ — ٦٧٩ ، ٦٦٦ .
- (١٦) عبد القادر زيارية : مملكة سنغاي فى عهد الأسبقيين — الجزائر ١٩٧١ ، ص ٨٢ .
- (١٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦٣ ،

انتظارا لموعد رحيل ركب الحجاج المصرى ، هذه الفترة تراوحت ما بين اسبوعين الى ثلاثة أشهر (١٨) . هذا الى جانب انه من المرجح أنهم قد استفادوا من خبرة اخوانهم الذين أقاموا بصفة دائمة فى مصر منذ أمد طويل فى بعض ضواحي القاهرة ، وفى قرافة مصر والذين بلغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف شخص ، وفى الرواق الخاص بهم فى الازهر الشريف ، فضلا ممن أقاموا فى أسواق القاهرة وزاولوا بعض الأعمال التجارية (١٩) . وهنا تجدر الإشارة الى أن أسواق القاهرة ومصر كانت مزدهرة حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد بوجه خاص ، وتميزت بتنوع وكثرة ما يعرض فيها يوما عن يوم ، وخير دليل على ذلك ما يرويه ابن أبيك عن موكب حج سلطان مالى منسا موسى الذى زار البلاد سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م من قول « أن ملك التكرور وأصحابه اشترؤا من القاهرة ومصر من سائر الأصناف ، وظنوا أن مالههم لا ينفذ ، فلما استغرقوا فى المشتري ووجدوا أن أصناف هذه الديار لا لها حد يحد ، وكل يوم ينظروا شيئا أحسن من شيء ، نفذ ما كان معهم ، واحناجوا للقرض ... » (٢٠) .

ويمكننا القول أن العلاقات الاقتصادية قد توطدت بصفة خاصة عقب حج منسا موسى سلطان مالى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون نظرا لما لقيه هذا العاهل الأفريقى من ود وترحاب ، فعندما دخل منسا موسى على السلطان الناصر ، واجتمع به ، رسم السلطان لوزيره أن يعنى بالضيف

(١٨) المقرئى : السلوك ، ج ٢ قسم ١ ، ص ٢٥٥-٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، د. محمد محمد أمين : « علاقات دولتى مالى وسنغالى بمصر » ، مجلة الدراسات الأفريقية ، العدد الرابع ١٩٧٥ ، ص ٢٩٢ .

(١٩) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧١ ، ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٦٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ١٨٩ ، د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى ، ص ١٦٩ - ١٧١ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢٠) ابن أبيك : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٣١٦ .

الكبير وان « يجهزه بكل ما يحتاج اليه » (٢١) . وفى خلال اقامة منسا موسى اُفاد كثير من الصريين فى بيع سلعهم الى أتباعه ، ونشطت حركة البيع والشراء ، وانفق كل ما لديه من مال أثناء حجه هذا « فاحتاج الى قرض مال كثير من التجار » وكذلك فعل كثير من أمرائه المرافقين له حيث اقترضوا من كبار تجار مصر انذين أرسلوا معهم بعض وكلائهم التجاريين للحصول على تلك القروض ، وهم الذين أتاحت لهم فرصة التعرف على احتياجات السوق هناك عن كنب ، واطامة كثير من العلاقات التجارية وتوثيقها (٢٢) . كذلك تذكر بعض المصادر العربية ان اسكيا محمد سلطان صنفى الذى زار مصر فى طريقه الى الحج سنة ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م أنفق قدرا كبيرا من المال فى شراء بعض الحاجيات والهدايا من أسواق مكة والقاهرة (٢٣) . وواضح ان ملوك مالى وصنفى وبرنو وكانهم حرصوا على أداء فريضة الحج فى مواكب حافلة منذ بداية العصر المملوكى ، وقد لقوا فى مصر كل ترحاب وود وحسن معاملة (٢٤) وقد أحدثت هذه المواكب روجا كبيرا فى أسواق القاهرة نظرا لضخامة الأعداد التى كانت تضمها وبخاصة تلك التى اتت فى ركاب ملوكهم وسلطينهم ، مثال ذلك ان ركب منسا موسى قدره بعض المؤرخين بعشرين ألفا من الأشخاص (٢٥) ، ومهما كان هذا العدد مبالغ فيه ، الا ان المقرئى

(٢١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى ، ص ١٦٨ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠٦ — ١١٠ ، د. محمد عبد الرازق مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ، الالف كتاب ، ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٢٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، المقرئى : الذهب المسبوك ، ص ١١١ — ١١٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ ، د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢٣) السعدى : تاريخ السودان ، ص ٨٣ ، د. محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

(٢٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٨٧ ، د. حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ،

Palmer : Bornu, Sahar and Sudan, p. 91.

(٢٥) المقرئى : السلوك ، ج ٢ قسم ١ ، ص ١٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، الذهب المسبوك ، ص ١١٢ حاشية رقم ١ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية ، ص ١٠٦ .

يشير الى كثرة ذلك الركب الذى كان يفد سنويا من بلاد التكرور بأنه لا يقل عن خمسة آلاف نفر (٢٦) فاذا أضفنا الى ذلك أن معظم الحجاج القادمين من بلاد التكرور كانوا يحملون معهم الكثير مما يتاجرون به أثناء توجههم الى الأماكن المقدسة (٢٧) ويقومون بشراء الكثير من السلع المصرية التى كانت تبهر هؤلاء الحجاج ، ويفضلون أن يحملوها فى عودتهم كهدايا لأهلهم وأقاربهم أولاتجار بها (٢٨) . لأمكننا أن ندرك الدور الهام الذى لعبته مواكب الحج فى ازدياد عمليات التبادل التجارى فى ذلك العصر ، فضلا عن ذلك أن موسم الحج كان بمثابة أحد المواسم ذات الاثر الاقتصادى الهام فى حياة الناس فى كل من مصر وبلاد التكرور .

٢ - صادرات مصر الى بلاد التكرور :

من أهم منتجات مصر التى صدرتها ووجدت اقبالا منقطع النظير فى مختلف الدول الافريقية السكر ، حيث اشتهرت مصر بجودة السكر المصنوع بها ، وكانت له قيمة كبرى فى بلاد التكرور ، حيث كان يقوم باعتباره نوعا من الهدايا الى العظماء والنساء ، والذى كان يباع بأضعاف اضعاف ثمنه (٢٩) .

ونظرا لحدائثة صناعة النسيج فى هذه البلاد فان الانتاج المحلى منها لم يكن ليقارن بانتاج مصر ، لذلك سافر كثير من اهل مدينة « تكدة » «أكرا حاليا» الى مصر لجلب الثياب الفاخرة (٣٠) كما حمل التجار المصريون الى مالى وصنقى انواع الثياب القطنية ، فقد كان فى مصر صناعة راقية لهذه المنسوجات وخاصة فى مدينتى دمياط وتنيس ، فاشتهرت مدينة دمياط بصناعة الأقمشة التبيلية ذات الالوان المتعددة التى يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع

(٢٦) السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، فى حوادث سنة ٧٤٤ هـ .

(27) Trimingham : Islam in west Africa. p. 85.

(٢٨) د. ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية ، ص ٨٤ .

(٢٩) يوركهارت : الرحلة ، ص ٢٣٣ ، شوقى عبد القوى : العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية ، رسالة ماجستير بمعهد الدراسات الافريقية ، ص ١٤١ .

(٣٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١ — ٦٧٩ ،

Bovill : op. cit., p. 149;

عليها (٢١) واشتهرت مدينة تنيس بصناعة الحلل التنيسية الفاخرة الرقيقة ، حيث بلغ ثمن الحاة منها فى بعض الأوقات مائتى دينار اذا دخل الذهب فى خيوطها (٢٢) . وإلى جانب الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية التى امتازت جميعها بدقة الصناعة ، اشتهرت مصر بصناعة الفرش والستور والخيام والحبال والتى كانت تصدرها الى هذه البلاد بكميات كبيرة وكانت محل اعجاب أهلها (٢٣) .

ومما حمله التجار المصريون الى هذه البلاد المصنوعات المعدنية الراقية التى حازت ، اعجاب سلاطين تلك البلاد ، وقصر استعمالها عليهم وعلى أمرائهم ، والطبقة الغنية من أهلها (٢٤) . فضلا عن الروائح العطرية مثل القرنفل الذى كانت تتهافت عليه نساؤهم (٢٥) بالإضافة الى الدروع من الهند والنحاس المسبوك . كما كانت الكتب وبخاصة الدينية منها من أهم صادرات مصر الى هذه البلاد ، وليس أدل على ذلك من أن منسا موسى انتهز فرصة زيارته لمصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ، ليوفر لأهل مملكته طرفا من الثقافة المصرية (٢٦) . وخاصة كتب فقه المالكية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكتب من أهم ما يستورده سكان تلك البلاد من مصر (٢٧) .

أما المسابح والعقود المصنوعة فى مصر فقد كانت تلقى رواجاً فى البلاد الأفريقية حيث اشتهرت أحيانا كأداة للتعامل ، وقل أن تجد أحدا من القوم لا يتحلى أو يحمل فى عنقه أو يده عقدا أو عقدين . كما صدرت مصر الحلى المصنوعة من الفضة والتى اشتهرت مصر بصناعتها وكانت تجلب الى أقاليم السودان ، بالإضافة الى الحلى المصنوعة من الزجاج ، بالإضافة الى

(٢١) د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩١ .

(٢٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٣ .

(٢٣) د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩١ .

(٢٤) عبد القادر زيايدة : نفس المرجع ، ص ٢٢١ .

(٢٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦٣ ،

Bovill : op. cit., p. 149.

Fage : op. cit., p. 24.

(٢٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ ، د . حسن أحمد

محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ج ١ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٢٧) د . محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٣٠١ .

السنبل والمحلب حيث يشند الطلب عليهما فى جميع بلاد السودان ، فالأول يتعطرون به ويتطيبون والثانى يتبلون به طعامهم(٢٨) .

ولم يقتصر التبادل التجارى مع بلاد التكرور على حمل المصنوعات الجلدية كذلك اليها ، بل حملت أيضا المؤثرات الحضارية ، فعرفت دول النيجر بعض الصناعات المختلفة عن المصريين ، كصناعة الأسورة المصنوعة من الزجاج ، وصناعة الخزف وصقل النحاس الأحمر وذلك الى جانب صناعة النسيج(٢٩) .

كذلك لعب المصريون دورا هاما بالنسبة لأسواق بلاد التكرور هذه ، وذلك فيما يتعلق بالودع الذى كانت تجلبه القوافل المصرية من الهند وشرق افريقيا وتنقله الى السودان الغربى والأوسط . وكان الودع يتعرض سعره للارتفاع والانخفاض تبعا لورود القوافل المصرية . والودع كان يستخدم كنوع من العملة هناك ، وذلك فى شراء وبيع الطعام والاحتياجات الأخرى على مستوى المعاملات المحلية(٤٠) .

ويبدو ان ملوك التكرور أعجبته بعض النظم التى شاهدها فى مصر وبخاصة وجود طائفة المماليك السلطانية ، لذلك تشير بعض المصادر أن بعض ملوكهم كان يقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تتباع له من مصر ، كذلك اقبل بعضهم على شراء الجوارى الحسنان والمغنيات من الترك والحبوش(٤١) .

٣ — واردات مصر من هذه البلاد :

واضح ان الذهب كان من أهم السلع التى احتاجتها مصر وسعت اليها

(٣٨) شوقى عبد القوى : نفس المرجع ، ص ٧١ ، ١٤١ .

(39) Davies : west Africa Before the Europeans, Lon. 1967, pp. 267-268.

(٤٠) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ٢ قسم ٣ ، ورقة ٥٠٤ (مخطوط)، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، د. محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٩٤ .

Oliver : The Camb. Hisr .of Africa. vol. 3, p. 388.

(٤١) المقرئى : الذهب المسبوك ، ص ١١٣ ، السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ٢٥٥ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٠ .

فى عصر سلاطين المماليك ، وذلك بعد أن نضب معين الذهب فى وادى العلاقى — أول مصدر للذهب فى تاريخ مصر الإسلامية (٤٢) . ويذكر القلقشندى فى حديثه عن « الذهب : وأصله مما يجلب الى الديار المصرية من التبر من بلاد التكرور وغيرها مع ما يجتمع اليه من الذهب » (٤٣) وهذا يعنى أن ذهب بلاد التكرور كان يأتى فى المرتبة الأولى على رأس غيره من الذهب الذى كانت مصر تحصل عليه من تجار المدن الأجنبية الذين يحملون المتاجر الشرقية منها الى أوربا . أو بعبارة أخرى أن ذهب بلاد التكرور كان هو المصدر الأول بالنسبة للذهب الذى تستورده مصر . وربما كان السبب فى ذلك راجع الى نقائه وخلوه من الشوائب (٤٤) فضلا عن كثرة كميته فى ذلك الحين أى حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد وكما سيتضح فى الصفحات التالية من هذا البحث .

وكانت وسيلة مصر للحصول على هذا الذهب عن طريق قوافل التجار المصريين الذين يحملون الى بلاد التكرور الكثير من السلع المصرية والشرقية، ثم تعود هذه القوافل محملة بسلع ومنتجات هذه البلاد وعلى رأسها الذهب (٤٥) . ومما يذكر فى هذا الصدد أن التجار المصريين استطاعوا أن يشتروا من ملك التكرور مارى جاطه بن منسا موسى الذى توفى سنة ٧٧٥ هـ، ما وزنه عشرون قنطارا من الذهب بأبخس الأثمان (٤٦) . يضاف الى هذا كميات الذهب التى كان يرسلها ملوكهم كهدايا لسلاطين المماليك فى مصر ، وذلك من أجل الحفاظ على علاقات الود والتوصية بحجاجهم وما الى ذلك (٤٧) .

كما كانت مواكب الحجاج القادمة الى البلاد من المصادر الهامة للحصول

(٤٢) د. صبحى لبيب : « سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » المجلة التاريخية ، العدد الثامن والعشرون ١٩٨١ — ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٤٣) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ .

(٤٤) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البحر والبر ، ص ٥٠ .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤١٦ .

(٤٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ .

(٤٧) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٣ .

على ذهب هذه البلاد ، ومثال ذلك ركب الحجاج الذين وفدوا بصحبة منسى موسى سلطان مالى أيام الناصر محمد بن قلاوون والذي أغرق الأسواق المصرية بالذهب الذى جلبه معه هو وأتباعه مما كان له أكبر الأثر فى انخفاض سعر الدينار المصرى آنذاك ما بين درهمين وستة دراهم ، واستمر هذا السعر المنخفض مدة تجاوزت اثنى عشر عاما(٤٨) . كذلك كان هذا الذهب يصل الى مصر بطريق غير مباشر عن طريق حجاج المغاربة الذين يفدون الى مصر فى طريقهم الى الحج اذ كانوا من أهم المصادر وكذلك التجار المغاربة الذين يترددون على البلاد للتجارة — ومونوا مصر بذهب بلاد التكرور لما لهم من علاقات تجارية وثيقة معها ، فضلا عن قريهم منها(٤٩) . وبذلك أتاحت لهم فرصة التزود من مناطق وجود الذهب التى تركزت فى بامبوك عند أعلى نهر السنغال ، ومدينة بيور Bure عند ملتقى نهر النيجر بفرعه تنيكسو Tinkisso ، ومدينة لوبى Lobi فى أعلى الفوتا ، وفى منطقة ونجارا Wangara ضمن مملكة غانا ، وكان الذهب يتدفق من هذه المناطق حتى بداية القرن التاسع عشر للميلاد(٥٠) .

ولسنا ندري هل خص سلاطين الممالك ذهب بلاد التكرور بضريبة مماثلة أم مختلفة للذهب الذى كان يجلبه تجار المدن الإيطالية وغيرهم من المدن التجارية الأوروبية ، والذي قدرت الضريبة عليه بنسبة تتراوح ما بين ٢٪ و ٥٪ ، وهل فرض سلاطين الممالك على تجار هذه البلاد قدرا معبنا من التوابل السلطانية « توابل الذخيرة الشريفة » يشترونه بالذهب مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة ، حتى ولو اقتضى الأمر الالتجاء الى المقايضة . كل هذه أمور لم تشر المصادر المعاصرة الى ما يفسرها .

كذلك استوردت مصر النحاس بكميات هائلة من بلاد التكرور(٥١) .

(٤٨) العبرى : مسالك الأبصار ، ج ٢ قسم ٢ ورتة ٥٠٦ ، ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١١٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .
(٤٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ — ٢٩٠ ، د. نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٣٠٥ .

(50) Bovill : op. cit., pp. 192-201.

(٥١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٧٨ ، ٦٧٩ .

والذى كان له أهمية كبيرة فى عصر سلاطين المماليك ، ليس فقط فى صناعة الثريات والالوانى المنزلية والتكفيت وتزيين أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء ، بل فى سك الفلوس النحاسية حيث وجدت دار لسك النحاس الى جانب دار سك الذهب المعروفة (٥٢) . وقد كانت مدينة « تكدا » « أكرا حاليا » من أهم المناطق التى تستورد منها مصر النحاس ، وفضلا عن كونها احدى مراكز القوافل التجارية فقد قال عنها منسا موسى أن مناجم النحاس بها أهم مصدر أساسى لثروته (٥٣) . وكان أهلها يحملونه الى مصر ويلاذ المنسرب (٥٤) .

وكان العاج والأبنوس من أهم صادرات هذه البلاد الى مصر بعد الذهب والنحاس ، هذا الى جانب العنبر والصوف والرصاص والزرنيق ، الى جانب أنواع من جلود الماعز المدبوغة فى لون البنفسج المائل الى السواد ، وهى جلود لينة كان يصنع منها خفاف كبار القرم ، وكانت تلقى رواجاً كبيراً ، حيث تعمر لدى صاحبها كثيراً بحيث يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد (٥٥) .

كما جلب تجار هذه البلاد الى مصر ريش النعام وبيض النعام ، والشب (٥٦) .

وأخيراً يأتى الرقيق كسلعة كانت تلقى رواجاً فى كثير من بلدان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت وبخاصة مصر المملوكية ، وكان التجار المصريون يصلون الى أهم أسواق الرقيق هناك مثل مدينة « كومبى » عاصمة غانا للحصول على الرقيق ، والذى كان يتم جلبهم الى مثل هذه الأسواق عن طريق الاغارات على القبائل الوثنية التى تعيش على الحدود الجنوبية لمنطقة

(٥٢) المقرئزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٥—٢١٣ .
(53) Bovill : op. cit., p. 94.

(٥٤) العمرى : مسائل الأَبصار ، ج ٢ قسم ٣ ، ورقة ٥٠٧ ، د .
ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ، ص ٦٥—٦٧ .
(٥٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٧ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ١٥٧ .

(٥٦) شوقى عبد القوى : نفس المرجع ، ص ١١٧ ، د . محمد محمد أمين : نفس المرجع ص ٢٩٦ .

السافانا ، وهم الذين اشتهروا عند العرب تحت اسم اللطم أو « الددم » أو « الدمام » كذلك يفهم مما أورده القلقشندي في عهد السلطان برقوق أن بعض الجلابة من بلاد مصر والشام كانوا يتوجهون الى تلك الأسواق لاحضار هؤلاء الرقيق كما أنهم كانوا يشترون الرقيق من عرب جذام المجاورين لاقليم البرنو(٥٧) لكن يلاحظ أن غالبية ما كان يعمل من هؤلاء الرقيق كان يهلك سريعا ، وربما كان السبب في ذلك هو اختلاف المناخ في مصر عنه في البلاد التي كان يتم جلب الرقيق منها ، بالاضافة الى طول الرحلة ومشاق السفر من جهة أخرى ، كذلك يلاحظ أن سلطنة المماليك كانت تفرض ضرائب كبيرة على هؤلاء الرقيق سواء ما يتم جلبه على أيدي التجار المصريين أم الجلابة أم حجاج بلاد التكرور الذين اعتادوا حتى أواخر العصر المملوكي جلب هؤلاء الرقيق معهم(٥٨) .

٤ — آثار التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور :

لعل من أهم الآثار التي ترتبت على قيام عمليات التبادل التجاري بين الطرفين تردد التجار المصريين على بلاد « التكرور » ليشتروا منتجاتها رغم بعد المسافة بينها وبين مصر . كما أن الرحلة بينها وبين مصر طويلة وشاقة وغالبا خطيرة ، ولكن الأرباح العائدة كانت تساوي ذلك المجهود وتلك المخاطرة ، ومما شجع التجار المصريين على القيام بهذه الرحلات ذلك الأمان الذي كان يحسه التاجر في كل مكان يحل به ، فاذا أودع تجارته الرحبة في مكان تكفل أهل هذه البلاد بحفظها ، فضلا عن أنه اذا مات أحدهم فإن أهالي البلاد يحافظون على أمواله وتجارته مهما كان شأنها الى أن ترد لأهله ، كل هذه المميزات كانت ميثاقا للتاجر المصري وغيره(٥٩) . فضلا عن أن التجار

(٥٧) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٦—١١٧ ،

Bovill : op. cit., p. 83.

(٥٨) المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٨٢ ، د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة ، ص ٧٢—٧٤ .

(٥٩) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٦١—٦٧٢ ، زينب أحمد على هاشم : علاقات مصر بالدول الاسلامية ، رسالة ماجستير بمعهد الدراسات الافريقية ، ص ٩٥—٩٧ .

(م ٧ — العرب في افريقيا)

المتجولين فى حوض النيجر قد سهلوا للتاجر المصرى الحصول على احتياجاته من المؤن التى يحتاجها فى حياته اليومية (١٠) .

كما نتج عن اتساع التبادل التجارى بين مصر وبلاد « التكرور » أن توافد عدد كبير من المصريين على هذه البلاد واستقروا بها والذين قابلهم ابن بطوطة فى رحلته الى مالى (٦١) الى جانب أن كثيرا من التجار المصريين رُسلوا وكلاءهم اليها لمباشرة أعمالهم التجارية وعادوا منها بالأرباح الوفيرة (٦٢) . بل لا نغالى اذا قلنا أن التجار المصريين الذين كانوا يتوافدون على تلك البلاد كانوا من أغنى التجار وأقواهم مركزا وأوفرهم مالا ، بل ان القوافل المصرية التى كانت تتجه الى تلك البلاد بلغت من الضخامة حدا لدرجة قدرها بعض المؤرخين بأن القافلة كانت تضم حوالى اثنى عشر ألفا من الجمال (٦٣) .

وكما كان لمصر جاليات أو أفراد فى بلاد التكرور ، فقد كانت هناك فى مصر جالية كبيرة من بلاد التكرور وهى التى سبقت الإشارة اليها ، ومما يدل على كثرة أعدادهم وازدياد مصالحهم واتساع نطاق معاملاتهم أن ابن خلدون يذكر أنه كان لهم ترجمان يدعى الحاج يونس التكرورى (٦٤) . وليس أدل على ازدهار التبادل التجارى بين البلدين من أنه كانت هناك بعض المدن مثل مدينة « تاكدا » أو « تكدة » والتى تقع بين « جاو » و « اير » على طريق الحج عبر الصحراء وهى اكرا الحالية ، لا عمل لاهلها سوى التجارة مع مصر حيث يسافرون اليها جالبين منها أزهى الثياب وأبهىها وغير هذا من الأشياء التى كان يتباهى عظماء القوم باقتنائها (٦٥) وكذلك مدينة « تمبكتو »

(٦٠) المقريزى : جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأمصار ، مخطوط ، ورقة رقم ٢ .

(٦١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٩٤ — ٢٠٢ .

(٦٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٦٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤١٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ ، د. زاهر رياض : « اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى » مجلة كلية الآداب ، مجلد ٢٠ ، ج ١ ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧ .

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .

(٦٥) المصدر السابق نفسه ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .

التي كانت من أهم المراكز التجارية نظرا لوقوعها على طرق التوافل التي تربط بين بلاد غرب أفريقيا وبلاد شمال أفريقيا مثل مصر وتونس ، فضلا عن كونها أهم سوق للذهب هناك (٦٦) . كما اوضحت مدينة « كومبى صالح » عاصمة امبراطورية غانة أكبر سوق للتجارة زمن ازدهار هذه الامبراطورية وقد كانت لها علاقات وطيدة مع مصر وخاصة فيما يتعلق بتجارة الذهب والرقيق (٦٧) .

كذلك نتج عن زيادة المعاملات بين مصر وبلاد التكرور وازدهار التبادل التجارى أن أصبحت « الدراهم التكرورية » معروفة فى مصر ، بل ومن أهم المعاملات المتداولة فى مصر نظرا لثبات قيمتها فى السوق وجودة عيارها ، وليس أدل على ذلك من أن السلطان الأشرف برسباى عندما أراد اصلاح أحوال العملة فى مصر سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م فقد رسم ألا يتعامل الناس « الا بالدراهم المصكوكة بالديار المصرية والشامية ، وتبطل ما سوى ذلك خلا الدراهم التكرورية » (٦٨) . وكما عرفت مصر المعاملات المالية الخاصة بهذه البلاد ، فقد وجدت فى حفريات « جاو » كثير من الدراهم والدنانير المملوكية مما يدل على أن هذه المعاملات وردت الى هذه المناطق عن طريق التبادل التجارى (٦٩) .

ومن أبرز الدلائل على ازدهار عمليات التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور فى ذلك العصر ، وبخاصة منذ عصر سلاطين المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية وجود « ديوان الخمس » على مشارف القاهرة ، حيث كانت تنصب الخيام وهى التى يأمر ناظر الديوان بنصبها ، ويجلس فيها المباشرون ليأخذوا الضرائب على ما يأتى به القادمون من بلاد التكرور أثناء قدومهم الى القاهرة عن طريق الواحات ، والتى يتم تحصيلها عادة منهم عند صحراء الاهرام ، وأثناء عودتهم من بلاد الحجاز كان يتم تحصيل ضرائب أخرى على ما يحملونه بعد عودتهم من أداء فريضة الحج فى الريدانية ، وكانت الضرائب التى يتم تحصيلها منهم عند مقدمهم يدفعونها على ما يجلبونه معهم

(66) Bovill : op. cit., p. 74.

(٦٧) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ، ص ٦٤ .

(٦٨) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٦٩) محمد أنور توفيق أبو علم : مرجع سابق ، ص ٨٨ .

من ذهب ورقيق وثياب باعتبار أن مصدر هذه السلع هي البلاد الوثنية (٧٠) أو غير الإسلامية ، فالرقيق مصدره من المناطق الجنوبية المتاخمة لبلادهم والتي قطنها قبائل الدمام واللم لم التي سبقت الإشارة إليها ، والخيل والثياب كان مصدرها بلاد الغرب الأوربي كما سيتضح في الصفحات التالية .

ونظرا لكثرة العلاقات التي ترقبت على زيادة التبادل التجاري وتوطدها وتوثقها بين مصر وبلاد التكرور ، أضحي في ديوان الانشاء في مصر الملكية صيغ خاصة لمخاطبة ملوك هذه البلاد والتي كانت تنصدر المكاتبات الرسمية التي تخرج عن هذا الديوان في مصر (٧١) .

وأخيرا تجب الإشارة الى أن كثرة تدفق المعادن من بلاد التكرور الى مصر حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادي وبخاصة الذهب ، كان له اثره في الازدهار الاقتصادي الذي شهدته مصر في ذلك العصر ، والذي انعكس بدوره على تنمية التبادل التجاري بين مصر والمدن التجارية الأوربية ، فضلا عن أنه كان للنحاس الوارد من هذه البلاد دور بارز في تشجيع ذلك التبادل التجاري أيضا ، فقد استخدم النحاس في صناعة وتكفيت كثير من الأواني المعدنية المختلفة ، والتي حرصت على اقتنائها كثير من الاديرة والكنايس في أوربا بالإضافة الى قصور الملوك والأمراء وكبار الحكام ، حيث كانت سفن المدن التجارية تذهب الى مصر محملة بالمصنوعات الأوربية من الأسلحة ، والثياب الى جانب الرقيق ، والفواكه المجففة وبعض الأخشاب والجوخ والصوف والفراء ، ثم تعود محملة بكل ما هو ثمين ورائع من الشرق (٧٢) . وعلى العكس يمكننا تصور حالة التضخم الناجمة عن الأزمة النقدية التي أحدثها عدم ورود الذهب الى مصر ، وما صاحبها من تأثير في عمليات التبادل التجاري المختلفة ، وهذا ما سوف نتناوله في السطور التالية .

(٧٠) المقرئى : السلوك ، ج ٤ قسم ٢ ، ص ٧٠٧ ، ص ٨٧٢ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

(٧١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٨ ، د. ابراهيم طرخان : دولة مالى الإسلامية ، ص ١٧٠ .

(72) Atiya (A. S) : Crusade, Commerce and Culture, pp. 185 - 186.

٥ — انقطاع ورود الذهب وأزمة مصر النقدية :

قبل الشروع فى الحديث عن المؤثرات اندالة على بداية انقطاع ورود ذهب السودان الى مصر واسباب ذلك ، يجدر بنا القول ان ذهب هذه البلاد لم يكن قد نضب معينه كما يرى بعض الباحثين ذلك ، والدليل على هذا ان الحسن بن الوزان « ليو الأفريقى » عندما زار مملكة صنفى فى العقد الأول من القرن السادس عشر للميلاد يصف لنا ثراء ملك « تمبكتو » ، ويذكر ان الذهب كان موجودا بكميات كبيرة جدا فى مدينة « جاو » لدرجة أن سكانها كانوا لا يستطيعون بيع كل المقادير التى يحملونها الى الأسواق ، ويعودون بكثير منها دون أن يتم بيعها ، كذلك يذكر أنه عندما توجه الى بلاد البرنو فقد وجد الذهب بها بكميات هائلة بما يؤكد لنا عدم نضوب معين هذا الذهب (٧٢) ، وسبق أن اشرنا فى الصفحات الأولى الى أنه كان متوفرا حتى القرن الـ ١٩ م .

كما انه من المعروف أن أوربا الغربية والوسطى لم تكن تنتج ولم يكن فى إمكانها أن تنتج الا ذهبا قليلا ، وبالتالي تحتم على أهل أوربا أن يحصلوا على الذهب عن طريق عمليات تبادل تجارية يمكنها أن تجذب نحو الغرب ذهب البلاد المنتجة له أو ذهب البلاد التى كان لديها مخزون كبير منه (٧٤) ومنذ القرن الثالث عشر للميلاد توقف ضرب الذهب فى أوربا الغربية والوسطى ، كما ان المخزون المعدنى من الذهب فى كافة البلاد الأوروبية ثبت عجزه عن تلبية الطلب المتزايد ، هذا فى الوقت الذى كان فيه ذهب « بلاد السودان » يندفق على البلاد الاسلامية فى مصر والمغرب وبلاد الأندلس (٧٥) وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن تجارة الذهب كانت بمثابة المغنطيس الذى جذب النجار من أوربا للتعامل مع المغرب العربى ، وماذا الموانى والمراكز التجارية على امتداد الساحل من طرابلس وحتى أغادير بسفن الدول التجارية الأوروبية (٧٦) فى محاولة للحصول على هذا الذهب من الدول التى لديها

(73) Bovill : op. cit., pp. 126-130.

(٧٤) د. توفيق أسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادي ، ص ٦-٤١ .

(٧٥) المرجع السابق ، نفسه ، ص ٨٢ .

(76) Bovill : op. cit., p. 233.

مخزون منه أولا ثم الوصول الى البلاد المنتجة له ثانيا . وقد أدرك السلطان الظاهر بيبرس ذلك ، لذا نراه عندما وافق صاحب تونس مبدئيا على عقد معاهدة تجارية تقر لبعض المدن التجارية الإيطالية بهذا الحق الخطير ، لم يتوان عن ارسال سفارة الى صاحب تونس ينذره فيها بغزو بلاده ان هو فكر جديا فى عقد مثل هذه المعاهدة مع الفرنج (٧٧) .

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد نلاحظ حدوث كثير من الاضطرابات فى أحوال بلاد المغرب العربى وطوال القرن الرابع عشر كذلك ، مما أدى الى تفكك هذه البلاد الى عدد من الدويلات المتصارعة فيما بينها (٧٨) . والمهم هنا أن هذه الدويلات فتحت المجال أمام أبناء الغرب الأوروبى ، واشتد اقبالهم عليها لا على شكل تجار فقط ، بل فى شكل كثير من المغامرين الذين خدموا ثمة قوات هذه الدول مثل دولة فاس ، ودولة مراكش ، ودولة تلمسان ، ودولة بنى حفص بتونس ، واتفق أبناء الغرب من تجار ومغامرين فى أهدافهم وهى الحصول على الذهب (٧٩) . وهذا ما يتضح جليا من اشتراك الجنية منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى مع رجال القوافل من الطوارق أو «الملثمين» وقيامهم برحلات خاطفة الى واحات الصحراء الكبرى وشرائهم لكميات من الذهب (٨٠) . ولولا اصرار الحكام المسلمين لهذه البلاد على عدم قيام اتصال مباشر بين تجار الفرنج وقلب أفريقية لأسباب دينية وتجارية ، لأمكن لهم التقليل والسيطرة على موارد الذهب (٨١) .

ثم كان موكب منسا موسى سلطان مالى « ٧١٢ — ٧٣٨ هـ / ١٢١٢ — ١٢٣٧ م » الى مصر أثناء حجه ، وما امتاز به من فخامة وعظمة ، وما يحمله من ذهب ويصحب من اتباع ، من أهم العوامل التى حفزت أوربا على ضرورة الاسراع فى محاولة الوصول الى قلب أفريقية عن طريق غير الطريق الذى يتحكم فيه المسلمون ، ولا شك أن التجار الأوربيين المقيمين قرب ساحل

(٧٧) د. صبحى لبيب : سياسة مصر التجارية ، ص ١٣٤ .

(٧٨) المقرئى : السلوك ، ج ٣ قسم ٢ ، ص ٥٢٥ ، ٥٥٩ ، ٧٢٥ ،

الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٨٧ .

(٧٩) د. توفيق اسكندر : نفس المرجع ، ص ٨٢ — ٨٤ .

(٨٠) المرجع السابق، نفسه ، ص ٦ — ٤١ .

(81) Davidson : op. cit., p. 76.

أفريقيا الشمالية قد شهدوا موكب حج السلطان موسى ، وشاهدوا مقادير الذهب التى أسالت لعابهم (٨٢) . والدليل على هذا أن صورة هذا السلطان وموضع إمبراطوريته والطرق المؤدية إليها ، قد ظهرت فى خرائط العالم التى صدرت عن علماء مدرسة ميورقة « أكبر جزر البليار » ، والتى خضعت لملك أرغونة منذ سنة ١٢٢٩ م بعد أن كانت تابعة للمرابطين (٨٣) من هذه الخرائط نذكر الخريطة التى وضعها انجلينو دلكرت سنة ١٣٣٩ م أى بعد وفاة منسا موسى بسنتين فقط ، وكذلك الخريطة التى رسمها بيزيجانى سنة ١٣٦٧ م ، ثم الأطلس القطلانى الخاص بشارل الخامس ، وكلها تشير الى مملكة مالى وحاكمها ، وأنه أغنى رجل فى العالم ، لما لديه من مقادير هائلة من الذهب (٨٤) .

هذا بالإضافة الى أن أوروبا كانت قد استنفذت ما لديها من الاحتياطي من المعادن الثمينة — بسبب الحروب الطويلة — ، لذلك احتاجت الى الذهب لدفع أثمان السلع التى كانت تستوردها من الهند والصين وجزر البهار ، وتركز اتجاه أوروبا الى قلب أفريقيا ، لما سمعه الأوربيون ومما رأوه ، ومما رواه الرحالة المسلمون والمفامرون ، ومما أظهرته الخرائط الجغرافية من الاشارة الى الذهب ووفرته فى قلب القارة (٨٥) . وتقرر بعد ذلك أن يكون طريق البحر هو الطريق الذى يتبفى عليهم أن يسلكوه بسبب تحكم المسلمين فى طرق القوافل . وجرت عدة محاولات من الغرب الأوروبى فى القرن الرابع عشر للميلاد للوصول الى ذهب السودان ، من ذلك ما تشير اليه بعض المراجع من أن الفرنسيين وصلوا عام ١٣٦٤ م الى المناطق الساحلية من غرب القارة الافريقية والتى عرفت فيما بعد باسم « غينيا » و« الرأس الأخضر » وجزيرة جورى Goreé ، وكانت النتيجة وصول كميات لا بأس بها من ذهب غرب أفريقيا الى فرنسا ، ومع هذا لم تمض فرنسا فى

(٨٢) د. ابراهيم طرخان : « البرتغاليون من غرب أفريقيا » مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، ج ١ مايو ١٩٦٣ ، ص ١٦ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١٦ . Bovill : op. cit., p. 91.

(٨٤) Ibid : op. cit., pp. 89-91.

(٨٥) د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق نفسه ، ص ١٩ .

جهودها هذه بسبب انشغالها بحرب المائة عام ضد إنجلترا (٨٦) . وسواء مسح هذا الرأي أو لم يصح ، فالمهم لدينا أن نذكر أنه نتج عن كثرة المعاهدات التجارية ، التي ارتبطت بها بلاد المغرب مع المدن التجارية الأوربية خلال القرن الرابع عشر ، ومحاولات الغرب الأوربي الوصول الى ذلك الذهب أن قلت معدلات وصول مقادير الذهب الى مصر بشكل ملحوظ ، كما أن زيادة التبادل التجارى بين المدن التجارية وبلاد المغرب العربى كان عاملا هاما من العوامل التي ساعدت على قلة ما يرد الى مصر من ذهب هذه البلاد ، لأن المدن التجارية الأوربية أصبحت فى إمكانها الحصول على العاج وريش النعام من المناطق الشمالية الساحلية من بلاد المغرب بطريقتة أكثر سهولة وبسعر أرخص مما كانت تحصل به عليها من مصر ، فضلا عن أنه أتيح لهذه المدن التجارية أن تزود بلاد المغرب بكثير من السلع الأوربية فى سبيل الاستحواذ على الذهب (٨٧) . كخطوة من قبل الغرب الأوربي للسيطرة على هذا الذهب ، والتي ستتحقق خطواتها الفعالة فى القرن الخامس عشر على أيدي البرتغاليين ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بعد قليل .

أما عن المؤشرات الدالة على عدم ورود الذهب منذ أواخر القرن الثامن الهجرى الرابع عشر للميلاد فهي كثيرة فى المصادر العربية المعاصرة ، ولذا سنشير الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، لكن يهمنى فى هذا المقام أن نذكر أن مصر كان لديها المخزون الكافى من الذهب ، وبذلك لم تظهر بوادر الأزمة بشدة الا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، والدليل على ذلك ما يذكره المقرئى عند وفاة السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م من أنه ترك من الذهب مليون وأربعمائة ألف دينار (٨٨) .

فمن المؤشرات الدالة على بداية عدم ورود الذهب الى مصر منذ أواخر القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر للميلاد ما يذكره ابن حجر من أن الدينار الذهب فى سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م فى بداية عهد السلطان برقوق كان يساوى ٢٠ درهما ، ثم فى سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م وصل سعره الى ٢٥ درهما ؛ ثم فى

(86) Church : west Africa, A study of the Environment, London 1961, p. 24., Bovill : op. cit., p. 117.

(87) Bovill : op. cit., p. 246.

(٨٨) السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩٣٨ .

سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤ م وصل سعره الى ٢٧ درهما ، وفى آخر سنة من القرن وصل سعره ما بين ٣١ و ٣٣ درهما (٨٩) . وليس هناك تفسير لسبب هذا الارتفاع الكبير مع وجود الفضة سوى انعدام وصول الذهب الى مصر (٩٠) . وهذا ما يظهر بشكل واضح منذ بداية القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ، حيث تشير المصادر المعاصرة الى أنه فى سنة ٨١٣ هـ/١٤١٠ م وصل سعر الدينار الى مائتين وعشرين درهما (٩١) . فضلا عما يشير اليه ابن حجر فى حوادث سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م أيام الناصر فرج بن برقوق من أن الفضة كانت قد أصبحت هى قاعدة المعاملات المالية فى مصر (٩٢) .

ويحدثنا ابن الصيرفى — وهو الخبير بالشئون المالية — من أنه فى سنة ٨١٤ هـ/١٤١١ م أمر السلطان الناصر فرج بن برقوق بعض كبار أمرائه أن يتوجهوا الى مختلف جهات الديار المصرية لجمع الذهب والفضة من الناس واعطائهم بدلها الفلوس النحاس ، وزود كل أمير منهم بجماعة من المماليك الظاهرية برقوق ، هذا فى الوقت الذى وصل فيه سعر الدينار الذهب الى مائتين وخمسة وعشرين درهما بما يؤكد لنا انقطاع ورود الذهب عن مصر منذ ذلك الحين (٩٣) .

ومن المؤشرات الدالة على اضطراب وصول الذهب ثم انقطاعه ما يتعلق منها بأحوال بلاد المغرب العربى ، والنرى تتضح من الحروب التى نشبت بين هذه البلاد بعضها وبعض ، والنرى تفيض بها المصادر المعاصرة وبخاصة الفترة من سنة ٧٨٨ هـ/١٣٨٥ م الى سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م ، وما كان لها من آثار مدمرة على اقتصاديات بلاد المغرب ، فضلا عن أنها كانت من

(٨٩) أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٠٢ ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٩٠) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٣٨٦—٤٠٦ .

(٩١) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٦٤ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤٦١—٤٦٣ .

(٩٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٣٩٥ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ١٥٨ — ٢٩٢ .

(٩٣) نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

العوامل الهامة التى منعت وصول ذهب « بلاد السودان » الى مصر (٩٤) .
يضاف الى ذلك حالة عدم الاستقرار التى شهدتها بعض بلدان المغرب بسبب
الصراع حول تولى العرش ، وتدخل الوزراء فى عزل وتولية السلاطين مثلما
حدث فى دولة بنى مرين سنة ٨٢٤ هـ حسبما يروى المقرئى ، مما أثر بشكل
ما فى طرق القوافل التجارية ، فضلا عن عوامل الطبيعة وأثرها على الطرق
التجارية ، حيث انعدمت المياه ، وضمت الآبار ، بحيث غدت هذه الطرق
شبه مهجورة (٩٥) . يضاف الى هذا أن حالة الاضطراب هذه لا شك أنها
ساعدت أبناء المدن التجارية القريبة — لما أسدوه من خدمات حربية
واقتصادية سبقت الإشارة إليها — من الاتصال بقلب القارة الافريقية ، حيث
نسمع عن أحد تجار « جنوة » الأثرياء فى النصف الأول من القرن الخامس
عشر ، ويدعى أنطونيو مالفانت Antonio Malfante ، والذى استطاع أن
يتوغل فى الصحراء الكبرى ويصل الى مدينة « توات » ، ويرسل منها رسالة
يذكر فيها بعض المعلومات الجغرافية الهامة عن المناطق الداخلية من القارة ،
كذلك يأتى ذكر أحد رجال الأعمال من « فلورنسة » ويدعى بند دوى
Bendetto Dei الذى استغل امتياز المتاجرة مع المناطق الداخلية فى
أفريقية الذى منحه حكام تونس لفلورنسة ، واستطاع بذلك أن يصل الى
مدينة « تنبكتو » أو « تنبكتو » عاصمة صنفى ، والتى كانت من أهم مراكز
القوافل التجارية المتجهة الى سواحل أفريقيا الشمالية ، وقام بعمليات
تجارية هناك حيث تمكن من مقابضة ما معه من سلع أوربية بالذهب (٩٦) .

ولعله كان من بين العوامل التى ساعدت على قلة ورود الذهب منذ
الترن الخامس عشر الميلادى ، ما يلاحظه الباحث من أنه فى الوقت الذى
أخذت فيه أسعار السلع المصرية ترتفع بسبب ارتفاع أسعار الذهب ، أن
المدن التجارية الأوربية رفعت أسعار مبيعاتها الى مصر ، بحيث وصّر سعر

(٩٤) عن ذلك راجع : ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤٦١—٥٢١ ،
ابن الصبرمى : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٩٥) السلوك ، ج ٤ قسم ٢ ، ص ٥٩٦—٥٩٧ ،
Bovill : op. cit., p. 247.

(٩٦) د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، ص
ibid : op. cit., pp. 116-117. ٢٣٣

مبيعاتها هذه حسبما تشير المصادر المعاصرة بذلك — الى أربعة أمثال أسعارها في أواخر القرن الرابع عشر ، وهذه الزيادة أدت الى زيادة معدلات التضخم في مصر من جهة ، فضلا عن انها أفقدت مصر ما كان لها من سيادة اقتصادية ، بحيث غدت المنتجات المصرية عاجزة عن المنافسة مع السلع الأوروبية التي تم عرضها في أسواق بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي ، وبما يحقق للغرب الأوربي الاستحواذ على أكبر قدر من ذهب هذه البلاد (٩٧) . خصوصا اذا وضعنا في اعتبارنا أن تجارة مصر مع بلدان الشرق الأدنى أي « تجارة الشرق » والتي كانت حكرا على مصر كانت قد تعرضت لهزات عنيفة بسبب غزوات تيمورلنك لآسيا بوجه عام وبلاد الهند بوجه خاص ، فلقد استطاع تيمورلنك أن يستولى على بلاد الهند سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م ، وأنزل بها وبأهلها ضربة لم يكن من السهل عليها أن تفيق منها الا بعد فترة زمنية قد تكون كبيرة ، حيث قتل من أهلها أعدادا كبيرة ، كما أخذ منهم الكثير وبعاهم في أسواق خراسان بأبخس الأثمان ، فضلا عما أحدثه في بلادهم من قتل وتخريب وتشريد ودمار ، مما كان له أكبر الأثر على تجارة الهند مع مصر في ذلك الوقت (٩٨) .

ومن المؤثرات ذات الدلالة على انهدام الذهب منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي ، أن المصادر العربية المعاصرة قد أفاضت كثيرا في حديثها عن ذهب بلاد التكرور الذي كان يتدفق على مصر منذ بداية عصر سلاطين المماليك بوجه عام وفي القرن الرابع عشر بوجه خاص ، فقد سبق أن أشرنا الى مواكب الحج المختلفة وكميات الذهب التي تحملها ، كما أشرنا الى شراء التجار المصريين أكبر كتلة للذهب من خزانة سلطان مالى في الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، الا أن هذه المصادر نفسها تسكت تماما عن الاتيان بمثل تلك الاشارات (٩٩) . بل تكاد تكون اشارة المقریزی سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م هي آخر اشارة صريحة عن وصول الذهب من بلاد التكرور ، والتي يقول فيها أنه في شوال من هذه السنة « قدم ركب التكرور للحج ، ومعهم

(٩٧) المقریزی : السلوك ، ج ٣ ، قسم ٣ ، ص ١٠٩٨-١١٠١ .

(٩٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩٣٤ .

(٩٩) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، القلتشندی :

صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ .

الف وسبعمائة رأس من العبيد والاماء ، وشيء كثير من التبر . . » (١٠٠) كذلك ذكرت بعض هذه المصادر المعاصرة وجود وكلاء لبعض التجار المصريين فى بلاد التكرور فى القرن الرابع عشر للميلاد ، ولكنها لم تذكر أى شيء عنهم فى القرن الخامس عشر ، وهذا فى حد ذاته دليل على مدى تضاعف التبادل التجارى وقلة ورود الذهب أو انعدام ورود (١٠١) . أو بعبارة أخرى يمكننا القول أن التبادل التجارى مع بلاد التكرور أصبح قاصرا على ما يأتى به أبناء هذه البلاد معهم أثناء مواسم الحج من رقيق وبعض الثياب بالاضافة الى بعض الخيول (١٠٢) . وهنا قد يثار سؤال وهو كيف ان مصر كانت تصدر الثياب والخيول وغيرها الى هذه البلاد ، ثم أصبحت تستوردها منها ؟ ولورد على ذلك نقول أن التجار الأوربيين حملوا الى هذه البلاد من السلع الأوربية الأقمشة والخيول والثياب فى مقابل الحصول على الذهب ، والدليل على هذا أن « الحسن بن الوزان » فى حديثه عن مالى يذكر أنه وجد بها الملابس القادمة من أوربا ، وأن الخيول التى كانت تباع فى أوربا الواحد بعشر دوكات ، كان يتم اعادتها بيعها هناك بمبلغ أربعين أو خمسين دوكات (١٠٣) .

وأخيرا كانت المحاولات ذات الآثار بعيدة المدى فى عهد ملك البرتغال هنرى الملاح « ١٣٨٥ — ١٤٣٣ م » ، والذي كان يهدف الى تعقب المسلمين فى شمالى افريقية ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم ، والذي استطاع ان يستولى على مدينة « سبتة » عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، ثم « طنجة » و« تطوان » على امل الوصول الى ذهب « بلاد السودان » ، وتحويل تجارة الذهب عن طريق القوافل الى الطريق البحرى ، والى موانئ المحيط الاطلسى بدلا من موانئ البحر المتوسط ، هذا الى جانب انتزاع تجارة الرقيق من أيدي التجار المسلمين وتحويلها الى الغرب الأوربى ، وايجاد عناصر مسيحية كحلفاء

(١٠٠) السلوك : ج ٤ ، قسم ١ فى حوادث سنة ٨١٩ هـ .

(١٠١) ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ، ص ١٣٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٢٦ ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(١٠٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٢ — ٨٧٦ .

(103) Bovill : op. cit., pp. 128-130.

لهم فى غرب السودان للانضمام لهم فى حروبهم ضد المسلمين (١٠٤) . وفى الفترة من سنة ١٤١٨ م وهى التى شهدت أول حملة بحرية لاستكشاف الساحل الغربى لأفريقيا ، وحتى سنة ١٤٤١ م توالى الحملات ، وكانت أول شحنة من ذهب السودان الغربى يتم للبرتغاليين الحصول عليها عام ١٤٤٢ م ، حيث قبضوا عند نهر السنغال على أعداد كبيرة من الطوارق الذين يستبدلون سلعهم بذهب السودان ، وكذلك على كثير من الزنوج الذين جاءوا بذهبهم للتبادل (١٠٥) . وفى عام ١٤٤٥ م وصلوا فعلا الى مناجم الذهب فى « بامبوك » فى أرض ونقارة التى يقول عنها الادريس أنها بلاد النبر شرقى غانة (١٠٦) . وبذلك تمت لهم السيطرة على معظم تجارة الذهب التى كانت تحملها القوافل الى سواحل شمال أفريقية بوجه عام ومصر بوجه خاص ، وبحلول عام ١٤٤٥ م كان قد تحقق للبرتغاليين التوغل نحو الداخل والسيطرة تماما على تجارة القوافل البرية (١٠٧) . كما أنهم فى الفترة من سنة ١٤٦٩ م الى ١٤٧٥ م توغلوا داخل بلاد السودان الغربى حتى وصلوا الى نهر الفوتا ، وهناك عثروا على كميات كبيرة من الذهب ، وهذه المنطقة هى التى أطلقوا عليها اسم « مينا » Mine أو « المنجم » Misa ، وهى التى تعرف الآن بساحل الذهب ، وهى من أهم المناطق المنتجة للذهب والذى كان يتم نقله عبر الصحراء الى مراكز القوافل ، ومنها يتجه الى مصر وغيرها من بلاد الشمال الأفريقى (١٠٨) .

كما استغل البرتغاليون حاجة السكان الى بعض السلع الأوربية فى مقابل الحصول على الذهب ، الذى كان أهم سلعة فضلها البرتغاليون على تجارة العبيد والتى لم تلق رواجاً كبيراً فى أوروبا ، وكذلك العاج والفلفل الذى

(١٠٤) د. ابراهيم طرخان : البرتغاليون فى غرب أفريقيا ، ص ٢٠ — ٢٤ .

Fage : An Introduction to the Hist. of west Africa. Camb. 1955, pp. 44 - 55.

(105) Bovill : op. cit., p. 117.

(١٠٦) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ١٣—١٤ .

(107) Bovill : op. cit., pp. 191-202; Davidson : op. cit., p. 84.

(108) Fage . An Introduction, p. 47.

لم يكن ليضارع فلفل الشرق ، فضلا عن حاجاتهم للذهب للسيطرة على تجارة الشرق في حروبهم التي خاضوها ضد المسلمين لذلك نلاحظ أنه في السنوات الأولى من القرن السادس عشر للميلاد أن أبناء البرتغال الذين أقاموا في المحطات التجارية في هذه البلاد كانوا يرسلون مقادير هائلة من الذهب كل سنة ، والذي حصلوا عليه في مقابل صادراتهم الى بلاد السودان الغربي من الأقمشة والأدوات المعدنية ، والخرز والودع والأصداف ، والحلى ، لكن يلاحظ أن أهالي البلاد الذين رحبوا بالبرتغاليين من أجل التجارة والتي عادت عليهم بأرباح كبيرة ، قد أصروا على أن تكون علاقات تجار البرتغال مع المناطق الداخلية في الذهب بوجه خاص يجب أن تتم عن طريقهم هم (١٠٩) .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن محاولات المدن التجارية الأوربية والتي تمت أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ان كانت قد أدت الى تقليل كميات الذهب الواردة الى مصر ، فان حركة الكشوف التي قام بها البرتغاليون في النصف الأول من القرن الخامس عشر نتج عنها انقطاع ورود ذلك الذهب عن مصر ، وبالتالي غير مساره الى الغرب الأوربي عن طريق المحيط الأطلسي ، مما كان له أوجم العواقب على أحوال مصر الاقتصادية في عصر سلاطين المماليك الجراكسة . والتي تجلت آثارها في كثير من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر لتضيف عاملا هاما من أهم العوامل التي ساعدت على التدهور الاقتصادي الذي أخذت تعاني منه البلاد حتى آل الأمر الى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام والحجاز على أيدي الأتراك العثمانيين في بداية العقد الثاني من القرن السادس عشر للميلاد .

٦ — آثار انقطاع ورود الذهب في أحوال مصر :

ترتب على انقطاع ورود الذهب الى مصر أزمة اقتصادية حادة كانت لها آثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والتي ظهرت واضحة منذ النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد ، وكان أبرزها ما حدث من تغير في كثير من عادات الناس في تلك الفترة والتي سوف نذكر

بعضها على سبيل المثال لا الحصر . فالمقريزى — وهو شاهد عيان — يذكر أن الناس « على اختلاف طبقاتهم قد غلب عليهم الفقر ، واستولى عليهم الشح والطمع ، فلا تكاد تجد الا شاكيا مهتما لدنياه .. » (١١٠) وفى موضع آخر يقول « والناس قد غلب عليهم فى عامة أرض مصر القلة والناقة ، وعدم المبالاة بأمور الدين ، والشغل بطلب المعيشة لقلة المكاسب » (١١١) كذلك نراه يقول « كثرت الشكاية فى الناس جميعهم من وقوف الحال .. فكان هذا — أعنى الشكاية — مما تجدد ، ولم يكن يعرف ، بل أدركنا الناس ، وإذا شكيا أحد من الناس حاله ، عد عليه ذلك ، فصرنا وما من صفر ولا كبير الا وهو يشكو ، وتزايد أمرهم فى ذلك .. » (١١٢) ، كما أدت الأزمة النقدية وسوء الأحوال الاقتصادية الى حالة من الخوف والقلق عاشها الناس جميعا فى مصر ، يستوى فى ذلك عامة الناس وكبار الأمراء ، فلم يعد الشخص يأمن على غده أو مستقبله ، وكان هذا ما حدا بكثير من كبار رجال الدولة الى وقف ممتلكاتهم على بعض المؤسسات الخيرية والاجتماعية لضمان عدم مصادرتها من جهة ، وضمان الحصول على دخل ثابت من ريعها من جهة ثانية (١١٣) .

ومن المصادات الطريفة والتي كانت شائعة حتى أواخر القرن النامى الهجرى/الرابع عشر الميلادى ما يرويه لنا الرحالة سيجولى عند زيارته لمصر ، من أنه التقى بالقاهرة مع أحد تجار الفرنج من مدينة كانديا Candia والمقيم بالقاهرة ، والذي أخبره شيئا عجيبا حقا ، وهو أن أهل القاهرة رجالا ونساء كانوا ينفقون فى اليوم الواحد فى شراء الأعشاب العطرية والورود التى يضعونها على صدورهم ، وفى شراء المسك وماء الورد وبعض أنواع الزينة التى يستخدمونها مدة يوم واحد ما قيمته ثلاثمائة بيزنت ذهباً (١١٤) . وهذا ما لم يذكره أحد من الرحالة مطلقاً فى القرن الخامس عشر ، بما يؤكد لنا تخلى الناس عن مثل هذه العادة ، بدليل قول المقريزى أنه حتى

(١١٠) السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٧٨ .

(١١١) نفس المصدر ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٦٤ .

(١١٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ .

(١١٣) د. عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة وقف الأمير آخور كبير قراغبا الحسنى ، ص ٢٣٨ .

(114) Avisit to the Holy places. p. 167.

وأواخر القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر للميلاد لم يكن هناك فى مصر والقاهرة امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من عنبر ، وهى التى عرفت فى تلك الفترة باسم « العنبرية » ، الا أن ذلك بطل فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد(١١٥) .

ومن عادات أهل القاهرة — بوجه خاص — ما ارتبط بالاحتفال ببعض المواسم والأعياد ، مثل الاحتفال بشهر رمضان والعيد عند المسلمين والميلاد والغطاس لدى المسيحيين . والتى كانت لها أسواق تزدهر فى مثل تلك المناسبات ، من أهمها « سوق الشماعين » والذى كان يلقى رواجاً ليس له نظير فيما يتخذ فيه من أنواع الاضاءة التى تمثلت فى « الشموع الموكبية » و « الفانوسية » و « الطوائف » ومن « الشمع الذى يحمل على عجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة النراويح » الا أن هذه المظاهر قد تلاشت لفقر الناس وعجزهم(١١٦) . منذ القرن الخامس عشر للميلاد .

ونؤكد لنا كثير من المصادر العربية وكتب الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى التغير الذى طرأ على كثير من عادات الناس فى شتى نواحي حياتهم ، سواء ما كان يتعلق منها « بشوار العرائس » او فى « زينة النساء » ، وملابسهن ، وخير ما يعبر عن هذا التغير قول المقرئى « فاضطر حال نساء أهل مصر الى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ... »(١١٧) .

كذلك كان سكان القاهرة بوجه خاص لهم ولع شديد بتربية كثير من أنواع الطيور ، مثل طائر الهزاز والشحرور والقمارى والبيضاء والسمان وغيرها ، وتنافس كثير من الناس على اقتنائها حتى كان يطلق عليهم « غواة طيور المسومع » وبلغ بهم الترف أن يتناقوا فى اقتناصها وتغالوا فى ائمانها ، حيث نسمع « أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة عنها يومئذ

(١١٥) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ .

(١١٦) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(١١٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ، ٢٦٦—٢٦٨ ،

Adler : Jewish travellers p. 168.

نحو الخمسين ديناراً من الذهب كل ذلك لأعجابهم بصوته « إلا أن ذلك قد بطل ضمن ما بطل من كثير من عادات الناس بسبب تلك الأزمة النقدية التي واجهتها مصر في تلك الفترة (١١٨) .

هذه كانت بعض الأمثلة لما حدث من تغيرات اجتماعية في جانب واحد ، إلا وهو عادات الناس أردنا بها التدليل على آثار الأزمة النقدية ، وكتاب الخطط للمقريزي حافل بالعديد والعديد من تلك التغيرات التي طرأت على أحوال الناس ، وكذلك نزعة النفوس للصيرفي وبدائع الزهور لابن إياس وغيرها من المصادر المعاصرة لهذه الفترة التي شذت بداية تلك الأزمة وما نجم عنها من آثار مختلفة .

وظهرت آثار هذه الأزمة النقدية في سياسة كثير من سلاطين المماليك الجراكسة في محاولاتهم الحصول على المال بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة ، ووضح أن الهدف من هذا كان تعويض العجز الناجم عن عدم تدفق « ذهب السودان » ، مثال ذلك ما يرويه ابن حجر سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق أصدر مرسوماً « بقبض ترك الموتى جميعها من ذوى الأموال مطلقاً : سواء من كان له وارث أو من لم يكن » ، فعظمت المصيبة وكثرت الشناعة . . وشاع بين الناس أن الناصر أمر بتغيير حكم الله « (١١٩) . كما يشير المقريزي إلى الفوضى السياسية التي تجلّت في « ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونباية الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل » (١٢٠) وهو ما عرف في العصر المملوكي بالبذل والبرطلة وتم إنشاء ديوان خاص أطلق عليه « ديوان البذل والبرطلة » وشاع ذلك في مختلف البلدان التي خضعت لحكم المماليك ، وصار كل من له حاجة يأتى إلى صاحب هذا الديوان المذكور ويبذل له الأموال في سبيل الحصول على ما يروقه من الوظائف ، وكثيراً ما كان السلطان نفسه هو الذى يحصل تلك

(١١٨) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٦ وما بعدها .

(١١٩) انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(١٢٠) اغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

الأموال بنفسه (١٢١) وبذلك انتشرت الرشوة التي كان يستأديها السلطان بنفسه من ولاية الأعمال ، واقتدى به الولاة في ذلك حتى صار ذلك عرفا غير منكر ألبته (١٢٢) ، كذلك شاعت في تلك الفترة المصادرات على مباشرى الدولة بأسرهم ، وأصبحت هناك مقررات تفرض على الوظائف يدفعها كل من يتولى وظيفة من الوظائف (١٢٣) .

وفيما يتعلق بولاية الأمور من غير السلاطين فخير ما يعبر عن فساد تصرفات هؤلاء تلك العبارة الموجزة التي أوردها المقرئ في حديثه عن سنة ٨٣١ هـ أيام السلطان الأشرف برسباي يقول فيها : « غاية مقاصدهم أنها هي أخذ المال على كل وجه أمكن أخذه ، فلها اختلت الأحوال ، وضاعت المصالح » (١٢٤) .

أما عن الآثار الاقتصادية لازمة النقد هـ التي أحدثها عدم ورود الذهب ، فإنها تمثلت في كثير من النواحي ، نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر . فمن المعروف أن المعاملة طوال عصر سلاطين المماليك البحرية « العصر المملوكي الأول أو دولة المماليك الأولى » كانت بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، إلا أنها منذ أيام السلطان برقوق أخذت في النقصان ، حتى كانت أيام الناصر فرج بن برقوق وبالتحديد منذ عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م فأبطلت المعاملة نهائيا بالدراهم والدنانير ، وأصبحت الفلوس هي العملة الوحيدة (١٢٥) . وتجدر الإشارة إلى أن الفلوس النحاس كانت معروفة في مصر منذ عهد السلطان الكامل الأيوبي ، إلا أنها أصلا كانت عملة مساعدة ، وكان لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة ، ومنذ هذا التاريخ راجت الفلوس

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٩٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

(١٢٢) المقرئ : السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٦١٨ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٥٩٥ ، حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

(١٢٤) السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٨٨ .

(١٢٥) المقرئ : السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٢٣٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٣ ، ص ١٥٢ ، د. حامد زيان : الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٦ .

رواجا كبيرا حتى نسبت اليها سائر المبيعات وصار يقال : كل دينار بكذا وكذا من الفلوس ، أى أن الفلوس صارت هى القاعدة النقدية التى اتخذت أساسا لنظام التعامل النقدي فى مصر الجركسية من الوجهة الفعلية ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعدما فلم يوجد كما يقول المقريزى (١٢٦) . وظل سعر الذهب فى ارتفاع مستمر ، كما استمرت الأحوال الاقتصادية خاصة المالية منها فى تدهور ملحوظ منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، وهى السنة التى يقول عنها المقريزى أنها « هى أولى سننى الحوادث والمحن التى خربت فيها دينار مصر . . . » وذلك نتيجة لفساد العملة وارتفاع سعر الذهب ارتفاعا كبيرا ، وما نجم عن ذلك من ارتفاع سائر أسعار المبيعات والأجور ، وبالتالي أصبح من الصعب خفض الأسعار أو على حد قول المقريزى أصبح « لا يرجى الرخاء » (١٢٧) . وبشير ابن تغرى بردى الى أن موجة التضخم هذه ظلت آخذة فى الازدياد ، فبعد مرور نصف قرن أى فى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م يذكر أن الغلاء وصل الى درجة مفرطة لم تشهد البلاد مثيلا لها من قبل (١٢٨) .

ولم يقتصر الأمر على حلول الفلوس محل الذهب والفضة كتأعدة لنظام الأسعار ، وما نجم عن ذلك من ارتفاع فى الاسعار ، بل تعدى الأمر ذلك الى محاولة تزييف هذه الفلوس والذى اتخذ مظهرين أساسيين هما انقاص وزنها ، وخلط الفلوس النحاسية بمعادن أخرى أقل قيمة ، خاصة حين أصبح التعامل بالفلوس على أساس الوزن وليس العدد . من ذلك ما تشير اليه بعض المصادر من أنه منذ عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م أصبحت هذه الفلوس تسك وقد خلط فيها قطع من الحديد وقطع من النحاس وقطع من الرصاص بل أكثر من هذا أن كثيرا من الصيارفة أخذوا يحولون الفلوس النحاس الخالصة الى أوانى نحاسية وغيرها ويبيعونها داخل مصر وخارجها طلبا للربح الوافر فيها (١٢٩) . وقد كان لعمليات التزييف هذه أسوأ الأثر على حركة

(١٢٦) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤١ ، اغاثة الأمة ، ص ٦٦ — ٧٢ ، د. عبد اللطيف ابراهيم : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(١٢٧) السلوك ، ج ٣ ، قسم ٣ ، ص ١١٢٧ ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٢٧—٢٩ ، د. حامد زيان : نفسه ، ص ٧١ .

(١٢٨) النجوم ، ج ١٥ ، ص ٥٤٧ .

(١٢٩) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٣ ، ص ٦٢٩—٦٣٠ .

الأسواق ، اذ كان الناس يمتنعون عن التعامل بها ، ومن ثم تصاب الحركة التجارية الداخلية بالكساد ، كما ترتفع الأسعار فى موجة تضخم جنونية تصل الى حد أن تغلق الحوانيت وتتعطل الأسواق (١٢٠) هذا الى جانب حرص كثير من السلاطين على سك عملات جديدة بأسعار جديدة لمواجهة التضيف ، الا أن الكثيرين منهم وضعوا فى اعتبارهم تحقيق المكاسب من سك النقود الجديدة بأسعار تفوق قيمتها الشرائية ، وكل هذا كان يؤدى بالضرورة الى ازدياد منحنى التدهور بمرور الزمن (١٢١) .

وتجدر الاشارة أيضا الى أنه نتج عن الأزمة النقدية التى أحدثها نقص ورود الذهب ، بالإضافة الى عوامل الطبيعة من كثرة الأوبئة والطواعين ونقص مياه الفيضان أثرها الواضح فى تواضع انتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها الى أدنى حدوده ، ولم تكن نتيجة ذلك قاصرة على المزيد من استنزاف رصيد البلاد من الذهب ، بل والمزيد من نقص الصادرات ، وما ترتب على ذلك من زيادة الاعتماد على الواردات من الغرب الأوروبى (١٢٢) . وهذا ما يمكن التعبير عنه بأنه حدث انقلاب فى الأوضاع الاقتصادية التى كانت سائدة فى مصر طوال العصر المملوكى الأول ، فبعد أن كان التجار الأوروبيون يحملون السلع الشرقية الى أوروبا فى مقابل الذهب ، أصبحوا يصرفون السلع المصنوعة فى بلادهم فى مصر على نطاق كبير (١٢٣) . وهذا يفسر لنا السر من تعجب وتسائل سلاطين المماليك — فى القرن الخامس عشر الميلادى — بل ودهشتهم من قلة ما أصبح يجلبه التجار الأوربيون معهم من الذهب الى مصر ، والذى لجأ السلاطين المماليك الى علاجه عن طريق فرض قدر معين من التوابل السلطانية « توابل الذخيرة الشريفة » على هؤلاء التجار ، يشترونه بالذهب بالإضافة الى ما جرت به العادة من تقديم السبائك الذهبية الى دار السكة السلطانية (١٢٤) .

-
- (١٢٠) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ٧٠—٧١ .
 (١٢١) المرجع السابق ، ص ٧١ .
 (١٢٢) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ، د. قاسم عبده قاسم : نفسه ، ص ١٤٧ — ١٥٠ .
 (١٢٣) د. توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص من المقدمة .
 (١٢٤) د. صبحى لبيب : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ، ص ٤٤ .

كما نلاحظ أيضا أنه نتيجة لقلّة الذهب فى مصر فتّد كثر التعامل بالأجل أى على أقساط بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم يكن ذلك قاصرا على السلع المحلية ، بل شمل السلع الواردة من بلاد العراق والشام الى مصر ، حيث يسلم التجار الواردون ما معهم من سلع الى السماسرة الذين يقومون بدورهم ببيعها على التجار على أن يجبوا ثمنها فى مدة أشهر معلومة ، وهذا التغير الذى حدث فى نظام البيع والشراء لم يكن شائعا من قبل بمثل هذه الدرجة ، والذى أدى بدوره الى الزيادة فى الأسعار (١٣٥) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل ان نقص الذهب هذا كان السبب المباشر وراء شيوع نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية وهو ما لم يكن معروفا من قبل ، فالباحث فى المعاهدات التى تم عقدها بين سلاطين المماليك والمدن التجارية الأوربية حتى القرن الرابع عشر الميلادى سوف يدرك أن التبادل التجارى كان قائما على المعادن النفيسة وبخاصة الذهب ، حتى اذا جاء القرن الخامس عشر للميلاد يجد فى معاهدات البندقية سنة ١٤١٥ م وفلورنسة ١٤٨٩ م بندا او بنودا خاصة بنظام المقايضة لم تكن موجودة فى المعاهدات الأولى التى نصت على تنظيم استيراد الذهب وضربه . أما السلع التى استخدمت فى المقايضة وقامت مقام العملة فهى التوابل فى ناحية ، والفواكه الجافة والمعادن غير النفيسة وكذلك زيت الزيتون والعسل والصابون والبندق واللوز ، بالإضافة الى بعض السلع الأخرى ، مثل الأقمشة والمصنوعات الزجاجية والمرايا (١٣٦) .

كما ترتب على انعدام الذهب أن أصبح الاعتماد على العملات الأجنبية — لثبات وزنها وعيارها — هو أساس التعامل فى الحياة اليومية فى مصر منذ القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ، حيث نسمع عن العملات « القرمانية » و « اللكنية » و « التكرورية » و « الامرنية » وليس أدل على ذلك مما يرويه بعض المؤرخين المعاصرين من أن السلطان المؤيد شيخ فى

(١٣٥) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٥٩٥ ، فى حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

(١٣٦) د. صبحى لبیب : نظام المقايضة ، ص ٣٨ — ٤٤ ، د. توفيق اسكندر : نفسه ، ص ٨٠ ، Amari : I Diplomi Arabi.

سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م عندما أعد حملة حربية للخروج الى بلاد الشام لمحاربة الخارجين على الدولة ، أعطى كل واحد من الممالك السلطانية « تسعة وثلاثين أرفنتى » ، كما أنه فى سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م قام بتعيين محتسب للقااهرة ومصر ورتب له فى كل يوم على الجوالى « أفلوريين » (١٣٧) . وبذلك سيطرت هذه العملات الأجنبية على حركة التعامل فى الأسواق المحلية ، وكان من نتيجة ذلك أن زادت قيمتها بحيث وصل سعر « الافرنتى » فى سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨ م أيام المؤيد شيخ الى $\frac{1}{2}$ دينار من الذهب المصرى ، أى ما يعادل ٢٧.٠٦ درهما (١٣٨) . كذلك سيطرت هذه العملات على حركة التعامل فى تجارة مصر الخارجية ، فيروى لنا ابن الصيرفى أنه فى سنة ٨١٦ هـ/١٤١٣ م ، فى أواخر عهد السلطان برقوق ارتفعت أسعار الأقمشة المصرية الصنع بنسبة تراوحت بين ١٠٠٪ و ٢٥٠٪ ، بينها ارتفع سعر الأقمشة التى كان يتم استيرادها عن طريق المدن التجارية الأوربية بنسبة تراوحت ما بين ٢٥٠٪ و ٣٠٠٪ ، وبذلك كان ميزان المدفوعات فى صالح هذه المدن وليس فى صالح مصر ، وقد كان لهذه السياسة أثرها الواضح فى ازدياد عجز المصنوعات المصرية عن منافسة مثيلاتها فى أسواق التجارة الخارجية (١٣٩) .

وقد يرى البعض أن بعض سلاطين المماليك وبخاصة « المؤيد شيخ » والأشرف برسباى قد حاولا اصلاح النظام النقدى المصرى ، عن طريق سك « دراهم مؤيديه » و« دنائير أشرفية » ، إلا أن الحقيقة المؤلمة أن هذه الدراهم وتلك الدنائير لم تكن سوى أجنبية ، تم جمعها من الناس ، وتمت إعادة سكها وبخس عيارها ووزنها وعليها شعار الدولة الاسلامية ، وليس شعار المدن التجارية الأوربية (١٤٠) .

وغنى عن البيان أيضا مدى خطورة الاعتماد على النقد الأجنبى كقاعدة للتعامل النقدى ، وغنى رأى أن ذلك قد وضع عندما امتنع « الفرنج » فى عهد

-
- (١٣٧) نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٣٥٢ ، ابن تفرى
 بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤٥١ .
 (١٣٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠—٤٢١ .
 (١٣٩) نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .
 (١٤٠) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٧٧ .

السلطان برسبای من شراء الفلفل والتوابل بالسعر الذى حدده ، وربما فسر لنا هذا الحدث قول المقریزی فی تلك الفترة أن « أحوال الناس بديار مصر والشام واقفة ، لقلة مكاسبهم .. » (١٤١) .

كما يبدو لنا أن بعض الاجراءات الاقتصادية التى كثرت فی مصر منذ عهد الأشرف برسبای كان المحرك الأساسى لها هو قلة وصول « ذهب السودان » ، والتى كان منها سياسة الاحتكار التى لجأ اليها ، كذلك ما صار يعرف منذ عهده باسم « مال الضيافة » وهو عبارة عن مبلغ من المال وصل أحيانا الى ما يعادل مائة دينار ، كان يتم تحصيله من أهل الضواحي والقرى ، فاقتل بذلك حال الفلاحين خلا كبرا (١٤٢) يضاف الى هذا ما عرف بسياسة « الطرح » والتى شاعت فی عصر سلاطين المماليك الجراكسة بوجه خاص بحيث كانت الدولة تفرض على التجار وغيرهم من الناس شراء بعض السلع بالسعر الذى تحدده ، وعادة كان يلحق بالناس أضرار كبيرة وخسائر لا حصر لها بسبب ارتفاع أسعار السلع المطروحة عن سعرها الحقيقى (١٤٣) .

(١٤١) السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٠٥ .

(١٤٢) المقریزی : نفس المصدر ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ،

٧٩٨ .

(١٤٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ ، ج ٤ ، قسم ٢ ،

ص ٨٠١ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

oboiikan.com

دور العرب وتأثيرهم فى شرق أفريقيا

د. سليمان عبد الفنى المالكي

ارتبطت بلاد اليمن وشبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا منذ أقدم العصور التاريخية ، وقد كان للوضع الجغرافى للبلدين أثره فى تنمية هذه الصلات كما تفاقمت هذه الصلات قوة وضعفا بتفاوت العوامل والظروف السائدة ، إذ أن هجرة سكان اليمن وحضرموت الى الحبشة وغيرها من مناطق الساحل الشرقى لافريقيا لم تنقطع فى العصور المختلفة . كما أن الصلات الدينية والسياسية والتجارية التى كانت تربط بين اليمن والحبشة ظلت قائمة لفترة طويلة ذكرتها المصادر التاريخية ، ولا ريب فى أن النقوش المكتشفة فى البلدين ما تزال هى بلا شك تضيف أدلة من عمق هذه الصلات (١) .

ومما يجب الاشارة اليه فى هذا الصدد أن التجار من جنوب الجزيرة العربية والذين يمثلون رأس الرمح كانوا أقدم من وطئ الساحل الشرقى حيث كان قدومهم الى هذه المناطق بفرض التجارة والاستيطان (٢) .

ومع قلة عدد هؤلاء التجار الا أنه بمضى الزمن بدأ اختلاطهم يشهد بالسكان المحليين فتزوجوا بنساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاستغلال بتجارة الذهب والعاج والرقيق (٣) وكونوا امارات عربية فى شرق افريقيا شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها . هذا وقد ظلت هذه الصلات بين الجزيرة العربية والجزء الشرقى والشمالى الشرقى لافريقيا باقية لم تنقطع .

(١) أحمد ، الحميمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ، القاهرة ،

ص ٣ .

(٢) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٧٧ .

(3) Ingrams : Arabia and the Isles, p. 3.

واذا علمنا أن المسافة بين زنجبار وعدن لا تتجاوز ١٧٠٠ ميلا وبين زنجبار ومسقط ٢٢٠٠ ميلا تقريبا لادرکنا ان الامتداد العربى الى هذه المناطق الافريقية كان شيئا طبيعيا(٤) . فالقبائل القريبة من الساحل الافريقى أو كما عبر عنها كويلاند (Coupland) بالجيران(٥) (Next door neighbours) كان لابد لها من أن تمد نشاطها وتجارها وتنقل حضارتها الى سواحل افريقية الشرقية .

وظل هذا الاتصال التجارى ينمو ويتسع قبل ظهور الاسلام بين الجزيرة العربية وموانئ الساحل الافريقى الشرقى وقد ساعد هذا فى زيادة الانتشار العربى على سواحل افريقية الشرقية . الا انه كان يختلف عن الفتوحات الاسلامية المعروفة التى حدثت فى اجزاء أخرى من شمال افريقيا . فلم يكن نتاج حملة عسكرية منظمة من قبل دولة بعينها وانما كان هذا الانتشار نشاط امارات عربية على ساحل حضرموت ، بل وفى أغلب الأحيان يرجع الى جهود جماعات قد أسهمت وكان لها دورها فى حملات بقصد الاستقرار والتجارة(٦) .

ومن المعلوم أن هناك أسبابا عديدة ساعدت فى هجرة العرب من الجزيرة العربية الى افريقيا الشرقية كالعوامل الجغرافية والمناخية والسياسية بالإضافة الى الدوافع التجارية . ونستطيع أن نذكر بعض هذه العوامل ونجملها فى الآتى :

أولا : معرفة التاجر العربى بساحل افريقيا الشرقية ويرجع ذلك الى أن سكان جنوب شبه الجزيرة العربية (العمانيون والحضارمة) على وجه الخصوص نشأوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة العربية فى منطقة ظهرها طارد(٧) بسبب الطبيعة الصحراوية الجرداء للمنطقة وكان من

(٤) شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ، ص ٣٦ .

(5) Coupland, R. : East Africa and Irs Inuaders.

(6) Kettie, J. Scott : The Partition of Africa (London 1895), p. 10.

(٧) شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ص ٣٧ .

الطبيعى أن يولوا وجوههم الى البحر والى التجارة مع الدول المطلة على المحيط الهندى فى آسيا وافريقيا .

وبمرور الزمن ومع تكاثر اعدادهم تمكنوا من تكوين مجموعات صغيرة اخذت طريقها متسللة الى شرق افريقيا فانتشرت أولا فى بعض الجزر الساحلية — زنجبار — بمبا ، وفى المراكز الساحلية مثل سفالة ومالندى وكلوة وممبسة ودار السلام (٨) . واستطاعت بذلك أن تطبع مناطق واسعة من شرق هذه القارة بلغتها وديانيتها وكان لها ما ارادت واندمجت مع سكان القارة الوطنيين فى هذه المنطقة (٩) .

ثانياً : يعتقد كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن هذه المنطقة ان انهيار سد مأرب عام ١٢٠ م قد دفع بالهجرة العربية دفعا قويا نحو الساحل الشرقى لافريقيا بحثا عن مأوى ومصدر للرزق خارج شبه جزيرة العرب (١٠) . فعلى اثر انهيار السد خرجت من جنوب شبه الجزيرة العربية هجرات عربية الى مختلف الانحاء سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها وكان من الطبيعى أن يتجه جزء من هذه الهجرات الى الساحل الشرقى لافريقيا ، حيث القرب الجغرافى والمهنة السابقة بالساحل (١١) .

ثالثاً : وقد استفاد العرب فى شبه جنوب الجزيرة العربية من العوامل الجغرافية المتعلقة بحركة الرياح الموسمية المعروفة باسم الـ (Dhow) من القيام برحلتين منتظميتين فى السنة بأقل مجهود ، ففى فصل الخريف تدفع الرياح الموسمية السفن فى اتجاه جنوبى غربى الى الساحل الافريقى وفى فصل الربيع تدفع هذه الرياح الموسمية السفن فى اتجاه شمالى شرقى وبذلك تتمكن من العودة الى قواعدها فى شبه جزيرة العرب (١٢) .

-
- (٨) شوقى الجبل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ص ٣٧ .
(٩) صفى الدين ، محمد صفى الدين : افريقيا بين الدول الاوربية ، ص ٥٢ و ٦٧ .
(١٠) الشاطر بصلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٤٩ ، ص ٤٠ .
(١١) سليمان عبد الغنى مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٣ .
(١٢) The Arab Dhow Trade, October 1954 (The Middle East Journal, (12).
حورانى (جورج فاضلو) : العرب والملاحة فى المحيط الهندى .

وفى خلال دورة هذه الرياح يتم التعامل التجارى فيما عرف برحلات الشتاء والصيف بين مختلف الاقطار الاسيوية وافريقيا(١٢) . وبمرور الزمن أصبحت للتجارة والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها ، وأصبحت رحلاتهم من شبه جنوب الجزيرة العربية الى السواحل الافريقية الشرقية ومدة اقامتهم بها تنظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المعروفة لديهم ، وظلت لهم السيطرة على طرق التجارة البحرية هذه الى ان نافسهم الروم عندما ارسلوا سفنهم المتطورة عبر البحر الاحمر بعد اكتشافهم دورة الرياح الموسمية للمتاجرة مع الهند(١٤) .

وكان لقيام امارات عربية فى اليمن ذات حضارة زاهرة منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وهى دول معين وسبأ وحمر ، والتي قامت حضارتها و ثروتها أساسا على العمليات التجارية البرية والبحرية أثر كبير فى زيادة الاتصالات بساحل شرق افريقيا(١٥) . حيث كان أهلها يتاجرون مع الهند وشرق أفريقيا ويجلبون منها السلع الى جنوب الجزيرة العربية ثم تنقلها القوافل الى الداخل ومنها الى الشام والعراق ومصر . ومع ازدهار التجارة وتقدم فنون الملاحة زاد اتصال العرب بالساحل الشرقى لافريقيا(١٦) .

هذا وتواجه الباحث مشكلة قلة المراجع التى يمكن الاستناد عليها فيما يتعلق بالعلاقات العربية والسواحل الشرقية لافريقيا فى الفترة السابقة لظهور الاسلام اذ لا توجد مصادر مخطوطة عن تلك الفترة فالتاريخ القديم لهذه المنطقة لاتزال ملامحه تتشكل وفقا على النتائج التى تتوصل اليها بعثات الكشف والتنقيب التى بدأت تمارس نشاطها فى مجال الحفريات فى السنوات الأخيرة بغرض استجلاء ما غمض من تاريخ هذه المنطقة(١٧) .

-
- (١٣) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٤٩ ، ص ٤٠ .
- (١٤) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ، أكتوبر ، ص ٤٠ .
- (١٥) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، القاهرة ، ص ١١ .
- (١٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .
- (١٧) جمال زكريا قاسم : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

وقبل هذه الكشوف الأثرية الحديثة التى أجريت فى منطقة شرق أفريقيا فان المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى تاريخ هذه المنطقة وعلاقتها بجنوب شبه الجزيرة العربية هو ذلك التراث الاغريقى النادر المعروف بالدليل الملاحى للبحر الارتيرى (Periplus Maris Erythrae) الذى كتبه أحد الاغريق فى النصف الثانى من القرن الاول الميلادى (١٨) . والبحر الارتيرى كان يطلق على الجزء الغربى من المحيط الهندى وبالتحديد الجزء الملاصق لسواحل شرق أفريقيا (١٩) . ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية نشرها (شوف) (Schoff) بعنوان : (The Periplus of the Erythrean Sea) وقد خص هذا الكتاب بمعلومات وافية ووصف للساحل الشرقى لافريقيا وحالة العرب وتجارته فى المنطقة (٢٠) .

وتنوع أهمية هذا الكتاب من انه أول مصدر تعرض للعلاقات التى كانت قائمة بين جنوب الجزيرة العربية والسواحل الشرقية لافريقيا قبل ظهور الاسلام . وعن هذه الفترة يؤكد كتاب الدليل الملاحى للبحر الارتيرى كثرة السفن العربية فى الساحل الشرقى لافريقيا ، وان هذه السفن كانت تاتى من شبه جنوب الجزيرة العربية ومن بعض مناطق المحيط الهندى حيث تتبادل السلع التجارية مع تلك التى تاتى من السواحل الافريقية (٢١) كما يتحدث عن اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الافريقية وأن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لامراء حمير وجنوب الجزيرة العربية وأن العرب كانوا يأنفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحل واللغة (٢٢) .

اكتفى العرب فى الفترة السابقة لظهور الاسلام بالاستقرار المؤقت على السواحل الشرقية لافريقيا ولم يحاولوا التوغل الى داخل القارة مكتفين بانشاء المراكز التجارية على السواحل لتبادل وتصدير تراب الذهب والعاج

(18) Roland Olivlr, (Editor) The Dawm of the African History, p. 45.

(١٩) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس العربى من حوليات مكتبة الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٢٠) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٢ .

(٢١) جمال زكريا قاسم : مجلة الفهرس العربى ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٢٢) حوراني : العرب والملاحه ، ص ٨٥ .

والرقيق وغيرها من المنتوجات الافريقية بتلك التى يجلبونها من الهند وبعض الجزر الاسيوية فى المحيط الهندى .

كما أوضحنا لا توجد لدينا معلومات وافية عن حالة العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى الفترة التالية لرحلة صاحب كتاب البحر الارتفاعى (The Periplus of the Erythrean Sea) فى القرن الأول الميلادى وحتى الاسلام فى القرن السابع الميلادى ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن الصلات كانت قائمة ولم تنقطع ولكنها كانت محدودة الاهداف والتأثير الى أن بدأ الاسلام يحدث انقلابا خطيرا فى حالة العرب بوجه عام وتاريخ الساحل الشرقى لافريقيا بوجه خاص (٢٣) . اذ ظل نشاط العرب فى هذه الفترة لصيق بالسواحل ولم يحاولوا التوغل داخل القارة الا فى نطاق ضيق جدا ، حيث اكتفوا باقائه المراكز التجارية على الساحل ليصل اليهم مندوبون من القبائل الافريقية لمقايضتها بما لدى التجار العرب من بضائع اسبوية ، فيتم نقلها الى الخليج وشبه جنوب الجزيرة العربية حيث تنقلها من هناك القوافل الى الشام والعراق أو تنقلها السفن الى شبه القارة الهندية (٢٤) .

ومما لا شك فيه أن هجرة العرب واستقرارهم فى السواحل والجزر الساحلية من أفريقيا ، المقابلة للجزيرة العربية قد حدث بهدوء ودون اللجوء الى القوة أو العنف اذ لم يذكر لنا التاريخ حروبا أو معارك وقعت بين المهاجرين والسكان الافريقيين من أهل المنطقة . فالغرض الأساسى من استقرار العرب فى السواحل الشرقية لافريقيا كان التجارة واستغلال الحاصلات الداخلة للقارة الافريقية ونقلها للثغور الساحلية وجلب ما يمكن تصريفه فى داخل القارة من البضائع الاسيوية ولذلك لم تهتم الجماعات العربية بامتلاك الأرض الا بالقدر الضرورى لحماية الثغور التجارية ومن ثم كانت رقعة الممالك العربية على الساحل الافريقى ضيقة (٢٥) .

ويظهر الاسلام فى القرن السابع الميلادى فى شبه الجزيرة العربية أصبح لدى العرب والمسلمين دوافع جديدة غير العامل التجارى لمحاولة

(٢٣) جمال زكريا قاسم : مجلة فهرس الحوليات ، مجلد ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢٤) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٢ .

(٢٥) شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا ، ص ٣٩ .

الاستقرار الدائم فى سواحل افريقيا الشرقية واقامة كيانات سياسية اسلامية وبالتالي ازدادت الروابط بين العرب وشرق أفريقيا ولم يقتصر هذا الامر على عرب شبه الجزيرة العربية وحدهم بل تعداهم الى كثير من الشعوب الاسلامية مثل بلاد فارس وشبه القارة الهندية وكافة الدول الاسلامية (٢٦) .

واهم ما تميز به هذا الدور الاسلامى هو قيام الامارات والمدن العربية على السواحل الافريقية كما شهد تدفق العرب المهاجرين الى ساحل شرق أفريقيا باعداد أكثر واللاحق باخوانهم الذين سبقوهم واستقروا هناك . وكان استيطان العرب واستقرارهم بشرق أفريقيا نتيجة لدوافع متعددة لعل أبرزها النزاعات الدينية والسياسية التى كانت تحدث بين المسلمين خاصة فى عهد الخلفتين الأموية والعباسية مما دفع باعداد متزايدة من العرب وغيرهم من المعارضين الى الهجرة خارج شبه الجزيرة العربية فاتجهت جماعات منهم الى موانئ شرق أفريقيا حيث كانوا قد تعودوا من قبل على التبادل التجارى معها (٢٧) .

وقد أسس هؤلاء العرب المهاجرون المدن ووطدوا اقدمهم على طول الساحل الشرقى لافريقيا وقد ساعدتهم على ذلك وجود مجموعات من التجار العرب الذين سبقوا هؤلاء منذ زمن بعيد واستوطنوا الجزر والسواحل الشرقية لافريقيا واستطاعوا عن طريق المعاملات التجارية أن يؤسسوا لهم كيانات خاصة بهم وان يختلطوا بالسكان الافريقيين عن طريق التزاوج مما أمن لهم استقرارا هادئا وسلميا .

الهجرات الإسلامية الى شرق أفريقيا :

بدأت الهجرات الاسلامية الى شرق أفريقيا منذ بزوغ الاسلام على تلك المجموعة الصغيرة من المسلمين الذين وجههم الرسول عليه الصلاة والسلام للهجرة الى الحبشة مما يؤكد أن الصلات بين الجزيرة العربية وأفريقيا كانت قائمة ومتصلة ثم زادت هجرات المسلمين من الجزيرة العربية الى شرق

(٢٦) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٣ .

(27) Zoe March : East Africa Through Contemporary Records, p. 3.

أفريقيا منذ الفتنة الكبرى التى بدأت فى عهد خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) (٢٨) .

وتروى أحداث التاريخ أن أولى الهجرات الجماعية فى العصر الاسلامى الى أفريقيا كانت فى عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) (٦٨٥ — ٧٠٥ م) . وذلك على اثر اتباع سياسة البطش والتنكيل بالحركات المناوئة للدولة الاموية ، فخرجت هجرات عربية باعداد كبيرة الى السواحل الشرقية لأفريقيا وانضمت الى من سبقوهم ليدعموا تأسيس المدن والمراكز العربية هناك والتى أصبحت نواتها لامو والمناطق التى حولها (٢٩) .

وكان من اهم هذه الجماعات العربية التى هاجرت الى شرق أفريقيا تلك التى خرجت من عمان خلال الفترة من (٧٥ — ٨٥ هـ) (٦٩٤ — ٧٠٤ م) بقيادة الاخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجندى من قبيلة الازد وهما من شيوخ العرب الذين حكموا عمان فى أيام الدولة الاموية وثاروا فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان الا انهم فشلوا وتقلبت عليهم قوات الحجاج ابن يوسف الثقفى سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م . فهرب سعيد وسليمان مع أنصارهما تاركين وطنهم الى الساحل الأفريقى ولا يعلم تماما أين نزلا على البر ، ويحتمل أن يكونا قد نزلا فى (بات) (Pate) فى أرخبيل لامو (٣٠) أو فى مدينة حدابو التى أسسوها شمالى ممبسة (٣١) .

وتبع هذه الهجرة هجرات اسلامية أخرى اسنقرت فى أماكن متفرقة على الساحل الشرقى الأفريقى ، ومما لا شك فيه أنه بانتصار بنى أمية وتأسيس دولتهم حدثت معارك دموية بينهم وبين الهاشميين كانت آخر تلك المعارك تلك المعركة التى قتل فيها زيد بن على زين العابدين عام ١٢١ هـ / ٧٣٨ م وتفرق أتباعه من بعده فى البلاد فاستقر فريق منهم فى اليمن مؤسساً طائفة الزيديين والنى كانت غيهم الامامة الى عهد قريب (٣٢) . ومن هؤلاء

(٢٨) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .

(٢٩) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٤ .

(٣٠) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٨ .

(٣١) سليمان مالكى : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٤ .

(٣٢) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .

الزبديين من هاجر الى ساحل شرق افريقيا . واستقروا عند ساحل بنادر بالقرب من موقع مقديشيو عن شنجابا (٢٢) . هذا ولم ينفرد الزيدويون بالهجرة فى عهد الأمويين لأن كثيرا من أهل الحجاز وعلى الأخص من أهل مكة والمدينة قد حذا حذوهم بعد الحملات الحربية التى جردها الأمويون على المدينتين المقدستين (٢٤) . وكما ان اتباع زيد كانوا من خيرة الاسر العربية ، كذلك كان مهاجروا الحجاز من أعرق الاسر التى عارضت الحكم الأموى ومنهم من كان ينافسهم فى المركز والحسب .

ولقد تكررت نفس الهجرة وعلى نفس النمط عندما استولى العباسيون على الدولة الاسلامية فانتشر الأمويون واتباعهم فى شمال افريقيا والاندلس وكان من بينهم عدد لا بأس به وصل الى الشاطئ الشرقى لافريقيا عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر (٢٥) ومنهم من تعمق فدخل السودان عن طريق الحبشة (٢٦) وقد ترك هؤلاء الأمويون آثارا طيبة فى المناطق التى هاجروا اليها بما كانوا يحملون من نور الاسلام وتعاليمه بالإضافة الى المسادات العربية الأصلية . ولما علم الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) بشهرة الأمويين وخاصة عبد الملك بن مروان فى الساحل الشرقى لافريقيا شجع بدوره هجرة أصحابه الى الساحل وأرسل بعض رجاله من أجل التشييد والبناء وربما وصلت سفنهم الى زنجبار (٢٧) .

وكان من أهم الهجرات فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ، هجرة الاخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية ، فقد هبط هؤلاء على الساحل الشرقى لافريقيا عند شاطئ بنادر وامتد نفوذهم حتى جنوبى ميبسة (٢٨) وقد

(٣٣) الطبرى : الامم والملوك ، ج ٥ ، ص ٤٨٢ - ٤٥١ . والمسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٨١ . وعبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٨ .

(٣٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٧٥ .

(٣٥) المرجع السابق .

(٣٦) الشاطر بصيلى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ،

١٩٤٩ ، ص ٣٩ .

(37) Gney, J. History of zanzibar from The Middle Ages To 1856, p. 11.

(٣٨) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٥ .

(م ٩ - العرب فى افريقيا)

اصطدم هؤلاء المهاجرون الجدد فى ساحل بنادر بمن سبقوهم من المجموعات الزيدية الذين رفضوا الاعتراف بسيادة هؤلاء ففضلوا الانسحاب الى داخل القارة حيث اختلطوا بالاهالى من السكان الافريقيين (٣٩) . ويرجع اليهم الفضل فى تأسيس مدينتى مقديشيو وبراوة (٤٠) .

هذا وتحديثنا الرواية العربية لحوليات كلوة عن هجرة فارسية من شيراز وفدت الى ساحل شرق افريقيا فى سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م بزعامة الحسن بن على وابنائهم الست ، حيث نجحوا فى تأسيس دولة الزنج التى امتدت الى عدة موانئ وجزر من بمبا فى الشمال الى سفالية فى الجنوب وكانت كلوة بمثابة عاصمة لها (٤١) وتعتبر اول دولة اسلامية قامت فى شرق افريقيا وربما كانت سلطنة زنجبار الحديثة تستند فى اصولها التاريخية على دولة الزنج هذه والتى يرجع اليها الفضل فى قيام عدة مدن اسلامية على الساحل الشرقى لافريقيا كانت على درجة كبيرة من التضرر والازدهار (٤٢) .

وفى بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى قدمت الى الساحل الشرقى لافريقيا هجرة عربية كبيرة من اقليم عمان بقيادة سلمان بن سليمان بن مظفر النبهانى صاحب عمان ونزل بيات (Pate) وتزوج سلمان هذا من اميرة سواحلية هى ابنة اسحاق من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ، ثم تنازل له اسحق عن الحكم وبذلك أصبح اول حكام اسرة بنى نهبان فى الساحل الشرقى لافريقيا (٤٣) . وقد ادى استقرار العرب فى السواحل

-
- (٣٩) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ٣٥٩ .
جمال زكريا : حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ .
عبد الرحمن زكريا : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٩ .
(٤٠) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٨ .
(٤١) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الاسلامية ، ص ١٦ .
(٤٢) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٩٠ .
(٤٣) عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ، ص ١١٩ .

الشرقية لأفريقيا إلى إنشاء إمارات إسلامية ومدن عربية كبيرة وقد التقت في هذه المدن الساحلية ، العادات العربية والثقافة الإسلامية بالمورثات الأفريقية فنتج عنها مزيج يجمع بين أشياء أفريقية أصلية وبين أشياء عربية وإسلامية كان من أبرزها بروز الشعب السواحلي بلغته السواحلية المميزة وقد ساعد في هذا الاندماج المثل الإنسانية التي انفردت بها الحضارة الإسلامية من دون سائر الحضارات الأخرى بخلوها من الحاجز اللوني والعنصري الذي جرت عليه الحضارات الأوروبية التي تنادى بتقسيم البشر إلى أجناس والتي وضعت الحاجز اللوني كمعيار لا يسمح بموجبه للسود أن يختلطوا بالبيض ، الشيء الذي حاربه الإسلام مما كان له أكبر الأثر في انتشار الإسلام بين القبائل والشعوب الأفريقية(٤٤) وقد ساعدت هذه النظرة الإسلامية في نمو علاقات الزواج في مجتمع إفريقية الشرقية وتكوين الشعب السواحلي الذي كان ثمرة للزيجات العربية المهاجرة والقبائل الأفريقية(٤٥) .

ورغم أن كوبلاند (Coupland) يذكر أن العرب كانوا في السواحل الأفريقية يكونون ارتقراطية تمثل الطبقة الحاكمة التي لها السيادة — لكن مما لا ريب فيه أنهم لم يكونوا بعيدين عن السكان الأصليين فقد كان هناك تقارب وتجانس أدى إلى الاختلاط بين العنصرين مما نتج عنه جنس بدت فيه الصفات الزنجية المعدلة كما بدت فيه الكثير من العادات والصفات العربية(٤٦) .

وقد تعمدت بعض المصادر الأوروبية أن تقلل من دور العرب والمسلمين وتأثيرهم الحضاري في شرق أفريقيا ، فذكرت أن التجارة كانت دافعهم الوحيد في حين أن الدوافع الإنسانية أو الدينية أو الحضارية لم تلق اهتماما من العرب فلم يهتموا مثلا بادخال الزراعة إلا بالقدر الذي يكتفى استهلاكهم بينما انصرفوا كليا إلى اشباع نهمهم من التجارة والحصول على العاج والذهب والرقيق وغيرها من المنتوجات الأفريقية . وذهب جنستون (Johnston)

(٤٤) سليمان مالكي : سلطنة كلوة الإسلامية ، ص ٦٦ .

(٤٥) سبنسر ترمنجهام : الإسلام في شرق أفريقيا ، ص ١٩٨ .

(46) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders (London 1938).
p., 39.

الى الادعاء بأن الحاجة كانت ماسة للعبيد فى العالم الاسلامى لخدمة الحريم وان هذه التجارة كانت متوقفة على نشاط العرب(٤٧) .

غير أن هذا الادعاء ليس له ما يسند له إذ أن اتصال العرب بشرق افريقيا لم يكن الهدف الأساسى منه الحصول على الرقيق فالاسلام لم يشجع مثل هذه التجارة بل عمل على محاربتها والقضاء عليها ، والحقيقة ان العرب قد كان لهم تأثيرهم الواضح فى كثير من أوجه الحياة والنشاط الاقتصادى والمعمارى مما اعترف به جميع الرحالة العرب والاوربيين الذين زاروا منطقة شرق أفريقيا وكتبوا عنها(٤٨) .

وحتى جنستون (Johnston) نفسه عاد واعترف للعرب ببعض افضالهم فذكر ان اليهم يرجع الفضل فى ادخال زراعة الارز وقصب السكر والقطن بالاضافة الى انهم هم الذين علموا الافريقيين استخدام الحصان والثور بل هم الذين نشروا بين هؤلاء الوثنيين الواحدانية والاسلام . وترتب على ذلك انهم علموا الافريقى قيمة النفس البشرية فلقنوه مبادئ احترام النفس والاعتداد بالذات(٤٩) .

ويذكر كوبلاند (Coupland) ان الرحالة العرب والأجانب على السواء من الذين زاروا الامارات والمدن العربية فى شرق أفريقيا تحدثوا عما شاهدوه فى هذه الامارات والمدن من مظاهر الحضارة والرقى(٥٠) . فقد ذكر ان بطوطة الذى زار مقديشيو ، ممبسة وكوة فى القرن الثامن الهجرى/الرابع الميلادى: ان مقديشيون مدينة متناهية فى الكبر وانها كانت تقوم بصناعة النسيج الدقيق وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها والتي لا نظير لها ومنها تحمل الى

(47) Johnston, H. H. : The Opening of Africa (London 1895) p. 50..

(٤٨) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ، ص ٤٦ .

(49) Johnston, H. H. : The Opening of Africa, p. 51.

(50) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders (London 1983) p. 39.

ديار مصر وغيرها (٥١) . ودهش ابن بطوطة عندهما زار كلوة ومهبسة مما كانت عليه هذه المدن من حسن تنظيم وسمو ازدهار ورخاء عظيم (٥٢) .

ووصف ابن بطوطة مدينة كلوة بأنها من أحسن المدن وأتقنها عمارة (٥٣) .

ونوه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الإمارات والمدن العربية بشرق أفريقيا بما كانت عليه من حضارة ورقى ، فقد لمسوا فيها كما يقول كوبلاند (Coupland) مجتمعا متحضرا لا يقل عن المجتمع الأوربي فى ذلك الوقت (٥٤) هذا وقد ذكر الرحالة الأوربي فاسكو دا جاما الذى زار موزمبيق فى القرن الخامس عشر الميلادى انه شاهد الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب وان سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة كما شاهد فى مقديشيو المنازل العالية من عدة ادوار ، وشهد نفس الشهادة باربوسا (Duarte Barbosa) الذى زار كلوة ومهبسة ومالندى ومبما وزنجبار .

وقد وجد البرتغاليون الذين حضروا للسواحل الشرقية لأفريقيا ، درجة عالية من الحضرة تمثل فى المدن العربية لم يكونوا يتوقعونها . فقد راوا بيوتا مبنية من الحجر وجوا من الرقة فى المعاملة فى الأسواق المحلية ، مما جعل بعض الكتاب يصف تلك البيئة بأنها كانت أرقى من البيئة البرتغالية فى سنة ١٥٠٠ م (٥٥) .

وقد علق كوبلاند (Coupland) على وصف الرحالة الذين زاروا هذه المدن بقوله : اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء من مظاهر الحضارة التى نقلها العرب لشرق أفريقيا — لأن العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة فلا شك أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن

(٥١) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٥٢) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى شرق أفريقيا ، ص ١٩٥ .

(٥٣) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(54) Coupland, R. : East Africa and Its Invaders. p. 39.

(٥٥) زاهر رياض : استعمار أفريقيا ، ص ٤١ .

الثالث عشر الميلادى تفوق تلك التى فى اكسفورد أو اى مدينة أوربية أخرى (٥٦) .

وعلى ذلك فقد كان للعرب الذين هاجروا الى سواحل افريقية الشرقية تأثير حضارى بالغ الأهمية فى جميع أوجه الحياة حتى أصبحت هذه المنطقة تقرر بما يجرى فى شبه جزيرة العرب فى كثير من كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروها . ويدل على ذلك أن الرحالة الاغريق والرومان الذين زاروا ساحل شرق افريقيا أطلقوا عليه فى كتاباتهم اسم عزانيا (Azania) نسبة الى أحد الممالك العربية القديمة التى يقال انها وجدت فى جنوب الجزيرة فى فترة سابقة لظهور الاسلام ولم تحدد تحديدا واضحا وان سكانها قد انتقلوا الى شرق افريقيا حيث نسب الاغريق والرومان هذا الساحل الاغريقى اليهم فيما بعد (٥٧) . مما يؤكد قوة التأثير الذى تركوه فى المنطقة .

بعض مظاهر التأثير العربى فى شرق افريقيا :

ومن أهم مظاهر التأثيرات التى أحدثها العرب فى شرق افريقيا هى انتشار الاسلام بين شعوب المنطقة والذى بدوره أحدث تغييرا هائلا فى كل أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والسلوكية فقد أضفى الاسلام على حياة الذين اعتنقوه طابعا اجتماعيا وحضاريا بعد أن استعربوا ، وقد شجع الاسلام بتعاليمه ومثله الانسانية على التزاوج بين العرب المهاجرين والسكان الافريقيين من المسلمين مما أدى الى ظهور جماعات كثيرة اختلطت دماؤهم العربية بالدماء الزنجية فولدت شعبا يعرف بالجنس السواحلى (٥٨) ويعزى الفضل الأكبر الى تعاليم الاسلام السمحة التى تحارب التفرقة العنصرية بسبب اللون أو الجنس اذ لا فضل لأبيض على أسود الا بالتقوى .

وقد أدى اعتناق هؤلاء السكان المحليين بشرق افريقيا واتصالهم بالعرب المقيمين بينهم الى تغيير واضح فى مفاهيمهم وموروثاتهم الافريقية التى أصبحت تتواءم مع الدعوة الجديدة . كما نظم الاسلام علاقات الزواج والنسب

(56) Coupland, R. East Africa and Its Invaders (London 1938) p. 39-40.

(٥٧) بازل دافيدسون ، مترجم : افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص ٣١ .

(٥٨) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ،

وقضى على عادة العرى السائدة بين القبائل الافريقية حيث تميز المسلم بملبسه النظيف الأنيق(٥٩) .

أما فيما يتعلق بتأثير الاسلام على الحياة الاجتماعية ، فقد استطاع المسلمون العرب فى شرق افريقية أن يلائموا بين تعاليم الاسلام وبين الموروثات الافريقية السائدة مما مكن الاسلام من الانتشار فى المنطقة دون اللجوء الى القوة .

وقد انبثقت عن النظرة المتسامحة هذه للاسلام مجتمعا جديدا احتفظت فيه الثقافة الاسلامية بطابعها المجدد الذى يشير الى موطنها الاصلى فى شبه جنوب الجزيرة العربية خصوصا فيما يتعلق بالعادات والتقاليد(٦٠) .

وكنتيجة للتزاوج بين العرب وقبائل البانتوا الافريقية وفى محيطا الجديد استطاعت تلك الحضارة ان تستوعب الكثير من انماط الحياة الافريقية بعد أن اختارت وعدلت فيما تمتصه بما يتلاءم مع اصول سنة الاسلام(٦١) .

ويذكر سبنسر ترمنجهام أن الطابع الاسلامى قد كان له تأثير مباشر وواضح فى الزى السراحيلى للرجال والنساء . فالرجال يرتدون الملابس القطنية ذات الاكمام الطويلة او رداء طويل يسمى جو هو (Joho) ويضع الرجل فوق رأسه عمامة ملونة وفى قدميه صندلا جلديا . بينما النساء تتكون أرديتهن من قطعتين من القماش تلف احدهما حول الجسم حتى كعب القدمين أما الثانية فتوضع فوق الرأس والكفين وعادة ما تشد فتمتد لتحجب الوجه كما يوجد نوع آخر من الحجاب ويسمى البرقع وهو نوع من الملابس التى فرضها الاسلام على المرأة المسلمة(٦٢) .

وقد ذكر باربوسا (Duarte Barbosa) ان السكان فى سفالة كانوا يلغون نصنهم الأسفل بالأقمشة القطنية والحريرية ويضعون الدثار على

-
- (٥٩) أحمد سويلم العمري : الافريقيون والعرب ، ص ٣٩ .
(٦٠) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقيا ، ص ١٣٠ .
(٦١) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

اكتافهم والمهائم على رؤوسهم . وفى كلوة كانوا يلبسون ثيابا فاخرة مزينة بخيوط الذهب (٦٣) .

وكان للإسلام تأثيرات مهمة فى مجال الحياة الفكرية فى المنطقة ، فقد أدى استقرار العرب وانتشار الإسلام فى شرق إفريقيا الى جلب المذاهب الإسلامية السائدة فى الجزيرة العربية وغيرها من العالم الإسلامى الى بيئتهم الجديدة . وقد غلب على المنطقة انتشار المذهب الشافعى لأن معظم الهجرات العربية كانت من منطقة جنوب الجزيرة العربية خاصة اليمن حيث يسود مذهب الإمام الشافعى . كما عرفت المنطقة الفكر الشيعى نتيجة لهجرات الزيديين هذا بالإضافة الى المذاهب الأخرى السائدة فى أهل السنة .

ولعل من أبرز التأثيرات التى أحدثها الوجود العربى فى الساحل الشرقى لإفريقيا هى ظهور ما يعرف باللغة السواحلية فقد ترتب على هجرة العرب والعناصر الآسيوية الأخرى الى شرق إفريقيا واختلاطهم بالسكان الأصليين من أهل المنطقة ظهور الثقافة واللغة السواحلية التى كانت نتيجة امتزاج العرب بالإفريقيين والذى أدى الى ظهور ثقافة مميزة للعالم حيث أخذت من كلا الشعبين العربى والإفريقى بنصيب وافر فجاءت اللغة السواحلية نتيجة لذلك الانصهار وكانت مزيجا من الذى أتى به العرب والذى كان ملكا خالصا للإفريقيين (٦٤) .

وتعد اللغة السواحلية من أهم اللغات السائدة فى إفريقيا حيث تحتل المكانة الثانية بعد اللغة العربية من حيث انتشارها وعدد الناطقين بها (٦٥) . وترجع أهميتها كلفة إفريقية الى أنها أهم لغات شرق إفريقية يتحدث بها أكثر من مليون نسمة كلفة أم فضلا عما يزيد على اثنتى عشرة مليون أخرى يتكلمونها كلفة ثانية الى جانب لغاتهم الأصلية (٦٦) .

-
- (٦٣) سليمان عبد الفنى مالكى : سلطنة كلوة الإسلامية ، ص ٧٠ .
(٦٤) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٦ .
(٦٥) هـ. م. باتبو : مجلة الإسلام اليوم ، العدد ٢ إبريل ، سنة ١٩٨٤ .
(٦٦) اللغة السواحلية : مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة ٤ ، مارس ١٩٨٥ .

وبعد استقلال دول منطقة شرق افريقيا من الاستعمار الغربى زادت أهمية هذه اللغة فأصبحت هى اللغة الرسمية لدولتى تنزانيا وكينيا . ويمتد توزيعها الجغرافى ليشمل كل من رواندا وبورندى وحتى شرق زائير . أما على الساحل فيمتد توزيعها من جنوبى الصومال الى شمال موزامبيق وجزر القمر (٦٧) وظل تطور اللغة السواحلية وادابها شديد الارتباط باللغة العربية التى ما فتئت تغذيها طوال خمسة عشر قرنا أى منذ بزوغ الاسلام الى يومنا هذا (٦٨) .

التأثيرات المعمارية :

أما فى مجال تأسيس وبناء المدن فقد كان للعرب الفضل الأكبر فى انشاء عدة مدن تجارية على الساحل الشرقى لافريقيا ، وقد بلغت تلك المدن درجة عالية من الحضارة والازدهار شهد لها بذلك كل من زار المنطقة من الرحالة العرب والاوروبيين حتى السير ريجلاند كوبلاند (Regland Coupland) الذى عرف بميوله الى تقليل دور العرب وتأثيرهم فى شرق افريقيا لم يجد مناصا من الاعتراف بان المنازل التى وجدت على الساحل كانت منازل عربية الطراز ولكنه يشير فى أحيان كثيرة الى التأثير الفارسى على هذه المدن بينما تؤكد كل الدلائل على تغليب الطابع العربى على هذه المدن فى خصائصها وفى أساليب عيشها .

وقد كتب الرحالة البرتغالى دورات باربوسا (Duarte Barbosa) عن حيوية مدن الساحل الشرقى وعن تجارتها وأكد أن الحياة الخصبة والمزدهرة التى وجدها البرتغاليون عندما زاروا المنطقة كانت حياة عالمية اشتركت فيها عناصر اسيوية متعددة وأنه وجد مجتمعا خليطا من العرب والفرس والهنود والافريقين ولكن السمة العربية للحياة كانت أغلب .

هذا وكان القرن الثالث عشر الميلادى السادس الهجرى يمثل عصر ازدهار لتلك المدن الساحلية . وقد تطرق ياقوت الحموى فى معجمه بذكر

(٦٧) هـ . م . باتيو : مجلة الاسلام اليوم ، عدد ٢ ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٣٩ .
(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

بعض هذه المدن بايجاز قد يكون أكثر اقتضاباً فذكر منها مقديشيو وكوة وممبسة وسفالية (٦٩) .

الا ان ابن بطوطة الذى زار المنطقة فى القرن السابع الهجرى قد تحدث بتوسع عن بعض مظاهر الازدهار الذى بلغته مدن الساحل الشرقى لافريقيا وقد المحنا الى ذلك سابقا (٧٠) .

ولعل الازدهار الذى بلغته المراكز والمدن الساحلية والتي تحدث عنها ابن بطوطة فى القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى أن هذا الوقت شهد أكبر موجة من مهاجرى العرب الى شرق افريقيا على اثر اجتياح المغول للبلاد الاسلامية فلجأ الكثير من العرب والمسلمين الى افريقيا الشرقية وظهر نتيجة لذلك انتعاش كبير لم يألفه الساحل من قبل .

والواقع اننا نستطيع ان نلمح فيما أورده ابن بطوطة من خلال وصفه لتلك المدن التى زارها فى شرق افريقيا غلبة الطابع العربى على الطراز المعمارى وأسلوب الحياة الاجتماعية فى هذه المدن ومن ذلك نرى أن المنازل المشيدة بالحجار على الطراز العربى قد حلت محل المباني الخشبية (٧١) .

وقد أبدت الأبحاث التاريخية وبعض التنقيبات الأثرية التى أجريت فى المنطقة أن بنائى غالبية هذه المباني ربما كانوا من المهاجرين الاسيويين من عرب وشيرازيين ممن استوطنوا الشريط الساحلى لافريقيا منذ القرن الثامن الميلادى (٧٢) .

ومن المعلوم أن الحضارة المدنية فى شرق افريقيا كانت ناجيا لامتزاج العناصر العربية القادمة من الجزيرة العربية بصفة أساسية ومعهم بعض العناصر الاسيوية الأخرى من شيرازيين وهنود مع العناصر الافريقية مما

-
- (٦٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ .
(٧٠) ابن بطوطة : الرحلة (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار) ، ص ٢٧٩ .
(٧١) جمال زكريا قاسم : الفهرس العربى من حوليات كلية الآداب ، مجلد ١٠ ، ص ٣٠٧ .
(٧٢) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٤١-٤٢ .

اعطاها أشكالاً خاصة (٧٣) فمثلاً فى مجال العمارة نجد أن العرب قد نقلوا بعض مظاهر فنون العمارة العربية الى الساحل الشرقى لافريقيا وأخضعوها لتناسب البيئة والمناخ الافريقى الذى يختلف كثيراً عن الطابع الصحراوى لطبيعة الجزيرة العربية . فنجدهم قد أدخلوا مواد جديدة فى البناء مثل استعمال الحجارة والنجارة وكحفر الخشب والتطريز بجانب هذا انتشر نوع من الطراز السواحلى فى بناء المنازل فى المنطقة يغلب عليه الجدران الخشبية الهرمية الأسقف والمبطنة بالمونة والمغطاة بأوراق النخيل . هذه الأنواع من المنازل أخذت تحل تدريجياً محل الأكواخ الافريقية ذات الأسقف المخروطية . كما نلاحظ انه قد دخلت أنواع جديدة من لوازم البناء لم تكن معروفة للمنطقة من قبل مثل ماسورة المياه وغيرها من الأشياء التى جاءت أساساً من آسيا . مع ملاحظة غلبة الطابع العربى على الأسماء والمصطلحات وأدوات البناء وغيرها من المصطلحات التجارية والملاحية المستعملة فى المنطقة مع وجود بعض التأثيرات الفارسية الأقل درجة (٧٤) .

وقد أخذت الحفريات الأثرية فى كلوة تجلو بعض الحقائق المعمارية ، فمبانى كلو كما لاحظ عالم الآثار (جيرفيس) خالية من التأثيرات الافريقية وان عمارتها ترتبط بطراز ينسب الى أكثر من بلد فى العصر الإسلامى المبكر وان الحاكم الذى شيد القصر فى كلوة لابد انه كان على ثراء موفور مكنه من جلب الصناع والفنيين المهرة من العراق أو مصر (٧٥) .

وإذا أخذنا مثلاً للطرز المعمارية للعصور التى كشف عنها فى شرق افريقيا مثل حصون ندوجو فاننا نلاحظ أن أسوارها الخارجية يغلب عليها الطابع العربى . وقد ذكر د. عبد الرحمن زكى أن أسوار حصون ندوجو تشبه كثيراً تلك الأسوار التى أقيمت فى المبانى التى شيدت فى البلدان العربية تحت حكم الخلفاء الأمويين وأوائل حكم العباسيين (٧٦) .

-
- (٧٣) سبنسر ترمنجهام : الإسلام فى شرق أفريقيا ، ص ٢٧١ .
(٧٤) سبنسر ترمنجهام : الإسلام فى شرق أفريقيا ، ص ٢٧٢ .
(٧٥) عبد الرحمن زكى : المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٦١ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

ومنها على سبيل المثال يذكر د. عبد الرحمن زكى أن حوض السباحة الموجودة فى حصون كلوا وهى من الآثار التى تم عنها الكشف بعد التنقيتات الأثرية الأخيرة ، يشبه من ناحية تخطيطه ذلك الحوض الموجود فى صحن جامع حران الكبير الذى نقب عنه عالم الآثار البريطانى رايس وكذلك الممشى أو الاضافة حول الحوض المذكور يمكن مقابقتها بالممشى الموجود فى ضريح قبة الصليبية فى سامراء التى يرجع تاريخها الى القرن التاسع الميلادى كما ان إحدى القباب الموجودة فى حصون كلوا تشبه تلك التى على قبة جامع القيروان الكبير الأموى الأصل (٧٧) .

وهكذا فاننا نستطيع أن نلاحظ تأثيرا معماريا أمويا وعباسيا على عمارة كلوة وبقية مدن الساحل .

كما يمكننا أن نقول ان العرب وغيرهم من المسلمين الذين استقروا فى منطقة شرق افريقيا قد تركوا تأثيرا عميقا فى جميع نواحي الحياة ، وقد ظلت هذه التأثيرات باقية وستظل كذلك ما بقيت الصلات موصولة باذن الله تعالى .

دور العرب الحضارى فى أفريقيا

للدكتور

شوقى عطا الله الجمل

قبل الحديث عن دور العرب الحضارى فى افريقيا لابد من الاشارة
للملاقات العربية الافريقية — متى بدأت ؟ وكيف بدأت والى اى مدى
تطورت ؟ ؟

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحدد تاريخا معيناً لبداية الاتصالات العربية
الافريقية .

فمنذ أقدم العصور جاء العرب من شبه جزيرة العرب للساحل الشرقى
لافريقيا لمواجهة لشبه الجزيرة العربية ، واستقروا فى هذه المناطق الافريقية
وأصبح لهم تبادل تجارى مع السكان الأفارقة ، واستقر بعض التجار
العرب فى هذه المناطق الافريقية وكونوا امارات عربية نمت وازدهرت
بالتدريج ، وقد شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها بعد ذلك من الرحالة
العرب والأجانب على السواء .

ولا نحتاج لتفسير لهذا الامتداد العربى للساحل الافريقى المقابل ، فإذا
علمنا أن المسافة بين عدن وزنجبار لا تتجاوز ١٧٠٠ ميل ، ومن مسقط الى
زنجبار لا تتعدى ٢٢٠٠ ميل — أدركنا أن الامتداد العربى لهذه الجهات
الافريقية كان شينا طبيعيا فالقبائل العربية القريبة من الساحل الافريقى
الشرقى أو كما عبر عنها كوبلاند بالجيران (Next Door Neighbours)
كان لابد أن تمتد نشاطها وتجارها، وتنقل حضارتها الى سواحل افريقيا
الشرقية (١) .

وبالإضافة الى عامل الجوار فهناك عامل جغرافى مناخى آخر ساهم فى هذا الوقت المبكر بالذات — فى قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين بالجزيرة العربية وبين سكان السواحل الشرقية لافريقيا ففى ديسمبر تهب الرياح التجارية من الشمال والشمال الشرقى ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية فبراير — ومن أبريل الى سبتمبر تنعكس المسألة فتهب رياح شديدة من الجنوب الغربى ، ولما كان الشاطئ الغربى للمحيط الهندى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من زنجبار الى مدخل خليج عدن فقد أصبح التجار الذين يبدؤون رحلتهم فى سفنهم الشراعية من الشاطئ العربى فى الشتاء يستعينون بقوة الرياح الذاتية فى سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقى ، أما فى اثناء عودتهم لأوطانهم فى الربيع — بعد أن يكونوا قد قضوا بضعة شهور فى التجارة — يجدون أيضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الأصلى ، وبمضى الزمن أصبحت للتجار العرب والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة الى الساحل الافريقى ومدة استقراهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا حسب مواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم (٢) .

كذلك من الأسباب الرئيسية التى دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم (العمانيين ، والحضارمة — على وجه الخصوص) أنهم نشأوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة العربية ظهرها طارد — فكان طبيعيا أن يتسللوا الى شرق أفريقيا فى مجموعات صغيرة — انتشرت فى المبدأ فى بعض الجزر الساحلية ثم أخذت تتوغل فى الداخل . وكما سنرى أن هذه المجموعات العربية استطاعت بمضى الوقت أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وعاداتها وتقاليدها وحضارتها بل وأن تندمج فى السكان الأصليين (٣) .

وأشير فى هذا المجال الى أنه فى عهد دولتى معين وسبأ (١٥٠٠ — ٣٠٠ ق.م) هاجرت أعداد غفيرة من جنوب الجزيرة العربية للقارة الافريقية

(٢) محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧ .

(٣) محمد صفى الدين : نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٦٧ .

وتوغلت اعداد منهم الى الداخل حتى وادى النيل وتحكم المعينيون والسبئيون في التجارة فى البحر الأحمر (٤) .

واستمر نشاط التجار العرب خلال العصور التالية ، وترتب على ذلك استمرار الاحتكاك بين العرب وبين سكان هذه البلاد وكانت له بالطبع كما سنوضح آثاره الحضارية القوية .

وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميرين البحر الأحمر من اليمن وكذلك جماعة من الحضارمة واستقر بعضهم فى الحبشة وتابع البعض السير متتبعا فروع النيل الحبشية حتى انتهى بهم المطاف الى بلاد النوبة واختلط بعضهم بالبجة وتصاهروا معهم (٥) .

ولم يكن هذا هو الطريق — طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر الطريق الوحيد للاتصال بين العرب والأماقة فعبر سيناء انتقلت جماعات من العرب الى مصر متتبعة الساحل الشمالى — واندفعت جماعات منهم الى الجنوب صوب بلاد النوبة أو بلاد السودان المعروفة فى ذلك الوقت (٦) .

وبعض هذه الجماعات اتجهت غربا ثم جنوبا عبر الصحراء الكبرى وقد ثبت أن هناك طرقا تجارية معروفة عبر الصحراء وهناك مراسى صحراوية كانت معروفة للقوافل وستستخدم الطرق للتجارة بعد ذلك على نطاق واسع فى العصور الوسطى كما سنوضح ذلك بعد .

وفى فجر الاسلام أمر النبى صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة للحبشة — ولا شك فى أن ذلك يدل بوضوح على أنه كانت هناك علاقات بين العرب والحبشة قبل الاسلام وكانت هذه البلاد معروفة للعرب .

وقد زادت هجرة العرب الى أفريقيا بعد انتشار الاسلام ، فقد وجدت دوافع جديدة دفعت العرب للهجرة الى أفريقيا — منها الرغبة فى نشر الدين الجديد بمبادئه واتجاهاته ، ولا شك فى أن احتكاك الأفارقة بالعرب

(4) Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan (Cambridge 1922, p. 4).

(٥) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ .

(٦) عباسى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ١٩٤٢ .

المسلمين أدى لنتائج عميقة فلم يقتصر الأمر على التجارة أو المعاملات المادية بل لقد كانت لاسلوب التعامل وما حمله العرب المسلمون معهم من مبادئ يدعو إليها وينادى بها الدين الجديد — أعمق الأثر فى الأفارقة .

وحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الأحزاب المغلوطة على أمرها تهاجر الى شرق أفريقيا بالذات وتتخذ هذه الجهات موطناً لها — فبناءً على حكم عبد الملك بن مروان مثلاً هاجر بعض الأمويين الى لامو وعاشوا بها .

وقد ترتب على الهجرات العربية وعلى الاحتكاك بين العرب والأفارقة نتائج هامة سنشير إليها فيما بعد .

وبعد هذه المقدمة تنتقل الى نقطة هامة وهى :

المصادر التى نستقى منها معلوماتنا عن اثار العرب الحضارية بالذات فى انقارة :

على الرغم من أن العرب كانت لهم أثارهم الحضارية العميقة على المجتمعات الافريقية التى اتصلوا بها — فقد ظلت هذه الآثار بل ظلت المعلومات عن الأقطار الافريقية المختلفة باستثناء السواحل الشمالية للقارة غير معروفة للأوربيين حتى القرن الخامس حين بدأت أنظار الأوربيين تتجه للقارة الافريقية التى أطلقوا عليها القارة المظلمة لجهلهم بها فى داخلها وظلت معلوماتهم قاصرة على السواحل فلم يتعمقوا فى الداخل الا بعد فترة طويلة (٧) .

ومع ذلك فقد كان للرحالة العرب نشاط كبير فى افريقيا خاصة فى المناطق التى كانت تستقر فيها جماعات عربية أو تقوم فيها امارات أو سلطنات عربية .

ويضيق المجال هنا عن اعطاء معلومات وافية عن الرحالة والجغرافيين العرب الذين كتبوا عن الأقاليم الافريقية التى تأثرت بالمؤثرات العربية لكن

(٧) عن علاقة الأوربيين بافريقيا — والأسباب التى أدت لقصر نشاطهم فى المبدأ على السواحل الافريقية دون التوغل فى الداخل ارجع الى : شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ١٩٨٠ .

نشير هنا الى بعضهم — ونفضل الحديث عن قلة منهم برزت كتاباتهم عن العلاقات العربية الافريقية واثار العرب الحضارية بالذات (٨) .

فمن هؤلاء الرحالة والكتاب العرب :

— المسعودى (+ ٩٥٦ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وأخبار الزمان .

— ابن حوقل (توفى فى القرن ١٠ م) المسالك والممالك ، صورة الأرض .

— الادريسى : صفة الغرب ، وأرض السودان ، ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٦) .

— ابن جبير : الرحلة .

— العمرى : مسالك الأمصار فى الممالك والأمصار .

— ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٢) وله ثلاث رحلات هامة زار فيها سواكن ، زيلع ، مقديشيو وكلوه ، وغيرها من بلاد شرق أفريقيا كما زار مالى وغيرها من سلطنات غرب أفريقيا كما أبحر فى نهر النيجر (٩) .

— ابن خلدون : العر وديوان المبتدأ والخبر فى ٧ أجزاء (بولاق ١٢٨٤ هـ) .

— حسن بن الوزان : وصف افريقيا (١٠) . وقد قام بمدة رحلات فى شمال افريقيا والسودان الغربى بدأها فى عام ١٥١٠ م غزار مملكة مالى وبلاد الهوسا وغيرها من أقاليم غرب أفريقيا .

(٨) لمزيد من التفاصيل يرجع الى : شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ٥٨ الى ٦٥ .

(٩) انظر تعليق الكتاب الأجانب على رحلات ابن بطوطة :

Sykes, Perey : A History of Exploration (London 1949) pp. 94-95.

(10) The History and Description of Africa and of the Notable things there in cotained written by Al Hassan Ebn Mohammed wezan al Fasi Better Known as Leo Africanus (London 1896).

وقد ترجم الكتاب أخيرا للعربية .

(م ١٠ — العرب فى أفريقيا)

— السعدى (١٥٩٦ — ١٦٥٥) : تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨)
تحدث عن الدول العربية التى قامت فى السودان الغربى — مثل
دولة سنفاى .

— الحبى — حديقة النظر، وبهجة الفكر فى عجائب السفر، أو سيرة
الحبشة (حققها د. مراد كامل — القاهرة ١٩٥٨) وقد وصف
مشاهداته عن الطرق المؤدية من شرق القارة الى عاصمة الحبشة
والتأثيرات العربية على قبائل الجالا والفلاشة وغيرها .

— التونسى : تشحيز الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان وقد زار
دارفور ووادى — وقد نشر خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد
مسعد رحلته الى دارفور ومُشاهداته بناء على النص العربى
للمستشرق بيروون Perron بينما لم تترجم بعد للعربية رحلته
الى وادى (١١) .

هذه بعض جهود العرب التى كشفت لنا عن الأثر الحضارى للعرب
فى أنحاء مختلفة بشمال وغرب وشرق افريقيا .

والحقيقة أن الرحالة العرب قبل الأوربيين — زاروا الأقاليم الافريقية
شمال خط الاستواء أى المنطقة من البحر الأحمر شرقا الى المحيط الاطلنطى
غربا ، ومن ساحل أفريقيا الشمالى الى السودان ، ولم يتوغل العرب
جنوبا أكثر من ذلك بسبب العقبات الطبيعية وان كان النفوذ العربى قد وصل
الى أعالي الكنفو (١٢) (دولة محمد بن حميد المرجبى — تبوتيب) كما سنشير
بعد .

(١١) للتفصيل انظر :

شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٨ ،
ص ٢٩٢ وما بعدها . أما الرحلة الى وادى فتوجد منها نسخة وحيدة
بالفرنسية فى الجمعية الجغرافية المصرية .

Voyage Au Soudan Oriental - LI Ouaday.

(١٢) ملاحظة : عثر على مخطوطة عربية هامة بعنوان « السلوة فى
أخبار كلوه » لكتاب مجهول يرجح أنها ترجع للقرن ١٥ م تحدث عن كلوة
والأثر العربى فى هذه المناطق — وهى الآن فى المتحف البريطانى تحت رقم
٢٦٦٦ .

انظر يواقيم رزق : محمد بن حميد المرجبى (تبوتيب) والوجود العربى
فى الكنفو — رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات
الافريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

أما عن الرحالة الأجانب فقد بدأت رحلاتهم متأخرة بعد أن بدأ اهتمام الأوروبيين منذ القرن الخامس عشر الميلادي — بالقارة الأفريقية والكشوف الجغرافية .

وفى مقدمة هؤلاء الرحالة البرتغالى فاسكو دا جاما (Vasco Da Gama) الذى اشتهر برحلته حول أفريقيا فى آخر القرن الخامس عشر فقد دهش حين وصل موزمبيق لأول مرة ووجد الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة ، كما شاهد المنازل العالية من عدة أدوار والقصور فى وسط المدينة وفى مالىندى استقبلت بعثة داجاما فى قصر مفروش بالسجاد ومؤثث بأثاث فاخر وقدمت له عدة هدايا فاخرة وقد أثار دهشته أن يعقد مقارنة بين ما شاهده هنا وما شاهده فى البلاد الأفريقية الأخرى التى لم يصل إليها العرب .

وقد شهد نفس الشهادة دوار بربوسا (Duarte Barbosa) وهو رحالة زار كلوه ومبسة ومالىندى ومبا وزنجبار . وتحدث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك فى هذه الجهات وغيرهم من الرحالة الأوروبيين الذين انفتح أمامهم الطريق لهذه المناطق المكتشفة حديثا عن مظاهر الحضارة الزاهرة فى المناطق التى زاروها .

تناول بعض المؤرخين والكتاب الأجانب الجوانب الحضارية التى اطلعت عليها أوربا لأول مرة فى هذه الجهات .

ومن الذين كتبوا فى هذا المجال المؤرخ فريمان (Freeman, G.) (١٣) وكذلك رولاند (Roland, O.) (١٤) .

ولعل تعليق كوبلاند (Coubland) على كل هذه الملاحظات والمشاهد الحضارية التى أذهلت الأوروبيين عندما وقع عليهم بصرهم لأول مرة — بغنى عن كل تعليق . فقد ذكر « أننا يجب ألا نندهش لما تذكره هؤلاء الرحالة من مظاهر

(13) Freeman, G: The Medieval History of the Coast of Tang-anika (Berlin 1962).

(14) Roland, O. : History of East Africa 2 vols. (Oxford 1969).

الحضارة التى نقلها العرب الى شرق أفريقيا — فان العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة ، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التى فى اكسفورد أو التى فى أية مدينة مسيحية أخرى » (١٥) .

وأشير انه على الرغم من أن كتابات الأجانب سواء من الرحالة أو من الكتاب والمؤرخين المتأخرين لم تنصف العرب انصافا كاملا ولم تذكر الحقيقة المجردة . لكن فلتات أقلامهم وما يمكن أن يستنتجها أى باحث منصف من هذه الكتابات يعطى صورة عن بعض الآثار التى تركها العرب فى الجهات التى وصلوا اليها فى افريقيا .

وفىما يتعلق بشمال افريقيا فاعتقد أننا لسنا بحاجة للافاضة فى الإشارة الى الأوضاع التى ترتبت على وصول العرب الى هذه المناطق فقد ترتب على ذلك أن دخل الشمال الافريقى ضمن الدولة العربية وأصبح يمثل الجناح الغربى للإمة العربية وأصبحت حضارته الافريقية العربية جزء من الحضارة العربية ومن الحضارة الافريقية .

أما عن غرب أفريقيا فان الذين زاروا هذه المناطق من الرحالة العرب — المغاربة والاندلسيين بصفة خاصة والذين ذكرنا بعضهم من قبل ، كذلك الرحالة الأجانب الذين أخذوا يتدفقون على غرب أفريقيا بعد أن استقر الأوروبيون فى الساحل الغربى للقارة وأخذوا ييوغلون للداخل — لمسوا ماكانت عليه هذه البلاد والسلطنات الاسلامية التى قامت فيها قبل أن تواجه هذه البلاد المستعمرين الاوربيين وسنشير لذلك بالتفصيل فيما بعد (١٦) .

أثار الحضارة العربية فى أفريقيا :

كانت للاحتكاك العربى الافريقى أثار حضارية عميقة شملت كل نواحي الحياة فى البلاد الافريقية التى اتصل بها العرب وظهرت أثارها فى هذه المجتمعات الافريقية بوضوح .

(15) Coupland, R. op. cit., p. 39.

(١٦) للمزيد من التفاصيل يرجع الى :
عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا ، ١٩٦٥ .

ويمكن أن نلمس مظاهر هذا الاحتكاك الحضارى فى :

أولا — النواحي الثقافية :

انتشرت اللغة العربية كلغة للحديث وللمعاملات التجارية ، وكانت اثارها قوية وواضحة . نلمس ذلك فى اللغة السواحيلية فى شرق القارة فكثر من الألفاظ فى السواحيلية (قدرها البعض بـ ٦٠٪ من الألفاظ المستخدمة فى الحياة العامة) عربية الأصل ، واللغة السواحيلية لغة أفريقية عربية (١٧) وكذلك لغة الهوسا فى غرب أفريقيا .

وكان لانتشار الاسلام بين الافارقة اثره الكبير فى انتشار اللغة العربية لغة القرآن .

والحقيقة أن الأثر الثقافى للعرب لم يقتصر على اللغة بل امتد الى الثقافة بمعناها ومدلولها الواسع فقد أدى ذلك التغير فى معاملات الناس وسلوكهم وفى تفكيرهم وأدى هذا الاحتكاك الحضارى لنقل ثقافات أخرى الى القارة وسكانها .

ووجدت فى شرق القارة وبطول ساحلها الشرقى مراكز ثقافية هامة فى كلوة ، وسفالة ، ومالندى وغيرها من الثغور الهامة .

وحين زار الرحالة العربى ابن بطوطة مدن الساحل الشرقى فى أفريقيا تحدث عما شاهده فى هذه السواحل وعن ثقافة الناس بها وتمسك الكثيرين بتعاليم الاسلام الى غير ذلك من مظاهر الثقافة (١٨) .

كما اشار الرحالة والكتاب الأجانب الى ذلك ، وقد سبق أن اشرت الى ما قاله كوبلاند فى هذا المجال (١٩) .

(١٧) اللغة السواحيلية نتيجة اختلاط اللغة الربية بلغة البانتو — انظر :

Encyklopaedia Britannica vol. 21, p. 629.

(١٨) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ، ص ١٢٩ .

(19) Coupland : op. cit., p. 39.

وقد أشار البرتغاليون حين وصلوا الى ساحل افريقيا الشرقى الى أن المدن الساحلية التى كانت على اتصال وثيق بالعرب والمناطق التى استقروا بها تختلف مظاهر الناس بها اختلافا واضحا عن المناطق الأخرى ويظهر هذا الاختلاف بدرجات كبيرة كلما تعمقنا فى داخل القارة (٢٠) .

وفى غرب افريقيا وجدت مراكز ثقافية هامة مثل تمبكتو ، جنى ، وكانو ، وكاسينه وغاو .

وقد أصبحت هذه المراكز الثقافية منارات فى غرب افريقيا وتوافد عليها عدد كبير من العلماء ورجال الدين من مختلف الأقطار الإسلامية للتدريس فى المدارس التى قامت فى هذه البلاد وفى المساجد — احساسا من هؤلاء العلماء بواجبهم تجاه اخوانهم فى هذه الأقطار الافريقية وأسهم هؤلاء فى نشر الثقافة الإسلامية والعربية بها .

كما توافد الطلاب من أبناء السودان الغربى وغيره من أقاليم غرب افريقيا الى معاهد فاس وغيرها من مدن المغرب ، وكذا الأزهر الشريف والقروان وتلمسان (٢١) .

وقد ظهرت هذه التأثيرات الثقافية والحضارية حتى فى بلاط الحكام والسلاطين . فتشبه كثير منهم بالحكام المسلمين فى باقى جهات العالم العربى . ومن مظاهر ذلك انهم اجزلوا العطاء لرجال العلم والأدب والدين الوافدين من المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية للإسهام فى النهضة الدينية والثقافية فى هذه البلاد . وقد أقبل الافريقيون على معاهد الدين والعلم بشغف كبير وترتب على هذا قيام نهضة علمية حقيقية أثرت فى مختلف نواحي الحياة فى غرب افريقيا ، ونشأت طبقة افريقية مثقفة بالثقافة العربية الإسلامية . والملاحظ أن كثيرين من الوزراء وغيرهم من رجال الدولة فى أقطار

(٢٠) للمزيد من التفاصيل انظر :

محمود طه أبو العلا : المؤثرات العربية فى شرق افريقيا ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١١ مايو ١٩٦٠ .

(٢١) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

غرب افريقيا كانوا من المسلمين — فقد أصبح الملوك يعثمون الى ان يعهدوا لهم بشئون البلاد السياسية والاقتصادية (٢٢) .

ويشير ابن بطوطة الى ان عددا من رجال العلم من مختلف الاقطار العربية كان يقيم بمدينة مالى — ومن طريف ما ذكره انه اثناء اقامته بهذه المدينة أصيب بمرض حاد فى معدته نتيجة أكله « عصيدة » مصنوعة من شئ يشبه القلقاس ولم يسعفه سوى طبيب مصرى كان مقيما هناك قدم له دواء مسهلا يسمى بيدز (٢٣) .

وقد اشتهر عن سلطان مالى السلطان أسكيا (١٤٩٣ — ١٥٢٨) حبه للعلم والعلماء فقد استقدم الكثيرين منهم ورحب بهم وأغدق عليهم من المال والهبات وأقام كثيرون منهم فى « غاو » ، و « جنة » ، و « تمبكتو » — فكان وجود هؤلاء المثقفين العرب نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وأصبحت اللغة العربية بفضلهم — لغة البلاد الرسمية . وحين أدى اسيكيا محمد فريضة الحج كان بصحبته المؤرخ « محمود كعت » وقد مر بمصر وتمعرف على العالم المصرى جلال الدين السيوطى . وكان من أهم رجال العلم فى أيامه العالم الفقيه « عبد الكريم ابن محمد المغيلى التلمسانى » الذى عاش فترة غير قصيرة فى تمبكتو ، وقد أشار الرحالة الى وجود العديد من المخطوطات النادرة ببعض مكتباتها كما وجد بها نسخا متخصصون فى نسخ هذه الأصول هذا بالإضافة الى خزانة الكتب العامة التى كان يستعين بها أهل العلم والأدب فى بحوثهم (٢٤) .

ويرتبط بالتأثيرات الثقافية الناحية الفنية . والحقيقة ان دراسة الفنون فى شرق القارة وغربها لم تحظ بعد بما تستحقه من دراسة تحليلية لكن نشير هنا الى ان بعض معالم هذه الفنون تدل على المؤثرات العربية القوية — فقصور الأمراء والحكام تدل فى هندستها ونقوشها ومعالمها وتنظيمها ومحتوياتها على أثر لعرب واثر الاسلام فيما بعد على تلك الفنون فالشمسيات

(٢٢) نعيم قداح : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ، دمشق ، ١٩٦٠ ،

ص ٤١ .

(٢٣) ابن بطوطة : ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(٢٤) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

الزجاجية وغير ذلك من معالم الفن العربى والنظام الذى بنيت المساجد والنقوش التى استخدم فيها الخط الكوفى والخطوط الهندسية والآيات القرآنية كلها تدل على التأثيرات العربية . وقد شاع فى المدن خاصة فى غرب أفريقيا بناء الأسوار تشبها بما شاع فى البلدان العربية بالمغرب بالذات .

وفىما يتعلق بغرب أفريقيا لعل التشابه يرجع لمساهمة مهندسين مغاربة فى بناء وتشبيد هذه المساجد فقد ساهم المهندس ابراهيم الساحلى مثلا فى بناء مسجد جانكوب فى تومبكتو ومسجد آخر فى غاو كذلك ساهم فى بناء مسجد فى العاصمة نبانى وقصر به قاعة كبيرة لمجلس السلطان — وقد وصف ابن بطوطة هذه القاعة عند زيارته للعاصمة عام ١٣٥٣ م .

أما مسجد جنى فوه من تصميم المهندس أدريس المراكشى (٢٥) . وقد أشار الرحالة العرب كما أشار البرتغاليون للحياة المتحضرة التى شاهدوها فى بيوت حتى عامة الناس فى شرق أفريقيا والتى ترتفع بمراحل عن الحياة التى يعيشها الأفارقة فى باقى المناطق التى لم يصلها العرب .

فدراسة الآثار العمرانية فى هذه المناطق بشرق القارة وغربها تكشف لنا عن أسلوب البناء الذى ساد فى هذه البلاد والذى تأثر بالاحتكاك العربى .

وفى بعض بلاد غرب أفريقيا مثل كومبى وجدت أحياء برمتها كالحى المغربى اشتهرت بمنازلها المغربية — وكان حكام هذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشبع فى المغرب والبلاد العربية الأخرى التى اتصلوا بها — من الوان الحضارة على أنها مثل عليا تحتذى .

ثانيا — آثار دينية :

انتشر الاسلام فى شرق القارة وفى شمالها وفى غربها ووصلت تأثيراته الى أقصى ما اتاحت العوامل الجغرافية وغيرها من ظروف الاحتكاك بين العرب والأفارقة .

وترتب على انتشار الاسلام خلق مجتمع جديد يدين بمبادئ جديدة . -
حقيقة أن الاسلام — لم يهدف الى تغيير التقاليد الافريقية المحلية تغييرا جذريا
الا ما يتعارض منها مع تعاليمه ومبادئه — لكن ترتب على الاحتكاك بين سكان
هذه البلاد وبين العرب المسلمين — نوع من الامتزاج بين التقاليد الاسلامية
الوافدة وبين التقاليد الافريقية المحلية وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين
وظهرت في المجتمع الافريقى تقاليد اسلامية افريقية .

ولعل ما عرضه — الرحالة من أمثال ابن بطوطة والقلقشندي وغيرهما
من نماذج للحياة في هذه البلاد وما كتبه المؤرخون الأنارقة مثل السعدى
ومحمد وكعت وغيرهما يملأ فكرة عن التقاليد والنظم التى شاعت في
المجتمع الافريقى في هذه البلاد .

والمعروف أن الوثنيين كانوا يعيشون في وئام مع المسلمين حتى أن
المسلمين كانوا يقيمون مراكز تجارية داخل التجمعات الوثنية دون خوف .

ولا شك في أن المسلمين في شرق أفريقيا وغربها باتباعهم تعاليم
دينهم ومبادئه أثروا عن طريق مباشر أو غير مباشر في المجتمعات التى عاشوا
فيها — فقد لمس الأنارقة في معاملاتهم مع العرب المسلمين ما كان هؤلاء
يحرصون عليه من تعاليم الاسلام وما يدعو اليه من الأمانة والصدق والعدل .
وكان لهذا أثره الواضح في المجتمعات التى حلوا بها والتى تعاملوا معها
وسنشير لذلك بتفصيل فيما بعد عندما نتعرض للآثار الاجتماعية .

كذلك كان المسلمون في شرق القارة وغربها حريصين على أداء الفرائض
ومنها فريضة الحج . وكان الحج ومازال أهم العوامل التى تيسر فرصة
الالتقاء بين الأفراد والجماعات والتبادل الفكرى والثقافى — وتذكر لنا المراجع
مثلا أن سلاطين الدول الاسلامية في غرب أفريقيا وشعوبها كانوا حريصين
على أداء فريضة الحج رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق
ووعورته ، وكانت هناك طرق معروفة تطرقها القوافل التجارية ، وفى
الطريق الى الأراضى الحجازية (٢٦) .

(26) Anta Diop. L'Afrique Noire Pré - Coloniale (paris 1952).

(الفصل الثانى على الخصوص والكاتب سنغالى وهذا يوضح أهمية
الكتاب) .

ومن هذه الطرق :

(أ) طريق صوب الشمال عبر الصحراء الى ساحل البحر المتوسط
ثم الاتجاه شرقا تجاه مصر ومنها عبر البحر الأحمر الى الحجاز .

وبعنى القبائل خاصة قبائل الهوسا — كانت تفضل طريق تمبكتو —
جاو — غات — غدامس — طرابلس لأنه كان آمنا ، كما كان يتيح لهم فرصة
التجارة فى أثناء الطريق .

(ب) طريق صوب الشرق — الى السودان وادى النيل — ثم ساحل البحر
الأحمر فالحجاز .

أما فيما يتعلق بالمسلمين فى شرق القارة فقد كانت الرحلة بالطبع أيسر
وقد اعتادوا عليها من زمن .

لكن مهما يكن من أمر فإن رحلة الحج كانت بالغة الأثر فى نفوس
المسلمين الأفارقة وكانت فرصة نادرة للالتقاء وباقى المسلمين فى الأقطار
المختلفة وكانت تعنى تأكيد روح الأخوة الإسلامية التى يوجبها الاسلام .

وكما يقول ترمينجهام (Trimingham) ان شعورا بأن الاسلام دينانة
الأفارقة جميعا — كان يملك المسافرين من الأفارقة فى رحلة الحج « (٢٨) » .

ومن أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التى سجلها التاريخ وفد
الحجاج الذى كان على رأسه منسى موسى — سلطان مالى (٧٢٤ هـ /
١٣٢٣ م) والذى يقال انه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج ، وقد مر بمصر
فى طريقه الى الحجاز فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون —
والذين تحدثوا عن هذا الركب يعطون لنا صورة لعل فيها شيئا من المبالغة —
لكنها لا تخلو من الحقيقة . فقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف
والاسراف فى مصر وحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام ، حتى قيل انه

(٢٧) السعدى ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى : تاريخ
السودان ، طبعة هوداس ، ١٨٩٨ ، ص ١٦ .

(28) Trimingham, J. Spencer : Islam in west Africa (Oxford
1964) p. 88.

لم يدع أمرا من أمراء الممالك في مصر ولا رب وظيفة سلطانية الا وحمله بحمل من الذهب كما أماض من هباته على الفقراء في الأراضي الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل ان قيمة الذهب انخفضت انخفاضا ملحوظا لكثرة ما أنفقه (٢٩) .

ويرتبط بالآثار الدينية للعرب في افريقيا انتشار الطرق الصوفية وعلى الأخص القادرية ، والتيجانية ، وقد زاد عدد اتباع هذه الطرق الصوفية ولا سيما بين المشتغلين بالتجارة ومن العلماء والفقهاء — ولعب اتباع هذه الطرق دورا دينيا وسياسيا هاما كان كبير الأثر في تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها فقد أصبح كل مسلم تقريبا يرى لزاما عليه أن يرتبط بأحدى هذه الطرق الدينية .

وأقام اتباع هذه الطرق الزوايا للعبادة ، ولإيواء الوافدين المحتاجين للمأوى والطعام وللاعتكاف بعيدا عن زخرف الحياة وملذاتها للدرس والتفقه في شئون الدين ، وكانت لكل طريقة تنظيماتها وأعضاؤها وعلى رأسهم شيخ الطريقة .

وقد انتشرت القادرية بالذات في السودان الغربي وانتشر اتباعها من الفقهاء والمريدين من السنغال الى مصب النيجر وفي بلاد الهوسا (٣٠) .

أما التيجانية فقد انتشر أتباعها في حوض السنغال وفي تمبكتو (٣١) .

وانتشرت هذه الطرق أيضا في شرق أفريقيا بل ان شرق أفريقيا وقربه

(٢٩) العمرى : مسالك الامصار ، ص ٩٤٣ وما بعدها .
وابن الوردي : ذيل المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
(٣٠) انظر محمد بلو : انفاق الميسور في أخبار بلاد التكرور ، مخطوط
بوثائق الرباط تحت رقم ٢٣٨٤/ك ، ص ٢٠٣ .
(٣١) أبو العباس أحمد بن أحمد العباسي : كشف الحجاب على من
تلقى مع التيجاني من الاحباب ، فاس ١٣٢٥ هـ ، وكذلك :
جواهر المعاني وبلوغ الأمانى في منفى الشيخ التيجاني (المعروف
بالكناش — القاهرة ١٣٤٥) .

وللمزيد من التفاصيل عن القادرية والتيجانية يرجع الى : شوقي الجمل :
الحضارة الاسلامية العربية في غرب افريقيا سماتها ودور المغرب فيها ،
بحث منشور بمجلة المناهل المغربية ، نوفمبر ١٩٧٦ ، ص ١٣٢ الى ١٦٣ .

من الحجاز أتاح الفرصة لانتشار الطرق المختلفة التى بدأت نشاطها فى الحجاز وانتقلت بعد ذلك الى القارة الافريقية حيث كانت البيئة صالحة لانتشارها ولاكتسابها اتباعا ومريدين .

ولقد لعبت الطرق الصوفية واتباعها دورا هاما وخطيرا فى مقاومة الاستعمار الأوروبى وان كان هذا الدور لم يكشف عنه النقاب تماما الى الآن اذ أن اتباع هذه الحركات والمريدين الذين التفوا حولهم اعتبروا الجهاد السياسى المتصل بالوطن وحرية والوقوف فى وجه اعدائه والمغتصبين . — جزءا من واجبهم لا ينفصل عن الجهاد فى سبيل نشر الدين . فمعظم المراجع الأجنبية تعالج الأمر على أنه ثورات بين أفراد خارجين على القانون وعلى النظام — فواجبنا يحتم أن نضع هذه الحركات الوطنية فى مكانها الصحيح . وقد أدى تبني هذه الحركات لقضية الجهاد الوطنى الى شعبيتها واندفاع الشباب بالذات للانضمام اليها .

وقد انتشرت هذه الحركات فى شرق افريقيا — كما انتشرت فى غربها وأصبحت من أهم مظاهر الانتفاضات الوطنية فى القارة . ولعل حركة محمد بن عبد الله حسن بطل الصومال تعتبر مثلا قويا لهذه الحركات فى شرق افريقيا (٢٢) .

كما أن الحركة السنوسية ودورها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى فى ليبيا مثل آخر لدور هذه الحركات ضد القوى الاستعمارية التى استباححت القارة الافريقية (٢٣) .

وفى غرب افريقيا تعتبر حركة الحاج عمر التيجانى زعيم السودان فى القرن التاسع التى أطلق عليها حركة العمرية — مثلا آخر (٢٤) .

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحركة يرجع الى :
محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار
(ه . ت) ،

ابراهيم عبد المجيد محمد : الاستعمار البريطانى فى الصومال ،
(١٨٨٤ — ١٩٢١) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث الافريقية
بجامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٢٣) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٥ .
(٣٤) Dubois, F. : L' Islam Noir (Paris 1899) p. 60.

كذلك دور سامورى فى مكافحة الاستعمار الفرنسى فى غرب افريقيا
مثلا آخر لهذه الحركات ووقونها فى وجه الاستعمار الأوربى (٣٥) .

ويرتبط بالأثر الدينى لهذه العلاقات العربية الافريقية قيام الحركات
الاصلاحية فى شرق القارة وفى غربها وكان على رأس هذه الحركات زعماء
تحمسوا لنشر الاسلام ولارشاد الناس لحقائقه ولتخليص الدين مما علق به
من شوائب وقد استطاع هؤلاء الزعماء ان يجمعوا حولهم عددا كبيرا من
الأتباع والمريدين لما راوا فيهم من التقوى والصلاح .

وقد تبلورت جهود هؤلاء المصلحين واتباعهم فى مجالين :

المجال الأول : مجال الوعظ والارشاد والتأليف — فتركوا لنا ثروة كبيرة
من مؤلفاتهم فى مختلف الفروع الدينية والعلمية كالتفسير والفقه وشرح
الاحاديث النبوية والتصوف والعقائد واللغة والشريعة الاسلامية وغير ذلك
من ضروب العلم والمعرفة .

ولا شك فى ان هذه الثروة التى فقد الكثير منها للأسف ، كما نقل
المستعمرون الأجانب جزءا هاما من هذا التراث الى مكتبات بلادهم — فيما
عدا الباقي وهو عدد غير قليل ايضا لازال مخطوطا حبيس دور الوثائق .

أما المجال الثانى : فهو مجال الجهاد وكما ذكرنا سابقا — لم يكن من
الممتن الفصل بين حركة الاصلاح الدينية وحركة الجهاد المسلح لاعلاء شأن
الاسلام فى المناطق المختلفة من شرق افريقيا وشمالها وغربها التى تعرضت
للاستعمار الأوربى .

هذا وأشار الى أن المصلحين فى افريقيا ركزوا بالذات على التغييرات
التي كانت سائدة فى المجتمع الافريقى مثل التقاليد المتبعة عند ولادة الطفل
أو عند الزواج أو الوفاة وسنشير لذلك فيما بعد عند دراسة الآثار الاجتماعية .

وأشير هنا الى أننا لا يمكن هنا أن نستطرد فى ذكر بعض الحركات

(٣٥) لمزيد من التفاصيل يرجع الى :

نصر الدين رشوان حسن : دولة سامورى فى غرب افريقيا ١٨٧٢ —
١٨٩٨ ، رسالة دكتوراه من معهد البحوث الافريقية ، ١٩٧٨ .

الاصلاحية فى شرق القارة أو شمالها أو غربها لكن من يريد التركيز على بعض هذه الحركات أو التوسع فى دراستها فالمجال واسع أمامه (٣٦) .

ثالثا — آثار اجتماعية :

أثر العرب والاسلام تأثيرا قويا فى المجتمعات الافريقية التى احتك بها العرب . وقد أشرنا الى دور المصلحين الذين ظهروا فى المجتمعات الافريقية والذين دعوا لاصلاح ما وجدوه من انغماس الناس فى كثير من الأمور التى ينهى عنها الاسلام .

ووصل الأمر الى شن حروب جهادية للوقوف فى وجه تيار العادات التى استمر الناس يمارسونها رغم انها لم تكن تتلاءم مع تعاليم الاسلام ومع الوضع الثقافى والحضارى الجديد .

ولقد أثرت الثقافة العربية والدين الاسلامى على المجتمعات الافريقية بما أدخلته من مفاهيم جديدة أثرت تلقائيا فى المفاهيم الاجتماعية وفى التقاليد والعادات التى ارتبطت بمختلف المناسبات .

وقد امتص الافريقيون الكثير من معتقدات الاسلام . بالطبع لم يكن التغيير كاملا أو جذريا لكن حدثت تغييرات كبيرة — فمثلا فى بعض البلاد الافريقية كانت هناك مجتمعات أموية (تنسب الى الأم) تغير هذا كما نفذت قوانين الوراثة لتساير الشريعة الاسلامية . والتغيير كما قلنا لم يحدث فجأة .

فإذا أخذنا مثلا قرية من قرى الهوسا فى غرب افريقيا وحاولنا دراسة

(٣٦) تعددت حركات الاصلاح خاصة فى غرب افريقيا وقد اشتهرت منها مثلا حركة عثمان بن فودى الذى استطاع أن يقود قبائل الفولانى ويؤسس سلطنة تنبكتو التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا . انظر : Dubois, F. : Tombouctou, Le Mystérieuse (Paris 1899) pp. 152—153.

ملاحظة : قام كاتب هذا البحث بنشر عدة بحوث عن دور بعض رجال الاصلاح فى غرب افريقيا من أمثال أحمد بابا التمبكتي السودانى وعثمان بن فودى وغيرهما وذلك فى مجلة المناهل المغربية ومجلة البحث العلمى التى يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط .

حياة الناس فيها وتعاليدهم ومثلهم نجد أن الكثير مما يجرى فى حياة الناس اليومية يرجع لأساس قديم سابق للإسلام ، بينما لو ذهبنا الى قرية من قرى التوكولور مثلا نجد القانون الإسلامى سائدا على نطاق أوسع .

لقد سما الإسلام بكثير من معتقدات الأفريقى وعدل من سلوكه فقبل الإسلام مثلا كان شائعا عندهم تقديم الضحايا وغير ذلك من وسائل إرضاء القوى الخفية — أما فى ظل الإسلام وتعاليمه — فالصدقة ، والزكاة ، والصيام فيها معنى التضحية ونكران الذات ، ولذا لم يكن صعبا على الأفريقى أن يدرك هذه القيم ، وأن يعدل من سلوكه حسب تعاليم الدين الجديد (٣٧) .

ولعل أهم أثر للإسلام فى المجتمعات الأفريقية هو الإحساس بأن الجميع يعبدون الها واحدا وهذه الوحدة الاجتماعية تزكيا أكبر ممارسة للجميع لفرائض واحدة .

ولا شك فى أن البناء الأسرى فى المجتمع الأفريقى قد تأثر بتعاليم الإسلام ومبادئه . وبالطبع لا يمكن أن نتوقع أن القانون الإسلامى النموذجى هو الذى يمكن أن يسود — لكن لا شك فى أن التغيير الذى حدث كبير ، والصراع بين القديم والجديد ظل فترة غير قصيرة مستمرا .

ويشير ترمنجهام الى ذلك بوضوح حين يتحدث عن الثنائية التى تتضح فى المجتمعات الأفريقية فهناك نظم اسلامية صرفة جنبا الى جنب مع تقاليد ترجع الى ما قبل الإسلام ، وتختلف قوة كل من العاملين فى المدن عنها فى المجتمعات الزراعية أو الريفية .

رابعا — أثار اقتصادية :

بدأت علاقات غرب شبه الجزيرة العربية بشرق أفريقيا علامات تجارية كما ذكرنا من قبل — وتطورت هذه العلاقات التجارية ونمت واتسعت ، وكانت للعرب فى شرق أفريقيا شهرة واسعة فى الاتجار فى الذهب وغيره

من الموارد الافريقية وتبادلها بالسلع التى يحتاجها الأفارقة — وقد اشتهر ميناء سوفالة (Sofala) بالذات كميناء لتصدير الذهب (٢٨) .

ويذكر ابن بطوطة مثلا انه فى مقديشيو كانت تقوم صناعة نوع من الأقمشة الدقيقة التى تصدر لمصر ، كما يذكر الادريسي انه سمع أن فى مالى وسفالة توجد مناجم للحديد مستغلة كما أن العرب المهاجرين أدخلوا فى هذه الجهات زراعة البرتقال والفواكه الأخرى بالإضافة الى البلح والبقول وغيرها من الزراعات فكانوا يزرعون هذه الفواكه والخضروات بجوار مجارى المياه وفى المدن الحديثة التى أنشأوها — هذا بالإضافة الى تربية الماشية والأغنام .

وحين زار ابن بطوطة كلوة ، ومهيسة ، ومقديشيو سنة ١٣٣٣ أبدى دهشة من حالة الرخاء السائدة فى هذه المناطق (٢٩) .

وفيما يتعلق بغرب أفريقيا منذ أن استقر العرب فى شمال القارة ووصلوا الى أقصى غرب القارة كثرت رحلاتهم الى غرب القارة ونضاعت هذه الرحلات وانتظمت ووجدت طرق معروفة تخترقها القوافل الى مناطق الذهب والملح وغيرها من الموارد المتوفرة فى غرب افريقيا والتى كانت الحاجة لها ماسة .

ويشير بونيل (Bovill) الى رحلات اهل المغرب بالذات وتجارتهم فقد كثرت رحلاتهم للحج والتجارة وغير ذلك وقد أمدنا هؤلاء بمعلومات طيبة عما بداخل القارة وعن المحطات التجارية وغيرها ، فنحن ندين بمعلوماتنا المبكرة لفئة قليلة من المؤلفين والرحالة من أهمهم المسعودى ، وابن حوقل ، والبكرى ، والادريسي ، وياقوت ، والعمرى ، وابن بطوطة ، وابن خلدون (٤٠) .

(38) Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesio From Earliest Times to the Referenoum (London 1966) p. 25.

(٣٩) انظر الرحلة :

(40) Bovill, E. W. : Caravans of the old Sahara (Introduction to the History of the westlrm Sudan 1933) p. 6.

ولا شك فى أن التجارة والاسلام فى غرب أفريقيا مرتبطان كل الارتباط فقد لعبت التجارة دورا هاما فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى غرب القارة برغم العقبات الطبيعية التى كانت تعوق الوصول الى قلب القارة — فقد كانت هناك مراكز تجارية بمثابة الموانئ يتطلع اليها المسافرون عبر الصحراء حيث يجدون نبض الحياة فيستريحون ويستبدلون الجمال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة الرحلة ، وفيها يحدث التبادل التجارى وكانت بحيرة تشاد نفسها حلقة هامة من هذه السلسلة من طرق الاتصال (٤١) .

فالنيجر ينحنى انحناءة عظيمة صوب الشمال ويقترب من الصحراء ، وهذه الصحراء لا تتصل مباشرة بساحل المحيط — لكنها تترك سهلا ساحليا جعل الاتصال عبره ممكنا بين الشمال والجنوب ، وعبر هذا الطريق اتصل عرب المغرب بالساحل الخصيب الواقع جنوب الصحراء الكبرى وكانت التجارة من أهم دوافع الاتصال بين الاقليمين .

وكان لعرب شمال افريقيا دور هام فى هذه التجارة ، وكان ملح الطعام الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب الغرب الأقصى — من السلع الهامة التى يحتاج اليها الافارقة فى المنطقة الواقعة جنوب الصحراء هذا بالاضافة الى النحاس ، والمنسوجات والتمر والعقود والحلى ، وكانوا على استعداد لمبادلة هذه السلع بالذهب والمحاصيل الافريقية الرعوية أو الاستوائية التى وجدت طريقها الى البحر المتوسط واوروبا على يد التجار المغاربة على الخصوص ويكفى أن نذكر أن هذه البلاد انفردت لفترة طويلة بثروتها الذهبية فقد كانت المصدر الرئيسى لذهب العالم الى أن اكتشفت مناجم أمريكا الجنوبية والهند وجنوب افريقيا (٤٢) .

وقد نجح العرب والتجار على وجه الخصوص فى نشر الاسلام فى هذه البلاد التى تاجروا معها فكان انتشاره سريعا وهادئا دون اللجوء للعنف عبر هذه الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى أو على

(٤١) ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، مترجم ، القاهرة ١٩٥٧ ،

ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

(42) Fage V. W. : An Introduction to the History of west Africa (Cambridge 1959) pp. 9-10.

(م ١١ — العرب فى أفريقيا)

طول المحيط الأطلسى الى بلاد السنغال وأعلى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد .
وساهم تجار الفولاني ، والحوصا ، والتكرور المسلمون أيضا بدور كبير فى
هذا المجال وادى هذا لازدهار التجارة ونموها .

وكان التجار المسلمون فى تنقلهم بين المراكز التجارية يحتكون بباقى
الافارقة ويؤثرون فيهم — بسلوكهم الشخصى وامانتهم ونظافتهم ، وكثيرا
ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين منهم فى الاسلام ، وعدد غير قليل من
هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم فاذا ما استقر بهم المقام انشأوا
حلقات لتعليم القرآن أو العبادة وقاموا بمزاولة النشاط التعليمى والدعوة
لاتباع مبادئ الاسلام بجانب نشاطهم التجارى . ولذا تركز الاسلام على
الخصوص فى المبدأ فى المراكز التجارية ومنها انتشر لمناطق متعددة أخرى
وهكذا دخل الاسلام الى كثير من بلدان غرب افريقيا فى ركاب التجار ونتيجة
لنشاطهم فقد أصبح الاسلام كما يقول ترمينجهام « بمثابة تصريح مرور لمن يريد
الاتجار بنجاح مع الامارات التى نشأت فى افريقية الغربية » (٤٣) .

وقد ساعد قيام ممالك اسلامية قوية فى غرب افريقيا على استتبابه
الأمن مما ادى لازدهار التجارة التى أصبحت تلعب دورا هاما ورئيسيا فى
اقتصاد هذه الممالك .

نفى مملكة مالى مثلا — يقدر نيام جبريل (Niam, Djibril)
عدد الجمال التى كانت تستخدم فى عمليات التبادل التجارى عام ١٣٥٠ بما
لا يقل عن ١٢٠٠٠ جملا . وعند حديثه عن اقتصاد مالى يذكر أن تجارة
التوافل كانت تقوم بدور هام فى اقتصاد المملكة وأن عددا كبيرا من البربر
والطوارق كانوا يشتركون فى عمليات التبادل التجارى (٤٤) .

ومن القبائل العربية التى لعبت دورا هاما فى التجارة عبر الصحراء
وكان لها فى ذلك شهرة — قبائل صنهاجة ولتونة ومسوفة ، وجدالة .

(43) Trimingham : op. cit., p. 26.

W

(44) Niam, Djibril : L' Empir de Mali (Conakry 1948).

ومؤلف هذا الكتاب غينى وله عدة كتب عن تاريخ غرب افريقيا تتميز
بالدقة والاصالة .

والحقيقة انه يمكن القول بأنه اذا كانت التجارة قد أسهمت فى نشر الاسلام — فقد أدى انتشار الاسلام الى مضاعفة النشاط التجارى ، فقد تغيرت نظرة الأفارقة الى الزراعة ، كما أصبحت للتجارة مكانة خاصة ووجدت طبقة جديدة من التجار العرب والأفارقة فى كل من غانة ومالى وغانو — وأدى ذلك التبادل الى نشر ونمو المدن التجارية الكبرى مثل كومبى ، وتمبكتو ونيانى ، وجنة ، وغانو . وكانت كبارة ميناء تومبكتو الحبرى والتجارى ملقى البضائع القادمة من شمال افريقية ومنها توزع الى مالى ، والنيجر الأعلى ، والداهومى كما تصل اليها البضائع الافريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها الى شمال أفريقيا حيث قامت المدن التجارية فى المغرب والقيروان وتونس وطرابلس وأصبح التجار يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الافريقى بل ان بعض القبائل الافريقية اتخذت التجارة حرفة رئيسية عرفت بها وأصبحت فى المدن التجارية الهامة احياء خاصة للتجار العرب يقيمون فى دور بها بنوها فوق مستودعات بضائعهم ، وحرص هؤلاء على أن يتعلم أبناءهم فى المدارس والمساجد مع زملائهم الأفريقيين (٤٥) .

والحقيقة ان الذين كتبوا عن قصة التجارة فى شرق افريقيا وفى غربها وبين شمال وغرب القارة ووسطها وما كان يتم فى هذه الرحلات التجارية يعطينا صورة رائعة لأثر الاحتكاك البشرى والحضارى والثقافى عن هذا الطريق .

فابن بطوطة مثلا يتحدث عن الطرق التجارية والآبار حيث يرتوى المسافرون ويستقرون وحيث كانت قوافل التجار تقيم فى ضيافة التجار المحليين أو الشيوخ أو تكترى مسكنا تقضى فيه أيام الاستراحة — وتكون مناسبة لتبادل المنتوجات وشراء لوازم السفر ، كما يذكر أن الامتزاج كان على أشده بين الأفارقة والتجار العرب الذين كانوا وسطاء فى العمليات التجارية كما كانوا يقومون بالترجمة والسمسة ويعملون كأدلاء وحراس فى الصحراء ، ويشير بالذات الى الكرم العربى الذى هو صفة من صفات العربى وكيف كان يظهر فى هذه المناسبات بأعلى مظاهره التى قد تصل الى حد المبالغة فى اكرام الغرباء (٤٦) .

(٤٥) نعيم قداح : مرجع سابق ، ص ١٢٥ وما بعدها .
(٤٦) رحلة ابن بطوطة : دار التراث — بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .

ويتحدث البكرى عن نفس الشيء ويشير الى شبكة الطرق الصحراوية التى انتشرت فى غرب افريقيا بالذات ويعطى تقديرات تقريبية للمسافة التى تستغرقها الرحلة فى كل مرحلة من مراحلها (٤٧) .

وقبل أن تزدهر التجارة الافريقية على أيدي العرب كانت طريقة المبادلة هى السائدة لكن العرب أدخلوا النقود الى جانب القطع الذهبية المسكوكة ، وقد وجدت فى القصر الملكى فى مالى ، وفى غاو قطع نقدية مغربية ومصرية . ويشير انتا دوب Anta Diop فى حديثه الطويل عن التجارة فى غرب أفريقيا الى أن الأسر المالكة فى غرب أفريقيا أصبحت تشتري حاجاتها من منسوجات وتحف وغيرها من المغرب وبلدان شمال أفريقيا الأخرى مباشرة أو عن طريق التجار العرب ، كما يشير الى أن التجار الأمازيغية قلدوا ما كان سائدا فى البلاد العربية ، من إقامة بعض الأسواق فى مدن معينة فى أيام معلومة ، كما يشير الى أن حكام هذه البلاد — حتى من لم يعتنق الإسلام منهم اضطروا خاصة فى المدن التجارية الى إقامة قضاء اسلامى يحكم حسب الشريعة الاسلامية وذلك للفصل فى القضايا التى تتعلق بمصالح التجار المسلمين حرصا منهم على أن يشعر هؤلاء بالطمأنينة فى معاملاتهم التجارية (٤٨) .

خامسا — آثار سياسية :

لا شك فى أن من أهم الآثار الحضارية التى ترتبت على الاحتكاك العربى الأفريقى التغييرات السياسية التى طرأت على البلاد الافريقية شرقها وغربها .

وفى شرق القارة — أشرنا الى أن العرب بعد أن استقروا فى أماكن معينة بالشاطئ نجحوا فى تكوين إمارات عربية ، وأصبحت هذه الإمارات العربية تجمع فى أنظمتها بين أشياء أفريقية أصيلة وبين أشياء عربية

(٤٧) البكرى ، أبو عبيد الله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشر دى سلان الجزائر ١٨٥٧ مشتق من كتاب المسالك والممالك) .
(48) Anta Diop : op. cit.

(الفصل الثانى على الخصوص) .

اسلامية لكن مما لا شك فيه أن العرب المهاجرين الى شرق افريقيا قد حملوا معهم حضارتهم الزاهرة .

ويذكر كوبلاند أن الرحالة العرب والأجانب على السواء الذين زاروا الإمارات العربية فى شرق افريقيا تحدثوا عما رأوه بهذه الامارات من مظاهر الحضارة والرقى .

ولا شك فى أن النظام السياسى والادارى الذى ساد فى الامارات العربية بشرق افريقيا تأثر فى جوهره بما اعتاده العرب فى بلادهم من نظام قبلى أو شبه قبلى — فالأمر كان بمثابة شيخ القبيلة وكان يساعده جماعة من صفوة القوم فى الإمارة .

على أن الملاحظ أن العرب فى شرق افريقيا كونوا امارات متفرقة فلم تتكون امبراطورية عربية متحدة مثلا ، ولو أنه فى فترات متقطعة كانت لامارة أخرى من هذه الامارات سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات — فمثلا فى نهاية القرن الخامس عشر لما جاء البرتغاليون لشرق افريقيا كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبى من الساحل ، ولما وصل فاسكو دا جاما الى موزمبيق وجد أن حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوة ، وكان يجبى الضرائب لحسابه على السفن التجارية التى ترد للمدينة — وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطانى كلوة ، وممبسة إذ أن هذا الأخير كان متزوجا من ابنة سلطان كلوة .

وهكذا كان لأمراء كلوة شئ من السيادة سواء عن طريق السياسة أو المصاهرة على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقى وان لم تكن لهم سيادة كاملة بالمعنى الذى نعرفه .

وهكذا استطاع العرب أن يوجدوا فى شرق القارة تنظيمات ادارية قبل أن تفتتح عيون الأوربيين للقارة الافريقية .

واشير الى أن الائمة فى عمان على الخصوص استطاعوا أن يمدوا سلطانهم على الشمال الشرقى من أرض الصومال حتى نهر روهرما وأن يقيموا فيها امارات تابعة لهم وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية

فى ممبسة وزنجبار وغيرها من المناطق الهامة (٤٩) .

أما فيما يتعلق بغرب إفريقيا فقد تكونت ممالك وإمبراطوريات فى المنطقة الشاسعة التى تطل على المحيط الاطلنطى غربا وخليج غينيا جنوبا وتحدها الصحراء الكبرى شمالا .

ومن هذه الامبراطوريات امبراطورية غانا وإمبراطورية مالى ، وإمبراطورية سنغاي ، وإمبراطورية كانم ، وبرنو .

وقد كان لكل منها نظامها الإدارى كما كانت لها علاقاتها الوطيدة بالبلاد الإسلامية الأخرى فى شمال إفريقيا ومصر وأخذت من النظم السائدة فى هذه البلاد وتأثرت بها .

وقد كانت للأحداث السياسية فى هذه الدول العربية أصدائها فى هذه الدول الإفريقية المتصلة بها (٥٠) .

ولابد من الإشارة فى النهاية الى أن العرب كان لهم دورهم البارز فى إذكاء الروح الوطنية فى هذه الامارات والسلطنات فى شرق القارة وغربها وظهر ذلك بوضوح حين واجهت هذه البلاد موجة الاستعمار الأوروبى فوقفت تدافع عن كيانها وقاومت الاستعمار قدر طاقاتها وظهرت فيها بطولات عربية وإفريقية وقد سبق أن أشرنا لبعض هذه الشخصيات التى برزت فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار .

من هذا العرض تتضح الحقائق التالية :

ترجع علاقة العرب بإفريقيا الى أقدم العصور ، ساعدت على ذلك عوامل جغرافية وعوامل اقتصادية وعوامل تاريخية ، وأعطى الإسلام دفعة كبيرة لهذه العلاقات . وقد كانت لهذا الاتصال العربى الإفريقى آثار ونتائج

(٤٩) للمزيد من التفاصيل عن هذه الامارات العربية بشرق إفريقيا يرجع : شوقى الجمل : تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ، ١٩٨٠ ، ص ٥١ وما بعدها .

(٥٠) لمن يريد تفاصيل عن النظم السياسية والإدارية فى هذه الدول بإفريقيا الغربية يرجع الى : عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ، ١٩٦١ .

حضارية ظهرت أثارها فى المجالات المختلفة الثقافية ، والدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية .

وقد لمس ذلك الرحالة العرب بالاضافة الى الرحالة والكتاب الأجانب .

وقد ذهل الرحالة الأجانب حين جاءوا لأول مرة الى شرق القارة أو غربها وتوغلوا فيها فوجدوا امارات وممالك على قدر كبير من التحضر وقد ظلت هذه الحضارات زاهرة الى أن نكبت القارة بالمستعمرين الاوربيين .

وقد حاول الاستعمار أن يقضى على هذه الحضارات الافريقية العربية وأن يفرض على شعوب القارة حضارته ، ولا شك فى أن من واجب الأفارقة بعد أن استعادوا حريتهم واستقلالهم أن يستعيدوا وجههم الحضارى الاصيل. المتمثل فى اللغة والثقافة والتقاليد والعادات . ولا يعنى هذا عدم الأخذ بالمفيد والملائم من حضارات الشعوب الأخرى .

obeyikan.com

النشاط التجارى العربى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر حتى بداية السيطرة الاوروبية على المنطقة

د. محيى الدين محمد مصيلحى

موضوع دور العرب فى النشاط التجارى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر من موضوعات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى الإفريقى التى تحتاج الى معالجة موضوعية حادة ، ومراجعة تاريخية خاصة ، ذلك أن الكتابات الأوربية تكاد تقتصر هذا النشاط على تجارة الرقيق ، وتنسب الى العرب ارتكاب الكثير من الفظائع فى داخل القارة من أجل صيده . والحقيقة أن النشاط التجارى العربى قد تعددت مظاهره ، وكانت تجارة الرقيق مجرد دعامة ثانوية من دعائمه . وانعكست آثار هذا النشاط على أحداث تغيرات بعيدة المدى فى التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمعات الداخل . وتحاول هذه الورقة المقدمة ابراز هذا النشاط وآثاره ، وإعادة تقييم دور العرب التجارى خلال الفترة موضوع الدراسة من خلال منظور موضوعى تاريخى .

ويتفق المؤرخون على أن اتصال العرب بساحل شرق افريقيا يرجع الى زمن بعيد قبل القرن التاسع عشر ، وعلى أن ظروف التجاور الاقنابى وحقق العرب وخبرتهم بالملاحة قد ساعدهم على هذا الاتصال ، وعلى أن وصولهم الى شرق أفريقيا كانت تحركه عوامل اقتصادية وظروف سياسية ، ذلك أن شبه جزيرة العرب ذات المناخ الصحراوى كانت دائما عامل طرد سكانى ، كما كانت ظروف الاضطرابات السياسية والاختلافات الدينية التى وقعت فى الدولة الاسلامية منذ عهد الدولة الأموية قد أدت الى خروج عدد كبير من العرب من شرق أفريقيا واستقرارهم بها ، تدفعهم الى ذلك خصوبة الأرض فى هذا الساحل وقلة الكثافة السكانية به . وعلى هذا شهدت منطقة

ساحل شرق أفريقيا تأسيس العديد من الامارات الاسلامية منذ فترة مبكرة ترجع الى القرن الثامن الميلادي حسب تقديرات بعض المؤرخين(١) .

وساعد استقرار العرب في هذه المنطقة على قيامهم بدور أكبر في التجارة بينها وبين جنوب شرق آسيا ، ويبدو ان دور العرب التجاري فيها كان موقعا في القدم مما جعل المؤرخ الانجليزي كوبلاند Coupland يرجعه الى ألفى سنة مضت(٢) . وأحدث هذا النشاط ازدهارا اقتصاديا كبيرا نتيجة مبادلة العرب منتجات شرق أفريقيا من الرقيق والعاج والذهب بمنتجات جنوب شرق آسيا من المنسوجات والتوابل والخزف . وتؤكد كتابات الرحالة العرب كالسعودي والادريسي وابن بطوطة مظاهر هذا الرخاء الاقتصادي في الامارات الاسلامية على طول ساحل شرق أفريقيا ، ونحفل بأشعار عديدة الى الأسواق التجارية العديدة التي قامت في مدنه كأشواق مقديشو ومالدي ومومباسا وكلوة وبمبا وزنجبار(٣) . وقد أنشأ الرواج التجاري العربي في هذه المنطقة من اشتداد الطلب على الرقيق والعاج بسبب ارتباط الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي والشرق الاسلامي عامة بنظام الرق(٤) ، والأرباح الوفيرة الناجمة عن بيع العاج الذي كان يستخدم في صناعة الكثير من التحف والتماثيل . وصحبت عمليات التجارة الواسعة ولوج العرب الى مسافات أبعد في الداخل للحصول على الرقيق والعاج بعد أن تعذر توفرهما في منطقة الساحل بمرور الوقت نتيجة طول الاستغلال . هذا فضلا عن صعوبة الحصول على الرقيق من الساحل بعد دخول معظم سكانه الأفريقيين في الاسلام وما ترتب على ذلك من تحريم استرقاقهم(٥) .

(1) Wills, A. J., An Introduction to the History of central Africa, London, 1964. p. 73.

(2) B. A. Ogot, Population Movements Between East Africa, the Horn of Africa and The Neighbouring Countries, in (UNESCO) ed, The African Slave trade from the 15th Century to the 19th Century, U. N. 1979, p. 175.

(3) Kimambo and Ajtema (eds), A History of Tanzania, London 1969, pp. 40-41.

(4) Ogot, B A, in UNESCO (ed) op. cit., p. 176.

(5) Ogot and Kieran (eds), camani, A Survey of East African History, Nairobi, 1971, p. 220.

ورغم أن دور العرب فى النشاط التجارى فى شرق إفريقيا قد تقلص نسبيا نتيجة قدوم البرتغاليين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وتفوقهم عسكريا عليهم ، فانهم ما لبثوا أن تحرروا من هذه السيطرة . وكان لعرب مومباسا دور بارز فى مقاومة السيطرة البرتغالية ، وخلص ساحل شرق إفريقيا للعرب باستثناء ساحل موزمبيق بعد ظهور قوة اليعاربة فى مسقط فى القرن الثامن عشر وتعاونها مع إمارات ساحل شرق أفريقيا الإسلامية . ولم يأت القرن التاسع عشر الا وكان ساحل شرق أفريقيا بالإضافة الى زنجبار فى يد سلاطين مسقط (٦) .

عوامل نمو التجارة العربية فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر :

توفرت عوامل عديدة أدت الى نمو التجارة العربية فى القرن التاسع عشر ومن هذه العوامل الاستقرار السياسى العربى فيها وخاصة منذ بدء تولى السلطان سعيد أمور سلطنتى مسقط وزنجبار اعتبارا من عام ١٨٠٦ ، ولم يكن سعيد الا تاجرا على حد ما وصف هو نفسه لأحد زائريه الفرنسيين (٧) ، ومن ثم وجه اهتمامه الى تنمية موارده التجارية الخاصة والى زيادة حصة جماركه وتنمية مزارعه الخاصة خاصة مزارع القرنفل وجوز الهند والحبوب والمطاط وبنى لنفسه أسطولا تجاريا خاصا بلغ تعداده حسب تقدير القنصل البريطانى فى زنجبار هامرتون Hammerton عشرون سفينة مختلفة الأحجام (٨) . مخرت عباب البحار الى أوروبا وجنوب شرق آسيا وأمريكا الشمالية حاملة الرقيق والعاج والتوابل وخشب الأبنوس وقرون الخريت وأسنان التماسيح . وأفاد سعيد من مناخ الحرية التجارية الذى اتسم به القرن التاسع عشر ، والذى ساد فى أعقاب الحركة المناهضة لتجارة الرقيق التى تزعمتها بريطانيا فى أوائل هذا القرن المذكور ورغم أن تحريم الاتجار فى الرقيق كان من شأنه أن يضر بداخل سلطنتى مسقط

(6) Hollingsworth, L. W. The Asians in East Africa, London, 1960, pp. 14-19.

(7) Coupland, R, East Africa and its Invaders, London, 1938, p 304.

(8) F. O. 54/13, Hammerton to Palmerston, Jan 3rd, 1894.

وزنجبار ، فان سعيدا ظل يمارس هذه التجارة ، وان قيد نسبيا من حجمها ، واخذ تصدير الرقيق من شرق أفريقيا مستمرا تحت دعاوى توفير العمالة الافريقية لمزارع قصب السكر والقرنفل(٩) فى جزر ريونيون ومدغشقر وجنوب شرق آسيا ومدن ساحل شرق أفريقيا .

وبانتقال سعيد الى زنجبار بصفة دائمة فى عام ١٨٤٠ زاد عدد الوافدين العرب والهنود الى شرق أفريقيا ، وارتبط هذا بزيادة الطلب على المنتجات الاوربية الصناعية . وادت التقييدات على تجارة الرقيق الى ضرورة وجود مصادر بديلة لها لتنويع الاقتصاد العربى فى شرق أفريقيا — هذا فى الوقت الذى ارتفع فيه حجم الطلب العالمى على العاج والرقيق وارتفعت اسعارهما . وتتطلب هذا زيادة الولوج الى داخل شرق افريقيا لجمعهما ، وساعد على هذا زيادة شحنات السلاح الاوروبى الى شرق افريقيا مما سهل مهمة القوافل العربية — التى أصبحت أكثر حجما واكبر عددا — فى اختراق الداخل الى مسافات بعيدة وصلت الى منطقة البحيرات الاستوائية وحوض الكنفو ، وافادت تجارة القوافل العربية من توفر رأس المال الاجنبى ممثلا بصفة أساسية فى رأس المال الهندى الذى تدفق معوغود الاعداد المتزايدة من الهنود واستقرارهم فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى الافريقى .

وافادت التجارة الغربية فى شرق افريقيا من طول عهد العرب وخبرتهم بالتجارة فى المنطقة ومعرفتهم بنظام الرياح الموسمية الفصلية بين شرق افريقيا وجنوب شرق آسيا . وكان لانتشار العرب فى مدن الساحل الشرقى الافريقى منذ زمن بعيد وتأسيسهم لعدد من السلطنات الصغيرة على طول الساحل الشرقى الافريقى وتعاونهم مع سلطان زنجبار اثر كبير فى تنمية هذه التجارة ، كما كان لضعف قوة البرتغال العسكرية والاقتصادية دور بالغ فى حصر نشاطها التجارى واعطاء عرب شرق افريقيا فرصة للتوسع الاقتصادى والنمو التجارى .

ووثق سعيد علاقاته ببريطانيا ورحبت هى بهذه العلاقة لحماية طريق مواصلاتها فى المحيط الهندى والخليج العربى وبحر العرب من نشاط القراصنة،

(9) Cwyn Campell, Madagascar and the slave Trade (1810-1895), J. A. H., 1981, vol. 22, pp. 209-212.

ولعدم نفوذها فى منطقة شرق أفريقيا ، ولكى تأمن تهديدات الروس والفرنسيين فى الخليج العربى . وتوجت هذه الصداقة بمعاهدة تجارية بينهما فى عام ١٨٣٩ أقرت مبدأ حرية التجارة والاقامة والتنقل لرعايا الطرفين فى أملاك كل منهما ، كما خولتهما حق تعيين القناصل فى بلد الطرف الآخر . وفضلا عن هذا شهد حكم سعيد عقد معاهدات تجارية مماثلة مع الدول الأجنبية الأخرى ، من هذه المعاهدة التجارية مع الولايات المتحدة فى عام ١٨٣٣ وما تبعها من تعيين قنصل أمريكى فى زنجبار بعد عقدها بنربع سنوات ، والمعاهدة التجارية مع فرنسا فى عام ١٨٤٤ وتعيين قنصل فرنسى فى شرق أفريقيا فى نفس العام . وتابع خلفاء سعيد نفس هذه السياسة اذ عقد السلطان مجيد بن سعيد معاهدة تجارية مع عدد من الجمهوريات كجمهورية ليوبك Lubeck وجمهورية برمن Bremen وجمهورية هامبورج Hamburg فى عام ١٨٥٩ ، وعين على أثرها ممثلا لشركة المانية تجارية هى شركة ازوالد Oswald فى زنجبار (١٠) .

وبلغ من اهتمام السلطان سعيد بترويج التجارة أنه شجع البيوت التجارية الأجنبية على تأسيس مراكز لها فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى ، وأصبحت زنجبار مقرا مؤقتا للعديد من الأجانب ، وغصت موانئها بالسفن القادمة من الخارج المحملة بالبضائع ، وحرصا على جنى أكبر قدر من العوائد التجارية فقد حرم سعيد على الأوروبيين الاتجار مباشرة مع العرب أو الأفريقيين . وقام هو بدور الاتجار معهم ، واحتفظ بحق احتكار تجارة العاج بين بنجاني وكلوة (١١) . وترك بقية التجارة فى العاج فى مدن الساحل والبضائع الأخرى أمام الوافدين العرب والهنود الذين سمح لهم بالإقامة والتجارة فى أملاك سلطنة زنجبار باعتبارهم رعايا بريطانيين . وكانت مخازن سعيد فى زنجبار تمتلئ بالبضائع الواردة من الداخل والخارج ،

(10) Oliver, R and Gervase, Mathew (eds), History of East Africa, Oxford, 1963, vol. I, pp. 234-235, and Brunschwig, H, L, Expansion Allemande Outre Mer du Xvieme Siecll a nos Jours, Paris, 1957, pp. 76-79.

(11) Oliv er, R, and Gervase, Mathew, op. cit., vol. I, p. 224.

هذا فضلا عن تحكم سعيد فى تجارة السلاح النارى المتجهة الى الداخل ومول سعيد جزءا كبيرا من قوافل التجارة العربية المتجهة الى الداخل ، غير ان اتساع النشاط التجارى وكبر حجم القوافل جعل من الصعب على كثير منهم تدبير الاموال اللازمة لتنظيم القوافل . ودخل الهنود كممولين لها مقابل حصولهم على اضعاف قيمة رؤوس اموالهم او بضاعتهم التى يزودون بها القوافل فى الساحل فى شكل عاج او رقيق او ملح او منتجات اخرى .

وطبق سعيد سياسة تجارية رشيدة اذ اعفى صادرات المنطقة من الرسوم الجمركية باستثناء الرقيق المصدر ، وفرض ضريبة ثابتة على الواردات قدرها ٥٪ فقط بعد ان كانت الرسوم الجمركية من قبل تختلف من مدينة الى اخرى فى الساحل الشرقى الأفريقى (١٢) . وتم ارتياد طرق جديدة الى الداخل ، وحاول سعيد وخلفاؤه من بعده ارسال مندوبين من قبلهم للاشراف على شئون التجارة فى الداخل ، كما حدث فى عهد السلطان مجيد حين بعث سعيد بن سالم ، وولاه منصب مدير الجمارك فى تابورا ، غير انه لم يستطع ممارسة نشاطه بالداخل لعدم استقرار الأحوال هناك ، كما بعث برغش بحملة الى الداخل لتهدئة الاضطرابات الداخلية فى عام ١٨٧٣ حتى لا تؤثر على النشاط التجارى العربى وفشلت الحملة (١٣) .

وشجع السلطان سعيد تداول النقد فبجانب دولار ماريا تريزا والروبية الهندية اللذين اتسع التعامل بهما فى زنجبار وتوابعها فى شرق افريقيا ، استحدث سعيد عملة نحاسية خاصة بعد أن استورد نحو خمسة آلاف قطعة من النحاس من الهند وسكها باسمه ، وحدثت اجراءات سعيد رواج اقتصاديا كبيرا ، يدلنا على هذا ما ذكره القنصل البريطانى فى زنجبار فى عام ١٨٧٣ من أن ما لا يقل عن ٦٠٠.٠٠٠ دولار كان يستثمر فى زنجبار وساحل شرق افريقيا . وقد بلغت ارباح سعيد من التجارة نحو مائة ألف دولار سنويا ومن مزارعه الخاصة نحو ٥٠ ألف دولار سنويا ، هذا فضلا عن الضرائب التى كان يجنيها من تصدير الرقيق من زنجبار وتوابعها ، وموائد

(12) Coupland, R, op. cit., p. 303.

(13) Hollings worth, L. W., op cit., p. 24.

الجمارك التى كانت ترد اليه من ضروب النشاط التجارى المشروعة الأخرى (١٤) .

الهنود والنمو التجارى العربى :

وارتبط نمو النشاط التجارى العربى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر ارتباطا وثيقا بالنشاط الاقتصادى المتزايد للهنود فى شرق أفريقيا خلال هذه الفترة ، وكانت سياسة الحرية التجارية التى اتبعها سلاطين زنجبار ابتداء من عهد سعيد قد استتبعته وصول الهنود بأعداد متزايدة الى المنطقة . ذلك أن سعيدا رأى أن اتباعه العرب ليست لديهم رؤوس الأموال الكافية لدفع النشاط التجارى العربى بالدرجة المطلوبة ، وكان للهنود علاقات تجارية واسعة بشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا منذ قرون طويلة . وبرزوا فى ميدان المال والتجارة واشتهروا بدورهم فى أعمال الوساطة التجارية وأقراض الأموال والتعامل بالربا ، واستقرت أعداد منهم فى مدن ساحل شرق أفريقيا . غير أن العرب فى هذه المدن نظروا بعين الكراهية الى ممارساتهم الاقتصادية بسبب شدة جشعهم ، ومن ثم انحصر التعامل معهم داخل دائرة مقتضيات الضرورة الاقتصادية والحاجة الى المال لتنظيم قوافل التجارة الى الداخل والحصول على السلع التى تحملها القوافل معها الى الداخل للمتاجرة بها ، ومع هذا فلم يكن العرب يسمحون للهنود بالاستقرار فى المدن الساحلية أكثر من فترة رياح موسمية واحدة بسبب ضيقهم بهم . غير أن علاقات سعيد ببريطانيا ودخوله معها فى ارتباطات سياسية وتجارية ابتداء من عام ١٨٣٩ ، وهو تاريخ عقد معاهدة الصداقة والتجارة معها جعل للهنود باعتبارهم رعايا بريطانيين حق الاستقرار والاقامة والتملك والشراء والبيع فى زنجبار وتوابعها ، ومن ثم زاد تغلغلهم فى الكيان الاقتصادى لشرق أفريقيا ، ورحب سعيد بدور الهنود الاقتصادى للاستفادة برؤوس أموالهم لخدمة تجارة واقتصاديات المنطقة .

واتخذ سعيد من الهنود مستشارين اقتصاديين له ، وعهد اليهم إدارة

شئون الجمارك ، وتولى أحد الهندوس وهو جيرام سويجى Jariam Sewiji

شئون الادارة الجمركية مقابل مبلغ سنوى محدد ، يزداد دوريا مع زيادة حجم التبادل التجارى مع املاك سلطان زنجبار . وكان هذا المبلغ يصل الى ١٧٠ ألف دولار فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وازداد تدريجيا حتى وصل الى نحو نصف مليون دولار فى عام ١٨٨١ ، وكانت الحمارك تنحصر ادارتها داخل دائرة الهنود من الهندوس دون الهنود المسلمين ، كما كان منصب رئيس ادارة الحمارك يورث احيانا كما حدث حين تولى ابن جرايام سويجى امر هذه الادارة بعد وفاة والده . وكانت من اهم مزايا هذه السياسة التى اتبعها سعيد تجاه الهنود أنه ضمن موردا ثابتا يمول به قوافله التجارية الى الداخل .

وحين زاد عدد القوافل التجارية المتجهة نحو الداخل للحصول على منتجات الداخل حل التجار الهنود محل العرب فى تمويل هذه القوافل ، واستوردوا البضائع من الهند والوكلاء الاوربيين والامريكيين الذين كانت تاتى سفنهم الى موانئ شرق افريقيا ، وقدموها لتجار القوافل من العرب والسواحليين مقابل تعهدهم باعادة دفع اضعاف قيمتها فى شكل رقيق أو عاج أو منتجات شرق افريقيا الأخرى عند عودتهم من رحلاتهم فى الداخل . ونظرا لأن حجم المخاطرة كان كبيرا فقد غالى الهنود فى تحصيل فوائد عالية على الاموال أو البضائع التى كانوا يقدمونها لهم ، وكان ارتفاع الفائدة عابلا منحهم قدرة على الصمود أمام التقلبات التجارية ، خاصة وأنه كانت هناك حالات كثيرة كان الهنود يفقدون اموالهم نتيجة عدم عودة القوافل التجارية العربية من الداخل بسبب تعرضها للفشل أو السرقة (١٥) ، وتذكر الكتابات المعاصرة أن بعض المدن الداخلية مثل تابورة واوجيجى كانت تمتلأ بالعرب الذين يخشون من الخروج الى الساحل بسبب مطالبات دائنيهم من الهنود ، كما تذكر أن حجم الخسارة التى تعرض لها الهنود كان كبيرا نسبيا إذ فقد احدثهم وهو فى تريكاندس بنجاني ما يزيد على نحو عشرين ألف جنيه--ه استرليني نتيجة عدم عودة القافلة التجارية العربية التى مولها من الداخل (١٦) .

(15) R. M. Van Zwanenberg and Anne King, An Economic History of Kenya and Uganda (1800-1970), London, 1977, pp. 164-169.

(16) Beachey, R. W., The Ivory Trade in the 19th Century, J. A. H., vol. 8, 1967, p. 277.

وجنى الهنود أرباحا كبيرة من العمل بالوساطة التجارية وتمويل القوافل رغم ما كانوا يتعرضون له من خسائر ، والغريب أن الهنود مارسوا دورا مزدوجا لزيادة تمتعهم بالامتيازات الاقتصادية ، فبينما كانوا يعتبرون رعايا بريطانيين يتمتعون بالجنسية الانجليزية ، فانهم كانوا احيانا يدعون حسبما تقتضى المصلحة بأنهم من رعايا سلطان زنجبار حتى يحق لهم قانونا ممارسة تجارة الرقيق دون الوقوع تحت طائلة الحظورات الموضوعة على الأجانب والخاصة بممارسة هذه التجارة (١٧) . ونتيجة هذه الممارسات الاقتصادية ترك بعض الهنود ثروات واسعة ، اذ ثبت أن جيرام سويجي صاحب الجمارك قد خلف عند وفاته ثروة تقدر بنحو ثلاثة ملايين جنيه (١٨) . وزاد من ثرائهم أنهم لجأوا الى أساليب ملتوية لجمع الاموال اذ اثبتت الوثائق البريطانية تورطهم فى ممارسة تجارة الرقيق وتهريبه خارج زنجبار (١٩) ، كما حصلوا عوائد ورسوم جبركية كبيرة على كثير من ألوان النشاط التجارى لم يدرجوها فى سجلات الجمارك الرسمية الخاصة بزنجبار . وحصل كبار التجار العرب والسواحليين من الهنود على القروض مثل تيبو تيب Tippo Tip ، « محمد بن حميد المرجبى » الذى قدم له التاجر الهندى تاريا توبان Taria Topan قرضا قيمته سبعة آلاف دولار لتمويل قافلة لتجارة العاج الى الداخل ، كما حصل روماليزا Romaliza « محمد بن خلفان » على قرض مماثل لنفس الغرض (٢٠) ، ويبدو أن ثراء الهنود ونفوذهم كان واسعا الى درجة أن السلطان سعيد نفسه قد أخذ منهم قرضا فى عام ١٨٥٦ قيمته ٥٠ ألف دولار لأغراض تجارية وعسكرية قبيل وفاته .

وكون الهنود طبقة طفيلية اثرت نتيجة قيامهم أيضا بأعمال السمسرة ، اذ كان بعضهم وكلاء لبعض البيوت التجارية فى بومباي ، كما كان ليعضهم وكالات فرعية فى عدن ومسقط ، كما كانوا شركاء فى بعض فروع الشركات

(17) F. O 84/1307, Erd 1142, Report of Captain Malcolm of H. M. S. Briton, August 17, 1873.

(18) Hollingsworth, L. W., op. cit., p. 21.

(19) Nicholas. C. S. The Swahili Coast, New York, 1971, pp. 203-204.

(20) Iliff, John, A Modern History of Tanganyika, London, c977, p. 46.

الأوربية فى زنجبار ، وكثرت أعدادهم فى مدن الساحل الشرقى ، اذ وصلت هذه الاعداد الى نحو عشر آلاف فى زنجبار وحدها فى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وهو عدد كان يفوق عدد العرب انفسهم فى هذه المدينة والذين لم يتجاوز عددهم الستة آلاف (٢١) .

وكان للهندو مستوطنة تجارية فى مينجاني Minegani تحقق دخلا سنويا قدره ١٠٠ ألف دولار (٢٢) ، وأسسوا مستوطنة أخرى لهم فى سلطنة انجوتشى Angoche على ساحل موزمبيق كان بها ثلاثة وثلاثون مركزا تجاريا هنديا (٢٣) ، وكان الهندو يتولون ادارة جمارك مدغشقر على النحو الذى يتمتعون به فى زنجبار . وتعامل الهندو فى تجارة الأقمشة والأسلحة والخرز والصمغ والمخاط والعاج والرقيق ، كما تولوا سك العملة فى مدغشقر (٢٤) . وكان لأثرياء الهندو من التجار مخازن خاصة يودعون بها بضائعهم وأماكن خاصة يخفون فيها الرقيق الذى يجمعونه ، وكان لهم حاميات صغيرة مسلحة لحراسة متاجرهم ، ونظرا لأن حيازتهم للرقيق وتجارتهم فيه كانت غير مشروع فقد أصدر سعيد قرارا فى يوليو ١٨٥٠ باحتراق مستودعات الرقيق الخاصة بهم (٢٥) .

واستولى الهندو على عدد كبير من مزارع العرب فى الساحل وناء لديونهم . وقد أشار القنصل البريطانى فى زنجبار بلاينير Playfair الى أن الهندو يحصلون على غالبية مزايا التجارة الخارجية بين شرق أفريقيا

(21) G. E. Brooks, *New England Merchants in Africa, A History Through Documents, 1820-1856*, Boston, 1965, pp. 375 and 476 and Mingat, J. S., *A History of the Asians in East Africa*, Oxford, 1969, p. 7.

(22) C. 5315, Acting Consul General Holmwood, Zanzibar, to Salisbury, March 31, 1877, in further correspondence relating to Zanzibar, Africa, No. 1, London, 1888.

(23) M. D. P. Newitt, *Angoche, The Slave Trade and Portuguese 1844-1910*, J. A. H., vol. 13, No. 4, 1972, p. 668.

(24) C. F. M, Memo by sir Bartle Frere on the Banyans or Nativs of India, March 31, 1873.

(25) Nicholas, C. S. op. cit., p. 204.

والعالم الخارجى نتيجة نشاطهم الاقتصادى المتنوع ، الى درجة انه ذكر ان العرب وهم الذين يضطلعون بعبء التجارة الأساسى فى داخل شرق أفريقيا لا يتمتعون بأكثر من — من عوائدها لأنهم يدفعون معظم هذه العوائد

كقوائد للقروض التى يحصلون عليها من الهنود (٢٦) . ورغم الآثار السلبية التى ترتبت على تغفل الهنود فى تجارة شرق أفريقيا فإن الأموال التى تدموها للعرب كانت ضرورية لمواجهة زيادة نشاطهم التجارى فى الفترة موضوع الدراسة ، وخاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وآثار جشع الهنود السلطان برغش وحاول طردهم من زنجبار لولا تدخل القنصل البريطانى لصالحهم (٢٧) .

طرق التجارة العربية فى شرق أفريقيا :

واضطلع العرب بمهمة التوغل فى الداخل ، بينما ظل نشاط الهنود منحصرا فى الساحل لجهلهم بالداخل وخوفهم من عداء القبائل أو تعرضهم لأعمال السلب والنهب ، ومع أن العرب كانوا قد اعتادوا الولوج الى الداخل قبل القرن التاسع عشر ، غير أن الاعدد لى ولجت كانت قليلة ، كما كان تعدد القوافل العربية صغيرا وحجم تجارتها ضئيلا ، وتركز الولوج فى الداخل على المناطق القريبة من المنطقة الساحلية ، وخاصة منطقة الظاهر الداخلى لزنجبار التى كانت لخصوبتها العالية وصلاحية مناخها منطقة عابرة الكثافة السكانية ، واعتاد العرب أن يحصلوا على الرقيق والعاج منها ، ومع القرن التاسع عشر وازدياد الطلب على موارد الداخل ، لم يعد فى إمكان العرب والسواحليين الحصول على احتياجاتهم التجارية من هذه المناطق القريبة من الساحل . وتطلب الأمر الولوج الى الداخل لمسافات بعيدة وتجهيز قوافل تجارية أكبر حجما وأكثر تمويلا وتسلحا لمواجهة أخطار المناطق الداخلية ، وادى التوسع التجارى الى نشأة ثلاثة طرق رئيسية لتجارة القوافل العربية المتجهة من ساحل شرق أفريقيا نحو الداخل هى :

(26) Playfair. C., Memo on the Trade prospects of Zantibar, 3rd oct, 1864.

(27) Hollingsworth, L. W. op. cit., pp. 24-25.

١ — الطريق الشمالى الممتد من مومباسا ومالندى الى هضبة البحيرات الافريقية ، وكان يسيطر عليه قبائل الأكابا والميجكندا Mijikenda قبل أن يسيطر عليه العرب ابتداء من الاربعينات من القرن التاسع عشر ، وكان ارتياد هذا الطريق محفوفًا بالمخاطر بسبب تعرض القوافل التى ترناده لهجمات قبائل الماساى المحاربة .

٢ — الطريق الأوسط ويبدأ من الموانئ المواجهة لزنجر بار مثل تانجا وبنجاني وبوجمايو ويتجه الى مدن وسط تنزانيا الحالية مثل أروشا Arusha وموشي Moshi وتابورا Tabora ، ومن هذه المدينة الأخيرة يتفرع الطريق الى فرعين فرع شمالى الى هضبة البحيرات الاستوائية ، وفرع جنوبى غربى الى أوجيجى وحوض الكنفو ، وقد زاد حجم التجارة على طول هذا الطريق ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر بسبب ارتفاع أسعار العاج العالمية ، ودخل العرب والسواحيليون فى علاقات ودية مع قبائل الانياميوزى والسمبوا Simbwa ، التى تسكن هذه المنطقة من أجل تسهيل مهامهم التجارية (٢٨) . وكان هذا الطريق أهم الطرق التجارية التى ارتادها العرب لخبرة العرب الطويلة به ، ولأنه كان أكثر أمنا الى جانب عوائده التجارية العالية .

٣ — الطريق الجنوبى من كلوة Kilwa عبر جنوب تنزانيا الحالية وشمال موزمبيق الى بحيرة نياسا . ولم يكن العرب يسيطرون عليه الى حد كبير لأن جزءا منه كان يقع تحت الادارة البرتغالية ، ومع ذلك كانت قبائل الياو Yao تجلب الرقيق والعاج ومنتجات الداخل الأخرى وتبيعها لبحار القوافل العربية (٢٩) .

وبجانب هذه الطرق الثلاثة كان يوجد طريقان آخران فى أقصى شمال شرق القارة : الأول ويتجه من موانئ البحر الأحمر الى الهضبة الحبشية

(28) Zwanenberg and Anne King, op. cit., pp. 168-169. and Roberts, Andrew, Nyamwezi Trade, in Richard Cray and David Birmingham (eds), pre - Colonial African Trade, London, 1970, p. 48.

(29) Iliffe, John, op. cit., pp. 40-41.

والثانى ويتجه من مقديشيو ولامو الى داخل اقليم الصومال حيث ترجسد أسواق لوح التى زاعت شهرتها فى التجارة فى الرقيق غير أن معلوماتنا عن هذين الطريقين ضئيلة والكتابات عنها نادرة (٣٠) .

وجابهت القوافل العربية التجارية مصاعب كثيرة تمثلت فى الحاجة الى امدادات الغذاء والى الحمالين من الافريقيين . واضطر أفراد القوافل الى زراعة الأرض للزعماء الافريقيين للحصول على امدادات الغذاء . وأمدهم العرب بالسلاح والأقمشة مقابل ذلك . ولم تكن للقوافل العربية رغم كبر حجمها والتي كان يصل تعدادها أحيانا الى ألفى شخص لا طاقة بمواجهه قبائل الداخل ، ومن ثم اضطروا الى مهادنتهم ودفع رسوم مرور عبر أراضيهم ، وتعرض كثير من أفراد القوافل للمرض ، وسقط منهم الكثير فريسة به ، وخاصة بسبب مرض الكوليرا الذى انتشر عبر طرق القوافل فى عامى ١٨٥٩ و ١٨٧٠ ، وراح ضحيته كثير من رجال القوافل بالإضافة الى ندو ١٦٠٠ من سكان مدينة بوجامبا (٣١) . وكانت الحروب القبلية الداخلة وارتفاع تكاليف نقل التجارة بين الساحل والداخل ونشاط بعض الافريقيين فى أعمال اللصوصية وقطع الطرق فى الداخل من أهم أسباب فشل كثير من قوافل التجارة العربية وافلاسها . ونظرا لانعدام الأمن على طرق القوافل كانت القوافل التجارية تحرص على الخروج معا ، كما أصبحت تتزود بكميات أكبر من السلاح ، وكثيرا ما لجأت القوافل الى مصادقة زعماء القبائل الافريقية الكبيرة طلبا للحماية (٣٢) .

ويلاحظ أن القوافل التجارية كانت زعاماتها عربية أو سواحيلية ولكنها كانت تتألف من الأفريقيين أساسا ، وكان العرب الذين يخرجون فى صحرة القوافل غالبا من ذوى الامكانيات المادية المحدودة الذين كانوا يتطلعون الى الثراء من خلال التجارة ، أما أثريا العرب فكانوا يؤمدون فى قوافلهم بعض أتباعهم العرب أو السواحيليين ، بينما ظلوا هم بالساحل ، هذا باستثناء بعض

(30) Ingham, K. A History of East Africa, London, 1967, p. 60.

(31) Beverly Brown and Walter, T. Brown, East African Trade Towns; A shared Growth ,in W. Arens (ed), A Century of change in East Africa, Paris, 1973, p. 190.

(32) Ibid p. 191.

حالات قليلة نجح فيها بعض العرب فى تأسيس مراكز تجارية لهم فى الداخل، ومن ثم اهتموا بإدارة القوافل التجارية بين الساحل والداخل بأنفسهم ، كما وصل الى الداخل عدد من وكلاء سلطان زنجبار من أجل التجارة .

وبجانب طرق القوافل التجارية الداخلية وجدت طرق للتجارة العربية الخارجية ، وكانت هذه الأخيرة تتألف من ثلاثة طرق رئيسية :

الطريق الأول ويتجه من ساحل شرق أفريقيا جنوبا الى سواحل القارة الجنوبية ثم الى الشمال الغربى عبر المحيط الاطلسى الى البرازيل أو الولايات المتحدة .

الطريق الثانى وكان يربط مدغشقر بجزر الكومور وشمال أفريقيا بأسواق الرقيق والعاج فى البحر الأحمر وبلاد فارس .

الطريق الثالث وكان يتجه من زنجبار أو مدن الساحل الشرقى الافريقى أو مباشرة الى شبه جزيرة العرب وغرب الهند(٣٣) .

العرب وتجارة الرقيق فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر :

وتتحدث معظم المصادر الأوربية عن قدم هذه التجارة فى شرق أفريقيا ، وعن الارتباط الوثيق بينها وبين طبيعة اقتصاديات المناطق التى يصدر اليها الرقيق كإقتصاديات شبه جزيرة العرب أو بلاد فارس أو الهند ، هذا فضلا عن الحاجة الى الرقيق فى مدن الساحل الشرقى الافريقى وزنجبار لأغراض الحراسة أو الخدمة المنزلية أو الرعى ، وتذكر هذه المصادر أن الرقيق المصدر الى الخارج كان يستخدم فى الصيد أو الفوص على اللؤلؤ أو الجندي(٣٤) ودأبت كتابات الأوربيين على الحديث عن الدمار والتخريب واحراق القرى الناجم من عمليات صيد الرقيق داخل شرق القارة الافريقية ، وعن آلاف الجثث التى وجدت ملقاة فى الطرق ، وعن عمليات جر الرقيق الذى يتم صيده وربطه بالسلاسل أثناء الرحلة من الداخل الى الساحل، وعن وفاة الاعداد الكبيرة من الرقيق أثناء الرحلة نتيجة الانهك وقلة الغذاء

(33) Gwyn Campell, op. cit., p. 204.

(34) Joseph, E, Harris , The African presence in Asia, London, 1977, p. 3-25.

والاعتداء بالسياسات وتربط هذه الكتابات هذه الفظائع بأعمال العرب في صيد الرقيق ، وبالفقت الكتابات الأوروبية في هذا الصدد الى الحد الذى جعل برتون Burton المستكشف البريطانى يكتب انه لكى يحصل العرب على خمسين امرأة من الرقيق فانهم كانوا يقومون بالاغارة بالسلاح على عشرة قرى افريقية ، ويقتل فى كل قرية نحو مائتى افريقى — ويذكر انه كان يباع فى زنجبار نحو ٢٠ — ٣٠ ألف من الرقيق كل عام (٢٥) ، وللحصول على هذا العدد كان الداخل يتعرض كل عام لنزيف بشرى يفوق كل خيال . ويذكر القنصل البريطانى رجبى ان احد العرب قد ابلغه عند عودته من بحيرة نياسا انه مر اثناء رحلته الى الداخل بعدة قرى خربة وشاهد على الطبيعة مئات الاكواخ المهدمة والأسواق المنهوبة ، وان منطقة بأكملها استغرق اختراقه لها مدة سبعة عشر يوما كانت مجرد أطلال وبقايا مراكز كانت من قبل عامرة بسكانها ، كما يذكر ان الهنود فى كلوة قد ابلغوه ان مناطق تقع على بعد مسيرة عشر أو اثني عشر يوما من هذه المدينة قد خربت من سكانها بسبب صيد الرقيق ، وان هذا لم يؤد الى نضوب معين تجارة الرقيق فى الداخل ، وانما ادى الى امتداد حدود الصيد تجاه الغرب شمالا وجنوبا (٢٦) ولا شك أن مثل هذه الكتابات تحفل بالمبالغات الكثيرة ، ومن ثم فانه يجب على المؤرخ مراجعتها وتمحيصها موضوعيا .

وداب المؤرخون البريطانيون على ترديد القول بأن انتهاك هذه التجارة للمبادئ الانسانية قد أدت ببريطانيا اعتبارا من أوائل القرن التاسع عشر الى العمل على تحريم الاتجار فى الرقيق ، والغاء الرق ، والواقع ان بريطانيا سعت الى الغاء هذه التجارة بعد أن فقدت مستعمراتها فى أمريكا الشمالية وقلت حاجتها الى الرقيق ، وبدأت تتخلى عن مبدأ حماية التجارة وتطبق مبدأ حرية التجارة المشروعة .

ورغم محاولات الغاء تجارة الرقيق فانها قد استمرت فى شرق أفريقيا نتيجة عوامل عديدة منها التوسع الزراعى فى زنجبار ومدن الساحل الشرقى

(35) Wills, A. J., op. cit., p. 77.

(36) Coupland, R, The Exploitation of East Africa, London, 1939. p. 140 Quoting the Report of the select committee of 1871 on Slave Trade in East Africa.

الافريقي خاصة فى مجال زراعة القرنفل وجوز الهند والمطاط والحبوب ، وحاجة المزارع المتزايدة لليد العاملة من الرقيق خاصة وأن محصولا كالقرنفل كان يجرى حصاده مرتين فى العام ، كما كان جوز الهند يحصد أربع مرات سنويا وزاد من الحاجة الى العمالة أن قسوة ظروف العمل فى المزارع الساحلية كانت تدفع الرقيق المحلى الى الهرب ، كما كانت نسبة الوفيات العالية والتي كانت تصل أحيانا حسب بعض التقديرات الى ٢٢٪ من قوة العمالة فى المزارع تؤدي الى نقص العمالة وتستدعى وصول أعداد جديدة منها من الداخل ، وكانت القروض التي يقدمها الهنود لأصحاب المزارع العربية لتسيير قوافل تجارية من أجل الحصول على الرقيق والعاج تسهل لهم ذلك (٢٧) . وكانت هناك عوامل خارجية تؤدي الى جلب الرقيق والعاج وتسهل استمرار الطلب عليه فى أسواقه التقليدية فى جنوب شرق آسيا وشبه جزيرة العرب ، بالإضافة الى الحاجة الى الرقيق لمزارع قصب السكر فى جزر ريونيون وموريشيس ومدغشقر ، وما سبب تحريم الرقيق من تهريب أعداد كبيرة من الرقيق اليها أو شحنه علانية من شرق أفريقيا تحت ستار الاستيراد الحر للعمالة . هذا فضلا عن الارتباط الوثيق بين زيادة الطلب العالمى على عاج شرق أفريقيا وما اقترن به من ضرورة زيادة الحصول على الرقيق من الداخل لحمله الى الساحل (٢٨) .

ولا يتوفر لنا احصاء دقيق لحجم المصدر من شرق أفريقيا خلال القرن التاسع عشر ، لأن معظم ما يذكره المؤرخون من أرقام لا ينهض على أسس موضوعية ، هذا فضلا عن تباينها بدرجة كبيرة ، كما أن أرقام الجمارك فى زنجبار أو مدغشقر عارية عن الصحة لأن الهنود حرصوا على تهريب الرقيق لحسابهم الخاص دون دفع ضرائب عليه ، ومن ثم فانه بينما يقدر باور Baur حجم الرقيق المصدر من شرق القارة بنحو ثلاثة ملايين أثناء القرن التاسع عشر فان بيتش Beachey يذكر أن ما يزيد على خمسة ملايين من الرقيق قد صدر من هذه المنطقة خلال هذا القرن المذكور (٢٩) وقد تعرضت

(37) C. P. Righby, Report on the Zanzibar Dominions, 1872, p. 8.

(38) Zwanenberg, and Anne King, op. cit., p. 178.

(39) Beachey, R. W., the African Diaspora and East Africa, An Inaugural Lecture delivered at Makerere University, Kampala, Uganda, July 31, 1967, p. 14.

ثلاثة رسائل جامعية متخصصة حديثة (٤٠) لدراسة ظاهرة تصدير الرقيق ، وأشارت كلها الى أن ما يذكر من أرقام مبنى على التخمين أو على أقوال المبشرين أو المستكشفين الأوروبيين ، وأن البرتغاليين أسهموا بنصيب ملحوظ فى تصدير الرقيق عبر أراضى مستعمرتهم موزمبيق ، وخاصة الى أمريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبي . وقد قدر المسؤول البريطانى مورسبى Morsbey حجم الرقيق المصدر عن طريق موزمبيق بأثنى عشر ألف سنويا (٤١) . غير أن جزءا من هذا الرقيق المصدر كان يشحن الى الخارج عن طريق سلطنة انجوتشى Angochi العربية التى كانت تقع على ساحل موزمبيق (٤٢) .

وتعددت أسواق الرقيق ، وكان سوق زنجبار هو السوق الرئيسى وكان يليه فى الأهمية سوقا كلوة وبنجاني ، كما وجدت أسواق صغيرة للرقيق فى مومباسا ومالندى ولامو ومقديشو ولم يكن كل الرقيق المصدر الى الخارج يمر بزنجبار ، وإنما كان الرقيق يتجه أحيانا مباشرة الى منافذ التصدير الخارجية ، وحين اشتدت عمليات التفتيش عن الرقيق ونشطت الدوريات البريطانية الساحلية ، حرصت السفن العربية التى كانت تحمل الرقيق على تجنب زنجبار والاتجاه شرقا بعيدا عنها رافعة اعلاما أجنبية فرنسية أو فارسية ، كما كان الرقيق يشحن فى قوارب صغيرة لا تتسع أكثر من عشرة

(٤٠) الرسائل الجامعية الثلاث المشار إليها هي :

(A) Abdul Sheriff, The Rise of A Commercial Empire, An Aspect of the Economic History of Zanzibar, 1770-1873, London University. PH. D. Thesis, 1971.

(B) Fred Cooper, Plantation Slavery on the East Coast of Africa in the 19th Century, Yale University, 1974, PH.D. Thesis.

(C) Fred James Berg, Mombasa under Busaidi Sultasate, The City and Its Hinterland in the 19th Century, PH.D. Thesis, Wisconsin University, 1971.

(41) Nicholas, C. S. op. cit., p. 199.

(٤٢) للاطلاع على تفاصيل تصدير الرقيق عبر سلطنة الانجوتشى ،

انظر :

M. D. P. Newitt, Angoche and the Slave Trade in J. A. H., vol. 13, No. 4, 1972. pp. 659-672.

أشخاص ، ويقدم أصحابها العرب اقرارات بأن ما عليها بحارة ، وأنهم خرجوا للصيد أو الغوص . وكان الرقيق يجمع من أسواق الصومال الداخلية التى كان من أشهرها سوق لوح Lugh للرقيق ، كما كانت تأتى شحنات من الرقيق من قلب الهضبة الحبشية ، وتتجه هذه الشحنات عبر البحر الأحمر شرقا الى شبه جزيرة العرب أو غربا الى وادى النيل ، وقد تتجه شحنات أخرى الى جيبوتى . وكان العرب يتعاملون مع الاحباش فى شراء الرقيق ثم يجرى تصريفه بمعرفتهم واشتهرت شبه جزيرة العرب بالرقيق الاسود الذى يعمل فى خدمة المنازل وبالحسناوات الحبشيات اللاتى اتخذهن العرب كمحظيات . وكانت السفن العربية تأتى من شبه الجزيرة العربية حاملة اثمور أو أسماك القرش حيث تقوم ببيعها ثم تشتري بها رقيقا أو سلاحا من سواحل البحر الأحمر الغربى وخاصة جيبوتى ثم تعود السفن ادراجها ، ويقدر بانكهرست أن نحو ٢٥ ألف من الرقيق كان يصدر سنويا من الهضبة الحبشية وحدها حتى عام ١٨٥٦ (٤٣) . وكان استخدام بعض السفن للاعلام الأجنبية يتم بناء على اتفاق بين السلطات الأجنبية والعربية تبادلا للمصالح .

وانقسمت تجارة الرقيق الى قسمين قسم محلى ويشمل الاتجار فى الرقيق بين أصحاب القوافل العربية أو السواحلية وبين سكان المسدن الساحلية واصحاب المزارع العرب ، كما يشمل تبادل الرقيق الذى تجمه القوافل مع قبائل افريقية أخرى فى حاجة اليه مثل قبائل الكامبا أو الكيكويو لزراعة اراضيها ، وقسم خارجى وهو يشمل الرقيق الذى يصدر الى الخارج والذى كان يشحن الى مسقط وجزر المحيط الهندى وفارس واصفهان وبغداد والبصرة والبحرين والهند بالاضافة الى أسواق أخرى . وقد ورد فى المراجع ذكر نوع آخر من تجارة الرقيق مورس فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهو مبادلة رقيق شرق افريقيا بالهندوس فى الهند (٤٤) ، ولا يتوفر لدينا تفاصيل عن هذه المبادلة أو دوافعها ، غير أنه من المعروف أن العرب كانوا يستخدمون الهنود فى أعمال الزراعة والرعى فى شرق افريقيا قبل السيطرة الأوروبية .

(43) UNESCO (ed). The African Slave Trade, op. cit., p. 198.

(44) Ibid. P. 191.

وكان العرب والسواحيليون لا يحصلون على الرقيق دائما من خلال شن الغارات على الافريقيين وصيد الأسرى لأن عدد العرب كان ثلثا في الداخل ، كما كان حجم القوافل لا يكفي للاغارة على القبائل القوية ، ومن ثم فإن الاغارة من أجل صيد الرقيق كانت لا تتم الا على القبائل الضعيفة ، كما كانت حالات الاغارة نادرة من جانب العرب لأنهم كانوا يفضلون استخدام ما لديهم من سلاح في صيد الفيلة لارتفاع أسعار العاج مقارنة بأسعار الرقيق ، هذا فضلا عن تهافت الافريقيين على السلاح واستعدادهم لدفع أثمان باهظة للحصول عليه . ومن ثم فإنهم كانوا يقومون بصيد اخوانهم من الافريقيين من أفراد القبائل الأخرى وبيعهم للعرب .

ووصلت قوافل جميع الرقيق غربا الى البحيرات الاستوائية وبحيرتي نياسا وتنجانيقا وحوض الكنفو ، ووصل العرب الى مملكة البوجندا منذ أوائل القرن التاسع عشر . واقاموا بينهم ، وأرسل سلطان زنجبار ممثلا له في المملكة في عام ١٨٦٩ ، ولم يكن الباجنده يعرفون اقتناء الرقيق ، ولكنهم حصلوا عليه بصيده من القبائل المجاورة وأمدوه العرب به (٤٥) ، ولم تكن أراضي البوجندا أو البنبور أو كراجوى مجالا لصيد الرقيق لقوة ملوكها ، وإنما مورست عمليات الصيد خارجها (٤٦) .

وتشير الأرقام المتوفرة عن حجم الرقيق الذي يصل الى الساحل للتصدير رغم عدم دقتها وعدم امكانية الوثوق بها الى أن عمليات جيع الرقيق من الداخل على يد العرب قد زادت تدريجيا مع تقدم القرن التاسع عشر ، وذلك رغم محاولات التقييد والمنع لهذه التجارة ، ففي الفترة ما بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ تقدر احدى المصادر متوسط ما يصل من رقيق الى زنجبار من الداخل سنويا بنحو ٣٠٠٠ — ٣٥٠٠ ، كما تشير الى أن هذا قد زاد الى نحو ٦٥٠٠ في عام ١٨٣٤ وإلى نحو ١٣ ألف سنويا في الأربعينيات وإلى نحو ١٧ — ٢٢ ألف سنويا منذ الستينات من القرن التاسع عشر (٤٧) . وتتواكب هذه الزيادة مع

(45) Ogot and Kieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 229-230.

(46) H. B. Thomas, Arabic Correspondence Captured in South-West Bunyire in 1895, With a Note on Arab Tradlds in Bunyoro, Uganda Journal, March, 1949, p. 32.

(47) Zwanenberg and Anne King, op. cit., pp. 178-179.

زيادة النهضة الزراعية فى مدن الساحل واشتداد الطلب الخارجى عليه . وكانت كلوة تستقبل رقيقها من بحيرة نياسا أو من جنوب تنزانيا ، وكانت أكبر سوق مصدر للرقيق بعد زنجبار ، وقد وصل حجم ما كان يصل إليها من رقيق من الداخل الى نحو عشر آلاف سنويا حسب تقدير كراب Krapf فى الخمسينات من القرن التاسع عشر (٤٨) وارتفع هذا الرقم الى ما يتراوح بين ١٨ — ٢٢ ألف سنويا منذ الستينات من القرن المذكور (٤٩) وكان حكامها العرب يتعاملون مع تجار الرقيق الفرنسيين الذين كانوا يشترون الرقيق ويحملونه على سفنهم الخاصة الى جزر ريونيون والكمور ، وتفيد سجلات جمارك كلوة أن جزءا كبيرا من رقيقها المصدر كان يصرف عن طريق زنجبار (٥٠) . غير أن تجارة كلوة فى الرقيق قد انخفضت بعد عام ١٩٧٦ بعد صدور مراسيم تحديد الاتجار فى الرقيق ، ورفض الهنود تمويل قوافل تجارة الرقيق العربية ، واستعاضت كلوة عن نقص عوائد هذه التجارة من خلال التركيز على زراعة المحاصيل الغذائية والنقدية (٥١) .

ونتيجة زيادة وفود الرقيق من الداخل كانت مدينة زنجبار تحوى نحو ١٥٠ ألف نسمة فى الستينات من القرن التاسع عشر كان من بينهم أكثر من ستين ألف من الرقيق (٥٢) ، كما زاد تعداد سكان المدينة الى نحو ٣٠٠ ألف نسمة فى الثمانينات ، وكان من بينهم ٢٠٠ ألف من الرقيق (٥٣) كما كان بمدينة مالندى عشر آلاف من الرقيق يمتلكهم العرب والسواحيليون ويعملون فى مزارع الحبوب .

واختلفت أسعار الرأس من الرقيق حسب السن والنوع ودرجة الوسامة والجمال ، كما تباين السعر من منطقة الى أخرى وفقا لبعدها أو قربها من الساحل . وتعوزنا الدقة فى تقديرات الأسعار اذ يذكر مورسنى

(48) Edward, A., *Ivory and the Slave Trade in East central Africa*, London, 1975. p. 237.

(49) Burton, R., *Zanzibar Island and Coast*, London (1872, vol. 2. p. 347.

(50) Edward, A., *Alpers*, op. cit., p. 238.

(51) F. O. 84/1574. Kirk th Salisbury March 6, 1880.

(52) Iliffe, John, op. cit., p. 42.

(53) UNESCO (ed). *The African Slave Trade*, op. cit., p. 173

أن سعر الرأس من الرقيق كان يصل فى عام ١٨٠٢ الى ٤٠ دولار ماريا تريزا، هذا فى الوقت الذى تذكر فيه مصادر أخرى أن هذا السعر قد وصل فقط الى ١١ دولارا فى عام ١٨٠٤ ، ولا يعتقد أن السعر قد هبط الى هذا الحد فى ظرف عامين . وتشير بعض الكتابات الى أن الضريبة التى كانت تحصل على الرأس من الرقيق كانت تصل الى ثمانية دولارات فى أوائل القرن المذكور ، غير أنه ابتداء من الثلاثينات بدأت الضريبة على الرقيق المصدر تنخفض فأصبحت تتراوح بين أربعة دولارات ونصف دولار حسب منطقة التصدير وحجم المخاطرة واحتمالات مصادره من جانب سفن التفتيش البريطانية . وكان تجار الرقيق يفضلون الى شراء الرقيق من النساء أو الأطفال دون الذكور البالغين وكان يمكن أن تباع المرأة الممتلئة الجميلة بأكثر من ٣٥ دولار . وكان الصبية يتراوح سعرهم بين ٧ — ١٥ دولار حسب امكانية الاستفادة منهم(٥٤) . وكان يتم تبادل الرقيق بالأقمشة ، ويقال ان ثمن الرأس الواحد من الرقيق كان يعادل ثمن ثلاث قطع من القماش لدى الباو ، وتذكر روايات أخرى أن ثمن الرأس الواحد من ذكور الرقيق البالغين لدى قبائل أخرى كان يعادل ثمن بندقية واحدة وخمس قطع من القماش ، بينما كانت الانثى تباع ببندقيتين وعشرة قطع من القماش(٥٥) . ويبدو أن اسعار الرقيق كانت منخفضة للغاية فى الداخل حتى أن آكلى لحوم البشر كان يجدون اللحوم الآدمية أرخص له كثيرا من شراء الماعز أو الماشية(٥٦) . ورغم اختلاف أسعار الرقيق فإنه يلاحظ أن هذه الاسعار قد انخفضت مع زيادة امدادات الرقيق من الداخل وبعد أن أصبح العاج الأسود وسبلة لجمع أو صيد العاج الأبيض ، كما أدت عمليات حظر تجارة الرقيق الى مزيد من خفض الاسعار لحرص نجار الرقيق على التخلص من الرقيق الذى يجلبونه قبل مصادره .

وكان الرقيق سلعة تباع مقابل الحصول على الغذاء فى الداخل كما كان لدى النسنجا Nsenga أو النيكيا Nyika أو مقابل الحصول على

(54) Nicholas, C. S. op. cit., pp. 203-204.

(55) Edward, A, Alpers, op. cit., p. 242, & Burton, R, ZanZibar. op. cit., vol. 2. p. 419.

(56) Edward, A, Alpers, Ibid pp. 240-243.

البضائع الأجنبية كما كان لدى الياو Yao ، كما كان العرب يحصلون عليه من بعض الزعماء بطريق الهدايا أو مقابل الاعتذار عن أضرار أصابت قوافلهم من جراء الحروب الأهلية الداخلية أو الهجمات القبلية عليهم(٥٧) كما كانت تفعل قبائل الشيو (Chewa) .

وكان الرقيق يعتبر سلعة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد ، لأن جزءا كبيرا من الرقيق الذى يتم جمعه بطريق الشراء أو الصيد كان يقع فريسة المرض كالدوسنتاريا أو الجدرى أو الحمى — كما كان عناء الرحلة وسوء الغذاء وقسوة المناخ يزيد من عامل الفقد ، هذا فضلا عما كان يحدث أحيانا من هروب بعض الرقيق من القوافل التجارية ، ومن ثم كان سعر الرقيق فى الداخل منخفضا للغاية ، وكان يجرى الشراء بطريق المقايضة غالبا ، وكلما تقدمت القوافل نحو الساحل ارتفع سعر الرقيق ، ففى أوجيجى على سبيل المثال كان يباع الرأس الواحد من الرقيق بما يعادل سبعة دولارات وفى زنجبار يرتفع سعره الى عدة أضعاف(٥٨) . ومع شحن الرقيق الى خارج شرق افريقيا كان تهلك نسبة منه ، ورغم سلبيات هذه التجارة فمن ربحيتها كانت عالية بسبب ارتباط كثير من الهياكل الاقتصادية فى شرق أفريقيا وخارجها بنظام الرق .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان الرقيق يشحن علانية من الموانئ الكبيرة على ساحل شرق أفريقيا ، غير أنه بعد أن شددت حملات مصادرات الرقيق وحظر الاتجار فيه لجأت التجارة الى الموانئ الصغيرة ومصببات الأنهار غير المعروفة مثل ميناء الانجوتشى Angoche التى كان لسكانها العرب أقارب فى جزر الكومور ومدغشقر وزنجبار . ولم يتوغل عرب الانجوتشى فى الداخل بحثا عن الرقيق أو العاج لأن قسائل الياو والماكو Makwa كانت تجلب اليهم الرقيق من الداخل ، ومع ذلك استطاعوا نشر نفوذهم الى أعماق قليلة فى الداخل ونشر الاسلام(٥٩) ، وكان الرقيق المصدر من الانجوتشى ينقل الى الموانئ المجاورة لموزمبيق مثل سائكولو وجويتا نجونها Quitangonha حيث كان يصدر الى موانئ

(57) Isaacman Collection, October 1968, p. 39.

(58) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., p. 189.

(59) M. D. P. Newitt., op. cit., p- 66.

البرازيل . وحين زار فردريك التون Elton قنصل بريطانيا في موزبيق انجوتشى في عام ١٨٧٥ اكتشف ممارسة سلاطينها لتجارة الرقيق ، وأنهم كانوا يتقاضون روية واحدة على كل رأس من الرقيق يصدر (٦٠) . كما كان الرقيق من انجوتشى يشحن الى جزر سيشل والمساكارين والكومور ومدغشقر (٦١) . وأحدثت هذه التجارة للسلطة ازدهارا اقتصاديا كبيرا تحدث عنه القنصل ابريطانى أونير. Oneil فى عام ١٨٨١ (٦٢) .

ونتيجة نشاط التجارة فى الرقيق فى زنجبار تشير الأرقام الرسمية الى أن حصيلة الضرائب ، التى فرضت على الرقيق المصدر منها الى زيادة هذه الحصيلة من عشرة آلاف جنيه استرلينى فى عام ١٨٢٨ ، الى نحو ضعف هذا الرقم فى عام ١٨٣٤ ثم الى نحو ٥٠ ألف جنيه فى عام ١٨٥٩ (٦٣) ، ووصل حجم هذه الضرائب الى نحو مائة ألف جنيه فى الثمانينات . وفى كلوة يذكر القنصل البريطانى كيرك Kirk أن الدخل من الضرائب على تصدير الرقيق قد وصل الى نحو ٢٠ ألف جنيه استرلينى فى عام ١٨٧١ ، وهو رقم يعادل ضعف قيمة المتحصل على الضرائب من هذه التجارة فى عام ١٨٤٥ (٦٤) . وفى عام ١٨٧٦ كان اجمالى مبيعات الرقيق تصل الى ١٢٠ ألف جنيه سنويا رغم صدور قرارات حظر الاتجار فى الرقيق ، غير أن تشديد هذا الحظر جعل حجم هذه التجارة يتقلص تدريجيا (٦٥) .

ولم تغلح عمليات حظر الاتجار فى الرقيق فى منع تهريب الرقيق حتى الى المستعمرات البريطانية نفسها ، فقد أشارت اللجنة الملكية البريطانية

(60) C. 1588. (1875) vol. LXX pp. Elton to Earl Derby, Mozambique, Sept 13, 1875.

(61) Edward, A, Aipers, op. cit., p. 218.

(62) C. 3160 (1882) vol. LXXV, O Neil to Granville, Mozambique, July 19, 1881.

(63) Oliver, R & Gervase, M, Op. cit., vol. I. pp. 218-219.

(64) Great Britain, Report of the East African Trade Committee by Sir Bartle Frere, 1871. p. XII.

(65) Coupland, R, Exploitation of East Africa, pp. 225-231.

فى تحقيقاتها فى عام ١٨٢٦ — ١٨٢٨ الى ان الرقيق ظل يصدر اليها على الأقل حتى عام ١٨٢٤ او عام ١٨٢٥ ، كما اثبتت دراسة اجريت فى الارشيف المحلى لجزر ريونيون الفرنسية ان شحنات كبيرة من الرقيق وصلت اليها من شرق افريقيا قدرت بنحو ٤٥ ألف رأس فيما بين عامى ١٨١٧ و ١٨٣١ (٦٦) . ولا شك ان استمرار التجارة كان مبعثه ارباح الرقيق العالية مما دفع المسؤولين الاستعماريين الى التورط فى هذه التجارة مع التجار العرب والهنود . ولا يتوفر لدينا ارقام عن حجم صادرات الرقيق بعد هذا التاريخ بسبب سرية هذه التجارة — غير أنه من المؤكد انها استمرت غالباً تحت ستار تصدير العمالة الحرة للمشروعات الزراعية فى جزر المحيط الهندى لأن رابطة العمل الحر فى جزر موريشيس قد تأسست فى عام ١٨٤٢ من أجل توفير العمالة من الخارج ، كما عقدت السلطات الفرنسية فى ريونيون اتفاقية فى عام ١٨٤٣ مع سلطان زنجبار لمدها بالعمالة ، واشتد التنافس بين الانجليز والفرنسيين للحصول على الرقيق .

وتمثل مدغشقر نموذجاً فريداً لتصدير الرقيق واستيراده فى وقت واحد ، اذ كانت مدغشقر تصدر الرقيق حتى عام ١٨٢٠ أى قبل حظر تصدير الرقيق الى الدول المسيحية . وكان للتجار الرقيق العرب (٦٧) مركز دائم على الساحل الشرقى للجزيرة ، وكان ملك مدغشقر يفرض ضريبة على كل رأس من الرقيق المصدر تصل الى دولارين ونصف دولار أسبائى . وكانت بمدغشقر جالية هندية تمول عمليات صيد الرقيق من الداخل ، وكان متوسط ما يصدر من الجزيرة من الرقيق سنوياً يتراوح بين ستة آلاف وعشر آلاف رأس سنوياً (٦٨) ، وكان رقيق مدغشقر يصدر الى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى والامريكيتين والهند .

وبدأت مدغشقر تستورد الرقيق رسمياً من الخارج بعد عام ١٨٢٠ لمشروعاتها الزراعية التى تركزت فى وسط الجزيرة لأن التجار العرب بالتواطؤ مع الهنود وبعض أفراد البيت الحاكم بدأوا يصدرون الرقيق من

(66) UNESCO (ed) African Slave Trade. op. cit., p. 196.

(67) Gwyn Campell. op. cit., p. 205.

(68) Ibid p. 206.

أجزائها الجنوبية والغربية والشرقية ، وعملوا على تهريبه خارج الجزيرة حرصا منهم على الحصول على أرباحه الكبيرة — الأمر الذى أدى الى نقص العمالة اللازمة لمزارع الجزيرة ، ولم يستطع حكام مدغشقر الافريقيون السيطرة على عمليات التهريب ، واستمر استيراد الرقيق رغم أن السلطات البريطانية قد ضبقت فى عام ١٨٣٥ احدى وعشرين سفينة محملة بالرقيق فى موانئ مدغشقر كانت تستعد لتصديرها الى الخارج . وكان الرقيق المستورد فى مدغشقر يأتى أساسا من موزمبيق وزنجبار — وخاصة عبر موانئ ايبو ولوزا Loza وانجكوسا Angosa .

ولعب العرب فى مدغشقر دور المستورد والمصدر للرقيق حيث كانوا يشحنون الرقيق من مدغشقر الى الخارج ، ثم تعود سفنهم بعد بيع شحناتها الى موانئ مدغشقر حاملة الاقمشة او البضائع الاسيوية الأخرى ، ثم تبحر فى المحيط الهندى حيث تقف فى مقابل الساحل الموزمبيقى وتحمل بالرقيق وتعود به الى شمال غرب مدغشقر لتبيعه لأصحاب المزارع ، وكانت سفن الرقيق القادمة من الساحل الموزمبيقى ترسو فى ميناء ساكالاما أو الموانئ الأخرى الصغرى غير المرتادة على سواحل مدغشقر (١٩) . وادى هذا الدور المزدوج لتجار الرقيق العرب فى مدغشقر الى اهتمام السلطات البريطانية بدراسة طبيعة هذه التجارة فى هذا الجزء من المحيط الهندى .

وكان نجاح التجار العرب فى مدغشقر والذين أطلق عليهم لفظ « الأنتالا أوترا » (Antala Otrá) فى تصدير الرقيق واستيراده يرجع الى أنهم استخدموا القوارب العربية Dhows محل سفن الرقيق العربية القديمة المربعة الشكل وظلت السلطات البريطانية لفترة كبيرة تعتقد أن هذه القوارب لا تحمل الرقيق ، كما أن كثيرا من السفن الخاصة بالرقيق كانت ترفع الاعلام الفرنسية حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ومنذ الأربعينات استخدمت هذه السفن الاعلام الامريكية وظل استخدامهم لهذه الاعلام الى ما بعد الستينات — وعلاوة على هذا كانت الخبرة العربية بالرياح وتيارات الممر الموزمبيقى البحرية اثر كبير فى قدرتهم على الاملات من التفتش

(69) F. O. 84/515 Erd/1144, Pakenham to Granville, March 18 & June 10, 1873.

البريطانى . وكان حجم الارباح المتزايدة من تجارة الرقيق والتي كانت تفوق المائة فى المائة دافعا للعرب للتخصص فى تجارة الرقيق الساحلية فى الممر الموزمبيقى وللقيام بالرحلة عدة مرات فى نفس الفصل (٧٠) . وكان الحجم الكبير لارباح تجارة الرقيق قد دفع أفراد البيت الحاكم فى مدغشقر الى التورط فيها ، بالإضافة الى الهنود الذين عملوا على اقراض الأموال للتجار العرب لمواصلة الاتجار فى الرقيق .

وقد نشطت تجارة الرقيق عبر الممر الموزمبيقى فى السبعينيات من القرن التاسع عشر نتيجة ظروف الكساد الاقتصادى العالمى وأمراض النبات ، وتدهور أسعار المواد الخام فى الأسواق العالمية ، وحدث هزة كبيرة فى مزارع الكيول الخاصة بزراعة قصب السكر ، وضرورة الحصول على العمالة الرخيصة ، ومن ثم فتحت موانئ الجنوب الشرقى سرا فى مدغشقر أمام واردات الرقيق من الخارج ، وظلت ظاهرة استيراد الرقيق فى مدغشقر حتى عام ١٨٩٥ أى الى وقت احتلال الفرنسيين لهذه الجزيرة (٧١) .

ولنا عدة ملاحظات حول تجارة الرقيق العربية فى القرن التاسع عشر :

١ — أن القلة من العرب هى التى خرجت فى صحبة قوافل التجارة المتجهة الى الداخل ، وأن هذه القلة كانت تمثل غالبا الشريحة الدنيا من العرب فى ساحل شرق أفريقيا ، وأن العرب لم يزد عددهم على عدة مئات بالداخل بالإضافة الى ألف أو الفين من السواحليين ورغم تسليح القوافل العربية بالأسلحة النارية فإن قوة العرب فى الداخل لم تصبح قوة مؤثرة حتى بعد استقرارهم وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية والمستوطنات به ، ومن ثم كانت جهودهم فى صيد الرقيق محدودة للغاية ، وكان الافريقيون هم الذين يقومون بعبء جمع الرقيق للعرب ويقاضونهم عليه ، ومن ثم ما ان رتب من فظائع حول صيد الرقيق فى الداخل كان مبالغا فيه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان دور العرب فيه ضئيلا لأن جمع الرقيق وصيده وأسره والاغارة على القرى كان مقترنا بنشاط القبائل الافريقية القوية واعتدائها على المناطق المجاورة غالبا .

(70) C. 2720. pp. Slave Trade correspondence, 1880, Morrier to Braam Camp, August 19, 1879.

(71) Gwyn Campell, op. cit., pp. 223-227.

٢ — ان استقرار العرب بالداخل لم يكن ناجما عن السيطرة وفرض القوة على الافريقيين فى الداخل الا نادرا ، ولكنه ارتبط باستمرار علاقات الود والتعاون بين العرب والافريقيين التى ربط عامل الرغبة فى الربح وتبادل المصالح بينهم ، وقد ادت هذه المصالح المشتركة الى تخصيص بعض الزعماء الافريقيين أجنحة خاصة فى مناطقهم للتجار العرب والى تقديم المساعدات والغذاء لهم ، كما ان بناء بعض الممالك العربية فى الداخل مثل مملكة تيبو تيب وتدخل العرب احيانا فى الخلافات بين الافريقيين ارتبط عادة بضعف القابل الافريقية التى سيطروا عليها ، وصغر وحداتهم السياسية وبعدها كثيرا بنو الداخل . وأحرز العرب والسواحليون فى هذه المناطق نجاحا كبيرا مثل مولوزى Molozi وجومبى Jumbe — وبهما دماء عربية — اللذين أصبحا من أكبر تجار الرقيق فى نياسا (٧٢) .

٣ — ان العرب كانوا يحرصون قدر الامكان على عدم استخدام الاسلحة النارية فى صيد الرقيق رغبة منهم فى توفيره لصيد العاج (٧٢) وفى الدفاع عن أنفسهم لأن سعر العاج أو السلاح كان أعلى قيمة من الرقيق ، كما كان الرقيق تجارة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد فيها اذا ما قورنت بالتجاريتين المذكورتين (العاج والسلاح) .

٤ — ان جمع الرقيق من الداخل لم يحركه عامل توفير تكاليف نقل العاج الى الساحل ، لأن العاج كان يتطلب نقله خبرة كبيرة لا تتوفر للرتيق ، ولأن القوافل العربية تأتى من الساحل ومعها حمالوها المحترفون الذين يحملون مواد التجارة الأوروبية والاسيوية الى الداخل ، ولأن معظم الرقيق الذى كان يشتريه العرب من الداخل كان يتألف من الصبية والنسوة لأن حجم الطلب الخارجى عليهم كان كبيرا وكان سعرهم مرتفعا ، ولم يكن الطلب على البالغين من الذكور من الرقيق عاليا الا فى المشروعات الزراعية فى

(72) Wills, A. J., op. cit., p. 77.

(٧٣) للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول تجارتى الرقيق والعاج العربيتين ، انظر :

Norman Bennet, the Arab Power in Tanganyika in the 19th Century, PH. D. Thesis, Boston, University, 1961.

الساحل الشرقى الأمريقى أو بعض الجزر فى المحيط الهندى ، وكان نطاق هذه المزارع محدودا ، ولا تبرر الحاجة الى العمالة جمع الاعداد الكبيرة من الرقيق من الداخل .

٥ — ان ارتباط تجارة الرقيق بتجارة العاج كان من خلال الحصول على الرقيق لشراء الاراضى فى الساحل وتحويلها الى مزارع للمحاصيل النقدية كالقطن وجوز الهند ، ثم تدبير المال اللازم من التجارة فى هذه المحاصيل لجمع العاج والاتجار فيه .

٦ — ان تجارة الرقيق العربية الخارجية تواطأ فيها الهنود والاوربيون والأمريكيون والأفارقة كما حدث فى مدغشقر مع العرب ، وعلى عكس تجارة قوافل الرقيق الداخلية التى اقتصر فيها التواطؤ على الهنود من خلال دورهم كممولين وعلى الأفارقة من خلال دورهم كجامعين وصيادين للرقيق . ولم يحدث ان ولج الهنود الى الداخل الا فى حالات نادرة كما هو الحال حين دخلت قلة من الهنود وعلى رأسهم موسى مزروعى الى تابورا من اجل التجارة .

٧ — ان ارقام الرقيق وأرباح التجارة ذات سمة تقديرية لا ننهض على أسس موضوعية ، ومن ثم فان استخدامها من جانب المؤرخ جائز مع الحذر لاعطائه مؤشرات او خطوط عامة للدراسة ، ويرجع السبب فى عدم وجود ارقام حقيقية حول هذه التجارة الى سرية هذه التجارة وعدم مشروعيتها والى عدم امانة الهنود القائمين على ادارة الجمارك ، والى تورط اطراف كثيرة فيها كان يهمها اخفاء حجم نشاطها الحقيقى .

٨ — ان بعض المناطق الانريتيية خلت من صيد الرقيق لقوة ملوكها كالبنينورو أو البوجندة أو لقوة شكيمة قبائلها كالاكامبا أو الماساى .

العرب وتجارة العاج فى القرن التاسع عشر :

كانت تجارة العاج فى شرق افريقيا تجارة رائجة قديمة قدمها الرحالة الأوائل فى الأهمية على تجارة الرقيق ، ومنذ فترات التاريخ القديمة كان العرب يسيطرون على تجارة العاج التى كانت ترد من أرض الزنج ، وهو المصطلح الجغرافى الذى أطلقوه على شرق إفريقيا ، وكان عاج شرق

أفريقيا يفضل العاج الهندى لنعمته وشدة بياضه وانخفاض سعره ، ومن ثم كان يلقى رواجاً شديداً فى أسواق جنوب شرق آسيا . ومنذ العصر الوسيط كانت عمان خاصة تتولى شحنه من شرق أفريقيا وتصديره الى هذه الأسواق حسبما جاء فى روايات الرحالة العربى المسعودى فى أوائل القرن العاشر لميلادى (٧٤) . وظل العرب يسيطرون على هذه التجارة بسبب ما كان لهم من إمارات إسلامية على سواحل شرق أفريقيا حتى السيطرة البرتغالية فى أوائل القرن السادس عشر على هذه المنطقة ، وانتقلت تجارة العاج الى أيدي البرتغاليين ، غير انها لم تستمر طويلاً حركاً عليهم بعد ما تمكن العرب من استعادة نفوذهم فى الساحل الشرقى الأفريقى وانحصر الوجود البرتغالى فى سواحل موزمبيق . وفى بداية القرن التاسع عشر كان العاج المصدر من جانب عرب شرق أفريقيا يلقي رواجاً عن عاج موزمبيق لأن البرتغاليين حرصوا على رفع نسبة الرسوم الجمركية على صادراته . وانتقل مركز تجارة العاج الى شمال شرق أفريقيا ، وزاد من حجم صادرات العاج منها تهافت الأوروبيين والأمريكيين بجانب الآسيويين عليه ، بعد أن دخل العاج فى صناعات كثيرة كالتحف والتماثيل والآلات الموسيقية والحلى ، وظهرت مراكز أوروبية كثيرة تتخصص فى صناعة العاج فى ألمانيا وهولندا وبريطانيا ، وكان ازدياد تدفق رأس المال الناجم عن النمو الزراعى فى ساحل شرق أفريقيا ، وعن وفود أعداد كبيرة من الهنود والعرب الى المنطقة ، ووصول المزيد من السفن الأوروبية والآسيوية التى تحمل البضائع من الخارج من عوامل ارتفاع حجم الطلب على العاج فى شرق أفريقيا .

وكما ارتبطت تجارة العاج بتجارة الرقيق ارتبطت أيضاً باقتناء السلاح واستخدامه فى صيد الفيلة ، ولم يكن العرب دائماً صيادين للفيلة . وإنما اضطروا أحياناً الى شرائه من الأنارقة لعدم سماح الزعماء لهم بالصيد فى مناطق اعتبروها مجالاً لنفوذهم ، ولعدم قدرة العرب على مواجهتهم ، كما حدث فى مملكة البوجندة التى كان ملوكها لا يسمحون للعرب بالتوغل غرباً وكانوا يجمعون العاج لهم من المناطق المجاورة ويحققون أرباح كبيرة من جراء بيعه لهم ، ورغم أن العرب وصلوا الى البوجندة منذ وقت طويل الى مملكة البوجندة فإن أول تاجر عربى من زنجبار دخل الى البنيورو فى عام

١٨٧٧ (٧٥) بسبب سياسة الباجنده فى منع العرب من الاتصال بمصادر العاج مباشرة ، وحرصا على وصول كميات العاج المطلوبة الى الساحل . ووثق سلاطين زنجبار علاقاتهم بملوك البوجنده وأمدوهم بالأسلحة النارية أحيانا (٧٦) وعمل بعض التجار العرب كمستشارين لهم أحيانا . ولم يكن عاج البوجنده ، والمناطق التى تليها غربا يأتى الى الساحل عن الطريق الشرقى الذى سمي باسم طريق الماساى لوعورته وخطورته ، وإنما كان العاج يأتى عبر الطريق الجنوبى عن طريق الشاطيء الجنوبى لبحيرة فيكتوريا وارتداد الطريق الذى عبر شمال تنزانيا الى الساحل .

ولم يكن ضروريا للحصول على العاج التوغل الى الداخل اذ ان تجار الاكامبا Akamba الافريقيين كانوا يحضرون العاج الذى يجمعونه من الداخل ويبيعونه لعرب مومباسا ، كما كان الانيامويزى فى تنزانيا تجار عاج ورقيق قبل ان يشتد توغل العرب فى الداخل ، وكان التوغل العربى من اجل العاج مبعثه الرغبة فى الحصول على العاج بكميات أكبر وأسعار أقل خاصة بعد أن أدركت القبائل الافريقية فى الظاهر الداخلى القريب من الساحل قيمة العاج وأصبحت تطلب أسعارا أعلى ثمن له .

وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر وصل العرب والسواحليون الى منطقة بوكيربى Bukerbe وعبروا بحيرة تنجانيقا غربا من أجل العاج ، وحتى أواخر الخمسينات من القرن المذكور كان معظم العاج يأتى من داخل تنزانيا ، ويبدو أن حجم التجارة فى العاج كان ضخما لأن صيد الفيلة فى وسط وشمال تنزانيا كان يستدعى تشغيل عدد يتراوح من ٣٠ — ٤٠ ألف حمال من الانيامويزى فى فصل واحد لنقل العاج الى الساحل . وكان العاج الذى يجمعه الزعماء الافريقيون بطريق الصيد أو الهدايا يباع للعرب . وخسر العرب مواسم تكاثر الفيلة فى الداخل ، كما أدركوا العلاقة بين نصابة العاج وشدّة بياضه وخفة وزنه وبين جفاف المناطق التى يتم الصيد منها ، ومن ثم حرصوا على الصيد من مناطق الاحراش والمراعى ، ولم يلجأوا الى مناطق الغابات

(75) M B. Thomas, op. cit., p. 37.

(76) Gerald. W. Hartwig, The Victoria Nyanza as A Trade Route in the 19th Century, J. A. H., XI, 4, 1970. p. 536 & Gray, John, kirk & Mutesa, Uganda, Journal XV, 1951, pp. 1-16..

الكثيفة والمطيرة الا بعد أن قلت الفيلة فى المناطق الجافة ، لأنه ثبت لديهم أن غزارة المطر تؤدى الى خشونة العاج وثقله وتؤثر على درجة بياضه ، ولذا كان عاج مناطق البحيرات والأنهار أقل ثمنا وأشبه بالعاج الهندى .

ومنذ الستينات اتجهت قوافل صيد الفيلة تجاه الشمال الغربى بعد أن اشتدت الحاجة الى العاج وكادت تتطلب موارد فى تنزانيا ، ومن ثم بدأت هذه الفترة تشهد عمليات جمع العاج من الاتشولى Achole والانتكولى والتورو Toro . وكانت هذه المناطق الأخيرة قد وصل اليها تجار العاج من الشمال من العرب الأوروبيين عبر المديرية الاستوائية أثناء فترة حكم الخديوى اسماعيل لها ، وتحدث التقارير عن تنظيمات من قبل حاكم عام المديرية الاستوائية لتنظيم عمليات صيد الفيلة فى هذه المناطق ، وجمع العاج (٧٧) . وكانت تجارة العاج فى هذه المناطق يحتكرها ملوكها فكان لهم حق الحصول على ناب واحد من كل نابين من العاج يتم جمعهما ، كما كان لهم حق شراء الناب الآخر ، ومن ثم كان التعامل على شراء العاج يتم بين العرب وهؤلاء الملوك . وفى كراجوى كان يتم مبادلة العاج بالماشية ، ومن ثم استمدى الحصول على العاج منهم شراء العرب للماشية من قبائل أخرى وتبادلها معهم نظير العاج (٧٨) .

وحاول العرب تنسيق مصالحهم مع الافريقيين من أجل تسهيل مهامهم التجارية ، وفى الخمسينات وافق رئيس الانيامويزى امفوندكيرا (Ifundakira) على عدم تحصيل رسوم مرور على العاج الذى يحملونه عبر اراضيه مقابل موافقتهم على عدم المتاجرة مع المشنجات الافريقية المعادية لقبيلته ، ومن أجل العاج أسس بعض العرب بعض المراكز الدائمة لهم فى تابورا أو أوجيجى ، وكدسوا فيها السلاح والفضاء لمساعدة قوافل التجارة العربية المتجهة الى الداخل غربا . وأعلن بعض رؤساء هذه المراكز العربية ولاءهم لسلطان زنجبار على نحو ما فعل الزعيم العربى موينى خيرى Mwini Kheri رئيس مركز أوجيجى التجارى العربى ، ورفع علم

(77) Iliffe, John, op. cit. p. 49 & Beachey, Ivory Trade.
op. cit. pp. 280-281.

(78) M. B. Thomas, op. cit., pp. 38-39.

السلطنة على اراضيها في أوائل الثمانيات من القرن التاسع عشر (٧٩) . وتركزت مراكز تجارة العاج في الداخل في تابورا وحول شواطئ بحيرة تنجانيقا وإلى الغرب منها في اوجيجي وكاسينجي ونيانجوي وكيثانجولي وكافرو kafuro ، كما كانت هناك مراكز لهذه التجارة في غند كرو في أعالي النيل ، وكان تجار مدينة الخرطوم يقرضون الأموال للمغامرين من التجار العرب بفوائد مائة في المائة ، كما وصلت في عهد محمد علي حملات لصيد الفيلة من المصريين إلى البنيور وأعالي النيل ، ويذكر بعض المؤرخين أن هذه الحملات أدعت أنها حملات استكشافية تؤيدها الحكومة المصرية لكشف منابع النيل .

وكان عاج البنيورو يصرف عبر غند كرو ، لأن البنيورو لم يكن لها منفذ إلى الخارج إلا عن طريق البوجندة ، وكانت على علاقات عدائية معها ، وكان لدى البنيورو مخزون كبير من العاج لأن الجزية كانت تدفع لها عاجا من جانب التورو . واستغل حكام المديرية الاستوائية هذا الوضع لصالحهم ، وقد ذكر أن بيكر حاكم عام المديرية الاستوائية قد حصل على أرباح تعادل ٢٠٠٪ من تجارة العاج مع البنيورو (٨٠) . واستمر هذا الوضع إلى عام ١٨٧٧ حتى وصول التجار العرب من الجنوب . وعوق من تجارة العاج بين البنيورو وأعالي النيل الثورة المهدية التي اندلعت في السودان . واتخذ التجار العرب لهم مقرا دائما في بلاط كابريجا Kabrega ملك البنيورو . غير أن تجارة العاج في البنيورو لم تزدهر طويلا بسبب حروب كابريجا مع البوجندة ، وظلت إمكانات تجارة العاج كبيرة في هذه المملكة دون أن تستغل حتى بداية العهد الاستعماري .

وكان سلطان زنجبار يحتكر جزءا كبيرا من تجارة العاج ، وكان يرسل قوافل التجارة من قبله لجمعه — ويذكر أن تجارة العاج بين بنجاني وزنجبار كانت حكرًا له ، ومع هذا فقد أسهم عرب الساحل في هذه التجارة من أصحاب المزارع وحصلوا من الهنود على قروض لتمويل حملات جمع العاج بضمائم مزارعهم وأراضيهم بفوائد عالية كان يعاد دفع أضعافها في شكل عاج

(79) Ogot & Kieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 226-227.

(80) Beachey, R. W, Ivory Trade. y. 282.

يباع لهم بنصف ثمنه الحقيقي . ورغم أن جزءا كبيرا من هامش ربح هذه التجارة كان يؤول الى الهنود ، فان العائد منها كان مجزيا نسبيا للعرب . ووجدت في زنجبار ومدن الساحل الشرقي الافريقي فروع لعدد من الشركات الأجنبية من أهمها شركات هانسنج Hansing اوزوالد Oswald ومابر Meyer وروفراسنت Rouxfrasnnet ، ولم تكن هذه الشركات تتاجر في العاج فقط وانما شمل نشاطها مختلف مواد التجارة المشروعة الأخرى ، وكان الهنود يبيعون لها العاج الذي يحصلون عليه من قوافل التجارة العربية(٨١) .

وكانت تكاليف نقل العاج مرتفعة اذ كان متوسط نقل الطن الواحد من أوجيجي الى الساحل يبلغ نحو ٥٠ جنيها ، وكان الحمالون يحملون العاج على رؤوسهم ، وكان متوسط ما يحمله الحمال الواحد يتراوح بين ٥٠-٧٠ رطلا . وقبل نقل العاج يجرى تصنيفه ، وكانت عملية التصنيف فنا هاما لأن سعر العاج الخشن يختلف اختلافا كبيرا عن سعر العاج الناعم الذي كان أعلى سعرا لأنه كان يسهل ثنيه وتشكيله وقولبته .

وكان يتم مبادلة العاج بالخرز ، وبالرقاقات الحسنات أحيانا أخرى أو بالأقمشة والأقطان الأمريكية والأوروبية أو بالسلاح الأوروبي القتيق والبارود أو الحرير الهندي أو الممانى . وكانت قطعة واحدة من السلاح تباع نظير ٧٥ رطلا من العاج أحيانا . وكانت المساومة على العاج تتم بين العرب والافريقيين في أسواق الداخل ، وكانت عمليات المساومة طويلة ومتعبة لأنه قد يكون الناب الواحد من سن الفيل ملكا لعدد كبير من الافريقيين ، ومن ثم يجب انفاقهم جميعا واقناعهم بالسعر المعروض . كما تشمل عملية البيع محصا لحالة الناب أو الفك لأنه قد يكون قد أصابه التآكل نتيجة استخدام الفيل له بدرجة أكبر من بقية الأسنان ، وبالتالي يؤثر هذا على سعره .

ومع أن العاج سلعة يقل فيها نسبة الفاقد ، فان القافلة قد تتعرض للنهب أو السلب أو الهجوم من جانب القبائل ، هذا فضلا عن تكاليف الانفاق

على الغذاء والتجهيز والتسليح والنقل الذى يصحب اية قافلة متجهة الى الداخل . وتسجل الكتابات المعاصرة حالات كثيرة هرب فيها الحمالون بما معهم من عاج أو سلاح أو بضائع أخرى ، كما تسجل حالات عديدة من الفشل وضياع الأموال ترتب عليها ضياع المزارع أو الممتلكات العربية المرمونة للدائنين الهنود ، أو استقرار العديد من العرب فى الداخل خشية مطالبات الدائنين ، وقد أشار ايوان سميث قنصل بريطانيا فى زنجبار فى مكاتباته الى سولسبورى رئيس الوزراء الى هذه المسألة (٨٢) .

ولا تتوفر لدينا تفاصيل عن مستويات الأسعار بالنسبة للعاج ، غير أنه يبدو أن السعر كان اجتهاديا ، كما كان يختلف من منطقة الى أخرى ، وكلما بعد مصدر العاج كلما انخفض سعره ، والواضح أن العاج كان يباع بوزنه ونوعيته ، وكانت الفارسيلا (Frassilah) تمثل وحدة الوزن القياسية للعاج (٨٣) ، وكانت هذه تعادل نحو ستة وثلاثين رطلا ، وان كان بعض المؤرخين يرون أنها كانت تتراوح بين ٣٤ — ٤٥ رطلا . ويذكر أن أسعار العاج كانت تختلف بنسبة تتراوح بين ٥٠ — ١٠٠ ٪ بين أوجيجى وتابورا ، كما كان السعر يختلف بنفس هذه النسبة تقريبا بين تابورا وزنجبار (٨٤) .

ويقدر المؤرخون أن كمية العاج التى كانت تشتري بنحو ألفى دولار فى الداخل كانت تباع فى الساحل بنحو سبعة آلاف دولار . وقد ذكر برتون Burton أن التجار العرب فى الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا قد ابلغوه بأنهم يحصلون على نحو مائة فاسيلا من العاج بنحو ألف دولار ، وكانوا يبيعونها بسعر يتراوح بين ٤٥٠ — ٥٦٠ دولار فى زنجبار (٨٥) ، وكان رطل العاج يباع فى شرق الكنفو بسعر منخفض للغاية يتراوح بين نصف سنت وسنت ونصف ، وذلك حسبما ذكره المستكشف البريطانى ستانلى Stanley

وكان العاج أعلى قيمة من أنثا الرقيق لدى قبائل الياو Yao ، ويبدو

(82) F O. 603/310 Euan Smith to Salisbury, Feb 24, 1890.

(83) Zwanenberg & Anne King, op. cit., p. 172.

(84) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., p. 189.

(85) Arens, W, (ed) A Century of Change, Paris, 1973, pp.

أنهم كانوا يبيعون العاج حسب حجمه لا حسب وزنه اذ ذكر أن ناب الفيل المتوسط كان يباع بنحو ٣٠ — ٣٦ ياردة من القماش أو بسعر يعادل سعر نحو ٧ — ١٥ رأسا من الرقيق (٨٦) . وكان الياو يفضلون التعامل مع العرب لأنهم كانوا يدفعون لهم أسعارا أعلى مما يدفعه الهنود في كلوة ، اذ كان الهنود يحصلون منهم على فك من العاج يصل وزنه الى ١٤٠ رطلا مقابل لفة صغيرة من سلك النحاس أو عقد من الخرز (٨٧) .

وذكر برتون أنه قابل عددا من التجار العرب المهتمين بالعاج ، فأشار على سبيل المثال الى محمد بن صاحب في أوجيجي الذي أبلغه في عام ١٨٥٨ أنه استقر في هذه المدينة منذ عام ١٨٤٣ (٨٨) ، كما ورد في الكتابات المعاصرة ذكر تيبو تيب Tipu Tip . ولم يرد ذكر تجار من الهنود باستثناء الناجر الهندي الذي سبقت الإشارة اليه وهو موسى مزروعي الذي أشار برتون الى أنه قابله وهو في طريقه من تابورا الى الساحل وهو يحمل نحو ٢٨٠ ألف رطل من العاج (٨٩) .

وكانت أسعار العاج في زنجبار ومدن الساحل أكثر ثباتا من الاسعار في الداخل ، غير أن التجار العرب كانوا عادة لا يتعاملون مباشرة مع الشركات الأوروبية أو الآسيوية التي تسعى لشراء العاج ، لأن ما بيدهم من كميات من العاج كانت ضئيلة ، كما كانت ارتباطاتهم بدائنيهم تجبرهم على التعامل مع الهنود ، ومن ثم لعب الهنود دور تاجري التجزئة والجملة في آن واحد ، فكانوا يجمعون كميات العاج التي تصل مع القوافل العربية الى الساحل ، ثم يبيعونها جملة للوكلاء التجاريين الأجانب . واختلفت أسعار الشراء والبيع اختلافا كبيرا ، ولما كان الهنود حريصين على اخفاء حجم أرباحهم فإن ما تسجله ادارة الجمارك من أرقام لمبيعات العاج الى الخارج لا تشير الى الحقيقة ، كما أن السعر المعلن لتصدير العاج من جانب لا يمكن الوثوق به ، ولا تتوفر في أيدينا الا أرقام وردت في تقارير القناصل أو المستكشفين ،

(86) Edward, A. Alpers, op. cit., p. 246.

(87) Bennet & Brooks, New England Merchants, op. cit., pp. 262-263.

(88) Beachey R. W, Ivory Trade, pp. 270-271.

(89) Burton, O, Lake Regions op. cit., vol. 2, pp. 223-224.

اذ ذكر أن سعر بيع الفارسيلا من العاج قد زاد من ٢١ روبية هندية فى عام ١٨٢٥ الى نحو ستين روبية فى عام ١٨٧٥ (٩٠) ، كما ذكر أن أسعار العاج فى زنجبار قد زادت بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٩٠ من ٦٠٠ جنيه استرلينى للطن الى ٢١٠٠ جنيه للطن (٩١) ، وتشير كتابات أخرى الى أن أسعار العاج قد زادت بنحو ٤٠٪ فى فترة الحرب البروسية الفرنسية أى فى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولا تصلح هذه الأرقام المتناثرة للخروج بنتائج أو اتجاهات عن هذه التجارة ، هذا اذا استثنينا ارتفاع الأسعار الذى تجبّع عليه الكتابات لزيادة الطلب على هذه السلعة والادراك الحقيقى لقيمتها .

ولدينا بعض الأرقام عن حجم الصادرات من العاج ، فقد ذكر القنصل الأمريكى فى زنجبار أن الياو يصدرن نحو ثلاثة آلاف فارسيل من العاج سنويا (٩٢) ، وفى عام ١٨٥٦ ذكر القنصل الفرنسى فى زنجبار أن صادرات العاج الى العالم الغربى وصلت الى ٢٤٢٩٧٥ رطل حصل الأمريكيون على نحو ٧٥٪ منها ، وفى عام ١٨٥٩ قدر القنصل البريطانى فى زنجبار حجم الصادرات الكلية للعاج بنحو ٤٨٨٦٠٠ رطل قيمتها ١٤٦٦٦٦ جنيهه استرلينى حصل منها الغرب على نحو ٢٤٣٦٠٠ رطل ، وشحن الباقي الى الهند وفارس (٩٣) ، وفى عام ١٨٦٧ وصلت صادرات العاج الى ٦٦٣٥٠٠ دولار وقفزت هذه الصادرات فى عام ١٨٧٩ الى ١٦٠ ألف جنيهه استرلينى (٩٤) . وصدرت منطقة أعالي النيل والتورو نحو ٤٤٠ ألف رطل فى عام ١٨٥٨ ، غير أن هذه الصادرات قد هبطت فى السبعينات والثمانينات الى نحو ٣٦٧ ألف رطل (٩٥) ، ثم انتطعت صادرات العاج من هذه المنطقة بسبب ثورة المهدي وظلت زنجبار تصدر نحو ٧٥٪ من العاج فى العالم حسب الأرقام التى وردت فى عام ١٨٩١ .

(90) Zwanenberg & Anne King, op. cit., p. 165.

(91) Norman Bennet, Studies in East African History, New York, 1963, p. 89.

(92) Bennet & Brooks, op. cit., pp. 347-348.

(93) Coupland, R, East Africa & Its Invaders, p. 316.

(94) Oliver, R & Gervase, M, op. cit., vol. I. pp. 236-241

(95) Beachey, R. W. Ivory Trade, p. 287.

ولنا ملاحظات حول تجارة العاج العربية فى القرن التاسع عشر :

١ — أن دور العرب فى تجارة العاج اقتصر على جمعه من الداخل بصيده أو شرائه من القبائل وبيعه للهنود ، دون أن يكون لهم يد فى تسويقه أو تصديره مباشرة الى خارج شرق أفريقيا الا من خلال وسطائهم .

٢ — أن عائد تجارة العاج العربية كان مرتفعا نسبيا عن عائد تجارة الرقيق ولكن عنصر المجازفة فيها كان عاليا وكان هذا سببا أحيانا فى فقدانهم أراضيهم ومزارعهم بالساحل لصالح الهنود .

٣ — أن تجارة العاج العربية قد أصبحت الدعامة الأساسية لاقتصاديات ساحل شرق أفريقيا بعد حظر تجارة الرقيق وتقلصها تدريجيا ، وكانت أرباح هذه التجارة سببا فى نمو القطاع الزراعى فى الساحل .

٤ — أن هذه التجارة التى كانت إحدى أسباب التكاليف الأوروبية على الداخل قد أحدثت تدميرا كبيرا لقطاع كبير من الفيلة ، الأمر الذى اضطر الإدارات الاستعمارية فيما بعد الى وضع ضوابط لتنظيم صيد الفيلة ، وبيع العاج ، كما أدت تجارة العاج فى الداخل الى زيادة تداول وانتشار الأسلحة النارية فى الداخل ، مما أحدث آثارا سلبية كثيرة على مجتمعاته الأفريقية .

٥ — أن الظهور التفرانى عانى أكثر من غيره من الآثار السلبية لتجارة العاج ، بسبب قتل معظم ثروته الحيوانية من الفيلة ، وكانت المناطق الأكثر بعدا نحو الغرب أقل تأثرا ، وبقيت ممالك البحيرات وخاصة البنيورو تحتفظ بجزء كبير من عاجها لتأخر وصول التجار العرب إليها .

٦ — أن الحصول على صورة دقيقة لحجم هذه التجارة وأسعارها أمر يتعذر على المؤرخ تحقيقه بسبب اختلاف مستويات الأسعار فى الداخل والساحل ، وانعدام وسائل التسجيل ، وتعدد الأطراف الداخلة فى هذه التجارة من عرب وأفارقة وهنود وشركات أوروبية ، هذا فضلا عن أن نشاط توافل جمع العاج والمتاجرة فيه كانت نتيجة مبادرات ومجازفات فردية لا تدعمها قوة تنظيمية حكومية من قبل سلطات الساحل .

العرب والوان النشاط التجارى الأخرى فى شرق افريقيا فى القرن التاسع عشر :

ومع القوافل التجارية حمل العرب الأسلحة النارية الى الداخل ، ولم يكن ذلك من أجل الدفاع عن النفس أو صيد الفيلة أو الرقيق ، وإنما كان حمل العرب لكميات كبيرة من السلاح بهدف المتاجرة به بسبب أسعاره المرتفعة وتهافت الافريقين عليه بسبب ما له من قوة رادعة ، وكان ما حمله العرب من سلاح من النوع العتيق القليل الفاعلية لأنهم حرصوا على ألا تكون فى حوزة الافريقين اسلحة فتاكة قد يشهرونها فى وجههم ، هذا فضلا عن أن جل ما وصل من سلاح نارى الى شرق القارة الافريقية فى القرن التاسع عشر كان من النوع المنخفض النوعية الغير صالح للاستخدام أحيانا ، وابت به السفن الأوروبية تخلصا منه ولبيعه لمجتمعات الداخل المتخلفة (٩٦) .

وكان العرب من تجار القوافل يعملون كحلقة اتصال بين سلطان زنجبار وبين الداخل فى بيع الأسلحة ، وكانت زنجبار تشحن الى الداخل نحو خمسة آلاف بندقية سنويا فى الاربعينات من القرن التاسع عشر ، وبعد أربعين عاما كانت تشحن نحو مائة ألف بندقية الى الداخل ، وكانت الأسلحة النارية لكثرتها فى الداخل يستخدمها ما لا يقل عن نصف سكان تنزانيا فى عام ١٨٩٠ (٩٧) .

وقد وجدت مخازن كبيرة لبيع الأسلحة النارية فى الداخل فى مراكز التجارة العربية ، وجدت مستوطنة عربية فى كيتانجولى Kitangole على الحدود الغربية لأوغندا تقوم باحتكار تجارة البارود فى الداخل (٩٨) ومستودعات للسلاح لدى التجار السواحيليين مثل روماليزا وجومبى فى منطقة بحيرة نياسا ، وعثر لدى تيبو تيب على كميات كبيرة من السلاح فى حديقة منزله فى زنجبار كان ينوى شحنها الى الداخل ، ويذكر كراب krapf أنه شامد احدى قوافل التجارة العربية تحمل نحو ألف قطعة من السلاح ،

(٩٦) محيى الدين محمد مصيلحى ، تجارة الأسلحة النارية فى شرق افريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والاثار المترتبة عليها — نشرة البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٨٦ ، ص ٤ — ٥ .

(97) Iliffe, John, op. cit., p. 50.

(98) F. O. 6261/50 Lugard to IBEA, April 4, 1891.

ووجد ستانلى كميات كبيرة أخرى فى يد التجار العرب فى الكنفو ، وكان هؤلاء التجار يتاجرون فى البارود ومن أشهر هؤلاء بواناساى Bowanasay ابن تيبو تيب .

وكانت أرباح السلاح تفوق بدرجة كبيرة أرباح العاج أو الرقيق لأن قطعة السلاح الواحدة كانت تباع فى الداخل بثلاثة أو أربعة أضعاف ثمنها فى الساحل ، فكان سعر البندقية الواحدة يصل الى خمسين دولارا أو ما يعادل سبع اناث من الجمال فى أعقاب حركة الملا محمد عبد الله حسن فى الصومال (٩٩) ، كما كان سعر البندقية يصل الى نحو ١٥٠ دولارا فى مناطق أخرى كالبونجدة لأن سعر البندقية كان يعادل ٧٥ رطلا من العاج ، وكان الرطل من العاج يباع هناك بدولارين ، واختلفت أسعار البارود أيضا فى الساحل عنه فى الداخل فكان سعر الرطل من البارود يصل الى أربع روبيات فى الداخل مقابل ست روبيات لكل ثلاثين رطلا فى الساحل (١٠٠) . وقد سلحت بعض الممالك الإفريقية بالسلاح كالبونجدة والبنوورو ، وكان جيش البونجدة يمتلك نحو ٨٠٠ بندقية على عهد موتيسا Mutesa (١٠١) .

وبسبب ارتفاع أسعار السلاح تعددت مراكز استيراده فى شرق أفريقيا . ومن أهم هذه المراكز زنجبار وجيبوتى ومدغشقر وقسمايو ودار السلام ، وكانت هذه المراكز على اتصال بمراكز تصدير السلاح خارج شرق أفريقيا فى عدن ومسقط والمكلا وشحر وغيرها ، وكان الاتجار بالسلاح نشاطا تجاريا مشروعا ، ولم تتجه الدول الأوروبية الى حظره الا فى أواخر الثمانينات نظرا لعلاقته الوثيقة بصيد الرقيق فى الداخل .

وعمل العرب فى تصدير القرنفل والمطاط وجوز الهند والحبوب وخاصة السهم كما صدروا الصمغ والاصداق . واستوردوا الارز والاقطان

(99) F. O. 7946/5 Memo by Singor Pansa, Jan 7, 1902.

(100) Beachey, R. W. The Arms Trade in the late 19th Century, J. A. H., vol. 3, No. 3, 1962, pp. 460-461.

(101) Hill, G. B. Colonel Gordon in Central Africa, London 1889. p. 186.

الأمريكية والهندية والبريطانية والخرز . وساعد على ارتفاع صادرات القرنفل من زنجبار وتوابعها انتشار زراعته على طول ساحل زنجبار وبمبا، واهتمام السلطان سعيد بزراعته اذ كان يمتلك وحده نحو ٤٥ مزرعة ، كما كان العرب يمتلكون عدة مزارع أخرى واسعة يعمل بكل منها عدد يتراوح بين ٢٠٠ — ٣٠٠ رأس من الرقيق ، وكان سعيد يحقق من تجارة القرنفل دخلا سنويا لا يقل عن خمسين ألف دولار ، وكما كان السلطان برغش يحقق نصف هذا الدخل من مزارعه الخاصة . وكانت صادرات القرنفل تلقى رواجاً شديداً في الهند وشبه الجزيرة العربية وفي أمريكا وأوروبا . وارتفعت صادرات القرنفل الى العالم الغربى من ١١٠٢٠٠ رطل في عام ١٨٤٠ الى ٨٤٠٠ ألف رطل في عام ١٨٥٩ (١٠٢) ، قيمتها ٦٦٦٠٥٥ جنيه استرليني . ووصلت قيمة الصادرات الكلية للقرنفل في عام ١٨٦٧ الى ٣٢١ ألف دولار وارتفعت الى ١٧٠ ألف جنيه استرليني في عام ١٨٧٩ (١٠٣) .

ونمت صادرات المطاط في شرق أفريقيا بسبب ازدياد الانتاج وصلاحيّة المنطقة لزراعة أشجاره ، وقد تصدر المطاط لأول مرة قائمة الصادرات في زنجبار في عام ١٨٧٩ حيث حققت صادراته نحو ٢٥٠ ألف جنيه استرليني في عام ١٨٧٩ ، وقد لوحظ أن فترة منتصف السبعينات بدأت تشهد قلة أهمية الصادرات التقليدية لمنطقة شرق أفريقيا وارتفاع قيمة الصادرات الزراعية الجديدة خاصة بعد أن قلت قيمة صادرات العاج عن قيمة صادرات القرنفل بنحو عشرة آلاف جنيه استرليني وبنحو تسعين ألف جنيه استرليني عن قيمة صادرات المطاط في هذا العام المذكور ، ويفسر هذه الظاهرة حسن استخدام عوائد النشاط التجارى العربى التقليدى في شرق أفريقيا لصالح النشاط الزراعى .

وارتفعت صادرات الحبوب في شرق أفريقيا بعد أن تحولت مدن لامو ومالندى ومومباسا الى صومعة غلال لشرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية . وقد قدر نحو ثلاثين سفينة كانت تترك مالندى سنويا محملة بالحبوب الى حضرموت ، وكانت السفن التى تحمل السمسم يتراوح عددها سنويا ما بين

(102) UNESCO, (ed), The African Slave trade, op. cit., p. 178.

(103) Oliver, R & Gervase, M (eds), op. cit., p. 241.

١٥ — ٢٠ سفينة ، كما كانت قيمة صادرات الحبوب يقدر متوسطها نحو ١٥٠ ألف دولار (١٠٤) . وارتفعت صادرات السمسم من نحو ٢٠٨٠٠ جنيه استرليني في عام ١٨٥٩ الى ١٠٠ ألف دولار في عام ١٨٦٧ ، ووصلت جملة صادرات الصمغ والاصداف الى نحو مائتي ألف دولار في هذا العام المذكور (١٠٥) .

واستوردت زنجبار وتوابعها في شرق افريقيا اقطانا امريكية قيمتها ٩٣٧٤٤ جنيه ، واطقانا هندية قيمتها ٥٣٧٧٧ جنيه ، واطقانا بريطانية قيمتها ٣٧٧١١ جنيه وأرزا قيمته ٣٨٤٤٤ جنيه وخرزا قيمته ٢١٨٧٩ جنيه في عام ١٨٥٩ (١٠٦) وساعد على نمو التجارة في زنجبار وتوابعها افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ والتي اختصرت المسافة بين شرق أفريقيا وأوروبا بنحو ألفي ميل ، وزادت طاقة سفن الشحن البريطانية المتجهة من زنجبار الى أوروبا بنحو سبعة أضعاف فيما بين ١٨٧١ و ١٨٧٩ ، كما زادت حمولة السفن الامريكية التي تستخدم موانئ زنجبار من ١٨٨٧٧ طن الى ٢٧٦٢٦ طن فيما بين ١٨٥٩ و ١٨٧٧ ، وزادت حصيله الجمارك في زنجبار من عشرة آلاف جنيه استرليني في عام ١٨٢٨ الى ٥٠ ألف جنيه استرليني في عام ١٨٥٩ والى ٦٥ ألف جنيه استرليني في عام ١٨٦٩ والى ١٠٠ ألف جنيه في عام ١٨٧٦ .

وعمل العرب بتجارة الملح الذي كان من أهم مواد التجارة في الداخل ، وكان اقبال الافريقيين عليه كبيرا ، وجلبه العرب من بعض مناطق البحيرات الاستوائية بحيرة البرت وادوارد وكيثوي Kitwi ، كما جلبوه من وادي الروها Ruha في شرق الكنفو وأوجوجو Ugogo في وسط تنزانيا ، وكان العرب يتبادلون مع الافريقيين الملح بالعاج ، وحققوا أرباحا كبيرة من تجارته ، كما تاجر العرب في الأدوات الحديدية البسيطة كالقؤوس والنحاس

(104) Kimambo & Ajema, A History of Tanzania, London, 1969, p. 51. & UNESCO The African Slave. op. cit., pp. 178-179.

(105) Coupland, R, Exploitation. p. 77.

(106) C. E. B. Russet, General Rigby, Zanzibar & The Slave Trade, London, 1936, Appendix.

الذى حملوه من كاتنجا بالكنغو الى قبائل الانيامويزى التى كانت تحوله الى
حلى وسلاسل . ومن مواد التجارة الأخرى التى اهتم العرب بها فى الداخل
جلود الحيوانات وأسنان التماسيح وقرون الخرتيت وخشب الابنوس .
وكانت أرباح السلع التجارية التى يحملونها معهم من الساحل تصل الى ثلاثة
اضعاف اذ كانت كمية الحرير والاقطان التى تشتري فى الساحل بخمسة
آلاف دولار تباع بنحو خمسة عشرة ألف دولارا (١٠٧) .

وكانت موانئ ساحل البنادر لا تخضع للسيطرة السياسية لزنجبار ،
وكانت بعض مدنه مثل مراكا ومقديشيو تشهد نهضة صناعية عربية كبيرة ،
وكانت المدينتان تتخصصان فى غزل القطن ونسجه ، وكانتا تصدّران
انتاجهما الى زنجبار ومصر ومنطقة ساحل البحر الأحمر ، وكان معدل ما تصدره
مدينة مقديشيو سنويا يصل الى نحو ٣٠٠ ألف قطعة من المنسوجات ، وكانت
المدينتان تستوردان احتياجاتهما من العمالة من جزيرة باتا ، وهى احتياجات
كانت تقدر بنحو ستة آلاف من الرقيق (١٠٨) .

ويوضح الجدول التالى قيمة صادرات وواردات زنجبار فيما بين عامى
١٨٥٦ — ١٨٨٦ (١٠٩) (بالجنيه الاسترلى) .

(107) Bevrley Brown & Walter Brown, op. cit., pp. 189-190.

(108) Oliver, R. & Gervase Mathew (ed) op. cit., vol. I p. 255.

(109) Robert G. Gregory India & East Africa 1890-1939, pp.
41 & 43.

الميزان التجارى لرنجبار مع عدد من دول العالم
فى الفترة ما بين ١٨٥٦ — ١٨٨٧

البلد	المصادر		السواريات	
	١٨٥٦ — ١٨٥٧	١٨٨٦ — ١٨٨٧	١٨٥٦ — ١٨٥٧	١٨٨٦ — ١٨٨٧
الهند	١٠٣٨٨٨	٣٠٩٠٠٠	٩٩٦٠٦	٤١٢٠٠٠
كوتشى	٦٩٦٤٤	غير متوفر	٥٧٨٧٢	غير متوفر
ساحل شرق افريقيا	٢٧٤٢٠٠	غير متوفر	٣٦٣٦٦٦	غير متوفر
ساحل غرب افريقيا	٥١١١١	غير متوفر	—	غير متوفر
مدغشقر	١٦٤١١	غير متوفر	١٩٧٧٧	غير متوفر
شبه جزيرة العرب	٢٣٣٧٧	غير متوفر	١٧٦٠٦	غير متوفر
بريطانيا العظمى	٥٥٦٦	١٦٤٨٠٠	—	غير متوفر
فرنسا	٥٥٠٠٠	٥١٥٠٠	١١٤٧٩٠	٣٠٩٠٠٠
هايتى	٢٥٧٧٧	٨٢٤٠٠	١٠١٢٩٦	٦١٨٠٠
الولايات المتحدة	١١٨٦٨٨	٩٢٧٠٠	١٢٦٣٨٩	١١٣٢٠٠
سنغافورة	—	—	٧٨٩٥	١٤٤٢٠٠
الجملة	٧٥٣٦٦٢	٧٠٠٤٠٠	٩٠٨٨٩٧	١٠٣٠٠٠

ويوضح الجدول السابق :

١ — أن حجم التبادل التجارى بين الهند وزنجبار قد زاد زيادة كبيرة إذ ارتفعت قيمة الصادرات بنحو ثلاثة أضعاف من ١٠٣٨٨٨ فى عام ٥٦/٥٧ الى ٣٠٩ ألف جنيه فى عام ١٨٨٧/٨٦ وزادت الواردات بأكثر من أربعة أضعاف من ٩٩٦٠٦ الى ٤١٢ ألف جنيه فى الفترة المذكورة .

٢ — أن التبادل التجارى بين بريطانيا وزنجبار كان ضئيلا للغاية فى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر واقتصر على صادرات قليلة القيمة فقط بينما انتقلت الواردات البريطانية من زنجبار ، ورغم هذا فإن التبادل التجارى بين البلدين فى أواخر الثمانينات من القرن المذكور احتل المركز الثانى فى تجارة زنجبار الخارجية من حيث الصادرات والواردات .

٣ — أن التجارة بين فرنسا وزنجبار قل حجمها من حيث الصادرات والواردات فى الفترة المذكورة ، بينما قلت الصادرات الى الولايات المتحدة وزادت الواردات زيادة طفيفة وحقت التجارة بين زنجبار والمانيا تقريبا ملحوظا من حيث تجارة الصادر ، وزيادة طفيفة من حيث تجارة الوارد .

ويعكس ارتفاع التبادل التجارى بين الهند وزنجبار زيادة التطفل الهندى فى زنجبار ونمو دور الهنود فى عالم المال والتجارة فيها ، كما يرجع نمو التبادل التجارى بين زنجبار وبريطانيا الى زيادة السيطرة البريطانية على سلاطين زنجبار ، وهى زيادة أدت الى تقلص دور الفرنسيين فى المنطقة سياسيا واقتصاديا ، وانعكست السيطرة السياسية الى جانب قصر الطريق بين شرق أفريقيا وبريطانيا بعد افتتاح قناة السويس على المجال التجارى حتى أصبح التبادل بين الجانبين يمثل المكانة الثانية فى العلاقات التجارية بين زنجبار والعالم الخارجى .

ويلاحظ من الأرقام المتوفرة أن اقتصاديات زنجبار وشرق أفريقيا بدأت تخرج عن الاعتماد على سلعها التقليدية خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر كالعاج أو الرقيق ، وأصبحت تعتمد بدرجة متزايدة على زراعة السلع النقدية كالقرفة والمطاط والصمغ ، كما نمت علاقاتها مع التكاليف الأوروبية

على شرق أفريقيا مع العالم الغربى وخاصة مع بريطانيا ، وكانت تجارتها انعكاسا لأوضاعها السياسية خلال هذه الفترة .

الآثار العامة للنشاط التجارى العربى فى شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر:

تمخضت حركة التجارة العربية فى شرق أفريقيا عن عدد من الآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، فمن الناحية الاجتماعية صاحبت حركة تجارة القوافل العربية هجرات كبيرة من الغرب الى الشرق مع انسياب الرقيق من الداخل باعداد كبيرة والتحاقهم بالخدمة فى المزارع العربية فى الساحل ، واشتد اختلاط العناصر العربية بالعناصر الافريقية فى المناطق الساحلية والداخلية ودخل بعضه مهنى علاقات مصاهرة مع الزعماء الافريقيين فى الداخل ، وادى امتداد حدود تجارة القوافل الى مسافات بعيدة نحو الغرب الى ضعف قدرة الزعماء الافريقيين على الدفاع عن مناطقهم او على احكام الرقابة على عمليات صيد الرقيق وجمع الساج من الداخل ، خاصة وأن كثيرا من الافريقيين قد عملوا فى نقل التجارة بين الداخل والساحل وتشقت كثير من القبائل وأصبحت الوحدات القبلية أضعف كيانا ، وان كانت قد أصبحت أكثر انتشارا كما هو الحال بالنسبة لقبائل الانياموزى التى ارتبطت بالعمل فى قوافل التجارة وانتشرت فى قرى الداخل . وتحولت القرى الافريقية القريبة من الساحل الى مدن زاهرة (١١٠)، وظهرت مدن جديدة فى الداخل تركزت حول المراكز التجارية العربية فى تابورا وأوجيجى وكاسينجى وكيثانجولى ، وساعد على ظهورها وتوسعها على طول طرق التجارة فى الداخل ووثق العرب صلاتهم فى هذه المراكز بالافريقيين وتعاونوا معا من أجل تسويق مواد التجارة القادمة مع القوافل من الساحل وفى جمع مواد التجارة الداخلية .

ومع القوافل التجارية وصلت الى الداخل طرق معيشية جديدة ، وزاد مستوى الطموح الفردى ، بعد دخول البضائع الأوروبية ، وادى وصول الأسلحة النارية الى الداخل الى تهافت الافريقيين للحصول عليها ، وحدثت حيازتها من جانب القبائل أثارا اجتماعية كبيرة لأنها استخدمت فى الحروب

القبيلية وفى تصفية الخلافات ، وفى مزيد من صيد الرقيق ، وادى استخدامها على نطاق واسع من جانب بعض القبائل ومن جانب العرب أحيانا الى حرق القرى وتخريبها واصابتها بنزيف سكانى محدود لأن الكميات التى دخلت مع العرب من السلاح لم تكن كبيرة .

وادت تجارة القوافل الى نقل بعض امراض الساحل الى الداخل ، كما نقلت القوافل كثيرا من الأمراض المتوطنة التى أصيب بها أفرادها فى الداخل الى الساحل كالدوسنتاريا والديدان المعوية والحمى ، وراح كثير من أفراد القوافل ضحية لهذه الأمراض لقلّة الأدوية وقسوة المناخ وحصدت الأمراض حياة الكثيرين منهم خاصة فى شرق الكنفو التى انتشر فيها مرض النوم . وقد ذكرت التقارير أن مرض الجدرى قد انتشر فى المنطقة المحيطة ببحيرة تنجانيقا . وكانت أوجيجى مركزا ثانويا لانتشار الأمراض المستوردة . مع تنجانيقا . وكانت أوجيجى مركزا ثانويا لانتشار المرض قلّة الحصانة وانتشار المجاعات فى الداخل .

وكانت عصابات قطاع الطرق والأمراض والمجاعات سببا فى فشل قوافل التجارة وافلاسها ووفاة العديد من الافريقيين فى الداخل . وادى فشل القوافل الى استقرار رؤسائها العرب بالداخل وزيادة انصهارهم فى الحياة الافريقية فى الداخل ونمو العلاقات الودية بينهم . وكان استقرار القوافل مبعثه الخوف من الدائنين الهنود فى الساحل ، وادى هذا الاستقرار الى زيادة سكان المدن الجديدة التى تركز فيها العرب فى الداخل اذ زاد عدد بوجمايو من ستة آلاف فى السبعينات من القرن التاسع عشر الى نحو عشرين ألف فى اواخر الثمانينات ، كما زاد سكان أوجيجى من نحو ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف فى نفس الفترة ، وشهدت هذه الفترة تغيرا اجتماعيا سريعا . وفى الحالات التى حققت القوافل نجاحا اقتصاديا تكدست الثروة فى يد قلّة من الزعامات العربية — وادى هذا الى بدء ظهور الطبقات الاجتماعية فى الساحل وعلاقات التبعية (١١١) .

ومن الناحية السياسية ادت تجارة القوافل الى سيطرة القبائل التى كثرت حيازتها للأسلحة النارية الى السيطرة على القبائل الأقل حيازة ،

والى ظهور المخالفات بين التجار العرب والزعامات الافريقية من أجل تبادل المصالح وتنظيم عمليات الدفاع عن المستوطنات العربية ، ويمكن التجار العرب من السيطرة السياسية على بعض القبائل الافريقية الصغيرة وأسسوا الممالك بها كملكة تيبو تيب « محمد بن حميد المرجبى » فى مانيما Manema فى شرق الكنفو ، كما شكل روماليزا « محمد بن خلفان » مملكة خاصة فى منطقة نياسالاند واحكم سيطرته على الزعامات الافريقية بها ، وفرض عليها الجزية ، ونصب موينى متوانا Mwini Mtwaan وهو سواحلى من دم مختلط — نفسه زعيما للمدابورو Madaburu فى وسط طريق القوافل (١١٢) . واستطاع عرب تابورا احكام سيطرتهم على المنطقة ، وتدخلوا فى السياسات الافريقية المحلية بها ، واعفوا من دئع الضرائب بها وحظوا بالاحترام والتقدير فى المشيخات التى لم يستطيعوا السيطرة عليها كما حدث فى مشيخة أوسمبارا Usmbara فكان لهم جناح خاص بها (١١٣) . واستطاع بعض العرب والسواحليين مثل سونجورو Songoro الذى تمكن من غرض نفسه فى مشيخة بوسوكوما Busukuma بالقرب من بحيرة فيكتوريا . ودخل فى مصاهرة مع ملوكها الافريقيين (١١٤) . وكانت تجارة القوافل الخطوة الاولى فى طريق السيطرة الأوروبية على الداخل لأنها لفتت انظار الاوروبيين اليها ، وجذبت المستكشفين والمبشرين الأوروبيين الى المنطقة .

ومن الناحية الثقافية انتشرت اللغة السواحلية فى الداخل ، كما انتشر الاسلام بين بعض قبائل الداخل (١١٥) خاصة فى المناطق القريبة من الساحل، كما أدى اختلاط العرب بالافريقيين الى اتقائهم اللهجات الافريقيين ، ومن ثم

(112) Melvin, E, Page, The Manyema Hordes of Tippu Tip, IJAHS, VII, 1974. pp. 69-84. & Bevrley Brows, Muslim Influence on Trade & Politics in the lake Tanganyika Region, IJAHS, IV, 1971, p. 629.

(113) Alfred, C, Unomah, Economic Expansion & Political change in Unyambe (1810-1900), PH. D, Thesis University of Ibadan, 1972, pp. 180-193.

(114) Iliffe, John, op. cit., pp. 46-47.

(115) Hatch, John, Tanzania, A Profile, London, 1972, p. 60.

قاموا بدور المترجمين بين الافريقيين والاوروبيين الذين ولجوا الى الداخل بهدف الكشف الجغرافى أو التبشير ، واكتسب العرب دراية كبيرة باللفات الأوروبية وخاصة الانجليزية من خلال تعاملهم مع الهنود والبريطانيين على الساحل .

ومن الناحية الاقتصادية ادى النشاط التجارى العربى فى القرن التاسع عشر الى امتداد طرق التجارة القديمة المتجهة للداخل نحو الغرب ، وظهور طرق جديدة ، وزاد سيل البضائع التجارية الأوروبية والاسيوية الى الداخل ، ونمت أسواق الداخل (١١٦) وتعددت الوان التجارة فيها ، ومورست فى هذه الأسواق أساليب تجارية تبادلية مختلفة كالمقايضة والبيع بالأجل والبيع النقدى . ودخلت النقود مع تجارة القوافل ، وان ظل نطاقها محدودا لأن الافريقيين كانوا يفضلون أسلوب المقايضة السلعية ، وأصبح للعرب مخازنهم التجارية فى الداخل وحرسهم الخاص المسلح ، وكانت المسنونات العربية فى الداخل مراكز للقوافل للتزود بالغذاء وأماكن للراحة ، وعقد الصفقات مع القبائل الافريقية المجاورة أو مع العرب الوافدين مع القوافل .

وادت تجارة القوافل العربية الى زيادة جمع العاج وتحول كثير من القبائل عن مهمة الزراعة الى مهمة الصيد أملا فى قتل المزيد من الفيلة والحصول على أنيابها ، كما تحولت قبائل أخرى تقع اراضيها على طرقات القوافل الى زراعة المحاصيل الغذائية والتخصص فيها لد القوافل بما فيها من الطعام والماء ويقال انه كان يوجد ثلاثة مراكز بين الساحل وبحيرة فيكتوريا حيث يمكن للقوافل الحصول على الغذاء وهى كيبويزى Kibwezi وماشاكوس Machakos والكيكوى kikuyu (١١٧) ، كما تحولت قبائل أخرى الى زراعة المحاصيل النقدية بعد أن نجحت زراعتها فى الساحل مثل جوز الهند والمطاط والقرنفل ، وكان العرب قد حملوا الى الداخل بذور هذه المحاصيل ، وحقت بعض القبائل فى الظهير الداخلى القريب نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، وتفرقت الأنماط الاقتصادية التقليدية التى تمثلت فى الاغارة وفرض المكوس على القوافل — واقتصاد الكفاف ، وبدأت المناطق الداخلية

(116) Bevrley, Brown & Waltir Brown, op. cit., p. 188.

(117) Ogot & Jakieran (eds) Zamani, op. cit., pp. 170-172.

تدخل الى دائرة الاقتصاد الحديث ، وتعمق اتصالها بالخارج من خلال قوافل التجارة ومن خلال اهتمام بعض الزعامات الافريقية بجمع العاج أو الرقيق ومواد التجارة الداخلية والاتجاه بها نحو الساحل لبيعه للعرب . وزاد اقبال الافريقيين على البضائع الأوروبية وارتفع دخلهم واتسعت دائرة مطالبهم الاقتصادية ، وظهرت التخصصات المهنية في الصيد والتجارة . وادت تجارة القوافل الى تبادل المعلومات حول طرق التجارة الداخلية ومخاطرها وطرق تحاشيها .

وادی النشاط التجارى العربى الى اتساع دائرة اتصال زنجبار وتوابعها في شرق افريقيا بالعالم الخارجى ، وعقد المعاهدات التجارية مع كثير من الدول الغربية ، ووفود الكثير من الوكلاء التجاريين الأوروبيين والهنود الى شرق افريقيا ، والى زيادة تداول النقد ووفود مزيد من العرب الى شرق افريقيا طمعا في الربح والثراء ، وانعكست آثار هذا النشاط في ازدياد الثراء وزيادة الطلب على الكماليات ، ونمو القطاع الزراعى خاصة زراعة القرنفل الذى ادخلت زراعته من جزر ريونيون في أوائل القرن التاسع عشر .

وتحول الاقتصاد بسبب جلب الرقيق من الداخل في المنطقة الساحلية الى اقتصاد نقدى يقوم على الزراعة والتصدير بعد أن نجحت زراعة محاصيل عديدة في المدن الساحلية والجزر القريبة منها مثل محاصيل المطاط وجوز الهند في زنجبار وبمبا ، ومحصول قصب السكر في مزارع الكيول في مدغشقر وجزر ريونيون ، وأصبح معظم الساحل شمال مومباسا مزروعا لأول مرة منذ مائتى عام بعد أن نجحت زراعة محاصيل الحبوب في لامو ومالندى ، وادت النهضة الزراعية والانتعاش التجارى في مدن الساحل الى اعادة بناء عدد منها على نمط حديث مثل مدينتى كلوة ومالندى ، ووصلت هذه المدن الى أوج ازدهارها خلال السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر (١١٨) .

ونتيجة الانتعاش التجارى والزراعى ثم استيراد رأس المال الأجنبى الى شرق افريقيا خاصة رأس المال الهنـدى ، وادی هذا الى تغلغل النفوذ

الاقتصادي الأجنبي الهندي ، وأصبح الهنود طبقة طفيلية أثرت بدرجة كبيرة من اقراض الأموال للعرب وتحصيل فوائد كبيرة عليها ، ومن عمليات الوساطة التجارية بين قوافل التجارة العربية والوكلاء التجاريين الأجانب ، ومن احتكار ادارات الجمارك سواء فى زنجبار أو مدغشقر ، وتهريب الرقيق ، وأساليب الخداع التى مارسوها فى تعاملهم مع الأفريقيين فى بعض مسدن الساحل وشراء البضائع التى لديهم بثمن بخس . وعلى هذا ضاعت على العرب أرباح كثيرة كان يمكن أن يجنوها من نشاطهم التجارى — هذا على الرغم من أنهم اضطلعوا بالمهمة الصعبة وهى مهمة الولوج الى الداخل وقطع المسافات الطويلة لجمع منتجات الداخل . ومع أن الداخل قد انفتح على الساحل خلال القرن التاسع عشر ، فان ٥٠٪ من التجارة العربية كانت تتم بين الساحل الشرقى والظهر الداخلى القريب ، وظل الظهر الداخلى البعيد يساهم بالنصف الآخر من التجارة ، وهو نصيب ظل أقل من امكانات الداخل الهائلة ، وذلك بسبب صعوبات ومخاطر الداخل وارتفاع نسبة المخاطرة .

وقد خلصت هذه الدراسة الى النتائج التالية :

١ — ان النشاط التجارى العربى خلال القرن التاسع عشر فى شرق أفريقيا تركز أساسا حول دور العرب فى تجارة القوافل فى الداخل ، وكان دورهم فى التجارة الخارجية هامشيا ، واعتمد هذا النشاط فى جزء كبير منه على التمويل الاجنبى خاصة التمويل الهندى ، وكانت أرباحه قليلة بسبب ارتفاع عنصر المخاطرة وفوائد القروض العالية .

٢ — ان دور العرب فى تجارى الرقيق والعاج لم يكن مرتبطا بالعنف واحداث الدمار فى الداخل دائما حسبما يظهر فى كتابات الرحالة الأجانب ، وانما كان هذا العنف نادرا لأن الرغبة فى شراء الرقيق والعاج دفعت القبائل الافريقية الى صيدهما طمعا فى بيعهما للعرب ، وكان ما ورد فى كتابات هؤلاء الرحالة مبالغا فيه من ناحية ، ومربطبا فى معظمه بنشاط القبائل فى صيد الرقيق أو الفيلة .

٣ — ان هذا النشاط قد أسفر عن نتائج ايجابية اجتماعية واقتصادية وثقافية عديدة ، غير أن هذا النشاط مهد بطريق غير مباشر للتغلغل الأوروبى

فى شرق أفريقيا من خلال امكانات الداخل وارشاد الرحالة الى طرق الولوج اليه .

٤ — ان هذا النشاط قد انسحبت آثاره على النمو الاقتصادى فى الساحل والداخل ، غير أن جزءا من موارد الداخل الاقتصادية قد استنزفت لحساب اقتصاد رأسمالى دخلت زنجبار وشرق أفريقيا فى دائرته نتيجة اضطراد علاقتها مع العالم العربى .

٥ — ان النشاط التجارى العربى الخارجى تركز خلال فترة كبيرة من القرن التاسع عشر حول النشاط التجارى غير المشروع من تهريب للرتيق وشحنه وتجارة السلاح النارى ، وتواطأت التجارة العربية الساحلية مع الأجانب من اوروبيين وامريكيين أو اسيويين من أجل سلامة وصولهما الى منافذ الاستيراد ، واشترك فى هذا النشاط التجارى الخارجى عناصر عربية من شرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية . وكانت ارباح العرب من التجارة الساحلية الخارجية تفوق ارباح تجارة القوافل لعدم اعتمادها على التمويل الخارجى غالبا .

العرب والكونغو

فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر

دكتور يواقيم رزق مرقص

بعد أن استقر العرب العمانيون فى شرق أفريقيا ، وأسسوا لهم مدنا
تدين بالولاء لسلطان مسقط ، بدأوا يدخلون آحادا الى الداخل ، منذ بداية
القرن التاسع عشر ، وراء جمع العاج ، الى أن جاء عهد السلطان السيد
سعيد فلقوا منه التشجيع ، ومضوا يدخلون الى وسط القارة فى شكل
رحلات قصيرة تطول الواحدة عن الأخرى ، حتى حل عام ١٨٥٦ وصلوا الى
أكثر من ألف ميل داخل افريقيا ، واتخذوا لهم مراكز تجارية فى أرض
الأونياميزى (١) .

عوامل دفعت العرب للدخول الى الكونغو :

أولا : عدم توقعهم مقاومة جادة من السكان الأصليين ، نتيجة لسرعة
تعرف العرب على عاداتهم واحترامهم لها .

ثانيا : اجادتهم الملاحه ، فاستغلوا أفرع نهر الكونغو ، كنهرى اللوالابا،
واللومامى ، مما سهل عليهم الدلوفا الى أغوار الكونغو وغاباته الكثيفة .

ثالثا : غنى الكونغو بالعاج ، وكان سلعة مطلوبة فى أسواق الساحل
يأخذها الأجانب الى أوروبا ، وهى السلعة الوحيدة التى كانت تتحمل النقل
لمسافات طويلة على خلاف محاصيل قلب القارة الأخرى (٢) .

(١) يواقيم رزق مرقص : حميد بن محمد المرجبى والوجود العربى فى
الكونغو ، ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٥ ، ص ١-٥ .

(2) Oliver, R. : A history of East Africa. vol. I, London 1963,
p. 267.

طرق التجارة العربية الى الكونغو :

اكتشف العرب — خلال جولاتهم داخل القارة — عدة طرق أوصلتهم الى الكونغو ، وكانت رحلاتهم الى الكونغو تنقسم الى مرحلتين :

الأولى : تبدأ من الساحل الى ضفاف بحيرة تنجانيقا .

الثانية : من بحيرة تنجانيقا الى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه .

فطرق المرحلة الأولى تشتمل على طريق من بجامويو وينجه جنسوبا ليصل الى أولى المحطات العربية فى الطريق وهى طابوره Tabora على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى لأفريقيا ، ثم ينتهى الى شواطئ تنجانيقا، وطريق ثان جنوبا يبدأ من كلوا الى بحيرة نياسا ، ثم يدخل الى وسط القارة . أما طريق المرحلة الثانية فساروا فيها غربا الى داخل الكونغو مستعملين أفرعه ، كنهرو اللوالبا ، أو شمالا خلال فرع أرومى ليصلوا به الى شمال شرق الكونغو الفنى بالعاج (٣) .

ولم تكن هذه الطرق سهلة ، اذ كانت تجوس داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة ، بها حوته من أخطار ، فضلا عن شدة مراس الزنوج ، الا أن ظروف تفكك البانتو فى منطقة المانيما شرقى الكونغو خففت من تلك الأخطار (٤) .

وأمام انتشار التجارة فى منطقة شرق الكونغو ، وارتباط العرب بمواسم صيد الأفيال ، أو مواعيد وصول الرقيق لحمل العاج الى الساحل — حيث كانت أسهل وأرخص الوسائل لنقله — بدأوا يستقرون ولو الى حين فى تلك البلاد ، فجعلوا مستقلون وجودهم فى زراعة بعض المحاصيل التى تخدمهم ، مستعينين بالوطنيين ، ومن ثم عاشوا فى تجمعات مدنية مثل :

(3) The Journal of African history, vol. XI 1970, p. p. 535-537

(4) Slade, R. : King Llopoïd's Congo, London 1962, p. 39. &

صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ، ١٩٧٩ ، ص ٧٨ .

(5) Stanley, Th : Stanley's way, London 1960, p. 69.

طابورة Tabora :

وكانت أكبر المستوطنات العربية شرقى تنجانيقا ، على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى الإفريقى ، كما كانت ملتقى عدة طرق من الشرق الى الكونغو ، فضلا عن خصوبة أرضها ، عاش فيها وجهاء العرب ، وبلغوا ١٢٥ أسرة عربية فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما ساكنهم فيها الهنود والزنج ، وعاشوا عيشة ترف ، كانت محل وصف الأجانب(٥) .

أونيانيمبي Unyniembe :

وسط أرض الأونيامبوزى ، أسسها العرب عام ١٨٤٠ على ملتقى الطرق المتجهة من تنجانيقا الى الكونغو ، والآتية من فيكتوريا وأوغندا جنوبا الى أوسانجا . ورغم سوء مناخها وانتشار الملاريا فيها ، فقد تحملها العرب ، لأنها كانت سوقا رائجة ، قايض فيها الوطنيون عاجهم ورقيقهم العرب بالخرز والأسلاك ، كما كانت محطة استبدال للحمالين(٦) .

أوجيجى Azizi :

أسسها العرب على مرفأ صغير ، فى الشاطئ الشرقى لبحيرة تنجانيقا لتكون منطقة عبور البحيرة الى داخل الكونغو ، وقد قاسمهم الزنوج سكناهم فيها ، صنعوا فيها القوارب التى حملت البضائع والركاب داخل انهار الكونغو ، كما استغلوا طبيعتها فى زراعة الأرض بالحدائق والمحاصيل التى كانت تلزمهم — كالأرز — فى مستنقعاتها التى اصطادوا منها فرس النهر ليستخرجوا أسنانه للزينة(٧) .

كازيه Kazeh :

كانت على بعد ٦٠٠ ميل ، وكانت شمالى طابوره ، النقى فيها العرب ، والبلوخ ، والهنود فى تجارة رائجة ، ورغم قلة عدد العرب فيها ، الا أنهم كانوا اصحاب رؤوس أموال كبيرة ، فعمل الهنود لديهم(٨) .

(6) Burton, R. : The Lake regions of Central Africa, vol. I, p. p. 325-326.

(7) Stanley, H. M. : Through the dark Continent, vol. 2, London 1878, p. 1-2.

(8) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 326-328.

علاقة العرب فى تلك المناطق بزنجبار :

ان كان العرب قد عاشوا فى تلك المناطق بعيدا عن حكومة زنجبار ،
الا أنهم كانوا على اتصال بها ، خاضعين لها ، وكانت حكومة زنجبار
تشاركهم تمويل مشروعاتهم ، ولقد كان النفوذ العربى واضحا عندما خضعت
قبائل وسط القارة لحكومة زنجبار ، وان كان ذلك يختلف باختلاف قوة
الوطنيين ، فكان العرب يعتبرون مسئولين عما يدور فى الداخل ، لدرجة
أن الرحالة الأجانب كانوا يخصمون السلطان فى زنجبار فى دعاوى التمويض
عندما كان يلم بهم اذى من الزنوج (٩) .

علاقة العرب بالزنوج فى وسط القارة :

التمس العرب فى تلك المناطق سياستين ، سياسة مسالة الزنوج
الذين رأوا فيهم استجابة للسلم ، فقام بينهم نظام التآخى بين زعمائهم وبين
الرؤساء العرب ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات ، وخاصة من دخل منهم
الاسلام (١٠) .

وسياسة اللجوء الى السلاح اذا ما لمسوا فيهم غدرا او خيانة ، الا ان
الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى نقل الجالس على عرش زنجبار
ضعيفا كان أم قويا (١١) .

علاقة العرب بالأجانب :

كان للعرب فى القرن التاسع عشر فضل السبق فى كشف عمق القارة
الافريقية ، والوصول الى حوض الكونغو ، وجلب ثرواته ، مما لفت أنظار
الأجانب والمستكشفين الى تلك البلاد التى كانت « أرضا بلا صاحب » ،
فاستغلوا فى العرب جهودهم ومعلوماتهم وحمايتهم فى وصولهم الى الكونغو .

(٩) صلاح العقاد ، وجمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(10) Cameroon, R. : Across Africa, vol. I, London 1877, p. p.
332-334.

(11) Coupland, R. : The Exploitation of East Africa, London
1939, p. 67.

وعندما بدأ المستكشفون الأوروبيون يفكرون فى الولوج الى وسط القارة بمساعدة العرب ، ارتبطت جهودهم برجل عربى كان أول من دخل الى الكونغو بشكل منظم فى أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب فى شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها بأكثر نظام ممن سبقوه ، وكان هذا الرجل العربى هو « حميد المرجبى » (١٢) (تبوتيب) الذى كان له فضل الريادة فى الدخول العربى المنظم الى الكونغو ، كما كان له فضل ارشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين لتلك البلاد ، أمثال : بيرتون ، وديفيد لفنجستون ، وستانلى وغيرهم ، وهكذا بدأت العلاقة سلسلة تحققت من خلالها انجازات علمية كبيرة ، ثم ما لبث أن تعكرت عندما دخلت فيها الميول الاستعمارية كما سنرى .

التوسع العربى فى الكونغو أيام تيبوتيب :

قام هذا الرجل بثلاث رحلات الى الكونغو بهدف الاتجار فى العاج والرقيق ومحاصيل وسط القارة ، وجرى فى ركابه المستكشفون والطامعون فى الأرض والجاه من الأجانب ، وبعد ذلك استقر بعض الوقت لينشئ وجودا عربيا منظما فى داخل تلك البلاد ، ما لبث أن تعارض والأطماع الاستعمارية للبليكيين الذين كان له فضل ارشادهم وتأمين من أرسلوه من مستكشفين ومستعمرين ، فقامت الحروب بينه وبينهم ، انتهت بالقضاء على الوجود العربى وقيام دولة الكونغو الحرة ملكا خاصا للملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك ، مخلفين بعدهم حضارة عربية سنعرض لها فى حينها .

وكانت رحلاته الثلاث فى سنوات ١٨٥٠ ، ١٨٦٢ ، ١٨٧٤ على التوالي ، كانت الثالثة هى أهمها ، فقد وطدت الوجود العربى فى الكونغو ، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين ، الذى انتهى بابعاد العرب وحلول البلجيكي محلهم ، ولكن كمستعمرين .

الوجود البلجيكى فى الكونغو :

عندما دخل العرب فى موجتهم الثالثة مع تيبوتيب عام ١٨٧٤ كان يصابهم فيها الرحالة هنرى مورتون ستانلى ، وظل معهم طيلة سنوات

(١٢) لمزيد من التفاصيل عن المرجبى يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ص ٣١ وما بعدها .

ثلاث حتى عام ١٨٧٧ ، وكان موفداً في هذه المرة من قبل الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا ، بقصد ظاهري ، هو استكمال كشف حوض الكونغو وقمع تجارة الرقيق ، وسبب حقيقي هو تهيئة الكونغو ليكون ملكية خاصة للملك . وطرح الملك هذا الموضوع على الجمعية الجغرافية في بروكسل عام ١٨٧٦ (١٣) ، وقد أثار هذا الاجتماع كلا من فرنسا وانجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية في الشرق والوسط من أفريقيا ، وقد تركت انجلترا والدول الأوروبية المستعمرة لشرق أفريقيا منطقة الكونغو لليوبولد مقابل تركه شرق أفريقيا لها ، وقد استخدم الأخير أمواله الخاصة في كشف الكونغو وتوطيد سلطانه هناك ، ليكون ملكاً خالصاً له (١٤) .

بدأ ليوبولد خطواته التنفيذية نحو تحقيق مشروعه بإصدار أمره إلى ستانلي بتأسيس المحطات البلجيكية على أفرع نهر الكونغو لتكون منطلق استراتيجية له مستقبلاً ، مثل : فيفي ، وأوجوى ، وإيسانجيلا ، ومانيانجا ، ومسوتا وغيرها (١٥) ، بمساعدة العرب الذين لم يكونوا يعرفون ما سيمرتب عليها ، تلك التي ثارت بشأنها تيارات سياسية بين الدول الاستعمارية المهتمة باستعمار أفريقيا ، والذي انتهى بالتنام مؤتمراً برلين الشهير في ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، والذي أخذ فيه الكونغو نسبة من قراراته بشأن حرية الملاحة والتجارة فيه ، وانبثق عنه اعتراف انجلترا بقيام دولة الكونغو الحرة ، وعلى ادارته بمعرفة الملك ليوبولد الثاني (١٦) .

(13) Bourne, F. : The other side of Emin Pacha reief expedition, London 1891, p. 26.

(14) Woolf, L. . Empire and Commerce in Africa, London 1920, p. 305 &

شوقي الجبل : كشف أفريقيا واستعمارها ، ص ٢٩٦ .
وعن تفاصيل هذا المشروع البلجيكي يرجع إلى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ١١٨ وما بعدها .

(15) Ceullemans, R. P. · La question Arabe et Le Congo 1883-1892, Brussel 1958, p. 56-58.

(١٦) شوقي الجبل : المرجع السابق ، ص ص ٣٠١ — ٣٠٣ .

العلاقات العربية البلجيكية فى الكونغو فى هذه الفترة :

فى بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين البلجيك والعرب ، وإنما كانت من خلال ستانلى ، الذى كان حريصا على أن يسلك معهم سلوكا وديا ، حتى ينال قسطا من تعاونهم وحمائتهم ، وحتى تتوطد الأمور للإدارة الجديدة فى تلك الأصقاع النائية شديدة الوعورة ، وكان يوصى الضباط البلجيك — الذين تركهم فى حراسة المحطات البلجيكية هناك — بالآلا يظهرُوا أى غلظة للعرب ، الأمر الذى جعلهم يركنون اليهم ويحسنون به الظنون(١٧) !!

الا أنهم رغم هذا ، كانوا يحسون أن وراء هذه التنظيمات التى لم يعهدوها من قبل شيئا غريبا ربما يحدث ، الا أن هذا الاحساس لم يلبث أن طوته حسن نيتهم ، وحسن معاملة الضباط ، حتى أنهم اصطحبوا تبيوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أرض الكونغو(١٨) . فضلا عن أنه استطاع بهم أن يعيد تنظيم الكونغو فى عام ١٨٨٣ ، حيث بدأت صفحة جديدة من العلاقات العربية البلجيكية ظاهرها الاحترام المتبادل بينهما ، كسبت منه دولة الكونغو كسبا اقتصاديا عوض الملك ما أنفقه من قبل .

فقد أنزلت الدولة عدة بواخر فى فروع الكونغو ظننها العرب لتيسير نقل التجارة ، ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك ، وأعطت منه قدرا يسيرا هدايا للعرب الذين انحنوا — بكرمهم — أمامهم ، وأجزلوا لهم العطاء : عاجا وسلما وخدمات بشكل أكثر من ذى قبل .

ولعل العرب فى ذلك كانوا مدفوعين أيضا بسبب ضعف السلطان برغش سلطان زنجبار آنذاك ، الذى سيطر عليه الإنجليز ، فضاعت بهابته ، وانعكس ذلك على العرب فى الكونغو(١٩) .

(17) Warner, J. R. : A visit to Stanley Rear Guard, London 1889, p. 88-89.

(18) Masui, Th. : Guide de la section de l'Etat independant du Congo, Brusseles 1897, p. 29.

(١٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

بعد أن التقت البلجيكيون أنفاسهم فى الكونغو ، من الناحية الاقتصادية والأمنية ، وكذلك من الناحية السياسية مع الدول الأوروبية ، بدأوا يطبون للعرب ظهر المجن ، بهدف التخلص منهم كآخر مناوىء لهم هناك .

وفى تلك الفترة أيضا كان العرب هناك قد خلدوا الى الهدوء ، يروجون لتجارتهم ، ويسرون قوافلهم ، زرعوا الأرض ، ونشروا أموالهم فى أمان حتى مشاركة للاجانب أنفسهم ، جاهلين ما بدأ البلجيكيون يحكيونه لهم فى الكونغو وفى أوربا ، والمحافل الدولية ، بهدف تشويه سمعتهم واستنفار القوى ضدهم ، حتى اذا ما أتت الساعة لا يجدون من ولى ولا نصير .

وفعلا تركوا المبشرين والرحالة يكتبون عن تجارتهم فى الرقيق ، فمسخوا صورهم أمام العالم ، عندما وصفوهم وهم يسوقون الرقيق امامهم ، فى شكل قطار حزين الى الساحل ، مكبة رقباهم فى اصناد من حديد ، أو افرع غفل من الأشجار ، واستجابت أوربا فى تلك الفترة لما كتبوا ، فسالت الأتلام والأموال على من يوقف هذا النزيف الآدمى الذى نلطخت به يد العرب (٢٠) .

من أجل هذا كانت مجموعات مناهضة الوجود العربى فى الكونغو من عناصر أوربية بالإضافة الى البلجيك ، وتفرقوا فى شرق القارة ووسطها ، ليحدثوا بهذا الخطر ، وكان نصيب البلجيك مناهضة عرب الكونغو ، بعد أن أقر الجميع على ضرورة مناهضتهم هناك .

فضلا عن استفادة البلجيكين من ربط انجلترا بين ما يدور فى السودان بين الانجليز والمهدين ، وبين ما يمكن أن يماثله فى الكونغو ، وبذلوا كل الجهود فى القضاء عليهم (٢١) .

(20) Coupland, R. The Exploitation of East Africa, p. 138-139.

(٢١) الشاطر بصلى عبد الجليل : تيوتيب — مجلة نهضة افريقيا ، العدد الاول ، السنة الأولى ١٩٥٧ ، ص ١٧ ، ١٨ .

سياسة القضاء على العرب في الكونغو (٢٢) :

بدأت سياسة الغدر بالعرب منذ عام ١٨٨٤ ، عندما غير ستانلى من أسلوب تعامله مع العرب الى العكس ، فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ، ويكره التجار العرب على الاتجاه بما تبقى لهم من عاج و سلع أخرى الى الساحل الغربى لأفريقيا وليس كسابق عهدهم الى الشرق منها ، وذلك بهدف اخلال القطيعة بينهم وبين بنى جلدتهم فى زنجبار ، فيخسر السلطان هناك أمامه بسبب انقطاع المدد المالى عنه .

فضلا عن اتباعه سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنج — فى فترة غياب تيبوتيب فى الساحل الشرقى — بالتنازل عن حرياتهم للبلجيك ، والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد (٢٣) .

فلما عاد تيبوتيب خائف كل ما وقعوا عليه ، وبدأ يجمع العرب حوله للدخول فى معركة مع البلجيك ، اقتصاديا بمنع التعامل التجارى معهم ، وحربيا بالجوء الى امتشاق الحسام ، خاصة وأن جون كريك — القنصل الانجليزى فى زنجبار — كان يدفع السلطان الى توسيع نفوذه فى وسط القارة ، وأوعز اليه بمساندة تيبوتيب والعرب فى منطقة مساقط الكونغو ، وكان فى هذا يهدف الى استخدام العرب كمخلف قط يوقف به أى تقدم أوربى وسط افريقيا ، ريثما تحين الفرصة ، وتهبط انجلترا من السودان اليه (٢٤) .

أمام هذا ، وازاء عدم ثقتهم بعد فى الزنج ، لجأ البلجيكيون الى مهادنة العرب من جهة ، ومحاولة اثارة زعمائهم بعضهم على بعض لثيق صنوفه ، وفعلا ساد الهدوء العلاقات العربية البلجيكية فترة عام ١٨٨٥ ،

(٢٢) مرت مسألة الوجود البلجيكى فى الكونغو بمراحل عديدة حتى خلصت ملكا خاصا للملك ليوبولد ، وذلك فى دهاليز السياسة والحكومات البريطانية والبلجيكية والألمانية وغيرها ممن كانت لهم مصالحهم فى شرق ووسط افريقيا ، يمكن الرجوع اليها فى رسالة يواقيم رزق مرقص المشسار اليها ، حيث أننا ركزنا البحث على العرب وما قدموه وما نالهم فى الكونغو .

(٢٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

حيث بدأ الاعلام الأوربي المتعاطف مع البلجيك ينشر الراى العام ضد العرب ، فنقلوا عن الصحافة البلجيكية معلومات تفيد بأن العرب مستمرون فى غزوهم لأقاليم الكونغو العليا ، وأن (عصاباتهم) تهدد المحطات البلجيكية هناك .

كما لجأت الصحافة هذه الى الربط بين الوجود العربى فى الكونغو وبين حركة المهدي فى السودان ، وعدت تيبوتيب من اتباعه ، وأبرزت صحف انجلترا ثأر مقتل غوردون لتستدر عواطف أوربا ضد العرب . وحتى القنصل الأمريكى فى زنجبار أذاع تقريراً حول تسيير جنس مسلم من داخل أفريقيا الى الشمال والى الساحل الغربى ، وأن الأوروبيين فى الكونغو فى خطر (٢٥) .

واستغل ليوبولد هذا الموقف وأرسل الرجال والسلاح الى هناك للدخول فى معركة فاصلة مع العرب ، الذين كانوا بقيادة « سيفو » ابن تيبوتيب نظراً لغيابه فى الساحل الشرقى ، وكان البلجيك بقيادة دين Dean وهو انجليزى الأصل ، التحق كقائد للقوات البلجيكية المرابطة عند ستانلى فولز فى مواجهة المنطقة العربية ، وبدأ دين يتلمس الأخطاء للعرب ، حتى بدأت الحرب بينهما فى يولية عام ١٨٨٦ ، وكان مع العرب — فى تلك المعارك — عدد غفير من زنوج المانيما . وبوصول تيبوتيب ، اشتد ساعد العرب الذين استطاعوا التغلب على البلجيك ومن معهم من المرتزقة ، وقتل دين ، واستعادوا كثيراً من الاراضى التى كانت تحت أيديهم .

وأزاء هذا النصر ، وما اعترى القوات البلجيكية من الضعف والخوف ، وتوجس ليوبولد من أن تكون انجلترا وراء تيبوتيب لتستخدمه مقلباً قط ضده فى الكونغو ، لتضيع عليه فرصة تملكه للكونغو الحرة ، وما أصابه من عسر مالى بعدما أنفقه فيها ، لجأ الى مهادنة العرب مرة أخرى ، بل وعرض على تيبوتيب أن يكون حاكماً من قبله على منطقة ستانلى فولز ، وقائداً للعرب الذين استطوفوا تلك المناطق ، ومنفذاً لسياسته فى الكونغو الحرة (٢٦) ، وكان ذلك عام ١٨٨٧ .

(25) Slade, R. : King Leapold's Congo, p. 90-92.

(٢٦) عن تفاصيل هذه المعارك ، يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ١٦١ وما بعدها .

الا أن تعيينه لم يأت بالثمر المطلوب ، لأنه اغضب العرب ، بسببه تبعيته لليوبولد ، وتوجس الانجليز منه خيفة ، فأرادوا أن يقضوا عليه .جانب ضعف السلطان الذى لم يستطع حمايته .

ازاء هذا قامت عدة معارك من جديد بين البلجيكيين والعرب ، الثائرين لكرامتهم ، وحفاظا على وجودهم بعد أن استطاع البلجيك شق صفوفهم ، وقسموهم بعضهم على بعض ، استمرت حتى عام ١٨٨٩ خسروا فيها الكثير ، بينما حصلت دولة الكونغو الحرة على مزيد من التوسعات .

وبعد أن ساد الهدوء الطرفين قرابة العام ، بدأت الحملات البلجيكية من جديد للقضاء على ما بقى من قوة العرب مثل : حملة هودистер A. Hodister فى وسط الكونغو عام ١٨٩١ ، وحملة دانييس Dahnis ١٨٩٣ ، وحملة فان كركهوفن ، وانتهى امرهم الى حرب ضروس فى عام ١٨٩٤ ضد العرب ، بقيادة دانييس مرة أخرى ، استمرت لمدة عام ، كانت القاضية على الوجود العربى فى الكونغو . سالت فيها دماء الآلاف منهم ، وتشتت الأسر ، وأسر القادة منهم ، وسيقوا الى أوروبا صحبة دانييس ليتأكد من عدم عودتهم مرة أخرى ، أما تيبوتيب فعاد هزيمًا الى زنجبار ، يجرر أذيال المرض ، بعد قتل ابنه وقواده ، وذهب ماله وعتاده . واذ رجع ليجد الانجليز متربصين به الدوائر ، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها فى السجن الى أن مات سنة ١٩٠٦ .

اما ليوبولد فقد خلصت له دولة الكونغو الحرة ليعمل فيها الزنوج ومن بقى من أحاد العرب « كأجراء » بعد أن كانوا سادة لسنين عددا مخفنين حضارة عظيمة استفاد منها البلجيك والزنوج من بعدهم (٢٧) .

وضع العرب فى الكونغو فى تلك الفترة :

ترددت الآراء حول وضع العرب فى الكونغو ، فوصفهم البعض بالمستعمرين ، لأنهم وصلوا جماعات ، ثم اسنقروا هناك مستولين على اقتصاد تلك البلاد ، كما اشتركوا فى تشكيل سياستها وتدخلوا فى

أمورها (٢٨) ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك ، لأن منهم من كانوا يعملون لدى سادة من الوطنيين ، وعاشوا سنوات كانت نتيجتها جيل من المولدين ، وكانت تحدوهم رغبة فائقة فى العودة الى الساحل ، ومنهم من أثرى ثراء كبيرا جعل رغبته فى العودة معدومة تماما (٢٩) .

ولكن من الأجانب من فصلوا فى هذا الوضع ، فقالوا بأنهم دخلوا الكونغو أول الأمر فرادى ، أو جماعات غير منظمة ، كتلك الشركات التى دخلت بلادا بقصد التخطيط للاستعمار (٣٠) .

ويقول جونستون — الكاتب الاستعماري — بأن العرب لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها اظهارهم بمظهر من أراد الاستعمار أو تأسيس الامبراطوريات ، وانما كانوا مغامرين من أرسقراطى الساحل ، يهدفون — مثل الهنود — الى جمع الثروات بسرعة والعودة الى الساحل (٣١) .

كما أنهم لم يغيروا من طبيعة الأرض أو السكان ، بل تركوا السكان الأصليين على ما هم عليه حتى من دخل منهم الاسلام ، وهم اذا كانوا قد قسوا أحيانا على الزوج الوطنيين ، فانما كان ذلك لكى يحفظوا لهم مركزا ويؤمنوا تجارتهم وسط تلك الأدغال (٣٢) .

كما يشهد بيرتون صراحة بأن عرب الأونياميزى لم يكونوا مستعمرين أو يبنون الاستقرار ، بل كانوا دائمي التنقل ، وكانت أمنيتهم دائما العودة الى مقرهم فى الساحل (٣٣) .

(٢٨) على ابراهيم عبده : التنافس الدولى فى أعالي النيل ، القاهرة ، ص ٣٧ .

(29) Jameson, J. : The story of the Rear Column of Emin Pacha relief Expedition, p. 413.

Oliver, R. : The Missionary Factor, p. 98.

(30) Ingham, K. : A history of East Africa, New York 1967, p. 84.

(31) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 98.

(٣٢) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(33) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 366.

أهم آثار العرب فى الكونغو :

ترك العرب فى الكونغو آثارا حضارية يتحاكى بها الكونغوليون والمنصفون من الدارسين الغربيين ، رغم ما صورهم به بعضه من بشاعة فى علاقتهم بالوطنين آنذاك .

فالعرب هناك لم يعيشوا فى عزلة ، ولم يكونوا يضمرون استعمارا وهم بعد التجار المحتاجون الى السلام والأمن فى التعامل ، والتعاون مع الأهالى (٢٤) ، ومن ثم كانت هناك علاقات بينهم وبين الوطنيين ، أفرزت مدنا وثقافة واقتصادا متطورا بالنسبة لما كان موجودا هناك .

فى المجال الثقافى :

أسدى العرب فى وجودهم فى الكونغو أكبر العطايا التى لم تكن لتعطى لمثل تلك الجهات ، ككشف الطرق والأنهار والقبائل ، وجمع المعلومات التى قدموها ببساطة الى المستكشفين الأجانب ، مثل : كامرون وستانلى وديفيد لفنجستون وغيرهم (٢٥) ، واقتربت الكشوف باسمائهم دون هؤلاء الجنود المجهولين ، فلم يكن يجرؤ أحدهم على الدلوفا الى جوف القسارة المظلمة دون تأمين العرب له ، فهم الذين أمدوهم — الى جانب الأمن — بالحمالين والمعلومات والتراجمة ، ومواد التموين المختلفة ووسائل الانتقال كالدواب والقوارب (٢٦) . كما كشف العرب الطرق التى سلكها هؤلاء المستكشفون وساروا هم فى أثرهم (٢٧) . لدرجة أن اعترف بعضهم بذلك صراحة ، فهذا لفنجستون يعترف بكل هذا ويضيف أن تيبوتيب أنقذه من الوقوع فى قبضة إحدى القبائل الهمجية ، وسهل له أمر رحلته لكشف بحيرة بنجويلو (٢٨) .

(٣٤) يواقيم رزق مرقص : الاستعمار البلجيكي وأثره على الوجود العربى فى الكونغو ، بحث ضمن كتاب العلاقات العربية فى الكونغو ، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٧ ، ص ٢٢٧ .

(٣٥) للمزيد من التفاصيل فى هذا المجال يمكن الرجوع الى : يواقيم رزق مرقص : حميد المرجبى والوجود العربى فى الكونغو ، من ص ٨٨ .

(36) Ceulemans, R. : op. cit., p. 40.

(37) Hinde, S. L. : The fall of the Congo Arabs, London 1997, p. 4.

(38) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 41.

وعندما تقدم بيرتون الى الجمعية الجغرافية يطلب أن يذهب لاكتشاف
يحر أوجيجي والذي أسماه بعد اكتشافه « بحيرة تنجانيقا » قدم المعلومات
التي استقاما من العرب ، وفعلا قام بالرحلة فى ١٨٥٦ ، ثم ان كامبيرون
اعترف بكرمهم ، وحسن ضيافتهم ، فكرم العرب ومعلوماتهم وقوتهم كانت
كلها امورا دخل الكشف فى أعقابها والتفتت أنظار أوروبا الى الكونغو بسببها .

العرب والرقيق :

تحمل العرب عموما تبعة تفشى تجارة الرقيق ، وظهروا هم فى الصورة ،
رغم مشاركة الدول الأوروبية كالبرتغال فيها بتشجيع أوروبا وأمريكا لاستخدام
الرقيق فى الزراعة هناك .

وشهد كامبيرون فى تقرير له عام ١٨٧٦ قدمه للجمعية الجغرافية ، بأن
هذه الظاهرة كانت تسبق الوجود العربى فى أواسط القارة ، وأن الرؤساء
الأمريكيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للتجار فيها ، وأن
البرتغاليين هم الذين كانوا وكلاء تصديرهم للخارج ، وأن العرب اشتروهم لخدمة
المنازل أو فلاحه الأرض (٢٩) . إلا أنه من جماع وضع الرقيق تبين أن العرب
قد أسهموا فى هذه التجارة أمام بريق الكسب الكبير الذى أبرزه لهم
الأوروبيون الذين عادوا ونددوا بهم (٤٠) . ويشهد الرحالة الذين عاشوا هذا
الوضع بأن العرب قدروا فى الرقيق مهارتهم فنالوا على يديهم قسطا من
التعليم ، وقدرنا من الفنون والحرف والصناعات اليدوية ، والتبرس على
التجارة (٤١) . حتى البنات الصغيرات من الاماء اهتم العرب بهن ، فعلموهن
القراءة والكتابة فى بيوتهم ، ودخلن الاسلام ، وحفظن كثيرا من القسـرآن
الكريم (٤٢) .

(39) Elton, J. F. : Travels and researches among the lakes,
London 1879, p. 3.

(٤٠) جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا، القاهرة، ص٦٦ .

(41) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free
State, vol 2, p. 360-361.

(42) Waller, H. : The last journals of D. Livingstone in Central
Africa, London 1889, p. 237.

وقد تأثر الأهالى بمعاملة العرب الطيبة ، عندما حتمت عليهم الظروف البقاء لسنوات بينهم ، واقلعوا عن عادات سيئة كانوا يتصفون بها ، كاكل لحوم البشر ، والقتل للتسلية ، ودربوهم على أعمال الحراسة ، واخضعوهم لما يشبه النظم العسكرية (٤٣) .

المدن العربية فى شرق الكونغو :

ان الظروف التى حكمت تنقل العرب وسط افريقيا حتمت عليهم الاستقرار فى تجمعات أصبحت مدنا فيما بعد ، ومراكز احتكاكات حضارية بين العرب والكونغوليين ، لدرجة أن دخل بعضهم أفصلا للعرب مثلـ لـ نجونجولوتيا وبانيا — موتومبو ، ولوبنجو من زعماء الكونغو آنذاك ، وحاكوا العرب فى تخطيط مدنها وعماراتهم ، تلك النظم السواحلية التى مازالت تعتبر تراثا لتلك الحقبة (٤٤) .

ومن أهم هذه المدن :

نيانجوى Nyangwe :

كانت أهم المدن العربية فى الكونغو ، جنوبى مانبيما ، شرق خط طول ٢٦١٦ درجة ، على ربوة عالية ، يحدها ريف مفتوح ، ضمت أكثر من ثلاثمائة بيت عربى عام ١٨٦٨ بعائلاتهم وعبيدهم وحيواناتهم ، وترجع أهميتها الى جمال موقعها وطيب هوائها ، كما كانت ملتقى عدة طرق آتية من الساحلين الشرقى والغربى لافريقيا ، فكانت سوقا للتجار العرب والبرتغاليين ، سميت (كينوكو) بلفة البانتو ، عرضت فيها السلع كالعاج والودع والخرز وأسلاك الحديد والنحاس ، والخضر والحبوب والرقيق والحيوانات والطيور (٤٥) .

(43) Jameson : op. cit., p. 242.

(٤٤) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤٥) للمزيد من الوصف يرجع الى :

Stanley, H. M. : Through the Dark Continent, vol 2, p. 117 & Burton, H. The lake regions p. 333.

كاسونجو Kasongo :

تقع جنوبى نيانجوى ، سكنها عام ١٨٦٨ حوالى ٣٠٠٠٠ أغلبهم من العرب أزيلت من حولها اشجار الغابة العذراء ، ليزرع قصب السكر والدرّة والارز والفواكه ، واعتمدوا فيها على انفسهم(٤٦) .

كيونجي Kibonge :

وهى مدينة عربية كبيرة ، تحت ادارة رجل كان اسمه كيمونجى ، وكان يعمل وكيلا لرجل عربى « سعيد بن عبيدى » من سكان نيانجوى .

كاسوكو Kasuku :

وهى قرية عربية يقسمها نهر كاسوكو ، ورغم صغرها نسبيا عن سابقتها ، الا أن التأثير العربى كان ظاهرا فيها .

رياريا Riba Riba :

كانت قرية عربية كبيرة ، تحت امرة عربى هو « محمد بن حاميس » ، امتلك مساحات واسعة فى الشاطئ الغربى لنهر الكونغو .

كابانجا kabanga :

قرية وطنية كبيرة ، كانت لها سوق كبير ، كما كانت مركزا من مراكز التجارة العربية شرقى حوض الكونغو(٤٧) .

وهكذا كانت المدن العربية بمثابة محطات لتجميع خيرات الكونغو ، واماكن احتكاك حضارى ظهرت ثمارها فى :

الدين والألفة :

لم يمارس العرب فى الكونغو ضغطا على الوطنيين ، ولم يفرضوا عليهم حضارتهم ، كما لم يكن نشر الدين هدفهم ، لأنهم فى رحلتهم الى الكونغو أو حلهم هناك ، كان للتجارة بالدرجة الاولى ، الا أنهم عندما كسبوا

(46) Lewis, I. . : Islam in Tropical Africa, London 1969, p. 176.

(47) Jameson : op. cit., p. 454.

الأهالى الى جانبهم كان على حساب الأوربيين الذين بذلوا جهدا كبيرا فى التبشير ، الذى كان الاستعمار فى ركابه ، وقارن السود بين كبرياء الأبيض وجفاف معاملته واسترقاقه لهم ، وبين من عايشوهم يدا بيد فى العمل والطعام .

ولقد فشل الأوربيون أكثر من مرة فى نشر المسيحية ، لأن الوطنيين أحسوا بأن مراكزهم انما كانت شراكا لاصطياد الرقيق ، بينما كانت دوافعهم للدخول فى الاسلام :

أولا : ما راوا من مكانة العرب المسلمين ، وتفوقهم عنهم فى المنعة ، ورغم هذا لم يكونوا متكبرين عليهم (٤٨) .

ثانيا : لم ينكر الاسلام عليهم بعض عاداتهم أو تقاليدهم الاجتماعية مثل تعدد الزوجات .

ثالثا : كان فى الاسلام عتق لهم ، فسارعوا الى الدخول فيه ، لما عرفوا أن المسلم لا يسترق (٤٩) ، كما لم يكن اسلام العبيد فرض أو ابعاد له عن تقاليده .

ومن أهم آثار انتشار الاسلام فى الكونغو كانت اللغة العربية ، فهى لغة القرآن والصلاة ، كما انتقلت اللغة السواحيلية أيضا الى هناك ، ويقرر لورد منتور — الذى زار بلاد ارويمى فى شرق الكونغو عام ١٩٠٥ — أنه وجد زعماءهم يقرأون القرآن ويتكلمون اللغة العربية (٥٠) .

وقد بلغ من اعجابهم بالعرب المسلمين أن قلدوهم فى ملبسهم ، فلم يعودوا يرضون بالعرى ، وانما ارتدوا الملابس البيضاء الفضفاضة الطويلة ،

(٤٨) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤ — ٣٦ .

(49) Lewis, I. M. : op. cit., p. p. 187-255.

(50) Groves, C. P. : The planting of Christianity in Africa, vol. 3, p. 134.

ووضعوا عمامة على رؤوسهم(٥١) . ومارسوا معهم طقوسهم الدينية ، كسجودهم فى الصلاة ، واحتفالاتهم بالاعياد الاسلامية ، واغتسلوا معهم فى وضوئهم(٥٢) حتى صاموا معهم شهر رمضان ، وان كان على غير فهم كامل ، ولكن لأن المسلمون يؤمنون بالغيبات ، وهم لهم فى ميثولوجياتهم كذلك ، دهشوا للآذكار التى اقامها المسلمون ، فشاركوهم اياها مستعملين طبولهم ، مرددين معهم « لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٥٣) .

وان الذين دخلوا منهم الاسلام ، دخلوه على المذهب الشافعى ، على نهج عرب الشرق الذين كانوا شافعيين(٥٤) .

التعليم :

كان معظم العرب الذين رحلوا الى الكونغو يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، مما تستلزمه حياتهم التجارية ، ثم انهم كانوا يحفظون القرآن ، ويقرأون كتب الدين ، ولهذا اهتموا فى مهجرهم بتعليم صغارهم وصغار الزنوج ، وكانت العملية التعليمية الزامية . وصرفوا عليها الكثير حتى لا تنقطع صلة الأطفال العرب الروحية بأصلهم العربى الاسلامى(٥٥) .

وقد شاركهم أبناء الزنوج كل هذا ، بل كانوا يرسلون أبناء زعماء الزنوج الى زنجبار ليستكملوا تعليمهم هناك(٥٦) . ويقدر ما اعتنوا بالتعليم النظرى كأساس ، عنوا بتعليم الأولاد زنوجا وعربا ، حرفا منها يرتزقون مثل : الفلاحة ، والبناء ، وصناعة الطوب ، والتجارة ، وصناعة السلاح . بل

(51) Slade, R. : op. cit., p. 85.

(52) Rene, L. : Political awaking in the Belgian Congo, Los Angeles 1954, op. 30.

(53) Wafler, H. : op. cit., p. 275.

(54) March, Z. : East Africa through Contemprory Records, Kamb. 1961. p. 78.

(55) Rene, L. : op. cit., p. 233.

(56) Waller, H. : op. cit., p. 281.

أزاد العرب من اهتمامهم بهذا النوع من التعليم عندما واجهوا ضغوط
الرساليات الأوروبية ، ففضلا عن تعليمهم الحرب — كما ذكرنا — علموهم
التجارة والترجمة ، وجعلوا من رقيق المنازل خدما — رفعا لشأنهم — مما
كان له أثره في انتشار الاسلام والتمسك به دينا ودنيا ، ومهد لادخال
بعثات اسلامية حقيقية ، مثل البعثة الاحمدية عام ١٩٣٥ الى تنجانيقا
وطابورا (٥٧) .

كان هذا التطبيق للدين الاسلامي حافزا للزواج أن يدخلوه افواجا ،
بعكس ما كانوا يرونه في الأوروبيين الذين ما كانوا يطبقون ما يعلمونهم اياه ،
فضلا عن أن الذين دخلوا المسيحية وتعلموا على يد الرساليات ، أصبحوا
لا يصلحون للحياة الافريقية ، بل ودون الصلاحية للحياة الأوربية ، فتمزق
المجتمع الافريقي على أيدي الرساليات ، بعكس العرب الذين نسجوا اواصر
المجتمع الافريقي في الكونغو (٥٨) .

العمارة العربية في الكونغو :

عندما هاجر العرب من بلادهم في شبه الجزيرة العربية الى ساحل
أفريقيا الشرقى حملوا معهم فنونهم المعمارية ، وكذلك فعلوا عندما ضربوا في
قلب القارة السوداء ، فحملوا معهم الأبواب المخروطة ، والأعمدة ذات
الرؤوس والزخارف العربية التي زينوا بها سقوفهم ، والمعادن والنقوش
التي ركبت على النوافذ والأبواب (٥٩) ، وهذا ما لفت أنظار الرحالة الأجانب ،
عندما لم يرتضوا بسكنى الاكواخ كالزنج .

فالقرية العربية كانت مجموعة من البنايات تتوسط العديد من أكواخ
الزواج الذين تجمعوا في سكناهم حول العرب حبا فيهم ، والتماسا للامن
لديهم ، أما القرية فكان محيطها يتكون من ظهور المنازل المغطاة بالملاط ،

(57) March, Z. : op. cit., p. 78.

(٥٨) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

وحولها حظائر الحيوانات ، وأكواخ الزوج ، ووسطها منزل الحاكم (٦٠) .

وفى هذا لم ينس العرب أن ينقلوا الى الكونغو أقدم مبانيهم وعلى المساجد فقد غصت أعالي الكونغو بالمساجد الجميلة التى كانت فيها أروقة للدراسة الدينية والعلمية (٦١) .

آثار العرب الاقتصادية فى الكونغو :

استغل العرب ثروات الكونغو فى أكثر من مجال ، فعندما كان عليهم الانتظار هناك ريثما تعود اليهم القوافل بعد عام أو اثنين ، اتجهوا الى استثمار هذا الوقت ، فكانت الزراعة أول ما فكروا فيه ، فطهروا الأرض من الأعشاب اعدادا لها للزراعة، خصوصا وأن الماء هناك وفير، واستخدموا الزوج فى ذلك ، مقابل الحصول على قوت يومهم ، فتعلموا منهم الزراعة والاستقرار ، الرعى والزراعة المتنقلة (٦٢) ، فأحدثوا ثورة زراعية هناك ، فبعد الاعتماد على الزيتيات كالنخيل أو ثمار الغابات ، أدخلوا غلات جديدة مما كان له أكبر الأثر حتى بعد خروجهم من الكونغو ، مثل القمح والقطن وقصب السكر ، وفواكه مثل الليمون والجوافة وغير ذلك (٦٣) .

وقد خصصوا أماكن معينة لمحاصيل بعينها ، ففى منطقة أونيانيمبي زرعوا الباباز ، والمانجو ، والليمون ، والرمان ، والقشطة ، والليمون ، والليمون الحلو، والقمح والأرز، وفى أوجيجى زرعوا الباباز والليمون والرمان فقط ، كما حسنوا زراعة الموز الذى كان أصيلا هناك فى كاسونجو (٦٤) .

كما أدخلوا زراعات النيلة والقنب ، ومن الحيوان البط والحمام والقطط، وسلالات من الحمير والبغال .

(60) Richard, Ch. : East African Explorers, London 1960, p. 115.

ولوصف المنازل العربية من الداخل يمكن الرجوع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(61) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 366-371.

(62) Salde, R. : op. cit., p. 87.

(63) Rine, L. : op. cit., p. 30.

(64) Stanley, H. M. : Through the dark Cont. vol. 2, p. 123

عنوا بالقطن الذى جادت زراعته شأنه شأن الأرز والذرة ، مستغلين وفرة المياه واتساع الأرض الخصبة ، فجادت زراعته فى الفترة ما بين ١٨٨٥ — ١٨٩٠ عندما أجبر العرب الزوج على زراعة هذه المحاصيل ، حتى أصبح الأرز عصب غذاء الزوج بعد ذلك (٦٥) .

ولقد أجمع المستكشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعى على أنه بعث عربى للكونغو ، كما اعترف بذلك موظفو حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣ فى تقاريرهم بهذا ، وأصدرت الحكومة أوامرها بالحفاظ على هذه النظم والمزارع العربية (٦٦) .

التعدين والصناعة :

لما عرف العرب غنى الكونغو بمعادنه كالحديد والنحاس والفضة والذهب والفحم فى غرب بحيرة تنجانيقا نقبوا عنه واستخرجوا الذهب من وديان الأنهار ، وباعوه فى أسواق مانينا ، كما أسهم العرب فى صناعات يدوية كبيرة ، مستخدمين الزوج معهم كصناعات : الحبال والسلاسل ، الحصر ، النسيج . كما طوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع ونخيل الزيت ، لدرجة أن الأوروبيين استغلوا هذا التطوير فيما بعد فى عملياتهم الصناعية المتقدمة (٦٧) .

أدخل العرب صناعات لم يكن للزوج فى الكونغو عهد بها : كصناعة الصابون ، وصنعه من بوتاس صناعى ، أخذوه من حرق سبائط الموز وأوراقه وخلطه بزيت النخيل (٦٨) .

وراجت حياة الحرفيين كالحدادين والبنائين والنجارين والخياطين والفخارين وصناع الحبال ، وارتفعت أجورهم ، وذلك نتيجة نشاط حركة

(65) Mirack, M. P. : Agriculture in Congo Basin, London 1907. p. 233.

(66) Oliver, R. : History of East Africa, vol. 1, p. 272.

(67) Proceeding of the R. G. Coc. vol. 20, session 70, p. 323.

(68) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free state vol. 2, p. 357.

التعمير والبناء والتجارة . كما انتعشت صناعة الأسلحة النارية وأصلاحها ، وصناعة المذاليج والأقفال والسرّج ، كما اشتهروا بتلوين الفخار (٦٩) .

التجارة والمال :

لم تكن هناك تجارة بالمعنى المعروف قبل وصول العرب الى الكونغو ، ولكن بدخولهم نشطت الأعمال التجارية نتيجة استفلال المجارى المائية التى ربطت بين الكونغو والزمبىزى ، كذلك شق الطرق وقطع الغابات ، وتأمين المرور خلالها (٧٠) .

وكان للعرب نظام للنقل النهري بواسطة القوارب على صنحة نهر اللوالبا ، استطاعوا به ربط كل قبائل المنطقة وأسواقها (٧١) .

كان من نتيجة ذلك أن كثر الطلب على منتجات الاقليم ، وارتفعت الأسعار ، وقد وصف الرحالة أسواقهم هناك التى جلب اليها العرب منتجات الشرق العربى من بلح وسجاجيد ولآلىء ومجوهرات وملح وغير ذلك ليتبادلوه بالعاج ، والرقيق (٧٢) ، وكان من اثره الأسواق التى دعمها الوجود العربى فى الكونغو : أسواق ، نيانجوى ، وأونيانيمبى ، وكاسونجو .

كما نظم العرب مواعيد التثام هذه الأسواق طبقا لمواعيد الحصاد وظروف المناخ ، وتوالد الحيوانات ، ومواعيد وصول أمواج الرقيق والعاج (٧٣) .

وكان من نتيجة هذا استقرار العرب فى مستوطنات فى مراكز التقاء الطرق ، والأماكن التى يسهل على الوطنيين التجمع فيها، وكونوا ارسقراطية عربية وسط القارة تلاهم رؤساء القبائل من الزنوج كتابعين لهم ، معترفين بفضلهم ، فسكنوا حولهم (٧٤) .

(69) Hinde, S. L. : op. cit., p. 201.

(70) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 328-329.

(71) Slade, R. : op. cit., p. 116.

(72) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.

(73) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 333.

(74) Miracl, M. P. : op. cit., p. 332.

أما عن العملة ، فكانت تسمى ريبا Riba أو أجزاء صغيرة من القماش المصنوع من الألياف والأعشاب والقواقع ، وكانت المقايضة هي أساس التعامل آنذاك (٧٥) .

الطب :

اعتمد العرب على الأطباء واستعمال العقاقير والنباتات الطبية ، وقاوموا الشعوذة ، وطاردوا الأطباء السحرة Witch Doctors ، الذين انزوا بعيدا عن قراهم ، وكان الزوج ميسوري الحال ، يعتمدون في علاجهم على الأطباء العرب ، الذين ارتحلوا في ركاب العرب الداخلين إلى قلب الكونغو (٧٦) ، ومن الطريف أن العرب في وجودهم في الكونغو احتفظوا بالابر الطبية والقطن الطبي والخيوط والأدوية التي كان الرحالة الأجانب يحضرونها معهم ، ويحصلون هم عليها منهم (٧٧) . ويقول بيرتون أنه كان لديهم أطباء مهرة عالجه هو من مرضه مثل سنای بن عامر (٧٨) ، كما اشتهر الطبيب محمد بن حلفان في أوجيجي (٧٩) .

كما احتاطوا لأنفسهم من العدوى بالمادة المأخوذة من المرض نفسه ، كالجدري ، وعزلوا المرضى به حتى لا يتفشى المرض بين الأصحاء منهم (٨٠) ، إذ كان الجدري من الأمراض الفتاكة ، التي قضت على الكثير من الأهالي ، كما حدث في عام ١٨٨٧ في سانكورو (٨١) .

حياة العرب العامة في الكونغو وأثرها على الزوج :

عاش العرب في الكونغو عيشة رغبة ، وخالطهم الزوج وشاركهم حياتهم وتأثروا بهم وبسلوكهم ومعاملتهم ومآكلهم وملبسهم ، حتى تأثبت

(75) Jamlson, J. : op. cit., p. 252.

(76) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.

(77) Stanley, H. M. : The Congo and the founding, p. 160.

(78) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 280.

(79) James, B. : op. cit., p. 75.

(80) Lewis, I. M. : op. cit., p. 178.

(81) Stevenson : op. cit., p. 7.

المنازل ، ولكم تعجب الأوروبيون انفسهم من ذلك ، اذ شاهدوا أسرة نومهم ذات الخشب المحفور والمنقوش ، وفرشت بالحرير والسنان ، والناموسيات على الشبايك ، واستعملوا الشموع والقناديل فى الاضاءة ، واقتنوا الكئوس الفضية والبللورية (٨٢) .

كانت زياراتهم واجتماعاتهم منظمة فى مواعيدها ، وفى حجرات واسمة ، معدة لهذا الغرض ، تمر عليهم القهوة فى فناجين جميلة يصبها خدم على جانب كبير من النظافة ، وينهون جلساتهم بالطعام الجماعى (٨٣) .

وطعامهم كان دسما ومنوعا ، كالأرز بالكارى ، وأنواع البهار ، والنحم المطهى بالبصل والمسلى ، والسّمك والطيور والخضروات ، وتناولوا المخبّات كالقهوة والشاي ، ودخنوا الغليون (٨٤) .

كل هذا يدل على حياة الاستقرار والأمان التى عاشوها وعاشها معهم الوطنيون الزوج الذين تعلموا الطهى والتعامل والمجالسة ، فهذا الزعيم سالا سالا كان يأكل الأرز مطهيا ، وقدم لضيوفه الدجاج المحمر والمسلوق (٨٥) ، كما رددوا معهم عبارات الترحيب بالضيوف باللغة العربية ، وشارك الزوج العرب فى وداع ضيوفهم بطبولهم ورقصاتهم الوطنية .

وعندما انخذ العرب زينتهم فى مهاجرهم فى الكونغو ، رصعوا ثيابهم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، قلدهم الزوج فارتدوا الملابس مثّهم وزينوها بأسلوبهم الوطنى بالاسلاك وانياب وعظام الحيوانات ، وصنفت النساء شعورهن مثل نساء العرب ، وحلق الرجال رؤوسهم مثل العرب (٨٦) .

(82) Cameroon, V. : op. cit., pè 47-163.

(83) Cameroon, Ibid, p. 150.

(84) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 329.

(85) Jameson : op. cit., p. 314.

(٨٦) لمزيد عن حياة العرب فى الكونغو وتأثر الزوج هناك بهم ، يرجع الى رسالة يواقيم رزق : المرجع السابق .

وعموما اكتسب الزوج ثقافات ومهارات من العرب جعلتهم أكثر احتراماً في نظر الأوروبيين حين لقاءاتهم بهم ، واستقبالاتهم الرسمية لهم (٨٧) .

ونختتم هذه الدراسة بقول أحد الكونغوليين المثقفين وهو جرينفيل وزير الدولة في حكومة لومومبا : « لقد زور البلجيكيون كل شيء في الكونغو ، فليست مدينة ستانلي فيل من قبل سوى مدينة تيبوتيب القديمة ، التي أقامها قبل قدوم الرحالة ستانلي ، وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق ، وإنما هم تلك الموجة الانسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا ، وتركوا لنا على أرضنا دماءهم ، والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة ، وليس أعز علينا شيء سوى هذا الدم العربي الذي سال في الماضي ، كما يسيل دمنا على بلادنا ... على أيدي نفس أعداء العرب في القرن الماضي » (٨٨) .

(87) James, B. : op. cit., p. 46.

(٨٨) يراقيم رزق : معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

oboiikan.com

دراسة تاريخية للهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا فى النصف الاول من القرن العشرين

للدكتور فاروق عثمان اباطة

مقدمة :

يهدف هذا البحث الى دراسة تاريخ الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين ، باعتبار ان هذا التاريخ يشكل صفحة من صفحات تاريخ العرب فى شرق أفريقيا ، الذى يعد من الصفحات المحيطة فى التاريخ الإفريقى .

وهذه الدراسة لها جذورها التاريخية العميقة التى تتصل بكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ليس بالنسبة لليمن فحسب ، وانما بالنسبة لشرق أفريقيا أيضا . كما ان هذه الدراسة تتصل كذلك بعوامل جغرافية متعددة الجوانب ، وترتبط ارتباطا وثيقا بحركة التاريخ العربى والإفريقى الحديث والمعاصر .

وان ما نعنيه باليمن فى هذا البحث ، هو اليمن بشطريه الشمالى والجنوبى من جهة ، وما نعنيه بشرق أفريقيا فيتمثل فى النطاق الجغرافى الممتد من الحدود الشمالية للصومال — المثل على مضيق باب المندب وخليج عدن شمالا ويصل جنوبا الى كينيا ، وتنجانيقا ، وزنجبار وموزمبيق ، المطلة على المحيط الهندى ، من جهة أخرى . وان اختيارنا لفترة البحث فى النصف الأول من القرن العشرين ، انما يعود لما تميز به هذا النطاق الجغرافى فى الفترة المشار اليها من أهمية ، حيث انعكست عليه كل التأثيرات التاريخية السابقة ، بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما تعرضت هذه المنطقة لتغيرات عديدة فى تلك المجالات وخاصة اثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ، بكل ما نتج عنهما من نتائج عديدة كان لها أعق الأثر على حركة الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا من جهة ، بل وحركة الهجرة الإفريقية الى جنوب اليمن آنذاك ، من جهة أخرى .

وسوف نعالج هذا البحث من الناحية المنهجية بدراسة التعريف العلمى للهجرة وتطبيقه على الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا ، التى سنتتبع حركتها فى النصف الأول من القرن العشرين ، باعتبارها امتدادا طبيعيا لحركتها الدائمة فى العصور السابقة ، وسوف نتطرق بعد ذلك الى ظاهرة تجنيد المهاجرين اليمنيين فى الجيش الايطالى بالصومال ثم نتعقب مجالات انفاق اليمنيين لواردات المهجر فى بلادهم ، وأخيرا نتتبع مدى نجاح اليمنيين بمهجرهم فى شرق افريقيا فى فترة الدراسة ، وكيف تحولت الهجرة بعد ذلك الى البلاد العربية النفطية .

أولا — التعريف العلمى للهجرة وتطبيقه على الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا:

يحدد التعريف العلمى للهجرة بأنها تغيير دائم أو شبه دائم محل الإقامة بصرف النظر عن طول مدة هذا التغيير أو قصره . وتتطلب دراسة الهجرة التعرف على الظروف المحيطة بالمهاجر فى موطنه الأصلى من جهة ، ثم بمحل الإقامة الذى هاجر اليه من جهة أخرى . هذا فضلا عن معرفة "عقبات" التى تحدث أو نظرا نتيجة لعملية الهجرة ، والتى قد تكون طغيفة فى بعض الحالات ، وجسيمة فى حالات أخرى . كما أن هذه العقبات تتأثر بالعوامل الشخصية المحركة للهجرة وما يتصل بها من مقارنة بين عوامل متعلقة بمكان المنشأ وأخرى متعلقة بمكان الوصول . بالإضافة الى ما يمكن أن تحدثه قوانين الهجرة من تأثير فى حركة المهاجر من موطنه الأصلى الى مكان الوصول ، ومدى الاتصالات أو العلاقات الشخصية التى تمهد سبيل الهجرة ، فضلا عن المسافة بين الوطن الأصلى والمهجر ، وان كانت المسافة على الرغم من أهميتها المطلقة ليست هى العامل الأهم فى معظم الحالات .

ويراعى الباحث دائما فى تفسير حركة الهجرة فى عصر من العصور عملية اتخاذ القرار لدى الفرد أو الجماعات ، اذ نجد فى الدراسات الخاصة بالهجرة أن عوامل الطرد والجذب عادة ما يشار اليها لى تساعد على فهم آلية الهجرة وتحديد مدى حيويتها . وفى رأى بعض العلماء أن الهجرة كعملية تحدث بعد اتخاذ الفرد أو الجماعات لقرار من القرارات ينجم عن تقييم لكافة النواحي والبدائل فى الموطن الأصلى من جهة ، والمهجر من جهة أخرى ، « فكل شخص معرض دائما لعوامل فى محل اقامته ، بعضها يمثل قيدا على حركته أو هجرته ، والبعض الآخر يشجعه عليها . كما يؤخذ

فى الحساب أن هناك عديد من العوامل السلبية والايجابية تأتى من الأماكن المختلفة المحتمل الوصول إليها . والقرار الخاص بالتحرك أو عدم التحرك يكون قائما على أساس كل هذه العوامل» (١) .

وتعتبر الهجرة من أهم مجالات البحث ليس بالنسبة للمؤرخين فحسب، بل بالنسبة للمتخصصين فى مجالات العلوم الأخرى كالجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا . وتعتبر المساهمات التى تقدمها فروع الدراسات المختلفة عن الهجرة مكملة ومتصلة ببعضها البعض . ويشكل النقص فى البيانات الإحصائية واحدا من أهم المعوقات فى دراسات الهجرة . وتزيد هذه الصعوبة بالنسبة للهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا وغيرها اذا ما علمنا أن أول تعداد لسكان الشطر الشمالى من اليمن قد أجرى عام ١٩٧٤ ، وأن هذا الشطر الشمالى من اليمن ظل فى النصف الأول من القرن العشرين — وهى الفترة التى نعى بدراستها فى هذا البحث — تحت حكم الإمامة الزيدية معزولا سياسيا وحضاريا عن العالم الخارجى ، منذ جلاء العثمانيين عنه فى مطلع عام ١٩١٩ (٢) ، وحتى قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ وإعلان الجمهورية .

أما بالنسبة للشطر الجنوبى من اليمن فقد ظل طوال تلك الفترة تحت سيطرة بريطانيا منذ احتلالها لعدن فى التاسع عشر من يناير عام ١٨٣٩ (٣) وحتى جلائها عنها فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧ (٤) . ولم تكن الإدارة البريطانية فى عهد تبعية عدن لشركة الهند الشرقية «East India Company» أى منذ احتلالها وحتى انتقال تبعتها الى وزارة الهند «India Office» فى عام ١٨٥٨ (٥) — الا بإحصاء عدد سكان عدن نفسها عدة مرات كان آخرها فى عهد الشركة المذكورة الإحصاء الذى أجرى فى عام ١٨٥٦ وقدر سكان

(1) Kosinski, L. A., & Prothero R. : People on the Move, p 5.

(٢) فاروق عثمان أباطة (دكتور) : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ — ١٩١٨ ، ص ٤٣٢ .

(٣) فاروق عثمان أباطة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ — ١٩١٨ ، ص ١٩٥ .

(4) Gavin, R. J. : Aden Under British Rule, 1839-1967, p. 350.

(5) Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878, XII

عدن بعشرين ألف وستمائة وأربع وخمسين نسمة . وعندما تحولت عدن من تبعيتها لوزارة الهند ، وصارت مستعمرة تابعة « لوزارة المستعمرات البريطانية Colonial Office » فقد أجرى احصاء رسمى لسكان عدن فى عام ١٩٤٦ كان ثانى احصاء يجرى منذ تحولها الى مستعمرة . واقتصر هذا الاحصاء على عدن فقط دون غيرها من النواحي التسع فى جنوب اليمن . وقد اظهر هذا الاحصاء ان سكان عدن كانوا قد بلغوا ٨٠٥١٦ نسمة ، بينها قدر عددهم فى الاحصاء التالى الذى أجرى عام ١٩٥٥ بزيادة واضحة اذ بلغوا ١٣٨٤٤١ نسمة (٦) . واشتمل هذا الاحصاء على تحديد الجنسيات المقيمة فى عدن آنذاك على النحو التالى : اليمنيون ٤٨٠٨٨ نسمة ، والعديون العرب ٢٦٩١٠ نسمة ، وعرب الشرق الأوسط ٢٦٠٨ نسمة ، وعرب المحميات ١٨٨٨١ نسمة ، واليهود ٨٣١ نسمة ، والأوروبيون ٧٢١ نسمة ، والهنود المسلمون ١٠٤٣٥ نسمة ، والهنود البانيان ٤٧٨٥ نسمة ، والهنود الفرس ٥٩٦ نسمة ، بينما بلغ الصوماليون ١٠١١ نسمة (٧) . ويهنا فى بحثنا هذا الاشارة الى زيادة عدد الصوماليين المهاجرين الى عدن آنذاك حيث سنتناول هذه الظاهرة بالدراسة عند الاشارة الى هجرة الافارقة الى اليمن فى ظروف تاريخية معينة .

على ان ثمة دراسات حول الهجرة فى اطار الوطن العربى قد اجريت ونشرت فى بضع نشرات ودوريات ، وحت اشرات مختلفة عن الهجرة اليمنية ، مما يتيح الفرصة للاستفادة منها فى دراساتنا هذه . ومن هذه الدراسات ذلك البحث الذى قام باعداده « هاليدي Halliday » فى عام ١٩٧٨ عن الهجرة الى الدول المنتجة للنفط والذى اهتم فيه بوجه خاص بدور اليمنيين (٨) . وكذلك البحث الذى قام باعداده « سوانسون Swanson » فى نفس السنة والذى اهتم بتحليل النتائج الاقتصادية

(6) The Colonial Office List, 1960, Her Majesty's Stationery Office 1960., p. 56.

(٧) حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .

(8) Halliday, F. :

«Migration and the Labor Force in the Oil - Producing States of the Middle East, kuwait University, Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies, vol. 13, January 1978, p. 65.

للهجرة في الجمهورية العربية اليمنية (٩) . هذا فضلا عن الدراسة التي قام بإعدادها شكيب الخامري حول الهجرة اليمنية الى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتي قدم فيها « نموذجاً من ديترويت بالولايات المتحدة الأمريكية » في عام ١٩٧٩ (١٠) .

ووفقاً لتعداد سكان الجمهورية العربية اليمنية الذي أجرى في عام ١٩٧٤ والذي أشرنا إليه ، تم تقدير عدد المهاجرين اليمنيين بحوالي ١٢٣٤٠٠٠ مهاجر . وقد أشارت إحدى الدراسات الخاصة بأشكال الهجرة في الشرق الأوسط الى أن اليمن تعد واحدة من الدول الأكثر نصديراً للأيدى العاملة في العالم اذا ما قيسست الهجرة منها بالنسبة لعدد سكانها الذي يبلغ تعدادهم ٦٥ مليون نسمة ، كما أن أكثر من نصف الأيدى العاملة في اليمن قد هاجرت أساساً الى الدول النفطية في الشرق الأوسط (١١) . وطبقاً لعدد الأسر في الجمهورية العربية اليمنية والبالغ عددها ٩٠٦١٨٥ أسرة ، يوجد ١٣٦ مهاجر لكل أسرة (١٢) ، وهذا الرقم يشير الى المدى الذي أصبحت تساهم به الأسرة اليمنية في سوق العمالة الدولية ، كما نبي، أيضاً مدى أهمية الهجرة للمجتمع اليمني .

وبينما تعتمد اقتصاديات بعض الدول العربية المنتجة للنفط بدرجة كبيرة على الأيدى العاملة اليمنية التي تقدر بمئات الآلاف ، نجد أن اليمن ذاتها قد شهدت في الآونة الأخيرة نقصاً خطيراً في الأيدى العاملة .

(9) Swanson J. C. :

The Consequences if Emigration for Economic Development in the Yemen Arab Republic, (ph. D. Dissertation) Detroit, Michigan : Wayne State University 1978., p. 17.

(١٠) شكيب الخامري : الهجرة اليمنية الى أمريكا ، نموذج من ديترويت بالولايات المتحدة الأمريكية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، نشرة دورية يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت ، والجمعية الجغرافية الكويتية ، فبراير ١٩٨٢ ، ص ٥٠ .

(11) Halliday, F. : op. cit., pp. 65-66.

(١٢) الجمهورية العربية اليمنية ، الكتاب السنوى للإحصاء ، ١٩٧٦ — ١٩٧٧ ، ص ٥٥ .

وبالنسبة لتنمية الاقتصاد اليمني ، فإن النقص في الأيدي العاملة يعتبر من أهم المشكلات التي تواجه اليمن في الوقت الحاضر . وقد أوضح تقه-رير البنك الدولي في عام ١٩٧٨ عن مشكلة نقص الأيدي العاملة في اليمن « أن هذا النقص في الأيدي العاملة نشأ عن هجرة الأيدي العاملة على نطاق واسع الى الدول العربية المنتجة للنفط ، التي يوجد بها ما يقدر بنحو ٢٠٪ من الأيدي العاملة من الذكور (اليمنيين) » (١٣) هذا في الوقت الذي ازداد فيه الطلب على الأيدي العاملة في اليمن بدرجة شديدة نتيجة للنمو السريع لبرامج التنمية المختلفة التي تقرها الحكومة اليمنية ، وكنتيجة للتوسع المتزايد في النشاط التجاري الخاص . وهذا النقص في القوى البشرية يحد بدرجة خطيرة من فاعلية ادارة الأعمال العاملة في اليمن في الوقت الحاضر . وتكمن المشكلة في استحالة تعويض هذا الفاقد البشري من الأيدي العاملة الناتج عن الهجرة اليمنية ، حيث لا يوجد اقبال على الهجرة الى اليمن في المقابل على نحو ما حدث في عدن في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مما اضطر الحكومة اليمنية لكي تواجه اهداف التطور الاقتصادي السريع لخطة السنوات الخمس أن تقرر جلب ١٠٢٠٠٠ عامل الى اليمن من الهند وباكستان وشرق افريقيا وخاصة من الحبشة والصومال (١٤) ، وأصبحت هذه القضية موضع مناقشات ومفاوضات على المستوى الدولي في السنوات العشر الأخيرة ، فقد سافر وفد يمني مؤلف من موظفين مدنيين ورجال أعمال برئاسة وزير التخطيط الى باكستان في شهر ديسمبر ١٩٧٧ ، وكان الهدف الأساسي لسفر هذا الوفد هو التوصل الى اتفاق مع الحكومة الباكستانية لارسال عمال الى اليمن . وبدأت حكومة الجمهورية العربية اليمنية في نفس الوقت في البحث عن حلول لمشكلة الهجرة اليمنية — التي يصعب السيطرة عليها — الى خارج البلاد . فاول مرة تصدر حكومة صنعاء قوانين في عام ١٩٧٥

(١٣) نشرة البنك الدولي لعام ١٩٧٨ (١/١ — ١١) .

(14) Gubari, M. A. :

«An Interview with Minister of Economy in the Yemen Arab Republic, on A Number of Internal Issues» kuwait University, Journal of the Gulf and Arabian peninsula Studies, vol. 13, January 1978, pp. 126-127.

تمنع هجرة الأيدي العاملة اليمنية ، كما قررت الحكومة الامتناع عن إصدار جوازات سفر جديدة كخطوة أولى للحد من آثار تلك المشكلة (١٥) .

ومن جهة أخرى فقد كان للهجرة اليمنية تأثيرا ايجابيا على الدخل القومى فى شطرى اليمن . فعلى الرغم من أن الجمهورية العربية اليمنية تعتبر دولة زراعية ، إلا أن دخلها من العملات الصعبة كبيرا . وقد جاء هذا الدخل من مدخرات المهاجرين العاملين فى الخارج بصفة أساسية طبقا لبيانات البنك المركزى فى صنعاء . فقد ازداد حجم التحويلات المألفة الخاصة بدرجة هائلة خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ حتى بلغت قيمة هذه التحويلات فى عام ١٩٧٧/١٩٧٦ كما تشير البيانات المذكورة ٥١١ مليون ريال يمنى ، أى أكثر من بليون دولار أمريكى . ويشمل هذا الرقم اجمالى التحويلات الخاصة من العملات الأجنبية الى الريالات اليمنية . ويأتى القدر الأكبر من هذ التحويلات من المهاجرين لفترة قصيرة الذين يرسلون مدخراتهم الى أسرهم فى اليمن (١٦) . وقد أعلن محمد عبد الوهاب غوبارى الذى كان وزيرا للاقتصاد فى الجمهورية العربية اليمنية آنذاك أن الاقتصاد اليمنى أصبح يعاني من أكبر عجز فى الميزان التجارى فى العالم (٩٥٪) . وعلى النقيض من ذلّى فإن لدى اليمن فائضا فى ميزان المدفوعات ، وتنتج المسألة كنتيجة طبيعية للتحويلات المألفة التى يقوم بها المهاجرون اليمنيون الى وطنهم الأم (١٧) .

وتجدر الإشارة الى أن الواردات غير المنظورة من النقود الى اليمنيين فى وطنهم الأم من اقاربهم فى المهجر بشرق افريقيا وغيرها كانت ضخمة بالنسبة لحجم تجارة بلدهم ، ولهذا اثرت هجرة اليمنيين على أحوالهم الاجتماعية فى وطنهم من حيث خلق رخاء مستعار مزيف ومعتمد على مصادر غير موثوق بها . وكان هذا الحال شغل المفكرين الشاغل فى اليمن الذبن

(15) Steffen, H. :

Yemes Arab Republi, Final Report. Sana'a, Y. A. R. and Zurich, Switzerland, Central planning Organization and Dept. of Geography, University of Zurich, 1978, p. 93.

(16) Steffen, H. : op. cit., pp. 93, 94.

(١٧) شكيب الخامرى : المرجع السابق ، ص ١٩ — ٢٠ .

كانوا يرون أن الهجرة المستمرة أضرت باليمنيين أكثر مما نفعتهم . كما أن مستوى المعيشة العالى نسبيا الذى تعود عليه المهاجرون فى خارج اليمن والسهولة التى ألفوها لدى كسبهم العيش فى المهاجر لا تستطيع أن تقدم لهم مثله بالبيئة اليمنية ذاتها الا بالعمل الشاق والصبر المضى الطويل . لذلك فإن أكثر الناس تعاسة فى اليمن وخاصة فى المناطق الصحراوية قليلة الوديان كحضر موت هم الذين يحملون عقليات المهاجر ، ولا يطبقون الملاءمة بين طاقاتهم المحتملة التى يتطلبها كسب العيش من التربة الحضرية .

وقد حال توفر العيش باليمن عامة بحضر موت خاصة على حساب المهاجر ، دون تفكير اليمنى فى مستقبله ، ومرت القرون وهو سادر فى غيه ، مطمئن الى ما تدره عليه المهاجر من اموال تكفيه مشقة عنت العيش . لذلك نظر اليمنى الى وطنه وكأنه منزل ذكريات مؤلمة ومضحكة فى آن واحد ، لأنه وطن فى نظره يعيد الى ذاكرته أيام الفاقة والحرمان والعيش النكد المحدود أيام الصبا . وطفق المهاجر اليمنى فى غدوه ورواحه بين وطنه والمهجر . يرفع تدريجيا من مستوى معيشته ويعقد أكثر فأكثر ، بفضل مكاسبه الخارجية المستعارة ، استهلاكاته المنزلية ، ولكنه لم يحاول الا فى حدود ضيقة لا تكاد تذكر تعمير أرضه ليجعل منها فى وقته مصدر رزق أوفر مما كان على عهد آبائه واجدادهم ، والذى استطاع عمله فى أحسن حالاته ، هو أنه جعل بلاده — وخاصة فى منطقة حضر موت التى تعاظمت نسبة المهاجرين منها — تنطق بخيرات المهاجر فى الأجور والسكن والمطعم والملبس ، فخلق بتعدد أو بدون قصد ، هوة سحيقة بين حضر موت الحقيقية وحضر موت الاصطناعية . وعلى مر السنين ظلت جذوة القلق من طغيان الرخاء المستعار الذى تتيحه الهجرة والمهاجر لليمنيين — وخاصة الحضارمة — حية فى نفوس بعض مفكرهم تواكب روح الارتياح الذى غمر آخرين من عيشة المهاجر ومعطياتها . وقد صور الأدب اليمنى تلك الهواجس المفرحة والمحنة شعرا أبلغ ما سورها أى شئ آخر . وسوف نورد فيما يلى مقتطفات شعرية من الأدب الحضرى لجرد الدلالة على ما شغل أذهان الحضارمة عبر القرون الطويلة فى مجال الهجرة التى جعلتهم يأكلون لقماتهم مع غصة التخوف من فقدانها ، بين محبذ للهجرة ، ومنفر لها .

وعندما اختلفت موازين العيش السهل الرتيب لأهالى حضر موت

المعتمدين على أقاربهم فى المهجر — على سبيل المثال — من جراء احوال الحرب العالمية الثانية ، وانقطع وارد الأموال من بلاد المهجر ، فقد أسقط فى يد أثرياء المهجر المقيمين بحضرموت ، وزادت هجرة الكثيرين منهم الى عدن (١٨) ، وبرزت لهم بلادهم ساخرة شامخة ما يعانون ، فكانت مبعاعة عام ١٩٤٣ المروعة التى أودت بحياة خمسة عشر ألف شخص معظمهم من العمال الذين كانوا يدورون فى فلك الأثرياء ، الذين باعوا أحجارهم الكريمة وأثاثهم وملابس نسائهم وفرشهم وأوانيهم ، ومنهم من عاش على الديون الجائرة والهبات الحكومية الى أن انتشعت غاشية المجاعة ، وأما اليمنيين الذين ظلوا ملتصقين بالأرض ، فلم تصبهم المجاعة بأذى . فعاش المزارعون والصيادون ، وذووا الحرف الأساسية الصغيرة ، وأرباب الماشى والدواجن ، بعيدين عن التيارات الخارجية وما جرت به من بلوى على بلادهم .

ثانيا — حركة الهجرة اليمنية الى شرق أفريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين :

تعتبر المنطقة الممتدة من مسقط الواقعة على الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية ، من جهة أولى ، والى موزمبيق على الساحل الشرقى لافريقيا ، من جهة ثانية ، والتى تشكل قاعدة لمثلث تتمثل قمته فى برزخ السويس فى أقصى الشمال ، من جهة ثالثة ، فيضم فى داخله جزءا من المحيط الهندى وبحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر بساحليه الآسيوى والافريقى ، انما تمثل هذه المنطقة الكبرى فى مجموعها نطاقا جغرافيا وحضاريا متكاملما فى مختلف النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بوجه عام . اذ نشطت حركة الهجرة بين سكان هذا النطاق من مكان الى آخر ، وخاصة هجرة العرب واليمنيين بوجه عام ، والحضارمة بوجه خاص ، الى مناطق شرق افريقيا ، وهجرة عناصر افريقية الى اليمن بصفة خاصة

(١٨) حمزة على ابراهيم لقمان : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .
وقد اشار الى أن أغلب العمال اليمنيين وعرب المحميات يأتون الى عدن للبحث عن أعمال فيها ، ويتركون عائلاتهم فى بلادهم ، وأغلبهم وخصوصا اليمنيون ، يعيشون حياة بسيطة بالنسبة لعرب عدن وبقيسة الأجناس ، وكثيرون لا يسكنون فى بيوت ، بل يستقلون جو عدن المناسب الذى لا تهبط حرارته الى أقل من ٧٠ درجة فاهرنهيتية فى الليل فيفرسون سرهم على الأرضة وفى الميادين وحتى فى سفوح الجبال .

والى الجزيرة العربية بصفة عامة ، نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية متنوعة عبر عصور التاريخ (١٩) . وقد ساعدت على ذلك سهولة الاتصال البحرى بين سواحل الجزيرة العربية الغربية والجنوبية والشرقية من جهة ، والسواحل الافريقية الشرقية المثلثة فى السودان والحبشة والصومال وكينيا وتنجانيقا وزنجبار وموزمبيق من جهة اخرى (٢٠) ، والتي أطلق العرب على الجزء الجنوبي من تلك السواحل « بر الزنج » (٢١) . ويرجع تحقيق ذلك الى عامل مناخى جغرافى هام يتصل بحركة الرياح التجارية ، التى تهب من الشمال والشمال الشرقى فى الشتاء ابتداء من شهر ديسمبر ، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية شهر فبراير ، كما تعكس هذه الرياح اتجاهها مع أوائل الربيع وأثناء الصيف ابتداء من شهر أبريل حتى أواخر شهر سبتمبر ، ويتفق ذلك أيضا مع اتجاه الساحل الغربى للمحيط الهندى ، الذى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من موزمبيق وتنجانيقا وزنجبار ، الى مدخل خليج عدن وموانئ جنوب الجزيرة العربية على الساحل اليمنى ، ثم الى خليج عمان فى أقصى الشمال الشرقى (٢٢) .

وقد استفاد البحارة والتجار العرب عامة ، واليمنيون بوجه خاص ، من هذه الظاهرة عبر عصور التاريخ ، وساعدتهم على ذلك معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات الجغرافية بالشمس والكواكب . وترتب على ذلك استقرار جاليات عربية بوجه عام ، ويمنية بوجه خاص ، على سواحل

(19) Ingrams, William H. :

A Report on the Social, Economic, and Political Condition of the Hadramawt, London, Colonial Office, 1936, pp. 141, 144.

(20) Leubuscher, C. :

Tanganika Territory, p. 15.

(٢١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية بالقاهرة ، العدد ١٤ ، لسنة ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، ص ١٦٩ .

(22) Hollingsworth, L. W. :

Zanzibar under the Foreign Office, pp. 1, 10.

البحار الشرقية وخاصة سواحل إفريقيا الشرقية لخدمة الأغراض التجارية (٢٣) . بل ان موقع اليمن الفريد في الركن الجنوبي الغربى من الجزيرة العربية جعلها أكثر قربا من الساحل الشرقى لإفريقيا من جهة ، كما جعلها تتحكم فى حركة المرور من البحر الأحمر واليه من جهة أخرى . كما أدى هذا الموقع الى مساعدة اليمن على القيام بدور بارز فى تاريخ التجارة الدولية منذ أقدم العصور ، وعلى إقامة علاقات واسعة مع العالم الخارجى . فقد كان اليمنيون منذ العصور القديمة يقومون بتنظيم التجارة التى كانت تصل الى مصر وبلاد الرافدين وبلاد المشرق العربى عامة ، ومنها تنقل الى أوروبا بعد ذلك ، سواء أكانت هذه التجارة من بلادهم أو من إفريقيا أو الشرق الأقصى . وكان لليمنيين تاريخ بارز فى التجارة العالمية ، كما كانت لديهم خبرة كبيرة بالأسواق ، حتى أنهم احتكروا جزءا كبيرا من التجارة أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، هذا الأسلوب الذى دفع اليمنيين التجارة أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، هذا الأسلوب الذى دفع اليمنيين الى جعل المحيط الهندى بجانبه الاسيوى وإفريقيا ميدانا لنشاطهم ، وأسسوا هناك العديد من المراكز التجارية الهامة ، وحققوا فيها ثروات طائلة . ومع انتشار الاسلام فى القرن السابع الميلادى وفى أعقابها زادت الهجرات الى هناك ، واندمج العرب مع أهال تلك البلاد ، ونتج عن ذلك أجناس ولغات وعادات جمعت كثيرا من الصفات المشتركة بين العرب وأهالى بلاد الأصليين (٢٤) . وقد حدث ذلك الاندماج بطريقة طبيعية سلمية دون اللجوء الى أساليب القوة والقمع والاضطهاد . وقد نجح العرب فى تكوين إمارات عربية اسلامية فى تلك الجهات ، ثم تقلصت تلك الإمارات تحت

(23) Drewes, A. Y. :

Sabaeen Inscription for Ethiopia, p. 3.

انقضى هذا البحث فى ندوة الحضارة اليمنية فى عدن (٢٢ — ٢٧ فبراير ١٩٧٥) بعنوان « نقوش سبئية من الحبشة » وقد أورد « دريفز » وثائق تؤكد إقامة أعداد كبيرة من السبئيين بالحبشة فيما بين عامى ٥٠ — ٣٠٠ ق . م . وأن اللغة السبئية قد تركت أثارا واضحة فى لغة الحبشة القديمة آنذاك مما يؤكد أن الهجرة اليمنية الى شرق إفريقيا قديمة العهد .

(24) Coupland, R. .

East Africa and Its Invaders, p. 21.

(م ١٧ — العرب فى إفريقيا)

السيطرة الأوربية ، وخلفت جاليات عربية اسلامية لها مكانتها هناك (٢٥) .
وكان لليمنيين بصفة عامة ، وللحضارمة بصفة خاصة ، دور كبير فى هذا المجال (٢٦) .

وكان اليمنيون يقومون بتصريف منتجاتهم من النسيج ، وصناعة الحلى ، والوانى المزخرفة ، ومركبات الروائح العطرية ، ومستحضرات البخور والصمغ ، والسبك المجفف ، والملح ، والتبغ الحمى ، والاعشاب الطبية ، وأعشاب الصباغة . وكان اليمنيون يستوردون من شرق افريقيا اخشاب بناء السفن ، والحديد ، والقصدير ، والنحاس ، والأحجار الكريمة ، وأنعاج ، والقطن ، والتوابل ، والسهم ، والأرز ، وغيره من المواد الغذائية . وكان الكثيرون من اليمنيين يستقرون فى تلك المناطق ليقوموا بدور الوسيط فى العمليات التجارية . كما كانت السفن اليمنية المنطلقة من موانئ اليمن الجنوبية كالشحر والمكلا وعدن ، والغربية كموانئ مخا والحديدة ، فضلا عن موانئ عسير كاللحية وميدى وجيزان — التى انضمت الى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٣٤ — كانت تلك السفن اليمنية تنقل البضائع من اليمن الى شرق افريقيا . ورغم تدخل السفن الأوربية فى هذا المجال منذ مطلع العصور الحديثة ، فقد ظل اليمنيون يمارسون ذلك العمل الملاحي البحرى والتجارى فى وجه الأخطار المحدقة والمنافسة الضاربة ، فى تحرك موسمى منتظم على سفنهم الشراعية . وقد بلغ اليمنيون — والحضارمة على وجه الخصوص — الى جانب العمانيين ذروة المجد فى مجال الملاحة البحرية بين سواحل الجزيرة العربية وشرق افريقيا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين بدأت مراكزهم فى التدهور بسبب منافسة السفن البخارية الأوربية لهم فى هذا المجال .

فمن الموانئ اليمنية ، مثل ميناءى مخا والحديدة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وعدن والمكلا والشحر المطلة على بحر العرب ، وهى موانئ

(٢٥) جمال زكريا قاسم (دكتور) : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ، مجلة كلية الآداب — جامعة عين شمس ، العدد (١٠) مايو ١٩٦٧ ، ص ٢٧٧ — ٢٣٠ .

(٢٦) محمد عبد القادر بامطرف : الهجرة اليمنية ، مجلة الثقافة الجديدة ، عدن ، العدد ٦ — ٧ ، السنة الأولى ١٩٧١ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

ترتبط بالمرتفعات والسهول اليمنية الداخلية المكتظة بالسكان عن طريق القوافل ، انطلقت موجات الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا حيث استقبلتهم موانئ الصومال وكينيا وتنجانيقا وزنجبار وموزمبيق وهناك عملوا كمزارعين وتجار وحرفيين ، فضلا عن اشتغالهم بأوجه التعليم الدينى ، وأخيرا استغل بعضهم بأعمال الجندية (٢٧) . وقد زادت هجرة اليمنيين الى شرق افريقيا اثناء العصر الاسلامى ، واستمرت حتى مجيء البرتغاليين فى مطلع العصور الحديثة ، وظلت حتى العصر العمانى ، وحتى خضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية الأوربية من جديد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبقيت حتى النصف الأول من القرن العشرين (٢٨) موضع دراستنا فى هذا البحث .

وتجدر الإشارة الى أن الاسلام قد انتشر فى شرق افريقيا عن طريق التجارة وما صاحبها من هجرة للعناصر العربية بصفة عامة ، واليمنية والعمانية بصفة خاصة ، فى أعقاب ظهوره فى القرن السابع الميلادى ، ولهذا فان نسبة المسلمين تزداد على السواحل ، وتنقص بالاتجاه نحو الداخل (٢٩) . ويصدق هذا فى المناطق التى تقع فى جنوبى خط الاستواء ، أما المناطق الواقعة الى الشمال منه فان الاسلام يعم حتى يصبح الدبابة الوحيدة فى الصومال ، وذلك لقرب تلك البقاع من شبه الجزيرة العربية وسهولة الاتصال بين سواحلها والساحل الشرقى لافريقيا . ومع نهاية العصور الوسطى كانت المدن الاسلامية تنتشر على طول هذا الساحل من سواكن بالسودان شمالا الى موزمبيق جنوبا ، وكانت بمثابة مراكز تجارية نشطة ومجتمعات اسلامية مؤثرة (٣٠) .

(27) Tarcici, A. :

The Queen of Sheba's Land, Yemen, (Arabia Felix), p. 129.

(٢٨) محمد السيد غلاب وآخرون : البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة فى العالم المعاصر ، دراسة أعدت بمناسبة المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض (صفر ١٣٩٩ هـ / يناير ١٩٧٩ م) ، ص ٦٥٧—٦٦١ .

(٢٩) حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ج ١ ، ص ٤٣٤—٤٣٩ .

(٣٠) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

وعندما جاء البرتغاليون الى المحيط الهندي فى نهاية القرن الخامس عشر شرعوا فى احتلال زنجبار فى سنة ١٥٠٣ ، واستولوا على مدينة كلوة فى سنة ١٥٠٥ ، وانتشروا فى مياه المحيط الهندي ، حتى دخلت مناطق النفوذ البرتغالى تحت السيطرة الأسبانية (١٥٨٠ — ١٦٤٠) . ثم بدأ النفوذ البرتغالى ينحسر عن شرقى افريقيا حتى بدأت مدنها تستعيد قوتها ومجدها . اذ تمكن العمانيون من بسط نفوذهم على الساحل الشرقى لافريقيا وتمكن اليعاربة (اسرة بنى يعرب) الذين حكموا عمان أن يقضوا على ما بقي للبرتغاليين من نفوذ فى مدينة « ممبسة » فى كينيا بل تعقبهم حتى موزمبيق ، وأصبحت السلطة فى ساحل افريقيا الشرقية مرتبطة بعمان حتى انتهت سلطة اليعاربة فى عمان فى عام ١٧٤١ وجاء سلطان السعديين . وفى عام ١٨٣٢ نقل سلطان عمان سعيد بن سلطان عاصمته من مدينة مسقط الى زنجبار ، وهكذا ارتبط القسم الشرقى من كينيا بزنجبار .

وفى عام ١٨٥٦ توفى سلطان عمان سعيد بن سلطان فقسمت مملكته بين ولديه ، فحكم ابنه ثوينى عمان ، وحكم ابنه الآخر ماجد زنجبار . ثم قام سلطان زنجبار ماجد بنقل عاصمته من زنجبار الى دار السلام على ساحل البر الافريقى . وبعد وفاة ماجد خلفه أخوه الصغير برغش ، وضعفت السلطة العمانية فى شرق افريقيا تدريجيا ، وتعرضت المنطقة لهجمة استعمارية جديدة ، تواطأت عليها الدول الأوروبية واقتسمت سلطنة زنجبار فيما بينها ، فكان نصيب انجلترا القسم الأوسط من الساحل الذى عرف باسم كينيا . وقد تنازل سلطان زنجبار عنها وهو يومذاك السلطان سيد خليفة الذى أعقب برغش أثر وفاته قبل عام ١٨٨٨ . وأصبحت المنطقة قسمين : المحمية وهى المنطقة الساحلية التى تتبع اسميا سلطان زنجبار ، والمنطقة الداخلية التى غدت مستعمرة بريطانية . ثم تنازل سلطان زنجبار بعد ذلك عن ممتلكاته تحت الضغط البريطانى فى عام ١٩٦٣ ، وتوحد الجزءان باسم كينيا ، التى نالت استقلالها فى عام ١٩٦٤ . وقد ارتفع عدد سكان عاصمتها نيروبي من ٥٣ ألفا فى سنة ١٩٤٥ الى ٩٥ ألف فى سنة ١٩٥٢ ، ويوشك المجتمع هناك أن يتخطى الحدود من اقتصاد ريفى

الى اقتصاد قوامه الصناعة والمال الحضري مما يوحى بظهور طبقة عمالية عريضة (٣١) .

ويقدر عدد سكان كينيا بأحد عشر مليوناً ، ولا تقل نسبة المسلمين بينهم عن ٣٥٪ فيكون عددهم زهاء ٣٨٥٠.٠٠٠ نسمة ، وتوجد بينهم نسبة كبيرة من الحضارة اليمنيين وخاصة في ميناء ماليندى (٣٢) .

أما بالنسبة لموزمبيق فيبلغ عدد سكانها سبعة ملايين نسمة وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٢٥٪ ، وتعيش على الساحل جماعات من الهنود معظمهم من الاسماعيلية . وقد حكمت البرتغال موزمبيق من مستعمراتها « جوا » في الهند ، ثم أصبحت موزمبيق مستعمرة مفردة ، وحصلت على استقلالها بعد حدوث اضطرابات عنيفة . ويقدر عدد الأوربيين في موزمبيق بتسعين ألفاً ، ومعظمهم من البرتغاليين ، وهم يتمتعون بامتيازات واسعة ويوجد الى جانبهم خمسة وعشرون ألفاً من المولدين نتيجة التزاوج المعروف المختلط ، ويحظون هناك ببعض الامتيازات ، كما يوجد بالبلاد خمسة عشر ألفاً من الاسيويين بين عرب وهنود (٣٣) .

أما بالنسبة لتنجانيقا فيبلغ تعداد سكانها الأربعة ٧٤٠.٠٠٠ نسمة ، والعرب ١٣.٠٠٠ نسمة ، والهنود ٤٥.٠٠٠ نسمة ، والأوربيون ١٦.٠٠٠ نسمة . وكان بين العرب هناك نسبة كبيرة من المهاجرين اليمنيين (٣٤) .

وكانت هجرة اليمنيين الى شرق افريقيا تزداد مع تعرض بلادهم عبر العصور المختلفة لألوان من الصراع المذهبي ، والظلم السياسى ، والضرائب الباهظة ، ومعاناة الجفاف ، والأوضاع الاقتصادية الصعبة ، ومن ثم أصبحت الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا ومناطق المحيط الهندى تقليداً منظمها لدى اليمنيين يتوارثونه جيلاً بعد جيل (٣٥) . كما كانت هجرة الأمازيغة الى اليمن

(٣١) بازيل دافيدسون : صحوة افريقيا ، ترجمة عبد القادر حمزة ، ص ١١٩ .

(٣٢) محمد السيد غلاب وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٦٣ .

(٣٣) محمد السيد غلاب وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٦٧ .

(٣٤) بازيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

(35) Stookey, R. W. : Yemen, The Politics of the Yemen Arab

فى بعض فترات التاريخ ناتجة عن نفس الظروف ، وتأكيذا للامتداد الطبيعى بين اليمن وشرق افريقيا وتقاربهما ، وحاجة كل من المنطقتين لى تكميل كل منهما الأخرى(٣٦) ، اذا ما اقتضت المتغيرات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ذلك بين آونة وأخرى(٣٧) ، الأمر الذى سنلاحظه بوضوح نلى مدار هذا البحث .

وقد ساعد على تنشيط الهجرة من الجزيرة العربية بصفة عامة ، ومن اليمن بصفة خاصة ، الى الساحل الشرقى لافريقيا ، تميز هذا الساحل الممتد من مضيق باب المندب شمالا الى « سوفالا » جنوبا بثروته السمكية ، وبحيرانه الشاطئية التى يتوافر فيها الملح ، فضلا عما تميزت به المنطقة الداخلية من بحيرات مالحة ، وينابيع للمياه العذبة ، ورواسب معدنية منها الحديد والذهب والنحاس . وقد أدى الافتقار الى الوثائق التاريخية الى الاعتقاد بأن الاتصال ما بين الداخل والمرافىء المتناثرة على لساحل شرقى لافريقيا كان معدوما خلال القرون التى سبقت مجيء البرتغاليين الى المحيط الهندى فى نهاية القرن الخامس عشر . غير أنه ظهرت أدلة جديدة تثبت أنه لم يكن من الممكن فرض التجارة بعيدة المدى فجأة على مجتمعات الداخل ، وأنها جاءت بالأحرى لتنضم الى شبكات من علاقات التبادل المحلية والاقليمية فى المنتجات الغذائية والمماشية بشكل خاص فى الملح والأدوات الحديدية والعاج . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر كانت طرق القوافل بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق الداخلية قد استقرت تماما بهدف مواجهة الطلب المتزايد على انتاج تلك المناطق واستجابة لحركة التجارة العالمية فى المحيط الهندى والتى كان لليمنيين دور ملحوظ فيها صاحبه هجرة كثير من اليمنيين الى الساحل الشرقى لافريقيا(٣٨) .

واذا كانت العلاقات التجارية بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق

(36) Gullain : Documents sur l'Historiques et le Commerce de l'Afrique Oriental, Tome 1, p. 22.

(٣٧) جلال يحيى (دكتور) : العرب فى شرق افريقية ، مجلة نهضة افريقية ، السنة الثانية ، العدد ٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٩ .

(٣٨) جوزيف فريدريك موبيليزا : طرق القوافل بشرق افريقيا ، مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ٢٧٧ ، يونية ١٩٨٤ ، ص ٢٧ .

الداخلية التى شاركت فيها العناصر اليمنية المهاجرة ، قد نهضت على بنى أساسية اقتصادية محلية سابقة عليها ، وساعدت على قيامها فى بعض الحالات ، فانها قد تركت فيها مع ذلك آثارا عميقة . فهى لم تؤد الى تعزيز استغلال ثروات افريقيا الشرقية الطبيعية والبشرية فحسب ، وانما انضمت كذلك الى حدوث تحولات اجتماعية وسياسية فيها . بل أن هذه العلاقات التجارية بين ساحل شرق افريقيا والمناطق الداخلية قد يسرت اندماج افريقيا الشرقية فى الاقتصاد العالمى على أسس غير متكافئة ، من حيث انها كانت تتمثل فى معظمها فى تصدير المواد الأولية الانريقية واستيراد مسود استهلاكية مصنعة ، الأمر الذى أدى الى اختلال البنى الانتاجية والاستهلاكية واضطراب نظم الانتاج والتبادل القائمة . وفى اطار هذا الاقتصاد العالمى كان المشتغلون بصيد الفيلة وحشد الرقيق ، وكذلك الحمالون ، وبشكل غير مباشر منتجو المواد الغذائية ، هم الذين مهدوا السبيل فى منتصف القرن التاسع عشر وفى أعقابها لقيام حركة هجرة العمال الصناعيين والزراعيين ، الذى أصبحوا يشكلون القوى العاملة فى خدمة أغراض الاستعمار الأوربى لشرق أفريقيا حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين (٢٩) . على أنه تجدر الإشارة كذلك الى أن تجارة القوافل بين الساحل الشرقى لافريقيا والمناطق الداخلية ، والتى شارك اليمنيون فيها ، قد ساعدت على انتشار اللغة السواحلية من الساحل الى الداخل ، مما أحال الى وحدة ثقافية واحدة منطقة تضم زامبيا ، ومالاوى ، وشرق زائير ، وشمال موزمبيق . كذلك كان من آثار توسع الحركة التجارية نحو الداخل انتشار الدين الاسلامى فى هذه المنطقة من القارة دون حاجة الى جهاد أو حروب ، وذلك من خلال العناصر اليمنية المشاركة فى هذه الحركة ، وخاصة الحضارمة (٤٠) .

واذا كان التجار والمهاجرون اليمنيون بصفة خاصة ، والعرب بصفة عامة ، قد اكتفوا قبل ثمانينات القرن الماضى وتسعيناته بالعمل فى المناطق الساحلية بشرق افريقيا ، فان ذلك كان عائدا لجهود البريطانيين والألمان

(٢٩) على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقية فى العصر الحديث ، ص ٢٢٧ .

(٤٠) جوزيف فريدريك موبيليزا : المرجع السابق ، ص ٢٨—٢٩ .

التي بدات تنفذ الى المنطقة باطراد(٤١) ، وتتهدد مصالح العرب فى المناطق الداخلية من شرق افريقيا ، وازاء هذا الوضع الأخير حاول العرب فرض سيطرتهم السياسية على بعض المناطق بغية حماية مصالحهم التجارية . وكان الأوروبيون الموجودون فى المناطق الداخلية من شرق افريقيا يشتغلون بالتجارة أو يعملون كأعضاء فى بعثات تبشيرية ، وكانوا جميعا يرغبون فى أن تحتل حكومات بلادهم هذه المنطقة لى ينعموا بالحماية والأمن ويطلقوا أيديهم فى تحقيق أهدافهم دون عائق . وكانت الأساليب التي اتبعها الأوروبيون للتغلغل فى المنطقة تختلف من مكان لآخر ، لكنها كانت تشترك فى مجموعها فى اللجوء الى القوة والعمل حيثما أمكن على عقد الاحلاف الدبلوماسية مع جماعة ضد جماعة أخرى . وكان رد الافريقين على ذلك عسكريا او دبلوماسيا ، وأن تمثل أحيانا فى الانسحاب أو الامتناع عن التعاون أو اتخاذ موقف سلبي . وفى أثناء القرن التاسع عشر زاد العرب بوجه عام ، واليمنيون بوجه خاص ، ممن كانوا قد هاجروا الى شرق افريقية، من انشطتهم فى المناطق الداخلية حرصا على تلبية الطلب المتزايد على العاج والرقيق ، وترتب على ذلك ازدهار تلك التجارة التي صاحبها نشوء مدن كثيرة على امتداد الساحل . ومع مجيء الألمان أصبحت هذه التجارة فى خطر بسبب سعيهم الى احلال تجارتهم الألمانية محل التجارة العربية(٤٢) . وقد ساء ذلك السكان المحليين وأثار استياء العرب واليمنيين بشكل خاص ، مما جعلهم يعمدون الى المقاومة . وكان الألمان فى تنجانيقا شأنهم فى ذلك شأن الانجليز فى كينيا ، فى نهاية القرن الماضى ، متمرسين فى تطبيق سياسة « فرق تسد » عن طريق التحالف مع فريق ضد آخر ، وكانت هناك أحلاف كثيرة من هذا النوع . غير أن عرب الساحل وخاصة من حديثى العهد بالهجرة ومنهم عناصر يمنية هم الذين وضعوا أنفسهم بعد ذلك فى خدمة الألمان ، كما وضعوها فى خدمة الانجليز والايطاليين ، نكانوا بذلك أول من استخدمتهم القوى الاستعمارية من المحليين لتحقيق أهدافها(٤٣) .

(41) Davidson, A. B. and others : A History of Africa 1918-1967, p. 348.

(42) Davidson, A. B. and others : op. cit., p. 349.

(٤٣) هنرى موانزى : شرق افريقيا ، الدبلوماسية والتحدى ، مجلة رسالة اليونسكو العدد ٢٧٦ ، مايو ١٩٨٤ ، ص ٣٠ — ٣١ .

وتجدر الإشارة الى أن الصراع الانجليزى الفرنسى — بعد أمون نجم البرتغاليين فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى وانحسار النفوذ الهولندى فى الجانب الشرقى من المحيط الهندى — قد انتهى بشكل خرجت منه بريطانيا ولها تفوق ملحوظ فى سواحل شرق افريقيا ، وخاصة فى أعقاب احتلالها لعدن فى ١٩ يناير عام ١٨٣٩ (٤٤) . هذا فضلا عن ظهور طلائع الايطاليين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى هذه السواحل وظهور الألمان هناك فى نهاية القرن المذكور . فقد أثر ذلك فى مستقبل العرب بوجه عام ، واليمنيين بوجه خاص ، فى شرق افريقيا ، مع تفوق بريطانيا المحفوظ بإمكاناتها الضخمة سياسيا واقتصاديا وعسكريا وتبشيرا على إمكاناتهم (٤٥) ، مما سمح لها بفرض سيطرتها بالقوة دون أن ينازعها فى ذلك منازع ، بحيث تحقق لها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية فى النصف الأول من القرن العشرين المركز الأول فى تحريك دفة السياسة والاقتصاد فى الجانب الشرقى من القارة الافريقية (٤٦) ، ومكنها من وضع حد للقوى المنافسة هناك فرنسية وإيطالية وألمانية الى جانب القوى العربية . وكان قد سجل لنا أحد الرحالة المصريين ويدعى توفيق ميخائيل أوضاع سلطنة زنجبار فى ظل السيطرة البريطانية فى كتاب نشر فى القاهرة فى عام ١٩٠١ بعنوان « غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار » . وتعرض المؤلف فيه الى وصف رحلته التى قام بها فى عام ١٨٩٩ ، فوصف سكان زنجبار وغيرهم من سكان مقاطعات شرق افريقيا ، ولاحظ بصفة خاصة سيطرة الهنود « البانيان » على المعاملات التجارية هناك ، كما أورد فى كتابه ملاحظته بأن سلطنة زنجبار ترتبط بشعور الولاء الروحى للخليفة العثمانى ، وكان ذلك صدى لحركة الجامعة الاسلامية التى شملت اقطار العالم الاسلامى فى هذه الفترة والتى روج لها الحضارمة اليمينيون فى تلك المناطق ، وان كان ذلك لا يعنى ارتباط سلطنة زنجبار سياسيا آنذاك بالدولة العثمانية (٤٧) .

(٤٤) فاروق عثمان أباطة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ — ١٩١٨ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤٥) Davidson, A. B. and others : op. cit., pp. 349, 350.

(٤٦) سافلييف . دى . و . فاسلييف ، ج : موجز تاريخ افريقيا ، تعريب امين الشريف ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٤٧) توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

وتجدر الإشارة الى أن قرابة نصف سكان اقليم حضرموت بالشطر الجنوبي من اليمن قد هاجروا الى مناطق عديدة معظمها فى أرجاء المحيط الهندى ومنها الساحل الشرقى لافريقيا . وفى احصاء تقريبي لعدد المهاجرين اليمنيين فى عام ١٩٣٥ ، ورد أنهم بلغوا ٩٩١.٠٣ مهاجرا ، كان منهم ٧١٣٣٥ فى اندونيسيا ، و ١٠.٠٠٠ فى الهند ، و ٣.٠٠٠ فى الملايو وسنغافورة ، بينما كان نصيب شرق افريقيا من المهاجرين اليمنيين ١٤٧٥٠ مهاجرا ، موزعين بين الحبشة والصومال وكينيا وتنجانيقا وموزمبيق وزنجبار (٤٨) . وقد عمل هؤلاء المهاجرين اليمنيين فى مجال الصناعة ، والأراضى العقارية والزراعة ، والسمرة ، والوظائف الكتابية والتعليم ، والتوكيلات التجارية ، والخدمات المنزلية ، وأعمال البناء ، والتجارة الصغيرة ، والمطاعم ، وأعمال الشحن والتفريغ ، والجندية .

ومن جهة أخرى فقد كان للهجرة اليمنية تأثيرا ايجابيا كبيرا على الدخل القومى فى شطرى اليمن فى القرنين الأخيرين على وجه الخصوص . فقد جلب « آل الكثرى » فى عام ١٨٤٥ أموالا طائلة من اقطاعياتهم فى « حيدر آباد » التى كانت تدر عليهم ايرادا سنويا بلغ ٢٥٠ الف روبية هندية ، مما ساعد الكثيرين على استعادة سلطنتهم من يافع عام ١٨٤٨ ، بعد أن كانت قد اندثرت قبل ذلك بقرابة قرن من الزمان . كما جلب « آل القعيطلى » فى حضرموت مليونا ونصف من الروبيات الهندية ، كانت تمثل حصيلة تسوية لعام واحد من اقطاعياتهم فى « حيدر آباد » ، مما ساعد القعيطيين على إقامة سلطنتهم فى حضرموت عام ١٨٦٦ . وكان محسن بن عبد الله العولقى يزود الكساذى أمير المكلا السابق بمبلغ ستين ألف روبية هندية كل عام لمقاومة التوسع القعيطى . وقد قدرت بشكل تقريبي عوائد المهجر من تحاويل المهاجرين اليمنيين السنوية من النقود فى عام ١٩٣٠ بحوالى ثمانمائة ألف جنيه ، منها سبعمائة ألف جنيه ترد من اندونيسيا والملايو وسنغافورة ، وفى تلك السنة كانت توجد فى سنغافورة ١٣ أسرة يمنية تمتلك من العقارات ما قيمته ٢٥٤٤.٠٠٠ جنيه ، ومن هذا المبلغ بلغت عقارات أسرة واحدة

(٤٨) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

وقد اشار الى أنه حصل على المعلومات الاحصائية من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .

التي اشتغل بها اليمنيون في شرق أفريقيا . فقد التحق الكثيرون من المهاجرين اليمنيين في شرق أفريقيا بسلك الجندية في الجيش الإيطالي بالصومال ، وخاصة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى ، وفي أعقابها ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية . ويؤكد ذلك الخطاب الذي أرسله إلى حكومة بومباي « ميجور جنرال سير جورج يونج هاسبند - *Major General Sir George J. Younghusband* » المقيم السياسي البريطاني في عدن في ٢٣ سبتمبر عام ١٩١٥ (٥١) ، والذي يدور موضوعه حول « السياسة البريطانية في اليمن » والذي أرفق به مذكرة كتبها « هارولد جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسي البريطاني في عدن والمؤرخة في ٨ سبتمبر ١٩١٥ ، وتدور حول قيام الإيطاليين في مقديشيو (٥٢) بتجنيد عساكر من المهاجرين اليمنيين هناك . إذ أوضح « يونج هاسبند » في هذا الخطاب أنه التقى بالضابط الإيطالي « الكولونيل بودر *Colonel Bodrero* » وأنه قد اهتم كثيرا بأن يتعرف منه على رأيه في المقدرة القتالية للعرب اليمنيين الذين جندهم الإيطاليون من محمية عدن والبلاد المجاورة ، مبديا إعجابه بهذا الضابط الإيطالي الذي استطاع أن يدرب هؤلاء الرجال بحيث أصبحوا جنودا أكفاء . وأكد أن الضابط البريطاني يستطيع أن يحقق نتيجة أفضل بكثير في هذا المجال ، كما رأى أن الوقت حينذاك (في سنة ١٩١٥) هو أنسب وقت لمحاولة تنفيذ تلك التجربة على نحو ما فعل الإيطاليون في الصومال .

وقال « يونج هاسبند » في خطابه لحكومة بومباي أنه يمكن البدء في اختيار مائتين من رجال القبائل اليمنية المقاتلة ، على أن يركبوا الجمال

(51) Foreign and Commonwealth Office, India Office, Political and Secret Library, London, B. 216, Judicial and Secret Memoranda, (M. 3/3528). British Policy in the Yemen, Memoranda by Major - General sir G. J. Younghusband, political Resident, Adcs, and Lieutenant Colonel H. F. Jacob, First Assistant Resident, Aden. No. C. 695, Dated 23 rd September 1915, Enclosure No. 1. Memorandum on the employment of Italians at Mogadiscio of Askaris from Arabia, by H. F. Ja jacob 8th September 1915, p. 1.

(٥٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الإيطالي في شرق افريقية وتأسيس مستعمرتي إريتريا والصومال ، ص ٥٣٦ .

ويدربوا للعمل كشافين مقاتلين . وتوقع أن يكون لهذه التجربة تأثير سياسى ممتاز . كما قال أيضا أن « الكولونيل بودريو » قد أكد له أن هذا الفيلق ستكون له مقدرة قتالية لا شك فيها . واقترح « يونج هاسبند » على حكومة « بومباى » تكليف « الميجور جنرال أوتلى Major W. J. Ottly » من طلاع فرقة « السيخ » الثالثة والعشرين البريطانية لتشكيل هذا الفيلق وتدريبه ، باعتباره من أنسب الضباط الذين يمكنهم القيام بهذا العمل بكفاءة فائقة (٥٣) .

وقد أشار « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى مذكرته المؤرخة فى ٨ سبتمبر ١٩١٥ والتي دارت حول قيام الايطاليين فى مقديشيو بتجنيد عساكر من اليمينيين ، بأنه قابل « الكولونيل بودريو » فى اليوم الرابع من سبتمبر ١٩١٥ وهو ضابط ايطالى يعمل فى مكتب المستعمرات الايطالى ويقوم بتدريب المجندين من المهاجرين اليمينيين الذين هاجروا من عدن والمناطق اليمينية التى كان يحتلها الأتراك العثمانيون آنذاك للعمل فى الصومال ، كجنود فى الجيش الايطالى .

وكان الايطاليون يقبلون على تجنيد رجال القبائل اليمينية من المناطق التى كان يملئها الأتراك العثمانيون فى شمال اليمن منذ مطلع القرن العشرين ، وإن كانت تلك العملية قد توقفت مؤقتا أثناء الحرب الايطالية مع العثمانيين فى طرابلس الغرب عام ١٩١١ . ورغم أن الايطاليين كلفوا هؤلاء الرجال بالعمل فى مستعمرة اريتريا فى سنة ١٨٩٠ ، وفى الصومال الايطالى ، غير أنهم أرسلوهم أيضا الى طرابلس الغرب حيث قاتلوا بكفاءة ضد الأتراك والسنوسيين أثناء الحرب المذكورة (٥٤) . وقد أكد « بودريو » « لجاكوب » أن المقاتلين اليمينيين الذين قام بتجنيدهم من المهاجرين الى الصومال كانوا يفوقون فى كفاءتهم القتالية زملاءهم من الأحباش الذين اختارهم « بودريو » من أسيرة وجندهم زرحا من الزمن . وقد قام الايطاليون بتجنيد ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل يمنى على نحو ما أوضحه « بودريو » الذى أبدى دهشته وتعجبه من عدم قيام البريطانيين بتجنيد مقاتلين محليين من عدن والمناطق اليمينية الأخرى آنذاك (٥٥) .

(53) I. O. L., B. 216., op. cit., p. 2.

(٥٤) عثمان صالح سبى : تاريخ اريتريا ، ص ١٨١ .

(55) I. O. L., B. 216., op. cit., p. 3.

وأشار « جاكوب » كذلك فى مذكرته الى أن الايطاليين كانوا يمنحون المجندين اليمنيين رواتب شهرية ليشتروا منها ملابسهم ، ولا يحصلون على وجبات غذائية الا اذا توغلوا فى داخل اراضى الصومال ، للقيام بـعمال عسكرية ، أو لازالة الغابات وشق الطرق . وكان يسمح لهؤلاء المهاجرين اليمنيين بزيارة اوطانهم بعد عامين من الخدمة العسكرية المتصلة . اما من كانوا يؤثرون منهم البقاء فى مواقعهم فقد كان يسمح لهم بالاشتغال بالتجارة ، وان كانوا معرضين للاستدعاء دائما للالتحاق بالقوات الاحتياطية الايطالية ، على أن يمنح كل منهم فى تلك الحالة نصف راتبه . وكان المجندون من المهاجرين اليمنيين يتزوجون من نساء من القبائل الصومالية ، نظرا لأن الكثيرين منهم لم يصطحبوا زوجاتهم معهم فى الهجرة ، أو لم يسبق لهم الزواج من قبل .

كما أن « جاكوب » قد أشار كذلك الى أن « الكولونيل بودريو » القائد الايطالى فى الصومال ، كان يهتم برجاله من اليمنيين اهتماما شخصيا، ويختلط بهم دون قيود لأنه كان يدرك أهمية الاتصالات الشخصية فى تربية ولائهم ، حتى أنه كان يفصل من يستبد من ضباطه فى معاملتهم حتى لا يتعرض نظام اشرافه « الأبوى » للانهايار . كما انه كان يتبع نظاما معتدلا فى التأديب، ولهذا فان الجلد كان محرما على حد قوله « فنحن لا نستعمله كما تفعلون انتم (يقصد البريطانيين) » (٥٦) .

وقد استفسر « جاكوب » من الكثيرين من المجندين اليمنيين عن كيفية معاملته الطليان لهم فوجدهم راضين عن طريقة المعاملة لديهم . فالضابط الايطالى كان أكثر اتصالا برجاله من الضباط البريطانيين . وقال « جاكوب » أيضا انه رأى ضابطا ايطاليا فى الحبشة يبادل جنديا قبعته عندما تبين أن غطاء رأس الجندى لا يقيه من حرارة الشمس المحرقة .

وقد حاول « بودريو » أن يعلم المجندين اليمنيين فى الصومال اللغة الايطالية بما يعمق ولاءهم لايطاليا ، ويسهل التعامل معهم . كما انه لم يكن يضع أى وقت للاستعراضات العسكرية الرسمية . وكان تدريبيهم على الأسلحة الصغيرة يتم فى حرص بالغ ، كما كان معظمهم مسلحين بالبنادق .

واختتم « جاكوب » مذكرته بالإشارة الى انه قد أورد تلك المقتطفات من حديثه مع الضابط الايطالى « بودريو » ليؤكد ما أوضحته التقارير السابقة عن الطريقة « الماكرة » التى كانت تتبعها إيطاليا فى نشر نفوذها فى شرق أفريقيا عن طريق استقطاب العناصر اليمنية المهاجرة الى الصومال . وكان أسلوب الإيطاليين يتركز فى العمل على « طليئة Italization المهاجرين اليمنيين تدريجيا فى تلك المناطق (٥٧) .

وتجدر الإشارة الى ان ظاهرة اشتغال المهاجرين اليمنيين بالجنودية لم يقتصر على شرق أفريقيا انما تشكل ظاهرة عامة فى المناطق التى هاجر اليها اليمنيون فى القارة الاسيوية كذلك وخاصة فى الهند . اذا كانت هجرة اليمنييين وخاصة الحضارمة الى سواحل « كوجرات » و « كونكان » و « مالابار » فى أواخر القرن الثامن عشر وأثناء القرن التاسع عشر الميلاديين، بغرض الاشتغال فى جيوش الدويلات المسلحة فى اقليم « ماراثا » وفى وسط وجنوب وغرب بلاد الهند . وقد تكونت هذه الدويلات عقب تفكك الامبراطورية المغولية فى عام ١٧٠٧ (٥٨) . وعلى الرغم من صعوبة تأريخ بداية اشتغال المهاجرين اليمنيين فى دويلات « الماراثا » (٥٩) تأريخا دقيقا ، الا أنه يمكن القول ان استخدامهم قد بدأ فى عام ١٧٤٢ على وجه التحديد . وقد قدر عدد اليمنييين هناك عام ١٨٠٠ بحوالى خمسة آلاف شخص ، وقد اقام احد « الجمعدرات » العرب امارة صغيرة مستقلة « مانقول » استمرت ما بين ١٧٤٧ — ١٩٤٧ م (٦٠) . وفى عام ١٧٩٣ م عرف الوجود العربى اليمنى فى دولة « البرنسال » فى « تاجبور » وقد أثار ازدياد نفوذهم فى اقليم « كاثيافار » انتباه الجندى البريطانى « جيمس ماكوردو » الذى زار

(57) I. O. L., B. 216., op. cit., p. 4.

(58) The Gazetteer of India, Bombay presidency kulaba and Janjira, Bombay 1883, p. 38.

(59) The Relations Between South Arabia and the Decean From the 17th till the 20th Céntury (Osmania University, Hyderabad, 1971). p. 43.

(60) Menon, V. P. : Story of the integration of Indian states, (Bombay, Orient Longmans 1961) pp. 128-135.

« كوجرات » فى عام ١٨٠٩ . وكفرهم من زعماء العشائر استخدموا العرب اليمنيين كجنود للحراسة (١١) .

على ان اكثر هؤلاء اليمنيين كانوا من الحضارمة الذين نزوحوا الى الهند . وقد كان الحراس اليمنيون فى طليعة قوات الحراسة فى قلاع « بارودا » و« برساد » « سانخيدا » وغيرها من القلاع الحصينة . وكانوا يدينون بالولاء والطاعة لمن بيده مخصصاتهم المالية ، وكان وجود العرب اليمنيين فى خدمة أحد الحكام دليلا على أن فى استطاعة ذلك الحاكم القيام بواجباته وتنفيذ التزاماته ، الأمر الذى شجع أولئك القادة العرب اليمنيين على التدخل فى الشؤون الداخلية لتلك الدويلات (١٢) . ومع ازدياد الوجود البريطانى فى الهند وتغلبه على هذه الدويلات منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد حاول الانجليز ارجاع عدد من الحضارمة الى بلادهم ، بينما أبقتوا على المولدين منهم للعمل بالجيش البريطانى فى « حيدر آباد » فى يناير ١٨١٨ . كما كون بعض هؤلاء المولدين ثروة طائلة مثل « عمر بن عوض » الذى أصبحت أسرته من القمطين فى « حيدر آباد » مصدر الإلهام والقوة والدعم المادى « لسلطنة القمطين » فى حزموت فيما قبل استقلال جنوب اليمن فى نهاية نوفمبر عام ١٩٦٧ (١٣) . وهكذا لم يقتصر اشتغال المهاجرين اليمنيين بالجندية فى الصومال فحسب بل ان تجربتهم فى الهند كانت أسبق فى هذا المجال (١٤) .

(61) Macmurdo, James : Journal of a Route Through the Peninsula of Gazeraut in 1809 and 1810, edited by Suresh Ghandra Ghosh as the Plninsula Gujarat in the early 19th Century, (New Delhy : Sterling 1977) pp. 64, 65.

(62) Majumdar, R. C. and Dighe V. G. : The History and Culture of the Indian People, vol. 8. Bombay, Bhartiya vidya Bhavan, p. 512.

(63) The Indian History Congress, 40 Session, Andhra University (Visakhapatnam 1979). British Attitude towards the Arab Mercenaries of the Nizam. p. 1, 5.

(١٤) عمر الخالدى : عرب حزموت فى حيدر آباد ، ترجمة حماد محمود حامد ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الخامس والأربعون ، السنة الثانية عشرة يناير ١٩٨٦ م/ربيع الثانى ١٤٠٦ هـ ، ص ١٤١ .

رابعاً — مجالات انفاق اليمينيين لواردات المهجر :

ولتنبع مجالات انفاق اليمينيين لواردات المهجر من شرق افريقيا او غيره من المناطق ، فانه يمكن ان نتخذ من واقع حضرموت نموذجا لما كان يحدث فى بقية المناطق اليمنية . فلقد كانت احدى الأسر المعروفة فى حضرموت وهى أسرة « آل الكاف » بالمهجر تمتلك اكبر ثروة يمنية ، وكانت مضرب المثل بين اليمينيين فى السعة واليسر . ومن تلك الثروة الطائلة كان « آل الكاف » هم الذين أسهموا بقسم لا يستهان به من إيراداتهم من المهجر فى التعليم ، والخدمة الطبية ، والادارة العامة ، وتعبيد الطرق فى وادى حضرموت ، وكان « آل الكاف » يدفعون « للسلطان الكثيرى » كل عام ٦٠٠٠ ريال فى ميزانية « السلطنة الكثيرية » ، مساهمة منهم فى ادارة شئون مدينة سيئون وقريتى تريس ومريمة . ويدفعون كل عام ما معدله ٤٠٠٠ ريال لحفظ الأمن فى منطقة تريم . وفى عام ١٩٣٤ أنفق السيد أبو بكر بن شيخ الكاف ١٢٠٠٠ ريال لايجاد حل لقضية خلاف بين قبائل آل تريم وسكان مدينة تريم . كما أنفق « آل الكاف » على مستوصف صغير فى تريم ٢٤٠٠٠ ريالاً سنوياً لطبيب مؤهل وادوية ولوازم ، اضافة الى ٢٤٠٠٠ ريال كانوا ينفقونها سنوياً فى أوجه البر والاحسان الأخرى وفى تعبيد الطرقتان . وكان « آل الكاف » هم الذين أنشأوا جميع سواقى الشرب الواقعة على طرق القوافل بين ساحل حضرموت والمنطقة الداخلية ، وكلفهم اصلاح « عقبة العرشة » ٧٠٠٠ ريال . كما أنهم هم الذين شقوا طريق السيارات بين الساحل والداخل لمسافة ٢٠٠ ميل ، وكلفهم ذلك ١٨٠ ألف ريال . وقد افتتحت تلك الطريق المعروفة بالطريق الشرقية فى عام ١٩٣٧ ، وكانت تسمى طريق الكاف حتى وقت قريب . وأنفق « آل الكاف » ١٥٠ ألف ريال على ترتيبات الأمن الذى نعمت به حضرموت ثلاث سنوات ، فيما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٩ (٦٥) .

بل ان جميع المدارس فيما كان يسمى قبل استقلال جنوب اليمن عام ١٩٦٧ يسمى « بالدولة الكثيرية » كان بتولى الصرف عليها اثرياء « آل السقاف » و « آل الكاف » من أموال رصدوها خاصة لهذا ولغرضه من

(65) Her Majesty's Stationery Office, London, The Colonial Office List, 1960, p. 59.

الأغراض الإنسانية النبيلة . فكان آل السقاف يديرون مدرسة النهضة يسيئون وكانت تضم ٥٠٠ طالبا وسبعة مدرسين ، كما كانوا يديرون مدرسة أخرى تضم ١٠٠ طالب ، هذا فيما عدا معونات مالية كانوا يدفعونها لمدارس قرآنية للبنين والبنات فى سيئون وتريم . كما كان « آل الكاف » يتولون الانفاق على مدرستين بتريم هما مدرسة الأخوة والمعاونة التى كانت تضم ٤٠٠ طالبا ، ومدرسة آل الكاف التى كانت تضم بين ٣٠٠ — ٤٠٠ طالبا . وكانوا ينفقون على مدرستين فى مدينة الخريبة بوادى « دوعن » ، ويسهون فى نفقات مدرستى المكلا والشحر قبل الاستقلال . فاذا استثنينا أسرة « آل السقاف » التى تنفق على جانب من التعليم بسيئون وتريم ، فإن أسرة « آل الكاف » كانت الأسرة الوحيدة بحضرموت التى كانت تنفق على نشر التعليم فى المنطقة على نطاق واسع وكانت كل هذه الأموال ترد « لآل الكاف » و« آل السقاف » من المهجر بصفة منتظمة حتى قبيل الاستقلال (٦٦) .

وفى مدن وقرى عديدة بمنطقة حضرموت الساحلية والداخلية كان ينفق بعض موسرى المهاجر أموالا كثيرة على موارد ماء الشرب ، وأعمال الري ، وعلى دور العبادة ، وعلى المطابخ العامة ، وعلى الصدقات والإصلاح بين الناس . وغنى عن القول أن روح المنفعة العامة التى تجلت فى بعض من أثرياء المهجر قد رفعت عن كاهل السلطات اليمنية ثقل القيام ببعض الخدمات العامة .

والى جانب أوجه الانفاق المحمودة لآيرادات المهجر فى جرئها الأكبر ، فقد كان الجزء الأصغر من هذه الإيرادات — بعد الانفاق العادى على الأسر وعلى شراء الأسلحة واقتناء الأثاث الفاخر والفراش الوثير فقد كان يصرف فى إذكاء الفتن ، وإثارة النزعات العشائرية البدائية ، وفى تعداد الزوجات ، وإقامة الولائم والحفلات ، وشراء الممتلكات الزراعية الباهظة الثمن ، القليلة الانتاج ، للترفيه والمباهاة ، وفى شراء السيارات ، وتريين ديار السكن بالنقوش والألوان ، واقتناء الديار الكبيرة التى يصعب الاعناء بها ، الى آخر سلسلة مظاهر النزوات العارمة التى يولدها الثراء السيل ، كشراء الملابس العديدة والحقى الذهبية وغيرها . وللأسف الشديد فإن أثرياء المهجر لم يستثمروا شيئا يذكر من ثرواتهم الطائلة فى وطنهم يدعمون به

عودتهم ، بل ظلوا كمن يعيش فى واحة نائية يجلب ماءها من بئاع بعيدة محفوفة طريقها بكل المخاطر . بينما كان فى استطاعة اليمينيين المهاجرين الموسرين أن ينشئوا فى بلادهم السدود ، ويرفعوا من مستويات مياههم الجوفية ، فيوسعوا رقعة الزراعة للحبوب والخضروات ، ويفرسوا ملايين النخيل ، مما يقيهم غائلة الجوع على أقل تقدير ، اذا انقطعت صلاتهم بالمهجر لأى سبب من الأسباب . وهذا ما كان يفعله صفار المزارعين فى اليمن ، دون أن يتشددوا برعاية أقاربهم فى المهجر ، فيضيفون الى مئات نخيلهم عشرات النخيل المثمرة ، ويزيدون الى رقعة ارضهم المزروعة أشجارا صالحة للزراعة ، ولهذا فهؤلاء طاب لهم العيش فى البلاد . وكانت محاصيل النمر بحضرموت على سبيل المثال ، كالعملة الدارجة للمقايضة والتعامل بالنسبة لليمنيين ، كما كانت الأبقار بالنسبة لأهالى شرق افريقيا تعتبر عملتهم الرئيسية فى التعامل التجارى والاجتماعى ، فكان كثيرون من أهالى حضرموت ليس لهم حيلة ولا حرفة ولا كسب غير ثمره النخل ، فلا يأتى وقت الرطب الا وقد اشتدت حاجتهم اليه ، يبيعون بعضه ليشتروا بثمنه حاجتهم من الحبوب والكساء ، ويدخرون البقية يأكلونه تمرا فى بقية شهور السنة .

ولهذا فقد حدث اثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها (١٩٣٩ — ١٩٤٥) أن اهتز الكيان الهش الذى ابتناه المهاجرون باليمن ، ومزقهم الجوع شر ممزق ، فافترقت عائلات بأكملها كان البنان يشير اليها فى وفرة المال والخصايص ، وظلت المجاعة تهدد حضرموت حتى عام ١٩٥٠ (٦٧) . ولقد ثبت لليمنيين أن الكسب السهل يولد الففلة والفساد فى التدبير ، بعد أن افترقت عائلات موسرة فى المهاجر لأن أفرادها ، كملاك منغيبين ، عاشوا عيشة رخاء وسعة فى حضرموت ، وكأن دخولهم من المهجر سوف تبقى ثابتة الى الأبد . فكان عميد العائلة الذى كون الثروة ينفق عن سعة ، وربما جاز له ذلك ، وجاء أبناءه من بعده فكان ينفق كل واحد منهم ما كان ينفقه أبوه ، مع أنهم ورثة كسالى لا أقل ولا أكثر ، ثم جاء أبناءهم من بعدهم وكانوا أكثر عددا واشرس ضراوة فى تبديد المال فكان كل واحد منهم يتطلع الى أن يعيش فى المستوى الذى كان يعيش فيه جده ويوسع من ملذاته ومبازله ، فتبددت الثروة رغم ما كان قد أصابها من ضائقات ضرائبية فى المهجر .

وممها كانت طبيعة تصرف الأثرياء المهجرين فى ثرواتهم فى بلادهم ، فان تلك الثروات كانت تعود بالنفع العميم ، بصورة غير مباشرة على اليمن بوجه عام . فكان منها ما يذهب الى خزينة الجهاز الحاكم فى شبه رسوم وضرائب ، ومنها ما كان يذهب عطاءات لأشخاص معينين ، ومنها ما كان يذهب أجور العمال فى خدمة الأثرياء ، ومنها ما كان يذهب الى التحصير المحليين اثمانا لخدمات أو حاجيات استهلاكية ، ومنها ما يدخر للمستقبل بكل احتمالاته المفاجئة . ويدور دولا ب النفع العام دورته الكاملة فتنتقل الأموال من يد الى يد بحكم الخدمة المتبادلة بين أبناء الوطن الواحد ، ولا يختل دوران هذا الدولا ب الا حينما تخرج هذه الأموال الى الخارج لشراء الحاجيات الاستهلاكية دون وجود عوائد مقابلة . وهذا ما يؤكده الاحصاء التالى الذى نقارن فيه بين قيمة الواردات والصادرات فى اليمن الجنوبية عبر خمس سنوات على النحو التالى (٦٨) :

السنة	قيمة الواردات بالدينار	قيمة الصادرات بالدينار
١٩٦٤	٤١٣٢٢٧٠	٢٧٦٨٧٢
١٩٦٥	٣٨٦٤٠٤١	١٨٦٧٧٤
١٩٦٦	٣٠٩٧٨٢٥	١٦٩٠٢٨
١٩٦٧	٣٨٠٢٦٦٠	١٠٩٧٤٥
١٩٦٨	٣١٨٤٧٨٧	٤٧٥٢٣

ويؤكد هذا الاحصاء الفرق المتزايد بين قيمة الواردات وقيمة الصادرات، ولكى يغطى هذا الفرق فقد كان على المهجرين أن يوفرُوا كل عام مبلغاً من المال للمقيمين باليمن يتراوح بين ٤ — ١ ٣ مليون دينار للحفاظ على المستوى المعيشى الذى كان اليمنيون يتمتعون به خلال عام ١٩٦٨ .

(٦٨) محمد عبد القادر باملطف : المرجع السابق ، ص ٦٤ . وقد أشار الى أنه حصل على المعلومات الاحصائية من الادارات الحكومية المعنية فى عدن .

خامسا — مدى نجاح اليمنيين بمهجرهم فى شرق افريقيا :

وتجدر الإشارة الى مدى نجاح اليمنيين بمهجرهم فى شرق افريقيا اذى يعود الى اسباب ذاتية وأخرى موضوعية . ذلك ان اليمنيين ظلوا فى مهاجرهم بعيدين عن المشاكل المحلية وعما لا يعنيهم ، خاصة وأن همهم انصب على جمع الأموال وتكوين الثروات وتحويل جانب منها الى الوطن ، وهذا جعلهم ينفلتوا على أنفسهم فى وسط عاداتهم وتقاليدهم . وكان العرف اليمنى يقضى بعدم لحاق الزوجات بأزواجهن فى المهاجر ، ولهذا اضطر المهاجرون الى التزوج من فتيات السكان الأصليين ويفرضون على ابنائهم المولدين عزلتهم ، بل ان الكثيرين منهم أرسلوا أبناءهم الى اليمن للتعليم ، وبناتهم للزواج والبقاء بها حتى الموت .

وكان اليمنيون يتولون الزعامات الدينية فى المهاجر ، التى كان معظم أهلها وحكامها يدينون بالاسلام ، كما كانوا يتولون وظائف التربية والتعليم ، فأكدت هذه الزعامات لليمنيين نوعا من السمو فى نفوس السكان الأصليين فيكرمونهم ، ويبالغون فى تحيتهم ويرعون مصالحهم . وما زال اليمنيون يذكرون عبارة « باننا مكوبا » اى « السيد الكبير » فى شرق افريقيا ، وهى عبارة تحبة يقابل بها الأهالى هناك المهاجر اليمنى تعبيرا عن تقديرهم واحترامهم (٦٩) .

كما عرف اليمنيون فى مهاجرهم فى شرق افريقيا بالاقتصاد فى العيش والمثابرة على العمل واحترام القوانين والعادات المحلية ، وبهذا لم يجعلوا من أنفسهم مصدر قلق أو مشاكل للسلطات القائمة فى المهاجر ، الأمر الذى سهل لهم العمل والاتجار فى مختلف المجالات . وكان تعاون اليمنيين الوثيق وتأزرهم وعطفهم على بعضهم البعض مضرب المثل بين الجاليات الأخرى فى مجالات الارتزاق والتسهيل المالى والكفالات . وكانوا يقفون الى جانب أبناء جاليتهم الذين يلاقون صعوبات معينة فى معاملاتهم مع المهاجرين من الجنسيات الأخرى . على ان ثمة حوادث بلغت الى درجة الفتنة ، اما فيما بين اليمنيين أنفسهم فى المهجر ، أو بينهم وبين مهاجرين آخرين . ففى عام ١٩١١ حدثت فتنة الاشاديين والعلويين (وجميعهم من اليمنيين) فى

اندونيسيا . وفى عام ١٩١٦ ، حدثت فتنة اليمينيين « بحيدر آباد » . وفى عام ١٩٢٨ ، حدثت فتنة اليمينيين وآل عمان بجزيرة زنجبار كما حدثت فتنة أخرى عام ١٩٦١ (٧٠) . وقد سالت الدماء فى هذه الفتن الا انها حققت بعد حين وتصافى القوم . ورغم ضعف الأسباب التى أدت الى حدوث تلك المشاحنات وخاصة ما كان منها بين اليمينيين أنفسهم ، فانها اثرت فى وحدة الصف الأخوى اليمنى ، وامتدت مضاعفاتها الى اليمن ذاته لدى بعيد .

كما وجدت عوامل أخرى موضوعية أدت الى نجاح اليمينيين فى مهاجرهم بشرق افريقيا ، الى جانب العوامل الذاتية التى أشرنا اليها . ومن أهم هذه العوامل الموضوعية ان اليمينيين المهاجرين وخاصة الحضارمة هاجروا الى انظار كان أهلها الأصليون بالنسبة لهم اقل تعليما وحضارة ومعـرفة بأساليب العيش وأقل تضامنا ومسئولية . بل ان المهاجر التى هاجر اليها اليمينيون فى شرق افريقيا كانت ترسف تحت أغلال الاستعمار الانجليزى والفرنسى والاطالى والألماني(٧١) ، فكان الحاكم المستعمر يقف لأسباب تخدم أهدافه الى صف الأجانب من اليمينيين وغيرهم ، أكثر مما كان يقف الى جانب السكان الأفارقة الأصليين . بل ان اليمينيين تمتعوا منذ عام ١٨٨٨ بالحماية البريطانية فى شرق افريقيا ، وكانت المحاكم القنصلية والادارة الاستعمارية تناصرهم ، وخاصة فى مناطق الصومال البريطانى وكينيا(٧٢) ، وقد استفل بعضهم هذه التسهيلات الاستعمارية الى أبعد مدى .

(٧٠) سعيد على على المغيرى : المرجع السابق ، ص ٤٨٠ .

وقد أشار الى انه « فى يوم أول يونية ١٩٦١ دخلت زنجبار فى تاريخ جديد فى هذا اليوم ، يوم الانتخابات فى زنجبار والجزيرة الخضراء ، وفى هذا اليوم شبت نار الفتنة ما بين الحزب المسمى افروشيرازى ، وما بين حزب الوطن ، ووقع القتال فى نفس بلدة زنجبار ، ثم توسعت هذه الفتنة فى داخلية الأرياف فقتل الاطفال والنساء ، وفر السكان من الأرياف الى داخلية بلدة زنجبار ، فامتألت بلدة زنجبار من اللاجئين فى المدارس والمستشفيات والبيوت من رجال ونساء واطفال ، وأسفرت هذه الحادثة المؤلمة عن مقتل سبعين نفرا بموجب تقرير الحكومة ، وأكثرهم من العرب العمانيين والحضارمة ، وعن الخبر ان القتلى أكثر من ذلك » .

(٧١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية . ١٨٤٠ — ١٩١٤ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(72) The Colonial Office List 1960, Her Majesty's Stationery Office, London 1960, Kenya, pp. 108, 109.

وتجدر الإشارة كذلك الى أن من عوامل نجاح اليمنيين فى مهجرهم بشرق أفريقيا سهولة الهجرة الى هناك ، والتي كانت لا تقيد بها جوازات سفر ولا رخص دخول أو اقامة أو عمل ، فضلا عن أن التداول فى عملات المهاجر كان حرا لا قيود عليه . ولم تكن الحركات الوطنية بمعظم تلك الأقطار بشرق افريقيا قد بلغت حدا من النمو والقوة (٧٢) ، بحيث تحى العامل المحلى المهيزج الجناح من المنافسة الذكية التى يلقاها من الأجانب على اختلاف جنسياتهم ، على الصعيدين الاقتصادى والمهنى (٧٤) .

وعلى أية حال فإن بعض الأسباب الذاتية التى كان يرى فيها المهاجرون الأوائل من اليمنيين سلما لنجاحهم فيما قبل بداية القرن العشرين ، فأنها قد بدأت تزول تدريجيا منذ بداية ذلك القرن . إذ لم يعد المهاجرون اليمنيون عنفلقين على أنفسهم ، أو متوقعين داخل عاداتهم وتقاليدهم وأنظمة زواجهم وثقافتهم . ولم يعد الأبناء يرون فى مؤسسات وطنهم الثقافية ، فى اليمن وحضرموت بصفة خاصة ، ما يروى عطشهم الى المعرفة الحديثة ، كما أنهم لم يجدوا فى أجدادهم مصادر لأى الهام ايجابى ، بل ان فتياتهم من المهاجر وجدن فى مساقط رؤوسهن بالمهجر أزواجا أقرب الى أحلامهن من الأزواج الذين كن يأملن فيهن فى وطنهم الأصلى فى اليمن . والواقع أن المهجرين اليمنيين — ويرجع ذلك بصفة أساسية الى كثرة المولدين بينهم رجالا ونساء — شبوا على الطوق وكبروا بمقدار ما كبرت مساقط رؤوسهم وتقدمت وازدهرت ، ففضلوا أن يكونوا من المهاجر واليهاب بكل ما فيها من خير وشر ، من أن يظلوا على الحائط متفرجين ومتطفلين على موائد الغير ومتكسفين أياديهم . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل سيل المهاجرين يتدفق من اليمن الى الخارج وخاصة شرق افريقيا ، كما أن محاولتهم النقدية الى ذويهم باليمن تدر المزيد بصفة مستمرة . بل ان الهجرة زاد معدلها من اليمن الى شرق أفريقيا بشكل تدريجى مع بداية القرن العشرين ، ولم يجد المهاجرون ما يغريهم على العودة الى وطنهم اليمن نتيجة لسوء الأوضاع الداخلية هناك ،

(73) Davidson, A. B. and others : op. cit., p. 353.

(74) Smirnov, S. R. : A History of Africa, 1918-1967, U. S. S. R. Academy of Science, Institute of Africa, «NAUKA» Publishing House, Moscow 1968, p. 351.

مما جعلهم يغادرونه الى غير رجعة سيما وانه أصبح ميسورا بشكل تدريجى. اصطحاب الزوجة اليمنية لمصاحبة زوجها الى اى مكان فى العالم ، كما ان الهجرة شملت أسرا بأكملها أيضا بعد ان كانت قاصرة على هجرة أفراد بحسب .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية فى اليوم الثالث من سبتمبر ١٩٣٩ بين ألمانيا النازية من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، فان المهاجرين اليمنيين لم يشعروا بوطأتها الا فى أعقاب اعلان ايطاليا الحرب على الحلفاء فى العاشر من يونيو ١٩٤٠ ودخول جنودها الى كينيا والصومال ، مما جعلها تفرض القيود الشديدة فى كل أنحاء شرق افريقيا بما فيها الصومال والحبشة — على الهجرة والتجارة (٧٥) . وقد حد هذا من تحويل الأموال الى اليمن وأثر تأثيرا بالغا على الأسر اليمنية التى كانت ترد اليها أموالها من تلك المناطق . وعندما أعلنت اليابان الحرب ضد الحلفاء والولايات المتحدة الأمريكية فى اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فقد نزلت القوات اليابانية فى اليوم التالى فى الملايو ، كما نزلت قوات يابانية كذلك فى سنغافورة ، وفى اليوم الأول من مارس احتلت القوات اليابانية أيضا جزيرة جاوة (٧٦) . وقد ترتب على ذلك توقف الهجرة من اليمن الى أقطار الشرق الأقصى ، أما الهجرة الى الهند وشرق افريقيا فقد استمرت بصورة متقطعة ، وقد أدت هذه الظروف كذلك الى انقطاع تحويل الأموال من أقطار جنوب شرق آسيا ، وبدأ المهجرون يمدون أيديهم على ممتلكاتهم حتى نفدت ، وركبتهم الديون فباعوا أملاكهم الثابتة والمنقولة . وكان طبيعيا أن تظهر المجاعة فى مناطق عديدة من اليمن فى مطلع عام ١٩٤٣ ، ولم ينتصف هذا العام الا وقد انتشرت على مدى أوسع فى بلاد اليمن . ولقد صاحب تلك الأزمات ظهور الجفاف فى معظم أرجاء اليمن ، ومرت على اليمنيين سبعة سنين عجاف كانت بدايتها فى عام ١٩٤١ . ومن المعروف أن للجفاف دورات خبيثة فى اليمن كدورات الكساد الاقتصادى فى البلاد الأخرى . وآخر مجاعة حدثت فى اليمن — فى فترة البحث — كانت مجاعة وادى « عمد » فى سنة ١٩٤٨ .

(75) Davidson, A. B. and others : op. cit., pp. 354, 355.

(٧٦) هريبرت فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ ،

ص ٦٧٧ .

ومن المعروف كذلك أن الجمهورية العربية اليمنية هي واحدة من بلدان العالم الثامن التي تعاني من مشكلة الغذاء . إذ تفاقمت أزمة نقصان المواد الغذائية فيها خلال سنوات القحط التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وكانت آخرها إبان المدة من ١٩٦٦ — ١٩٧٣ مع تزايد الطلب على هذه المواد الغذائية وتدهور انتاجها (٧٧) . ومع انفتاح اليمن على العالم الخارجى فى السنوات التى أعقبت قيام الثورة اليمنية فى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، ثم ازدياد القوة الشرائية وبخاصة لدى سكان المدن ، أصبح القطاع الزراعى عاجزا عن سد احتياجات السكان المتزايدة من السلع الزراعية (٧٨) ، واصبحت المستوردات من هذه السلع تشكل فى عام ١٩٨١ نحو ٣٧ ٪ من قيمة اجمالى الواردات . وتعادل قيمتها أيضا حوالى ٦٩ ضعفا من مجموع صادراتها الزراعية ، ارتفعت فى عام ١٩٨٢ الى ٢٢٠ ضعفا (٧٩) بسبب تدنى الصادرات الزراعية الى اقل من ثلث قيمة تلك الصادرات فى عام ١٩٨١ (٨٠) .

على انه قد خفف من وطأة هذه المجاعات أثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها ذلك الرخاء الذى ساد ساحل الشطر الجنوبى من اليمن وخاصة فى قاعدة عدن العسكرية البريطانية . إذ أفرز ذلك الرخاء نوعا من التعادل المعقول بين ما فقدته اليمن من واردات المهجر ، وما حصلت عليه من مخاسب الحرب (٨١) ، حيث ظهر بالساحل اليمنى فى الجنوب نوع من الازدهار المؤقت،

(77) U. N., F A O., Productios, Yearbook 1982, vol. 36., FAO. Statistics Series, No. 47., Rome 1983, Table 3., p. 67.

(78) U. N., FAO., Trade, Yearbook 1982. vol. 36, FAO Statist-ics Series, No. 49, Rome 1983, Table 6, p. 43.

(٧٩) مقبل أحمد محمد : القطاع الزراعى : « أهدافه واستثماراته » مجلة الوعي الزراعى التى تصدرها وزارة الزراعة بالجمهورية العربية اليمنية ، السنة الثالثة ، العدد الخامس ، أغسطس ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

(٨٠) عباس فاضل السعدى (دكتور) : التحليل الجغرافى لمشكلة الغذاء فى اليمن بحث نشرته مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الصادرة عن جامعة الكويت ، العدد الثالث والاربعون ، السنة الحادية عشرة ، شول ١٤٠٥ هـ / يوليو ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ .

(٨١) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

مما حدا بكثير من الأسر اليمنية الى التجول من المناطق الداخلية الى الساحل لتعمل فى مختلف الخدمات البدنية(٨٢) .

ويوضح احصاء نشرته الامم المتحدة عام ١٩٥٥ أن مساحة عدن والمحميات تبلغ ١١٢ ألف ميل مربع ، وأن عدد السكان بلغ نحو ٦٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ ألف فى عدن . وتدخل ميناء عدن مائة باخرة فى الاسبوع على مدار السنة وأنها من أهم الثغور فى العالم ، وبلغ دخل البريطانيين منها سنويا آنذاك نحو ١٥٠٠ مليون دولار(٨٣) .

ورغم نمو طبقة من حديثى الثراء فى عدن نتيجة للازدهار المؤقت اثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها ، فقد أدت الهجرة من مناطق أليم الداخلية الى عدن الى وجود نسبة كبيرة من السكان الذين لا منازل لهم حتى بلغت نسبتهم ٩٪ من العدد الكلى للسكان فى عام ١٩٥٥ ، اذ كان عدد هؤلاء فى تلك السنة قد بلغ ١٥٢٨٧ نسمة . بل ان هجرة الكثيرين من شرق افريقيا وخاصة من الصومال وكينيا الى عدن آنذاك(٨٤) — نتيجة لسوء معاملة الحكومات الاستعمارية — قد جعلت افراد الجالية الصومالية فى عدن تقدر فى نفس السنة بعشرة آلاف نسمة ، عمل معظمهم فى شراء وبيع المواشى المستوردة اصلا من الصومال الى عدن ، وفى الاعمال الأخرى كالتجارة والوظائف الادارية والشركات(٨٥) .

ونظرا لازدياد هجرة اليمنيين والأفارقة الى عدن اثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها فقد ارتفع عدد المساكن حتى بلغ ٢١٥٥ مسكنا فى « وادى العيدروس » و « وادى الطويلة » و « الشيخ اسحق » و « وادى المحراق » بالمعلا و « وادى المحراق » بالتواهى . أما « بستان مهدى »

(82) Gavin, R. J. : op. cit., p. 380.

(٨٣) أمين سعيد : اليمن تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، ص ١٧٧ .

(٨٤) بازيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

(٨٥) قحطان محمد الشعبى : الاستعمار البريطانى وممركتنا العربية فى جنوب اليمن ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

و« السيسبان » فقد بلغ عدد المساكن فيها ٦٠٠ مسكن وبالمدارة ٣٠٠ مسكن ، وبالمحوا ٢٠٠ مسكن ، و« بالشيخ الدويل » ١٠٠ مسكن ، وبالمسبح ٧٦٢ مسكن ، وبمستشفى الحكومة ٩٢ مسكن . وبذلك يبلغ مجموع هذه المساكن المؤقتة ٢٢١٢ مسكنا مبنية من خشب الصناديق وسعف النخل وصفائح البترول والبراميل والورق المقوى وبعضها بالحجارة والطين والاسمنت . وبالإضافة الى هذه المساكن المؤقتة فقد بنت حكومة عدن مساكن شعبية فى « حجيف » تعرف باسم « الروضة » فى سنة ١٩٥٥ — ١٩٥٦ لاسكان العمال وعائلاتهم . ويسمىها الصوماليون « بالقلوعة » وهى كلمة صومالية الأصل . وبلغ عدد المساكن أو البلوكات ٢٥٠ ، كل بلوك يضم ست شقق ، واذا قدرنا سكان كل شقة بستة أنفس فان سكان الروضة يبلغون تسعة آلاف نسمة أغلبهم من مهاجرى الصومال الى اليمن وكل شقة مؤجرة بخمسة وعشرين شلنا ، ومعنى هذا أن الحكومة تحصل على ايجار شهرى مقداره سبعة وثلاثون ألف شلن فى الشهر . وفى منطقة صحراوية فى « الشيخ عثمان » تلهت قرية جديدة نتيجة لزيادة عدد المهاجرين عرفت باسم « القاهرة » ، وبالرغم من أن بيوتها قد أقيمت تحت اشراف ادارة الأشغال العمومية فان بيوتها ضيقة للغاية وعددها ١١٣٠ بيتا . واذا قدرنا سكان كل بيت بستة أنفس فان مجموع سكان « القاهرة » تلك يبلغ ستة آلاف وسبعمئة وثمانين نسمة . وفى « الشيخ عثمان » أيضا نجد ٨٧٦ بيتا عماليا ، وستين بيتا لعمال النظافة ، واذا قدرنا سكان كل بيت بسبعة أنفس فان المجموع الكلى يكون ٥٦١٦ نسمة . وبهذا نجد أن عدد سكان البيوت المؤقتة التى عاش فيها المهاجرون فى عدن والشيخ عثمان والمعلات والتواهى وعدد سكان « الروضة » و« القاهرة » من ضواحي عدن يبلغ اثنين وأربعين الفا وخمسمائة وواحدا وستين نسمة ، ونظرا لازدياد عدد المهاجرين فلا شك أن عدد الساكنين قد زاد كثيرا حتى بلغ فى عام ١٩٥٦ قرابة خمسين ألف نسمة ، بينما بلغ سكان عدن نفسها فى تلك السنة قرابة مائتى ألف نسمة (٨٦) ، أى أن المهاجرين من اليمنيين والصوماليين والأحباش قد بلغوا قرابة ربع سكان عدن آنذاك ، مما يؤكد ظاهرة الهجرة من الساحل

الافريقى الى الساحل اليمنى ، سعيا وراء العيش والازدهار المؤقت اثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها (٨٧) .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها مع مطلع شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ (٨٨) . كان الموقف بالنسبة للهجرة اليمنية يختلف من منطقة الى أخرى من مناطق المهجر . فقد كانت الهجرة الى الشرق الأقصى متوقفة تماما ، وكان وارد الأموال المحولة من جواهر مقطوعا بشكل كامل ، أما من الملايو فقد كانت الأموال ترد بشكل محدود ومنقطع . بينما كانت الهجرة من اليمن الى الهند مستمرة ، كما أن وارد الأموال منها منقطع ، وكان سبب استمرار الهجرة الى الهند أن نظام « حيدر آباد » كان يجند اليمنيين فور وصولهم الى ميناء « بومباي » ليقاوم بهم محاولة الهند ضمه بالقوة الى الاتحاد الهندى . أما الهجرة الى شرق افريقيا وهو ما يعنينا فى هذه الدراسة فى المقام الأول ، فقد كانت تتم بعد الحصول على ترخيص دخول مسبق من هناك ، أو من دار المقيم السياسى البريطانى فى عدن أو بالكلية ، وذلك بالنسبة لاقطار شرق افريقيا الأربعة حينذاك وهى زنجبار ، واوغندا ، وكينيا ، وتنجانيقا ، ولدة ثلاثة أشهر فقط آنذاك . وقد لعب الاقليم المهرى فى جنوب شرق اليمن دورا هاما فى تهجير اليمنيين الى شرق افريقيا . وكانت السلطات فى تلك الاقطار الأربعة الافريقية تحترم وثائق السفر المعطاة من « السلطان بن عفرير » لليمنيين وتسمح لهم بالدخول باعتبار أنهم رعايا السلطان المهرى . وقد خففت هذه الطريقة عن المئات من اليمنيين الضائفة التى كانوا يعانونها من انقطاع واردات المهجر ، وخاصة سكان المناطق التيمية والشنفرية الذين كانوا يعتمدون على تحاويل أبنائهم المقيمين فى شرق افريقيا . على أن الأموال الواردة آنذاك من منطقة شرق افريقيا بها فيها الصومال والحبشة لم يعد ما يصل منها أكثر مما يسد رمق أفراد الأسر المعتمدين عليها باليمن . ولا يتم ذلك الا بموجب اجراءات مكتنية مطولة يستصدر بموجبها اولو الشأن شهادات من السلطات المحلية باليمن بعدد أفراد كل أسرة وبمقدار حاجتها الضرورية من النقد . وكان يهدف البريطانيون

(٨٧) حمزة على ابراهيم لقمان : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٨٨) هربرت فيشر : المرجع السابق ، ص ٧١٣ .

باعتبارهم الحكام الفعليين لمنطقة شرق افريقيا ، بما فيها الحبشة والصومال ، بعد طرد ايطاليا من تلك المناطق ، الى الحد من تحويل الاموال خارج منطقة شرق افريقيا . غير أنهم بحكم شعورهم بمسئوليتهم الأدبية ازاء السكان اليمنيين فى نفس الوقت ، بحكم وضعهم فى جنوب اليمن ومركزهم فى عدن ، فقد وافقوا على هذه الاجراءات المؤدية الى تحويل اموال من المهاجرين اليمنيين بشرق افريقيا الى ذويهم بالأراضى اليمنية .

بل أن فرنسا أعلنت أن جيبوتى وساحل لصومال الفرنسى منطقة حرة من أول يناير سنة ١٩٤٩ . وكان هذا القرار يتشئ مع النظام الموجود منذ سنة ١٩٠٦ والذي يسمح بمرور تجارة « الترانزيت » من والى الحبشة دون فرض اية رسوم عليها . ثم جاءت فرنسا وغيرت العملة الموجودة فى جيبوتى و فى ساحل الصومال الفرنسى فى ١٧ مارس ١٩٤٩ ، وأصبح هناك ما يسمى « فرنك جيبوتى » وهو « فرنك » مستقل كل « غطائه » من الذهب ، ويشرف على إصداره اتحاد المصارف الفرنسى الأمريكى الموجود فى نيويورك . ولغيت بذلك كل سلطات مكاتب العملة ، وأصبح من حق من يحمل هذه الفرنكات الجديدة أن يحولها أو يحول اية كمية منها الى الدولارات ، دون أى قيد أو اية اجراءات أخرى ، وساعد ذلك على اتساع العمليات التجارية ، كما شجع على الاتجار مع الحبشة عن طريق جيبوتى وجود خط للسكة الحديد يربط بينهما . ولقد لعب المهاجرون اليمنيون دورا ملحوظا فى الحركة التجارية فى جيبوتى والحبشة آنذاك (٨٩) . ولكن السلطات الفرنسية كانت تحد من تحويل اموال المهاجرين اليمنيين الى ذويهم بالأراضى اليمنية . وقد نجح عن كل هذا تقليص فى الخدمات التى كان ينفق عليها فى اليمن الموسرون من اليمنيين المهاجرين بشرق افريقيا ، وأصبح أقاربهم باليمن بحاجة إلى ما يسد عوزهم . أما أعداد المهاجرين اليمنيين فى تلك الاقطار فقد ظلت ثابتة تقريبا على ما كانت عليه منذ عام ١٩٣٥ .

كذلك حدث فى أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة أن أغلقت أعداد من المؤسسات الحربية البريطانية فى جنوب اليمن أبوابها ، فوحد

(٨٩) جلال يحيى (دكتور) : جيبوتى من موانئ افريقية ، مجلة نهضة افريقية ، القاهرة ، العدد ٢٣ ، لشهر اكتوبر ١٩٥٩ ، ص ٧ .

كثير من اليمينين أنفسهم بدون عمل ، فحاولوا الهجرة الى مهاجرهم التقليدية . غير أنهم ارتطموا بسدود منيعة منها ازدياد القيود الخارجية على الهجرة ، وشددت اجراءات الأمن بالمهاجر ، واستحدثت قواعد اشد على سيولة العملة وتحويلها من بلد الى آخر وخاصة فى اقطار شرق افريقيا .

بل واعقب ذلك من ناحية أخرى اشتداد ادوار الحركات الوطنية الاستقلالية فى هذه المهاجر بشرق افريقيا وغيرها وصاحب ذلك استقلال مجموعة منها ما بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦٧ . اذ نالت اندونيسيا استقلالها فى عام ١٩٤٥ وملكت زمام امرها فى عام ١٩٤٩ . كما نالت الهند والباكستان استقلالها فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٦٠ نالت الصومال استقلالها كذلك ، واعقبها تنجانيقا بنيل استقلالها عام ١٩٦١ . بينما استقلت اوغندا عام ١٩٦٢ ، وحصلت جزيرة زنجبار على استقلالها كذلك فى ٩ نوفمبر ١٩٦٣ ، ثم نالت كينيا استقلالها فى نفس السنة (٩٠) ، وتم جلاء الانجليز عن الشطر الجنوبى من اليمن فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٧ (٩١) . وقد قامت فى كل هذه الاقطار الاسيوية والافريقية حكومات وطنية ذات سيادة ، وأصبح من الأمور البديهية أن توجه كل حكومة من هذه الحكومات همها نحو حل مشكلات مواطنيها والمشكلات التى خلفها الاستعمار فى كل منها .

وفى مقدمة المشاكل التى خلفها الاستعمار فى هذه المناطق مشكلة المهاجرين بها ، الذين ظلوا سنين عديدة مسيطرين على جانب كبير من اقتصاد البلاد ، وخاصة بلدان شرق افريقيا ، ومتحكمين فى أرزاق قطاعات كبيرة من شعوبها بامتلاكهم زمام المهن كبيرها وصغيرها ، وهى مشكلات لا زالت تناسى بلدان شرق افريقيا منها الامرين . ولهذا اختطت تلك الاقطار لنفسها سبل الخلاص من السيطرة الاجنبية الداخلية ، باصدار سلسلة من التشريعات بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٧ ، كان من نصيب اليمينين من بينها فى مناطق الهجرة بالمحيط الهندى بوجه عام ، وشرق افريقيا بوجه خاص ، ما يلى :

(90) Smirnov, S. R. : op. cit., p. 363.

(91) Trevelyan, H. . The Middle East in Revolution, Aden 1967. p. 266.

أولاً — أوقفت اندونيسيا تحويل أية أموال الى حضرموت وعموم اليمن بمبادلة تجارية ، كما أوقفت هجرة اليمنيين اليها الا بسابق ترخيص دخول .

ثانياً — فرضت سنغافورة — عقب نيل استقلالها الداخلى فى عام ١٩٥٩ — نفس القيود على اليمنيين ، بيد أنهم تمكنوا بوسيلة أو بأخرى من بيع الجزء الأكبر من ممتلكاتهم بها ، وامتلكوا بأثمانها عقارات فى عدن وبيروت والقاهرة ، أما ممتلكاتهم فى اندونيسيا فتركوها لمن بقى منهم هناك .

ثالثاً — أوقفت الهند وباكستان تحويل أية أموال الى اليمن ومنعتا الهجرة اليها الا باذن دخول مسبق . كما أن الهند صادرت الاقطاعات الزراعية التى كان يمتلكها أغنياء الحضارمة اليمنيين «بحيدر آباد» ، وسرحت جنود نظام «حيدر آباد» بعد أن قضت على حكم النظام نفسه ، وسوت معاشات جنود النظام اليمنيين ، ورحلتهم هم وعوائلهم الى حضرموت .

رابعاً — أوقفت اقطار شرق افريقيا هجرة اليمنيين اليها الا باذن مسبق ومنعت تحويل الأموال الا فى حدود ضيقة جدا .

وفى الوقت الذى تلاشت فيه هجرة اليمنيين الى مناطق جنوب شرق آسيا وانقطعت عنهم مواردها ، أخذت الهجرة الى شرق افريقيا تتضاعف تدريجياً ، الا أن وارد الأموال منها ما فئىء يرد الى اليمن ، ولكن فى أضيق الحدود ، على نحو ما تشير اليه الاحصائية التالية : (٩٢)

السنة	العائدون		المهاجرون	
	شرق افريقيا	الصومال	شرق افريقيا	الصومال
١٩٦٣	٧٨٧	٣٣	٨٤٦	٢٧
١٩٦٤	٤٧٩	١	٩١٦	٢٧
١٩٦٥	٢٩٦	٢٩	١٠٣٥	٢٣
١٩٦٦	١٨٧	٨٨	٥٥٥	٣٢٠
١٩٦٧	٤٣٧	٢٣	٩٢٣	٣٤٣
١٩٦٨	٤٢٤	١٢٩	٣٤٠	٢٠٣
١٩٦٩	٢٣٩	٣٩	٣٥٢	١٠٣
المجموع	٢٨٤٩	٣٤٢	٤٩٦٧	١٠٥٦

(٩٢) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٧٠ .
وقد أشار الى أن هذه الاحصائيات قد حصل عليها من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .

وعلى اثر مثل هذا التقليل المدبر للهجرة الى مناطق شرق افريقيا من قبل القوى الأوربية المسيطرة عليها ، كانلجترا وفرنسا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وبسبب الاجراءات التى يعانى منها اليمينيون داخل مهاجرهم للحد من نشاطهم ، وايجاد أبواب العيش فى وجوههم تحت مختلف المعاذير ، فقد ضاق معظم المهاجرين اليمينيين الا من استوطن المنطقة التى هاجر اليها واصبحوا جزءا من اهلها ، وتوافدوا الى بلادهم فى مجاميع كبيرة فى حالات من البؤس والفاقة ، وكانت قد شاعت فى المهاجر أنباء محاولة التنقيب عن البترول فى اليمن (٩٣) . غير أن آمال اليمينيين خابت ولو مؤقتا فى امكانيات بلادهم الاقتصادية ، وبدأوا يفكرون فى طريق الخلاص .

سادسا — تحول الهجرة اليمنية الى البلاد العربية النفطية :

بعد أن قيدت حركة الهجرة اليمنية الى شرق افريقيا نسبيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ، فقد اتجهت الهجرة اليمنية الى البلاد العربية النفطية فى الخليج العربى والمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص ، وجاء هذا التوجه بغريزة الطيور المهاجرة التى لا تخذلها حاسة التوجيه والارشاد التى تأصلت عند اليمينيين عبر القرون . اذ طرا على هذه البلاد تحول سبى الى الثراء الذى ارتباط بانتاج البترول والذى أشار الى ارقامه المعتمدة مُحقق دائرة المعارف البريطانية الصادر فى عام ١٩٦٣ (٩٤) . وقد تبين ان انتساج البترول السعودى قد زاد من حوالى ٢٠٠ مليون برميل فى عام ١٩٥٠ قِيمَتها حوالى ٥٠٠ مليون دولار ، الى حوالى ٣٦٠ مليون برميل فى عام ١٩٥٩ قِيمَتها حوالى ١٠٠٠ مليون دولار . بينما زاد انتاج البترول فى الكويت فى عام ١٩٦٠ الى حوالى ٦٠٠ مليون برميل قِيمَتها ١٧٠٠ مليون دولار بعد أن كان الانتاج فى عام ١٩٥٠ حوالى ١٢٥ مليون برميل قِيمَتها حوالى ٣١٦ مليون دولار . فى حين ظل عدد سكان المملكة العربية السعودية بين عامى ١٩٥٠ و١٩٥٩ فى حدود الستة ملايين ، بينما تراوح عدد سكان الكويت — بما فيها الاجانب من مختلف الجنسيات — بين ١٧٠ ألف و ٣٢٠ ألف نسمة . وتـد ذاعت اثناء هذه الثروة البترولية الطائلة فى جميع أرجاء العالم العربى ،

(93) Le Monde, Paris, 13 eme Novembre 1977.

(94) The Encyclopaedia Britanica, 1963.

مما شجع اليمنيين وخاصة الحضارمة على الهجرة الى هذين القطرين العربيين، بل ان بعض الحضارمة فى المهاجر الأخرى قد انتقلوا اليهما أيضا . وقد باع عدد الحضارمة الذين يعملون فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٦٩ ما يتراوح بين ١٥٠ و ١٨٠ ألف شخص ، بينما بلغ من يعملون من الحضارمة فى الخليج العربى فى نفس السنة ما يتراوح بين ٣٥ و ٤٠ ألف حضرمي . ويشير الاحصاء التالى الى أعداد المهاجرين من اليمنيين الى المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى والعائدين منهم الى اليمن فى الاعوام السبعة المنتهية بعام ١٩٦٩ على النحو التالى : (٩٥)

السنة	المملكة العربية السعودية		دول الخليج العربى	
	المهاجرون	العائدون	المهاجرون	العائدون
١٩٦٣	١٨٠٩	٧٠١	١٠٠٨	٧٧٥
١٩٦٤	١٧٠٦	٥٥٦	١١٠٠	١٣٦٦
١٩٦٥	٢٥٩١	١٨٠٨	١٩١٧	١٤٠٠
١٩٦٦	١١٤٧	٦٧٤	١١٩١	٢٠٢٩
١٩٦٧	٤٨٨٧	١٩٦٤	١٤٩٧	٢٨٦٤
١٩٦٨	١٢٩٨	١٨٥١	١٣٣٣	١٣٤٣
١٩٦٩	٢٥١٦	١٩٩٩	٣٠٨٣	٣٦٨٣
الجموع	١٥٩٥٤	٩٥٥٣	١١١٢٩	١٢٤٦٠

على أنه ينبغى الإشارة الى أن عدد المهاجرين اليمنيين الى المملكة العربية السعودية والى دول الخليج العربى فى الاحصاء المشار اليه لا يشمل عدد المهاجرين الذين هاجروا الى تلك الدول خلال هذه السنوات السبع بطريق البر ، والذين كان يبلغ معدلهم السنوى قرابة ألف وخمسمائة نسمة ، والتي أخذت هجرتهم شكل التسلسل فى مواقف كثيرة ، بعد أن أصبحت أبواب مهاجرهم التقليدية الى شرق افريقيا وغيرها تكاد تكون موصدة .

(٩٥) محمد عبد القادر بامطرف : المرجع السابق ، ص ٧١ .
وقد اثار الى أن هذه الاحصائيات قد حصل عليها من الادارات المختصة بشئون الهجرة فى وزارة الداخلية بعدن .
(م ١٩ — العرب فى افريقيا)

ونظرا لأن معظم اليمنيين المهاجرين كانوا يقصدون المهاجر المختلفة وهم أشبه بالملسين مما كان يعوق دخولهم الى تلك المهاجر فان الكثيرين منهم كانوا يتمكنون من الحصول على اعمال هناك بمساعدة المهاجرين الذين سبقوهم من اخوانهم ومواطنيهم . على أن تعرض بعض اليمنيين في مهاجرهم للضغوط المختلفة ، جعل الإقامة لا تطيب لهم هناك ، وكان ذلك من دواعي عودتهم الى وطنهم ، بعد أن علموا بتغير الأوضاع فيه بما يتيح لهم فرص ايجاد العمل والكسب المناسب (٩٦) وذلك في أعقاب ثورة اليمن الوطنية في السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ ، واستقلال جنوب اليمن في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧ .

المغتربون العرب

فى

غربى افريقيا

حلمى شعراوى

مقدمة :

تتعدد الاطر التى تندرج تحتها دراسة وضع « الجاليات العربية » خاصة فى افريقيا ، من بحوث الهجرة والاستيطان « الى بحوث التكوينات العرقية فى القارة ووضع الاقليات بينها ، الى « سوسيولوجيا الثقافة » فى مناطق الاحتكاك شمال وشرقى القارة الى الدراسات التاريخية حول تطور العلاقات العربية الافريقية . وأخيرا دراسات الاقتصاد السياسى « لتطور المجتمعات النامية » والعلاقات فيما بينها من جهة أو علاقاتها مع النظام الرأسمالى العالمى وتطوراته من جهة أخرى .

ويتصل موضوع « المغتربين العرب خاصة فى غربى افريقيا بأكثر من إطار من هذه الأطر على المستوى التاريخى أو السوسيولوجى أو التطورات الاقتصادية والاجتماعية للعلاقات الاقليمية والدولية بين المنطقتين العربية والافريقية .

وتلخص هذه الورقة النتائج الأولية لبحث موسع يقوم به الكاتب عن وضع الجاليات السورية اللبنانية فى المنطقة استغرق بعض الجهد الخاص عام ١٩٨٦ وما زال يتصل بجهود أخرى قد تستغرق بعض الوقت حتى يمكن بلورته . ولذا فالنتائج الواردة هنا مازالت قابلة للمناقشة والتعديل ،

وتفترض حدود هذه الورقة — مهما ضاقت — التعرض للآتى :

القسم الأول : اشكاليات التعريف ومنهج البحث .

القسم الثانى : طبيعة الدراسات السابقة فى الموضوع .

القسم الثالث : « المفتربون » العرب فى افريقيا .. لماذا من سوريا

الكبرى ولماذا فى غرب افريقيا ..

القسم الرابع : بعض نتائج دراسة حالة السنغال وبعض الملاحظات

على السياسات العربية تجاه المشكلة .

الهوامش والمراجع : وفيها محاولة لحصر الأدبيات الهامة والحديثة فى

هذا الموضوع .

القسم الأول : اشكاليات التعريف ومناهج البحث :

تتعامل دراسة المغتربين العرب مع أكثر من تعريف لعدد من المصطلحات بالضرورة ويؤدى الأخذ بأحدها دون الآخر الى توجه مختلف فى الدراسة والمنهج بشكل واضح ولذا نتعرض هنا لبعضها ولو بإيجاز .

حول التعريفات :

١ - الهجرة والمهاجرون :

يبدأ التعامل مع هذا المصطلح من دراسات الهجرة الشعبية قديمة الجذور فى التاريخ وما يترتب عليها من اندماج أو تصارع ثقافى واجتماعى لينتهى الى التعامل مع هجرة الأيدى العاملة من مناطق الطرد الى مناطق الجذب الحديث . وفى اطار موضوعنا وتاريخية الهجرة العربية لافريقيا فانه لا بد من الاهتمام بتحليلات الهجرة الشعبية التى تعتبر الموطن الجديد امتدادا للموطن القديم جغرافيا واجتماعيا (١) حيث تعتبر الهجرة هنا تلقائية . هما كان الموطن الأصلى عامل طرد نتيجة توفر الظروف للهجرة المتبادلة بين المنطقتين .

وكثيرا ما تنحصر فى هذا الصدد أوجه المعالجة بين الدراسات السكانية والديموجرافية أو الدراسات الاقتصادية البحتة .

(1) S. Amin, Contemporary Migration in west Africa - paper to IDEP Seminar, Sept 1972 on «Strategy of Economic Development».

فى هذا الاطار تقوم دراسة الهجرة باعتبارها عملية نزوح Migration من طرف لآخر تدرس ظروفها العملية أو الاقتصادية سواء بحكم تأثير النازحين Emigrants على المجتمع القديم وخلخلته ديموجرافيا واجتماعيا أو بتأثير الوافدين على المجتمع الجديد من هذه الزاوية . ولكن وضع المغربين العرب هنا يثير العديد من المسائل بسبب اتصال العلاقات العربية الافريقية . لفترات طويلة اتخذت فيها الهجرات اشكالا مختلفة وفق أطر اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة أيضا .

ولعله مما يلفت النظر هنا غياب دراسة الهجرة العربية فى كتب من الدراسات الحديثة رغم تعامل هذه الدراسات مع الهجرة التلقائية (الشووية) أو المخططة (الرق . .) أو الغازية (الاستيطانية الاستعمارية) أو العاملة وحتى الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية حين تعاملت مع مختلف أنماط الهجرة لم تورد بينها الهجرة العربية الى العالم الجديد أو أفريقيا (٢) .

فهو لذلك صلة بالطبيعة الخاصة للعلاقات العربية الافريقية أم بغلبة الطابع التاريخى على الاجتماعى الاقتصادى الحديث .

وهنا نسجل الملاحظة أيضا عن ضالة الدراسات حول الهجرة المتبادلة من الجانب الافريقى الى العالم العربى ، طبيعتها واثارها ، رغم ثراء ادب الرحلات العربية وكتب التاريخ التراثية بالحديث عن هذا الموضوع .

ب — الجماعة (الجالية) والأقلية :

دخلت دراسة الجماعة Community مبكرا فى الفلسفة السياسية اليونانية أو العربية لتمييز جماعات البحث عن السلطة فى الدولة — المدينة أو الخلافة والامبراطورية . ثم أدت مجتمعات التصنيع وحركة التمدن والتحضر الى معالجة دور جماعات التجار والحرفيين . . . الخ كما أدى ظهور مجتمع الولايات المتحدة بوجه خاص الى دراسة الجماعات المكونة له برز منها الجيئو اليهودى والزنجى . . ومدى التكيف والتناغم مع الجماعات الأخرى أو المجتمع الجديد ككل . وقد شملت هذه الدراسات أيضا جماعة

(2) N. Palsby, Community. in : International Encyclopedia of Social Science, vol 3-4. pp. 156-174.

« المستوطنين الأوربيين » فى إفريقيا عند محاولة نفى صفة الاستعمارية عنها ووضعت العرب والهنود على نفس مستوى الجماعة الأوروبية (٣) ومعنى ذلك أن دراسة الجماعة أو الجالية قد لا تنشأ من دراسة « الهجرة » بل « الاندماج » وفق المنهج الذى نتبعه أو التوجه الذى نتبناه سواء كان التاريخ الاجتماعى السياسى أو الاقتصادى السياسى .

والى هنا لا تدخل دراسة الجماعة أو الجالية فى مشكلات الجسد الانثنولوجى أو تاريخ التشريع الاجتماعى . . بسبب التمييز الواضح إذا كانت الجماعة أجنبية أو الاندماج الواضح إذا اعتبرت أقلية محلية .

وتعتبر حالات الاستيطان الأوروبى فى جنوب إفريقيا أو اليهودى فى فلسطين استثناء من هذا الجدول بسبب الطبيعة الاستعمارية للجماعتين .

أما تعريف « الأقلية » فأنها تتشابه فى عمليات تمييز الجوانب العرقية والقومية والدينية واللغوية ، كما تثير الأقلية مسائل التمايز فى التقاليد الثابتة الطويلة أو الموقف المتميز فى المجتمع بالنسبة للسلطة أو الأيديولوجية (٤) .

ويثير وجود الجاليات العربية فى إفريقيا كثيرا من موضوعات البحث فى هذه الأمور جميعا قد ترد تباعا فى هذه الدراسة ، ذلك أن المغتربين العرب أو الجاليات العربية فى غرب إفريقيا خاصة من السوريين واللبنانيين ، ترتبط دراستهم بدرجة أكبر بدراسة « الجماعات » وتبقى مشكلة علاقة وضعهم هذا بالاندماج العربى التاريخى القديم فى إفريقيا وبحث أسباب وضع الاغتراب الحديث فى القارة .

وبينما يتخذ العرب وضع الجاليات فى غرب إفريقيا ، فإن وضعهم يختلف الى حد كبير فى شرقى القارة اذ هم هناك أقرب الى وضع الأقليات الوطنية منه الى وضع الجاليات أو الجماعات بسبب ظروف الحضور التاريخى الطويل والمكثف مما جعل الادارة الاستعمارية نفسها تضعهم وفق

(3) Lord Hailey, African Survey oxf. 1957- p. 384-86.

(٤) الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية — نفس المصدر — مجلد ٩ — ١٠ ، ص ٣٦٥ — ٣٧١ .

بعض الظروف تحت فئة « الأهالى Native » وتعتبرهم فى ظروفه
أخرى غير أهالى Non native (٥) .

وبينما تنفرد مناهج الاقتصاد السياسى بدراسة الجماعات العربية فى
غرب افريقيا فان هذه المناهج تتداخل مع المناهج الانثروبولوجية
والسوسيولوجية فى دراسة هذه الجماعات أو الأقليات العربية فى شرق
القراره .

(ج) المفتربون العرب :

يميل العرب انفسهم حديثا الى استعمال هذا المصطلح خاصة بعد
التطورات النقطية فى الوطن الأم أو تطور التنافس العربى الاسرائيلى فى
افريقيا ، وهنا يصبح « الموطن مقابل المهجر » خاصة اذا حقق ذلك بعض
النفع لهذا الطرف أو ذاك فى الموطن أو المهجر . الا أن ذلك أكد وضعهم
كأجانب فى مجتمعات المهجر وأصبحت كلمة « الجالية » عند كثير من العرب
تعنى « المفتربين » وتنفى أية إمكانية للحديث عن الاندماج .

وقد تكون الهجرة السورية اللبنانية الحديثة الى الأمريكتين هى سبب
شيوع مصطلحات الجالية والاغتراب على الحضور العربى خارج أى وطن
عربى دون اهتمام بتمييز وضعهم الخاص فى افريقيا ، ولم تهتم القواميس
السياسية أو الاجتماعية العربية بهذا التمييز كما أن دراسات المهجر
نفسها وتركيزها على المهجر الأمريكى قد ساهمت . كما سنرى . فى تأكيد
هذا المعنى ، بل وزيادة غريتهم فى المجتمعات الافريقية . وقد لاحظ الباحث
أن تسمية المجتمعات الافريقية لهم بـ « نار » أو « كورال » فى السنغال
ونيجيريا على التوالي إنما تربطهم بالابيض أو الأجنبى بدورها لتؤكد عزلتهم
عن المجتمع والتاريخ العربى على السواء وبالنسبة للمفتربين العرب أو
« الجاليات » فى غرب افريقيا فان الشائع فى تسميتهم فى الأدبيات المعروفة
هو أنهم « السوريون » ولم يتميز اللبنانيون عن السوريين الا مؤخرا بعد

(5) A. I. Salim, Native or Non-Native in : History and Social
Change in east Africa ed : B. Ogot, East African Literature Bureau,
Nairobi 1976 p. 65-85.

الاستقلال اللبناني والافريقى على السواء . كما يعرفون كذلك «بالشرقيين» Levantines فى كثير من المراجع اشارة لمجيئهم من شرق المتوسط وفى المصادر الافريقية الرسمية الاعدت يعاملون كأجانب Aliens مقابل المواطنين .

ويثير وجود الموريتانيين أو المغاربة فى بعض بلدان افريقيا الفرنكفونية أو وجود السودانيين واليمنيين فى البعض الآخر الانجلوفون مشكلات أخرى حول الجالية والأقلية حيث يقترب وضع الموريتانيين والسودانيين على وجه الخصوص من تعريف الأقلية الوطنية بأكثر مما يعتبروا كجاليات اجنبية لأسباب تتعلق بالاندماج التاريخى والتقارب العرقى أو اللغوى ... الخ ويفرض ذلك بالضرورة اختلاف منهج الدراسة ومنطلقاته فى التعامل مع هذه الجماعات تحديدا لصلتها بالحضور العربى القديم فى أفريقيا وطبيعته الاجتماعية مما يثير التساؤل حول وضع الجاليات الحالية كاستمرار أو وجود منقطع الصلة بالحضور القديم .

الاطار النظرى ومناهج البحث :

يتصل موضوع الجاليات العربية فى افريقيا بعدد من المناهج ذات الاطر النظرية المختلفة فلان العلاقات العربية الافريقية تضرب طويلا فى التاريخ فاننا نصبح امام الخيار بين المنهج التاريخى المثالى أو المادى، الحدلى ، ولأنها واقع على الأرض الافريقية والعربية فاننا نصبح امام المناهج الديموجرافية والدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية ، ولأن هناك مشكلات قريبة النمط منها ، كالاستيطان الأوربى فى القارة أو الحاليات الاسيوية وغيرها وان اختلفت ظروفها فان المنهج المقارن يفرض نفسه على مثل هذا البحث أيضا .

ولا تخفى دراسات هذا الموضوع فى السنوات الأخيرة نهجها « الذرائعى » تارة برؤية وظيفية للظاهرة ، أو درسها فى اطار التطلّور الاقتصادى السياسى للواقع العربى والافريقى على السواء . وليست بمساحة هذه الورقة بالتي تسمح بتناول كل ذلك ولكننا يمكننا أن نشير هنا الى بعض اثار استعمال هذه المناهج المتنوعة على موضوعنا لنجعل وقائع الدراسة نفسها بعد ذلك تعبر عن المنهج الذى سوف نستقر عليه .

١ — اطار المنهج الديموجرافى :

يشارك المنهج التاريخى المثالى فى تجريد الظاهرة من سياقها فى التأريخ الاجتماعى وجدليته وذلك اما بالاعتماد على المنطق الاحصائى بلا أساس والاغراق فى الاحصاءات السكانية التى تدور حول حركة الهجرة ، محليا أو اقليميا أو دوليا ، وندفع دراسات الهجرة بدورها الى التركيز على المجتمع الطارد أو المستقبل لدراسة أثارها البشرية أو الحضرية من هنا يتخذ المنهج الديموجرافى الطابع الوظيفى بالضرورة لدراسة « الدور » الذى تقوم به الظاهرة فى مرحلة معينة وفى نسق اجتماعى معين معزولا عن السياق الاجتماعى التاريخى لآى من المجتمعين وفى معظم دراسات « الهجرة » يتخذ البحث منهجا كوزموبوليتانيا يدرس حركة الهجرة على النطاق العالمى بحيث تحتل الهجرة العربية لافريقيا مثلا أقل مساحة بجوار الهجرة الى الأمريكتين أو استراليا ، وحين تتصل الدراسة بالشرق الأوسط فإنها تركز على هجرة اليهود لأمريكا وفلسطين ، حتى كانت الدراسات الحديثة عن الهجرة والتى ركزت على « هجرة العقول » من العالم الثالث لأوربا أو هجرة العمال على مستوى اقليمى أو داخلى . لذلك فان استعراض أحد الباحثين لمائتى بحث عربى عن السكان والهجرة لا يكتفئ أى بحث رئيسى عن الهجرة المتبادلة بين الوطن العربى وافريقيا ، حيث ترد فى صفحات قليلة جدا فى هذا البحث أو ذاك وفى الاطار الاحصائى لحركة الهجرة فى العالم (٦) .

٢ — اطار المنهج المقارن :

لا شك انه اثرى بقدر ملحوظ مختلف علوم الاجتماع والاقتصاد السياسى والتى تتعلق بموضوعنا هنا . ولكننا لا نستطيع — رغم ذلك — أن نأخذها على اطلاقه ومن منطلقات نظرية أساسية خاصة بموضوعنا هنا ويتطبق ذلك على المستويات المختلفة لمعالجة هذا الموضوع . فثمة مستوى المقارنة بين اطار وجود الجاليات العربية فى افريقيا شرقا أو غربا وبين اطار الهجرة العربية للامريكتين ، اذ يتدخل البعد التاريخى ليعطى أبعادا فى دراسة الجاليات العربية بأفريقيا تختلف عن البعد السوسولوجى أو العرقى فى دراسة الجاليات بالامريكتين .

(٦) محمد الجوهري وعبد الله الخريجي ، مقدمة فى علم السكان ، ج ٢ ، الهجرة ، دار الشروق — جدة ١٩٨٠ — المراجع .

وثمة مستوى للمقارنة بين وضع الجاليات العربية فى أفريقيا والجاليات الآسيوية سواء من ناحية البعد الحضارى وتأثيره فى الاندماج والثقاف من عدمه أو من ناحية سياسات دول الوطن الام ونظرتها لهذه الهجرات وتعاملها معها (اليمينيون والسودانيون مثلا يعتبرون مواطنين فى نيجيريا وعدد آخر من الدول) بينما لا تحظى أية جالية آسيوية بهذا الوضع فى أفريقيا .

وثمة مستوى ثالث للمقارنة بين الجاليات العربية أو الآسيوية وبين الجماعات الأوروبية المستوطنة فى أفريقيا (الجنوب الافريقى) أو التى استوطنت لبعض الوقت وهاجرت (فى الجزائر والمستعمرات البرتغالية) وهو اطار استعمارى يتعلق بالظاهرة الكولونىالية والإمبريالية ، لا تتفق مع طبيعة شروط التكافؤ فى العلاقة بين العرب والأمازيغ تاريخيا أو فى الوقت الحالى ودور الرأسمالية العالمية فى ادارة هذه العلاقات .

٣ — اطار المنهج التاريخى الاجتماعى :

اغرقت المدرسة التاريخية العربية فى نزوعها المثالى ، وهى التى تعتبر مسئولة عن كثير من الخطأ فى تناول هذه القضية . فعند هذه المدرسة ، تنبعث « روح الأمة » بشكل تلقائى لتحقق « أهدافها السامية » فى حثبة معينة ، وهكذا ازدهرت العلاقات العربية الافريقية لحظة انبعاث الأمة العربية مبشرة بالاسلام فيما بين القرن الثامن والرابع عشر حيث استقبلت بروح الأخوة على الجانب الافريقى وهى ذات انجاز مثالى دائما ، يحتاج لابرار التأثير الإيجابى واتخاذ الموقف الدئاعى عن « السلبيات » مثل « الرق » أو التجارة ... السخ أما مرحلة تدهور هذه العلاقات فهى سبب « الروح الصليبية » الأوروبية أو سيادة روح الهزيمة عند الأمة العربية والشعوب الافريقية ، حتى اذا كانت مرحلة التحرر الوطنى « فانها مرحلة استعادة المجد الغابر » للعلاقات محورها العروبة والاسلام ، أو « دور » المركز العربى فى تحرير التخوم الافريقية سواء بالاسلام العربى عند البعض أو الدولة الوطنية القومية عند البعض الآخر « ثورة يوليو ١٩٥٢ » .

والجاليات العربية هنا اما بقايا عهد الاتصال الزاهر أو نزوح الى

أرض ليست غريبة فى فترة التدهور يتحملون فيها ظروفه حتى يتجدد « دورهم » فترة التحرر أو فترة ازدهار التعاون العربى الإفريقى .

الا أنه من منظور تاريخى جدلى مختلف تتخذ التطورات العربية والإفريقية طابعا آخر فديناميات العلاقة بينهما تخضع لطبيعة أنماط الإنتاج السائدة والعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية على الجانبين تلك التى أدت الى أنماط من الهجرة الشعبية المتبادلة منذ وقت سابق على الانتشار العربى بالإسلام ، ثم أدى التطور المتكافئ على الجانبين الى علاقات متكافئة بدورها وقد تكون غير متكافئة أحيانا وفى هذا الإطار نبحت ظاهرة الرق فى المجتمع الإفريقى والعربى على السواء ، كما تبحت آثار الهجرة والانتقال على المستوى الشعبى من الجانبين . وفى مرحلة تالية من التطورات الاقتصادية السياسية على المستوى العالمى ، يبرز دور الرأسمالية الإمبريالية واستيعابها للمنطقتين العربية والإفريقية وما يسمى بالتدهور فهو انقذاع مفروض عليهما ولتصبح مرحلة التحرر الوطنى محاولة خروج المنطقتين من إطار التبعية الذى فرض عليهما أيضا .

والجاليات هنا إحدى عناصر التطور الاقتصادى السياسى لهذه المجتمعات وجزء من مكوناتها الطبقية . الأماقة فى العالم العربى جزء من بقايا المرحلة شبه الإقطاعية الكائنة ، فى الواقع العربى والجاليات العربية هى جزء من مرحلة السيطرة الرأسمالية المشبوهة على الجانبين يبقى على وضع هذه الجاليات حتى يتم تحرير المنطقتين من علاقات التبعية المشتركة مع المركز الرأسمالى الأوروبى .

الدراسة الميدانية :

كان أسلوب الدراسة الميدانية لهذا الموضوع أحد وسائل البحث الهامة رغم ضيق المدة التى استغرقتها تحقيقه الا أن الباحث استفاد من زيارة كل من السنغال ونيجيريا بشكل كشف عن العناصر الضرورية للدراسة الى جانب توفير بعض المعلومات والمقارنات الضرورية .

لقد شملت الزيارة مقابلات مفصلة لعدد من شخصيات الجالية ومؤسساتها بل وفقرائها وعدد من الشخصيات الإفريقية المسئولة فى مواقع

مختلفة حكومية وحزبية كما أدت لجمع مادة احصائية وملاحظات مباشرة كانت ذات فائدة كبيرة للبحث وتعتبر هذه المادة الى جانب القراءات المسجلة اساسا طيبا لخطة بحث شاملة جديرة ان تتم من حول هذا الموضوع الهام .

انقسم الثانى

الدراسات السابقة فى الموضوع :

تعكس طبيعة الدراسات السابقة وتحديد هويتها الاختلاف كذلك حول طبيعة النظر للموضوع اما باعتبار المغتربين العرب الحاليين فى غربى افريقيا استمرارا لحضور سابق ، ومن ثم ضرورة اللجوء الى الدراسات التاريخية التقليدية عن العلاقات العربية الافريقية ، أو النظر اليهم ضمن عملية منفصلة «لتهجيرهم» الى هذه المنطقة ومن ثم يكتفى بالدراسات السوسولوجية الحديثة وتحديد طبيعتها لدى العرب والأفارقة والأوربيين .

وقد رأينا أن المناهج التى تتناول هذه القضية تفرض نفسها على تحديد طبيعة الدراسات عنها سواء كان المنهج التاريخى المادى أو المثالى من جهة أو المنهج الديموجرافى والمقارن من جهة أخرى . ومع ذلك فلا بد من الإشارة الى أن الفكر السياسى العربى قد عرف فى فترات مبكرة دراسة الجاليات والأقليات منذ درست أوضاع هذه الجماعات فى المجتمع الإسلامى العربى ، ثم عرف الفكر الحديث دراسة الجاليات حيث ارتبطت بمشكلات نشوء المجتمع الأوروبى فى العالم الجديد من جهة ونمو الظاهرة الاستعمارية فى اسيا وأفريقيا من جهة أخرى . لكن تلك الدراسات التى شملت اليهود والزنج فى أمريكا الشمالية لم تدرس الجاليات العربية أو المغتربين العرب هناك كما أن دراسة الأقليات فى افريقيا ركزت أول أمرها على دراسة الجاليات الأوربية المستوطنة فى القارة لبحث مشكلات الإدارة أو تأثيرهم الثقافى والحضارى على الأفارقة .

حتى كانت انتفاضة التحرر الوطنى فيما بين الحربين وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية رأينا اهتماما ملحوظا بجاليات العالم الثالث سواء من قبل الاستعماريين القدامى أو من قبل المغتربين وبنائهم فى الخارج خاصة الاسيويين (الهنود) والعرب .

أبدت الدراسة الشاملة « للورد هيلي » ١٩٥٧ « المسح الافريقى » اهتماما ملحوظا بوضع الجاليات الأوروبية وغير الأوروبية فى القارة الافريقية ومن جهة أخرى يشير باحث هندى الى أن أكثر من ٢٠ دراسة شاملة على الأقل صدرت عن الهنود فى أفريقيا بين ١٩٧٣/٤٣ (٧) . أما العرب فقد تركز اهتمامهم على الجاليات العربية فى العالم الجديد فى حدود الاهتمامات الأدبية (أدب المهجر) ولم يبرز هذا الاهتمام وبشكل علمى إلا بعد الحرب الثانية أيضا وبروز الدور الأمريكى فى قضايا الشرق الأوسط عندئذ بدأ الاهتمام بهذه الجاليات فى ظل البحث عن مقابلة (اللوى العربى) « باللوى اليهودى » من جهة أو إبراز « الروح العربية الوطنية — متسقة مع نصاعد حركة التحرر العربية الوطنية فى الفترة الناصرية من جهة ثانية . أو رغبة عند البعض فى اظهار تميز اللبنانيين الفينيقيين والمسيحيين خاصة فى مواجهة العروبة الاسلامية التى تصوروا انها تهدد خصوصية لبنان وهو مما دفع بالبعض الآخر لدراسات متخصصة عن العرب المسلمين فى أمريكا .

وإذا ما أخذنا بمنهج الاتصال التاريخى لعلاقات العرب بأفريقيا فإن ذلك لابد أن يرجع بنا الى أدب الرحلات العربية أو ما يمكن تسميته « بالانثوجرافيا العربية » وهو ما استفاد منه الأوروبيون كثيرا فى معرفتهم بالواقع الافريقى لخدمة المصالح الرأسمالية الاستعمارية نفسها . وهذا نذكر أعمال البدرى والسعدى واليعقوبى وابن حوقل وابن بطوطة والمقريزى وابن خلدون والوزان وعمر التونسى وغيرهم الكثير . وقد ورد عند هؤلاء جميعا ، فضلا عن ميلهم للتأريخ وصفا للواقع الافريقى وطبيعة حضور العرب فيه . ومما يلفت النظر فى متابعة الكتابات العربية الحديثة عن تاريخ العلاقات العربية الافريقية الميل الملحوظ لإبراز البعد التاريخى أو الثقافى (الإسلامى) دون الاجتماعى فى هذا الواقع ، ومن ثم أدى ذلك الى تجاهل ملحوظ للإشارة الى طبيعة الجاليات العربية فى البلدان الافريقية والجاليات الافريقية فى العالم العربى علما بأن تناول الجوانب الاجتماعية فى هذه الدراسات كان يمكن أن يعالج خلالها طبيعة ومرحلة النمو المتكافىء وآثاره فى الحضور

المتبادل على الجانبين . وقد أدى ذلك الى أن تنفرد الدراسات الأوربية تقريبا حتى وقت قريب بدراسة الابعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للوجود العربى دون أن تخلو بالطبع من الانحياز وفى الاطار التاريخى للدراسات العربية ظلت الاشارة الى الجاليات « عابرة ولم تنشأ دراسات حديثة عن الجماعات العربية فى افريقيا الا مؤخرا . عندئذ — أيضا — يمكن ملاحظة أنها درست فى اطار هموم بعض البلدان العربية تجاه « ابنائها فى الخارج » .

ولذا درسها لبنانيون أو سوريون أو يمنيون أى من البلدان التى تشكل مصادر الهجرة الحديثة الأساسية .

أما الجانب الإفريقى فقد شغل بدراسة الاستعمار والسياسات الاستعمارية أو الاستعمار الاستيطاني الأوربي ثم الاستعمار الحديث وآلياته ، ويلاحظ أن الجاليات العربية لم تشغل الباحث الإفريقى حتى الآن، رغم توفر بعض الكتابات البارزة عن اطار التعاون العربى الإفريقى ، أبعاده الاقتصادية السياسية أو مشكلاته التاريخية .

فى العجالة التالية — وفى حدود هذه الورقة — يمكننا أن نشير بتركيز إلى الدراسات الحديثة عن الجاليات العربية — السورية واللبنانية — فى غرب افريقيا ، اتفاقا مع روح هذا البحث من ناحية ولاتفاقه مع الدلالات المشار إليها سابقا من ناحية أخرى .

على الجانب الأوروبى :

امتد الاهتمام بدراسة الجاليات السورية واللبنانية منذ فترة بين الحربين فترة التوسع فى الهجرة حتى منتصف السبعينيات — فترة الانكماش . حيث مضت على النحو التالى :

(١) دراسات مسئولى الادارة الاستعمارية وأبرزها دراسة ديسبوردي Desbordes عن الهجرة السورية اللبنانية فى افريقيا الغربية الفرنسية عام ١٩٣٨ برزت فيها مشاكل هذه الادارة نتيجة منافسة الجاليات العربية مع الاوروبيين (٨) .

(8) I. G. Desbordes :

L'Immigration Libano-Syrienne en Afrique occidentale française, Université de poitier 1938.

(ب) فيما بعد الحرب العالمية الثانية بدأت تفيرات الخريطة الاجتماعية الاقتصادية لأفريقيا تهم الدول الأوروبية التي توشك على تسليم الإدارة للأفريقيين . وهنا تأتي دراسة بوير عن التجارة في غرب أفريقيا (١٩٥٣) كنموذج للاهتمام بوضع الجاليات السورية اللبنانية في السوق الأفريقي (٩) .

(ج) مع بداية توسع الاهتمامات الأوروبية بأفريقيا المستقلة والصراعات الدولية والاجتماعية فيها تنوعت الدراسات الأوروبية أيضا عن الجاليات العربية فصدرت دراسات جورج جاي (الفرنسي) ١٩٥٧ ووايدر (الأمريكي) ١٩٦١ وفان ديرلان (الهولندي) ١٩٧٥ وربتا كروز أوبرين (البريطانية) ١٩٧٢/٧٥/١٩٧٩ (١٠) .

على الجانب العربي :

لا يمكننا هنا الزعم أن ببلوجرافيا كاملة أو محققة قد تمت سى هذا الصدد لكن بعض الجهد الذى تم والموثوق فى جديته قد يساعد على استخلاص بعض الدلالات هنا .

(أ) بدأ الاهتمام العربى من جانب الكتاب اللبنانيين بالأساس لظروف قطرية كما أشرنا فى نفس فترة اهتمام الإداريين الاستعماريين (فيما بين الحربين) ونتيجة تصاعد مشكلات المنافسة مع الأوروبيين المستوطنين

(9) P. Bauer : West African Trade London 1953.

(10) R. C. O'Brien :

a) White Society in Black Africa, London 1972.

b) The Lebanese entrepreneurs in the Senegal in «Cahiers de L'Etudes Africaines» vol. 1975.

c) Foreign Ascendance in the Economy and state the French and Lebanese in «The political Economy of underdevelopment, Dependence in senegal editor: R. C. O'Brien.

— G. Gayet, Les Libanais et Les Souriens dans L'ouest African (Brussels 1957).

— B. Winder, the Lebanese in West Africa in Comparative Studies in Societies and History vol 4. 1961-62. p. 297-333.

— Laan, H. L. van der the Lebanese traders in Sierra Leone the Hagne Mouton 1975.

هناك ، ولذا كانت الكتابات بالاساس تسجيلا لرحلات الكتاب لمنطقة غرب افريقيا — وأبرز أمثلتها كتابات عبد الله حشيمة (١٩٣١) وكامل مروة (١٩٣٨) ، وحتى كتابات أحمد حسن مطر (١٩٥٠) وادموند سعدي (بيروت ١٩٥٢) (١١) .

(ب) اثارت مرحلة الاستقلال قلق بعض الشباب من أبناء الجاليات اللبنانيين أو القرييين من مشكلاتهم في الوطن الأم وذلك بسبب موجة البحث عن « ضحية » فيها بعد الاستعمار الأوروبي فجاءت كتابات دفاعية في الغالب لكنها أيضا أكثر الكتابات علمية ويذكر في مقدمتها هنا دراسات الدكتوراه التي قدمها « مروان حنا لجامعة » اكسفورد ١٩٥٩ وأبلى صفا لجامعة سانت اوغسطين ببيروت ١٩٦٠ (١٢) .

(ج) لم تبرز خارج هذا الاطار اشارات هامة للهجرة السورية اللبنانية لغرب أفريقيا ضمن البحوث العربية في الديموجرافيا أو الجغرافيا البشرية أو حتى موضوع الهجرة المباشر وخاصة في مصر حيث اقتصر على اشارات احصائية في بضع صفحات هنا أو هنالك . وكان ذلك في اطار عدم اتساق واضح بين علاقات مصر الناصرية المتطورة بافريقيا وتكوين الثقافة السياسية في مصر تجاه العالم الثالث (١٣) .

(١١) عبد الله حشيمة : في بلاد الزنج — بيروت ١٩٣١ .

كامل مروة : نحن في افريقيا ، بيروت ١٩٣٨ .

أحمد حسن مطر :

A. H. Mattar, Social and Commercial Guide of the Lebanese and Syrians in West Africa Brooklyn 1950.

ادموند خليل سعدي :

E. K. Saade', Le Liban dans Le Monde Beirut 1952.

(12) Marwan Hanna, Lebanese Emigrants in West Africa (unpublished ph. D. thesis oxf. 1959.

— Elie Safa, L'Emigration Libanase, Beirut 1960.

(١٣) انظر معظم دراسات الجغرافيا البشرية عن السكان ، وان كان يعتبر من أهمها :

١ — د. محمد السيد غلاب ود. محمد صبحي عبد الحكيم : السكان

ديموغرافيا وجغرافيا ، مكتبة الانجلو — القاهرة ١٩٦٧ .

(د) لا يمكن رصد دراسة سمير أمين عن « عالم رجال الأعمى - سال السنغاليين » (١٩٦٩) ضمن الاهتمامات العربية الحديثة بهذا الموضوع — وهى عمل جاد بالفعل — سواء لتركيزها على السنغاليين من جهة أو لصدورها فى إطار الثقافة الأوروبية من جهة أخرى . ولذا لا يقابلها الا صدور موسوعة حسن حدة (السورى) عن تاريخ المغتربين العرب فى العالم (١٩٧٥) وهى تجميع موسوعى أكثر منها دراسة علمية للموضوع (١٤) .

على الجانب الأفريقى :

(١) تتشابه الدراسات الأفريقية الى حد ما مع الدراسات العربية فى اهتماماتها التاريخية الثقافية بموضوع العلاقات العربية الأفريقية منذ أسسها شيخ انتا ديوب عن زنوجية مصر لا عروبتها فى دراساته المشهورة وحتى دراسة بوبو هاما عن « الوحدة الأفريقية » مع اشارات لوجود الفنيقيين والسوريين واليهود المبكر فى الممالك الأفريقية القديمة (١٥) وفيما بين ذلك لابد من التنبيه لاهتمام بعض الدارسين الأفريقين بمقولة تنسب بعض القبائل الأفريقية الى اصول عربية وخصوصا من مناطق الاتصال الوثيق (شمال نيجيريا — منطقة الساحل) منذ أواخر القرن ١٩ (١٦) .

(ب) ولم يمنع ذلك من وجود اهتمام مبكر بوضع السوريين واللبنانيين بوجه خاص وكمهاجرين محدثين منذ وقت مبكر فى الدراسات الأفريقية

٢ — د. محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، جغرافية السكان ، مكتبة الانجلو القاهرة — بدون تاريخ .

٣ — محمد الجوهري — عبد الله الخريجي : مقدمة فى علم السكان ، ج ٢ الهجرة — دار الشروق ١٩٨٠ .

(14) Samir Amin, Le Monde des Affaires Sengalais Paris 1970.
حسن حدة : تاريخ المغتربين العرب فى العالم ج ١ — ٢ ، دار دمشق ١٩٧٤ .

(١٥) بوبو هاما : بحث أسس ومكونات الوحدة الأفريقية ، ترجمة الهيئة العامة للاستعلامات — القاهرة — بدون تاريخ .

(١٦) الى جانب اشارات بوبو هاما لهذه الظاهرة بالنسبة للنفولا والتكرور .. السنخ . انظر : ابراهيم صالح بن يونس (نيجرى) : تاريخ الاسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم وبورنو — مكتبة الحلبي — القاهرة ١٩٧٦ .

كما يبدو ذلك عند ادوارد بلايدن E. Blyden في دراسته الشيفة عن « المسيحية والاسلام والجنس الزنجى » ١٨٨٧ وقيامه منذ وصوله للوزارة في ليبيريا بزيارة الشرق الأوسط وتعلم العربية ودعوته اللبنانيين للهجرة للمنطقة مشيدا بدورهم التنموى هناك (١٧) .

(ج) من زاوية أخرى يمكن القول أنه لا تتوفر في الانتاج الثقافى بفرب افريقيا في حدود الفحص الاولى الذى قمت به اثناء زيارة جامعات السنغال ونيجيريا دراسات متخصصة عن وضع الجاليات السورية واللبنانية في المنطقة ولكنها ترد في اطار دراسات الاقتصاد السياسى لبعض بلدان المنطقة من قبل بعض مثقفها وفي اطار تطور سياسات الافرقة او التأميم أو نمو الرأسمالية المحلية تحت شعارات التوطن Indigenization .. الخ. ويمكن تسجيل كثير من المصادر لكننا لا نستطيع ذكر قائمة مطولة من دراسات الاقتصاد السياسى الافريقية الا من اهتم بابرار وضع الجاليات السورية اللبنانية بشكل خاص في هذا الاطار مثل مشوت ديوب في دراسته عن « تاريخ الطبقات الاجتماعية في غرب افريقيا — حالة السنغال ومالى ١٩٧١ » أو اديبايو اويديجي عن « توطن الاقتصاد الافريقى » ١٩٨١ ، أو « كلود اكى » عن الاقتصاد السياسى لافريقيا ١٩٨١ ، أو « قورى ومبار » عن « الدولة والبرجوازية » في ساحل العاج ١٩٨٢ (١٨) .

بل واهتم البعض بطبيعة علاقات السوريين واللبنانيين مع الشرائح الاجتماعية الافريقية والأوروبية مثل عثمان ديوب في « ورثة الاستقلال »

(17) E. Blyden, Christianity, Islam and Negrorace, Whittingham & Co. London 1887.

(18) M. Diop, Histoire des Classes Sociales dans L'Afrique de L'onest tom-I Le Mali-z-Le Senegal L'Hormattan paris - ed2-1985.

— A. Adedeji, (ed) Indigenization of African Economies Huchison, co, London 1981.

— C. Ake, A political Economy of africa Long man, London, 1981.

Y. Faure - J. Madard, Etat et Bourgeoisie En Cote D'ivoire. Karthala-Paris 1982.

١٩٨٢ أو ١. ديارا عن علاقات المجموعات العرقية فى السنغال ضمن المشروع الدراسى لليونسكو عن الموضوع فى اكثر من دولة افريقية (١٩) .

ثالثا — الجاليات السورية اللبنانية فى غربى افريقيا :

١ — من الهجرة المتبادلة الى « الاغتراب » فى غربى افريقيا :

لم تهتم دراسات الهجرة الشعبية كثيرا بالابعاد التاريخية الاجتماعية لها الا فى حدود ما يشمل الهجرة الى الأمريكتين فى العصر الحديث ولذا بقيت الهجرة المتبادلة فى المنطقتين العربية والافريقية دون دراسات معمقة تتيح تفسيرات اخرى خلاف الرؤية العربية المثالية للتاريخ او الرؤية الافريقية المنحازة أحيانا كثيرة للتفسير الأوروبى الحديث للعلاقات العربية الافريقية لذا تجرى التفسيرات الحالية دون اعتبار « للمتصل التاريخى » بين المنطقتين وظروف الانقطاع التاريخى بينهما أيضا . وفى ظل غياب تفسير تاريخى جدلى لهذه العلاقات ، ظل المنهج العربى يتابع فترات « الفتح » و«الازدهار» والتأثير الحضارى العربى الاسلامى فقط (٢٠) الى أن أصبح الحديث عن المهجر بعد انقطاع هذه العلاقات ، كما ظل الأمازيغية يتحدثون عن الرقيق أو الأمازيغية فى « الدياسبورا » العربية . وقد تكون ثمة مظاهر أساسية لكل ذلك الا أن وضعها أيضا فى سياق التطور الجدلى التاريخى قد يغير كثيرا من الاستنتاجات والمواقف .

ودون الدخول فى تفاصيل ليس هنا مكانها فان القراءة التحليلية لتاريخ الهجرة الشعبية بين المنطقتين وإبعادها الاجتماعية الاقتصادية قد تركز على

(19) O. B. Diap, Les Heritiers d'une Indépendance N. E. A. Dakar 1982.

— F. A. Diaza, Ethnic group relations in Senegal in «Two studies in /thnic group relations in Africa» unesco 1974.

(٢٠) لسنا بحاجة لذكر العديد من الكتب والدراسات العربية عن « انتشار العروبة والاسلام فى افريقيا » أو حضارة العرب والاسلام فى افريقيا ، أو المسلمون فى افريقيا من وجهة نظر عربية بحثة الى غير ذلك من العناوين القريبة وأن كان لا ينكر التقدم الذى حدث فى هذا المفهوم مؤخرا بحلول عناوين مثل « العلاقات العربية الافريقية » وأن بقيت فى اطار التاريخ أو « العرب وافريقيا » فى اطار معالجة مشكلات العلاقات بين المنطقتين .

علاقات التفاعل المبكر بينهما وليست علاقات السيطرة وذلك اذا ما تعاملنا مع ظواهر التطور المتكافئ للمنطقتين على نحو ما نجد الكثير من ظواهرها فى المراحل التاريخية المختلفة والسابقة على الاستعمار الأوروبى لهما . اننا كثيرا ما نتجاهل أبعاد تلك العلاقات فى مناطق البحر الأحمر (اليمن — اثيوبيا) أو عبر البحر الأبيض (الفنيقيين وشمال افريقيا) أو عبر المحيط الهندى (مدغشقر والجزر — جنوب الجزيرة العربية) أو عبر الصحراء (الفراغة — الزنوج) ولسنا بحاجة لأن نذكر هنا ممالك الامهر أو الاشانتى وقرطاج وغانا فى اطار هذه العلاقات نفسها ؟ والذى يرجع الى العصر التاريخى نفسه سوف يجد مملكة غانا مزدهرة من القرن الثالث الميلادى حيث لم تكن قد قامت المملكة العربية الاسلامية بعد وفى « غانا » اندمج الفنيقيون وغيرهم من البيض (العرب) ليشكلوا قبائل التكرور والسير اكولى على نحو ما ذكر بوبوها ما وغيره .

وثمة كثير من الظواهر الاجتماعية التى نشأت نتيجة هذه العلاقات للدلالة على قوة التمازج الثقافى الناتج عنها ومثال ذلك فى تركيب لغات واسعة الانتشار مثل السواحلية والهوسا وغيرها وما تعكسه من علاقات معروفة مع اللغة العربية — وبنفس القدر عرفت اللغة العربية الشـعراء السود الذين أخصبوا إنتاجها فى هذا الميدان مما لا يمكن ان يصدر الا عن عملية اندماج واسعة لآلاف الأنارقة الذين جاءوا للتجارة ثم الحج والتعليم (٢١) .

ان العلاقات العربية الافريقية لم تؤد الى ما أحدثته الثقانة الأوروبية مثلا عندما وصلت غازية الى افريقيا بقوة الانتاج الرأسمالى، والقهر.

(٢١) انظر : عبد الجليل التيمى : الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصور الحديثة . من منشورات الجمعية التاريخية المغربية — تونس ١٩٨١ .
— عبده بدوى : السود والحضارة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

— Umar AL Naquar, The Pilgrimage Tradition in West Africa Khartoum univ. Press 1972.

— A. Ajaye (ed) Athousand years of West African History, Ibadan 1979.

الاستعماري ، ولم تظل العربية بذلك مفترية مثلما ظلت الفرنسية والانجليزية ومختلف اللغات الأوربية في مستعمراتها . ومساهمة الثقافة الافريقية في الثقافة العربية بانتاج العلماء ومخطوطات الفقه والتاريخ مما تذخر به خزائن « كانوا » و « تمبكتو » و « لامو » وزنجبار وغيرها من مراكز الثقافة الافريقية العربية .

ومن الناحية السياسية فان علاقة العرب بافريقيا أو الحضور العربي في أفريقيا لم يؤد الى سقوط السلطة السياسية التقليدية في المجتمعات الافريقية كما حدث مباشرة مع الاستعمار الأوربي وذلك نتيجة التنامي المتكافئ للطبقة التجارية الحاكمة في المنطقتين وعلى العكس فان المجموعات الافريقية في الوطن العربي ادت الى تولى الكثيرين حكم أقطار عربية بل واحدثوا أهم ظاهرة سياسية وهي فعل الثورة نفسه فيما عرف بثورة الزنج في الوطن العربي كأحد أشكال التحرر الشعبي الرئيسية التي عرفتها المنطقة العربية .

معنى ذلك أن فترة الاتصال العربية الافريقية في مراحلها التاريخية كان يمكن أن تؤدي الى تطورات مختلفة لو مضت في مسيرتها التاريخية هذه لكن المرحلة الاستعمارية التي أحدثت فترة الانقطاع الأساسية في هذه العلاقات مصحوبة بحضور السوريين واللبنانيين في الاطار الاستعماري الحديث هي التي جعلت اشكال الحضور في أعقابها — فترة الاستقلال وكأنها بداية جديدة ومن هنا تحدث التعقيدات في تصور وضع الاقليات أو الجاليات العربية بما يحتاج لقراءة منهجية جديدة للاحداث خاصة وأن الاتصال الذي حدث فيما بعد الحرب العالمية الثانية حدث في اطار التحرر الوطني ولعبت فيه ظواهر الاتصال الوطنية بدورها دورا ايجابيا لا يمكن أن ينعكس بالسلب على كثير من ظواهر الاتصال والحضور القديم .

في هذا الاطار يمكن فهم كيف عزلت مرحلة الانقطاع دورة الثقافة العربية الافريقية الحيوى لتبقى في الاطار الدينى فقط ببعده السلئى والصوفى الذى عاش في هذه المنطقة .

وفي هذا الاطار أيضا يمكن النظر الى مسألة الجاليات لا باعتبارها بالضرورة ايجابية من ايجابيات التاريخ ولكن قد تحسب على سلبيات المرحلة

الاستعمارية كما نميل لتفسيرها وهى مثل الرق الذى ربطناه بنمط الانتاج شبه الاقطاعى فى المنطقتين تفسر فى اطارها الاجتماعى الاقتصادى ولبس بمجرد سلبية أو ايجابية العلاقات بين المنطقتين .

القسم الثالث

المغتربون فى افريقيا .. لماذا من سوريا الكبرى ولماذا فى غرب افريقيا

مقدمة :

قد لا يتفق القول باغتراب العرب فى افريقيا فى هذا المدخل مع ما سبق شرحه طويلا عن عوامل التوحد والتكامل بين العرب والأمازيغة على مرقون طويلة قبل الاسلام وبعده ، ولكننا ربطنا هذا التوحد والاندماج طوال تلك الفترة بالتطور المتكافئ وآثاره الاجتماعية والثقافية الى جانب أبـماده الاقتصادية .

وكان يلزم ان تستمر هذه العوامل لتستمر عملية الاندماج بين العرب والأمازيغة لو استمر تطورها الذاتى المستقل لتخلق نوعا من « العالمية العربية الافريقية » فى عصر التحرر الوطنى والتغيرات الاجتماعية الكبرى .

الا اننا رأينا أن ذلك لم يكن هو المسار الطبيعى الذى مضى فيه تاريخ المنطقتين ، حيث تطور الأمر على الجانب الشمالى للبحر المتوسط لصالح النظام الرأسمالى الذى تبعه نشوء وتطور السوق العالمى والظاهرة الاستعمارية العالمية بدورها ، لتنتقل المنطقتين العربية والافريقية من مرحلة التطور المتكافئ المستقل الى مراحل متدرجة للتبعية لهذا السوق العالمى الجديد وما فرضه من أنماط التعامل والتبادل والحياة الاجتماعية والثقافية ، على السواء .. ولقد رأينا كيف أصبحت المدن الساحلية الأولى فى غرب افريقيا — مثلا — منطقة تلاقى العرب والأمازيغة معا سعيا وراء تنظيم التبادل التجارى مع السوق الأوروبية كما حدث فى سان لويس (السنغال) والكابفير وغيرها .

وكان السعى الأوروبى الى الذهب الافريقى عن طريق غرب الشمال الافريقى ممن قادتهم الممالك المغربية لعدة قرون بين السابع والتاسع عشر ،

وهو امر أبقى على قدر من العلاقات العربية الافريقية لبعض الوقت ولو ضمن اطار « خارجى » لكن حاجة السوق الأوروبى فى اعقاب ذلك الى تجارة الرقيق للعمل فى المزرعة الأوروبية الجديدة بالامريكتين ، وتنوع عناصر التجارة الدولية الجديدة باقترانها بالصناعة الاوربية ايضا جعل دور العرب ينكمش فى العلاقات الأوروبية الافريقية ، ثم كان الصراع على تقسيم العالم العربى أيضا فى ظل الحكم العثمانى واستعماله مزارع وأسواق بدوره مما جعل عملية التقسيم والسيطرة والتحكم الاقتصادى تصبح هى الآلية الأساسية للتعامل داخل المنطقتين وخارجهما .

وبانتقال طرق النقل من داخل القارة الى سواحلها وسيادة الأساطيل الأوروبية على البحار والمحيطات تحمل التجارة الأوروبية ، انقطع الاتصال المادى والاجتماعى بين العرب والأفارقة ، رغم وجود بعض عناصر الاتصال الثقافى عن طريق الاسلام الا انه بدون أساس مادى كاف لم تكن لوفود الحج أو قراءة المخطوطات الدينية أن تقوم بالدور التاريخى الذى كانت تنجزه عناصر التطور السابق .

شهد القرن الثامن عشر الانقطاع الكامل تقريبا بسبب عوامل ذاتية حدثت داخل التطور العربى نفسه (انقسام المملكة المغربية على العثمانية وتقسيم الملكيتين) وعوامل خارجية هى السياسة الأوروبية والاطار الجديد للرأسمالية الغربية نفسها وحاجاتها الجديدة من المنطقتين .

وفى وسط فترة الانقطاع هذه ظهرت حاجة أوروبا « لجماعات بشرية » متنوعة فى مستعمراتها الجديدة ولاغراض جديدة ، وذلك مع ظهور الحاجة الى تطوير انتاجية هذه المستعمرات بأساليب جديدة ، فكان ثمة حاجة لتطوير الزراعات وخلق أسواق فى مستعمرات افريقيا ومن ثم الفى لرق بل ورفعت الدعوات لعودة الرقيق الى « بلادهم » فى أفريقيا خاصة فيما عرف « بالصهيونية السوداء » أى العودة للوطن للام وسُميت تلك العملية « بتحرير الرقيق » كنزعة انسانية قادتها بريطانيا ثم بعض الدول الأوروبية من ورائها ، ومع « الغاء الرق » على هذا النطاق الواسع كان ثمة حاجة لأبدى عاملة جديدة تدير اقتصاديات من نوع جديد فى الأمريكتين وافريقيا فشجعت الهجرة العربية الى الأمريكتين وافريقيا ، على السواء الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى فترة « تحرير الرقيق » نفسها . وفى

هذا الاطار تم تشجيع رحيل الآلاف من السوريين الى الأمريكتين ، واتجهوا بالبعض الى غرب افريقيا ، كما جاءوا فى مرحلة أخرى بالاسيويين (الهنود) الى شرق افريقيا لأغراض مماثلة .

ويكاد المرء من خلال قراءة الظروف التى هاجر فيها عرب المشرق الى الأمريكتين و إفريقيا أن يصفها « بالموجة الثانية للرق الجماعى » أو « الرق العربى فى الغرب » وهى لا تكاد تختلف عن موجة الثالثة شهدناها فى النصف الثانى من القرن العشرين اذا تأملنا ظروف عمل العرب والانفارقة وغيرهم فى بلدان الغرب الرأسمالية فيما يسمى بالعمالة أو هجرة العقول :

فاذا ما تناولنا وصول المفترين العرب الى غرب افريقيا مقترنا بهذا الانماط الجديدة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية فاننا لا يمكن أن نتصور الا أن يعيشوا غرباء على أرض عرفها أجدادهم كأرض توحدوا وتزاوجوا عليها من قبل . ولم يكن « الاغتراب » مصير العرب وحدهم على نطاق بلدان العالم الثالث فى ذلك الوقت ، بل كان اغتراب الأفارقة أيضا على أرضهم نتيجة معاشة انماط انتاج جديدة لم يختاروها مثل العمل فى المحاصيل النقدية الواسعة أو انتاج المواد الخام لصناعات لا تخصهم . وقد يكون نمط التجارة الذى أجاده العرب قد اعفاهم من أشكال الرق التقليدية ووصل بهم تدريجيا لأوضاع أفضل بالتأكيد ولكن الظروف النفسية التى وصف بها وجودهم لعدة عقود وصعوبة أن يصيروا شركاء للاروبيين أو الافريقيين على السواء بسبب سيادة النمط الأوروبى قد يساعد على فهم الاستغلال الجماعى لهم لفترات طويلة وبقائهم غرباء فى المناطق التى يعيشون فيها بما يشبه وضع الرقيق الأفارقة الذين استمروا فى المجتمع الأمريكى ثم أصبح بعضهم ضمن برجوازية ذلك المجتمع مؤخرا .

وبعد هذه المقدمة فانه لابد من بعض التفاصيل لايضاح أعادها من خلال معرفة :

أولا : الهجرة من سوريا الكبرى .. لماذا ؟

ثانيا : الهجرة الى غرب افريقيا وخاصة السنغال ونيجيريا وظروف وجود المفترين من الاستعمار الى الاستقلال .

أولا : الهجرة من سوريا الكبرى .. لماذا ؟

لابد أن يربط الباحث هجرة « السوريين » و « اللبنانيين » من سوريا الكبرى الى غرب افريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين بهجرتهم أيضا او — أساسا — الى الأمريكتين حيث الأعداد الكبرى هناك ، حتى يمكن تفسير الظاهرة من خلال منظور واحد .

ويقتضى الأمر أيضا عند الحديث عن اغتراب السوريين الى غرب أفريقيا ألا نتصور أنهم العرب الوحيدون فى هذه المنطقة ، فثمة جاليات موريتانية وسودانية ويمنية بدرجات مختلفة الى جانب الجاليات الأخرى ولابد من دراسات مسحية ومقارنة واسعة تشمل جميع هؤلاء وظروف كل منهم واستخراج العام والخاص من واقعهم بالنسبة للوطن العربى والأفريقى . كما تتطلب دراستهم المقارنة بوضع الجاليات الآسيوية (من هندود وباكستانيين ..) والجاليات الأوروبية التى تتسيد الموقف هنا أو هناك فى الدول الأفريقية .

وحيث تؤثر الظروف المادية والتاريخية والاجتماعية التى كانت وراء هجرة هذه الجالية من سوريا الكبرى الى غرب افريقيا وصياغة سلوكها وتعاملاتها فى المنطقة الأفريقية فى أنماط ما زال بعضها يحكم وجودها حتى الآن فان معرفة هذه الظروف جديرة بأن تفتح الباب أمام فهم الكثير عن واقع الجاليات ومشكلاتها الحالية فى القارة الأفريقية .

وتجدر الإشارة هنا الى أننا سنستعمل تعبير المفترين ليشمل « السوريين واللبنانيين » بصفتهم وجنسياتهم الحالية بما يمكن أن يشمل أيضا وضع الاردنيين والفلسطينيين ازاء الاتفاق العربى العام على أن سوريا الكبرى كانت حتى أوائل القرن تشمل هذه الأقطار العربية المختلفة من جهة كما أن ثمة اجماع من الدراسات التى تعرضنا لها حول المفترين على أن المهجر الأمريكى او الأفريقى قد تعامل مع هؤلاء المفترين لعقود طويلة باعتبار أن مصطلح « السوريين » يعنى هؤلاء جميعا وخاصة السوريين واللبنانيين الذين يشكلون جسد الجالية الرئيسى . أجمع على ذلك « فيليب حتى » (١٩٢٤) وجورج طعمة فى الستينيات وانتهاء بدراسات علمية حديثة من أبناء الجاليات فى امريكا الشمالية مثل سمر ونبل ابراهيم عن العرب فى العالم الجديد (١٩٨٣) .

التفسير الحضارى النفسى للهجرة :

قد يكون الجهد الأساسى لكتابة التاريخ القديم والحديث للمنطقة عند فيليب حتى أو فؤاد مازان أو غيرهما هو الذى يدفع بالبحث فى أسباب الهجرة التى تتبع سلوك أهل سوريا الكبرى فى الترحال وعبور البحار والالتفاف حول القارات وتنشيط حركة الملاحة وانتجارة الدولية منذ وقت مبكر فى التاريخ كأحد الانجازات الحضارية لهذه المنطقة . ويغرد « فيليب حتى » أحد أكبر مؤرخى سوريا الكبرى فصلا كاملا « للنشاط الحضرى والتوسع الاستعمارى » الذى عرفه هذا الشعب منذ العصور التاريخية المبكرة حتى أصبح المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن تكون يونانية أو رومانية ، بل وثبت أن الفينيقين قد قاموا بالدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين بألفى عام كما أنهم قد امتدوا بالرحلة الى الاطلسى قبل أن يكتب الادريسي عن عبور العرب لبحر الظلمات (٢٢) .

وهو وان كان يحاول صياغة أسباب مادية لهذه الروح المهاجرة دائما فإنه يرجعها الى محاصرة الكنعانيين فى اتجاه المتوسط فاكتشفوه مجالا للبحار والتجارة .

وتقترب هذ الدراسات من ذلك الاتجاه الذى يأخذ بالتفسير النفسى للهجرة كخاصية عرقية عند بعض الشعوب عازلا اياها عن ظروفها الموضوعية ولذا يرجع د. جورج طعمة تفسيره للظاهرة الحديثة « بان الهجرة مستمرة من سوريا عبر التاريخ أو أن ميل الفرد العربى السورى ومزاجه الشخصى هو السعى دائما الى ما هو أوسع من ذاته ولا يكتفى بأرضه وطنا . أو أن الهجرة والاغتراب طابع للتوسع الحضارى فى الشعب ذاته » وهى فى نفس الوقت ظاهرة قومية ... الخ (٢٣) .

ولا شك أن ظروفنا الطبيعية وتاريخية معينة قد أدت ببعض الشعوب الى اللجوء لظاهرة الهجرة ضمن تحديدها الحضارى لهذه الظروف ، فالخصار

(٢٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، دار الثقافة — بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ — ١١٦ .

(٢٣) جورج طعمة : المغتربون العرب فى امريكا الشمالية ، وزارة الثقافة والارشاد — بدم ، ص ٤٧ .

بين الجبل والمياه يجعل شعبا مثل الشعب اللبناني ، ومثله الشعب اليمني ، يلجأ الى البحر مخرجا كلما حلت به ظروف ضاغطة لا بد من بحثها بدورها ، ولا يكفى تفسيرها بالسماوات العرقية التى لا تصدق فى كل الظروف وهى لا تفسر بالقطع توقف هذا الميل العرقى عن الفاعلية فى فترات طويلة من التاريخ اذا اختفت ظروف معينة مثلما هو الحال مع الشعب اللبناني نفسه أو الشعب العماني الذى أبحر فى المحيط الهندى وسيطر عليه لقرون طويلة ثم توقف تماما فى ظروف أخرى .

الظروف التاريخية للهجرة :

يكاد تفسر الظروف التاريخى الحديث للهجرة السورية الى العالم الجديد أو افريقيا ان يشمل عناصر مادية كثيرة مما يرد فى تفسيرات اقتصادية وسياسية بعد ذلك .

فالظروف التاريخية الحديثة فى ظل الحكم العثماني والصراع الدولى من حول الرجل المريض هى التى جعلت تقسيم سوريا الكبرى الى خمس ولايات يأخذ منحى مختلفا عن وضع « الولاية العربية » أو الاسلامية العثمانية الموحدة التابعة للمركز القوى . ومع القرن التاسع عشر أصبحت سوريا الكبرى تضم : ولايات ١ — حلب . ٢ — بيروت . ٣ — الشام (سورية) . ٤ — متصرفية لبنان . ٥ — متصرفية القدس .

وهذه الظروف التاريخية هى التى جعلت القوى الكبرى تفرض تقسيما آخر أو مواز لهذه المنطقة الى مسلمين سنة — ومسلمين شيعة — ومسلمين دروز — ومسيحيين مارونيين — مسيحيين أرثوذكس وكاثوليك — يهود . وهى طوائف دينية قديمة وراسخة من ناحية لكنها تأخذ طابعها السياسى الخاص فى ظروف التقسيم الدولى للامبراطورية العثمانية لتحوى كل قوة منها طائفة معينة تستخدمها محليا ودوليا لخدمة مصالحها كما سنرى بالنسبة لعنصر الهجرة من وإلى المنطقة .

وسوف لا نعالج هنا مشكلة النفوذ السياسى من وراء تثبيت نفوذ المارونيين أو فتح باب الهجرة الوافدة من اليهود لفلسطين وآثار ذلك التاريخية ولكننا هنا سوف نلتفت الى محاولة معالجة المشاكل الاقتصادية أو

الاجتماعية الناتجة عن هذه الصراعات بتشجيع هجرة اللبنانيين مسيحيين ومسلمين الى الخارج وفق خطط معينة .

لقد ادت هذه السياسات الى المذابح المشهورة بين المسلمين والمسيحيين عام ١٨٤٠ مرة وفى عام ١٨٦٠ مرة اخرى اعقبت من الاولى . ونتج عن ذلك اعادة تقسيم المنطقة بين كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا حيث لا ينتقل مع هذه القوى الاوربية نمط التقدم الاوربي وانما لتدخل المنطقة مرحلة تخلف لم تشهدها فى اى وقت سابق ، اذ كانت منطقة معروفة بزراعة الذرة والقمح وصناعة الحرير وتصديره الى العراق وآسيا فتحوّلت الى مناطق فقيرة زاد من التأثير عليها ظروف افتتاح قناة السويس وتحويل طرق التجارة وغزو السوق الاوربي واليابانى لها (٢٤) .

واضيف الى ذلك تجنيد ابنائها فى الجيوش المتحاربة والضغط العثماني فى فترة الضعف على الاقليات الدينية خوفا من استخدام الدول الغربية لولائها لها ومع ذلك فقد سارعت هذه القوى الأجنبية بالعمل الثنائى الدينى الذى يضمن لهم الولاء بأكثر ما عملت على تحسين ظروف التبادل الاقتصادى الذى يضمن تحسين ظروف المعيشة .

نشأت كلية سان جورج الفرنسية والكلية الامريكية فى بيروت (جامعتان بعد ذلك) وتدفعن الرساليات المسيحية لتثبيت ثقافة جديدة وتيارات فكرية وسياسية جديدة تعددت آثارها بين شعوب المنطقة بعد ذلك ومن بين هذه الآثار كان تشجيع الهجرة امام اللبنانيين بحثا عن حل لازمتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ورهبنا من السلطة العثمانية فى نفس الوقت .

ورغم أن كثيرا من الباحثين يلاحظون ان الهجرة فى بدايتها كانت فى الغلب مسيحية الا أن العنصر الدينى لم يكن الأساس من ورائها حيث تشير معظم المصادر الى انتشارها كرد فعل اجتماعى واقتصادى بين مناطق مختلطة ضمن مسيحيين ومسلمين على السواء .

الظروف الاقتصادية — السياسية :

ادى الصراع السياسى الدولى من حول سوريا الكبرى الى اقتسام النفوذ بالمنطقة وتحددت مساحة منطقة لبنان فى اتفاق ١٨٦٤ بين تركيا والدول الاستعمارية حيث قصدت الأخيرة أن تبدأ بعزل المسيحيين فى جبل لبنان لصالحها تمهيدا لفرض المشروع الصهيونى لصالح اليهود فى فلسطين .

وكانت الصراعات الدينية التى نشأت من بدايات التقسيم قد اودت بحياة حوالى مائة ألف من اللبنانيين مسيحيين ودروز فى جبل لبنان وحوله . وازاء تعدد القوى القائمة على التقسيم ضاقت مساحة جبل لبنان ذات الحكم الادارى الذاتى وتعددت مشكلاته الاقتصادية والاجتماعية .

وكانت منطقة الجبل تتمتع برخاء اقتصادى ملحوظ من قبل كما كانت سوريا كذلك وازدهرت صناعة النسيج فى بيروت حتى حدث الصراع الدولى من حول سوريا والجبل وغيرها فعزل الجبل عن منطقتيه الزراعية فى البقاع وتدهورت الزراعة كذلك فى صيدا وطبر وادت الصراعات العسكرية أحيانا الى تعبئة أبناء البلاد فى الجيوش المتصارعة بما قدره البعض بربع مليون نسمة . أما سوريا فقد عانت من هجمات البدو فى أطرافها ازاء الصعوبات الاقتصادية .

وازاء الضغط الاستعمارى ايضا اضطرت تركيا الى اتباع سياسة الباب المفتوح فضر ذلك بالزراعة وانخفض محصول القمح والذرة وتوقف انتاج القطن .

وانهارت صناعة النسيج المتقدمة فى لبنان وسوريا ، وكذلك الحرير الذى كان مصدرا أساسيا للضرائب .

وجاء افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ فأثر فى تجارة سوريا مع العراق وايران حتى أرسل الحكام الوفود لفتح أسواق فى الولايات المتحدة وفرنسا دون جدوى .

ومع الحرب العالمية الاولى والأضرار التى لحقت بالأيدي العاملة نتجة عملهم مع القوات المتصارعة انخفضت الصناعات التى تستوعب الأيدي

العائلة فتدهور انتاج الحرير الى سدس قيمته بين ١٠ — ١٩١٤ وعانت صناعة زيت الزيتون والكحوليات والأخشاب ، وفقدت البلاد ١٥٠ ألف من أبنائها فى الحرب فى تقدير الاخوة ابراهيم .

وفى هذا المناخ المنهار اقتصاديا والمساوى اجتماعيا ، ومع تصارع أكثر من خمس قوى دولية على هذه المساحة الصغيرة وشعبها الذى لم يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة يمكننا تصور الأسباب الحقيقية وراء هجرة الآلاف من أبناء سوريا الكبرى بحثا عن الاستقرار فى العالم الجديد .

ليس مصادفة أن تردد معظم مراجع هذا البحث دور الارساليات التبشيرية فى دفع أبناء سوريا الكبرى الى الهجرة ليكون الشعور الدينى المسيحى مثل الشعور بالاضطهاد والفقير الشديد عند الشيعة فى الجنوب أساسا لهجرة امتدت من طليل ورحبة وطرابلس فى الشمال الى المتن فى بيروت وصبرا وطير فى الجنوب .

ومن هذا التنوع فى المناطق وطبيعة الجماعة وظروفها الاجتماعية يمكننا القول أن الهجرة من سوريا الكبرى بهذه الاعداد التى بلغت أكثر من مائة ألف الى الولايات المتحدة وحدها بين ١٨٧٨ والحرب العالمية الثانية لا يمكن تفسيرها بمجرد « حب المغامرة » أو « الميل الحضارى » التاريخى لدى عرب سوريا الكبرى للهجرة الى ظروف أكثر تعاسة بالولايات المتحدة ناهيك عن أمريكا اللاتينية أو غرب أفريقيا .

لكن المنطقى هو أن الغزو الامبريالى للمنطقة ، والتبعية المفروضة عليها للسوق العالمية وتنظيمات الرأسمالية الدولية وادارتها الساسية للصراع ، هى التى ادخلت شعب هذه المنطقة الى عالم الترحال . لقد خلق هذا العامل الدولى الجديد ظروفنا شاقة أمام شعب سوريا الكبرى جعله يلجأ الى تراث قديم كان يرتبط بالنمو والازدهار وهو تراث الهجرة الفينيقى العربى القديم .

ولكن الاعتبار النفسى والحضارى أو مجرد الصراعات الدينية لم يكن من الممكن أن تدفع فيما بين ١٨٧٨ و ١٩١٤ الى هجرة حوالى مائة ألف مهاجر يشكلون أكثر من ربع سكان جبل لبنان فى ذلك الوقت . ولعل هذا هو

ما يقصد بتصدير التخلف الى بلدان العالم الثالث مع الفزوة الاستعمارية له بوسائل شتى ومنها استنزاف أبنائه كما حدث مع افريقيا من قبل عن طريق تجارة الرقيق .

واذا كان نظام الرق الافريقى من غرب افريقيا عبر الاطلنطى قد خدم الاستعمار الاوروبى لاراضى العالم الجديد فى امريكا الشمالية والجنوبية فان نظام نزوح المهاجرين من سوريا الكبرى عقب الفاء الرق الافريقى يشير الى حاجة هذه المستعمرات لقوى من نوع جديد خاصة فى المستعمرات الافريقية، قوة للامعمال التجارية وتشغيل الراسمال المالى فى تلك الفترة . ويبدو الحاح هذه الحاجة — فيما يشير اليه فيليب حتى — عن دور السماسرة فى تسخير المهاجرين حتى انهم لم يكونوا يعرفون الى أين يتجهون ، هل الى امريكا او المكسيك او استراليا او افريقيا ! كما أشار جورج طعمة الى دور المبشرين فى اغراء الاهالى بالهجرة ، وعمليات السماسرة فى تهريب المهاجرين من رقابة العثمانيين على السفن المفلقة الى مرسيليا حيث يتولاها السماسرة اليهود .

ان التطورات الاقتصادية الاجتماعية التى جرت فى منطقة سوريا الكبرى على يد الرأسمالية الامبريالية الجديدة لم تكن وفق خطة استثمار تنموى فى المنطقة تجعل الهجرة اختيارا لكنها كانت صراعا على المنطقة الاستراتيجية سارعت بافتقارها وربطها بالمناطق الأخرى وفق منطق الظاهرة الاستعمارية انعكست هنا فى « هجرة المفترين » الى غرب افريقيا والأمريكتين .

المقربون فى غرب افريقيا :

وخاصة السنغال ونيجيريا من الاستعمار الى الاستقلال :

ليس تدفق المهاجرين « السوريين » الى منطقة غرب افريقيا شيئا غريبا على حركة هجرتهم من سوريا الكبرى . فازاء الظروف السابق شرحها عن المناخ الذى ساد المنطقة العربية ، انطلق ابناء هذه المنطقة الى الخارج ، وليس طوعا فقط وفق تراث طويل للهجرة كما نعرف ولكن وفق ادارة القوى العالمية الجديدة لمناطق الاهتمام والمصالح الرأسمالية أيضا .

لقد فرض ذلك الهجرة أولا الى أمريكا الشمالية ثم الى أمريكا الوسطى (المكسيك) والجنوبية (البرازيل) وكان ذلك مفهوما رغم بعد الشقة على نقرأ سوريا فقد كانت الحاجة اليهم هناك للتجارة الصغيرة او العمـلـ المحدود .

وفى خلال نفس الفترة تقريبا وهى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان الوصول أيضا الى منطقة غرب افريقيا وتبع ذلك انتشارهم فى أنحاء افريقيا حتى أقصى الجنوب .

ان دواعى البحث فقط هى التى جعلتنا نركز على هجرتهم الى غرب افريقيا بل ونكون أكثر تركيزا على السنغال — كاحدى المناطق المسماة بالفرنكفونية ، ونيجيريا كأحد أمثلة منطقة الانجلوفون . ولكن تجارب الهجرة فى بلدان مثل سيراليون وغانا وليبيريا وغينيا ثم غينابيسا وتعتبر من الحيوية للدراسة بنفس القدر بل وتحتاج الى دراسات نوعية بدورها لما نوحى به من استنتاجات هامة ، ولا شك انه سيأتى فى ذكرها دائما عند ضرورات المقارنة فى هذا البحث حيث يمكن أن تتقدم الدلالة فى أى منها عن اختياراتنا بالتركيز على السنغال ونيجيريا .

ولابد من الإشارة أن السنغال ونيجيريا تتمتع بموقع خاص فى البحث لأسباب موضوعية أيضا وليس مجرد الأسباب العملية .

فالسنغال كانت ومازالت الى حد كبير — مركز النفوذ الفرنسى التقليدى واداة المصالح الفرنسية الكبرى فى المنطقة ، وكانت دائما مدخل غرب افريقيا فى المصالح والاتصال ، وانعكس ذلك على تكوينها الاقتصادى والاجتماعى وصياغة وضعها وتطورها السياسى وما يزال . وليس صدفة أيضا انه فى السنوات الأولى لاستقلال الدول الافريقية أوائل الستينيات كان عدد المهاجرين السوريين واللبنانيين فى السنغال هو أكبر رقم معلن أو معروف فى غرب افريقيا وهو عشرة آلاف مغترب بالاضافة لاسرهم .

اما نيجيريا : فقد كانت لفترة طويلة تحتل المكانة الثانية فى تعداد المهاجرين فى السنوات الأولى للاستقلال أيضا بلغوا أكثر من ستة آلاف مهاجر بالاضافة لاسرهم أيضا وذلك بحكم اتساع البلاد وتنوع اقتصادياتها

وحجم المصالح البريطانية الكبير فيها فضلا عن. التنوع الاجتماعى، والدينى
تحديدا .

ويكاد تأمل عدد المغتربين من سوريين ولبنانيين وغيرهم فى مستعمرة
أو أخرى فى أى فترة تكون موضع الدراسة أن يرتبط بحجم المصالح
الأوروبية وأداراتها بأكثر مما يرتبط بمجرد توفر الثروة أو امكانيات اشباع
حاجات المغتربين .

وهذه الملاحظة هى التى ستقود البحث فى هذا القسم بدوره كما
ساهمت فى بعض الاستنتاجات الخاصة به من قبل وأهم هذه الاستنتاجات
أن المغتربين فى الموجة الحديثة كانوا موضع استغلال مستمر من قبل القوى
الراسمالية الاستعمارية بأكثر مما أداروا الموقف لصالحهم أو لصالح بيئاتهم
الأصلية اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا . وسوف يساعد فحص هذا الواقع
فى نهاية الدراسة على استخلاص مستقبل وضع المغتربين من جهة ومستقبل
العلاقات العربية الافريقية نفسها من جهة أخرى .

ظروف المهجر الافريقى الجديد :

لابد أن نلقى نظرة عامة على طبيعة الاقتصاد الافريقى « الاستعمارى »
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقت وصول المغتربين الى المنطقة
لتحدد ظروف وصولهم مرتبطة بهذا التطور الاقتصادى .

نفى تلك الفترة بدأ ازدهار ثلاث محاصيل رئيسية فى المنطقة على
الأقل هى الفول السودانى وزيت النخيل والمطاط الى جانب استمرار تجارة
الذهب طبيعا . وقد كانت التجارة الأخيرة قد نقلت الى مركزها الأوروبى
بانتهاء الدول العربية فى الشمال واضطرارها الى التجارة مع أوروبا بالاساس
عن طريق لقائها عند سان لويس بالسنغال حاليا حيث كان يلتقى التاجر
العربى والافريقى مع الأوروبى طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر .
وعلى الساحل الافريقى تكسرت قدرة العرب الاقتصادية ، ودمرت الممالك
الافريقية وانفرد الأوروبى بتجارة الذهب ثم الرقيق وقاد العملية التجارية
التبادلية الى عملية رأسمالية كبيرة أصبح مركزها فى أوروبا وليس الوطن
العربى أو افريقيا .

(م ٢١ — العرب فى افريقيا)

وبدأت مصالح وسياسات الدول الأوروبية نفسها تختلف فى هذا الاطار بل وبدأ نوع من التخصص الى حد ما ، ففرنسا تمارس زراعة الفول السودانى على نطاق واسع فى مستعمراتها ، وبريطانيا تنمى انتاج زيت النخيل ، والولايات المتحدة تضمن مطاط ليبيريا . وتبلورت هذه السياسات — وفق سميح أمين — بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ تقريبا وهى نفس الفترة التى بدأت فيها الهجرة الأوروبية وكذلك هجرة المغتربين العرب الى غرب افريقيا (٢٥) .

تخصصت فرنسا فى انتاج الفول السودانى ازاء رخص علبية انتاجه ونقله البحرى نسبيا بما يتفق مع قلة امكانيات الرأسمالية الفرنسية فى ذلك الوقت واهتمام فرنسا بالنفوذ السياسى وتوسيع رقعة الامبراطورية النابليونية ، فصدرت من سموا «بالبيض الصفار» من الاداريين والعسكريين ، الذين استقروا على الساحل حنى بدأ توصيل اول خطوط السكك الحديدية فى السنغال من السواحل الى الداخل عام ١٨٨٥ .

واهتمت بريطانيا بزيت النخيل فى نيجيريا أولا — وهى الأقدر على تكاليفه الرأسمالية فى الجنوب الساحلى منها حتى أدخلت زراعة الفول السودانى فى الشمال ومدت اليه طريق السكك الحديدية ايضا عام ١٩١١ .

ولم يكن جوت نيجيريا وانتشار البعوض والمالاريا بمشجع للانجليزى على الاستقرار فى نيجيريا ، ولذا لم تعرف هذه المنطقة الاستيطان الأوروبى .

بذلك دخلت منطقة غرب افريقيا عصر الاقتصاد الرأسمالى ، والمحاصيل الزراعية النقدية لمصالح الاحتكارات الأوروبية وكانت هذه الاحتكارات تهتم بتنمية حركة النقد فى المنطقة حتى تخلق أسواقا لتطورها الصناعى فى المركز . ومن خلال هذا التراكم يمكن تمويل البنية التحتية اللازمة لآليات العملية الاستعمارية ، فبدأ اقتصاد المنطقة كله خاضعا للتوجيه من الخارج . لكن الأوروبى لم يكن ليستطيع الاستيطان فى المنطقة لتنشيط العملية التجارية أو الاستثمارية لذا بدت الحاجة لفئات صغيرة أخرى يمكنها أن تقوم بهذه الأعباء .

(25) S. Amin, Neo-Colonialism in west Africa Monthly Review press N. Y 1973 p. 3-40 «The Goundnut economy of Senegal and the Limits of Light Industrialization» 1880-1970.

وكان السوريون واللبنانيون بل واليمنيون — كما سنرى فى تجارة الجلد هم هذه الأدوات الطيعة الهاربة من ظروفها الشاقة .

وكان اقتصاد تجارى مثل هذا الذى نشأ يحتاج الى خبرة تجارية ، ووسطاء تجاريين من بلدان فقيرة مشابهة يدور عن طريقهم رأس المال دون اقتطاع انصبة كبيرة منه .

وكان السوريون — فى الخبرة الفرنسية والبريطانية — هم هذا النوع ، وليس صدفة ان مجموعة الفقراء الذين جىء بهم الى دكا على وجه الخصوص من على أرصفة مارسيليا هم أفقر اللبنانيين من الشيعة بجنوب لبنان — حسب ريتا أوبرين — بينما كان من وصل الى سان لويس لعمليات تجارية متقدمة من المارونيين .

والوضع هنا شبيه باقتلاع بريطانيا لآلاف الهنود للعمل فى السكك الحديدية فى شرق افريقيا ازاء قدرة الهنود على هذا العمل الشاق انذى رفضه عرب الخليج والافريقيون فى المنطقة الشرقية من افريقيا .

الاغتراب الى المهجر الجديد :

كان السوريون واللبنانيون يهجرون بالآلاف من بلادهم لوجهة لا يعرفونها فى الغالب كما ترصد معظم المراجع . الا أن يكون المغترب حاملا لرسالة من قريب له فى الأمريكين يفريه فيه بالحضور . ويشير « مروان حنا » وفاندرلان مثلا الى « عامل الصدنة » فى الانتقال من مارسيليا الى غرب افريقيا بالنسبة للمهاجرين الأول حيث كانوا يقصدون العالم الجديد بالتاكيد . ولكن الباحثان يشيران لذلك وهما يصفان أيضا دور وكالات الشحن والسماسة النشيطين فى موانئ مارسيليا (٢٦) .

وتتعدد الروايات عن سنوات وصول المغتربين الى موانئ غرب افريقيا ، ولكن الأكثر ترددا هو وصول أول مغترب مثلا الى سان لويس

(26) M. Hanna, The Lobanese in West Africa (Weekly)
London. 19, 29 April, 3 May 1958.

بالسنغال عام ١٨٦٠ أى بعد تاريخ بداية الهجرة الى الولايات المتحدة نفسها ، ببضعة سنوات . وتتابعته الهجرة بعد ذلك ليشار الى أول وصول لغانا سنة ١٨٧٠ والى سيراليون ١٨٨٠ والى غينيا ١٨٩٨ والى نيجيريا ١٨٩٠ .

وتذكر المصادر المتعددة أن الرحلة كانت عادة تمضى من مرسيليا الى أمريكا اللاتينية — اذا كانت هى المقصد — مروراً بسان لويس بالسنغال كأول الموانئ الفرنسية فى غرب افريقيا . وهى نفسها المركز التجارى الافريقى العربى الأوروبى القديم .

ولابد أن يربط القارئ بين تواريخ وصول المهاجرين على هذا النحو وبداية المشروع التجارى الأوروبى حول المحصول الزراعى النقدى فى غرب افريقيا بل ومع انشاء السكك الحديدية للتعامل مع الداخل بعد التركيز على الساحل لبضعة عقود .

ورغم اننا لا نأخذ كثيراً بالتفسير الفردى أو النفسى لهجرة المغترب العربى الى المنطقة واختياره لغرب افريقيا بديلاً للامريكتين الا أنه لا مانع من ذكر ما تردده المصادر فى هذا الصدد لاكتشف عن المستوى الاجتماعى للمغترب الذى وصل الى هذه المنطقة لىخدم الأوروبى ويقاسم الافريقى ظروفه مع فارق التمتع بمهارة تجارية تاريخية لم يمارسها الافريقى خلال تطوره الحديث .

يرجع البعض أسباب الاختيار الى العوامل التالية دون داع للدخول فى تفاصيل تاريخية هنا رغم أنها مثيرة (٢٧) .

(أ) قلة تكلفة الرحلة الى غرب افريقيا عنها الى العالم الجديد .

(ب) عدم طلب شهادات صحية من أمراض يعانون منها معاً حيث تتحدث المصادر عن شرط الخلو من التراكوما الذى وضعته السلطات الأمريكية .

(ج) عدم الحاجة الى تأشيرة دخول للمستعمرات الفرنسية خاصة
ازاء اعتبارهم مواطنين فرنسيين خاضعين لنفس نوع الاستعمار .

(د) بداية القيود الرسمية على الهجرة للولايات المتحدة عمومًا
اواخر القرن التاسع عشر .

وقليل من المصادر الذى اشار الى نوع آخر من المفترين جاء من
مانشستر الى سيراليون ونيجيريا (المستعمرات البريطانية) بعد ان فشلوا فى
العمل فى الصناعة البريطانية او لحاجة الادارة الاستعمارية لخبرتهم
التجارية فى مستعمراتها .

وقد ذكر لى عدد من قيادات الجالية اليمنية فى نيجيريا ان اجدادهم قد
جاءوا من عدن الى شمال نيجيريا ليعملوا فى صناعة الجلد التى يجيدونها
والتي كان المستعمرون البريطانيون فى حاجة اليها نتيجة وفرة الثروة
الحيوانية فى مناطق نيجيريا وخاصة الشمالية .

ولا يبدو المجرى من مانشستر او عدن متسقا مع القول كثيرا بالاختيار
الحر لرحيل المغترب الى المنطقة وانما بدت الادارة الاستعمارية ومصالحها
هى سيدة الموقف طول الوقت مستفيدة بالضرورة من الطبيعة الغالبة فى
النمط السلوكى للسوريين واللبنانيين أو اليمنيين ... الخ .

وما يلفت النظر بحق هو النصوص التى يقرأها الباحث فى وصف
حالة المهاجرين لبضعة شهور أو سنوات من وصولهم عن آلام معيشتهم
ومعاناتهم ، ومجال عملهم كباعة متجولين يحملون البضاعة على أكتافهم
أو يجلسون بها فى الشوارع حتى يطاردتهم البوليس أحيانا الى أن يتطور
حال المهاجر ويبدأ فى فتح دكانته !

لكن الأكثر إثارة هنا هو تكرار هذه الصورة فى بحوث اجراها عرب عن
المهاجرين للولايات المتحدة أو اجانب وعرب عن المهاجرين الى غرب افريقيا
وفى سنوات متقاربة طالت — بالطبع — بالنسبة لافريقيا .

ويضيف باحث مثل « وايندر » ثلاثة أنماط للمهاجرين وهم ينحلون هذه
البدايات الصعبة فيفرق بين نمط الراضى السعيد فى الولايات المتحدة حتى
بوضع الدونية الذى يعانونه ، ونمط التكيف السريع نتيجة تشابه ملحوظ فى

البيئة عندما يعيشون فى البرازيل وأمريكا اللاتينية عموما ، ونمط المهاجر « المحافظ على نفسه فى المجتمع الأفريقى يأخذ موقفا وسطا بين الأوروبي والأفريقى ، بما جعله يشبه اليهود فى المنطقة أو ما سماه بعض الفرنسيين من جهة أخرى بالقوة الثالثة » . وهو وصف أقرب الى الصحة ، سواء كقوة اجتماعية اقتصادية أو قوة حضارية ان صرح التعبير نتيجة حالة التماسك والحفاظة التى يعيشونها حتى الآن تقريبا(٢٨) .

وفى إطار هذا الوضع نتحدث مصادر كثيرة عن نوع المقاومة الاقتصادية والاجتماعية التى واجهها المغتربون فى غرب إفريقيا عموما وخاصة فى المستعمرات الفرنسية ونموذجها السنغال اما فى المستعمرات البريطانية فتعددت أشكال المقاومة خاصة فى نيجيريا وسيراليون .

فالسنغال كانت موضع اقبال من جانب جالية فرنسية كبيرة نسبيا اشتغلت بالتجارة فى إطار شركات الاستثمار الكبرى للفول السودانى خاصة واستفادوا بعد قليل من تخلق شرائح جديدة مخلطة ممن عرفوا « بالكريول » فى غرب إفريقيا عامة وكانوا أقرب للأوروبيين من أى شريحة أخرى .

ويصف سمير أمين و« وايندر » طبيعة الصراع بين صفار الاوربيين هؤلاء من جهة والسوريين واللبنانيين من جهة أخرى(٢٩) .

ذلك أن قدرة السوريين واللبنانيين على العمل فى الجو الأفريقى ، وعلى دخولهم لمناطق زراعة الفول السودانى بداخل البلاد ، ومعرفتهم بهذا النمط من التبادل التجارى (نظير بضاعة صغيرة) وقدرتهم على الاقتراب من الأفريقى وتبادل الثقة مما ينشط عملية الاقتراض والربا ويحرك السوق فترة وجود المحصول فى الأرض . كل ذلك جعل « السورى » يحتل موقعه فى هذه التجارة بسرعة ملفتة وينمى ثروته نسبيا ويكسب ثقة الشركات الكبرى ومكاتبها فى العاصمة مباشرة . واثار ذلك صفار التجار الفرنسيين والكريول و صفار الاداريين فبدأوا فى وضع العراقيل والصعوبات أمام حياة السوريين فى المنطقة(٣٠) .

(٢٨) بابل وايندر : مرجع سابق ، ص ٢٩٧ .

(٢٩) سمير أمين : عالم رجال الأعمال ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٣٠) سمير أمين : مرجع سابق .

ومن جهة أخرى كانت الشركات الكبرى والإدارة العليا تنظر للمسألة نظرة مختلفة لحيوية هؤلاء السوريين ، لأنهم أحدثوا رخاء في السوق المحلي بزيادة السعر والانتاج مما ساعد في انعاش المستعمرة « وهو ما سبق الإشارة إليه » بالاقتصاد النقدي الذي بثه النمط الرأسمالي الجديد .

لعل ذلك يفسر ظاهرة انتشار اللبنانيين في الأقاليم الداخلية بالبلاد لفترة طويلة من تاريخ الاغتراب انطلاقاً من الكولاك في السنغال وإلى كاتو والشمال عموماً في نيجيريا .

ويشبه وضع الكريول في السنغال وسيراليون وضع أبناء قبائل الألبو في شرق نيجيريا حيث أنهم معروفون بحياتهم على التجارة والانتشار بها في أقاليم نيجيريا الأخرى ، ولذا كانوا أول من أحس بمنافسة السوريين واللبنانيين وقاوموا وجودهم كثيراً . ويعتبر الاقليم الشرقي في نيجيريا أقل الأقاليم في أعداد اللبنانيين والسوريين طوال الوقت بينما ساعدت الأوضاع الاقتصادية وشبه الاقتصادية في الشمال وغرب نيجيريا على قيام السوريين بدور التجارة خاصة مع دخول نمط المحاصيل والتجارة الجديدة : ولذا ماته في فترات محددة بلغ عدد المغتربين في الشمال أربعة أخماس عدد المغتربين في نيجيريا (كانوا - الهضبة - بورنو) ثم في إبيادان بغرب نيجيريا بينما كان أقل عدد في شرق نيجيريا .

ويعنى ذلك أن تجارة الفول السوداني كانت أساس وجود المغتربين في نيجيريا وإن كانت ليست مصدر الثروة الرئيسي بينما زيت النخيل كان في الشرق ولذا لم يعمل فيه المغتربون كثيراً .

نمط التجارة الجديدة ونسبة تزايد الهجرة حتى الاستقلال :

انطلق اللبنانيون من وضع الوساطة في عملية التنمية الحدية ومحورها الرأسمالية التجارية فكان عليهم السعى وراء المجالات الجديدة المطروحة في اقتصاديات هذه المجتمعات وليس اللجوء إلى أنماط النمط التقليدية خاصة إذا سلمنا بأنهم في الواقع كانوا قد استجلبوا لهذا الغرض .

من هنا كان تركيزهم في السنغال ونيجيريا على تجارة الفول السوداني واقتصاديات النقد الجديدة ، كما كان تركيزهم في غينيا على 'المطاط' ، بن

وانتقلوا الى عالم الماس فى سيرايلون عندما دخل اقتصاديات هذه البلاد فى الخمسينات من هذا القرن كما تفوقوا فى عالم النقل البرى فى مختلف المستعمرات حيث لم تدخل الشركات الأوروبية هذا المجال .

وقد كان تراكم المال المحدود فى أيديهم فرصة لأعمال تجارية جديدة أيضا فراجت على أيديهم تجارة الأقمشة المستوردة من أوروبا أساسا .

يلخص وايندر التجربة بالقول « أنهم وان بدأوا باعة جائلين يبيعون الأقمشة ومواد الزينة فانهم تطوروا الى تجارة التجزئة والنسيج وكوسطاء بين الأفريقيين والأوروبيين فى تسويق محصول الفول السوداني وزيت النخيل حيث انتقلوا بعد ذلك الى النقل والصناعة وبعض المزارع ودور الملاهى وبداخل الأفريقيين أنفسهم بعد قليل عالم تجارة التجزئة فقد انتقل السوريون الى التجارة الكبيرة ، ومع توسع الحضر وبناء المنازل بدأوا فى ملكية العقارات على نطاق واسع حيث كان يحال بينهم عادة وبين ملكية الأراضى الزراعية ويضيف ماندرلان أنهم فى أنحاء افريقيا ادى اندماجهم فى الحياة الافريقية الى الاشتغال بتجارة الكولا والارز والتجارة العامة البسيطة .

ويلاحظ الباحثون عامة فى تاريخ الجاليات السورية واللبنانية أنهم لم يشكوا طوال الفترة الأولى من اغترابهم قطاعا كبيرا فى التكوين الطبقي الجديد فى غرب افريقيا الا مع تضخم وجود رأس المال الأوروبى نفسه فى بلدان المنطقة أواخر الثلاثينات حيث ظلوا بأعداد كبيرة أقرب الى الكادحين منهم الى الرأسماليين الى أن قفز بعضهم ليشارك فى تكوينات الطبقة المتوسطة اقتصاديا وذلك بسبب قيام الاقتصاد على احتكارات أوروبية تجارية كبيرة وحصار التجارة المحلية ومناغذها عبر الشركات الأوروبية التى ترتبط بنوع الاستعمار القائم .

ان احصائية مثل التالية بعد قد تظهر هذا الوضع من الواقع السنغالى فى مجال التجارة والنقل . فيما قبل الاستغلال ، وهى لا تشير الى تضخم حجمهم الرأسمالى وانما الى زيادة الاحتكار على المستوى الأوروبى وتعدد أشكال الأعمال التجارية الصغيرة على الجانب السورى اللبنانى (٢١) .

سنة ١٩٣٥		سنة ١٩١٩	
لبنانية	أوروبية	شركات لبنانية	شركات أوروبية
٨٥٧	١٣٨	٦٧	٢٨٣

وفى ليبيا سجلت الاحصائيات سيطرتهم على ٦٥٪ من العمليات التجارية الداخلية بعد الحرب الثانية .

وسجلت احصائيات أخرى سيطرتهم على ٣٠٪ من مبانى دكاك اواخر الخمسينات لكن معظم الاحصائيات لا تذكر شيئا عن نسبتهم فى الانتاج الزراعى عن طريق ملكية الاراضى مع تفسيرات بأنهم عانوا من الفقر من خلال الزراعة فى لبنان ولم يكونوا مستعدين للحياة الرتيبة المحدودة الداخل فى الزراعة التى عرفوها فى سوريا الكبرى قبل رحيلهم عنها ، ولكن التفسير الأكثر قبولا هو أن ذلك نظام ملكية الأرض الافريقية بين المشاعية والقطاعية لم يكن يسمح بدخول السوريين هذا النطاق الا بقوة الفرض الأوروبى . وفى نفس الوقت الذى لم يتوفر فى غرب افريقيا أعداد المستوطنين الأوربيين الذين يفرضون هذا النمط على نحو ما فعلوا فى شرق وجنوب القارة . ويتوى هذا التفسير اذا ربطناه بفكرتنا عن ارتباط التحولات الاقتصادية الاجتماعية بالاطار الأوروبى أساسا للجاليات السورية اللبنانية بنمط الاستغلال الأوروبى أساسا ، ولذا حرص هذا النمط على خطر ملكيتهم للاراضى أو الزراعة وابقائهم لغرض التراكم التجارى المالى .

ولقد بالغ الكثيرون فى دور اللبنانيين والسوريين الاقتصادى والاجتماعى فى غرب افريقيا نتيجة ملاحظة معاشتهم للحياة اليومية للافريقيين بأكثر مما هو نتيجة حجمهم السكانى أو دورهم فى المكونات الرأسمالية الجديدة . وتشير طبيعة مجالات نفوذهم والنسب الكبيرة التى تبدو من الاحصاءات السابقة الى طبيعة هذا الدور « الافقى » لا الرأسى فى حياة الاقتصاد الافريقى وذلك طوال الفترة الاستعمارية بوجه خاص .

تطور الهجرة السورية اللبنانية فى الفترة الاستعمارية :

لو اننا تتبعنا بشكل أكثر عمقا طبيعة التطور الاحصائى لاعداد السوريين واللبنانيين فى غرب افريقيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والاول من القرن العشرين أى فى الفترة الاستعمارية التى

تغنيها لساعد ذلك في الوصول الى بعض الاستنتاجات الهامة في هذا الصدد .

ان دراسات نوعية عن السنغال وسيراليون ونيجيريا مثلا تشير الى أنهم لم يتضاعفوا بأكثر من المئات في أى بلد افريقى بين السبعينات من القرن الماضى والعقد الأول من هذا القرن ولم تبدأ احصاءات جادة عنهم الا اوائل الثلاثينات حيث تنقل بعض المصادر عن عبد الله حشيمة في كتابة « في بلاد الزنج » الصادر عام ١٩٣١ بعد زيارة لمنطقة غرب افريقيا تطور وجودهم هناك على النحو التالى : (٢٢)

(أ) في البلاد الناطقة بالفرنسية :

السنغال	٣٠٠٠ مهاجر
السودان (مالى)	٧٠٠
غينيا	١٨٠٠
ساحل العاج	٦٠٠

(ب) وفي البلدان الناطقة بالانجليزية :

نيجيريا	٢٥٠
ليبيريا	٦٠
غانا	٦٠٠
سيراليون	١٨٠٠

وفي احصاء آخر يورده مروان حنا مستخلصا من عدة مصادر عن تطور الهجرة الى نيجيريا وغانا وسيراليون حتى عام ١٩٥٧ نجد الأرقام التالية :

سيرايليون	غانا	نيجيريا	
٤١	—	—	١٩٠١
٢٦٦	٤٦	٩٠	١٩١١
٥٦٣	٢٣٤	١٤٣	١٩٢١
١١٦٦	١١٤٠	٤١٩	١٩٣١
١١١٦	١٣٧٠	—	١٩٤٨
١٢٠٤	—	١٨٩٥	١٩٥٢
٢٦١٢	—	—	١٩٥٧

ويورد لورد هيلي أرقاما قريية فى مسحه الشامل الصادر عام ١٩٥٧
عن آخر احصاءات توفرت له فى ذلك الوقت عن المفترين اللبنانيين
والسوريين فى غرب افريقيا أوائل الخمسينات :

نيجيريا	١٥٠٩	بينهم ١٤٩ سوريا
سيرايليون	١٢٠٤	بينهم حوالى ٢٠ سوريا
ساحل العاج	١٣٠٧	معظمهم لبنانيين

ولابد أن نلاحظ هنا أن معظم هذه الاحصاءات تهتم بالجيل الأول المسجل
أى رب الاسرة فقط مشيرة الى انها تستبعد عائلة المهاجر اذ انه من المعروف
أن معظمهم لسنوات طويلة لم يكونوا يصطحبون زوجاتهم . وقد ساعدهم
ذلك على الاندماج بالزواج أحيانا من الافريقيات .

ولذلك فقد جاء احصاء آخر أورده فاندريان نقلا عن مصادر وزارة
الخارجية اللبنانية يبدو انه كان يضم مجموعة المفترين ومن معهم من
يحملون جوازات السفر اللبنانية ، فجاء الاحصاء عام ١٩٦٢ على النحو
التالى : (٢٣)

١٠٠٧٠	السنتال
٦١٥٠	نيجيريا
٣٠٠٨	غينيا
٢٦٩٧	ليبيريا
٢٢٠٠	غانا
١٨٠٠	ساحل العاج
١٠٥٠	غنيابيساو
٦٥٠	جامبيا
٩٥	داهومى

وهذا مما جعل فاندريان ووايندر على السواء يذهبان الى ان مجموع
المغتربين فى غرب افريقيا لم يزد فى مجمله سنة الاستقلال عن ٣٠ — ٤٠
ألف نسمة .

ولذا يقارن « فاندريان » فى احصاء آخر بين اعداد المغتربين
السوريين واللبنانيين فى غرب افريقيا الفرنسية ومجمل الأجانب فى عدد
من البلاد على النحو التالى :

السنتال ساحل السودان فوئتا العليا النيجر داهومى موريتانيا المجمل
العاج ومالى

٥٢٨٤	٧	١٦	٢٣	٦٧	٤٠٥	١٢٧٩	٢٥٥٧	اللبنانيين
٢٣٥	—	٢	٢	٨	٢٥	٤٥	١٥٣	السوريين
٧٨٣٥٦	١٦١٦	٢٥٢١	٢٦٨٢	٤٤٤١	٧١١٣	١٤٤٥٦	٤٦٥٢٧	الأجانب

ومعنى ذلك أن الاوربيين رغم استغلالهم لهذه الجاليات فقد كانوا
يحاصرون وجودهم فى حدود خدبة الاغراض الاستعمارية الرأسمالية بأكثر
من اتاحة فرصة تزايدهم باعداد متدفقة ازاء الصعوبات المستمرة التى
يتعرضون لها .

ومعنى ذلك أيضا أن العيش فى ظل الاستقلال مع النظم الافريقية
بتنوع توجهاتها قد اتاح أرضا أرحب للقاء العربى الافريقى ممثلا فى قبول
أعداد أكبر من المغتربين على النحو الذى تطورت به أعدادهم فى البلدان

الافريقية وخاصة فى السنغال وساحل العاج ونيجيريا وغانا وغيرها
مشاركين الطبقات الافريقية الجديدة علاقات الانتاج الجديدة وان تعددت
مشكلات هذه المشاركة بدورها .

الاطار السياسى والاجتماعى :

اشرنا من قبل الى ان عدد المغتربين فى معظم دول غرب افريقيا
لم يتعد بضع مئات فى اية مستعمرة فرنسية أو بريطانية لعدة عقود من أواخر
القرن الماضى وحتى العقد الأول من القرن العشرين ومع ذلك فقد بدت هناك
سياسات اقتصادية واجتماعية متعمدة تجاههم من قبل الادارة والاوربيين
انفسهم اكبر من حجمهم لعدم اتاحة الفرصة لآى « نفوذ » حقيقى الا فى
اطار الصراع السياسى والاجتماعى الرائد داخل وخارج المستعمرة . ومن
المفيد اجمال بعض معالم هذا الاطار .

السياسة الاستعمارية وموقف الأوربيين :

على الرغم من اجماع الباحثين على الاستفادة الكبيرة من وجود
السوريين واللبنانيين فى مضاعفة انتاج الفول السوداني وزيت النخيل
فى السنغال ونيجيريا وسيراليون وغيرها من بلدان المنطقة على ما تشهده
بذلك دراسات متخصصة لاقتصاد هذه المستعمرات فى تلك الفترة ، رغم
تثبيت أسعار هذه المنتجات لعشرات السنين ولصالح الشركات الأوربية
الكبرى (ليتون وسمير أمين) فان السياسة الاستعمارية لم تحم هؤلاء
الوسطاء بأية قوانين خاصة بقدر ما راعت مشاعر الأوربيين والمخططين
(الكربول) وصغار الموظفين والشركات الصغرى التى وجهت سخطها نحو
هؤلاء الفرياء .

وفى السنوات الأولى من هذا القرن وكان الخلاف بين تركيا والحلفاء
يتصاعد فان المغتربين عانوا نتيجة ذلك لبعض الوقت حتى اثبتوا ولائهم
لبريطانيا وفرنسا .

ومن واقع تحليل اجراءات القوتين الاستعمارييتين فى المنطقة فان
بريطانيا كانت دائما أكثر تشددا معهم بسبب قيادتها للمواجهة مع تركيا التى
يعتبر المغتربين من رعاياها وتركز ثرواتها فى المستعمرة فى يد شركاتها

الكبيرة (ليفنتس ... الخ) عكس الفرنسيين التى كانت الزراعة الواسعة للفول السودانى تتطلب الدور الوسيط للمفتربين على نطاق واسع .

وقد أدت نتائج الحرب الأولى الى سحب كثير من الأوربيين للعمل فى جيوش بلادهم فانتعش حال التجار لبعض الوقت ، وبعد أن عاد الأوربيون عاطلين بعد الحرب أثاروا الأحقاد ضد المفتربين وانفجرت أحداث مثل أحداث ١٩١٩ فى سيرايلون كادت تؤدى بوجودهم فى المستعمرة (حرق الأهالى لمخلاتهم ومنازلهم وتشريد العشرات منهم) (٢٤) .

وقد أدى هذا الموقف المنافس للمصالح الأوربية الحاكمة وعناصرها الى لجوء اللبنانيين والسوريين الى أسواق اليابان وألمانيا وهولندا ومن فتحوا أسواق هذه المنطقة عن طريق اللبنانيين والسوريين .

وفى كل هذا المناخ كان قانون الجنسية مشكلة دائمة حيث كان المفتربون يعتبرون « أتراكا » أو عثمانيين حتى وقعت معاهدة لوزان ١٩٢٣ فأصبح على السوريين واللبنانيين أن يختاروا خلال عامين بين الجنسية اللبنانية والسورية أو يبقوا أتراكا فكان ذلك مجالا لحسم موقفهم ومع ذلكبقى عدد منهم يعانى حتى عام ١٩٣٧ من مشكلة الاختيار .

وقد ساعد على مجيئهم بكثرة كلبانيين وسوريين بعد عام ١٩٢٤ صدر قانون الحصة أو الكوتا فى الولايات المتحدة وهو الذى حدد هجرتهم الى العالم الجديد فترايد اتجاههم الى غرب افريقيا .

ولم يبدأ اهتمام « الوطن الأم » الرسمى بهم الا فى الخمسينات بعد أن ظلوا يعانون تعسف الحماية الفرنسية أو البريطانية منذ أول تدخل الى جانبهم فى غينيا من جانب العثمانيين عام ١٩٠٦ .

موقف السلطات والمجتمع الافريقى :

لم تمر فترة فى تاريخ المفتربين لم تشهد اضطرابا فى المجتمع الافريقى ضدهم يؤدى بعضه الى انفجارات مدمرة لمصالحهم . عرفت ذلك غينيا وسيرايلون وغانا وليبيريا والسنغال بما كاد أن يصير مثلا فى المناطق المجاورة .

ولا يمكن فصل معظم هذه الاضطرابات الاجتماعية عن أسبابها المحلية والأجنبية فعلى المستوى المحلى يشعر الافريقيون انهم محرومون بسبب التاجر المباشر بأكثر من شعورهم بظلم الشركة الكبيرة خاصة اذا ما ظهرت قوانين مثل ما حدث فى سيراليون تمنع تجارة الافريقيين فى الماس مثلا فى الثلاثينيات الى ان يسمح لهم بذلك متأخرا فى الخمسينات .

والعامل المحلى الثانى هو توجهات الحركة الوطنية الافريقية منذ الحرب الأولى وفيما بين الحربين واتجاه المشاعر الوطنية ضد المستغلين الأجانب بالطبع وخاصة المباشرين منهم .

ومن جهة ثالثة انتشرت البطالة كثيرا فى الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٣١/٢٩ فانعكس ذلك على توجه السخط على أصحاب المحلات اللبنانية والسوريين .

وفيما قبل الاستقلال عرفت المجتمعات الافريقية حملات صحف محلية معينة لأكثر من عشر سنوات Echo فى داكار فى الأربعينات والخمسينات وحملات أحزاب معروفة بالتوتر العنصرى المضاد للعرب مثل حزب المجلس الوطنى لنيجيريا (شرق) ضد الشماليين والمغتربين الموالين لهم . كما وقعت أحداث غانا ١٩٤٨/١٩٥٠ — وأحداث نيجيريا ١٩٥٥ .

أما العامل الذى يشترك فيه العنصر الداخلى والخارجى فيتمثل فى المنظمات الاقتصادية التى تبدو محلية بينما قامت فى الواقع وفق تطورات السياسة المحلية البريطانية ، أى تعديل نظام السوق الداخلى والملكية بها يبدو لصالح الافريقيين فيما سمي بهيئات التسويق الوطنية أو الجمعيات التعاونية الافريقية . تم ذلك خاصة بعد الحرب الثانية لترضية الافريقيين المطالبين بالاستقلال السياسى من جهة ، ونقل بعض المصالح لهم من اللبنانيين والسوريين فى السوق المحلى لضمان السيطرة على الطرفين ، من جهة أخرى . ولذا نلاحظ زيادة التوترات بين الافريقيين والمغتربين فى الخمسينات وهى نفس التوترات والمواقف التى ستشهدتها فى السبعينات لأسباب مشابهة (٣٥) .

(٣٥) ريتا كروز اوبرين : رجال الأعمال اللبنانيين فى السنغال ، كراسة الدراسات الافريقية ، مرجع سابق ، ص ١٠٣-١٠٤ .

مواجهة المفترين للموقف :

فى غياب أية « حماية وطنية » من قبل الوطن الأم للمفترين طوال فترة اغتربهم فانهم لجأوا الى التمرکز حول الذات لحماية انفسهم بانفسهم 'و اختراق المجتمع القائم فى محولات للسيطرة من الداخل لضمان الدعم لهم .

وفى الحالتين فان التمرکز لم يكن « مجتمعيا » يقوم على المؤسسات والتنظيمات التى تساند حركتهم وانما اتبعت الآليات التالية :

(أ) الحياة فى « جيتو » معروفة فى كل مدينة .

(ب) الانتقال من الريف الى الحضر بكثافة بدءا من فترة ما بين الحربين .

(ج) الانكفاء على الذات الريفية او الطائفية بمعنى تكتل كل أبناء قرية واقليم وطائفة دينية او عرقية .

(و) رفض أى « دور تبشیری » لصالح الدين او الثقافة الواقدة معهم ودون محاولة لاندماج مع المجتمع الافريقى .

(هـ) اللجوء الى اختراق المجتمع الافريقى عن طريق الوسائل غير المباشرة فأصبحوا بذلك عنصرا من عناصر النفاق السياسى او الفساد (الرشوة) .

(د) عدم الرغبة فى المشاركة الفعلية فى عملية التنمية المحلية وفق « المشروع الاقتصادى » الوطنى المطروح تمسكا بنمط التجارة التى تيسر لهم نقل أموالهم للخارج .

(ز) عدم التعبير عن انتماهم للوطن الأم أو تدعيم الصلة والانتماء الا فى المناسبات الاجتماعية العامة اما بشكل اجتماعى بالنسبة للوطن القطرى (لبنان — سوريا) أو بشكل سياسى فى حالة الأحداث السياسية الكبيرة التى لم تختلف عليها مع الشعوب الافريقية نفسها (تأميم القناة — زعامة عبد الناصر ... الخ) .

لذلك لم تنشأ الا تنظيمات داخلية بينهم ذات طابع اجتماعى مـثـل النوادى أو الجمعيات الاجتماعية ، ولم تقفز فكرة « الجامعة اللبنانية » الا فى اطار طائفى أيضا عندما طرحها الرئيس الجميل فى الخمسينات .

ان كلا من العناصر السابقة يحتاج لفصل وحده ليعالج على النحو الذى يكشف طبيعة حضور المفترين فى المجتمعات الافريقية والصراعات التى تحيط بهم أو ينتمون اليها وتأثير ذلك فى علاقاتهم الداخلية والخارجية واطار العلاقات العربية الافريقية نفسها . مع أهمية الانتباه لبعض الفروق القائمة بين وضعهم فى مجتمع افريقى أو آخر أو الاختلافات فى علاقات هذه الجالية أو تلك بالنظام الافريقى .

ولذا فان تناول حالة مثل وضعهم فى السنغال قد يساعد على تبين بعض هذه الأبعاد كما سيرد بعد .

القسم الرابع :

دراسة حالة

المفترين السوريين واللبنانيين فى السنغال

البداية :

لم ينطلق فقراء اللبنانيين من قراهم فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى الى مرسيليا ثم الى غرب افريقيا بمجرد الصدفة ، فان ادبيات الهجرة السورية اللبنانية تكشف الكثير عن دور السماسرة على مقاهى بيروت لشحن المسافرين الى « العالم الجديد » .

وعن دور « المرابين » الذين يقرضون الأهل لدفع التكاليف ، ودور المهربين الذين يسهلون الوصول الى « البواخر » بعيدا عن أعين رجال الشرطة والجمارك العثمانيين المرتشين بدورهم لمخالفة أوامر السلطة العثمانية بمنع الهجرة عن الطريق الشرعى .

اما الطريق الشرعى فتصوره نداءات الحاكم العام لافريقيا الغربية الفرنسية للتفصل الفرنسى فى بيروت لتشجيع الهجرة ، كما تصوره زيارة

امبراطور البرازيل للبنان وفلسطين وسوريا عام ١٨٧٧ لتشجيع الهجرة الى بلاده (٣٦) .

فى هذه الفترة وصل أوائل المغتربين الى سواحل غنيا والسنفال وسيراليون .. وتذكر بعض المصادر التى تنقل عن حكايات المغتربين فى معظمها أن أول مهاجر الى السنغال كان على عكر والذى وصل عام ١٨٧٠ ، بينما تردد مصادر أخرى أن ذلك كان فى وقت مبكر حين وصل أول مهاجر عام ١٨٦٠ ليذهب البعض الآخر انها كانت سنة ١٨٧٦ .

هذه الفترة بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ هى الفترة التى شهدت ادخال محصول الفول السودانى الى السنغال ثم بقية أقاليم غرب أفريقيا . وفى عام ١٨٨٥ تم اقامة أول خط سكك حديدية بين سان لويس وداكار ثم الى حوض النيجر فى الداخل ليصل بمحصول الفول السودانى السنوى بن ٢١ ألف طن سنة ١٨٧٠ الى نصف مليون طن بعد قرن تقريبا .

يلفت النظر هنا الى اتجاه البنوك الفرنسية فى السبعينات من القرن الماضى لعمليات تمويل زراعة الفول السودانى لاستخراج الزيوت والشحوم منه . وفى مقدمة البنوك بنك روتشيلد الذى حول أعمال الشركة الوطنية للاستثمار S N I وليس صدفة أن عناصر يهودية من السامرة فى مرسيليا كانوا يدفعون بالمهاجرين الى غرب افريقيا .

لم يتوافد السوريون واللبنانيون بالمئات الى السنغال فى السنوات الأولى كما توحى صورتهم بعد ذلك ، انما جاءوا فى مجموعات صغيرة من فقراء قرى الجنوب اللبناى نتيجة فقر مدقع بالمنطقة اللبنانية لا تسمح للأفراد بادخار نفقات السفر الى العالم الجديد .

جاء معظمهم من قرى « بيت شباب » وطير « وحدث الجبة » و« دير القمر » ومن صيدا و« جبل عامل » ، وسواء كان الاختيار الشخصى لهؤلاء الفقراء أن يتوجهوا الى غرب افريقيا باعتبار التكلفة المحدودة للطريق ، أو كان الاختيار توجيهها من السلطات الفرنسية التى قصدت إرسالهم الى

المناطق الافريقية لتكون قدرتهم على المعاشة والحياة هناك أسهل فان النتيجة كانت واحدة فى قدرة هؤلاء على تحمل المشاق والأمراض والجو الذى جعل غرب افريقيا تسمى مقبرة الرجل الأبيض ، كما يسر اسلامهم مخالطة الافريقين ، ولقد كان حرص الفرنسيين والبريطانيين رغم ظروف هذه البيئة أن يبقى القادمون اليها أصحاء قادرين على العمل ، ولذا تسجل المصادر المختلفة طرد العديد من القادمين بعد بضعة سنوات لمعاناتهم من مرض الحمى والصفراء والخوف من انتشار المرض عن طريقهم .

لقد ظلت أعداد اللبنانيين والسوريين فى السنغال محدودة حتى أوائل القرن العشرين ، اذ تشير كتابات مشموت ديوب وسمير أمين وغيرهما أن الرقم لم يتجاوز المائة أسرة حتى عام ١٩٠٠ ، بل لم يزد عن ٥٠٠ حتى عام ١٩١٤ .

ارتبط وجود اللبنانيين والسوريين فى فترة وصولهم الاولى التى استغرقت بين ٣٠ — ٤٠ عاما بعدة ظواهر اقتصادية لها أهميتها فى وضعهم بالمجتمع السنغالى ومعظم مجتمعات غرب افريقيا بعد ذلك وهى :

(١) تحمل عبء العمل داخل البلاد نيابة عن الأوروبيين لمواجهة مصاعب منطقة الساحل الصحراوية .

(ب) دور الوسيط بين القاعدة الافريقية العاملة والمنتجة للفـول السودانى بأرخص التكاليف وبين الشركات الأوروبية التى كانت تنـزعج من عجز صغار التجار الفرنسيين من القيام بهذا الدور .

(ج) ادخال النقد « وتدوير المال » فى الوسط الافريقى الذى كان ما زال مرتبطا باقتصاد المقايضة .

وفى وصف معظم الكتاب لاليات تنفيذ هذه الرؤية فانهم يصفون كيف ترك السورى — اللبناني فى المدينة بعض الوقت يبيع « الخرز » ويحمل بعض البضائع فى صندوقه ويتجول فى الشوارع بحثا عن قوت يومه بصعوبة حتى يدفعونه بعد ذلك للعمل بقوة وقد يقسو أحيانا على الافريقى ليجمع المال المناسب . ويوصف هنا كيف بدأت السلطات المحلية تطرد اللبنانيين من الشوارع تجبرهم على العمل فى المحلات أو الرحيل الى الداخل بكميات

هزيلة من المال تنمو من خلال اخلاصهم فى العمل وسط مزارع الفول السودانى .

وكانت السياسات الفرنسية فى منطقة سنجامبيا تتجاوزها — دة اتجاهات :

(١) سياسة تدفعها الشركات الكبرى لتشجيع المفترين ليكونوا وسطائها المباشرين مع المزارعين الأفارقة ، وقد أدى اندفاع عدد من السوريين واللبنانيين فى الارتباط بهذا الاتجاه الى تكوين ثروات سريعة .

(ب) سياسة تدفعها الادارة العليا فى المستعمرة لتكوين طبقة سنغالية وسيطة تحمى المصالح الفرنسية وتشكل قاعدة سياسية واجتماعية لها فى المستقبل وكان يتولاها الحاكم الفرنسى الشهير فى تلك الفترة فايدزى تطلعا منه أيضا لدفع السنغاليين لحماية المناطق المجاورة للسكك الحديدية الجديدة .

(ج) سياسة المنافسة المحلية المحدودة بين من يسمون صغار البيض من التجار والاداريين وهى التى تقبل اللبنانيين كوسطاء فى الداخل مع وضع قيود مستمرة على نفوذهم اقتصاديا فى منافسة الفرنسيين (٢٧) .

ولقد أدت هذه السياسات الى خضوع اللبنانيين لنتائج الصراعات بين هذه الاتجاهات ولذا سرعان ما انتقل اللبنانيون من الاتجار فى الكولا ليقترسوا على الاتجار فى الفول السودانى حتى يتركوا هامشا للتجار الافريقيين الأقدر على التعامل مع جمهور الكولا من الافريقيين .

قد يكون من المفيد هنا أن نرصد مجالات حركة السوريين واللبنانيين المحدودة فى التجارة المحلية وطبيعة الهامش الذى ترك لهم فى فترة بدايتهم هذه حتى تستطيع أن ترصد التطورات التى عرضت لهم بعد ذلك سواء بجهدهم الذاتى أو بهوامش جديدة فتحتها أمامهم السوق المحلى والدولى (٢٨) .

(٣٧) سمير أمين : الاستعمار الجديد فى غرب افريقيا ، مرجع سابق ص ٣ — ٤٠ .

(٣٨) ر. ك. اوبرين : الاقتصاد السياسى للتخلف — التبعية فى السنغال ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ — ١٢٦ .

— فقد سبق القول انهم بدأوا باعة متجولين يبيعون « الخرز »
والخردوات البسيطة .

— تناقلوا ثمرة الكولا بين الأفارقة أساسا كما تاجروا فى الأقمشة
المستوردة . ثم هجروا تجارة الكولا والصمغ للأفريقيين .

— انتقلوا الى تجارة الفول السودانى يشترطونه من المزارعين
الأفريقيين حيث يوفر لهم اللبنانيون والسوريون بعض الأموال المقترضة
من البنوك فى موسم البذر وقبل الحصاد . وقد عمدت البنوك الأوروبية الى
قصر الاقتراض على السوريين واللبنانيين لإبراز عدم الثقة فى الأفريقيين من
ناحية وربط المغتربين بالسوق والبنك من ناحية أخرى . وقد استمر تراث
عدم الثقة بالأفريقيين واستبدالهم بالمغتربين حتى الآن عنصر توتر دائم بين
الجالية وأهل البلاد .

— تدعمت صلتهم بالشركات الكبرى وتوترت علاقتهم بالبيض الحنار
حيث كان الأوروبيون يحقدون على اللبنانيين لتقدمهم فى هذه العلاقة بسبب
ما يعرضونه من أسعار رخيصة تكسب الأفريقى ، وما يطلبونه من ربحية
محدودة تكسب الشركة الكبيرة بينما الأوروبيون يطمعون فى تحقيق ربحية عالية
تخسر الجانبين ومن هنا صدرت المضايقات للسوريين من هذه العناصر التى
كانت ذات تعود أيضا على رجال الادارة المحليين .

فى فترة البداية أيضا ونتيجة نشاط السوريين واللبنانيين انهار مركز
صفار التجار الأفارقة والمخلطين الذين كانوا قد بنوا مراكزهم التجارية
والاجتماعية بسان لويس فى علاقة مباشرة مع الفرنسيين .

ويرصد سمر أمين بالتفصيل كيف انهار مركز عشرات العائلات
الأفريقية والمخلطة المعروفة وتحولوا الى أصحاب حوانيت صغيرة . لقد
كان هناك مثلا ٢٥٠٠ تاجر سنغالى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر
حول سان لويس وجورية فانهار معظمهم والتقى النشاط والحيوية اللبنانية
والسورية برؤية فرنسية بعيدة المدى ترى عدم تقدم طبقات افريقية تجارية
واسعة سرعان ما تواجه المصالح الفرنسية بعد ذلك ، ومن هنا سقطت
سياسة « فابديربى » الحاكم الفرنسى لقترب اقدام السوريين واللبنانيين

فى التجارة الكبرى — الفول السودانى — مع هامش صغير للأفارقة فى
تجارة الصمغ والكولا (٢٩) .

بين الحربين :

شهدت فترة بين الحربين تزايدا ملحوظا فى اعداد ومصالح الجالية
فمع بداية الحرب بدا تجنيد الفرنسيين وانسحابهم من السوق ، واتسعت
حاجات فرنسا قبل غيرها الى المحاصيل الزراعية والمواد الخام ، وبدأ
رأس المال والراسمالية التجارية تنتقل الى مرحلة جديدة من الرأسمالية المالية
التي تتجه لتوسيع « استثماراتها » فى المستعمرات وتحتاج أدوات محلية
لذلك من البرجوازية الأوروبية او المحلية وخاصة الوسيطة النشطة مثل
البنانيين والسوريين .

لذلك نلاحظ انه فى الفترة بين الحربين ١٩١٧ — ١٩٣٦ قفز عدد
البنانيين والسوريين فى السنغال من ٥٠٠ عام ١٩١٧ الى ٢٣٠٠ عام
١٩٣٦ ، بل ليصبح حوالى ٢٨ ألف عام ١٩٤٥ م .

يذكر ديوب (٤٠) عن هذه الفترة انها شهدت انشاء أربعة شركات
كبرى لبنانية لتجارة الفول السودانى رغم بقائهم كوسطاء الا انها طردت
السنغاليين تماما من هذه التجارة .

بل انه يرصد تطور عدد المحلات السورية واللبنانية من ٦٧ محل
عمل وتجارة الى ٨٥٧ محل من ١٩١٩ — ١٩٣٥ م .

وفى نفس الفترة يرصد انخفاض عدد المحلات الأوروبية وخاصة
الصغيرة من ٢٨٣ الى ١٣٨ محلا .

فى هذه الفترة ارتفع محصول الفول السودانى من ٢٠٠ ألف طن عام
١٩١٤ الى ٤٣٠ ألف طن عام ١٩٤٠ .

(٣٩) سمير أمين : عالم رجال الاعمال ، ص ١٧ .

(٤٠) مثموت ديوب : مرجع سابق ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

لكن بمضى الفترة بين الحربين ، والتي بدأت بغياب الفرنسيين تسببا من الساحة واضطراب احوال الأوروبيين فان المستقبل سرعان ما شهد عودة ١٢ ألف فرنسي الى البلاد بعد الحرب يبحثون عن منافذ تجارية أو أوضاع جماعية ووظائف فى هذه الساحة يضيقوا على الافريقيين والسوريين واللبنانيين على السواء .

وفى نفس الوقت شهدت فترة ما بين الحربين ازمتات سنورد ذكرها فيما بعد وكانت مدة الازمة الاقتصادية العالمية من ٢٩ - ١٩٣٠ هى اكبر فترات الضيق بالنسبة للبنانيين والسوريين .

وقد امتدت الازمة أيضا الى صراع اللبنانيين والفرنسيين بسبب تزايد عدد الشركات الفرنسية الاحتكارية الكبيرة وقيام البنك المركزى لغرب أفريقيا ممن بدوا حريصين على حركة تدوير رأس المال أكثر من حرصهم على تنظيم العلاقة بين الأوروبيين والسوريين واللبنانيين .

وقد تمثل ذلك فى الصراع على مجال جديد دخله السوريون واللبنانيون هو مجال « مقاشير الفول » الذى كان تحت سيطرة الأوروبيين وحدهم وعندما بدأ انسحاب الأوروبيين من هذا المجال حاولوا نقله لبعض العناصر الاغريقية ففشلوا لأن البرجوازية السنغالية كانت قد ضربت نتيجة سياسات سابقة . وهنا انتقل الصراع حولها الى السوريون واللبنانيين .

فى فترة بين الحربين أيضا انتقل السوريون واللبنانيون الى مجال النقل حيث بدأوا فى تملك الشاحنات على نطاق واسع ومن هنا بدأ تحكّمهم فى تجارة الفول السودانى تماما ، لكن من موقع الوساطة حتى الآن .

اعقاب الحرب الثانية والاستقلال :

فى هذه الفترة بدأ صراع آخر مع الأوروبيين والافريقيين على السواء ، فمن جهة ثمة عودة واسعة للأوروبيين بعد الحرب يحاولون استرداد مكانتهم ، وتقز رقم الفرنسيين من ١٥ ألف نسمة سنة ١٩٤٨ حتى وصل أواخر الخمسينات الى ٤٠ ألف نسمة . ولا نستطيع هنا أن نستبعد اثار الثورة الجزائرية من جهة واثار الحرب فى فرنسا من جهة أخرى كعامل يدفع الفرنسيين من رجال أعمال ومزارعين الى مستعمرة مستقرة مثل السنغال .

أثرنا الى تزايد رقم الأوربيين لتبدو الى جواره حقيقة رقم السوريين -- اللبنانيين والذي لم يتجاوز حتى نهاية الخمسينات عشرة آلاف نسمة .

لكن الملاحظ على احصاءات توزيعهم فى هذه الفترة هى أنهم كانوا ما يزالون فى مواقعهم الداخل تاركين الساحل للأوربيين أو لوكلائهم من بعض رجال الأعمال السنغاليين . ومع ذلك فإن العاصمة لم يكن خلوا منهم بالطبع ويرصد وايندر وسمير أمين وغيرهم توزيع مجال رجال الأعمال فى العاصمة والاقاليم السنغالية المختلفة على النحو التالى :

٢٥. محل تجارى فى العاصمة دكاك .

٨. فى محافظة سيين سالوم .

٥. فى كولاك .

٤. فى ديوريين .

٥. فى تيز

٢. فى كازامانس .

١٢ فى سان لويس

١٥ فى مبور .

وكما توسع السوريون — اللبنانيون فى تجارة الفول السوداني وأعمال النقل فقد عادت اليهم مرة أخرى تجارة الصمغ بعد سحبها من السنغاليين .

وقد احتكر اللبنانيون الى حد كبير التعامل مع البنوك الفرنسية فى مجال التجارة حتى لقد ألجأ التجار السنغاليون الى رأس المال الإيطالى والأمريكى محاولون ادخاله لصالحهم وقد نجحوا نسبيا لكن سرعان ما عثرت المحاولة لصالح اللبنانيين فى هذا المجال .

هنا تشير المصادر الى لجوء اللبنانيين أيضا لتنويع التجارة من جانبهم مع اليابان وانجلترا وهى الفترة التى تعرف أنها كانت فترة تنافس استعماري واسع للقوى الغربية الكبرى فى المستعمرات بعد الحرب الثانية .

ونستطيع أن نتصور أن اللبنانيين وقد كانوا موضع صراع قوى داخل الدولة المستعمرة 'لأم' ، فأنهم الآن أصبحوا موضع صراع قوى استعمارية

مجموعة داخل عمليات الاستثمار الأوربي لأفريقيا مما وضعهم في النهاية أمام الشعوب الأفريقية وكأنهم وسطاء هذه القوى لا أدواتها .

ومع ذلك فإن ديوب يرصد لصالحهم في هذه الفترة توسيع نطاق التجارة الإقليمية أيضا لأن اللبنانيين هم الذين نشطوا التجارة مع غينيا (الموز والماناس) ومع المغرب (الذرة) وتجارة التمر (موريتانيا) والماناس (ساحل العاج) .

وفي هذه الفترة في أعقاب الحرب الثانية ، دخل اللبنانيون والسوريون مجال التطورات الجديدة في الاستثمار الأوربي للمستعمرة .

ان المصادر هنا تسجل الآتي :

— توسعهم في زراعة الارز والقطن لحاجة فرنسا خاصة الى المحصول الأخير مقابل حاجة السنغاليين للارز .

— التوسع في انشاء شركات النقل .

— دخول مشروعات صغيرة بعدد اكبر مثل البقالة .

وتقوم ريتا كروز اوبرين لوضع تصنيف لمجالات أنشطة اللبنانيين في أعقاب الاستقلال وقد استقرت أمورهم في السنغال على نطاق واسع مع ابداء ملاحظة ثابتة عند كروز اوبرين وغيرها من الباحثين هو أن اللبنانيين قد ركزوا في السنغال أكثر من غيرها على طابع « التجارة » مهي أكثر من الأعمال الانتاجية خاصة بعد انسحابهم كما سنرى من العمل في مجال تجارة الفول السوداني نفسه .

في هذا الإطار يرد تصنيفها شاملا الآتي : (٤١)

حوالي ٣٧٤ مشروع لبناني متوسط تضم حوالي ١٨٩٥ عامل توزيعها كالآتي :

(٤١) ر. ك. اوبرين : رجال الأعمال السنغاليين : في مرجع سابق ،

- ٧٤٪ مؤسسات تجارية .
- ١٠٪ فى الخدمات .
- ٨٪ نقل .
- ٥٪ صناعات صغيرة وتحويلية .

وهى تحصر هذه المشروعات فى الآتى :

مطاعم — فنادق — سوپر ماركت — ملاهى — كيموايات — خدمات (جراجات تنظيف) — وكالات للسفرىات — مشغولات معدنية — السجاد — مشغولات جلدية — الزجاج — منتجات الألبان — الروائح — صناعة الصابون — الحلويات .

والملفت هنا أن ريتا كروز أوبرين تتسائل تجاه اللبنانيين عن عدم اشتغالهم بالصناعة مثل زملائهم فى نيجيريا أو مثل الاسيويين فى شرق أفريقيا ، بينما هى تدرس سيطرة الأوربيين على الصناعة فى كتاب جيد لها عن « البيض فى مجتمع اسود » .

لكن المفيد فى هذا الحصر للسيدة أوبرين انها فرقت بين المشروع الكبير (الذى بدا من كتابها أنه فى يد الأوربيين) والمشروع المتوسط فى المجالات التى ذكرتها والتى تركت كهامش للجالية اللبنانية والسورية . وعند ذلك يبقى ملاحظتان :

(١) أن الموريتانيين والمغاربة يشكلون جالية كبيرة بدورهم تتخذ طامعا محليا فى الغالب كما سنرى بعد وانهم يسيطرون على تجارة البقالة والتجارة الصغيرة عموما (اغطية الرأس والخردوات) .

(ب) أن ثمة احصاء آخر لطبيعة المحلات الصغيرة فى دكاكر عند استقلال البلاد يشير للآتى :

١ — ان مجموع محلات اللبنانيين والسوريين فى العاصمة ١٠٣١ محل .

٢ — ان ذلك مقابل ٢٦٣ محل فقط للأوربيين .

فى السبعينيات :

على الرغم مما يقال عن تأثير الاجراءات الافريقية المحلية فى الحد من وجود الجاليات الأجنبية وتطور مصالحها ورغم محاولة السلطات المحلية فتح نوافذ من المصالح المحدودة للفئات الافريقية الصاعدة او الطبقات الجديدة ، فاننا نلاحظ ان الاستقرار السياسى والاجتماعى للشريحة المحدودة الحاكمة فى السنغال لفترة طويلة بقيادة الرئيس سنغور وفلسفته التى طورها دائما فى اطار المصالح الأوروبية ، لم تؤد الى تضيق مجال الوجود والحركة والنمو كثيرا امام الجاليات الأجنبية سواء الفرنسية او اللبنانية .

والمقصود من ذلك كما نأمل أن تضعه فى خلاصة هذا البحث انه ليس صحيحا أن المصالح الافريقية تتعارض تلقائيا مع وجود عناصر ذات علاقة تاريخية بهذا المجتمع او ذاك وانما المهم هى طبيعة علاقات الانتاج التى يتحركون فيها خاصة اذا ما كان قرار الاستقلال ان صح التعبير فى يد الاحتكارات الاستعمارية الكبرى .

ومن الملاحظة الاولى للاحصاءات نجد أن اللبنانيين مثل الأوربيين قد تزايد عددهم فى السنغال من ٢٠ ألف أوأخر الستينات الى حوالى ٣٠ ألف أوائل السبعينات وما زال قريبا من ذلك حتى الآن .

ويبقى دائما أن التجار ورجال الأعمال اللبنانيين قد جاءوا فى احضان السياسة الاستعمارية الفرنسية وظلوا كذلك مع تطورات الرأسمالية الفرنسية مالية واحتكارية ومتعددة الجنسية ، وأن مساهمتهم الحقيقية مع السنغاليين فى عملية تطور مستقل انما ستنتظر ترتيبات استقلالية شاملة فى المجتمع السنغالى بأكثر مما هى اختيار لهذه الجالية او تلك .

وقد يساعد احصاء مثل الآتى بعد على تصور العلاقات داخل المجتمع السنغالى فى أوائل السبعينات ، باعتبارها مرحلة موازنة بين نفوذ الدولة ونفوذ القطاع الخاص الذى أخذ فى الضغط على الدولة طوال السبعينات حتى أخرج كثير من القطاعات من اطار التخطيط والتوجيه الذى لم يكن اشتراكيا بالتاكيد بقدر ما كان لضمان بعض المصالح العامة للفئات الحاكمة المحدودة والتعاونة مع الجاليات الأوروبية واللبنانية على السواء .

الجدول التالى يبين طبيعة هذه العلاقات فى بداية انطلاق سياسة دعم القطاع الخاص فى السبعينيات : (٤٢)

الفئة	أعمال تجارية	صناعات	مشروعات مالية	خدمات	مجموع كلى
أوربيين	٨٩٩	٣٤٦	٤٧	٦٩٦	١٩٨٨
سنغاليين	٣٤١	٢٤	٢	٩٠	٤٥٧
لبنانيين	٣٥٧	٨	—	١١٠	٤٧٥
إبناء الرأس الأخضر	٣	٦	—	٤	١٣
أسيويين	—	—	—	١١	١١

ويستخلص ديوب هنا من تحليله لتعداد السكان مدى نفوذ الأوربيين فى مثل هذه الاحصاءات مشيراً للآتى :

(أ) ان الأوربيين الذين لا يشكلون من السكان الا ٧٥.٠٪ يتملكون ٦٧٪ من مجمل الأعمال التجارية فى البلاد .

(ب) ان اللبنانيين وهم يشكلون ٣٧.٠٪ يمتلكون ١٦٪ من الأعمال التجارية .

(ج) أما السنغاليون وهم الذين يشكلون ٩٨.٧٪ من السكان فلا يملكون سوى ١٥.٥٪ من مجمل الأعمال التجارية فى البلاد .

ومن الواضح مدى الظلم الذى يعانى به أهل البلاد ، ومدى ما يحتله اللبنانيون بالفعل بالمقارنة بهم لكن تظل نسبة الأوربيين وتحكمهم فى القرار مسئولية أولى ورثتها السنغال من فترة الاستعمار على حد تعبير ديوب نفسه .

ويشار فى هذا الصدد الى مسألة حجم هذه الأعمال نفسها ، فحيث لا تزيد قيمة أكبر المحال السنغالية عن ٥ مليون فرنك أفريقى فان شركة فرنسية تجارية عادية تقدر بـ ٢٥٠ مليون فرنك .

كما يلاحظ أن الأوروبيين يسيطرون على ٩٩٪ من المشروعات الصناعية ويكاد يكون ١٠٠٪ من المؤسسات المالية التي يلاحظ غياب اللبناني عنها تماما حتى الآن .

وفى إطار الجدول السابق تذكر بعض التفاصيل لتوضيح بعض المجالات التي يركز اللبنانيون والسوريون عليها عملهم مما له دلالة فى التحليل النهائى لمشاركتهم فى الاقتصاد السنغالى .

— ترصد مختلف المصادر أوائل السبعينات حوالى ٣٠٠ تاجرا لبنانيا كبيرا فى البلاد منهم ٤٦ فى العاصمة وحدها والباقي فى الاقاليم .

— فى مجال تصنيفهم التجارى فهناك ٨ تجار كبار فى مجال تسويق الأرز وخمسة يملكون شركات نقل كبيرة و٨ مضارب أو مقاشر للفول السودانى وعدد منهم يعمل فى صناعات الصابون والبسكويت والمعدات وتربية الدواجن ومجازر اللحوم .

ورصد « ديوب » أيضا أن أحد التقارير البنكية أشار الى أن حركة القروض والاعتمادات من البنوك الكبرى وقد خصصت حوالى ٢٢ مليار فرنك افريقى لهذا الغرض فان السنغاليين لم يتمتعوا بأكثر من ٣٪ منها والباقي معظمه لكبار التجار مشيرًا الى اللبنانيين والاوروبيين بالطبع ويذكرنا هنا بفترات سابقة — يشير لها سمير أمين — كان أقراض البنوك منها قد وصل ١٤ مليار فرنك لم يئل السنغاليون منها الا مليار واحد والباقي للبنانيين والاوروبيين ، ويتساءل سمير أمين على الأساس الاستعمارى الذى ما رالت بنوك تحت سيطرة الدولة المستقلة لتلزمه .

من الملفت أيضا فى تحليل مجالات العمل التجارى للبنانيين والسوريين أن الاخيرين كما عزموا عن مجال المشروعات البنكية فانهم ابتعدوا نسبيا ولفترة طويلة عن مجال صيد السمك أو الصناعات التحويلية ، ولكن الدراسة الحديثة تلاحظ منذ بداية السبعينات بداية مشاركة رأس المال اللبنانى السورى مع السنغالى وخاصة فى مجال شركات النقل على وجه التحديد الى جانب مشروعات صغيرة أخرى مثل الصيدلة والانشاءات المعمارية ، والطباعة والنشر .

وترتبط كثير من ترتيبات المشاركة ، لا بالاتجاه التوطنى والاستقلالى،
لحركة رأس المال اللبنانى أو السورى بقدر ما هى نوع من مواجهة توائين
السفلة التى بدأت تصدر تباعا .

التطورات الأخيرة فى وضع المفترين :

شهدت السنوات الأخيرة عددا من التطورات الهامة تنعكس بالضرورة
على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمفترين العرب فى غرب افريقيا
ويتداخل تأثير بعضها فى الآخر سلبا وإيجابا بما يحدث قدرا من الاضطراب
فى حياة الجالية فى السنغال على وجه الخصوص رغم الاستقرار النسبى
الذى تتمتع به بالمقارنة بعدد من البلاد الافريقية المجاورة .

ان اجراءات الحكم فى السنغال طوال السنوات الأخيرة لتشجيع
القطاع الخاص والاضطراد فى اجراءات نقل مسئولية التعاونيات أو
القطاع الحكومى الى القطاع الخاص انها يوحى بنقل الامتياز الفعلى فى
التجارة والانتاج الى قطاعات واسعة من الرأسماليين أو التجار أو المستثمرين
وفى مقدمتهم الاوربيين واللبنانيين والسوريين وغيرهم .

الا أن حرص النظام السنغالى على محاولة ترضية القطاع السنغالى
الرأسمالى والتجار الذين يعانون أزمة النمو منذ مدة يجعل وضع الجاليات
الأجنبية فى مازق بدوره لمحاولة التوافق مع هذا التطور .

لذلك يتجه الحديث كثيرا الى أكثر القطاعات التى تلقى تشجيع الحكومة
لاستمرارها بعض الوقت فى يد الأجانب وهو الصناعة وتشجيع انتقال
الأجانب من عالم التجارة والمحلات التجارية الى عالم المقاولات الأكبر
والتصنيع . أن ذلك يحقق للمجتمع السنغالى فى نظر المخطط الحسالى
عنصرين :

— مزيد من الاستثمار فى السنغال مع ترك فرصة القطاعات الأخرى
لطبقة سنغالية تضغط منذ وقت مبكر من الاستقلال .

— توفير فرص عمل لأكبر عدد من السنغاليين سواء من الأجيال
المتطلعة محليا للعمل أو العائدة من أوروبا تبحث عن عمل فى بلادها .

وحين يتطلع المجتمع السنغالي الى اللبنانيين والسوريين فانما ينظر الى تجربة وتاريخ هؤلاء المفترين منذ فترة طويلة وكيف تعمل الأسرة في مشروعها التجاري أو الرأسمالي وتتبادل المواقع فيه دون اناحة فرصة عمل كبيرة للسنغاليين .

لذلك فقد حرصت في عدد من المقالات التي أجريتها في دكاكر أثناء زيارتي للسنغال في أبريل ١٩٨٦ أن أستطلع بالأساس امكانيات هذا الانتقال الى عالم الصناعة والمشروع الصناعي الخفيف على الأقل وتكشف بعض احاديث من قابلتهم للاحاطة بالجو العام الذي يسيطر على حياة الجالية حالياً ومدى تصوراتهم لتحقيق هذه النقلة الى مجالات تلقى ترحيب المجتمع الاقتصادي في السنغال والطبقات الجديدة فيه من جهة وتبقى على امكانيات الاستقرار والربح لأبناء الجالية من جهة أخرى .

وقد أتيت لي قراءة جدول تم أعداده من واقع سجلات السفارة اللبنانية في دكاكر ومراجعة وقائعه مع عدد من شخصيات الجالية من كبار رجال الأعمال المعروفين في السنغال وهو ما تم الاطلاع على ما به من المعلومات الرئيسية بأذن مشكور للسيد السفير اللبناني .

وقد ضم سجل السفارة هذا عناوين ٥٠ شركة ومصنع ورؤوس أموالها وعدد العاملين فيها وتاريخ تسجيلها ... السخ .

ومن المطالعة الأولية له يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

(١) ان معظم هذه الشركات والمصانع يرجع الى اواخر الستينات وخلال السبعينيات وهي فترة الانفتاح في الاقتصاد السنغالي ودخول الرأسمال المحلي المحدود أصلاً لقطاع التجارة وقصر بعض القطاعات المحلية عليه .

(ب) ان مجموع الصناعات المسجلة مازال في اطار انتاج المسود الاستهلاكية مثل البلاستيك والأقمشة والصابون والورق والادوات الصحية والعمود والأحذية والمشروبات ... السخ أي أنه يدور في اطار التنمية حيث المواد الخام لكل ذلك من السوق الأوربي . كما أنه يعني أنه يتحرك في حدود ضيقة لانتاج الاستهلاكيات .

(ج) ان الشركات المسجلة ما زالت باسماء الأشخاص والعائلات مما يشير الى تمسك السوريين واللبنانيين بعزلتهم وعدم تحولهم الى نطاق المشروع الاقتصادي المحلى أو الوطنى .

(د) أن قليل من المشروعات مما يزيد العاملون فيه عن مائة عامل (٣ مشروعات) ورغم حرص اللبنانيين على تعيين اقاربهم لكننا سنفترض أن فى ذلك بداية لتشكيل قيمة اقتصادية بالنسبة للعمال المحليين .

(هـ) لا تعنى رؤوس الأموال المسجلة أمام هذه المشروعات قيمة رأسمالية تذكر ازاء ما هو متعارف عليه من صغر رأس المال الذى تسجل به مثل هذه المشروعات .

يمكن أن نستخلص من العرض السابق لوقائع الحضور الاقتصادى للمفتربين فى تطوره ومشاركته فى جوانب الاقتصاد المختلفة ، أنهم لم يكونوا غائبين عن العمل المنتج الى حد بعيد فى حدود الهامش الذى نتاحه له الاستثمار الغربى فى السنغال ، فهم من البداية مع عملية التقشير واستخلاص الزيوت وعملية النقل البرى ثم حدود الصناعات الصغيرة ومواجهة حاجات الاستهلاك مثل صناعة الأقمشة والصابون والمياه الغازية ، ارتقاء الى النسيج والبلاستيك .

يلاحظ أيضا أنهم دائما على هامش الرأسمالية الأوروبية يحاولون منافستها فى الحدود المتاحة . كما يلاحظ أنهم لم يقوموا بتنمية المشاركة مع البرجوازية السنغالية وان كانت مثل هذه المشاركة فى المجال الاقتصادى لا تتم عادة كاختيار وانما تجرى وفق تطور داخلى للصراعات داخل المجتمع مثل اتجاهه الى « السفلة » تارة والى « التدويل » أو التأخير تارة أخرى أى توسيع قطاع الدولة أو تضيقه الى جانب القطاع الخاص ثم الى قرارات « توطين » أو تدجين Undigenzation الصناعة .

أى أنها كلها سياسات تعتمد على اختيارات الاغلبية والقرار السياسى وليس مجرد اختيارات اقلية جاءت فى ظروف الاغتراب التى عاشتها الجالية اللبنانية السورية أو الموريتانية أو غيرها وقد لفت نظرى ادراك بعض قادة الجالية لهذه الحقائق بأنفسهم .

نعرض هنا نموذجا منهم :

— ففى مقابلة مع أبناء شخصية كبيرة بينهم مثل عبد الكريم البرجى عرضوا مجالات نشاطهم الشخصية على النحو التالى :

٣٠. بناية — ٣ فنادق — سينما — شركة للائانات — شركة للتصدير والاستيراد — معمل صابون — شركة نقل بالوريات — شركة للائانات .

ذكر فايز البرجى أنهم يستخدمون حوالى ٢٥٠ عامل سنغالى وانهم قدموا كثيرا من الخدمات الاجتماعية للمجتمع السنغالى وأنه شخصا حصل على الجنسية السنغالية .

ذكر أن هناك حوالى ١٠٠ رأسمالى لبنانى كبير ، وانهم يتجهون الآن الى الانتقال من تجارة التجزئة الى المشاريع الصناعية الكبيرة لتركوا التجزئة للسنفاليين .

ولكنه أشار الى أن ذلك يعتمد أيضا على التنظيم الدولى للتجارة ومدى قدرتهم على النفاذ الى السوق الأوروبية .

عندما أثرت مسألة اتجاه اغنياء الجالية الى التصنيع والمشاريع الانتاجية ذكر لى الكثيرون ارتباط أسماء البعض بصناعات معينة ، وكان استعراض قائمة الغرف التجارية والمسجلين فيها مساعدا لى بدوره على التأكد من بعض هذه الحقائق (٤٣) .

ومن ذلك مثلا ارتباط عدة مشروعات فى الصناعات والمجالات الانتاجية التالية بالأسماء مرتين كل منها :

(43) Principales Entreprises et Commerciales Du Senegal.

بدون تاريخ

وانظر أيضا قائمة ماثلة فى :

Annuaire Des Entreprises et organismes D'Outre - Mer (1985)
Rene Moreux & co paris.

(م ٢٣ — العرب فى أفريقيا)

- الورق — على حب الله .
- النسيج شقير — بليل .
- الصالون — البرجى — فخرى .
- البلاستيك — يزبك — صقلاوى — بعلبكي .
- العطور — هلال .
- المقاولات — شقير — ياسين .
- أدوات طبية — بحسون .
- صناعة أدوات — عميص .
- الجلود والاحذية — الاسفنج .
- الحلويات — فاخورى .
- اللحوم — ثلثلى .
- الزجاج — على فواز — سعيد حب الله .
- رخام — سمير حاج على .

وإذا كان ذلك هو هامش الحركة فى حدود الاقتصاد الحر تهاماً لصالح الأوروبيين تم الاقتصاد الموجه من قبل الدولة التى ترتبط بالنظام الاقتصادى والسياسى الأوروبى الراسمالي ، فان الخطوات الأخيرة لتنظيم القطاع الخاص بهامش أكبر للبرجوازية المحلية قد يشهد مرحلة جديدة فى العلاقات والمشاركة كما سنرى بعد ، وقد أبدى عدد من قيادات الجالية اللبنانية ترحيبهم بالخطوات الجديدة على أى حال بما يأملون معه خفض درجة انوتر الاجتماعى حول وجود اللبنانيين . وكانت هذه الملاحظة الأخيرة فى اطار اشارتهم لنتائج هذا القلق فى الفترة الأخيرة برحيل بضعة آلاف من المفترين فى السنغال الى ساحل العاج وزائر حيث يشعرون بجو الحرية الاقتصادية المطلق الذى الفوه من قبل .

الاطار السياسى والاجتماعى والثقافى للمفتربين

رغم أن المفتربين العرب يبدون للوهلة الأولى كأنهم مجرد قوة اقتصادية وحسب خاصة فى الفترات الأخيرة بعد أن قضوا أكثر من نصف قرن قوة هامشية للاقتصاد السياسى لمستعمرة تقليدية فى السنغال رغم ذلك فإن مراجعة حجم وجودهم المتناثر وسط شعب فقير ، وامكانيات نمو وتنمية محدودة يجعل ثقلهم فى الحياة العامة سياسية واجتماعية وثقافية مما لا يستهان به .

وهذا الباب مما يحتاج لدراسات تفصيلية محلية من الواقع نفسه وعن طريق فريق بحث متنوع يجمع هذا الشنت من الجزئيات التى ترتبط فيها ظروف صدور القرارات السياسية الكبرى بوجودهم واثـر السياسات الاقتصادية المتبعة على حجم هذا الوجود ، كما يتتبع تأثير المجالات التى ينشط فيها المفتربون ، اذ قد تكون التجارة فى مجال الاستهلاكات أو الخردوات ظاهرة عادية كجزء من حياة اقتصادية عامة ، ولكن الملامى والسينما وأساليب التعامل غير القانونية مع رجال الادارة مثلا قد تكون أكثر تأثيرا فى البنية الاجتماعية من تجارة الاستهلاك .

لذلك فإن هذا الفصل سوف يقتصر فى حدود الامكانيات التى توفرت للبحث على الاقتراب من هذه الجوانب آملا أن يتاح التوسع فى عرضها وتحليلها بعد توفر المزيد من الدراسات والمعلومات التفصيلية فى هذا الصدد .

على الجانب السياسى :

لا ننسى أن الرئيس سنغور قد طرح منذ أواخر الخمسينات فلسفة الاشتراكية الافريقية فى نفس الوقت الذى كانت تطرح فيه افكار الزواج . ومعنى ذلك باختصار طرح عنصرين تنظيميين فى البيئة السنغالية .

١ — قدر من تدخل الدولة لمواجهة موجات التأميم والاشتراكية التى سادت افريقيا منذ أوائل الخمسينات .

٢ — ترويج أفكار الزنوجة عن قدرات الزنجرى الخاصة النى
لا تشارك طبائع المجتمع الرأسمالى العقلانية (وقد تكون التجارية) بمعنى
ترك هذه الأمور لغير الافريقيين .

وقد وفر ذلك للجاليات الأوروبية والى جانبها اللبنانية قدرا من الحريات
لفترة طويلة فى السنغال .

وظلت هذه الجاليات حتى اوائل السبعينات تتمتع بحرية الحركة على
الرغم من صدور قوانين واجراءات كالآتى : (٤٤)

١ — انشاء المكتب الزراعى التجارى O. C. A سنة ١٩٦١ للسيطرة
على تسويق محصول الفول السودانى حتى تتولاه الشركات الأوروبية الكبرى
فى موانئ السنغال ، وهو ما سعى باجراءات التأمين .

٢ — انشاء الشركة الوطنية للتوزيع التى اقتربت أكثر من الفلاح
السنغالى وضربت نسبيا قدرة اللبنانيين فى الاقتراض والاتجار بمحصول
الفول السودانى .

٣ — افرة الغرفة التجارية سنة ١٩٦٩ لمنح امتيازات أكبر
للسنغاليين أو المتجنسين بالسنغالية .

٤ — قانون التوطن أو السنغلة Indigenization سنة ١٩٧٩ الذى
أعطى نسبة الأغلبية فى المشروع الاقتصادى للسنغاليين (تكوين الشركة
السنغالية للتجارة والصناعة) .

٥ — قوانين القطاع الخاص منذ عام ١٩٨١ لحماية التجارة السنغالية
وهو ما انتهى بقوانين ١٩٨٦ لقصر أية مساهمة أجنبية على نسبة ٤٩٪ من
رأس مال المشروع بل وقصر حوالى ٧٠ نوع من المشروعات والتجارة على
السنغاليين . ومع ذلك فقد فتح الباب لملك الأجانب للراضى بنسب محدودة
لأول مرة تقريبا تشجيعا للاستثمار فى القطاع الزراعى والتجارى .

وقد كانت كل هذه القوانين تعمل على اعطاء طابع افريقى أو سنغالى لرجل الأعمال الوطنى خاصة بعد أن تعددت أشكال عودة الطبقة التجارية السنغالية الى السوق بورائتها المستمرة لرأس المال الأوروبى الصغىر بعد اقتصار الرأسمال الأوروبى على الشركات الكبرى والشركات متعددة الجنسية على مستوى غرب افريقيا كله .

وبورائة الأوروبيين — وليس اللبنانيين دخل رأس المال السنغالى المحدود منافسا للبنانيين ومضيقا عليهم الخناق تدريجيا(٤٥) .

وفى هذا الاطار فرضت الرأسمالية المحلية الجديدة تطورات سياسية مصاحبة لها بإصدار قوانين تعدد الأحزاب المحدود سنة ١٩٧٦ (ثلاثة أحزاب) ثم الحرية الكاملة فى تكوين الأحزاب السياسية فى عهد الرئيس عبده ديوف منذ ١٩٨١ ، ليظهر بين الأحزاب السياسية من يتولى الدفاع عن الرأسمالية السنغالية مثل الحزب الديمقراطى والحركة الاشتراكية الديمقراطية .

كما عادت احزاب يسارية تقليدية (الاستقلال) او ظهرت قوى يسارية متطرفة (الرابطة الديمقراطية — العمل) وكلها تدور حول رفض الرأسمالية الأجنبية فى السنغال بالأساس وعدم السماح بنمو رأسمالى محلى فى البلاد .

ولقد شهدت فترة العشرين عاما الأخيرة محاولات أمريكية وأوروبية غير فرنسية للنفاذ الى منطقة غرب افريقيا عامة والسنغال — المركز الاقتصادى للمنطقة بوجه خاص ، وسجل الباحثون محاولات الرأسمالية السنغالية الوليدة الاتصال بهذه القوى الجديدة فى محاولة للتخلص من سيطرة الرأسمالية الفرنسية ، وهو ما فرض محاولات (الحياد) والتوتر السياسى الدولى من حوله أحيانا ، كما بدأ الأمر فى سياسات الرئيس عبده ديوف .

وقد تكون هذه الملاحظة مقيدة لرأس المال العربى الذى عزف عن دراسة الواقع الافريقى لبحث منافذ الاستثمار الجديدة فى العالم الثالث تخلصا بدوره من نفوذ رأس المال الأوروبى عليه أو استغلاله فى العالم الثالث وهو باب ما زال جديرا بالدراسة فى مجال التعاون العربى الافريقى .

على الجانب الاجتماعى :

تتنوع الدراسة هنا أيضا لتشمل عدة جوانب فرعية :

١ — مشكلة التجنس :

طرحت هذه المشكلة نفسها منذ انجلت الامبراطورية العثمانية فى العشرينات وكان عليهم الاختيار بين الجنسية التركية أو الفرنسية اللبنانية السورية . وظل البعض حتى الثلاثينيات فى هذا التردد كما كانت السلطات الفرنسية بدورها مترددة ازاء حسم مشكلة الولاة فى مواجهة التحالف التركى الالمانى .

لكن المشكلة عادت على نطاق واسع عند استقلال السنغال حيث كان البعض قد حصل على الجنسية الفرنسية وتمسك بها وما يزال (عسدد محدود) بينما احتفظت الاغلبية بالجنسية اللبنانية أو السورية ، وقد بدأت الحكومة السنغالية تضع شروط صعبة للتجنس من جانبها منذ ١٩٦٢ ، ورغم قدرة اللبنانيين والسوريين على التغلب على مثل هذه الصعوبات الا أن ميلهم الاجتماعى للاحتفاظ بصفتهم اللبنانية جعلهم لا يقبلون على الجنسية السنغالية .

وفى تقدير عدد من المصادر والسفارة اللبنانية بذاكار وعدد ممن قابلتهم هناك فإن من تنسوا بالجنسية السنغالية لا يزيد عن ٥٪ ويقول البعض ١٠٪ فقط .

ولقد تفاقمت المشكلة مؤخرا فقط عندما اشتدت قوانين العمل والاقامة والاستثمار فى السنغال وأصبح على المقيمين أن يستفيدوا أكثر من قوانين السنغلة الاقتصادية . هنا اشتدت أيضا شروط التجنس السنغالية بحيث تتطلب الآتى :

(ا) الاقامة عشر سنوات .

(ب) التخلّى عن جنسيته اللبنانية .

(ج) لا يتمتع بكامل الحقوق الا بعد حصوله على الجنسية — بشروطها — لمدة عشر سنوات أخرى .

ويشير من قابلتهم في دأكار الى أن البعض، إزاء الظروف القائمة في لبنان والتي يستحيل معها التفكير في العودة ، بل، وظروف الدول الإفريقية المحيطة قد فكر في الخضوع لقانون الجنسية السنغالي الجديد ليستفيد من الفرص المتاحة للمتجنسين ، ومعنى ذلك التخلي عن الجنسية اللبنانية ولو بطريقة صورية ، وأشار البعض الى أنهم حصلوا على وعد بأن تظل الجمهورية اللبنانية معترفة بجوازات سفرهم رغم إسقاط الجنسية وحين نفذ البعض التخلي عن الجنسية والحصول على جنسية السنغال فانهم لم يحصلوا على جواز السفر اللبناني . ولا يشعروا بقيام الوعد « الودي » واستمراره .

٢ — النشاط الجماعي والانقسامية :

يعترف معظم من قابلتهم في السنغال من المفترين أن الفردية تسيطر على عقلية أفراد الجالية بشكل يضر أحيانا بمصالحهم ويرجعون ذلك للظروف التعسة التي عاش معظمهم فيها كأفراد وإلى ظروف عائلاتهم في لبنان والحاجة الى التأمين المستمر لها بما يستغرق امكاناتهم ، ويتفق الجميع مع تحليل الباحثين بأنها من تأثير شيوع النمط التجاري الصغير لفترة طويلة في حياة أبناء الجالية وقد يكون مفهوما أن يشيع الانقسام على أساس طائفي بين الموارنة والشيعة .. الخ باعتبار أن ذلك ما زال سمة الحياة الاجتماعية في لبنان نفسها ، ولكن « الفردية » المطلقة التي يتحدث عنها أفراد الجالية بأنفسهم ويبدؤون بها الحديث مع أي باحث كان هو الظاهرة الملفتة ، وهو ما يسجله الأفرقة أنفسهم عن اللبنانيين والسوريين كعامل معوق للالتقاء بهم (٤٦) .

لقد لفت البعض انتباهي الى قائمة الشركات والمشروعات اللبنانية التي كانت بيدى وأنا أحدثه ، مشيراً الى أن أكثر من ٩٠٪ من أسماء الشركات والمحلات هي بأسماء الأشخاص وليست بأسماء تجارية ، مثل فواز أخوان ، برجى أخوان ، حب الله وأولاده ... الخ وهي ظاهرة يمكن التحقق منها بسهولة من أي قائمة للفرقة التجارية أو الاعلانات .. وهو ما توفر للفرقة بالفعل ولا يحتاج لفرز احصائي كبير .

ومن هذه المواقف الفردية ينطلق التعليق على صعوبة العمل الجماعى بينهم ، فلا يعقل أن تكون هذه الملايين بين أيديهم ولا يوجد نادى للجالية فى دكاكر العاصمة الكبيرة لكل غرب افريقيا والتي كان بها اكبر عدد للمغتربين لفترات طويلة . وان كان هناك بعض النوادى الصغيرة فى الكولاج ؛ويتبرز فى نوادى اجتماعية او رياضية للشباب لتغطية الوقت فقط اكثر منها مقرا لعمل اجتماعى جماعى بأى شكل .

وينعكس هذا الموقف على ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل هنا وهى نسبة الفقراء بين المغتربين العرب فى غرب افريقيا . ان اكثر الاحصاءات التى سبق الاشارة اليها تشير الى عدد ١٠٠ — ٣٠٠ من رجال الأعمال وهما تنوعت مصادر الاحصاء . كما ان مسميات المحلات التجارية بقدر ما تشمل الصغير جدا منها لم تزد احصائيا عن ١٠٠٠ محل تجارى . فاذا ما كان تفدير الجالية يصل الى ٢٥ الف فى أقل حالاتها فى السنوات الأخيرة ، فإنه يمكننا تصور وجود من ٥٠ — ٦٠٪ من أبناء الجالية الفقراء (٤٧) .

لقد قابلت الكثيرين ممن يذكرون انهم حضروا الى المنطقة منذ ثلاثين أو أربعين عاما وانهم بداء فى زيارة الوطن منذ سنوات فقط ، ومعنى ذلك أن الجالية تعيش ظروف المجتمع الافريقى الذى يعيش تمايزا طبقيا خازا هذه الفترة بأكثر مما يعيش ظروف الجالية الأوروبية التى تتمتع بالتفوق أو تغادر الاقليم . وان كان ذلك لا ينفى تسجيل ظاهرة الهجرة الواسعة للعناصر التجارية والمتعددة الى مواقع استثمارية جديدة فى منطقة غرب افريقيا مشيرين الى ساحل العاج ، وهناك يسجل البعض أن الجالية اللبنانية والسورية أصبحت تزيد عن ١٥٠ ألف نسمة وتشكل احدى أقوى عناصر التحكم فى الاقتصاد العاجى الرأسمالى المحلى خاصة .

لقد اثر الجو المضطرب امام الجالية اللبنانية السورية سواء فى الوطن الام (لبنان) او المهجر الى حالة جديدة من الاضطراب فى السلوك الاجتماعى قريبة الشبه تقره وصولهم من الاستثمار الأوروبى . ومعنى ذلك أنهم يعيشون ارتباطا محددا بظاهرة الاستثمار الجديد مثلما نداء مع الاستثمار التقليدى . وهذه هى المشكلة .

(٤٧) مقابلات لشخصيات لبنانية فى دكاكر (عائلات بورجى وحب الله ...) .

لقد توقع الكثيرون أن فترة ازدهار التعاون العربى الإفريقى وضخامة المال العربى وموقع السنغال خاصة لدى دوائر هذا التعاون المالية (علاقتها بالسعودية) أن تشكل الجاليات العربية أداة انتقال بعض رأس المال العربى الى المجتمع الإفريقى ، إلا أن سمعة الجاليات فى الاقتصاد المحلى من جهة وتبعية عمنية للاستثمار لدى الطرفين للسوق الأوروبية أساسا لم تسمح بتقدم فعلى فى هذا الاتجاه .

ومن ثم لم تستطع الجاليات العربية فى بلد كالسنغال أن تكون وسيطة لتحرير الاقتصاد الوطنى أو ارساء قواعد تعاون عربى إفريقى متحرر .

السياسة العربية تجاه الجاليات اللبنانية السورية :

لا يسعنى هنا معالجة هذا الباب الكبير من الدراسة ولكننا نشير فقط الى بعض القضايا الأساسية بشأن هذه السياسات كأبواب جديدة للدراسة .

وذلك على النحو التالى :

١ — أن سجلات جامعة الدول العربية لا تسجل عناية خاصة بقضية المفتربين العرب فى أفريقيا إلا فى أضيق الحدود وفى السنوات الأخيرة فقط (١٩٧٩) بما يشير الى اقترانها بظواهر نمو التعاون العربى الإفريقى والرغبة فى استثمار هذه الجاليات لصالح تطويره أحيانا .

لكننا سنلاحظ هنا أنها لا تذكر إلا فى مقررات اجتماعات وزراء الاعلام العرب وضمن المطالبة بالاستفادة من وجود الجاليات العربية لخدمة القضايا القومية .

وهو منطوق تضرب جذوره فى استثمار الجاليات العربية بالولايات المتحدة بدعوى مقابلة « اللوى الصهيونى » هناك . وهو تصور لا يصدر عن أية معرفة بالواقع الإفريقى ووضع الجاليات السلبى فيه .

٢ — أن ثمة ميل يلاحظه الباحث والمراقب لدى كل من سوريا ولبنان لعدم السماح بمعالجة الدول العربية الأخرى لهذا الموضوع حتى لا تحدث « تدخلات » أخرى من غير الدول المعنية بالقضية خاصة وأنها تتخذ

لدى البعض شكلا حزبيا بتوجهات معينة تحرص على عدم مناقشتها أو شكلا استثماريا لدى البعض الآخر . وقد زاد ذلك من قطرية معالجة موضوع الجاليات .

٣ — ان ثمة محاولة منذ منتصف الستينات يقودها المارونيون اللبنانيون لتأكيد وجود الجامعة اللبنانية الثقافية العالمية كحركة جامعة اللبنانيين المغتربين الى جانب عنايتهم الخاصة بهذا الموضوع لاستثمار اموال اللبنانيين في الولايات المتحدة وبالأخص في أمريكا اللاتينية (تسمية وزارة الخارجية بوزارة المغتربين أيضا) . ويسجل لبنانيو افريقيا غياب هذه الجامعة عنهم أساسا (حيث يلحون الى ان أغلبهم شيعة ومن ثم لم تمتد اليهم نشاطات « الجامعة اللبنانية العالمية » الا في السنوات الأخيرة) .

وحين وصل هذا النشاط افريقيا من قبل المارونيين ، كانت الحركة الشيعية في لبنان قد قويت أيضا بعد نجاح الثورة الايرانية وتوجهاتها الاسلامية الشيعية الواضحة مما بات سندا نسبيا للجاليات اللبنانية الشيعية في غرب افريقيا .

وخلال هذه الحركة المترددة على المستوى القومى والقطرى تجسّاه اللبنانيين والسوريين عقدت عشرات المؤتمرات ، واستثمرت موضوعهم عشرات القوى وخاصة في لبنان حاليا حيث تمول هذه الجاليات العديد من الحركات الطائفية القائمة في لبنان . ولذا نقول انه جدير بدراسة شاملة وامبيريقية في نفس الوقت .

العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا

الدكتورة/ سلوى محمد لبيب

مقدمة :

فى هذا البحث « العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا » سوف تناول الموضوع من عدة جوانب أعتقد انها تمثل أهمية بالنسبة لكل من العرب والأفارقة ، وسوف أركز فى هذا البحث على الجوانب السياسية من الموضوع أما النواحي التاريخية فان أساتذة التاريخ قد عالجوا هذا الموضوع من كافة جوانبه .

وسوف يتناول البحث النقاط التالية :

— تعريف التفرقة العنصرية حيث أن لهذا المسمى الكثير من المفاهيم والتعريفات المختلفة ، كما أن التفرقة العنصرية تأخذ فى افريقيا أشكال متعددة تبدأ من التفرقة بين الأفارقة بعضهم البعض بشكل مستمر كما يحدث فى كلا من ليبيريا ورواندا وبورندى مثلا ، وتنتهى بسياسة « الإبارتهيد » المطبقة الآن فى جمهورية جنوب افريقيا وهى عبارة عن تقنين للتفرقة العنصرية والنص عليها فى دستور الدولة .

وفى نفس الجزء سوف تناول المعنى المقصود « بالعرب » فإن كلمة « عرب » تحمل فى طياتها الكثير من المعانى وتحتاج الى تحديد لمعالجة الموضوع بطريقة علمية سليمة . فهل المقصود بالعرب هنا القبائل العربية التى دخلت القارة الافريقية للتجارة أم الدول العربية ؟ أيضا هناك دول عربية افريقية وأخرى عربية فقط وحتى هذه فان الآراء تختلف بالنسبة لها كما هو الحال بالنسبة للصومال مثلا . أم هل المقصود بالعرب الأقليات العربية الموجودة فى القارة الافريقية ؟ كل هذا سوف يكون محل دراسة فى هذا الجزء من البحث .

— بعد الوصول الى تعريفات ومفاهيم محددة فى الجزء الأول سأنقل

فى هذا الجزء الى دراسة المواقف العربية تجاه التفرقة العنصرية فى افريقيا، وهذه المواقف بدورها تنقسم الى مواقف جماعية وأخرى فردية . وفى حالة المواقف الجماعية سوف أتناول موقف الدول العربية من التفرقة العنصرية منذ انشاء التنظيمات الدولية بدءا من عصبة الأمم والأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية الى جانب التنظيمات الدولية الأخرى مثل مؤتمرات عدم الانحياز والتعاون الافرو اسوى والمؤتمرات الاسلامية وغيرها من التنظيمات الدولية العديدة .

وهنا سيتم الربط بين مواقف العرب من التفرقة العنصرية فى افريقيا وكيف ارتبطت هذه المواقف ارتباطا وثيقا بالتفرقة العنصرية فى اسرائيل ، بحيث أصدرت الامم المتحدة مرة قرار يدين كل من التفرقة العنصرية فى اسرائيل وفى جمهورية جنوب افريقيا على حدا سواء ، وفى هذا الجزء سوف تكون المواقف هى مواقف للدول لأن الممثل فى التنظيمات الدولية هى الدول العربية أو الشعوب العربية عن طريق دولها .

أما بالنسبة للمواقف الفردية فهما لا شك فيه أن هناك دول عربية كان لها مواقف مميزة بالنسبة للتفرقة العنصرية بكافة مظاهرها فى القارة الافريقية ، ويمكن ذكر مصر وهى دولة عربية أفريقية والجزائر ثم المملكة العربية السعودية التى كان لها دورا هام فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية ، الى جانب دولة أخرى تثير مجالا للسؤال وحقل خصب للمناقشات وهى السودان . فالسودان دولة عربية تتهم بممارسة التفرقة العنصرية داخل افريقيا ، ولها فى نفس الوقت مواقف لا يمكن أنكارها فيما يتعلق بمحاربة التفرقة العنصرية . أى أن المواقف الفردية للدول العربية لا يمكن الأخذ بها كخصية سلم بها أنها هى مثار نقاش وحوار سوف أحاول أن أقوم بنحطيله فى هذا الجزء من الدراسة .

وبعد ذلك سوف أنتقل الى معالجة نقطة مبنية على التركيبات الثقافية والحضارية والفكرية أكثر منها على الوقائع السياسية وحقائق العلاقات الدولية . فهناك ارتباط مباشر بين العرب والاسلام وهناك جدل فكرى قوى حول الاسلام من التفرقة العنصرية بدءا من موقف العرب والاسلام بالنسبة للرق والرقيق ونهاية بالمواقف الفكرية والثقافية التى تدور الآن بين الدول العربية والدول الافريقية . ولعل قرارات المؤتمر الاسلامى الأخير

الذى عقد فى الكويت فى يناير ١٩٨٧ والقرار الذى اتخذته بشأن تأسيس دول المواجهة التى تقود حرب الكفاح ضد ما يحدث فى جمهورية جنوب افريقيا وهو صورة مسافرة التفرقة العنصرية هو أحد المؤشرات لمدى الاهتمام الاسلامى بقضايا التفرقة العنصرية ككل .

وفى هذا الجزء أيضا سوف أعرض للاتجاهات الفكرية السائدة فى الدول الافريقية أو بمعنى أدق فى الفكر الافريقى . هذا الفكر الذى ينعكس فى كتابات المفكرين والساسة الأفارقة وعن رأيهم فى الاسلام والعرب والتفرقة العنصرية وهى قضية على قدر كبير من الحساسية ، ولكن من الضرورى أن نواجهه وأن نقيم على أسس موضوعية سليمة حتى يمكن التوصل الى فهم مشترك بين الفكر الافريقى والفكر العربى ، بدلا من الاستمرار فى محاولة شرح المواقف العربية دون تفهم لرد الفعل الافريقى وخاصة رد فعل المثقفين وتوجهاتهم الفكرية التى لها أثر واضح فى العلاقات العربية الافريقية ككل .

— وفى النهاية سوف أحاول أن اصل فى ختام هذه الدراسة الى نتائج محددة حول العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا . هل كانت هناك مسلا مواقف عربية فعالة فى مواجهة التفرقة العنصرية ؟

هل كان العرب أحد أسباب وجود التفرقة العنصرية بشكل أو بآخر فى القارة الافريقية أم كانوا عامل من عوامل القضاء عليها ؟ وهل هناك اختلاف بين مواقف الدول العربية الجماعية ومواقفها الفردية أم أن هناك تشابه وتناسق فيما بينهما ؟ وفى النهاية هل أدت المواقف العربية تجاه التفرقة العنصرية فى افريقيا الى زيادة التعاون العربى الافريقى أم أن تأثيرها كان بالسلب ؟

أولا — التفرقة العنصرية :

لا شك أن التميز العنصرى لم يكن وليد العصور الحديثة فقد وجد بين كثير من المجتمعات القديمة ولا يزال يتفاقم فى المجتمعات الحديثة . والنميز يوجد بين أشد المجتمعات بدائية وأكثرها تطورا . وظاهرة التميز العنصرى تتفاوت من حيث الممارسة بين مجتمع وآخر كما أنها تختلف من فترة تاريخية

الى أخرى . وبالرغم من أن الاغريق عرفوا النظام الطبقي اذ كان المجتمع ينقسم الى طبقة من الأسياد وأخرى من العبيد ، كما أن الاغريق نظروا الى الشعوب والأجناس الأخرى على أنهم برابرة ، إلا أن التميز العنصرى كما نعرفه اليوم بدأ فى القرن الخامس عشر . فان البداية الحقيقية للعنصرية وافقت حركة الاستكشاف الجغرافية وبداية استعمار افريقيا وظهر التميز العنصرى القائم على أساس اختلاف لون البشرة الى جانب الواقع الاقتصادى . وقد تزايدت الاتجاهات العنصرية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الى درجة أن أصبحت مذهبا له أتباعه ومناصريه (٢) .

فبالرغم من انتشار مبادئ وافكار الثورتين الفرنسية والامريكية وكذلك الحملة ضد العبودية فى بريطانيا . إلا أن حدة الفكر العنصرى تزايدت بعكس كل التوقعات (٣) . وساعد على ذلك بطريقة مباشرة التطور الصناعى الذى حدث فى أوروبا والولايات المتحدة والذى ادى الى انتشار المغازل الميكانيكية وزيادة الحاجة الى اليد العاملة فى جعل الرق الذى كان فى دور الاضمحلال شرط أساسى للازدهار الاقتصادى فى الدول الأوروبية والولايات المتحدة (٤) . وظهرت كتابات عديدة بين المفكرين ساعدت على نشر العنصرية وصبغها بالصيغة العلمية من هذه الكتابات والنظريات ، نظرية داروين فى التطور (٥) وفكرة البقاء للأصلح . حيث تلقنها البيض ليجعلوا منها مبررا لسياسة التوسع على حساب الشعوب غير البيضاء وذلك على أساس خلقهم لنظرية استندت الى نظرية داروين واطلقوا عليها « النظرية الاجتماعية الدارونية » وهى تنادى بالانتقاء الاجتماعى كمقابل لمبدأ الاختيار عند داروين (٦) كذلك ظهر

(١)

(٢) جوان كوماس — الخرافات العرقية فى كتاب العرقين وآراء العلم ، ترجمة أنطران بطرس خورى — دار الثقافة بيروت ، ص ١٢ — ١٤ .
(٣) لم تكن مبادئ الثورة الفرنسية أو الامريكية ذات تأثير قوى إلا بالنسبة للرجل الأبيض .

(٤) كوماس ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٥) تشارلز داروين . أصل الأنواع ، ترجمة أحمد مظهر ، مراجعة در حليم لنقر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٩٤ ، ج ١ .

(٦) د. يسرى عبد الرزاق الجوهري — السلالات البشرية ، بيرار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ . ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

مذهب « تفوق العرق الآرى » التى قامت على أساس وجود فوارق طبيعية بين الساميين والآريين من حيث الجوهر والجسم والذهن وقد أرسى الأساس لهذه القارة العالمان « كوبينو ورينان » اللذان وضعوا « نظرية الاعراق » (٧) .

وقد اختلف الكتاب فيما بعد على تعريف العرق فنجد أن التعاريف تختلف من مفكر الى آخر فهناك من يعرف العرق بأنه « مجموعة بشرية تختلف اختلافا بينا عن المجموعات الأخرى بسبب وجود اختلافات بيولوجية واضحة » (٨) ، وهناك من يعرفها بأن « الأعراق البشرية هى مجموعات بشرية تختلف لأسباب بيولوجية معينة ولكنها قابلة للتبادل بالرغم من الحواجز الجغرافية » (٩) . . وتعريف آخر « ان الجماعة العرقية هى واحدة من المجموعات البشرية التى تحافظ على خصائص فردية بيولوجية وحضارية عن طريق العزل الجغرافى والاجتماعى » (١٠) .

وقد كانت هذه النظريات الأساس الذى انطلقت منه العنصرية فى الفكر الحديث على أساس تفوق عرق أو جنس على جنس آخر واستباحث لنفسها حرية سيطرة الاجناس على بعضها وخاصة الجنس الأبيض على الجنس الاسود والملون على أساس وجود أعراق « راقية » وأخرى « منحطة » وأن هناك سلالات قادرة وأخرى عاجزة عن تحقيق التطور الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . وقد استغل الأوروبيين هذه النظريات منطلقين من الأساس العنصرى بأن المستعمر الأبيض ذو عقلية فذة ساهية على نقيض الاسود والملون الذى اعتبر ذا عقلية « منحطة » . ولقد قامت ظاهرة الاضطهاد الحضارى على هذا الأساس .

ومما يذكر أن اليونسكو قد قامت منذ عام ١٩٥٠ برعاية بحث يختص بالحقائق العلمية عن « العرق » بهدف استئصال العنصرية وسعت لنشر

(٧) كوماس ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .

(8) Boyd, W., *Genties and the race of man*, Boston U. S. A. p. 207.

(9) Dabzhansky, T., *on species and races of living and Fossilman Anthropol.* 1944, p. 265.

(10) Mantagu, A, *Discussion and criticizm on the Race concept*, current Anthropolgy 1904, vo. 5, p. 317.

تلك الحقائق على أوسع نطاق ممكن وقد نشر بيان عام ١٩٥١ أدان بكل وضوح الفكرة القائلة بوجود فردية أساسية فى الأنواع البشرية بسبب العرق وأشار الى ضرورة التميز بين الحقيقة البيولوجية للعرق وخرافة العرق التى وصفها بأنها ظاهرة اجتماعية خطيرة (١١) . كما صدرت مجموعة من المطبوعات والدراسات أهمها مسألة العرق فى العصر الحديث (١٩٥٦) ، والعرق والعلم والمجتمع (١٩٧٥) وسلسلة من كتاب بعنوان مسألة العرق والفكر الحديث . كما عقد اجتماعا على مستوى الخبراء فى موسكو عام ١٩٦٤ وآخر فى ١٩٦٧ . كما دعى المؤتمر العام لليونسكو عام ١٩٧٢ الى اعداد مشروع اعلان خاص بالعرق والتفرض العرقى و يقدم مجموعة مبادئ يمكن ان يطبق عالميا وقد أعد البيان فعلا فى عام ١٩٧٧ (١٢) .

والعنصرية اليوم تفهم فى ضوء القانون الدولى على أسس مختلفة وليس على أساس المعنى البيولوجى الوراثة القديم فالعنصرية تقوم على أى من الأسس الخمس التالية ، العرق ، اللون ، النسل ، الأصل القومى والأصل العرقى ، أى أن أى تمييز يستند الى أى من هذه الأسس يعتبر من وجهة نظر القانون الدولى تمييزا عنصريا (١٣) .

فالعنصرية اذا هى اضافة مميزات على مجموعة من الأفراد بزعم انها تنتمى الى عرق محدد أو أصل معين ، وان تلك الصفات أو المميزات لا تتمتع بها الجماعات أو الاعراق الأخرى سواء التى تعيش على نفس الاقليم أو الدولة أو سواها ، وما يترتب على ذلك أن تتمتع الفئة الأولى بكل المزايا والحقوق وأن تنتقص أو تهدد الحقوق والحريات للجماعات الأخرى (١٤) . وإلى جانب أن العنصرية هى مشكلة اجتماعية الا انها مشكلة اقتصادية وسياسية فى آن واحد .

(11) UNESCO. The concept of Race, Results of on Inquiry. 1961. p. 89-90.

(١٢) الأمم المتحدة وحقوق الانسان . مطبوعات الامم المتحدة ، نيويورك ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ — ١٨٣ .

(١٣) المادة الأولى من اعلان الامم المتحدة للقضاء على كافة اشكال التمييز العنصرى ، والمادة الأولى الفقرة (١) من الاتفاقية الدولية للقضاء على كافة اشكال التمييز العنصرى .

(14) Green, L. : Human Rights and colour discrimination, pp. 422-426 .

وقد اهتمت المواثيق الدولية بمشكلة العنصرية هذه منذ عام ١٧٤٨ وذلك فى معاهدة وستفاليا التى أنهت حرب الثلاثين عاما ، وهى تعتبر أول معاهدة فى العصر الحديث تتناول حقوق الانسان حيث نص فيها على حرية ممارسة العبادات المختلفة داخل اقليم البلدان الموقعة على الاتفاقية (١٥) . ثم جاءت بعد ذلك معاهدة فينا المعقود فى عام ١٨١٥ لتخطو خطوة مهمة حيث حرمت تجارة الرقيق الاسود وضمنت حرية ممارسة الأديان (١٦) . وقد جاءت معاهدة برلين عام ١٨٧٨ مؤكدة لنصوص اتفاقية فينا وقد طبقت بتوسع فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وأصبح قبول شروط هذه المعاهدة شرطا أساسيا للاعتراف بالدول الجديدة . وقد توالى الاهتمام بعد ذلك بمشكلة التفرقة العنصرية سواء فى ظل عصبة الأمم أو فى ظل الأمم المتحدة . وقد تم تعريف التمييز العنصرى فى الاتفاقية الدولية لازالة كافة اشكال التمييز العنصرى والتى أنشأت طبقا لقرار ١٠٦ د - ١٨ ، الصادر فى عام ١٩٦٣ ، عرفت الاتفاقية التمييز العنصرى بأنه « كل تمييز أو استبعاد أو تحديد أو تفضيل يقوم على العنصر أو اللون أو الأصل أو الانتماء القومى أو العرقى لا تكون نتيجة المباشرة أو غير المباشرة التعرض أو المساس بحقوق الانسان المعروفة والحريات الأساسية التى لا غنى عنها لأى إنسان فى الحياة أو التمتع بهذه الحقوق أو ممارستها على نحو وفى ظروف تكفل المساواة الانسانية فى الميادين المنصوص عليها فى المادة الخامسة من هذه الاتفاقية وهى على سبيل المثال لا الحصر : الميدان السياسى ، الاقتصادى ، الاجتماعى ، الثقافى ، أو فى أى ميدان آخر من ميادين الحياة العامة » .

والتفرقة العنصرية تأخذ اشكالا متعددة فى مجال التطبيق تختلف من مكان الى آخر حسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فهناك التحيز العنصرى والتمييز العنصرى والفصل العنصرى وأخيرا هنالك الابارتهايد والتمييز العنصرى أكثر عمقا من التحيز العنصرى ويمارس فعلا فى مجال التطبيق أما الفصل العنصرى فهو أكثر عمقا من التمييز العنصرى

(١٥) د. الشافعى محمد بشير أزمة حقوق الانسان فى جنوب أفريقيا - مجلة القانون والاقتصاد . العدد ٣ ، ١٩٦٩ القاهرة ، ص ٦٧٨ .
(١٦) د. عز الدين فودة ، الضمانات الدولية لحقوق الانسان ، المجلة المصرية للقانون الدولى - المجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ ، ص ٨١ .
(م ٢٤ - العرب فى أفريقيا)

وأخيرا هناك الإبارتهيد وهى سياسة الفصل العنصرى المتقنة والمطبقة فعلا فى جمهورية جنوب افريقيا والتى نص عليها الدستور .

وفى معالجتنا للتفرقة العنصرية فى هذه الدراسة سوف أقصر البحث على سياسة التفرقة العنصرية التى تمارس فى جمهورية جنوب افريقيا والتى تمثل مشكلة عالمية واقليلية على جانب كبير من الخطورة . حيث أنه من الصعوبة بمكان أن أتعرض للتفرقة العنصرية بمفهومها الواسع أو كما عرفتھا المواثيق الدولية . لأن التفرقة العنصرية بهذه الصورة تمارس بشكل أو باخر فى معظم الدول الافريقية ان لم يكن كلها مما يمثل مشكلة أمام الباحث . فمن المعروف أن معظم الدول الافريقية تعاني بحكم تركيبها الاجتماعى والسياسى من وجود مجموعات فى داخلها سواء من الأفارقة أو غير الأفارقة لا تمارس حقوقها كاملة وتعرض بشكل أو باخر لنوع من أنواع التمييز القائمة على أساس العرق ، اللون ، النسب ، الأصل القومى والأصل العرقى وأحيانا على أساس الدين أو الجنس . ولذلك سوف اقتصر هنا على التفرقة العنصرية والنظم العنصرية الموجودة فى جمهورية جنوب افريقيا على وجه الخصوص وخاصة أن هذه مشكلة عالمية شديدة التعقيد ، ويكفى معرفة أن جنوب افريقيا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تعلن صراحة عدم المساواة بين رعاياها ، وقد تم ذلك لأول مرة فى بيان الحزب الوطنى عند دخوله الانتخابات فى جنوب افريقيا فى عام ١٩٤٧ فقد أعلن الحزب فى اعترافه انتهاج سياسة « الإبارتهيد » التى أصبحت فيما بعد سياسة الحزب والدولة معا . وقد شرح بيان الحزب (الإبارتهيد) على انها سياسة تقوم على أساس من صيانة وحفظ شخصية الشعوب المحلية كجماعات للسكان البيض فى البلاد وصيانة وحفظ شخصية الشعوب المحلية كجماعات عنصرية منفصلة . وبذلك أصبحت جنوب افريقيا هى الدول الوحيدة فى العالم التى تعلن صراحة عدم المساواة بين رعاياها ولا تعترف بأى وثيقة دولية خاصة بحماية حقوق الانسان ابتداء من الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر فى ١٠ مارس عام ١٩٤٨ الى المعاهدة الدولية لمنع جريمة الفصل العنصرى والمعاقبة عليها التى أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣ . وقد أصدرت حكومة الحزب الوطنى منذ توليها السلطة فى جنوب افريقيا فى عام ١٩٤٨ مجموعة كبيرة من القوانين والتشريعات التى جعلت « الإبارتهيد » سياسة مقننة وأصدر البرلمان مئات من القوانين ، وصدرت

فى ظل تلك القوانين آلاف من التعليمات والاعلانات والاضطرابات الحكومية التى حكمت الحياة اليومية لأكثر من أربعة أخماس مجموع سكان جنوب افريقيا ، اى الخمسة عشر مليون شخص غير البيض . وقد أثارت تصرفات حكومة جنوب افريقيا مشاعر الرأى العام العالمى على نحو لم يعرف له مثيل تجاه اى قضية انسانية أخرى .

ثانياً — العرب :

الواقع أن مدلول كلمة « العرب » تطور خلال العصور وخاصة فى العصور الوسطى فكان يقصد به قبل الاسلام سكان الجزيرة العربية ، وفى صدر الاسلام وطوال العصر الأموى استعمل لفظ « عرب » للدلالة على المسلمين ابناء الجزيرة العربية تمييزاً لهم عن سكان البلاد الذى ائند اليها الاسلام . ولكن منذ القرن التاسع الميلادى اندمج ابناء الجزيرة مع بقية السكان وظهرت حضارة خاصة أهداها الاسلام بأهم طاقاتها واسهم فيها كل ابناء الدول الاسلامية عن عرب وفرنس وأترك وشارك فيها المسلمون وغير المسلمين وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الغالبة واكتب كلمة « عرب » معنى ثنائياً وحضارياً فأصبحت تدل على سكان الوطن العربى الذين ينددون فى اللغة العربية والتاريخ والثقافة العربية بصرف النظر عن دينهم أو أصلهم (١٧) .

وفى الواقع أن كلمات « عرب » و« أفارقة » و« اسلام » من المصطلحات التى يكثر تداولها فى دراسة العلاقات العربية الافريقية وان كان استعمال كثير من هذه المصطلحات يشوبه غموض كثير مما يؤدى احياناً الى خلط فى المفاهيم . وقد ساعد ذلك على اذكاء المفهوم العنصرى الذى يفترض أن العرب ساميون والأفارقة حاميون وان كان هذا الافتراض غير صحيح فان العرب اليوم يرجعون الى سلالات بشرية متعددة واجناس شتى، كما أن افريقيا القارة قد عرفت العرب منذ عهد قديم وتفاعلت العناصر البشرية فى جزيرة العرب وافريقيا الجغرافية قبل الاسلام وبعده وامتزجت دبء هذه العناصر بصورة يصعب فى كثير من الأحوال التميز بين من كان

(١٧) د. محمد محمد أمين — تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى فى كتاب العلاقات العربية الافريقية ، استاذ د. خيرى عيسى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٣٢ .

أصله ساميا عن كان أصله حاميا . ولذلك فإن محاولة اعطاء العروبة مفهوما عرقيا هو مفهوم خاطيء قد يؤدي الى فصل البلدان الافريقية عن العروبة باثارة المفهوم العرقى وذلك بربط استعمال اللغة العربية بخط عرقى موهوم .

وتتضح هذه الحقيقة بجلاء اذا نظرنا الى المحاولات التى قام بها الكتاب الاوربيين الذين حاولوا رسم خطا فاصلا بين افريقيا السوداء وافريقيا العربية ، فمثلا الباحث الانثروبولوجى « سلجمان » يمد هذا الخط من مصب السنغال فى غرب افريقيا ويلتزم مجرى النهر الى نحو منتصفه ثم ينحدره الخط شرقا الى منحنى النيجر الى الجنوب من بلدة تمبكتو ثم الى بحيرة تشاد ثم شرقا حتى يصل الى مجرى بحر العرب ، وعندما يقترب الخط من جبال النوبا يتجه نحو الشمال ويدور حول النيل الابيض ثم يمتد عبر الجزيرة فى اتجاه غربى شرقى حتى يبلغ سفوح هضبة الحبشة ثم يتجه نحو الجنوب حتى يصل الى المحيط الهندى . أما « ورذنجتون » فقد وضع الحد بين افريقيا السوداء وافريقيا العربية بخط يبدأ شمال مصب السنغال ويمتد الى الشرق بحيث يضم ثنيه النيجر ولكنه يقسم جمهوريات موريتانيا ومالى والنيجر وتشاد الى قسمين الشمال يتبع افريقيا العربية والجنوب يتبع افريقيا السوداء ، وينتهى هذا الخط عند التقائه بحدود السودان الغربية عند دارغور يتتبع الحد السياسى لجمهورية السودان ويدور جنوبا حول السودان واثيوبيا وكينيا حتى ينتهى الى المحيط الهندى ، أما « جورج كبل » فهو يسر مع خط « ورذنجتون » الى أن يفترق عند السودان حيث يضم « كبل » السودان داخل افريقية عند العربية (١٨) .

ومن الملاحظ أن هذه الخطوط والتقسيمات تختلف مع بعضها البعض كما أنها ليست فاصلة بأى حال بين افريقيا العربية وافريقيا السوداء . فالعروبة ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين افرادها أو تقتصر على سلاله معينة ، وإنما هى رباط لغوى ثقافى حضارى يجمع بين الالوان والاجناس . وكما أن العروبة ليست سوى رباط حضارى لغوى ثقافى ، كذلك فإن

(١٨) د. محمد عبد الفنى سعودى : العروبة والافريقية مواجهة أم تضامن ؟ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

الافريقية ليست رباطا سلاليا انما هي رباط جغرافى ، حضاريا سياسيا بصرف النظر عن اللغة والدين والسلالة (١٩) .

ومن النقاط التى يجب الاشارة اليها قضية ربط العروبة بالاسلام فى افريقيا ومما لا شك فيه أن هناك ارتباط قوى بين الاسلام والعروبة بحيث يصعب الفصل بينهما ولكن من غير المقبول أن يحاول الكتاب أن يخصصوا هذا بالنسبة للقارة الافريقية فقط أى أن يفهم أن الربط بين الاسلام والعروبة قاصر على افريقيا وان هناك مفهوما مخالفا لهذه الصيغة بحيث يصبح الفصل بين الاسلام والعربية فى غير افريقيا أمر ممكن . فى حين أن الفصل بين العربية والاسلام غير ممكن حتى فى البلدان العربية اللسان ذلك لأن التاريخ يتقلص الى أدنى الحدود اذا اقتطعنا فيه الفترات المتعلقة بتاريخ الاسلام فى بلاد العرب كما أن أداة الاسلام فى التبليغ كانت اللغة العربية أساسا . ومن الخطورة بمكان اعطاء الاسلام مفهوما دينيا ضيقا متعصبا بل المفهوم الحضارى الواسع بحيث يمكن اثاره نغرات الاقلية غير المسلمة فى البلدان العربية .

وبالرغم من الخلافات التى تدور حول تعريف العروبة والافريقية فمن المؤكد أنه ليست هناك افريقيا بدون مسلمين أو بدون عرب وأنه يجب تعريف المفهوم الحضارى لهذه المسميات ومن الصواب القول بأن للعرب وجودا ذاتيا مستقرا عن الافارقة من حيث الثقافة فان هناك تطورا ثقافيا للشعوب الافريقية يخالف التطور الثقافى للعرب والاختلاف فى التطور الثقافى هذا لا يضر أبدا بالعلاقات العربية الافريقية ، وانما هو يحترم الذاتية الخاصة للافارقة وللعرب ويساعد على ابراز قوة الترابط الحضارى منذ القدم بين العرب والافارقة . ولن تكون هناك افريقيا بدون عرب فالعرب يشكلون ما يقارب من ثلثى سكان القارة ، كما أن الأرض العربية فى افريقيا تزيد على نصف مساحة القارة .

وفى هذه الدراسة ولتسهيل مهمة الباحث فسوف أتناول العرب على

(١٩) لتفاصيل أكثر :

Hazem zaki Nusibeh. the Ideas of Arab Nationalism, N. Y. Carnnil university press, 1959.

إنهم الدول العربية الاعضاء فى جامعة الدول العربية ومن المعروف ان شرط « العروبة » بقبول دولة عربية عضوا فى الجامعة العربية والمنصوص عليه فى المادة الأولى من ميثاق جامعة الدول العربية لم يعرف بصراحة فى الميثاق وإنما عرف بعد ذلك من قبل اللجان التحضيرية ونص على أن الدولة العربية هى الدولة التى تكون اللغة العربية فيها هى اللغة « الرسمية » وبالرغم مما ثار من نقاش حول هذا الموضوع فان هذا التعريف هو التعريف المأخوذ به من قبل المشرع فى القانون الدولى ولذلك فان الحديث عن العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا سوف يكون اساسا بالنسبة للدول العربية .

ثالثا — العرب والتفرقة العنصرية فى الأمم المتحدة :

منذ أن وجدت المنظمة العالمية ووجدت الجمعية العامة للأمم المتحدة وفى أولى دوراتها وهى فى مواجهة مشكلة التمييز العنصرى . ففى عام ١٩٤٦ وأثناء اجتماع الجمعية العامة ابرزت مسألة المعاملة التمييزية التى تقوم بها حكومة جنوب افريقيا ضد مواطنى جنوب افريقيا الذين هم من أصل هندى . وقد تقدمت الهند بهذه الشكوى . وقد اتخذت الجمعية العامة قرارا أعربت فيه عن أن معاملة الهنود فى أنحاء جنوب افريقيا يجب أن تكون « متفقة مع الالتزامات الدولية التى تقضى بها الاتفاقيات المتعددة بين الحكومتين والنصوص ذات العلاقة فى ميثاق الأمم المتحدة (٢٠) » وقد ناقشت الجمعية العامة هذا الموضوع فى الفترة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ واتخذت أربعة قرارات دعت فيها حكومتا الهند وباكستان وجنوب افريقيا لعقد اجتماع مائدة مستديرة ليجاد حل للمسألة فى موضوع البحث (٢١) وفى عام ١٩٥٢ أدرج فى جدول أعمال الجمعية العامة لدورتها السابقة بندا بعنوان « مسألة النزاع العنصرى فى جنوب افريقيا الناجم عن تطبيق سياسيات التفرقة العنصرية » إبارتهيد « لحكومة جنوب افريقيا » وقد تم ذلك بناء على طلب تقدمت به ثلاثة عشر دولة عربية واسيوية من بينها مصر وتم تشكيل لجنة من ثلاثة أعضاء خاصة بالوضع العنصرى فى جنوب افريقيا (٢٢) وقامت اللجنة المشكلة فى الأعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ بدراسة الأوضاع فى

(٢٠) القرار رقم ٤٤ الدورة الاولى للجمعية العامة .

(٢١) انظر القرارات رقم ٣٩٥ (د - ٥) ، ٥١١ (د - ٦) .

(٢٢) القرار رقم ٦١٦ ب (د - ٧) .

جنوب افريقيا التي رغبت التعاون معها بحجة أن هذا تدخل فى الشؤون الداخلية لجمهورية جنوب افريقيا .

ومنذ عام ١٩٥٥ رُفِضت حكومة جنوب افريقيا المشاركة فى مناقشة هذه المسألة وقد واصلت الجمعية العامة توجيه نداءاتها من خلال قراراتها المتعددة ولكن دون جدوى (٢٣) .

وحتى عام ١٩٤٧ لم تكن هناك فى الأمم المتحدة سوى ١٥ دولة من افريقيا وآسيا منها ست دول أعضاء فى جامعة الدول العربية وفى عام ١٩٥٥ وبعد انعقاد مؤتمر باندونج تكونت المجموعة العربية فى الأمم المتحدة، وهى من المجموعات القليلة التى عاصرت انشاء الأمم المتحدة وتعتبر المجموعة العربية هى النواة الأولى للمجموعة الاسيوية الانريقية وقد بدأت نشاطها الفعلى منذ مؤتمر سان فرانسيسكو للامم المتحدة ولكن وجودها تبلور بعد عام ١٩٥٥ وقد أسهمت بتقديم عدة اقتراحات الى الجمعية العامة للامم المتحدة وفى المجموعة العربية يحاول الأعضاء الوصول الى اتفاق بشأن الموضوعات المعروضة عن طريق اتباع الرأى السائد فى المجموعة ولا يوجد التزام على أعضاء المجموعة لتطبيق ما تصل اليه المجموعة العربية فى الأمم المتحدة سوى الالتزام الأدبى (٢٤) . وقد كان لموقف الدول العربية اثره فى اصدار الجمعية العامة للامم المتحدة لقرارها رقم ١٧٦١ (١٧) بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية والتى دعت فيه الدول الأعضاء الى فرض عقوبات دبلوماسية واقتصادية على جنوب افريقيا وانشاء لجنة خاصة من اجل ملاحقة السياسة العنصرية لحكومة جنوب افريقيا ولكى تقوم بتقديم التقارير الى الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو الاثنين معا . وقد تم تقوية نطاق تفويض هذه اللجنة فى عام ١٩٧٠ لتشمل جميع جوانب سياسة الابارتهايد فى جنوب افريقيا ، وفى عام ١٩٧٤ تغير اسم اللجنة الى « اللجنة الخاصة ضد الابارتهايد » . وقد كان هناك تعاون وتساند بين الدول العربية

(٢٣) انظر القرارات ٧٢١ (د - ٨) ٨٢٠ (د - ٩) ٩١٧ (د - ١٠) ١٠١٦ (د - ١١) ١٧٨ (د - ١٢) ١٤٨ (د - ١٣) .

(٢٤) د. مصطفى عبد العزيز : التصويت والقوى السياسية فى الجمعية العامة للامم المتحدة - مركز الأبحاث - بيروت ، يناير ١٩٦٨ ، ص ٢٣٠ .

والافريقية منذ عام ١٩٦٢ فيما يتعلق بمشكلة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا(٢٥) . وقد صدر اعلان الامم المتحدة للقضاء على التمييز العنصرى بكافة اشكاله فى عام ١٩٦٣ وقد تضمن هذا الاعلان أن أى أساس للتفرقة العنصرية أو التفوق العرقى هو خاطئ علميا وأنه لا يوجد أى مبرر نظرى أو علمى للتمييز العنصرى(٢٦) . وفى عام ١٩٦٥ انشأت الجمعية العامة صندوق الوديعه لمساعدة ضحايا الفصل العنصرى واقامت وحدة خاصة فى سكرتارية الأمم المتحدة تعرف الآن بالمركز المناهض للفصل العنصرى . وفى عام ١٩٧٣ أقرت الجمعية العامة الاتفاقية الدولية بشأن قمع جريمة الفصل العنصرى، ومعاقبة مرتكبيها وعرضها للتوقيع عليها وناشدت جميع الدول أن تصادق عليها فى أسرع وقت ممكن . وقد قررت الاتفاقية فى مادتها الأولى أن الفصل العنصرى هو جريمة ضد الإنسانية وأن الأفعال الناجمة عن سياسات وتطبيقات الفصل العنصرى وغيرها من سياسات وممارسات هى جرائم تتنافى مع القانون الدولى . وتلتزم الدول الأطراف فى الاتفاقية بأن تعلن نجرمها عن طريق التشريع أو أى طريق قانونى آخر للأفراد والمنظمات والمؤسسات الذين يقومون بارتكاب جريمة الفصل العنصرى . وقد عرفت الاتفاقية فى المادة الثانية منها المقصود بعبارة جريمة الفصل العنصرى بأنها سياسات وممارسات التفرقة والتمييز العنصرى كما هو مطبق فى افريقيا الجنوبية (جنوبا افريقيا — روديسيا سابقا — ناميبيا) وقد اقتصر هذا التعريف على أساس أنه ينص على سياسة الارهابيد فى جنوب افريقيا نقت ولا يمتد الى النظام العنصرى الصهيونى فى فلسطين المحتلة مثلا .

وقد أصبحت هذه الاتفاقية نافذة المفعول فى ١٨ يوليو ١٩٨٦ وقد صدقت عليها ٥٨ دولة من بينها الدول العربية .

وقد تجلى الموقف العربى من التفرقة العنصرية فى افريقيا فى عام ١٩٧٤ فى الجمعية العامة فى التصويت لمنع جنوب افريقيا من حضور جلسات باقى دورة الجمعية التاسعة والعشرين والتي رأسها عبد العزيز

(25) David, A. K., The Impact of African states on the United Nations : International organisation : 1969. pp. 20-47.

(26) The United Nations and Human Rights-salns-No. E781-18 1978. p. 87.

بوتفليقة وزير خارجية الجزائر (٢٧) . ومما يذكر أنه في الدورة الثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة كان لاتحاد الدول العربية والافريقية أثره في صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية وهو أول قرار من المنظمة العالمية يدين السياسة الاسرائيلية ويوصمها بالعنصرية (٢٨) . وقد كان لاستعانة الدول الافريقية بأصوات الدول العربية الدور الأول في اصدار قرار عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمعية العامة بوقف عنصرية جنوب افريقيا في الدورة التاسعة والعشرون بعد أن استخدمت أمريكا وفرنسا حق الفيتو في مجلس الأمن لمنع المشروع الذي تقدمت به الدول الافريقية لطرد جنوب افريقيا من الجمعية العامة (٢٩) . وقد اعتبر هذا القرار تحولا في تاريخ المنظمة العالمية يوضح مدى أهمية تكاتف الدول العربية والافريقية في القضايا المشتركة للحصول على الأغلبية في الجمعية العامة .

وفي عام ١٩٧٦ وعندما قام النظام العنصري باعلان الاستقلال الزائف للترانسكاى والبانتويستان الأخرى في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٦ بادرت الجمعية العامة باتخاذ قرار أدانت فيه بشدة انشاء البانتويستانات باعتباره اجراء يؤدي الى تدعيم سياسة الفصل العنصري المحرمة والمدانة دوليا (٣٠) .

وكذلك قامت باستنكار أحداث سويتو والاعمال الوحشية التي اتخذت من قبل الشرطة في جمهورية جنوب افريقيا . وقررت اعلان ٢١ مارس اليوم العالمى الخاص بالقضاء على التمييز العنصري . وقد التزمت الدول العربية بهذه القرارات واتخذت يوم ٢١ مارس كيوم عالمى للقضاء على التمييز العنصري . وقد شاركت الدول العربية مشاركة فعالة في اللبنة الخاصة بالفرقة العنصرية والتي سبق الاشارة اليها ووقعت على النداء الذي صدر عن الحلقة الدراسية التي نظمتها اللجنة بالتعاون مع حكومة الجمهورية الديمقراطية الألمانية في مدينة برلين في الفترة من ٣١ أغسطس الى ٢ سبتمبر ١٩٩٨ والذي اطلق عليه اعلان برلين والذي تضمن الكثير من

(27) Ali A. Mazrui, Black Africa and the Arabs. p. 22-25.

(28) U. N. A/c. 3/L. 2/59, 15 October 1975.

(29) Herald Tribune. London. 15/12/1974.

(٣٠) سلوى لبيب — الترانسكاى — السياسية الدولية .

الفقرات وأهمها ضرورة تتبع المساندة التى تقدم الى النظام العنصرى عن طريق توريد الاسلحة والتكنولوجيا والمواد الحيوية الأخرى بما يتنافى مع قرارات الأمم المتحدة أو أن يكون عام ١٩٨٢ هو عام التعبئة الدولية ضد الفصل العنصرى وكذلك ساهمت الدول العربية فى برنامج العمل الذى اعتمدته اللجنة الخاصة بمناهضة الفصل العنصرى فى جلستها (٥٣٠) المعقودة فى نيويورك فى ٢٥ أكتوبر ١٩٨٣ والذى تضمن بنودا خاصة بالعلاقات الدبلوماسية والفنصلية وغيرها من العلاقات الرسمية مع جمهورية جنوب افريقيا والتعاون العسكرى والنووى والخطر البترولى والتعاون الاقتصادى وشركات الخطوط الجوية والملاحة البحرية والتعاون الثقافى والتربوى والرياضى وغيره من اشكال التعاون مع جنوب افريقيا ونثديم المساعدة الى شعب جنوب افريقيا والى حركتى تحريره المعترف بها من قبل منظمة الوحدة الافريقية والمطالبة بالافراج عن السجناء السياسيين ووضع حد للقمع .

وفى الوقت الذى كانت فيه السياسات العنصرية محل نظر الجمعية العامة منذ دورة انعقادها الأولى ، الا أن مجلس الأمن لم ينظر الموضوع الا بعد وقوع مجزرة شاريفيل فى جنوب افريقيا عام ١٩٦٠ . وعلى أثر ذلك طلبت ٢٦ دولة افريقية واسيوية عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن للنظر فى الموقف الذى يهدد السلم والأمن العالميين .

وفى عام ١٩٦٣ نظر مجلس الأمن مرة أخرى فى مسألة النزاع العنصرى بناء على طلب (٣٢) دولة افريقية وصفت الحالة بأنها متفجرة . وقد أصدر مجلس الأمن قراره رقم (١٨١) والذى يتضمن :

(ا) يستنكر مجلس الأمن بشدة السياسات العنصرية لجنوب افريقيا .

(ب) يطالب حكومة جنوب افريقيا تنمية سياسات التفرقة العنصرية « أبارتهيد » واطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين .

(ج) مقاطعة بضائع جنوب افريقيا والامتناع عن تصدير المواد الاستراتيجية ذات القيمة العسكرية المباشرة لها .

(د) ايقاف بيع وشحن الأسلحة والذخائر من جميع الأنواع والمركبات العسكرية الى جنوب افريقيا .

ومما يذكر أن الفقرة (ج) لم تحصل على الأغلبية المطلوبة بسبب اعتراض الولايات المتحدة عليها . وتكونت لجنة من الخبراء من ممثلى الفلبين وغانا والمغرب من أجل دراسة وسائل تسوية الوضع فى جنوب افريقيا وقد رفضت حكومة جنوب افريقيا أن تتعاون مع مجموعة الخبراء المشكلة ووصفت قرار المجلس بأنه محاولة لا مثيل لها للتدخل المتعمد .

وقد استأنف مجلس الأمن النظر فى الموقف الخطير فى جنوب افريقيا وذلك فى ٢٧ أبريل ١٩٦٤ وتقدم المغرب وساحل العاج بمشروع قرار الذى صدر بعد ذلك طالب فيه النظام العنصرى بإنهاء المحاكمات الجارية وفق القوانين العنصرية .

وفى الفترة من ١٩٦٥ الى ١٩٦٩ لم ينظر مجلس الأمن فى مسألة النزاع العنصرى فى الجنوب الافريقى ، ولكن فى عام ١٩٧٠ نظر مجلس الأمن فى موضوع التفرقة العنصرية واعتمد قرارا أكد فيه ان الحالة فى الجنوب الافريقى تشكل تهديدا جديا وخطيرا للسلم والأمن الدوليين ويؤكد من جديد قراراته التى اتخذها فى عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ .

وقد تقدمت بورندى وزامبيا وسوريا وسيراليون ونيبال بمشروع قرار ضد التفرقة العنصرية وصدر القرار بأغلبية ١٢ صوت مقابل لا شئ وامتناع أمريكا وفرنسا وبريطانيا عن التصويت (٢١) . وخلال السنوات من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ لم ينظر مجلس الأمن فى هذا الموضوع ، علما بأن هناك بندا كان يدرج فى كل مرة ينعقد فيها للنظر فى مشكلة النزاع العنصرى . وعلى أثر جزيرة سويتو وأعمال القتل والعنف التى ارتكبها نظام الفصل العنصرى تقدمت العديد من الدول برسائل الى مجلس الأمن طالبة انعقاده للنظر فى الوضع المتفاقم وقد اتخذ المجلس قرارا أدان فيه بشدة أحداث سويتو . واستأنف المجلس النظر فى الموضوع عام ١٩٧٥ بناء على طلبات عديدة وبعد مناقشات طويلة قدمت أربع مشروعات قرارات تتضمن عقوبات طبقا للفصل السابع

من الميثاق ، ولكن لم ير أى منها النور بسبب الفيتو الثلاثى (الأمريكى — الفرنسى — البريطانى) (٣٢) .

من العرض السابق يتضح أن الأمم المتحدة وأجهزتها المختلفة سواء الجمعية العامة أو مجلس الأمن قد اهتمت وناقشت واتخذت العديد من التوصيات والقرارات الخاصة بالفصل العنصرى فى الجنوب الأفريقى . وأن هذه القرارات والتوصيات وإن لم تكن على القدر المطلوب من الفاعلية إلا أنها كانت ذات أثر لا ينكر فى إيقاظ الرأى العام والضمير العالمى . وكان لها أثر مباشر أيضا فى وضع النظم العنصرية فى عزلة عن المجتمع الدولى وكان لهذه العزلة أثرا فعالا فى توجيهات هذه النظم وفى محاولاتها اليائسة لتعديل سياستها وإن كانت التعديلات فى معظم الأحيان هى من حيث الشكل وليس من حيث الجوهر . وقد ساهمت الدول العربية مساهمة فعالة منذ عام ١٩٤٦ فى اتخاذ هذه القرارات والتوصيات وبدا واضحا مدى ثقل الأصوات العربية والأفريقية فى الجمعية العامة وكذلك يلاحظ أن معظم مشاريع القرارات المقدمة الى مجلس الأمن كانت الدول العربية الأفريقية (الجزائر) والدول العربية غير الأفريقية (سوريا) (وذلك على سبيل المثال وليس الحصر) وبهذا فيمكن القول بأن الدول العربية لعبت دورا لا يمكن إنكاره بالنسبة لقضية التفرقة العنصرية وذلك فى داخل التنظيم العالمى .

رابعاً — الجامعة العربية والتفرقة العنصرية فى افريقيا :

قد اهتمت الجامعة العربية منذ انشائها بقضية التفرقة العنصرية وإن كان مجال هذا الاهتمام قد اختلف بتطور القضية نفسها فى المجال العالمى فمع أن ميثاق جامعة الدول العربية قد سبق الاعلان العالمى لحقوق الانسان بثلاث سنوات إلا أنه قد تضمن من النصوص ما يوافق تماما هذا الاعلان العالمى .

وبعد أن أثرت القضية عالميا فى بداية الستينات وبعد مذبحة « شاريفيل » فى عام ١٩٦٠ ، بحث مجلس الجامعة العربية الذى عتد فى أبريل عام ١٩٦٠ قضية النميز العنصرى فى جنوب افريقيا وانسجها الاقلية

للاغلبية الساحقة من اهل البلاد الوطنيين وما ترتب على ذلك من احداث خطيرة تهدد الامن فى المنطقة والسلام العالمى وما تؤدى اليه من اثاره اسباب العداوة والبغضاء بين البشرية . وانه بناء على قرارات الأمم المتحدة المتعاقبة منذ عام ١٩٤٦ بمعارضة سياسة حكومة اتحاد جنوب افريقيا ، وقرار مجلس الامن الذى صدر فى اول ابريل من عام ١٩٦٠ والتزاما بقرارات باندونج وسائر المؤتمرات الاسيوية والافريقية بشأن مناهضة سياسة التمييز العنصرى ، فان مجلس الجامعة يشجب سياسة التمييز العنصرى ويناشد الضمير العالمى العمل على وقف أعمال العنف الجارية هناك . ويدعو الى التعاون مع المجموعة الاسيوية الافريقية وسائر الدول المؤيدة لها لاتخاذ خطة مشتركة فى هذا الشأن مع الأمم المتحدة وهيئاتها ولجانها المختلفة وسائر المحافل الدولية وأيضا مضاعفة الجهود وبشتى وسائل الاعلام لتبصير الراى العام العربى والعالمى بمواقف سياسة التمييز العنصرى والدعوة الى التعاون الدولى للقضاء عليها دعما للسلام العالمى(٢٣) .

وعند الاعلان عن قيام جمهورية جنوب افريقيا فى عام ١٩٦١ اعترفت بها معظم دول العالم ، أصدر مجلس الجامعة العربية قراره بارجاء اعتراف الدول العربية بالجمهورية مادامت حكومتها لا تمثل الأغلبية العظمى من سكان البلاد وتنتهج سياسة التمييز العنصرى(٢٤) .

وقد كان هذا القرار خطوة تستحق الاعجاب من جانب الجامعة العربية التى كانت تؤيد مواقف الدول الافريقية حديثة الاستقلال التى لم تكن قد كونت المنظمة الاقليمية الخاصة بها بعد كما أظهر هذا القرار مدى اهتمام الجامعة بمشاكل القارة الافريقية وربطها بقضايا الأمة العربية .

وفى عام ١٩٦٤ حدث تطور هام فى موقف الجامعة والدول العربية بالنسبة لسياسة التفرقة العنصرية . فقد تم الربط والمقارنة لأول مرة فى مجلس الجامعة وفى قرار رسمى بين التمييز العنصرى وسيطرة الأقلية الأوروبية فى جنوب افريقيا وبين الاحتلال الصهيونى لفلسطين والتمييز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل واتخذته قاعدة لاعمالها العدوانية المتصلة

(٢٣) ق ١٦٥٩ / د ٣٣ / ج ٢ — ١٩٦٠ / ٤ / ٩ .

(٢٤) ق ١٧٨٧ / د ٣٦ / ج ٢ — ١٩٦١ / ٩ / ١٩ .

وربطت بين الكفاح الوطنى فى جنوب افريقيا والكفاح العربى فى فلسطين .

فقد ظلت جنوب افريقيا تستند الى الفقرة السابعة من المادة الثانية من الفصل الاول من ميثاق الأمم المتحدة ، والتي تنص على انه ليس فى الميثاق ما يسوغ للامم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما ، وليس فيه ما يقتضى الأعضاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تخل بحكم الميثاق ، على أن هذا المبدأ لا يخل بتطبيق تدابير القمع الواردة فى الفصل السابع « ويختص الفصل السابع بما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان . ولابد قبل اتخاذ أية اجراءات من موافقة مجلس الأمن على أن الحالة المعروضة أمامه « تهديد للسلم » طبقا لنص المادة (٣٩) من الميثاق .

وبهذا يمكن تطبيق المواد ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من الميثاق والتي تنص على اتخاذ التدابير السلمية أولا ثم اللجوء الى وسائل المقاطعة المختلفة واذا عجز المجلس عن طريق هاتين الوسيلتين لجأ الى استخدام القوة المسلحة التى تلزم لحفظ الأمن والسلم .

وقد ظل نشاط الأمم المتحدة حتى عام ١٩٦٣ قاصرا على « توصيات » صادرة من الجمعية العامة تقدم الى مجلس الأمن . وكان هذا نتيجة لتأثير الفعال للدول الغربية الضالعة مع جنوب افريقيا ولها معها روابط اقتصادية متشابكة . الى أن تغلب رأى العام العالمى عن طريق الدول الافريقية والاسيوية التى التحقت بالأمم المتحدة وأصبحت تمثل قوة عددية لا يستهان بها فى داخل الجمعية العامة وعلى هذا طلبت الجمعية العامة فى عام ١٩٦٢ من الدول الأعضاء تطبيق واتخاذ اجراءات سياسية واقتصادية ضد جنوب افريقيا (٢٥) وتكونت لجنة خاصة من أحد عشر عضوا سميت « اللجنة الخاصة بسياسات الابارتهايد » لمتابعة الأسلحة والمعدات الحربية بكل أنواعها ووسائل النقل الحربى الى جنوب افريقيا بما فى ذلك المعدات والمواد اللازمة لصناعة وصيانة الأسلحة والمعدات هناك (٢٦) .

(٣٥) تقرير السكرتارية العامة للامم المتحدة (حلقة برازيليا ١٩٦٦) .

(٣٦) قرار مجلس الامن رقم ١٨/ج/١٩٦٣ .

وقد أصدر مجلس الجامعة العربية على هذا الأساس قراره فى سبتمبر عام ١٩٦٤ دعا فيه جميع الدول وبصفة خاصة التى مازالت لها علاقات دبلوماسية وقنصلية واقتصادية مع حكومة جنوب افريقيا ان تقطع هذه العلاقات وأن توقف أى صورة أخرى من صور تشجيع سياسة النفرة العنصرية . كما أكد المجلس المسئولية الكبيرة للسلطات الاستعمارية التى تدير مناطق مجاورة لجنوبى افريقيا فى استمرار انتهاج سياسة التفرقة العنصرية . وأدان المجلس التمييز العنصرى فى جميع صورته فى افريقيا وفى جميع أنحاء العالم . كما طالب المجلس باطلاق سراح « نلسون مانديلا » وسائر القوميين المعتقلين او المسجونين بموجب القوانين التحكيمية فى جنوب افريقيا . كما ناشد المجلس جميع البلاد المنتجة للبترول أن توقف كاجراء عاجل تمويلها بالزيت والمنتجات البترولية الى جنوب افريقيا .

ودعى جميع الدول الافريقية ان تطبق على الفور القرار الذى صدر فى اديس أبابا فى مايو ١٩٦٣ بمقاطعة بضائع جنوبى افريقيا ووقف تمويلها بالمعادن والمواد الخام الأخرى ووقف استيراد البضائع منها .

وقد امتثلت الدول العربية ومعظم الدول الافريقية ما عدا ملاوى — لهذا القرار وقطعت علاقاتها الدبلوماسية ومعظم العلاقات الاقتصادية وأصبحت الدول التى لها تمثيل دبلوماسى مع جنوب افريقيا قلة من دول العالم (٣٧) لديها من المصالح المادية ما يجعلها تخاطر بالتعاون مع نظام الحكم العنصرى فى بريتوريا .

وكنتيجة لضغط الدول العربية والافريقية وباقى دول العالم الثالث اضطرت جنوب افريقيا الى الانسحاب من منظمة الأغذية والزراعة الدولية فى عام ١٩٦٣ ومن منظمة العمل الدولية ومنظمة الصحة العالمية فى عام ١٩٦٤ ومن اليونسكو فى عام ١٩٦٥ ، كما تم طرد جنوب افريقيا من عدة

(٣٧) الولايات المتحدة — كندا — الارجننتين — البرازيل — بريطانيا — فرنسا — بلجيكا — هولندا — المانيا الغربية — ايطاليا — اليونان — اسبانيا — سويسرا — فنلندا — السويد — النمسا . كما احتفظت ملاوى بعلاقتها الدبلوماسية مع جنوب افريقيا وكذلك اسرائيل التى رفعت درجة تمثيلها الى درجة سفير فى مارس ١٩٧٤ .

مؤتمرات لاتحاد البريد العالمى واتحاد المواصلات السلكية واللاسلكية ومنظمة الطيران المدنى .

وفى مارس عام ١٩٦٧ اصدر مجلس الجامعة قرارا ضمنه ذكر قرارات وبيانات مؤتمرى القمة الثانى الذى انعقد فى الاسكندرية فى ٥ سبتمبر ١٩٦٤ والمؤتمر الثالث الذى عقد فى الدار البيضاء فى ٩ سبتمبر ١٩٦٥ والذى استنكر التفرقة العنصرية بكافة صورها وايد الكفاح ضدها . وأشار قرار المجلس الى أن الكفاح الوطنى فى جنوب افريقيا ضد التمييز العنصرى وسيطرة الاقلية الاوروبية على الشعب مطابق فى دواعيه واهدافه للكفاح العربى ضد الاحتلال الصهيونى لفلسطين والتمييز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل واتخذت منه قاعدة لاعمالها العدوانية . كما اعتبر المجلس أن شجب التفرقة العنصرية بكافة اشكالها والوانها مبدا أساسى من المبادئ العربية خاصة والانسانية عامة .

وقرر المجلس مناشدة جميع الدول وخاصة تلك التى تربطها علاقات تقليدية مع حكومة جنوب افريقيا أن تنفذ بدقة قرارات الامم المتحدة الخاصة بالتفرقة العنصرية وأن تقوم بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية وان توقف أى صورة تشجيع سياسة التفرقة العنصرية وأكدت أن الدول العربية أعضاء الجامعة المنتجة للبترول تنفذ مقاطعة جنوب افريقيا وعدم تمويلها بالبترول وتناشد سائر بلدان العالم المنتجة للبترول وقف تمويل الحكومة العنصرية بمنتجات البترول .

وحث المجلس الدول العربية الأعضاء فى الجامعة لبذل كل مساعدة سياسية وادبية لكافة الجهات التى تحارب التفرقة العنصرية وان تشارك الدول العربية فى مختلف البرامج الانسانية التى خصصت من أجل مساعدة ضحايا التفرقة العنصرية . وقد التزمت الدول العربية كلها بهذه التوصيات (٣٨) .

كما قرر مجلس الجامعة العربية فى نفس الجلسة (٣٩) بانضمام الدول العربية الأعضاء الى الاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصرى بجميع

(٣٨) ق ٢٣٠٣ د ٤٧/ج ٣ — ١٨/٣/١٩٦٧ .

(٣٩) ق ٢٣١٦ د ٤٧/ج ٣ — ١٨/٣/١٩٦٧ .

أشكاله التى وافقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٦٥ (٤٠) بشرط اثبات التحفظ الآتى :

(١) تحفظ خاص بإسرائيل وبمقتضاه أن قبول الدول العربية لهذه الاتفاقية وإبرام حكوماتها لها لا يحوى بأية حال معنى الاعتراف بإسرائيل ولا يؤدى الى دخول الدول العربية معها فى معاملات مما تنظمه هذه الاتفاقية .

(ب) عدم قبول ما تضمنته المادة (٢٢) من هذه الاتفاقية من تقرير الولاية الإلزامية لمحكمة العدل الدولية (٤١) .

وقد عاد المجلس وأكد هذه المبادئ فى جلسته المنعقدة فى مارس ١٩٦٨ بمناسبة الاحتفال باليوم الدولى للقضاء على التفرقة العنصرية والمحدد له يوم ١٢ مارس من كل عام وهو اليوم الذى يوافق مذبحة شاريفيل فى عام ١٩٦٠ (٤٢) .

وقد أكدت قرارات مؤتمر القمة العربى السادس الذى عقد فى الجزائر من ٢٦ الى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٧٣ ضرورة قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع جنوب افريقيا وروديسيا وتطبيق الحظر التام لتصدير البترول العربى .

وفى عام ١٩٧٥ أعلن مجلس الجامعة العربية فى دورة انعقاده العادية الثالثة والستين عن أن المجلس قد بحث الموقف فى جنوب القارة الافريقية وأنه يؤكد من جديد تضامن الدول العربية مع الدول الافريقية الشقيقة من أجل تحرير كل شبر من افريقيا من الاستعمار الاسيطنائى والتفرقة العنصرية . وأعلن المجلس عن أن اعلان دار السلام بشأن جنوب القارة الافريقية يعبر بصدق عن موقف الدول العربية ويعتبر وثيقة تاريخية على درب النضال من أجل التحرير فضلا على تأكيده للعالم أجمع لمخاطر وجرائم الاستعمار الاسيطنائى العنصرى ضد الشعوب التى اغتصبت حريتها وأراضيها . وعلى

(٤٠) قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٢١٠٦ فى ٢١/١٢/١٩٦٥ .

(٤١) تحفظ وفد المملكة العربية السعودية .

(٤٢) ق ٢٣٨٢ د / ٤٩ ج ٤ — ١٩٦٨ / ٣ / ٧ .

(م ٢٥ — العرب فى افريقيا)

هذا قرر المجلس الموافقة على كل ما يتضمنه هذا الاعلان واعتبره وثيقة من وثائق الجامعة العربية(٤٢) .

وكانت هذه بلا شك خطوة واسعة من خطوات تأكيد التعاون العربي، الافريقي فى محاربة التفرقة العنصرية بأشكالها المختلفة . وقد عضدت الدول العربية الدول الافريقية فى محاولاتها لاستصدار قرار بوقف عضوية حكومة جنوب افريقيا العنصرية فى المنظمة العالمية للارصاد الجوية وتأييد دعوة اقليم ناميبيا لحضور اجتماعات هذه الدورة كمراتب(٤٤) .

وتأكد هذا الاتجاه فى قرارات مجلس الجامعة العربية فى مارس ١٩٧٦ . فقد قرر المجلس الموافقة على توصية اللجنة السياسية وائتى نصت على ادانة الانظمة العنصرية فى جميع أشكالها وصورها فى أفريقيا وفلسطين وجميع أنحاء العالم . وتؤكد تأييدها لكفاح شعوب زمبابوى وازانيا وناميبيا المطابق فى دواعيه وأهدافه لكفاح الشعوب العربية ضد الاحتلال الصهيونى فى فلسطين والتمييز العنصرى الذى قامت عليه اسرائيل . وتعتبر القضايا الوطنية لهذه الشعوب قضايا افريقية عربية .

واكد المجلس التزام الدول العربية بمقاطعة الانظمة العنصرية ومساعدة حركات التحرير الافريقية فى جنوب القارة لتحقيق آمال شعوبها فى الحرية والاستقلال . وأشاد المجلس أيضا بدور الدول المجاورة لزمبابوى وازانيا وناميبيا فى الكفاح ضد الانظمة العنصرية فى جنوب القارة الافريقية واحكام طوق العزلة حولها مما يتفق مع قرارات جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية والامم المتحدة ويدين المجلس بشدة عدوان انظمة الاقليات العنصرية على الدول الافريقية المستقلة بجنوب القارة تحت ستار ما يطلق عليه باطلا حق التتبع .

ويناشد جميع الدول والشعوب المحبة للسلام أن تتقف الى جانب كفاح القارة الافريقية ضد قوى الاستعمار والعنصرية . ويدين المجلس النظام العنصرى فى جنوب افريقيا لعدوانه على جمهورية انجولا الشعبية ولاحتلال

(٤٤) ق ٣٢٣٢ د ٦٣ ج ٤ — ١٩٧٥/٤/٢٦ .

(٤٣) ق ٣٢٣٩ د ٦٣ ج ٤ — ١٩٧٥/٤/٢٦ .

جزءاً من 'راضيها الوطنية ويطالب بالانسحاب الفوري غير المشروط العدوان العنصرى(٤٥) .

وبهذا لم تدخر الجامعة العربية وسعاً فى سبيل محاربة العنصرية سواء فى الجنوب الافريقى أو فى فلسطين وبذلت كل الجهود سواء مادية أو سياسية أو اقتصادية فى هذا السبيل .

وقد استمرت الجامعة العربية فى مجهوداتها ومشاركتها فى مواجهة التفرقة العنصرية فى الجنوب الافريقى وان كانت أحداث السبعينات قد أثرت الى حد ما فى تلك المشاركة فبعد عقد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ونقل الجامعة العربية الى تونس وبسبب الخلافات التى سادت الساحة العربية نجد ان الجامعة العربية قد واجهت مرحلة ركود نسبى حتى أوائل الثمانينات ، حيث بدأت الجامعة العربية مرة أخرى فى ممارسة نشاطها ولعل القضية الوحيدة التى اجمعت الأقطار العربية منذ وقت طويل على تأييدها بالإضافة الى قضية تصفية الاستعمار هى قضية التمييز العنصرى فى جنوب افريقيا . ولكن وبعد أن بدأت مفاوضات كامب ديفيد بين مصر واسرائيل اهتزت الصورة ، فنجد أن زائر قد أعادت علاقتها مع اسرائيل وبررت موقفها بأن اسرائيل قد وافقت على التفاوض من أجل السلام وتبادلت التمثيل الدبلوماسى مع أكبر دولة عربية فى افريقيا « مصر » وقد أبدت كثير من الدول الافريقية موقف زائر وقد أعلن راديو « لاجوس » فى ٩ يناير عام ١٩٧٨ على إعادة زائر لعلاقتها الدبلوماسية مع اسرائيل « بأنه وقد عقدت دولة المواجهة الرئيسية معاهدة صلح مع اسرائيل وأقامت معها علاقات دبلوماسية فلا يمنع الأفارقة من استئناف العلاقات مع اسرائيل سوى علاقة الأخيرة بجنوب افريقيا وخطر انقطاع المساعدات الاقتصادية العربية لافريقيا(٤٦) وقد كان رد فعل الدول العربية تجاه زائر رد فعل قوى حيث اتفقت معظم الاراء على ضرورة عزل نظام زائر وتوقيع العقوبات السياسية والاقتصادية عليها . وقد قطعت المملكة العربية السعودية علاقاتها مع

(٤٥) ق ٣٣٨٨ د / ٦٥ ج ٢ — ١٩٧٦ / ٣ / ٢١ .

(٤٦) د. محمد عمر بشر — المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية ، كتاب العرب و افريقيا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٥٧ .

زائر . وكذلك تشجب مجلس الأمة الكويتى قرار زائر باعادة العلاقات مع اسرائيل وكذلك هاجمت قرار زائر كلا من تونس والجزائر واليمن الديمقراطية ، وقطعت دولة الامارات العربية المتحدة علاقاتها مع زائر وقد بادرت الجامعة العربية واصدرت بياناً تعرب فيه عن دهشتها بقرار زائر الذى يتناقض مع مبادئ التعاون العربى الافريقى والتضامن ضد الانظمة العنصرية المعادية وارسلت مبعوث لها الى السكرتير الادارى لمنظمة الوحدة الافريقية وكذلك الى قادة عدد من الدول الافريقية مثل السنغال وساحل العاج وانجولا واثيوبيا وكينيا وتنزانيا وزامبيا وزمبابوى لشرح وجهة نظر الجامعة العربية (٤٧) كما قام الأمين العام للجامعة العربية بمقابلة الرئيس دانييل أراب لوى رئيس كينيا والرئيس جوليوس نيريرى رئيس تنزانيا فى مايو ١٩٨٢ للتشاور فى الأوضاع الخاصة باعادة زائر لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وقد أثرت فى تلك المقابلات فكرة أن عودة العلاقات مع اسرائيل انما هى طعن فى ظهر حركات التحرير فى ناميبيا وجنوب افريقيا والى الثورة الفلسطينية .

وبهذا نجد أن الجامعة العربية تأثرت الى حد كبير باقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر واسرائيل وأدى ذلك الى نوع من البلبلة فى داخل المجموعة العربية الافريقية وفى موقف الجامعة العربية نفسها . وان كانت الأوضاع قد استقرت بعد ذلك وبدأت الجامعة العربية مرة أخرى فى تركيز الاهتمام على الفصل العنصرى فى جنوب افريقيا .

فى أغسطس عام ١٩٨٤ قام الأمين العام للجامعة العربية بحضور الحلقة الدراسية التى عقدت فى لاجوس فى الفترة من ١٣ الى ١٦ أغسطس لدراسة المركز القانونى لنظام الفصل العنصرى والجوانب القانونية الأخرى للكفاح ضد الفصل العنصرى والذى صدر عنه اعلان التزمته به دول الجامعة العربية لمكافحة الفصل والتمييز العنصرى .

كما تم عقد مؤتمر التضامن العربى مع الكفاح من أجل التحرير فى جنوب افريقيا والذى نظمته الجامعة العربية بالتعاون مع لجنة الأمم المتحدة الخاصة لمناهضة الفصل العنصرى والذى انعقد فى تونس فى الفترة من

٧ الى ٩ أغسطس عام ١٩٨٤ . وقد كان هذا المؤتمر هاما فى تأكيد التضامن المتنامى بين افريقيا والعالم العربى فى الكفاح المشترك من أجل الحرية وكذلك قام بصياغة خطة العمل للمرحلة التالية (٤٨) .

ومع أن الجامعة العربية وهى المعبرة عن الارادة السياسية العربية الكلية اتخذت الكثير من المواقف والقرارات الخاصة بالتفرقة العنصرية فى افريقيا الا أن هذه القرارات والتوصيات قد شابهها البعد عن الواقع فى كثير من الأحيان وخاصة فيما يتعلق بالفترة الأخيرة .

خامسا — العرب ومؤتمرات عدم الانحياز والتفرقة العنصرية فى افريقيا :

كان اللقاء الأول للدول العربية والافريقية فى مؤتمر باندونج وقد حضر هذا المؤتمر من الدول العربية كل من المملكة العربية السعودية وسوريا والعراق والاردن ولبنان واليمن ومن الدول العربية الافريقية مصر والسودان ومن الدول الافريقية اثيوبيا وليبيريا وساحل الذهب « غانا » ولم تدع جنوب افريقيا لهذا الاجتماع وكذلك لم تدع إسرائيل وبالرغم من أن مؤتمر باندونج لم يشر اشارة صريحة الى سياسة عدم الانحياز الا أن هذا المؤتمر كان منطلقا اندفعت منه سياسة عدم الانحياز التى اتبعتها فيما بعد معظم الدول العربية . وقد عقد مؤتمر تحضرى لدول عدم الانحياز فى القاهرة فى يونيو عام ١٩٦١ حضره ممثلو احدى وعشرون دولة منها ١٧ دولة افرواسيوية . وقد وضع هذا الاجتماع أساس حرية اختيار الدول فى الحكم على القضايا الدولية . وقد عقد مؤتمر القمة الأول لعدم الانحياز فى يوغوسلافيا فى سبتمبر ١٩٦١ وحضره ممثلو ٢٥ دولة ومؤتمر القمة الثانى فى القاهرة فى اكتوبر ١٩٦٤ وحضره ممثلو ٤٩ دولة ومؤتمر القمة الثالث فى زامبيا (لوساكا) فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ وحضره ممثلو ٥٤ دولة ، ومؤتمر القمة الرابع فى الجزائر فى سبتمبر ١٩٧٣ وحضره ممثلو ٧٦ دولة ومؤتمر القمة الخامس فى سبتمبر ١٩٧٦ فى كولومبو (كورومبو) فى أغسطس ١٩٧٦ وقد عقدت عدة مؤتمرات فى الثمانينات كان أهمها مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد فى هرارى فى يناير ١٩٨٦ والذى اتخذت فيه عدة قرارات هامة لمواجهة التفرقة العنصرية فى افريقيا ومنها انشاء صندوق افريقيا .

وفى كل هذه المؤتمرات كان ممثلو حركات التحرير فى افريقيا يمثلون كمرقبين ، وقد ناقشت مؤتمرات عدم الانحياز قضية التفرقة العنصرية فى افريقيا واتخذت عدة قرارات بهذا الشأن ومن بينها القرار الصادر من مؤتمر القمة الرابع الذى عقد فى الجزائر فى لفترة من ٥ — ٩ سبتمبر ١٩٧٣ وقد حضر هذا المؤتمر (٢١) دولة عربية و(٣٣) دولة افريقية كما حضره الأمم- بين العام للجامعة العربية والسكرتر الادارى لمنظمة الوحدة الافريقية . كما أن مؤتمر دول عدم الانحياز الذى عقد فى « داكار » على مستوى الوزراء فى فبراير ١٩٧٥ صدر عنه اعلان « داكار » الذى تضمن بعض القرارات الاقتصادية الهامة وكذلك قرارات تتعلق بتصفية الاستعمار الاقتصادى وتأييد التضامن مع حركات التحرير الافريقية والفلسطينية وادانة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا(٤٩) . وكذلك فى المؤتمر الذى عقد فى سيريلانكا فى عام ١٩٧٩ .

وقد أنشأ صندوق أطلق عليه صندوق افريقيا وتمثل أهداف الصندوق فى الآتى :

(أ) دعم القدرة الاقتصادية والمالية لدول خط المواجهة بما يمكنها من محاربة نظام الفصل العنصرى فى بريتوريا وتأييد حركات التحرير فى جنوب افريقيا (ناميبيا) فى كفاحها الذى لا يكل ضد الاضطهاد العنصرى والاستعمارى .

(ب) مساعدة دول خط المواجهة فى فرض عقوبات ضد جنوب افريقيا وفى تحمل أى اجراءات اقتصادية انتقامية تتعرض لها من قبل النظام العنصرى .

ولتحقيق هذه الأهداف سوف تتخذ التدابير التالية :

(أ) التخفيف من ازمات نقص السلع الأساسية التى تترتب على تنفيذ العقوبات ضد جنوب افريقيا بما فى ذلك انشاء احتياطى استراتيجى للاغاثة .

(٤٩) تقرير وفد جمهورية مصر العربية الذى حضر مؤتمر داكار بالسفغال فى ٨ فبراير ١٩٧٥ .

(ب) دعم شبكات النقل والمواصلات التي تتعرض للاضرار بسبب الكفاح ضد العنصرية .

(ج) المواجهة الفعالة للآثار السلبية على التجارة التي تنجم عن الاجراءات المتخذة ضد نظام جنوب افريقيا .

(د) حشد الرأى العام الدولى وتعبئة الموارد المالية من اجل تحقيق أهداف الصندوق .

وقد اجتمعت لجنة الصندوق المكونة من رؤساء دول وحكومات الهند وزامبيا وزمبابوى ونيجيريا والجزائر والكونغو ويوغوسلافيا وبيرو والارجنتين فى نيودلهى فى يناير ١٩٨٧ لبدا أعمال الصندوق الافريقى المنبثق من حركة عدم الانحياز(٥٠) .

سادسا — المواقف الفردية للدول العربية من الثغرة العنصرية فى افريقيا :

لقد تباينت مواقف الدول العربية والدول الافريقية بالنسبة لعدد من القضايا الأمر الذى يدعو بنا الى القول بأنه ليس هناك موقف موحد للدول العربية تجاه القضايا الافريقية والعكس صحيح . ولكن اعل القضية الوحيدة التى اجتمعت الاقطار العربية منذ وقت طويل على تأييدها بالاضافة الى تصفية الاستعمار هى قضية التمييز العنصرى فى جنوب افريقيا وفى الواقع انه بالرغم من هذا الاجماع فان جنوب افريقيا قد تمكنت من تحدى هذه القرارات الى الحد الذى دعت بعض الكتاب الى القول بأن جنوب افريقيا استطاعت أن تحصل على النفط العربى بطريقة أو بأخرى(٥١) وأن كان هذا القول مشكوك فيه فمنذ أن اتخذ مؤتمر القمة العربى فى الجزائر عام ١٩٧٣ القرار بقطع النفط عن جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا التزمت الاقطار العربية المصدرة للنفط بنص القرار علما بأن ايران حتى سقوط الشاه كانت تمد جنوب افريقيا بتسعين فى المائة من حاجاتها الى النفط . وفى الواقع أن العلاقات الفردية تعطى مساحة أكبر فى مجال العلاقات الدولية

(٥٠) الوثائق الختامية — صندوق افريقيا ، نيودلهى يناير ١٩٨٧ .

(٥١) محمد عمر بشير : المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية

من كتاب العرب و افريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٤٠ .

وسيطل التعاون الثنائى يؤدى دورا مهما فى التعاون العربى الافريقى يمتص التأثيرات السياسية التى تنعكس على العمل العربى المشترك .

وسوف اذكر هنا بعض المواقف الفردية للدول العربية من التفرقة .

مصر :

لقد تميز موقف مصر من قضية جنوب افريقيا بتأييد المنظمات الوطنية فى جنوب افريقيا ومساعدتها ومعارضتها الحلول التى طرحتها الولايات المتحدة وخاصة تلك التى تدعو الى التسوية عن طريق التفاوض . وقد ساد شعور بالتشائم حول الموقف المصرى من جنوب افريقيا بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل ، خاصة وان اسرائيل حليف لجنوب افريقيا ، وان كانت مصر قد استمرت فى توقعها من جنوب افريقيا وظلت بمساعدتها قائمة لحركات التحرير فى جنوب افريقيا .

المملكة العربية السعودية :

اما المملكة العربية السعودية فقد اشتركت فى سلسلة طويلة من التصويت ضد التفرقة العنصرية والتمييز العنصرى . دور السعودية يبدو واضحا من مضابط جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الأمن . ويتلخص هذا فى أن الموقف السعودى كان منسجما مع مواقف معظم الدول النامية وهو موقف التأييد للشعوب التى تعانى من التفرقة العنصرية ومع أنه لا يمكن القول بأن المملكة العربية السعودية قد تزعمت الحملة ضد التفرقة العنصرية الا أن الموقف السعودى كان موقف التأييد المستمر للحملة . وقد حوت المملكة العربية السعودية الى جانب معظم مشروعات انقراوات المتعلقة بحقوق الانسان فيما عدا ما كان منها مختصا بعقوبة الاعدام أو بحرية تفير الدين (٥٢) ومعارضة المملكة لهذين الجانبين من حقوق الانسان ما هى النتيجة للتقاليد الاسلامية التى تحكم وجهات نظر المملكة العربية السعودية . ولذلك فقد جاء تفسير المملكة العربية السعودية لحقوق الانسان مختلفا عن التفسير الغربى او الشيوعى ، وقد امتنعت المملكة عن التوقيع على

(٥٢) د. عبد الله القباى : المملكة العربية السعودية والمنظمات الدولية ، السعودية مشتركة ، مكتبات عكاظ ، ١٩٨١ ، ص ٩٥ .

الميثاق العالمى لحقوق الانسان على اساس أن المادة (١٨) من الميثاق تنص على حرية تغيير الدين والمعتقدات ، وقد صدقت المملكة العربية السعودية على ميثاق الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى عام ١٩٦٦ بعد تعديل المادة المتعلقة بالدين .

أما بالنسبة لحركات التحرر فى أفريقيا الجنوبية فقد ساهمت السعودية فى قرارات المؤتمرات المختلفة التى عالجت هذه القضية ولكنها انتهجت سياسة حذره فى مساعدة حركات التحرر حيث امتنعت عن مساعدة الحركات التى تميل الى الاتحاد السوفيتى ، وقد اعترض مندوب المملكة العربية السعودية صراحة فى مؤتمر القمة الافريقى الأول الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٧٧ على منح مساعدات للدول الافريقية التى تتبنى العقيدة الماركسية حتى لا تكون جسرا يصل عبره اليساريون الى قمة السلطة فى أفريقيا (٥٢) .

العراق :

فى عام ١٩٤٩ وعند نظر موضوع التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا فى الجمعية العامة أشار مندوب العراق النقطة التالية « اذا قامت أزمة بعملية ابادة جماعية فماذا يكون موقفنا فى الأمم المتحدة ؟ هل نقف مكتوفى الأيدى ؟ » (٥٤) أى ان العراق قد ساهمت منذ البداية فى مواجهة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا . وقد تبنت العراق خط الكفاح المسلح باعتباره الطريقة الوحيدة القادرة على تحقيق الاستقلال والتحرر لشعوب الجنوب الافريقى كما ان العراق يضع قضية النضال الوطنى فى الجزء الجنوبى من القارة ضمن اطار النضال العالمى ضد الامبريالية . كما ركز العراق على التشابه بين الدولتين العنصريتين اسرائيل وجنوب أفريقيا .

وقد تأثر موقف العراق من التفرقة العنصرية فى الجنوب الافريقى تأثرا مباشرا بالحرب العراقية الايرانية حيث انكمش حجم المساعدات والمعونات العراقية لحركات التحرر فى الجنوب الافريقى .

(٥٣) العرب وأفريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٥ .

(٥٤) محاضر جلسات الدورة الثالثة للجمعية العامة — الجزء الثانى ١٩٤٩ ، ص ٤٥٤ .

الكويت :

هناك اهتمام واضح من قبل الكويت تجاه قضية التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا ويبدو هذا واضحا فى السلوك التصويتى للكويت فى الأمم المتحدة وكذلك مواقفها فى مؤتمرات القمة الاسلامية وغيرها من المنظمات التى تناقش التفرقة العنصرية و الكويت تتخذ موقفا مؤيدا لنقل السلطة السياسية الى الافارقة بالوسائل السلمية املا فى التوصل الى تشكيل حكومة افريقية معتدلة . فالكويت بذلك تعارض التفرقة العنصرية فى افريقيا وتبنى الحلول السلمية لهذه القضية الشائكة .

الجزائر :

ينص دستور الجزائر فى المادة الثانية على أن الجزائر جزء لا ينفصا من المغرب العربى و العالم الافريقى وافريقيا . وقد التزمت الجزائر منذ استقلالها بالتصدى للتفرقة العنصرية فى افريقيا . وللجزائر صلة ونيقة بحركات التحرر فى الجنوب الافريقى ، خاصة تلك التى واجهت الاستعمار البرتغالى والاستعمار الاستيطانى فى جنوب افريقيا . وقد أنشأت الجزائر مكاتب لمعظم حركات التحرر وأصبحت الثالثة بعد مصر مباشرة . وقد كان لمثل الجزائر دور هام فى معظم المؤتمرات الدولية العالمية والاقليمية مما جعل الجزائر قبله الحركات التحررية ضد التفرقة العنصرية وقد كانت الجزائر وراء الكثير من القرارات التى اتخذت لمحاربة ومواجهة الفصل والتمييز العنصرين .

السودان :

لان السودان يعانى من مشاكل اقتصادية وسياسية وبخاصة مشكلة جنوب السودان ، فقد كان دور السودان اقل مما كان متوقعا له . وقد اقتصر دور السودان فيها يتعلق بالتفرقة العنصرية فى افريقيا على الموافقة على كافة القرارات التى تدين التفرقة العنصرية سواء فى المنظمات العالمية أو الاقليمية وفى المؤتمرات الدولية المختلفة . كما أن موقف السودان كان موقفا محايدا من الحلول التى اقترحت للتسوية السلمية للاوضاع السائدة فى الجنوب الافريقى .

وهكذا نرى أن المواقف الفردية للدول العربية تفاوتت بين نولة وأخرى . وقبل الانتهاء من هذه الدراسة يجب أن أشير الى أن العروبة والاسلام مرتبطان ومتلازمان وقد بدأ ذلك واضحا فى المؤتمرات الاسلامية التى نشرك الدول العربية فى عضويتها والتى اتخذت الكثير من القرارات الهامة فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية فى افريقيا ففى مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى السادس والذى عقد فى جدة فى الفترة من ١٢ — ١٥ يوليو ١٩٧٥ اتخذ قرار بادانة التفرقة العنصرية وبضرورة مساعدة الدول التى تعاني من الاستعمار الاستيطانى فى الجنوب الافريقى (٥٥) وقد تناولت مؤتمرات القمة الاسلامية موضوع التفرقة العنصرية من جميع زواياه ، وفى فبراير عام ١٩٨٦ وفى مؤتمر القمة الاسلامى الذى عقد فى الكويت تقرر انشاء صندوق لدعم دول المواجهة فى الجنوب الافريقى وكان ذلك دليلا واضحا على مدى اهتمام الدول الاسلامية والعربية بالذات بقضايا التفرقة العنصرية فى افريقيا .

الخاتمة :

مما لا شك فيه ان العرب فى افريقيا يمثلون اتجاها حضاريا وثقافيا مميزا وهذا الاتجاه المتميز يندمج ويتكامل مع الحضارة والثقافة الافريقية الخالصة بحيث يصبح من الصعب الفصل بينهما او تخيل القارة الافريقية بدون العرب .

وقد مثلت التفرقة العنصرية فى افريقيا مشكلة شديدة التعقيد تواجه الضمير الانسانى والرأى العام العالمى وتهدد السلام والأمن العالميين . وقد كان للعرب مواقف مميزة تجاه هذه القضية ، وقد ظهرت هذه المواقف من خلال التنظيمات العالمية وعلى رأسها الأمم المتحدة بأجهزتها المختلفة ومنذ انشائها فى عام ١٩٤٥ ، أو من خلال المنظمات الاقليمية كالجامعة العربية التى تضم الدول العربية والتى ينظر اليها على أنها الارادة السييسية الجماعية للدول العربية . كذلك شارك العرب فى كثير من المنظمات والمؤتمرات الأخرى التى تناولت قضية التفرقة العنصرية مثل مؤتمرات عدم

(٥٥) راجع قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الاسواى السادس ،
يولية ١٩٧٥ .

الانحياز والمؤتمرات الإسلامية ومؤتمرات التضامن الأفرو - اسيوى . وفى كل هذه التنظيمات لعبت الدول العربية دورا مميزا بالنسبة لتفاعلها مع القارة الأفريقية ووجود دول عربية افريقية .

وقد كانت هناك الى جانب العلاقات الجماعية علاقات أخرى ثنائية ومواقف فردية فيما يتعلق بقضايا التمييز العنصرى فى القارة الأفريقية وعلى وجه الخصوص فى الجنوب الأفريقى وقد تميزت تلك المواقف الفردية بالاجماع فى معظم الأحوال وبالتباين والاختلاف أيضا ومما يذكر أن لبنان مثلا لم يقطع علاقاته القنصلية مع جنوب افريقيا حتى عام ١٩٧٣ ، كما أن العلاقات التجارية لبعض الدول الأعضاء والجامعة العربية مع جنوب افريقيا لم تكن معقودة حتى عام ١٩٧٣ وكثيرا ما كانت بضائع جنوب افريقيا تتداول بطريقة غير رسمية فى بعض الأسواق العربية (عمر بشر - العرب فى افريقيا ص ٢٥٢) .

وفى الواقع ان مواقف الدول العربية وخاصة الدول النفطية تحتاج الى تدعيم أكثر لحركات التحرر فى الجنوب الأفريقى بصرف النظر عن هويتها الايديولوجية اذ أنها حركات تحريرية من نوع خاص فى مواجهة استعمار من نوع خاص .

الدول العربية فى منظمة الوحدة الافريقية

د. عبد الرحمن اسماعيل الصالحى

مقدمة :

ليس هناك شك أن وجود تسع دول عربية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية بحكم افريقيتهم تمثل منذ الوهلة الأولى أمالا كبيرة تنعقد على مدى اسهام هذه الدول فى تدعيم التعاون العربى الافريقى بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية بحيث تصبح ديناميكية هذا التعاون واضحة المعالم وعميقة فى تأثيرها ، الأمر الذى قد يحد من تداخل دول أخرى ذات اتجاهات عنصرية واستعمارية تعمل ضمن استراتيجية مخططة لخلخلة هذا التعاون ولتحل محل الوجود العربى فى افريقيا بل لا نكون مغالين القول بتقويض هذا الوجود وهى بهذا تحقق أهدافنا مزدوجة .

وهذه الدول العربية هى مصر والسودان والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والصومال وموريتانيا وجيبوتى .

ويمكن لهذه الدول أن تلعب دورا هاما ومتميزا داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية ، وأن تنعكس الآثار الايجابية لهذا الدور على مجالات التعاون العربى الافريقى بكل أبعادها ومحدداتها خاصة وأن هذه الدول تمثل أكثر من ٧٢ بالمائة من مساحة الدول العربية كلها وأكثر من ثلثى عدد السكان العرب (١) ولقد أسهمت بالفعل هذه الدول منذ انشاء المنظمة الافريقية فى عديد من القضايا والمشكلات الافريقية والعربية المشتركة وتباينت الادوار وتأرجحت النتائج بين الفشل والنجاح .

(1) Ismael Tarq Y. The U. A. L in Africa Northwestern University press Evanston, 1971, p. 107.

وان كانت العلاقات بين الدول العربية سواء الافريقية منها او الاسيوية وبين افريقيا علاقات راسخة ولها مقدماتها ودعاماتها الا أن لكل منها أوضاع متميزة (٢) ، ولعل هذه التباينات تمثل المصالح الوطنية لكل طرف ، فلكل تطلعاته وعلاقاته الدولية التي قد لا تتفق مع باقى الأطراف .

ومن هنا كانت أهمية التركيز على تلافى الآثار السلبية التي يمكن أن تمنى بها مسيرة التعاون ولتحديد ما يجب عمله ولايجاد النوازن بين الكلمة والفعل .

عروبة ام افريقية الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية

ان الروابط العربية الافريقية روابط حضارية منذ مئات السنين ، وكان محورها الأساسى الانسان العربى والافريقى ومن ثم فان مجال التعاون بينهما يستهدف التصدى لتحديات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية ، وحو تعاون له ارضيته التي يستطيع أن يحدد معالمه فوقها .

وهناك مجموعة من العوامل والأسس التي تؤكد قيام علاقات تعاون عربى أفريقى لعل من أبرزها العوامل التاريخية والثقافية والجغرافية ومشاعر مجابهة المخاطر المحدقة بكلا الطرفين نتيجة التكالب الاستعماري بصورة المستحدثة لتطويق الطرفين ومحاصرتها داخل دائرة صراع الحرب الباردة ، ولا غرابة فى وجود دول تجمع بين العروبة والافريقية فان التلاصق الجغرافى والتلاحم بين القارتين الافريقية والاسيوية أمر فرضته الطبيعة ، فلا يكاد يفصل بين هاتين القارتين فاصل طبيعى سوى الشقة المائية التي يمثلها البحر الأحمر وان كان فى بعض المواقع لا يكاد أن يمثل فاصلا بينهما حيث يضيق البحر عند بوغاز باب المندب (٣) .

(٢) د. محمد عمر بشير : « دور المجموعة العربية فى منظمة الوحدة الافريقية » ، فى : العرب وافريقيا : بحوث ومنشآت الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربى ، (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) ، ص ٢٤٤-٢٤٦ .
(٣) د. يحيى رجب : « الخلفية السياسية المعاصرة للعلاقات العربية الافريقية » من : د. محمود خيرى عيسى (اشراف) العلاقات العربية الافريقية (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٧٨) ، ص ٢٨١ .

ولم تقف الص. حراء الكبرى حائلا لاتصال العرب بافريقيا ، فلقد أمكن للعرب الوصول الى قلب القارة ومختلف اجزائها(٤) ، ولقد بات اختلاط شعوب القارة بين امرأ طبيعيا حتى تعذر التمييز بين العربي الذي يقطن افريقيا وبين الافريقي الاصل(٥) فلا شك أن العرب يعبرون عن همـزات الوصل بين افريقيا واسيا وبين أوروبا في نسق حضارى وثقافى وتاريخى امتد عبر فترات سحيقة ومر بمراحل عصبية في تاريخ العرب والافارقة(٦) .

والروابط العربية الافريقية ترتكز على مرتكزات معينة لعل من أبرزها مجموعة السمات المتميزة والمشاركة التى تعكس الدافع على التعاون ودواغيه التى تكون أبرز ما تكون ممثلة فى التصدى للقوى الاستعمارية بشئى صورها وفى نفس الوقت فى محاولة لايجاد مناخ صالح للتفاهم بين العرب والافارقة لمجابهة مظاهر التخلف(٧) وكلا الطرفين يبذل جهدا فى هذه المضامير سواء على المستوى العربى أو على المستوى الافريقى ، وتتمتع الدول العربية الافريقية بعنوية المنظمين الاقليميتين ، ومن ثم فانها تلعب دورا المفروض فيه انه دور مضاعف أو مزدوج القوى خاصة وان دواغى التعاون ومرتكزاته تحتم اتباع مبادئ وسياسات عربية افريقية مشتركة ، ذلك أن القضايا المشتركة لها من الأهمية ما يبرر تقرير واقرار هذه المبادئ والسياسات

(٤) راجع فى اتصال العرب بافريقيا : د. محمد عبد الفنى سعودى ، قضايا افريقية (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٠) ص ٧٣ — ٩٠ .

(5) Du Bois, Burghardt, The world and Afric (New York, 1965), p. 180.

(٦) راجع د. عبد الملك عودة ، سنوات الحسم فى افريقيا (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩) ، ص ٢٦—٤٢ .

(٧) مصطفى المصودى : « البعد الاعلامى فى العلاقات العربية — الافريقية المعاصرة » ، فى : العرب وافريقيا مرجع سابق ، ص ٥٣٥—٥٣٨ . — وراجع فى سمات التخلف الاقتصادى الافريقى :

U. N., Agriculture Economic Bulletin for Africa (New York 1966).

U. N., A survey of Economic Conditions in Africa (New York 1967).

خاصة وانها مرتبطة ومعلقة بقضايا التنمية وقضايا الأمن المشتركة(٨) بالانسافة الى دوافع ثقافية وحضارية(٩) .

العروبة والافريقية التقاء أم تعارض :

لم يكتف المستعمرون بتقسيمهم لافريقيا التقسيم الجائر الذى لم يقسم على ادى ائسى ائنية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية من خلال تقسيمهم لهذا الاغتصاب فى اطار مؤتمر برلين الدولى (١٨٨٤ — ١٨٨٥) بل تحدثوا اعلاميا وفكريا وفى ادبياتهم وكتاباتهم السياسية والاقتصادية عن تقسيم آخر لافريقيا بواسطة الصحراء وعرفت الكتابات الحديثة بتسميات عدة ما بين افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء ، وافريقيا جنوب الصحراء وافريقيا شمال الصحراء وافريقيا السوداء (الزنجية) الناطقة بالفرنسية (الفرانكفون) والناطق بالانجليزية (الانجلوفون) وان أعطت هذه التسميات بدلا ومقصدا مخطئا له وهو ايجاد حالة من الفرقة بين العرب على وجه الخصوص والأفارقة بصفة عامة الا أنه للدقة العلمية تجدر الإشارة الى وجود فارق بين مفهوم افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء ومفهوم افريقيا العربية وافريقيا غير العربية ، فليس كل ما هو عربى أبيض فالسودان مثلا دولة عربية الا انها ليست بيضاء وفق المفهوم السائد .

وبكاد أن يتركز الفارق المتعمد والذى يوحى بوجود حالة من التناقض بجميع دول عربية وافريقية فى اطار واحد وهو منظمة الوحدة الافريقية يكاد أن يتركز ذلك فى افريقيا العربية ويرى دعاة الفرقة ان دول افريقيا العربية

(٨) راجع أمين هويدى : « العرب وافريقيا وقضايا الأمن المشترك » ، فى : العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٥٨٧—٥٨٨ .

— د. ابراهيم صقر : فى المناقشات التى دارت حول بحث أمين هويدى ، المرجع السابق مباشرة ، ص ٦٣٢ .

— د. ياسين العيوطى : « رؤية العالم الثالث للوناق الأمريكى السوفيتى » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٤٧ ، يناير ١٩٧٧ ، ص ٨ — ٢٩ .

(٩) راجع : المنجى الصيادى « مد الحضارة العربية فى الاقطار الافريقية » ، مجلة شؤون عربية (العدد ١٢ ، فبراير ١٩٨٢) ، ص ١٧٢ .

— د. طه حسن النور : « العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة » ، المرجع السابق مباشرة ، ص ١٥٠—١٦٢ .

تدين بولاءين احدهما للعروبة والثانى للافريقية مما يؤثر بل ويعيق طريق الوحدة الافريقية (١٠) ، ولقد عمل الاستعمار منذ وطأ أرض القارة على تلطس بعض نقاط الضعف واستثمارها لمحاولة تفتيت القارة تارة مستغلا الدين واخرى العرق أو الثقافة والى غير ذلك من أساليب الفرقة (١١) ولقد كان أبرز ما استغله الاستعمار هو التركيز على أن العرب مارسوا أنشطة فعالة فى تجارة الرقيق فى افريقيا والتي كانت قاصرة على السود دون البيض ، كما ان العرب يحاولون الزج بالدين الاسلامى لاستغلال افريقيا ولايجاد نوع من التضامن مع مسلمى افريقيا يخشى منه مستغلا فى ايجاد قوى اسلامية فى المنطقة . كما أوحى بعض القوى الاستعمارية للدول الافريقية غير العربية بأن العرب بدخولهم التنظيم الاقليمى سوف يثرون قضايا عربية داخل المنظمة ومن ثم ستعمل على عرقلة الوحدة الافريقية ولعلمهم قصدوا بذلك قضية فلسطين التى وصفوها بأنها ليست قضية افريقية وان العرب يضعونها على الساحة الافريقية (١٢) والحقيقة أن هذه الدعاوى بوجود تناقض بين الافريقية والعربية دعاوى استعمارية بالدرجة الاولى قصد منها بدرجة اكبر مصر تأسيسا على انها من أهم الدول العربية ومن أهم الدول الافريقية ففضلا عن ثقلها الحضارى فهى ترابط بين افريقيا واسيا ، ولقد عبر أحد الكتاب الغربيين المتخصصين فى الشؤون الافريقية « ج. ش. قروليج » عن التخوف من التواجد المصرى فى افريقيا غير العربية بقوله : « ان المساس التى تبذلها مصر من أجل توحيد الدول العربية تحت سيطرتها تنقل مركز الثقل الى افريقيا البيضاء ، فدعوة مصر الى الوحدة العربية من ناحية ، والمحاولات التى تبذلها الجزائر للقيام بدور هام فى الشؤون الافريقية من ناحية اخرى ، هذه العوامل تقلقل افريقيا السوداء .. ليس من الممكن

(١٠) راجع فى ذلك : د. بطرس بطرس غالى ، « العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية » ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤) ، ص ٨٢—٨٦ .

(١١) راجع د. محمد عبد الغنى سعودى ، « العروبة الافريقية مواجهة ام تضامن » ، فى د. محمود خيرى عيسى (اشراف) ، العلاقات العربية الافريقية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ ، ٢٧٨—٢٧٩ .

(١٢) راجع فى ذلك : د. عبد الملك عودة ، اسرائيل وافريقيا (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٤) .

(م ٢٦ — العرب فى افريقيا)

التوفيق بين الوحدة العربية والوحدة الإفريقية » . والواقع أن هذه الدعاوى مردود عليها :

١ — أن تجارة الرقيق في المنطقة العربية مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى وليست مشكلة عنصرية ولم تكن التجارة قاصرة على السود بل تعدتها إلى الجوارى والحسان من غير السود من جنسيات مختلفة ، كما أن سوق الرقيق لم يكن سوقا عربيا فحسب بل لقد كان السوق العربي أقل هذه الأسواق إذا ما قيس بأسواق الرقيق في أمريكا وبعض موانئ أوربا والتي كانت تنظمها الحكومات وتحميها (البرتغال ، إسبانيا ، إنجلترا ، هولندا) بعكس التجارة العربية التي كانت تمثل قطاعا خاصا لا علاقة له بالحكومات العربية (١٤) .

٢ — أن العروبة رباط حضارى لغوى ثقافى يجمع بين اللوان شتى وهى ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين أفرادها ، والإفريقية رباط جغرافى حضارى سياسى بغض النظر عن اللغة والدين والسلالة ، وأن كان العرب والأفارقة ارتبطا بقويهما بفكرة الحرية فضلا عن التشابه الكبير تاريخيا واقتصاديا (١٥) .

ولقد تنبأ من قبل استاذنا الدكتور بطرس بطرس غالى بأن هناك دولا إفريقية سوف تنطوى تحت لواء الوحدة العربية متى استكملت عناصرها الواضحة في التكلم باللغة العربية والاشتراك مع العرب في الهدف والتراث ومن هذه الدول الصومال وموريتانيا ومن ثم فإنه لا تناقض بين الإفريقية والعربية (١٦) .

٣ — أن المساعدات المصرية لمسلمي إفريقيا خاصة في مجال التعليم

-
- (١٣) في بحث له بعنوان « مؤتمر أديس أبابا ١٥ — ٢٨ مايو ١٩٦٣ » المنشور بمجلة الدفاع القومى الفرنسية ، يوليو ١٩٦٣ ، ص ١١٥١ — ١١٥٢ ، راجع : د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ — ٨٤ .
(١٤) محمد فايق ، عبد الناصر والثورة الإفريقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٢ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .
(١٥) د. محمد عبد الغنى سعودى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .
(١٦) د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

من خلال الازهر وغيره من الجامعات ومن خلال اذاعة القرآن الكريم واقامة المساجد لم تكن مساعدات بقصد احداث ضجيج او دعاية .

وبالرغم من هذا لم تسلم مصر من دعاوى التشكيك فى دور الازهر ورسالته فى افريقيا ولقد ادعى البعض أن مصر تستهدف اقامة امبراطورية اسلامية فى القارة تحكم من القاهرة فى حين أن مصر ابتعدت عن اقامة أى تكتلات من الدول الاسلامية فى افريقيا حتى لا تكون هناك اضافة لتقسيمات جديدة قائمة على أسس دينية (١٧) .

ومجمل القول : انه ليس ثمة تمارض بين الافريقية والعربية بل ان الاثنين مكملتان لبعضهما ومشتركتان فى عدد من السمات، المتميزة والتقارب بينهما الا الارتباط أو التعاون مسألة جد حيوية لكليهما .

وان كانت هناك صورة قديمة للعرب لدى الأمازيغة فانها كادت أن تختفى وحل محلها صورة العرب امتدادا من جهود ثورة يوليو فى افريقيا وحتى الجهود والمساعدات العربية الراهنة وان كانت الأخيرة عليها كثيرا من التحفظات (١٨) .

انتماء الدول العربية الافريقية لافريقيا :

رغم ان هذه الدول تجمع بين الانتماء العربى والانتماء الافريقى الا انها تتباين فى درجة هذا الانتماء على المستوى الرسمى والدستورى ، ويمكن القول ان هذا الانتماء مع تباينه غير واضح المعالم واذا أخذنا عينه من النصوص الدستورية لهذه الدول نجد أن المغرب جاءت فى المقدمة فى نمسها على انها دولة افريقية وفى تأكيد الانتماء هذا ، فقد نص القانون الأساسى للدولة الذى صدر عام ١٩٦١ قبل وضع دستور ١٩٦٢ على ما يلى (١٩) :

(١٧) محمد فايق ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(١٨) د. مجدى حماد : دور الجامعة العربية فى التعاون العربى الافريقى : مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الدول العربية والواقع والطموح، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣، ص ٥٢٧-٥٢٨ .
(١٩) راجع فى دساتير الدول العربية الافريقية : د. أمين أسبر ، افريقيا والعرب ، بيروت ، دار الحقائق ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٧-١٧٠ .

« يعمل المغرب بكل ما أوتى من امكانيات لتطبيق ميثاق الدار البيضاء وما ينتج عن هذا المؤتمر بهدف قيام الوحدة الافريقية ومحاربة التمييز العنصرى والاستعمار القديم والجديد » ، وقد نص ملحق الدستور الحالى على « المملكة المغربية دولة اسلامية .. لغتها الرسمية هى العربية وهى جزء من المغرب العربى وبصفتها دولة افريقية فانها تجعل من بين اهدافها تحقيق الوحدة الافريقية » ، بينما نجد ان دستور مصر وان لم ينص على الافريقية الا ان كل الدساتير المصرية الصادرة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، أكدت على انتهاء مصر للامة العربية وليس معنى ذلك التقليل من درجة الانتماء المصرى لافريقيا فمصر منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ وتضامنها وحركتها الفعالة مع افريقيا ووحدتها لنسب محل شك .

وفى دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية الصادر عام ١٩٧٦ ، تشير اكثر من مادة الى تبنى الجزائر لمبادئ وأهداف الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية ، كما تشير الى الالتزام وتشجيع الصيغ الاتحادية والاندماجية العميقة للشعوب العربية ، وفى نفس آخر يؤكد على أحد أهداف منظمة الوحدة الافريقية وتشجيع الوحدة بين شعوب القارة يشكلان مطلباً تاريخياً وخطاً دائماً فى سياسة الجزائر .

وينص دستور تونس فى ديباجته فقط على الانتماء للأسرة العربية والتعاون مع الشعوب الافريقية (٢٠) .

وبالنسبة لليبيا فيشير دستورها الى ان ليبيا جزء من افريقيا . بينما السودان ينص الدستور السودانى على أن جمهورية السودان جزء من الكيان العربى الافريقى .

وعن الصومال فقد نص فى المادة الأولى من دستور ١٩٧٩ ان الصومال جمهورية .. جزء من الأمة العربية والشعوب الافريقية ، كما حدد أن دفتيه الرسميتين هما الصومالية والعربية .

وعن موريتانيا فقد غاب ذكر افريقيا فى دستورها الصادر فى عام ١٩٦١ (٢١) .

(٢٠) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

وبصفة عامة فانه يمكن القول ان الدول العربية الافريقية تتباين في نظرتها الى الافريقية والعربية وان كانت لم تتجاهل احدهما ولم ينص في دساتير بعضها على ذلك ، وهذا امر طبيعى فكل دولة أوضاعها المنظمة وعلاقاتها المتداخلة والمتشابكة .

طبيعة التواجد العربى فى المنظمة الافريقية :

لا غرابة البتة فى أن تكون هناك دولا عربية افريقية فى آن واحد كما أوضحنا سلفا فليس هناك تناقض بين الاثنتين بل لعل هناك مدعاة للتكامل والترابط ومن ثم فان وجود هذه الدول فى المنظمة الاقليمية العربية أو الافريقية ليس بمستغرب أو مستحدث فهو امر طبيعى خاصة وان هناك معايير موضوعية للعضوية فى كل من المنطمتين ، فقد حددت منظمة الوحدة الافريقية شروطا موضوعية للانضمام اليها ، جاعفياً بدايتها أن تكون ابدولة رغبة الانضمام افريقية ، وهذا الشرط مرتبط ارتباطا وثيقا بالاطار الاقلى ولقد عنت كلمة الافريقية أكثر من مدلولها الجغرافى ، وامتد معناها ليشمل الايديولوجية الافريقية باعتبارها المحدد الأساسى للافريقية وهو ما معناه واضعو ميثاق منظمة الوحدة الافريقية وان لم يأت ذلك نصا ، فقد أشار الميثاق صراحة لشرط العضوية دون تحديد أبعاد الافريقية تحديدا مطلقا واكتفى بأن أورد فى ديباجته ما مؤداه أن المنظمة خاصة بافريقيا وأن الأعداء تعمل لتحقيق آمال شعوب افريقيا مع تكريس كل الجهد للتقدم الشامل لافريقيا ، وأوردت المادة الأولى نصا ، بأن المنظمة تضم دول القارة الافريقية ومدغشقر والجزر المجاورة للقارة .

وغنى عن الذكر أن افريقيا بمعناها اللغوى وبالتحديد الجغرافى أمر بدهى ولكن ايدىولوجيتها هى المحدد الأساسى وهى مرتكز وأساس أهداف ومبادئ المنظمة المتعلقة بمحاربة الاستعمار وتحرير الأراضى الافريقية ومحاربة سياسة التفرقة العنصرية والتأكيد على أعمال مبدأ حق تقرير المصير .

وعلى الجانب الآخر ، يأتى ميثاق جامعة الدول العربية الذى أعطى الحق لكل دولة عربية أن تنضم للجامعة ، ولم يحدد الميثاق معنى العروبة أو المقصود بالدولة العربية ، وترك هذه المسألة لمجلس الجامعة ، وان كان أكثر

المعايير تحديدا للعربية هي الاقليمية الحضارية تلك المتمثلة بالاضافة الى التجاور الجغرافى فى ضرورة توافر حضارة معنية كتقارب اللغة ووحدها. وتقارب الثقافة والتاريخ فضلا عن المصالح الاقتصادية والسياسية المشتركة ومن هنا يمكن القول بأن الوحدة العربية لا تقتصر على الدول ذات الأصول العربية ولا على تلك التى تدين بالاسلام ولكنها تعد مفتوحة لأن تقبل الدول التى تتكلم اللغة العربية وتشترك مع العرب فى هدف واحد وتراث واحد .

ولا شك أن اللغة أهمية كبرى فى تحديد روابط الانتماء ، تعهد من عناصر الوحدة القومية ، بل العامل الهام الذى يولد لدى الشعب ارادة الانتظام فى أمة واحدة ، فهى تعد بحق بمثابة الوعاء الذى تختزن فيه خبرات الأمم ومشاعرها وآمالها وآلامها (٢٢) .

ولعل اللغة العربية على وجه التحديد تمثل مناط الأصالة فى الثقافة العربية بل تعد توأم الشخصية العربية (٢٣) اذا جاز هذا التعبير ، حتى لقد بانث عبارة الحضارة العربية ينظر اليها على انها تعنى النظام الاجتماعى للاسلام واستخدام اللغة العربية كوسيلة للتفاهم (٢٤) .

ومجمل القول ان العرب والأمازيغة مرتبطون بمجموعة من السمات المشتركة والمتميزة والتى تعكس دوافع ومرتكزات التعاون بينهما وتلك السمات تتركز فى العوامل التاريخية والجغرافية ومشاعر مجابهة المخاطر المتمثلة فى الاستثمار قدسمة وحديثه ولعل هذه السمات المشتركة وهذا التلاصق الجغرافى يتعذر معه التمييز بين العربى الذى يقطن افريقيا والافريقى الأصل .

ورغم الاتساق الطبيعى والمنطقى بوجود الدول العربية الافريضة فى منظمة الوحدة الافريقية ، فلقد حاولت بعض القوى الاستعمارية اثاره نمط من أنماط عدم التوافق بين تيار القومية العربية وتيار الافريقية عند تبسام

(٢٢) د. محمد عبد الفنى سعودى ، قضايا افريقية ، مرجع سابق ، ص ١٣١-١٣٢ .

(٢٣) د. الحبيب الجنحاتى : التعريب والأصالة والثقافة المعاصرة ، مجلة شؤون عربية ، العدد ١٥ ، مايو ١٩٨٢ ، ص ٤١-٤٥ .

(٢٤) د. أحمد سويلم العمرى : روح الشعب العربى ، المجلة المصرية للعلوم السياسية ، العدد ٦٧ ، مايو ١٩٧٠ ، ص ٤١-٤٢ .

منظمة الوحدة الافريقية فى مايو ١٩٦٣ ، ووصل الأمر لحد أن بعض المسئولين الأفارقة طالبوا بإلغاء جامعة الدول العربية وانسحاب الدول العربية الافريقية منها حتى لا ترتبط أكثر بدول غير افريقية ومن ثم تهتم بقضايا غير افريقية ولقد ظل هذا الفكر موجودا الى حد كبير فى المنظمة منذ قيامها وحتى ١٩٧٣ خاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين (٢٥) .

الدول العربية الافريقية والمشكلات العربية الافريقية

أولا — دور الدول العربية الافريقية فى انشاء منظمة الوحدة الافريقية :

كان توقيع ميثاق منظمة الوحدة الافريقية من ملوك ورؤساء الدول الافريقية ورؤساء الحكومات المجتمعة فى اديس ابابا (اثيوبيا) فى ٢٥ مايو عام ١٩٦٣ اйдانا بانشاء المنظمة ، واعتبرت تلك الدول المشتركة فى انشاء المنظمة دولا ذات عضوية أصلية بلغ عددها ثلاثين دولة افريقية من بينها ست دول عربية تتمتع بعضوية جامعة الدول العربية وهى مصر والسودان وليبيا والجزائر والمغرب وتونس بالإضافة الى الصومال وموريتانيا (٢٦) اللتين اكتسبتا عضوية لاحقة فى جامعة الدول العربية أما عن دولة جيبوتى والتى انضمت فيما بعد الى جامعة الدول العربية فقد أصبحت عضوا لاحقا فى منظمة الوحدة الافريقية بعد استقلالها فى ٢٥ يونيو ١٩٧٧ وكانت الدولة التاسعة والاربعين فى المنظمة والتى بلغ عدد الدول الأعضاء فيها خمسين

(٢٥) د. مجدى حماد : العرب و افريقيا ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥ .

(٢٦) كان تمثيل هذه الدول كالتالى :

مصر : الرئيس جمال عبد الناصر ، السودان : الفريق ابراهيم عبيد ، ليبيا : الأمير حسن رضا ، الجزائر : الرئيس أحمد بن بللا ، تونس : الرئيس الحبيب بورقيبة . ولم يشترك الملك الحسن ملك المغرب فى اجتماع الرؤساء ذلك أن المغرب قرر عدم المشاركة فى اجتماعات تشارك فيها موريتانيا لأنها تعتبرها جزء من المغرب ، وان وقعت المغرب بعد ذلك على الميثاق واعتبرت من الدول ذات العضوية الأصلية . وقد كان وفد الصومال برئاسة أدن عبد الله عثمان ، موريتانيا برئاسة الرئيس مختار ولد داداه . راجع فى ذلك :

د. بطرس بطرس غالى ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

— OAU, Basic Documents of Organization of African Unity
(Addis Ababa. Provisional secretariat), (n. d.). p. 13.

دولة ، ولقد كان اسهام الدول العربية الافريقية فى انشاء منظمة الوحدة الافريقية اسهاما متميزا ذلك انها شاركت منذ البداية فى عمل اللجان التى شكلها المؤتمر التمهيدى لوزراء خارجية الدول الافريقية عند انشاء المنظمة والذى بدأ أعماله فى ١٥ مايو عام ١٩٦٣ (٢٧) .

ولقد استمر جهود الدول العربية الافريقية حتى أعلن قيام المنظمة ، وكان أول مؤتمر قمة افريقى يعقد فى القاهرة من ١٧ — ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ ، وحضرته ٣٣ دولة ورأس المؤتمر المضيف جمال عبد الناصر ، ولم تكن القاهرة هى الدولة العربية الافريقية التى حظيت بانعقاد مؤتمر القمة الافريقى الأول بها بل لقد انعقد المؤتمر فى أربع دول عربية افريقية بخلاف القاهرة (٢٨) فضلا عن انعقاد مجلس الوزراء بهذه الدول فى جلسته السابقة لانعقاد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .

وباجنب هذا فقد اسهمت الدول العربية الافريقية فى تشكيل جهاز الامانة العامة للمنظمة حيث تولى فى بداية قيام المنظمة بناء على ترشيح مصر احد أبناء الجزائر وظيفة أمين مساعد للمنظمة واستمرت فترتين متتاليتين . حتى حل محله جزائرى آخر فى عام ١٩٧٢ (٢٩) .

(٢٧) على سبيل المثال لا الحصر شاركت مصر والمغرب وتونس فى اللجنة التى شكلت لبحث العلاقة بين الأمم المتحدة وافريقيا وكذلك ، شاركت المغرب والصومال فى احدى اللجان الفرعية المشكلة لدراسة التفرقة العنصرية ، كما شاركت مصر والسودان فى لجنة نزع السلاح ، واسهمت تونس فى لجنة التخلص من الاستعمار .

ولقد كان لمصر دورا بارزا فى تقريب وجهات النظر المتباينة التى ثارت حول مبادئ وأهداف المنظمة وحول ميثاقها بصورة عامة ، فضلا عن أن مصر ، تقدم وفدها برئاسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، بمشروع لتحقيق الوحدة الافريقية يتلخص فى اقامة جامعة افريقية على غرار الجامعة العربية . راجع : د. بطرس بطرس غالى ، المرجع السابق ، ص ٥٣-٥٥ .
— محمد فائق ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(٢٨) انعقد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات فى الجزائر فى سبتمبر ١٩٦٨ ، الرباط فى يونيو ١٩٧٢ ، ومدغشقر فى يونيو ١٩٧٤ ، والخرطوم فى يوليو ١٩٧٨ .

(٢٩) كان السيد محمد سحنون ضمن أربع أمناء مساعدين للمنظمة رشحتهم مصر اثناء انعقاد أول مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية فى نهاية يوليو عام ١٩٦٤ ، واستمر حتى ١٩٧٢ حتى حل محله السيد نور الدين جودى .

كما أسهمت الدول العربية الافريقية فى الجهاز الادارى للمنظمة بعدد من الموظفين العاملين من مصر والمغرب والصومال والسودان وموريتانيا .

ولم يغيب دور هذه الدول فى مشاركتها فى اللجان المتخصصة التى انشأتها المنظمة بالإضافة الى لجنة تحرير افريقيا وان لم تعتبر لجنة متخصصة حيث لم ينص ميثاق المنظمة على انشائها(٢٠) ، ولقد كانت مصر من الأعضاء المؤسسة فى اللجنة وقد اختيرت على أساس دورها فى حركة التحرير الافريقية وما قدمته من مساعدات لحركات التحرير ، بالإضافة الى اختيار الجزائر عضو أيضا ، ثم بزيادة عدد أعضاء لجنة التحرير(٢١) اضيفت اليها المغرب وموريتانيا والصومال .

ومجمل القول : ان هذه المساهمة العربية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية تعد تعبيرا عن مدى الروابط العربية الافريقية وبانعدام التناقض بين حركتى الوحدة العربية والافريقية وانه ليس هناك سلم تضيقى يمثل لصالح التعاون العربى مع عرب اسيا اكثر من تعامله مع عرب افريقيا ، وان كان هناك اسبقيات لنوعية التعاون فى مرحلة معينة الا أن ذلك لا يحجب الرؤية الشاملة لحركة الوحدة العربية او الافريقية(٢٢) التى يجب أن تكون واضحة دائما حتى لا يدخل تيار الحركة فى دروب ومسالك ضيقة قد تعيق من مساره .

ثانيا — القضايا العربية الافريقية المشتركة داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية :

رغم أن الوجود العربى داخل اطار منظمة الوحدة الافريقية لم يكن بمثابة جسم غريب الا أن حذر الافارقة لا يمكن غض الطرف عنه خاصة مع

(٣٠) كان انشاؤها بمقتضى قرار خاص من مؤتمر القمة الافريقى التأسيسى ، راجع :

Woffers, Michael, Politics in Organization of African Unity (London. Methuen 1976), pp. 163-194.

— Cervenka, Zdenek. The Unfinished for Unity (New York : Adivision of Holmes & Merier publishers, 1977), pp. 45-63.

(٣١) بدأت اللجنة بعدد ٩ أعضاء وزيدت الى ١٧ ثم الى ٢٤ عضواً ومقر اللجنة دار السلام عاصمة تنزانيا . راجع : المرجع السابق مباشرة .
(٣٢) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

استمرارية النزعة القارية الافريقية ومع وجود تراكمات عمل الاستعمار على تغذيتها ، ولقد تجلى ذلك فى بداية قيام منظمة الوحدة الافريقية خاصة مع رغبة دول افريقيا فى أن تنسحب الدول العربية الافريقية من جامعة الدول العربية حتى تتركس ولاءها للمنظمة القارية الجديدة (٢٢) . ولقد تحوت مخاوف افريقيا من الزج بمشكلة فلسطين فى اطار المنظمة الجديدة على أساس أنها قضية غير افريقية ويمكن أن تحدث خللا داخل المنظمة .

وعلى الجانب الاخر يمكن القول ان اهتمام الدول العربية والافريقية فى المنظمة بالمشكلات الافريقية وبالتضاي التي تهم القارة لم يكن واهنا وانما كان منسجما فى الاطار العام للمنظمة .

ويمكن فى هذا الاطار عرض هذه الادوار العربية والافريقية من خلال المنظمة فى اطار زمنى تحدده المتغيرات التي واكبت حياة المنظمة واثرت فى جل دولتها .

(١) المرحلة الأولى من ١٩٦٣ — ١٩٦٧ :

وتحدد هذه المرحلة التفاعلات العربية الافريقية داخل المنظمة منذ تيام المنظمة وحتى حرب يونيو ١٩٦٧ . فقد تميزت هذه الفترة بالاهتمام العربى بقضايا افريقية خاصة قضايا تصفية الاستعمار فى افريقيا باعتبارها هدفا من بين مجموعة الأهداف التي نص عليها الميثاق فى مادته الثانية وقد أمكن للمنظمة خلال هذه الفترة الزمنية مساعدة حركات التحرير الوطنية ومساندة الدول التي كانت ما زالت مستعمرة من الحصول على استقلالها ، وبالفعل حصلت ٦ دول على الاستقلال ابان هذه الفترة (٢٤) ولم يكن الاعتماد

(٢٣) د. مجدى حماد ، فى : جامعة الدول العربية ، مرجع سابق ، ص ٥١١ .

(٢٤) حصلت هذه الدول على استقلالها وانضمت للمنظمة طبقا للتواريخ التالية : كينيا فى ١٢/١٢/١٩٦٣ وانضمت للمنظمة فى عام ١٩٦٤ ، مالاوى فى ٦/٧/١٩٦٤ وانضمت فى نفس العام ، زامبيا فى ٢٤/١٠/١٩٦٤ وانضمت عام ١٩٦٥ جامبيا فى ٢٨/٢/١٩٦٥ وانضمت فى نفس العام ، بتسوانيا فى ٣٠/٩/١٩٦٦ وانضمت فى نفس العام ، ليسوتو فى ٤/١٠/١٩٦٦ وانضمت فى نفس العام . راجع :

د. عبد الرحمن الصالحى ، منظمة الوحدة الافريقية فى خلال عشرين عاما ، القاهرة ، الجمعية الافريقية ، ١٩٨٣ ، ص ٧٤—٧٥ .

العربى الافريقى بقضايا التحرير متحدثا بل لقد أصدرت الجامعة العربية منذ الخمسينات تطالب الدول العربية بمساعدة حركات التحرير فى افريقيا مع تأييد قضاياها فى المحافل الدولية ، وبجانب هذا كان التأييد العربى أيضا لافريقيا فى معارضة سياسة التفرقة العنصرية من منطلق أن هذه السياسة تجافى مبادئ ميثاق جامعة الدول العربية وتأييد جامعة الدول العربية لافريقيا فى هذا الشأن طبقا لقرارها الذى أصدرته فى ٩ ابريل عام ١٩٦٠ (٢٥) بل لقد كان القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٧/١٧٦١ فى ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية متأثرا بالجهود العربية ولقد أسهمت الدول العربية الافريقية كذلك فى تسوية بعض المنازعات الدولية الافريقية ، فلقد قامت مصر بدور الوسيط فى عديد من المنازعات الافريقية كالنزاع بين اثيوبيا والصومال والنزاع بين كينيا والصومال ، وغانا وغينيا ، واثيوبيا والسودان ، كذلك قام السودان بدور للتسوية السلمية للمنازعات بين اثيوبيا والصومال وكينيا عام ١٩٦٤ ، وتوصلت الجهود السودانية مع زامبيا من ايقاف التوتر بين الأطراف المتنازعة (٢٦) كما قام بالوساطة الشخصية أيضا الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة ، والرئيس نكروما (غانا) ، والرئيس نيريرى (تنزانيا) . ولعل من المناسب القول بأن منظمة الوحدة الافريقية نجحت فى تسوية بعض المنازعات العربية الافريقية (٢٧) والتي فشلت فيها جامعة الدول العربية .

وعلى الجانب الاخر فان اهم القضايا العربية البارزة على السطح فى تلك الفترة كانت قضية فلسطين والتي كانت تتحاشاها الدول الافريقية

(٣٥) راجع وزارة الخارجية المصرية ، التعاون الافريقى العربى ١٩٧٧ — ١٩٧٨ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤ .

(٣٦) راجع :

Lewis. I. M; «Recent Development in the Somalia Disputes», African Affairs, Vd. 66. No. 63 Aprii. 1967. p. 104

— Mayall, James, African Unity and the OAN.

— Mayall, James, «African Unity and the OAU» Year Book of world Affairs, vol. 27, 1975, p. 126.

(37) Andemicael Berhanykun. «Peacefull Settlement Among» African States (New York: UNITAR, 1972).

وتثير كثيرا من التحفظات ضد ادراجها فى جدول أعمال المنظمة باعتبارها قضية عربية وليست افريقية ولعل الرئيس جمال عبد الناصر أراد الحديث عن النزاع العربى، الاسرائيلى بصورة حذره دون اشتعال الحساسيات الافريقية فتال فى خطابه أمام المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الافريقية بأديس ابابا (مايو ١٩٦٣) : (٢٨)

« ان الجمهورية العربية المتحدة اتت الى هنا بقلب مفتوح وعقل مفتوح وتقدير للمسئولية مفعم بالنية الصادقة وهى مستعدة ان تتحمل الى كل الحدود مسؤولياتها التاريخية تجاه قارتنا الافريقية .. ولقد جئنا الى هنا بغير انانية ، حتى المشكلة التى نعتبرها من أخطر مشاكلنا وهى مشكلة اسرائيل التى رأت معنا دول مجموعة الدار البيضاء بحق انها أداة من أدوات التسلل الاستعمارى فى القارة وقاعدة من قواعد العدوانية — لن نطرحها للمناقشة فى هذا الاجتماع مؤمنين بأن تقدم العمل الافريقى الحرس سوف يكشف الحقيقة .. ويعريها من كل زيف أمام الضمير الافريقى ، وهكذا جئنا الى هنا بغير تحفظات ونؤمن أن نجاح هذا العمل المشترك سوف يفى بكل مطالبنا » .

ولقد أبرز وأكد الرئيس جمال عبد الناصر التصور العربى للنزاع العربى الاسرائيلى أمام المنظمة الافريقية فى أول مؤتمر لرؤساء الدول والحكومات الافريقية فى القاهرة (١٧ — ٢١ يوليو ١٩٦٤) حيث وارد فى كلمته أمام المؤتمر :

« هناك أيضا قضية تشغل بالنا .. نحن نعتبرها قضية مصر .. نعى بها هذا الجزء من الوطن العربى الذى اقتطع منه لتقوم عليه بالعدوان قاعدة للاستعمار فى اسرائيل .. لا نريدكم فى هذا الأمر أن تأخذوا الموضوع كما طرحنا ، عليكم ، لكننا نريدكم أن تولوه المزيد من توفيتكم ومن بحكم الأمين » (٢٩) .

(٣٨) جمال عبد الناصر ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات ، القسم الرابع ، من فبراير ١٩٦٢ — يونيو ١٩٦٤ ، و(القاهرة : مصلحة الاستعلامات) ، ص ٣٦١ .

(٣٩) مركز الوثائق والبحوث ، نشرة الوثائق : مجموعة الخطب التى التبت فى مؤتمر رؤساء الدول والحكومات لمنظمة الوحدة الافريقية ، ملحق العدد الأول يوليو — أغسطس ١٩٦٤ ، القاهرة ، مصلحة الاستعلامات ١٩٦٤ ، ص ١٣ .

ولقد تحدث فى هذا الشأن أيضا وفى نفس المؤتمر الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة والرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا . وان لم تظهر القضية فيما صدر عن المؤتمر من قرارات وبيانات الا أن المشكلة طرحت فى اطار عمل مشترك أملا فى أن يأتى اليوم التى تتبنى فيه الدول الافريقية الموقف المشترك مع الدول العربية داخل اطار المنظمة الافريقية (٤٠) .

ولقد كان الحديث فى مؤتمر القاهرة بمثابة تدرجا فى عرض القضية وتوزيعا للدوار حيث كان حديث الرئيس المصرى باعتباره المضيف بالإشارة للقضية والدعوة لفهم افريقيا لها ثم جاء حديث الرئيسين التونسى والجزائرى بمطالبة الدول الافريقية بمساندة القضية .

ومما تجدر الإشارة اليه أن مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الذى انعقد فى عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ لم يشر فيهما من قريب أو بعيد لقضية فلسطين أو للنزاع العربى الاسرائيلى سوى إشارة سلبية حيث اثار وفد ملاجاشى فى مؤتمر ١٩٦٦ سؤالا حول عدم دعوة اسرائيل لحضور جلسة الافتتاح (٤١) ، ومما تجدر ملاحظته أيضا أنه خلال تلك الفترة وفى نهاية عام ١٩٦٦ كان التمثيل الدبلوماسى الاسرائيلى فى افريقيا يغطى ٢٩ دولة افريقية وكانت دول منظمة الوحدة الافريقية فى ذلك التاريخ ٣٨ دولة بمعنى أن هناك تدسع دول لم يكن هناك تمثيل دبلوماسى بينها وبين اسرائيل وهى الدول العربية الافريقية عدا جيبوتى التى لم تكن استقلت بعد بالإضافة الى ليسوتو التى لم تكن لها علاقات حتى عام ١٩٦٦ وأن تبادلت العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل عام ١٩٦٧ ذلك انها استقلت فى اكتوبر عام ١٩٦٦ .

ومجمل القول : ان القضية الفلسطينية كانت فى غيبة عن افريقيا حتى منتصف الستينات باستثناء بيان الدار البيضاء عام ١٩٦١ الذى وقعه من

(٤٠) د. عبد الملك عودة : الدول الافريقية والقضايا العربية فى : د. محمود خيرى عيسى (اشراف) ، العلاقات العربية الافريقية ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

(٤١) محمد عبد الله رضا عرفات : منظمة الوحدة الافريقية والصراع العربى الاسرائيلى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٥١ .

افريقيا رؤساء غانا وغينيا ومالى ومصر والمغرب وحكومة الجزائر المؤقتة (٤٢) ولعل السبب ليس القصور العربى فحسب بقدر ما هو الدور الاسرائيلى المركز الذى أدته اسرائيل على عدة محاور اقتصادية وسياسية وعسكرية مع افريقيا وتخللها الى الأنظمة السياسية الافريقية وافهام الافريقين انهم اكثر الشعوب معاناة من التمييز العنصرى وان اسرائيل تعاني مثلهم من هذه التفرقة التى تقوم على أساس دينى ، أى محاولة ترسيخ معنى معين فى اذهان الأنارقة وان العرب يكرهون اسرائيل لأسباب دينية وانه لا ينبغى حرمان دولة من حقها لمجرد اسباب فنية او دينية او عنصرية وفى محاولة تكتيكية تعبر اسرائيل عن موقفها المعلن فى تأييد جنوب افريقيا وتصوت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة لأول مرة فى نوفمبر عام ١٩٦١ الى جانب مشروع القرار الخاص بفرض عقوبات اقتصادية على جنوب افريقيا (٤٣) وفى الواقع فان هذا الأسلوب الاسرائيلى موجه عن عمد لخدمة أغراضها ومصالحها ، وبالقسط فان مبصر التاريخ يستطيع أن يدرك جيدا أن مؤسسى دولة اسرائيل هم من اليهود الاشكيناز البيض الذين ينتمون الى الحضارات البيضاء التى أذاقت الافريقين كل صنوف الاستعمار (٤٤) .

(ب) المرحلة الثانية : من ١٩٦٧ — ١٩٧٣ :

حصلت أربع دول افريقية على استقلالها خلال هذه الفترة وانضمت لعضوية منظمة الوحدة الافريقية وبذلك بلغت اثنين وأربعين دولة (٤٥) .

وان كانت منظمة الوحدة الافريقية قد بذلت جهدا ميسورا فى الدعوة الى استقلال هذه الدول ومحاولة تخليص دول افريقيا من الاستعمار الاستيطانى الا ان الجهود المبذولة فى مقاومة الاستعمار الجديد بكل سماته وابعاده لم تثمر بعد ذلك انها واهنة من البداية خاصة ان دول افريقيا لم

(٤٢) راجع : أمين اسبر : مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٤٣) د. مجدى حماد : افريقيا فى التوجه الاسرائيلى ، مجلة شؤون عربية ، العدد ١٨ ، أغسطس ١٩٨٢ ، ص ١٥٠ .

(٤٤) د. اسماعيل سرور شلش : العلاقات العربية الافريقية المعاصرة فى ظل الوجود الاسرائيلى فى القارة الافريقية ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٣٢ ، أكتوبر ١٩٨٣ ، ص ٥٠-٥١ .

(٤٥) حصلت موريشيوس على استقلالها فى ١٢/٣/١٩٦٨ ، سوازيلاند فى ٦/٩/١٩٦٨ وغينيا الاستوائية فى ١٢/١٠/١٩٦٨ ، وغينيا بيساو فى ٢٤/٩/١٩٧٣ .

تتفق حتى الآن على حد أدنى للتصدي لهذا النوع من الاستعمار خاصة وأن الجهود الأولى في سبيل تنشيط التعاون الاقتصادي ما زالت قاصرة ومحدودة .

ولقد اتسمت هذه الفترة باستمرار بعض المنازعات الافريقية التي عرضت على منظمة الوحدة الافريقية .

فالنزاع القائم بين الصومال واثيوبيا حول الوجودين وان مر بنزرة تهدئة مؤقتة نتيجة للظروف الداخلية لكل طرف الا انه بدأت تظهر بعض المشكلات التي تطورت الى اشتباكات على الحدود في عام ١٩٧٣ رسعت الصومال لادراج مسألة النزاع في جدول اعمال وزراء خارجية المنظمة ليعرض على مؤتمر رؤساء الدول والحكومات في اجتماعه في اديس ابابا (مايو ١٩٧٣) وأحال المؤتمر أمر النزاع الى لجنة خاصة لمحاولة التوفيق بين البلدين مشكلة من ثمانى دول كان من بينها دولتان عربيتان افريقيتان وهما السودان وموريتانيا(٤٦) وان اخفقت اللجنة في تحقيق أى نجاح لتمسك كل طرف بوجهة نظره(٤٧) .

وان كانت المساعدات والتأييد العربى للصومال مرجحة خاصة تلك الواردة من السعودية ومصر ، بالرغم من أن الصومال لم تكن قد انضمت بعد لجامعة الدول العربية(٤٨) .

وان كانت هناك اهتمامات عربية انعكست على مسار النزاع الصومالى الانيوبى فان مسألة انفصال اقليم بيبافرا في نيجيريا لم تشارك فيه الدول العربية الافريقية ، فعندما اشتد القتال داخل نيجيريا واتجهت بعض الدول الافريقية بالتلويح بالاعتراف ببيافرا وتصادف انعقاد مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية في دورته العادية الرابعة (كنشاسا ، ١١-١٤ سبتمبر

(٤٦) أحمد أبو شادي : خريطة الوحدة الافريقية في عقدها الأول مجلة السياسة الدولية ، العدد ٣٣ ، يوليو ١٩٧٣ ، ص ١٣١-١٣٢ .

(47) Somalia Democratic Republic, Africa Contemporary Record, 1973-1974. (London: Rexocllings, 1974), p. b 245.

(٤٨) دخلت الصومال عضوا جديدا في جامعة الدول العربية في

١٩٧٤/٢/١٤ .

(١٩٦٧) أصدر المؤتمر قرارا بارسال لجنة استشارية لرئيس حكومة نيجيريا الاتحادية تتألف من رؤساء دول : الكاميرون ، الكونغو ، كينشاسا ، اثيوبيا ، غانا ، ليبيريا ، النيجر ، تهدف الى تأكيد رغبة المؤتمر فى الحفاظ على سلامة اراضى نيجيريا ووحدها .

وبالرغم من عدم وجود جهد عربى متميز الا أن هناك مساعدات عسكرية مصرية قدمت للحكومة النيجيرية حيث قاد بعض الطيارين المصريين ،المائرات سوفيتية فى عمليات ضد المنشقين فى بيافرا (٤٩) ولعل هذه المساءدات كانت فى اطار ارتباط مصرى سوفيتى فى تلك الفترة وهو ارتباط أملتة مصالح متبادلة خاصة وان مساعدات الاتحاد السوفيتى وتدخله فى هذه الحرب الأهلية كان وفقا لاستراتيجية معينة تهدف الى تحقيق مصالح فى المنطقة تتوازن على الأقل مع مصالح الولايات المتحدة الامريكة التى تقف بجانب المنشقين فى بيافرا .

وبجانب هذه القضايا الافريقية فان النزاع العربى الاسرائيلى بدأ يطرح نفسه على المنطقة الافريقية بصورة ملموسة الى حد ما اعتبارا من عام ١٩٦٧ رغم أن العلاقات الاسرائيلية الافريقية فى هذه الفترة كانت متنامية جدا ، فقد كان عدد البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية فى افريقيا ٣٢ بعثة فى مقابل ١١ بعثة دبلوماسية افريقية فى اسرائيل ، فضلا عن وجود خمسة قنصليات اسرائيلية فخرية فى ٥ دول افريقية لم تكن استقلت بعد (٥٠) .

ولقد لعبت الدول العربية الافريقية دورا ملموسا داخل منظمة الوحدة الافريقية فقد تقدمت الجزائر والمغرب وموريتانيا للمنظمة باقتراح لاثارة مسألة العدوان الاسرائيلى على الدول العربية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ أمام المؤتمر الرابع لرؤساء الدول والحكومات الافريقية ، كما اقترحت الصومال عقد جلسة غير عادية لمجلس وزراء المنظمة لبحث اتخاذ موقف موحد تجاه حرب يونيو .

(49) Hartmann, Frederick H., The Relations of Nations Fifth ed. (New York: Macmillan Publishing co., 1978), p. 548.

ولقد باءت هذه الجهود بالفشل ، فقد رفضت أغلبية دول المنظمة هذه المقترحات باعتبار أن المشكلة ليست افريقية وتدخل فى نطاق اختصاص الأمم المتحدة (٥١) كما أن الانعتاد الطارىء لمجلس وزراء المنظمة يستلزم موافقة ثلثى الأعضاء طبقا لنص ميثاق المنظمة (٥٢) .

وفى المؤتمر الرابع لرؤساء الدول والحكومات، الافريقية الذى عقد فى كينشاسا فى سبتمبر ١٩٦٧ رغم أن موضوع العدوان الاسرائيلى على البلاد العربية لم يدرج ضمن جدول الأعمال الا أن السيد اسماعيل الازهرى رئيس السودان ورئيس وفده للمؤتمر أعلن أن العدوان على مصر عدوان على كل دولة افريقية .

كما تحدث الاستاذ محمد فائق رئيس الوفد المصرى للمؤتمر عرض المسألة بصورة دبلوماسية لبقة فأشار الى أن مصر لم تطلب أدراجها فى جدول الأعمال عن قصد ليس لبساطة الأمر أو لأن المنظمة غير جهة اختصاص ولكن حتى لا تحمل المؤتمر تفصيلات مشكلتها التى قد تعيقه عن تحقيق نجاحه وان مصر تدرك أن الفرصة ستتاح بعد أيام قليلة لعرض المسألة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وان مصر حريصة فقط على بيان موقفها دون صدور قرار أو توصية وقد كان من نتيجة هذا التحرك المصرى والسودانى والجزائرى والصومالى والموريتانى أن أصدر المؤتمر اعلانا أعرب فيه عن قلقه ازاء الموقف الخطير الذى يسود بلد افريقى .. وقرر السعى داخل الأمم المتحدة حتى الجلاء عن أراضى مصر (٥٣) .

وبدأت من هذه اللحظة تتنامى اهتمامات المنظمة بالنزاع العربى-الاسرائيلى وان كانت بداية الاهتمام انه يمثل عدوان على مصر احدى الدول الأعضاء فى المنظمة ولقد كان الجهد العربى داخل المنظمة منصرا الى حد كبير الى توضيح المسألة وتوضيح الصورة الحقيقية لاسرائيل ولقد نجحت

(51) Akinsanya, Adeoye, «The Afro Arab Alliance, Dream or Reality», African Affairs, vol. 75, No. 301, oct. 1976, p. 522.

راجع : محمد عبد الله رضا عرفات ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤—٢٥٧ .

(٥٢) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

— منظمة الوحدة الافريقية ، الميثاق ، المادة ١٢ .

(53) AHG/Res/S.T. 2(IV).

(م ٢٧ — العرب فى أفريقيا)

مصر الى حد كبير فى ابراز هذه الصورة خاصة وأن عددا كبيرا من الدول الافريقية لم تكن تعنى شيئا كثيرا عن هذه القضية خاصة وأن العرب استعملوا صورا واشكالا متباينة لعرض القضية (٥٤) .

وطبقا لهذا المحتوى الجديد فقد صور قرار المنظمة فى اجتماع رؤساء الدول والحكومات فى مؤتمرهم الخامس الذى انعقد فى الجزائر (١٣ - ١٦ سبتمبر ١٩٦٨) مؤيدا مصر ومطالباته بانسحاب القوات الأجنبية من جميع الاراضى العربية المحتلة منذ ٥ يونيو عام ١٩٦٧ طبقا لقرار مجلس الأمن فى هذا الشأن (٥٥) .

ويلاحظ أن القرار صدر بعد تحرك مصرى وجزائرى فى أروقة المؤتمر وبعد خطاب وزير الخارجية المصرية وأنه يشير لأول مرة للاراضى العربية المحتلة وليس للاراضى المصرية فحسب .

ولقد أصدر مؤتمرى الرؤساء بأديس ابابا عام ١٩٦٩ ، عام ١٩٧٢ قرارات تؤكد ما سبق أن أصدره المؤتمر بشأن النزاع العربى الاسرائيلى ،

وكان نتيجة الجهود المكثفة عربيا داخل المنظمة وخارجها وعلى مستوى العلاقات الثنائية تفهم افريقى شبه كامل للقضية ومن ثم ولقد أصدر مؤتمر رؤساء الدول والحكومات فى دورته العادية الثانية (٢١ - ٢٣ يونيو ١٩٧١) قرارا مؤكدا على ما ورد فى قراراته السابقة وداعيا الى تنفيذ احكام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وقرر تأليف لجنة من عشر رؤساء افريقيين اطلق عليها لجنة الحكماء للاتصال بمصر واسرائيل بهدف الوصول للسلام الدائم والعادل فى الشرق الأوسط .

ولقد نجح مؤتمر الرباط (١٢-١٥ يونيو ١٩٧٢) فى اصدار قرار يشيد بتعاون مصر مع لجنة الحكماء ويشجب موقف اسرائيل المعوق مع مطالبتها بالانسحاب الفورى من كافة الاراضى العربية المحتلة الى خطوط ما قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، كما اكد القرار على مساندته الفعالة لمصر والى ضرورة مساندة كل دول افريقيا لها وطالب القرار دول افريقيا بالامتناع

(٥٤) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣١١ .
(55) AHG/Res/53.

عن امداد اسرائيل بأية معدات أو أسلحة أو تأييد معنوى يمكنها من الاستمرار
فى احتلال الأراضى العربية والافريقية(٥٦) .

ويمكن القول بأن قرارات المنظمة التى صدرت فى هذه الفترة كانت نتيجة
جهود عربية مكثفة داخل المنظمة خاصة ذلك الجهد المصرى ، فلقد قارنت
مصر دائما بين أعمال القمع الاسرائيلية للمواطنين العرب والأعمال المماثلة
من جانب الحكومة العنصرية فى جنوب افريقيا بالإضافة الى جهود الدول
الأخرى الممثلة فى الجزائر والمغرب وقد اقتصر مؤتمر القمة بينهما خلال عامى
١٩٦٨ ، ١٩٧٢ فضلا عن جهود موريتانيا التى أسهمت بجهد فعال فى لجنة
الحكماء التى رأسها الرئيس مختار ولد داداه والملاحظ أن تشكيل لجنة
الحكماء كان متوازنا ويمثل جناحين ما بين مؤيد للحق والعربى وبين رافض
لاقحام افريقيا فى تلك المشكلة .

وبصفة عامة يمكن القول أن منظمة الوحدة الافريقية التى تصاعدت فيها
أصوات كثيرة تبعد النزاع العربى الاسرائيلى عن الدخول فى ردهات المنظمة
كل ووضعت هذا النزاع فى أولويات جدول أعمالها وبات شبه دورى فى كل
اجتماعاتها منذ عام ١٩٦٧ وان كان قرار ١٩٧٢ جاء متحيزا عن باقى
القرارات التى سبقتها ولعل ذلك يعكس صورة التواجد الاسرائيلى فى
افريقيا والذى بدأ يهتز كما سنلاحظه فى الفترة المقبلة (١٩٧٣) .

(ج) المرحلة الثالثة : (١٩٧٣ —

تميزت هذه المرحلة بتغير واضح فى العلاقات الاسرائيلية الافريقية
على عكس ما تود اسرائيل ، وفى نفس الوقت نما الاهتمام العربى بافريقيا
ولعل هناك من الأسباب الموضوعية ما يؤكد على هذا الاهتمام ، فليس
هناك شك أن وقوف عدد كبير من الدول الافريقية فى تأييد العرب بعد حرب
١٩٦٧ ، كذلك بدء تعاطف الافريقيون لمصر والجزائر وتعريرتهما لموقف اسرائيل
وابراز حقيقتها ، وبذلك أضفى العدوان الاسرائيلى على الأراضى العربية
بعدا جديدا للعلاقات العربية الافريقية(٥٧) .

(56) A. H. G. p. es 67 (IV).

(٥٧) د. اسماعيل سرور شلش ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

وان كانت الفترة التى بدأت مع مشارف ١٩٧٣ تميزت بتطورات كثيرة مرتبطة باسرائيل والعرب والأماركة وقضية الشرق الأوسط وهذه التطورات حجت ما عداها من المتغيرات الا أن الدول العربية داخل المنظمة كان لها دور هام فى عديد من القضايا الافريقية الخالصة وكذلك القضايا الأخرى ذات الصبغة العربية الافريقية .

وتمشيا مع أهمية المتغيرات المرتبطة بالعرب واسرائيل وافريقيا سنبدا بابرار هذه المتغيرات . فلقد كان مؤتمر وزراء خارجية الدول الافريقية الذى عقد فى اديس ابابا فى نوفمبر ١٩٧٣ بداية لتحولات جزرية فى العلاقة بين المجموعتين العربية والافريقية ، فقد قرر هذا المؤتمر من بين ما قرره توصية الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية بالابقاء على قطع العلاقات مع اسرائيل لحين انسحابها من كافة الأراضى العربية المحتلة ولحين استعادة الشعب الفلسطينى لكافة حقوقه القومية المشروعة ، كما يعترف بشرعية نضال شعب فلسطين لاستعادة حقوقه مع تقرير المساندة الايجابية الكاملة لجمهورية مصر العربية فى نضالها المشروع لاستعادة اراضيها بكافة الطرق (٥٨) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن معظم دول افريقيا كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فى اواخر عام ١٩٧٢ وفى عام ١٩٧٣ قبل وأثناء وبعد حرب اكتوبر (٥٩) .

وان جاء هذا المؤتمر كنقطة تحول حقيقى فقد مهد له مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية الذى عقد فى اديس ابابا عام ١٩٧٣ والذى شارك فيه رئيس جمهورية مصر العربية مع نائبه ووزير الخارجية وعدد من المسؤولين وتم فيه لقاء مصرى افريقى على مستوى عدد كبير من رؤساء الدول ومندوبيهم .

وقد أوضح الرئيس المصرى وجهة النظر المصرية من النزاع العربى الاسرائيلى وان القضية تمثل اعتداء ليس على مصر ولكن على ارض افريقية

(58) ECM/Res 12/Rev. (VIII).

(٥٩) راجع فى قطع العلاقات الافريقية الاسرائيلية بالتفصيل د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢١ .

ومن ثم اعتداء عليها ، واكد الرئيس السودانى على نفس المعنى وكذلك طائب الرئيس الجزائرى الدول الافريقية بقطع علاقاتها مع اسرائيل ، وايد الرئيس الموريتانى حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وقد أكد كثير من رؤساء افريقيا هذا الاتجاه ولم تكن هناك غرابة لصدور قرار المؤتمر يعلن لأول مرة احترام حقوق الشعب الفلسطينى الثابتة والتي تشكل عنصرا أساسيا لحل المشكلة وقد اكد القرار ما سبق تأكيده بشأن استمرار احتلال اسرائيل لجزء من اراضى مصر (٦٠) .

ولعل من المناسب القول بأن هذه الفترة وان اتسمت بقيام علاقات ديناميكية بين بعض الدول العربية والدول الافريقية ولاح فى الافق تغير فى موقف الدول الافريقية تجاه الدول العربية فان مبعث هذا التغير يكمن فى الدور العربى الذى لعبته دبلوماسية القمة فى اطار الزيارات المتبادلة والرسائل المتبادلة ، فضلا عن التفاعل العربى الافريقى على صعيد الأمم المتحدة ، بالإضافة الى العلاقات الدبلوماسية الثنائية بين الدول العربية والافريقية وبروز دور الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية خاصة دول شمال القارة الممتلئة فى مصر والجزائر وتونس والمغرب ، فقد ساهمت كل من المغرب وتونس فى ترايد التوجه الافريقى ، كما لعبت الجزائر دورا هاما فى مناهضة الاستعمار فى اطار توثيق العلاقات العربية الافريقية من خلال الاتصال بحركات التحرير فى الجنوب الافريقى ، فضلا عن المساعدات المادية لحركات التحرير (٦١) بصورة عامة ، ولعل هذه الجهود بالإضافة الى الجهد المصرى الفعال فى افريقيا بمختلف العادة سواء فى تأييد ومساندة مناهضة التفرقة العنصرية أو فى مساعدة حركات التحرير وتأييدها أو فى الوقوف بجانب الدول الافريقية ضد الحركات الانفصالية فلقد كان دور مصر فعالا ومساندا لحكومة نيجيريا ضد انفصال اقليم بيفرا ومؤيدا لحكومة زائير فى احداث شابا وان قيل انه يحقق دفعا ضد الحركة السوفيتية فى المنطقة فلا ضير فى أن يكون الهدف مزدوجا خاصة وأن مصر تحترم سيادة سلامة ارضى الدول الافريقية ولا تجيز الحركات الانفصالية

(٦٠) محمد عبد الله رضا عرفات ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢-٣٦٠ .

(٦١) راجع : وزارة الخارجية المصرية ، مرجع سابق ، ص ٨-١١ .

— د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

وبخاصة ذات الطابع الهدام الهادف الى الانجاهات اليسارية المتطرفة (١٢) .
وان كان عام ١٩٧٣ بداية مرحلة تميزت بالديناميكية الافريقية المنتظمة
تجاه القضية الفلسطينية والنزاع العربى الاسرائيلى وبتقلص التواجد
الاسرائيلى فى افريقيا فان هذه الديناميكية كانت متمشية مع خط الاتجاه
العالمى الدولى من هذه المسألة .

ولقد أفرزت هذه الفترة عديد من المتغيرات ، فقد كان نتيجة حرب
اكتوبر ١٩٧٣ ظهور قوة اقتصادية جديدة ممثلة فى الدول العربية البترولية
خاصة مع رفع أسعار النفط ظهور مبادرات سياسية افريقية صوب العرب
وانكسار نمى العلاقات الاسرائيلية الافريقية الى حد كبير ، وقد أدرك العرب
الجهد والمشاعر الافريقية والتي وضحت فى مؤتمر وزراء منظمة الوحدة
الافريقية فى الدورة الثانية غير العادية (١٩ — ٢١ نوفمبر ١٩٧٣) والتي
سبق الإشارة اليه فكان الاتجاه العربى المتميز والذي ظهر فى اطار مؤتمر
القمة العربى السادس فى الجزائر (٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣) والذي حضره
رئيس جمهورية زائير ممثلا عن منظمة الوحدة الافريقية بصفتها مراقب حيث
أصدر المؤتمر قرارات تتعلق بتأييد الدول الافريقية فى كفاحها من أجل التحرير
والتقدم الاقتصادى والنضال ضد الاستعمار والتمييز العنصرى ، وقرر
المؤتمر (١٣) دعم التعاون العربى الافريقى فى المجال السياسى ، قطع جميع
العلاقات مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا وتطبيق حظر تام بترولى
على تلك الدول ، مع تمويل الدول الافريقية بالبترول العربى ودعم التعاون
الاقتصادى والمالى معها ، وانشاء بنك عربى للتنمية الصناعية والزراعية
فى افريقيا « المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا » مع تقديم
المساعدات الفورية للشعوب الافريقية التى تعاني القحط وهكذا فقد اتخذت
خطوة ايجابية فى العلاقات المتبادلة بين العرب والأفارقة بالتنسيق والتنظيم
بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وكانت المحصلة مجموعة
وثائق التعاون العربى الافريقى التى اصدرها مؤتمر القمة العربى الافريقى

(٦٢) راجع فى الحركات الانفصالية وطبيعتها التقدمية أو الرجعية :
د. بطرس بطرس غالى : حوار حول الحركات الانفصالية ، الاهرام
الاقتصادى ، العدد ٤٤٨ ، ١٥ ديسمبر ١٩٧٥ ، ص ٦٦ .

(٦٣) يوسف الحسن : التعاون العربى الافريقى ، بيروت ، دار
الوحدة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦ .

الذى عقد فى القاهرة فى مارس ١٩٧٧ وما صاحب ذلك من قيام جامعة الدول العربية بإنشاء المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا وصندوق القروض للدول الافريقية والصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية (٦٤) .

ومن المناسب القول بأن المساعدات العربية صوب افريقيا لم تكن بين الدول العربية الواقعة فى آسيا فحسب بل شاركت فيها كذلك الدول العربية الافريقية كمصر والجزائر وليبيا وتونس والسودان (٦٥) ، كما انه من المناسب القول ايضا ان المساعدات والعون العربى لا يقدم الى دول افريقية فحسب بل ان بعض الدول العربية الافريقية تستفيد من هذا العون أيضا كموريتانيا والصومال (٦٦) .

ولقد استمر التأييد الافريقى للعرب فى نزاعهم مع اسرائيل من خلال قرارات منظمة الوحدة الافريقية التى كانت متماثلة الى حد كبير ، وعلى الجانب الآخر فان المعونات المالية العربية للدول الافريقية قد تزايدت بشكل واضح منذ عام ١٩٧٧ وان توقفت أجهزة التعاون الجماعى التى تكونت بموجب وثائق مؤتمر القمة العربى الافريقى فى عام ١٩٧٧ الا أن العون المالى لم يتوقف بالرغم من أن العلاقات العربية الافريقية شابها كثيرا من السلبيات التى سيتعرض لها الباحث فى الجزء الأخير من البحث ، وعلى وجه الخصوص فان موقف الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية لم يكن منسقا أو على قدر من الاجماع بل لقد حاولت بعض الدول تجميد عضوية مصر فى المنظمة على اثر توقيع اتفاقية كامب دافيد واتفاقية السلام بين مصر واسرائيل وان أصدرت المنظمة قرارا فى هذا الشأن الا أنه لم يشر الى هذه الاتفاقيات بالاسم وان أدان — الاتفاقيات الجزئية وجميع المعاهدات

(٦٤) د. عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢١ .

(٦٥) وهذه الدول بالاشتراك مع بعض الدول العربية الأخرى : السعودية والعراق وسلطنة عمان وقطر والكويت ساهمت فى رأس مال الصندوق العربى للمعونة الفنية لافريقيا .

(٦٦) أعلنت موريتانيا فى ١٩٧٨ تنازلها عن نصيبها فى الأموال المخصصة للكوارث الطبيعية والجفاف لصالح الدول الافريقية غير العربية وقدرها (١٥ مليون دولار) راجع : يوسف الحسن ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

المنفردة التى تنتهك الحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى (٦٧) . وأيا كان الاختلاف فى الراى والفكر الا أن هذه المحاولات وان باءت بالفشل عكست اثارا سلبية على باقى أعضاء المنظمة . فمصر وان غشاها ما غشى فى فترة ما ركيزة هامة ودعامة قوية من دعائم الوحدة العربية والوحدة الافريقية ولا نكون مغالين بالقول أن العرب والافارقة بدون مصر كيان ينقصه الكثير .

وبصفة عامة فان تباين موقف الدول العربية الافريقية فى عديد من القضايا المطروحة داخل منظمة الوحدة الافريقية كان سمة هذه الفترة . وبالتالي انعكس اثره بصورة عامة على العلاقات العربية الافريقية وسيعرض الباحث لهذه المسألة فى الجزء التالى من البحث .

نظرة مستقبلية لدور الدول العربية الافريقية

فى التعاون العربى الافريقى

تعد الدول العربية الافريقية داخل منظمة الوحدة الافريقية من أهم مراكز التعاون العربى الافريقى بل يجب أن تكون بحق قوى الدفع الحقيقية له وان كان هذا التعاون يجب الا يلقى صفة الافريقية عن هذه الدول فان هذه الصفة تمثل جسرا تعبر عليه العلاقات العربية الافريقية (٦٨) .

وبجانب هذا التأكيد فانه لابد من إبراز حقيقة هامة وهى ان الخلافات العربية التى يزع بها داخل منظمة الوحدة الافريقية على أساس أن لها صفة افريقية كالنزاع حول الصحراء الغربية مثلا تعكس أثارا سيئة فى اتجاهات الوحدة الافريقية وتعمل على ترسيخ مدركات افريقية معينة تجاه العرب تؤثر سلبا على مسيرة التعاون العربى الافريقى فمنظمة الوحدة الافريقية لا تخلوا اجتماعاتها على أى مستوى من بحث مشكلة من المشكلات العربية الافريقية . ومما يزيد حدة هذه الآثار السلبية تعاطف الاطراف العربية بل تعاونها مع بعض الاطراف العربية الافريقية ذات الخلافات مع بعض الاطراف الافريقية (٦٩) ، فضلا عن أن اتجاه الدول العربية الافريقية

(٦٧) CM/Res. 725, 726 (XXXIII).

(٦٨) راجع : محمد محمد فائق : ثورة ٢٣ يوليو و افريقيا ، فى العرب و افريقيا ، مرجع سابق ، ص ١٢٢-١٢٣ .
(٦٩) من أبرز الأمثلة نزاع الصومال واثيوبيا حول الأوجادين .

داخل المنظمة متباينة ومتناقضة الأمر الذى يعكس ضعف دور الدول العربية الإفريقية داخل المنظمة ، فقد ظهر هذا التباين فى عديد من المنازعات التى عرضت على المنظمة سواء العربى منها أو الإفريقى كقضايا الكونغو وزائير وأنجولا والقرن الإفريقى والصحراء الغربية ، بالإضافة الى مواقف هذه الدول من قضية ارتيريا .

ولقد برز موضوع البحر الأحمر والجدل حوله هل هو عربى أو إفريقى وذلك فى إطار النزاع فى القرن الإفريقى ، ولعل الأفارقة والعرب يدركون الأهمية المشتركة فى هذا الأمر فالبحر الأحمر يعكس أهمية بالغة للامن العربى وللامن الإفريقى وارتباط هذين بأمن الخليج العربى وبأمن البحر المتوسط (٧٠) .

ولعل الاختلاف الواضح فى الموقف العربى والإفريقى من قضايا الطرفين يمثل عائقا من العوائق التى تبطئ من ديناميكية التعاون العربى الإفريقى ، فبالرغم من موقف إفريقيا من القضية الفلسطينية وتأييدها الكامل وقطع علاقاتها مع إسرائيل ، إلا أن الدول العربية لم تتنهم جيدا الموقف الإفريقى من النظم العنصرية فى جنوب القارة على أنه جزء من مواجهة للقوى المعادية للتحريم الوطنى فى القارة وفى الشرق الأوسط على السواء ، فضلا عن التفسير الضيق فى بعض الأوساط العربية من أن موقف إفريقيا فى جانب العرب مبعثه الأساسى الحاجة الى أموال النفط العربية فضلا عن ابقاء العرب على كثير من علاقاتهم الجيدة بالنظم العنصرية الاستعمارية ، فقد بقيت قنصلية جنوب إفريقيا فى إحدى العواصم العربية تباشر نشاطها فى إطار علاقات طيبة حتى عام ١٩٧٥ ، بل أن الدول العربية فى عام ١٩٧٣ كانت أكبر مصدر للنفط المتجه لجنوب إفريقيا (٧١) .

ولعل الوهن الظاهر فى العلاقات العربية الإفريقية يعكس بشكل واضح مسألة المساعدات العربية لإفريقيا والتى تشارك فيها دول عربية

(٧٠) د. محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(٧١) حلمى شعراوى : قراءة جديدة لوقائع العلاقات بين حركتى التحرير العربى الإفريقى ، مجلة المستقبل العربى ، العدد ١٠ نوفمبر ١٩٧٩ ، ص ٨٧ .

افريقية ، فمع تزايد شعور الأفارقة بعدم الثقة المتزايدة فى القوى الكبرى ، كانت هناك أيضا خيبة أمل من جراء فشل الدول العربية النفطية فى الاسهام فى تمويل التنمية الاقتصادية من خلال الفوائض المالية المتوفرة لديها والتي تتجه لبنوك أوربا وأمريكا وبغرض اسهامها جزئيا فى تمويل التنمية ، فان عدم وجود خطة واضحة ومحددة وكذلك غياب الاستراتيجية الثابتة ، كل ذلك يؤثر على مسيرة التعاون بل ويدفع اطراف دولية أخرى بأن تقدم عوناً تكنولوجيا وفنيا وموارد مصنعة الى افريقيا ممولة بأموال عربية وهذا الأمر يمثل نوعا من الاستعمار التكنولوجى .

ويمكن تلافى هذه الآثار بتوضيح الخطط التنموية والعمل من خلال استراتيجية ثابتة واضحة قائمة على زيادة حجم الاعتمادات المتبادلة .

ولا نقول ان وجود الدول العربية فى منظمة الوحدة الافريقية له كل الآثار السلبية على مسيرة التعاون العربى الافريقى بل بالعكس نؤكد ان جهود هذه الدول عجلت بادراك افريقى جيد للقضية الفلسطينية وأسهمت هذه الدول فى دفع عجلة هذا التعاون من خلال الاطر المالية والثقافية وما زال امام هذه الدول العديد من الأدوار التى يمكن أن تضطلع بها فى افريقيا ، فمصر لها القدرة على التعامل الجيد والتأثير المتوازن فى منطقة حوض النيل والجزائر لها القدرة على التعامل مع الدول التقدمية لارتباطها بحركات التحرير ، ويمكن للمغرب أن تلعب دورا فى جل دول غرب افريقيا الاسلامية وكذلك موريتانيا بحكم صلاتها بمجموعة الفرنكفون يمكن أن تكون مؤثرة لدى هذه الدول (٧٢) وهكذا فانه يمكن توزيع هذه الأدوار بحكم روابط كل دولة وامكانيات فعاليتها السياسية أو الاقتصادية أو الحضارية .

ولعل النقد الذى سقناه بكون بداية للتصحيح ولا مكان الاستناد من طاقات الدول العربية الافريقية فى منظمة الوحدة الافريقية حتى تقدر على أن تلعب دورا أكثر نشاطا لحساب التعاون العربى الافريقى .

ولعل ذلك يعمل على ايجاد حد أدنى من تجميع الارادات والقدرات الذاتية والتعامل فى اطار من الضوابط الحضارية التى لا يفترق اليها الاصل العربى والافريقى كثيرا .

العرب والتوغل الاسرائيلى

فى أفريقيا

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ التوسع الاستعماري فى افريقيا ، فاحتلت بريطانيا مصر والسودان ، وصار لها مستعمرات فى غرب افريقيا فى كل من نيجيريا وجامبيا وسيراليون وساحل الذهب . وشجعت بريطانيا فى نفس الوقت الاستيطان الأوروبي فى كينيا وفى عام ١٨٩٠ استولت على نياسلاند . وفى عام ١٨٩٤ استولت على أوغندا ، كما استولت على مستعمرة الرأس الهولندية عام ١٨٠٦ . وفى عام ١٨٨٥ استولت بريطانيا على بتسوانلاند ، كما استولت على روديسيا وزامبيا ، وباختصار سجلت بريطانيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى تكوين امبراطورية ضخمة فى افريقيا تمتد من شمالها الى جنوبها ، ومن شرقها الى غربها .

ولم تكن فرنسا اقل حظا من غريمتها بريطانيا حيث راحت تنافسها فى كل مكان وصل اليه البريطانجون ، وفتح الفرنسيون صفحة الاستعمار فى القارة فى وقت مبكر عندما استولوا على الجزائر فى عام ١٨٣٠ ، واستولوا تباعا على تونس عام ١٨٨١ ثم مراكش عام ١٩١٢ . وكانت فرنسا قد شرعت فى فتح مجال جديد فى عام ١٨٩٠ فى السودان الغربى حيث استولت على المنطقة الواقعة حول بحيرة تشاد فى عام ١٩٠٠ ثم غزت ساحل العجاج وداهومى ، بل واستولت على الجابون عام ١٨٩٢ ، وامتد نفوذها الى الكونغو . وفى عام ١٨٩٥ ارسلت حملة عسكرية الى جزيرة مدغشقر فى شرق القارة .

وواضح ان فرنسا حاولت ان تضارع انجلترا فى كل اجزاء القارة وكان يراودها حلم ربط مستعمراتها فى شرق القارة فى منطقة جيبوتى بمناطق

غرب افريقيا لتقف امام خط القاهرة — الكاب الذى كان يراود احلام السياسة من البريطانيين (١) .

ودخلت المانيا بعد وحدتها ذلك المجال الاستعمارى فبدأت بغزو توجو والكاميرون عام ١٨٨٤ ، واستولت على جزء من الأراضى فى جنوب غرب القارة (ناميبيا حاليا) ومدت نفوذها الى منطقة نيجانيقا ورواندا وأورندى .

وفى عام ١٩٠٨ وضعت الكونفو تحت الادارة البلجيكية . ومع حلول القرن العشرين صار للبرتغال مستعمرتان فى كل من أنجولا وموزمبيق . وضم الاسبان الصحراء الاسبانية .

وكانت ايطاليا فى اواخر القرن التاسع عشر قد وحدت ممتلكاتها فى شرق القارة وشاركت بريطانيا وفرنسا فى اقتسام الصومال ، ثم استولت على ليبيا عام ١٩١٢ اما الولايات المتحدة الامريكية فقد اشترت قطعة من الأرض فى ليبيا ووطنت بها الزوج وظل يديرها حاكم امريكى حتى عام ١٨٤٧ ثم أعلنت قيام جمهورية ليبيا ولما انهزمت المانيا فى الحرب العالمية الاولى تقاسمت كل من انجلترا وفرنسا مستعمراتها حيث وزع الكاميرون وتوجو بين الدولتين ، واستولت بريطانيا على نيجانيقا وحصلت بلجيكا على رواندا وأورندى . أما اتحاد جنوب افريقيا فقد استولى على افريقيا الجنوبية الغربية « ناميبيا » .

لكن بعد قيام الحرب العالمية الثانية زادت حدة الحركات التحررية فى افريقيا وحصلت غالبية دولها على الاستقلال فى عام ١٩٦٠ (٢) .

وكان طبيعيا والقارة الافريقية تتمزق وتتوزع بين هذه الدول الأوروبية أن تنتشر ثقافة هذه الدول وتطفي على الثقافات المحلية التى قاومت كثيرا هذا الغزو الثقافى . ولما تحررت هذه الدول لم يكن من السهل التخلص من آثار هذا الاستعمار الذى غرس لفته وثقافته بين غالبية شعوب هذه المناطق التى نسيت لغاتها المحلية وصارت اللغة الانجليزية أو الفرنسية بمثابة لغات

(١) انظر تفاصيل هذا التكالب الاستعمارى فى كتاب شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٨٠ .
(٢) انظر جدول رقم (١) بدول افريقيا وتاريخ استقلالها .

التفاهم والتخاطب بين هذه الأقوام . وفى هذا الجو الثقافى وفى وسط هذا المناخ الحضارى الغربى وجدت اسرائيل ضالتها المنشودة لأن المهاجرين الى اسرائيل يتكلمون اللغات الأوروبية وهذا ما سهل لها عملية الاحتكاك والتفاهم مع الافارقة عشية الاستقلال . وهكذا كان الطريق ممهدا نحو السياسة الخارجية الاسرائيلية (٣) .

ومما سهل من مهمة اسرائيل هو أن معظم القيادات الافريقية بعد الاستقلال كانت قد تشربت التراث الغربى بسبب الدراسة فى المعاهد الأوربية التى كانت تتطلب دراسة اللغات الأوروبية ليسهل الحصول على المؤهلات المطلوبة ، وبدأت اسرائيل تقيم علاقات مع هذه الدول الافريقية قبل استقلالها عن طريق الوكالة اليهودية والهيئات النقابية والاجتماعية والمهنية مع بثلاثتها فى افريقيا (٤) .

وهكذا وجدت دول افريقيا المستقلة نفسها مثقلة بمراث استعمارى وخلفية ثقافية تتفق وتتمشى بشكل سلس مع وجهة النظر الاسرائيلية التى كانت بالفعل قد خطت خطوات وأقامت علاقات مع المؤسسات الافريقية المختلفة وكان هذا عاملا قويا فى سياسة اسرائيل نحو القارة الافريقية (٥) وحتى النصف الثانى من الخمسينات لم ترتبط اسرائيل بعلاقات مع افريقيا باستثناء ليبيا التى كانت ثالث دولة تعترف بقيام اسرائيل فى عام ١٩٤٨ وسحبت بفتح قنصلية فى مونروfia عام ١٩٥٤ (٦) .

ومن الأمور الملحوظة ان جمهورية جنوب افريقيا كانت الدولة الوحيدة التى لها علاقات قوية مع الكيان الصهيونى حتى قبل قيام دولة اسرائيل ، وحيث وافقت سلطات جنوب افريقيا العنصرية على المشروع الصهيونى

(3) Carter, Gwerdolen : Independence for Africa, London 1961, pp. 3-12.

(٤) رياض القنطار : التغفل الاسرائيلى فى افريقيا وطرق مجابهته ، ص ١٧ .

(٥) محمد على العوينى : سياسة اسرائيل الخارجية فى افريقيا . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٤٢ .

(٦) حمد سليمان المسوفى : التغفل الاسرائيلى فى افريقيا . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٣٨ .

وايدته وكان رئيس جنوب افريقيا كرستيان سـماتس (Smuts) ظل يحكم حتى عام ١٩٤٨ صديقا للصهيونية . وبعد قيام اسرائيل وفوز الحزب القومى بزعامة الدكتور مالان (Malan) ارتبط هذا الحزب مع الحركة الصهيونية فى الافكار والنظرة العنصرية (٧) وما ان بدأت حركة التحرر الافريقى حتى أخذ وزير خارجية اسرائيل ويدعى موشى شاريت يرسم سياسته على اساس اقامة علاقات مع دول القارة .

وبرز هذا الاتجاه الصهيونى لمواجهة نتائج مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥ وكان لمصر دور واضح وبارز . وخشيت اسرائيل من قيام تكتل افريقى أسيوى ضدها . وبدأت اسرائيل تعيد النظر فى سياستها الخارجية ازاء كل من افريقيا وآسيا (٨) .

وساعد اسرائيل على تحقيق جزء من سياستها انفتاح مضائق تيران بعد حرب عام ١٩٥٦ أمام الملاحة الاسرائيلية ، وعبر وزير خارجية اسرائيل موشى شاريت عن وجهة النظر الاسرائيلية « ان افريقيا تمثل من وجهة نظرنا ميدانا هاما لا ينبغي أن نسمح بنشوء فراغ فيه بعد حصول اقطارها على الاستقلال لأن ملء هذا الفراغ من قبل قوى غير صديقة سيعتبر نكسة لنا » ويضيف قائلا « ان الاهتمام بافريقيا نابع أيضا من روابط تاريخية يعود بعضها الى الماضى ويعود البعض الآخر الى مطلع هذا القرن حيث عرضت بعض اقطار افريقيا مثل كينيا على الحركة الصهيونية لتكون وطنا قوميا ينفذ فيه مشروع الانبعاث الاسرائيلى » (٩) .

ومن الطبيعى أن تسعى اسرائيل لاقامة علاقات مع افريقيا التى نخترن فى باطنها كميات هائلة من المواد الخام والمعادن ومصادر الطاقة ، اضافة الى الثروة الحيوانية والنباتية ، والميادين النفسيحة للاستثمار وتحقيق الارباح الطائلة ، ناهيك عن الموقع الاستراتيجى المتميز فى طرق المواصلات العالمية .

-
- (٧) حلمى عبد الكريم الزغبى : مخاطر التغلغل الصهيونى فى افريقيا . الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٥ .
(٨) عواطف عبد الرحمن : اسرائيل وافريقيا ، مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٥ .
(٩) دافيد كوهين : كتاب اسرائيل والعالم الافرو آسيوى ، اسرائيل ١٩٦٣ ، ص ٨٧ .

أولا : دوافع إسرائيل للقارة الافريقية :

والسؤال الآن : لماذا فضلت إسرائيل القارة الافريقية عن آسيا وأمريكا اللاتينية ؟

ان أسبابا كثيرة دفعت إسرائيل الى التركيز حول القارة الافريقية تتمثل فى أمور ثلاث :

(١) الدوافع السياسية (ب) المزايا الاستراتيجية (ج) ظروف القارة

(١) الدوافع السياسية :

ان ابرز هذه الدوافع السياسية سعى إسرائيل لتحطيم القيود حولها بعد مؤتمر باندونج ومحاولاتها اقامة جسور من الود والصداقة مع شعوب أفريقيا لكى تضمن التأييد لكيانها فى الأمم المتحدة التى تعتبر بمثابة برلمان الشعوب ، وهذا بالإضافة الى ان أفريقيا تمثل جبهة عريضة فى الصراع العربى الاسرائيلى نظرا لموقع عدد من الدول التى تجاور المنطقة العربية وخاصة جنوب الصحراء (١٠) .

كان هدف إسرائيل أساسا من اقامة علاقات مع دول افريقيا هو الحصول على اعتراف دولى شامل فى المحافل الدولية ولكى تضرب الحصار العربى المفروض عليها ، ومحاوله اسقاطه من خلال شبكة من العلاقات مع الكتلة الافروآسيوية ، والاقطار الافريقية والعمل على قيام علاقات مع هذه الدول . وبعد انشاء ميناء ايلات ازداد اهتمام إسرائيل بافريقيا وعبر رئيس وزراء إسرائيل دافيد بن جوريون عن هذا الاهتمام أثناء افتتاح ايلات « ان العلاقات مع افريقيا تحتل المرتبة الاولى فى علاقات إسرائيل الخارجية مع العالم لما تشكله من سوق ضخمة تحتاجها لتصدير ، المنتجات ومجالا لممارسة مختلف الأنشطة ، واعداد المناطق الصحراوية فى تلك الأقطار (١١) .

وبدأت إسرائيل تقدم المساعدات الى الدول الافريقية ابتداء من عام ١٩٥٨ وكانت هذه وسيلة استجابة لها الدول الافريقية ، وأسهمت هذه المساعدات فى تمهيد الطريق نحو التغلغل الصهيونى فى القارة .

(١٠) حمد سليمان المشوفى : مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .

(١١) مجلة معارف الاسرائيلية : فى ١١/١٠/١٩٦٢ .

(ب) المزايا الاستراتيجية :

عندما أحست إسرائيل بخطورة الحصار العربى حولها وجدت أن هناك دولا أفريقية يمكن أن تشكل قوة استراتيجية ، فسعت الى اقامة علاقات مع "نول" التى تحيط بالعالم العربى مثل أوغنده وكينيا ، وتشاد واعتقد الاسرائيليون أن التحالف مع هذه الدول يمكن أن يشكل تهديدا للبلاد العربية فى مصر والسودان والجزائر وليبيا والمغرب .

ولقد ساعدت الظروف الفكرية المنتشرة فى افريقيا على تكوين انطباع لدى بعض القيادات الافريقية من أن اسرائيل تشكل منارة فى الشرق ونموذجا يمكن أن يحتذى به فى مجالات التنمية والتعمير (١٢) . ونجحت اسرائيل فعلا فى كسب ثقة بعض القيادات السياسية والافريقية التى تجاوبت بسرعة مع الكيان الصهيونى (١٣) .

(ج) ظروف القارة :

حمل الاستعمار عصاه ورحل عن أفريقيا بعد أن تركها بؤرة للجهل والفقر والمرض والتخلف . واحست الحكومات الوطنية الافريقية أن هذه التركيبة وهذا الميراث الاستعماري يصعب حمله وأن امكانيات هذه القادة الافريقية لا تستطيع أن تعبر هذه المرحلة من التخلف دون اعتماد على قوى أخرى فكان ذلك عاملا لأن تتبؤ اسرائيل هذه المكانة .

وابتداء من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٧ تمتعت اسرائيل بقبول واسع النطاق فى افريقيا ، ووطدت علاقاتها مع الافارقة وارتفعت بعثاتها الدبلوماسية من ست بعثات عام ١٩٦٠ الى ثلاث وعشرين بعثة فى عام ١٩٦١ حتى بلغ اثنتين وثلاثين بعثة عام ١٩٧٣ (١٤) .

وكانت المجموعات اليهودية التى تنتشر فى بعض الأقطار الافريقية بمثابة ركيزة للتوغل الاسرائيلى ، وكانت هذه المجموعات قد دخلت القارة

(١٢) صحيفة دافار : لسان حال الهستدروت فى ٢٤/٣/١٩٦٠ .

(١٣) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٧ .

(14) Michael Curtis and Swzan Gitelson (ed) Israel in the Third World, New Brunswick, 1976, p. 183.

مع الاستعمار الأوربي وبلغت مكانة كبيرة مما أتاح لها الفرصة لأن تلعب دورا هاما في الاقتصاد الأفريقي ولا تزال هذه المجموعات حليفا مخلصا لإسرائيل ، وتعمل من أجل توطيد علاقات الصهانية بالقارة حتى وأن تعارضت مع مصالح الدول التي تعيش فيها (١٥) .

ونجحت إسرائيل في توطيد علاقاتها مع الدول الأفريقية حيث عبر عدد من زعماء أفريقيين عن ترحيبهم بإسرائيل ونذكر منهم الزعيم الكيني توم امبويا عندما قال « أن أى أفريقي يزور إسرائيل سيعجب لا محالة بالانجازات التي حققتها في فترة وجيزة رغم قحل أرضها وقلة مواردها الطبيعية ولذا فقد كنا جميعا مشتاقين للنسج على منوال تلك التجارب في بلادنا » (١٦) .

وأكد هذا الرئيس جوليوس نيريري « أن إسرائيل بلد صغير ولكنه يستطيع أن يقدم الكثير لبلد مثل بلدي . اننا نستطيع أن نتعلم دروسا نائفة من إسرائيل نظرا لتشابه المشاكل التي تواجهها وعلى رأسها مشكلة بناء الأمة وتوحيدها ثم تعمير الأرض » (١٧) .

ونجحت إسرائيل في تحقيق أمانى الزعماء الأفارقة حتى في المسائل المالية ويروى أحد المسؤولين عن أحد مكاتب الاعلام العربى في صيف عام ١٩٧٤ قصة طريفة توضح قدرة إسرائيل على تلبية رغبات الأفارقة عندما طلب رئيس أفريقي غرفة نوم فرعونية في قصره الجديد بعد أن فشلت تركة النصر المصرية للتصدير والاستيراد في تحقيق هذه الرغبة طوال مشاورات استمرت أكثر من سنة أشهر وتمكنت إسرائيل من استيراد الغرفة عن طريق أحد عملائها في إيطاليا وتم توصيلها الى مقر الرئيس الأفريقي خلال فترة لا تتجاوز بضعة أسابيع (١٨) .

(١٥) شئون اسرائيلية : مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد
عدد ٦٥ لعام ١٩٨٣ .

(١٦) انظر هذه العبارة في

The Journal of Modern African Studies, voi 16, 1978. pp. 360-362.

(17) Ibid : p. 362.

(١٨) يوسف الحسن : التعاون العربى الأفريقي ، بيروت ١٩٨٢ ،
ص ٥٢ — ٦٠ .

(م ٢٨ — العرب في أفريقيا)

والآن ننتقل الى مرحلة التغفل الاسرائيلى فى القارة .

ثانيا — مرحلة التغفل الاسرائيلى فى أفريقيا :

عندما شرعت اسرائيل فى التوغل داخل القارة بنت استراتيجيتها على أربعة محاور أساسية ، حيث قامت فى المرحلة الأولى بالمبادرة بالاعتراف باستقلال الدول الافريقية ثم قامت بانشاء علاقات دبلوماسية معها وفى المرحلة الثالثة عرضت المهونات الفنية والمالية وأخيرا عقد الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية .

وكانت اسرائيل منذ قيامها تسعى لاقامة علاقات مع الأقطار الافريقية ونجحت فى تحقيق هذا الهدف من خلال اللقاءات المباشرة مع حركات التحرر ومع الشخصيات الافريقية ومع ممثلى الأحزاب فى كل البلدان الافريقية جنوب الصحراء ونجح حزب الماباى (حزب عمال اسرائيل) فى الفترة من عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٧٠ فى أن يعزز مكانته فى كل من السنغال وأوغنده ومالى وغانا .

واعترفت اسرائيل بالدول الافريقية فور استقلالها وأرسلت الوفود للتهنئة وتقديم المساعدات وكانت غانا تجربة واضحة فى هذا المجال

وجاءت بعد ذلك مرحلة اقامة علاقات دبلوماسية مع الحكام الأمارة ومن هؤلاء الزعماء جومو كينياتا أول رئيس لكينيا الذى استقبل جولدا مائير أثناء احتفالات الاستقلال وأيضا الرئيس الليبيرى ويليام توبمان الذى كانت له علاقات قوية مع اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ، وأيضا الرئيس جوزيف موبوتو رئيس زائير والذى كان يلقى دورة عسكرية فى اسرائيل . وأيضا الامبراطور هيلاسلاسى امبراطور اثيوبيا وهنالك أيضا الرئيس فوليكس هونا بوانى رئيس ساحل العاج ، وليولولد سنجور رئيس السنغال السابق والذى كانت له علاقة مع رئيس المؤتمر الصهيونى ناحوم جولدمان أيام ان كان سنجور طالبا فى جامعة السوربون .

وجاءت بعد ذلك مرحلة هامة وحيوية الا وهى مرحلة التمثيل الدبلوماسى حيث نجحت اسرائيل فى انشاء شبكة من العلاقات الدبلوماسية مع بحوالى

ثلاثين دولة افريقية عدا جنوب افريقيا (١٩) . ووطدت اسرائيل علاقاتها عن طريق تبادل الزيارات بينها وبين الرؤساء الافارقة حيث زار تل أبيب كل من حكومات نيجيريا وتشاد وفولتا العليا وتوجو وليبيريا وساحل العاج والجابون ومالي (٢٠) .

وتبع هذا التمثيل الدبلوماسي مرحلة أخرى من التغلغل الاقتصادي فى القارة واعتمدت اسرائيل على بعض رجال الأعمال من أسرة روتشلد وشفارتس واحتل هذا النشاط الاقتصادى الاسرائيلى فى افريقيا مكان الصدارة فى مجمل التجارة الصهيونية . فقامت بعملية مسح للاسواق وأعدت الدراسات عن ظروف كل دولة واحتياجاتها من السلع ، ودرجة المنافسة مع الدول الأخرى وقامت بعد ذلك بعقد المعاهدات التجارية مثل الاتفاق مع غانا عام ١٩٥٨ وتبعته دول أخرى مثل اثيوبيا وأوغنده وتوجو وداهومى وفولتا العليا والجابون وليبيريا الكاميرون وافريقيا عام ١٩٦٢ (٢١) وقامت اسرائيل بفتح المكاتب التجارية وقدمت التسهيلات المالية وأقامت المعارض التجارية مثل معرض غانا الدولى ١٩٥٧ ومعرض زامبيا ١٩٦٧ ومعرض نيروبي ١٩٦٧ ، ومعرض أديس أبابا ١٩٦٨ . ونتيجة لهذه الحركة التجارية النشطة ارتفعت صادرات اسرائيل من ١٠٥ مليون عام ١٩٦٠ الى ٤٧٥ مليون عام ١٩٧١ . أى بزيادة تقدر بأربعة أضعاف مقابل ارتفاع الواردات الافريقية فى نفس الفترة من ١٧ر٨٢ مليون الى ٢٥٥ مليون دولار . وبعبارة أخرى نجحت اسرائيل فى استغلال افريقيا كسوق لتصريف منتجاتها وتضاعف هذه الصادرات أربعة أضعاف خلال عشر سنوات وكان هذا النجاح قائما على أساس تصدير منتجات لم تجد سوقا غير افريقيا لها مثل السجاد والأثاث واستغلال القارة للحصول على المواد الخام (٢٢) .

ولم يتوقف نشاط اسرائيل على المجالات السياسية والاقتصادية بل تعداه الى مجال اشد خطرا الا وهو المجال العسكرى . فلقد أرسلت اسرائيل بعثات عسكرية بأعداد كبيرة ، بل وأرسلت وحدات كاملة الى بعض الدول

-
- (١٩) انظر جدول رقم (٢) عن التمثيل الدبلوماسى فى افريقيا .
(٢٠) خالد اسماعيل : علاقات اسرائيل بالدول النامية لعام ١٩٦٨ ، السلسلة الاعلامية ، عدد ١٧ ، ص ١٧ — ١٨ .
(٢١) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٥٩ .
(٢٢) انظر بالتفصيل جدول رقم (٣) عن صادرات اسرائيل و وارداتها .

مثل زائر واشرفت على تنظيم وتدريب الأفارقة وأرسلت المستشارين ، من أجل تدريب الجيوش الافريقية ، وتصدير الأسلحة وتصدير تجارب الشباب الطلائعى المدرب الى الاقطار الافريقية . وقامت اسرائيل بانشاء قواعد عسكرية فى بعض الدول الافريقية مثل القواعد الجوية فى تشاد والقواعد البحرية فى الحبشة فى مصوع وفى مدخل البحر الأحمر ، وانشاء وحدات شبه عسكرية مثلما حدث فى كينيا وأوغنده وتشاد .

ولم يتوقف نشاطها على تلك النواحي السابقة ، بل امتد الى النواحي العلمية والثقافية . فلقد حاولت اسرائيل تقديم رشوة الى الصحف من أجل غزو العقول الافريقية والاشادة بالوجود الاسرائيلى ونجحت فى شراء بعض الصحف مثل صحف كينيا تايمز (Kenya Times) وبعض صحف ليبيريا مثل ليبيريا ستار ودبلى لستر والى جانب هذا قامت بعرض أفلام سينمائية تدور حول ما يسمى بكفاح اسرائيل وتقدمها الاقتصادى والاجتماعى وعقدت اسرائيل حوالى ثمان واربعين اتفاقية ثقافية مع ثمان عشرة دولة افريقية فى الفترة من ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٤ (٢٣) .

واستطاعت اسرائيل فى الفترة من ١٩٦٠ حتى عام ١٩٧١ أن تعقد احدى وخمسين اتفاقية للصدقة والتعاون فى المجالات المختلفة مع خمس وعشرين دولة افريقية .

ولكن ما هى العوامل التى ساعدت على نجاح هذا النشاط الاسرائيلى فى افريقيا ؟

يمكن أن نجل العوامل التى ساعدت على نجاح اسرائيل فى القارة الافريقية فى أربعة عوامل هى بايجاز ما يلى :

(١) العوامل العربية :

حيث ساعدت بعض العوامل العربية السلبية التى وقفتها تجاه اسرائيل فى القارة وكان التقصير العربى سببا فى تحريك الكيان الاسرائيلى فى القارة وكان عدم التحرك العربى الجماعى لمواجهة هذا النشاط

(٢٣) الارشيف العبرى ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد .

الاسرائيلى سببا فى ازدياد توغل اسرائيل فى القارة ، كما لم تبذل الدول العربية جهودا جادة تجاه ما يجرى فى القارة باستثناء الدور الذى قامت به مصر .

وتمثل هذا النشاط العربى السلبى فى عدم وضع برامج لتبسيط الزيارات بين الزعماء العرب وزعماء افريقيا . يضاف الى ذلك أيضا عدم قدرة الدول العربية على توفير احتياجات الدول الافريقية بسبب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية .

كل هذه العوامل كانت سببا فى تحرك اسرائيل بسهولة وتوغلها الى داخل افريقيا كما ان اسرائيل لعبت دورا خطيرا فى استغلال عملية تجارة الرقيق لا سيما فى شرق القارة وفى وادى النيل بشكل ترك آثارا سيئة فى نفوس الأمارة واستثمرت اسرائيل هذه العملية واشعلت نار الحقد بين العرب والأمارة خصوصا فى فترة ما بعد استقلال البلدان الافريقية وخصوصا فى زنجبار وجنوب السودان (٢٤) .

(ب) العوامل الافريقية :

لقد كان لظروف القارة الافريقية عشية الاستقلال أثره فى امتداد النشاط الصهيونى الى القارة ، وكانت اسرائيل تنتظر الفرصة لتدخل القارة وساعدها على ذلك عدة عوامل افريقية ومنها حاجة دول افريقيا الى مساعدات مادية وفنية لتطوير وتنمية مواردها ، وأيضا بسبب عدم وجود منافسة قوية فى القارة تعرقل من نشاط اسرائيل الذى ظهر فى شكل شركات احتكارية يمتلكها الصهاينة ومنهم أوبنهايمر الذى يعرف بملك جنوب افريقيا غير المتوج والذى يمتلك ٣٢٪ من انتاج الذهب فى العالم و ٨٠٪ من الماس و يمتلك نسبة كبيرة من أسهم شركة اليورانيوم (٢٥) .

(٢٤) مدثر عبد الرحيم الطيب : نظرة افريقيا للنزاع العربى الاسرائيلى ، ضمن كتاب العرب و افريقيا ، بيروت ١٩٨٤ .

(٢٥) انظر الارشيف العبرى بجامعة بغداد وأيضا حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ٣٠ — ٣٥ .

(ج) العوامل الاسرائيلية :

وقد تمثلت هذه العوامل فى قدرات اسرائيل على تقديم الخبرة واملاك التكنولوجيا التى تحتاجها افريقيا بالاضافة الى وجود شركات صهيونية شاذرة على العمل فى الخارج وخصوصا فى مشروعات تحتاج اليها القارة الافريقية مثل مد الطرق وتطوير مصادر الرى وانشاء الفنادق السياحية ، وفى المجال الزراعى .

(د) العوامل الخارجية :

ساعدت عوامل خارجية على توغل اسرائيل فى القارة ومن أهم هذه العوامل الدعم السياسى من جانب الدول الغربية مثل بريطانيا وبلجيكا ، ولقد ساعدت بريطانيا اسرائيل على اقامة قنصلية فخرية لها فى سيراليون وكينيا لى تكون ركيزة تتوغل منها الى داخل القارة (٢٦) . وقامت الدول الغربية بتمويل المشروعات الصهيونية فى افريقيا وخصوصا دعم الولايات المتحدة لهذه المشروعات بالاضافة الى استثمار اسرائيل للمنظمات الدولية ووكالات الأمم المتحدة من أجل دعم هذا النشاط الاسرائيلى وكان الخبراء الصهاينة الذين جاءوا الى افريقيا من هذه الدول يعملون لخدمة اسرائيل اولا وقبل كل شىء .

هذه باختصار العوامل الأربع التى مكنت لاسرائيل من توسيع نشاطها فى القارة ، وكان أهم عامل فى هذا المضمار ضعف الوجود العربى فى هذه الفترة وعدم قدرته على مجاراة التوسع الاسرائيلى الذى استثمر خلو الساحة الافريقية من المنافسة العربية ، وحاجة القارة الى الجهود الجبارة لتطوير اقتصادياتها ، فراحت تتوسع وتتوغل فى القارة .

ثالثا — مرحلة قطع العلاقات بين افريقيا واسرائيل :

رغم ان اسرائيل قد تمكنت من التوغل داخل القارة مستتلة حاجة الدول الافريقية الى الدعم المادى والفنى بعد استقلالها ، الا ان ضرورة

(٢٦) منذر عنبى : أضواء على الاعلام الاسرائيلى . مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢٠ .

اسرائيل التى ظلت ترسمها فى ذهن الأفارقة بدأت تتغير مع مرور الأيام وبروز الأحداث التى أكدت عكس ما كانت تزعم اسرائيل ايها الأفارقة به . ثم جاءت أحداث حرب يونية ١٩٦٧ لتتضى على تلك الفكرة الصهيونية بأن اسرائيل حمل وديع أو حملة بىضاء تنشد السلام والأمان ، وأحس الأفارقة أن اسرائيل ما هى الا رأس جسر يعبر منه المستعمرون مرة أخرى الى القارة بعد أن عانت كثيرا من الاستعمار الغربى ، وأدرك الأفارقة أن الحركة الصهيونية حركة عنصرية توسعية لا تقل كثيرا عن الحركة النازية سواء فى الفكر أو التطبيق .

بعد حرب يونيو ١٩٦٧ أدركت غينيا هذه الحقيقة — فكانت أول دولة افريقية تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وتلتها دول افريقية أخرى فى عام ١٩٧٢ وقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ قطعت كل من الكونغو الشعبية واوغندا وتشاد وبورندى وتوجو وزائر علاقاتها مع اسرائيل أى أن ستة دول قطعت العلاقات قبل الحرب فى عام ١٩٧٣ .

وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ قطعت بقية الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل ما عدا مالاوى وسوازيلاند وموريشيوس وليسوتو (٢٧) . ومنذ عام ١٩٧٣ استقلت دول افريقية لكنها لم تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، وهذه الدول هى غينيا بيساو ، وموزمبيق وساو تومى وبرنسيب وانجولا وجزر الرأس الأخضر ، وجزر القمر .

ولنا أن نتساءل هل كانت حرب أكتوبر هى الدافع الى هذه الانعكاسة فى العلاقات بين اسرائيل والدول الافريقية أم أن عوامل أخرى قد ساعدت على هذه النكسة فى العلاقات ؟

مما لا شك فيه أن حرب أكتوبر كانت أهم وأبرز العوامل التى دفعت دول افريقيا الى تغيير اتجاهاتها ، وتقطع علاقاتها مع اسرائيل لكن هذا لا يغفل الأمور الأخرى التى ترسبت من الحقبة القليلة الماضية وازدادت رسوخا مع الأيام وجاءت الحرب لتكشف بجلاء عن أطباع الصهيونية على

(٢٧) انظر جدول الدول التى قطعت علاقاتها مع اسرائيل وعددها تسع وعشرون دولة ولم يبق سوى أربع دول هى التى تدور فى فلك اتحاد جنوب أفريقيا (جدول ٤) انظر صحيفة المحرر اللبنانية فى ١٣/١١/١٩٧٣ .

حقيقتها وانها دولة توسعية امبريالية عنصرية فكانت خطوة قطع العلاقات رد الفعل الطبيعي تجاه زيف هذا العدو الاسرائيلى ، ويمكن ان نحدد العوامل الأخرى التى ساعدت على هذه القطيعة وهى :

(أ) عوامل ارتبطت باسرائيل ذاتها :

ثبت للانفارقة بشكل خاص أن هناك علاقة وثيقة بين اسرائيل وحكومة جنوب افريقيا وظهر التطابق بعد حرب ١٩٦٧ فى المواقف العدائية لهذه الكيانات ضد العرب والانفارقة .

وجاء تأييد اسرائيل للتمييز العنصرى فى روديسيا ليضيف بعدا جديدا وتلاه التأييد الاسرائيلى للبرتغال لكى تقف أمام موجة التحرر فى كل من انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو . ووصل الأمر الى درجة تأمر اسرائيل على وحدة الاقطار الافريقية وتدعيم الحركات الانفصالية وحركات التمرد فى جنوب السودان واغتيال باتريدى لومومبا الزعيم الكونغولى ، ودعم الحركة الانفصالية فى بيافرا (شرق نيجيريا) (٢٨) .

وبعد الحرب فى عام ١٩٦٧ تدهور مركز اسرائيل الاقتصادى ، فانضطرت الى تقليص مساعداتها الى الدول الافريقية وبالطبع تأثرت هذه الدول بهذا الانكماش الاسرائيلى الذى عرقل تنفيذ المشروعات الاسرائيلية فى دول افريقيا وتأثرت تباعا الحركة السياسية وقلت رعوس الأموال الاسرائيلية فكان هذا عاملا فى ابراز عجز الكيان الصهيونى عن تلبية احتياجات الدول الافريقية . . . يضاف الى ذلك أن الانفارقة داخل اسرائيل احسوا بنوع من التفرقة العنصرية الشبيهة بما هو مطبق فى جنوب القارة فبدأت تتغير صورة اسرائيل فى القارة .

(ب) عوامل مرتبطة بالقارة ذاتها :

بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بدأت الدول الافريقية تدرك حقيقة النظام الاسرائيلى ومدى ارتباطه بالنظام العنصرى فى جنوب القارة وكان لمنظمة الوحدة الافريقية دور بارز وفعال فى علاقات اسرائيل بافريقيا . وكانت

المنظمة تحجم عن اتخاذ قرارات أو مواقف لدعم القضية العربية وظل هذا الحال هو موقف المنظمة حتى حرب يونيو ١٩٦٧ ومن هنا طرا التحول في موقف المنظمة لكنه كان ضئيلا فأصدرت اعلانا يعرب عن انزعاجها لاحتلال جزء من اراضي مصر لكونها احد الأعضاء في المنظمة وأشار الاعلان الى دعم الموقف العربى فى الأمم المتحدة من أجل تحقيق الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة (٢٩) .

وفى عام ١٩٦٨ اجتمع مجلس وزراء المنظمة فى اديس ابابا وأكد على ضرورة تقديم الدعم المادى والمعنوى للفعال لمصر والدول العربية التى احتلت اراضيها وتطور الأمر فى نفس العام اثناء انعقاد مؤتمر القمة الأمريقى فى الجزائر . حيث صدر قرار (٥٣) يطالب بالانسحاب الصهيونى من جميع الاراضى العربية المحتلة وليس من سيناء فقط ، كما ادان المؤتمر السياسة العدوانية لاسرائيل وطالبها بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (٢٠١٢٤٢) .

وتغير موقف المنظمة بعد ذلك حتى جاء المؤتمر السابع فى اثيوبيا عام ١٩٦٩ وادرج بند للقضية الفلسطينية وأيد أعضاء المؤتمر الحق العربى الكامل وطالبوا بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة (٣١) .

ومما لا شك فيه ان هذا القرار يعتبر بمثابة تحول خطير وهام للمنظمة تجاه القضية الفلسطينية حيث بدأت دول القارة الافريقية تتفهم حقيقة الأوضاع وكانت اجتماعات المنظمة فى عام ١٩٧١ فى اديس ابابا وفى الرباط عام ١٩٧٢ مثير دليل على هذا التحول وتأييدها للنضال العربى بسبب مواقفها المتعنتة ، وادانتها للكيان الاسرائيلى بسبب علاقاته مع جنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال .

(ج) عوامل مرتبطة بالموقف العربى :

لقد تغير الموقف العربى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وكانت مطالب الدول الافريقية واحتياجاتها من الأسباب التى أدت الى التقارب بين العرب

(٢٩) يحيى رجب : الرابطة بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٤٧ .
(٣٠) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

وأفريقيا وهذا التقارب كان له أثره الكبير في إقدام الدول الإفريقية على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ونظرا لأهمية هذا الدور العربي في تلك المرحلة فسوف نفرد له بندا خاصا بعد الانتهاء من العوامل الأخرى التي ساعدت على قطع العلاقات بين الأفارقة وإسرائيل .

(د) دور مصر في مناهضة العنصرية والصهيونية في إفريقيا :

لا نستطيع أن نجاهل الدور الكبير الذي قامت به مصر في مقاومة النشاط الصهيوني في إفريقيا منذ تحرك إسرائيل نحو القارة ، وكان هذا الدور متميزا حيث عملت مصر عبر كافة المؤتمرات الدولية وخصوصا المؤتمرات التي تشترك فيها الدول الإفريقية على عزل إسرائيل وتجلى هذا الدور منذ مؤتمر باندونج في عام ١٩٥٥ .

ولم يقتصر دور مصر على المجال الدبلوماسي بل تعداه إلى الصعيد الاقتصادي وحاربت مصر إسرائيل بسلاح اقتصادي تمثل في تقديم المساعدات الاقتصادية والفنية وإرسال الخبراء إلى الدول الإفريقية (٢٢) .

(هـ) عوامل تقصّل بالدول الأخرى (عوامل دولية) :

بدأت بعض الدول تغير سياستها نحو إفريقيا وأخذت تنتهج سياسة أكثر اعتدالا ، وظهر كل من الاتحاد السوفيتي والصين على مسرح الأحداث الإفريقية وأيدا حركات التحرر في القارة وقدمتا المساعدات الاقتصادية والفنية لدول مثل تنزانيا والحبشة وأوغندا بالإضافة إلى تدريب الكوادر الإفريقية وظهر دور دولة أخرى هي يوغوسلافيا التي راحت تساند الدول الإفريقية وتقدم لها الدعم والعون الفني (٢٣) .

هذه هي العوامل التي ساعدت على إقدام الدول الإفريقية على قطع علاقاتها مع إسرائيل ، لكن أبرز هذه العوامل التي دفعت دول إفريقيا بشكل

(٢١) عصام محسن الجبوري : العلاقات العربية الإفريقية ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٤٢ .

(٢٢) حمد المشوفي : مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .

(٢٣) عواطف عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

يكاد يكون جماعيا ، هو الموقف العربى فى تلك الفترة وهو ما سنعالجه مع الدور المصرى بشكل مفصل .

رابعاً — الموقف العربى من التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا :

لقد شكلت المقاطعة العربية عاملاً حاسماً فى مواجهة النشاط الاسرائيلى فى افريقيا حيث أن هذه المقاطعة حرمت اسرائيل من التعامل الاقتصادى مع الدول الاخرى وسدت أبواب العديد من الأسواق فى وجهه بل ومنعت تدفق الاستثمارات الى كيانه وكانت المقاطعة قد أدت الى إلحاق أضرار كبيرة بالقدرة الاقتصادية لهذا الهيكل الاسرائيلى ولقد أحست الأوساط الاسرائيلية بخطورة هذه المقاطعة لدرجة أن تقدير وزارة التجارة والصناعة على اسرائيل أفاد أن المقاطعة العربية حذت من إمكانية تطوير التبادل التجارى بين اسرائيل والدول الافريقية حتى ان صادرات اسرائيل الى أفريقيا لم تتجاوز ١٠ ٪ (٢٤) .

وبدأت العلاقات العربية بين العرب واسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية حينما اهتمت مصر بقضايا المستقبل السياسى فى حوض وادى النيل وقضايا تصفية الاستعمار الايطالى فى افريقيا ونظراً لعضويتها فى الأمم المتحدة بدأت تهتم بنشاط مجلس الوصاية الدولى ومستقبل الشعوب الافريقية التى كانت خاضعة للانتداب فى ظل عصبة الأمم . وساهمت جامعة الدول العربية منذ تأسيسها بدور فعال فى مجال العمل من أجل حق تقرير المصير لشعوب المنطقة التى كانت خاضعة للاستعمار الايطالى (٢٥) . وشاركت الجامعة منذ عام ١٩٤٦ فى قراراتها المتعاقبة بمعارضة سياسة اتحاد جنوب افريقيا المبنية على التمييز العنصرى . وكان موقف الدول العربية ايجابيا فى الأمم المتحدة حيث صدر القرار رقم ١٧٦١ بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٦٢ بشأن التفرقة العنصرية والذى دعت فيه الدول الأعضاء الى فرض عقوبات اقتصادية ودبلوماسية على جنوب افريقيا .

(٢٤) وزارة التجارة والصناعة الاسرائيلية ، النشرة الشهرية عدد رقم ١٢/٣ فى ١٩٧٥/٤/١ .

(٢٥) انظر دور مصر فى مساندة بعض دول افريقيا فى : عبد الله عبد الرازق ابراهيم : مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال افريقيا ، القاهرة ١٩٨٦ .

ولعبت الدول العربية دورا كبيرا فى عزل اسرائيل فى مؤتمر بانمونج عام ١٩٥٥ وبعد حرب عام ١٩٥٦ بدأ الدور العربى يظهر بشكل واضح فى المجال الافريقى ولفقت مصر فى مؤتمر اديس ابابا عام ١٩٦٣ الى حثيثة الصراع العربى الاسرائيلى وكان لهذا الموقف اثره فى عقد العديد من الاجتماعات التى ابرزت صورة النزاع العربى الاسرائيلى فاستنكرت الدول الافريقية فى اجتماعاتها العدوان الاسرائيلى وتطورت النظرة الافريقية الى درجة تبنى وجهة النظر العربية وربط اسرائيل بالاستعمار الجديد وادانة الصهيونية كحركة عنصرية (٣٦) .

وعقب حرب اكتوبر ١٩٧٣ قامت الدول الافريقية بتأييد النضال العربى وطالبت بانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة ، كما ربطت الدول الافريقية بين حركة التحرير الفلسطينية وبين حركات التحرر الافريقية واعتبرت قضية فلسطين قضية عربية افريقية .

واحس العرب بأهمية هذا التعاون العربى الافريقى . فانعقد مؤتمر القمة العربى السادس فى الجزائر فى الفترة من ٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ بهدف دعم العلاقة بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية واعرب المؤتمر عن تقدير الدول العربية للدول الافريقية لتأكيد التضامن العربى الافريقى من خلال الدورة الاستثنائية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية التى انعقدت فى الفترة من ١٠ — ٢٢ نوفمبر ١٩٧٣ واتخذ المؤتمر عددا من القرارات التى تهدف الى دعم التعاون العربى الافريقى ومنها تعزيز التعاون العربى الانتريقى بزيادة التمثيل العربى فى افريقيا وقطع جميع العلاقات الاقتصادية والقنصلية مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا من قبل الدول العربية التى لم تتم بذلك بعد . وتطبيق حظر تام لتصدير البترول العربى الى هذه الدول الثلاث ومضاعفة التأييد على الصعيدين الدبلوماسى والمسادى لكفاح منظمات التحرير الافريقية .

كما وافق المؤتمر على تكليف الأمانة العامة لجامعة الدول العربية باتخاذ الاجراءات التنفيذية والاتصال بالامانة العامة لمنظمة الوحدة الافريقية لتنظيم مشاورات دورية على مختلف المستويات بين الدول العربية والافريقية .

(٣٦) عبد الملك عودة : الدول الافريقية والقضايا العربية . ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية ، ص ٣١٦ .

وهكذا كانت قرارات مؤتمر القمة العربى السادس فى الجزائر تأييدا لما قرره مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دورته الثامنة غير العادية التى عقدت فى اديس ابابا فى الفترة من ١٩ — ٢١ فبراير عام ١٩٧٣ وذلك لتحقيق التضامن الافريقى ودعم التعاون فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية . ولقد كانت حرب اكتوبر بمثابة نقطة الانطلاق نحو هذا التعاون بين العرب والامارقة وغير هذا التعاون من هيكى السياسة الافريقية تجاه العرب (٢٧) وأقر مؤتمر القمة العربى اقامة صندوق عربى افريقى برأسمال قدره مائة مليون دولار ، وارتفع رأس المال فيها بعد الى مائتى مليون دولار لمساعدة الدول الافريقية التى تواجه صعوبات اقتصادية بسبب ارتفاع اسعار البترول . وفى نهاية عام ١٩٧٤ أقرض صندوق المعونة البترولية خمسين مليون دولار الى ست عشرة دولة افريقية وكانت الفائدة ١٪ لكنها ألغيت تماما فى نوفمبر ١٩٧٤ ، على أن يبدأ الدفع بعد عشر سنوات ويوزع الدين على أقساط تتراوح ما بين خمسة عشر عاما وخمسة وعشرين عاما . وانشئ بنك عربى للتنمية الزراعية والصناعية لافريقيا فى الخرطوم فى يناير ١٩٧٤ برأسمال مبدئى قدره مائة وخمسة وتسعين مليون دولار ، ارتفعت الى مائتى واحد وثلاثين مليوناً من الدولارات فى عام ١٩٧٤ (٢٨) .

وتجلى هذا التعاون العربى الافريقى فى الأمم المتحدة فى الدورة ٢٩ والتى رأسها عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٤ حيث قررت الجمعية العامة للامم المتحدة دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لحضور اجتماعات الجمعية العامة بصفة مراقب والقاء خطاب بها عن المشكلة الفلسطينية وكذا القرار الخاص بالنصويت على منع جمهورية جنوب افريقيا من حضور جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة وكان للدور الافريقى العربى اثره الكبير فى مثل هذه القرارات (٢٩) .

(37) Zdenek Cervenka . The Afro - Arab Alliance, p. 79.

(٢٨) محمد عبد الفنى سعودى: العروبة والافريقية مواجهة أم تضامن . بحث ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية الذى تصدره المنظمة العربية للتعليم والثقافة والعلوم . القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٧٧—٢٧٨ .

(٢٩) عبد العزيز سرحان : المنظمات الاقليمية والمتخصصة ، القاهرة ١٩٧٤ « منظمة الوحدة الافريقية وأزمة الشرق الأوسط » ، ص ٨٠ .

وفى الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة كان لاتحاد الدول العربية والافريقية اثره فى صدور قرار الجمعية العامة باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية وهو أول قرار من المنظمة يدين فيه السياسة الاسرائيلية (٤٠) .

وفى مؤتمر وزراء الخارجية العرب والافارقة الذى عقد فى داکار بالسنگال فى ١٩ ابريل ١٩٧٦ وافق المؤتمر على برنامج التعاون الدولى الافريقى فى شتى المجالات وأدان المؤتمر الاستعمار والصهيونية والفصل العنصرى وسائر أشكال التمييز العنصرى فى افريقيا وفلسطين والأراضى العربية المحتلة .

وهكذا تضافرت عوامل عديدة ساعدت على التقارب العربى الافريقى عبر السنوات الماضية وكان للدعم الذى قدمته الدول العربية لحركات التحرر الوطنى فى افريقيا اثره فى تقوية هذا التضامن . يضاف الى ذلك دور الدول العربية وخصوصا مصر فى دعم حركة عدم الانحياز ، وقيام منظمة الوحدة الافريقية والمشاركة المستمرة فى أعمالها وكان لهذا الدور الكبير اثره فى اهتزاز صورة الافارقة عن اسرائيل بسبب عدوانها المتكرر على مصر فى أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وقد توج هذا التعاون العربى الافريقى بقرار المنظمة فى عام ١٩٧٣ والذى تضمن تحذيرا لاسرائيل بأنرفضها الجلاء عن البلاد العربية المحتلة يعتبر اعتداء على القارة الافريقية وتهديدا لوحدها وأن الدول الافريقية مدعوة لأن تتخذ اية اجراءات سياسية واقتصادية مناسبة لصد ذلك العدوان . وبالفعل وضعت هذه القرارات موضع التنفيذ حينما اتحدت دول القارة على قطع علاقاتها السياسية مع اسرائيل أثناء الشهور التالية لهذا الاجتماع ولما قامت حرب اكتوبر ١٩٧٣ انتهجت احدى وعشرين دولة نفس المسار الافريقى واستمر بعد ذلك قطع العلاقات حتى وصلت الى حوالى اثنتين وأربعين دولة . أى جميع الدول فى المنظمة باستثناء الدول الأربع التى تسير فى فلك اتحاد جنوب افريقيا كما سبق القول . وقدمت الجامعة العربية مساعدات اقتصادية الى حركات التحرر الوطنى فى موزمبيق (مبنون دولار) وأنجولا (مليون دولار) وجزر القمر (نصف مليون دولار) وجنـزـر

ساوتومى وبرنسيب (نصف مليون دولار) وشهدت القاهرة انعقاد مؤتمر القمة العربى الافريقى الأول فى الفترة من السابع حتى التاسع من مارس ١٩٧٧ ولقد صدر عن هذا المؤتمر أربعة وثائق تغطى الأسس والأسانيد التاريخية والحضارية التى تستند عليها المجموعة العربية الافريقية .

ولقد قدمت الدول العربية المساهمات المالية التالية :

- ١ — المملكة العربية السعودية ١٠٠٠ مليون دولار
- ٢ — الكويت ٢٤١ مليون دولار
- ٣ — دولة الامارات ١٣٧ مليون دولار
- ٤ — دولة قطر ٧٧ مليون دولار
- ٥ — جمهورية مصر العربية مليون دولار لحركات التحرر الافريقى
- ٦ — المملكة الاردنية الهاشمية مليون دولار لحركات التحرر الافريقى
- ٧ — ليبيا ٢ مليون دولار (٤١)

هذا وقد صدر عن المؤتمر أربع وثائق أساسية هى :

- ١ — الاعلان السياسى الذى سُمى « اعلان القاهرة » .
 - ٢ — اعلان وبرنامج عمل التعاون الافريقى والعربى .
 - ٣ — اعلان التعاون الاقتصادى والمالى الافريقى والعربى .
 - ٤ — تنظيم طريقة العمل لتحقيق التعاون الافريقى العربى .
- وتهدف هذه الوثائق الأربع الى بذل الجهود لتحقيق الأهداف الواردة فى الاعلان . والعمل على دعم التفاهم بين الشعوب العربية والافريقية ، واحترام السيادة والمساواة بين هذه الدول ، والكفاح المشترك ضد السيطرة والتمزقة العنصرية والاستغلال فى جميع صوره .

(٤١) انظر يحيى رجب : التعاون السياسى العربى الافريقى بعد عام ١٩٧٣ ضمن كتاب العلاقات العربية الافريقية ، ص ٣٧٧—٤٢١ .

ونصت الوثائق أيضا على الالتزام بسياسة عدم الانحياز ، وادانة الامبريالية والاستعمار الجديد والصهيونية والفصل العنصرى وسائر أشكال التمييز سواء فى افريقيا أو فى فلسطين والأراضى المحتلة ، بالاضافة الى تعزيز التبادل الدبلوماسى والاقتصادى والاتصالات بين كافة الهيئات القومية . ونصت الوثائق ايضا على ضرورة التعاون فى ميدان الوسائل الاعلامية كالصحافة ووكالات الأنباء والأقمار الصناعية وتبادل المعلومات والخبرات والمساعدة فى حل المشكلات الاجتماعية ، هذا فضلا عن تنسيق الأبحاث العلمية وانشاء خدمات استشارية مشتركة . ولم تغفل الوثائق المجالات الاقتصادية والمالية حيث طالبت بتدعيم موارد المؤسسات المالية الوطنية والمتعددة الأطراف التى تعمل فى ميدان التنمية الإفريقية سواء المؤسسات الإفريقية أو العربية . وزيادة المساعدات المالية الثنائية وتنسيق المساعدات المقدمة من الدول العربية والمؤسسات المالية الجماعية وذلك تعزيزا لأثرها الانمائى فى الدول الإفريقية وتشجيع وتوظيف رؤوس الأموال العربية فى الدول الإفريقية فى شكل قروض أو ودائع واستثمارات مباشرة خاصة عن طريق المشروعات المشتركة (٤٢) .

وهكذا وضع هذا المؤتمر الأسس لخطة واسعة للتعاون العربى الإفريقى وكان لها دورها الكبير فى تقليص التوسع الاسرائيلى فى القارة . ويمكن أن نجل هذا التعاون الاقتصادى العربى لإفريقيا فى الخطوات التالية :

١ — الصندوق العربى لتقديم القروض لدول إفريقيا الذى أنشئ عام ١٩٧٤ ، برأسمال قدره ٢٠٠ مليون دولار ساهمت فيه الدول العربية بمبلغ ١٨٥ مليون دولار .

٢ — الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الإفريقية وأنشئ بتوصية من المجلس الاقتصادى للجامعة العربية فى ديسمبر عام ١٩٧٣ من أجل المساعدات الفنية .

٣ — المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى إفريقيا وأنشئ عام ١٩٧٤ وشارك فيه كل من العراق والمغرب وموريتانيا والكويت وقطر

والسعودية، والجزائر وليبيا وسوريا والسودان ولبنان والاردن ، وبلغ الاكتتاب فيه الأول ٣٣١ مليون دولار وكان مقره الخرطوم .

والى جانب هذه البرامج داخل اطار الجامعة العربية فان هناك جهودا اخرى خارج اطار الجامعة ويتمثل هذه فى النواحي التالية :

١ — المصرف العربى الدولى وتأسس عام ١٩٧٣ برأسمال قدره ٨١٥ مليون دولار .

٢ — البنك الافريقى للتنمية وانشئ عام ١٩٦٥ ورأسماله ٥٠٠ مليون دولار وهو اول بنك ينشئ على مستوى القارة .

٣ — البنك العربى الافريقى .

٤ — الشركة العربية الافريقية للاستثمار والتجارة .

٥ — مؤسسات عربية على مستوى قطرى لكل من الكويت والسعودية و ابو ظبى والبنك العربى الليبى (٤٢) .

خامسا : اسرائيل تجدد النشاط فى القارة :

رغم كل الجهود التى بذلها العرب من أجل الحد من النشاط الاسرائيلى فى القارة ورغم ما انجزه العرب من جهود ومساعدات لشعوب القارة الافريقية ، ورغم ما قامت به الدول الافريقية بقطع علاقاتها مع اسرائيل الا ان هذه الدول الافريقية لم تكن جادة فى مواقفها واتضح انه رغم قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول الافريقية واسرائيل الا أن العلاقات الاقتصادية بقيت كعادتها . وكنيجة لذلك استمر الوجود الاسرائيلى فى ازدهاره ولم يتأثر هذا النشاط بقطع العلاقات ، ولم يحدث ضرر للمصالح الاسرائيلية حيث تحول نشاط الافراد الاسرائيليين الى حلقة اتصال بين تل ابيب وعواصم الدول الافريقية واكد المسؤولون فى اسرائيل أن الأفراد الذين يعملون فى افريقيا يمثلون سفراء للكيان الاسرائيلى وانهم أدوا الدور الذى يقوم به السفراء .

(٤٣) انظر هذه الشركات بالتفصيل فى كتاب : حلمى عبد الكريم الزغبى :

مرجع سابق .

(م ٢٩ — العرب فى أفريقيا)

ولقد انتصح أن معظم الدول الإفريقية التي قطعت علاقاتها مع إسرائيل لم تغلق الأبواب بشكل نهائى أمام النشاط الدبلوماسى حيث ظل النشاط الصهيونى يزداد من خلال المستشارين والخبراء الذين كانوا يعملون فى أكثر من تسع عشرة دولة إفريقية مثل زائير ، ونيجيريا وكينيا وساحل العاج وليبيريا وأفريقيا الوسطى وتوجو . وعبرت حكومة إسرائيل عن رأيها فى عملية قطع العلاقات حيث أعلنت أن العلاقات فى الوقت الحاضر اقوى مما كانت عليه قبل قطع العلاقات الدبلوماسية وأن هذه العلاقات قد اتسعت وتحسنت فى كل المجالات (٤٤) .

واستمر هذا التبادل التجارى بين إسرائيل والدول الإفريقية وتشير الاحصائيات بأن حجم الصادرات الاسرائيلية فى عام ١٩٧٥ قد بلغ ٤٩٥ مليون دولار التى منها ٢٩٥ مليون دولار الى دول غرب افريقيا و ٢٠ مليون دولار الى اقطار شرق افريقيا ، وهذا مقابل ٤٢ مليون دولار عام ١٩٧٤ (٤٥) .

واذا القينا نظرة على التبادل التجارى بين إسرائيل وكينيا مثلا نلاحظ استمرار التبادل بينهما رغم قطع العلاقات .

وفى عام ١٩٧٧ كانت الصادرات ٦٦ مليون دولار والواردات ١٨ مليون دولار .

وفى عام ١٩٧٨ كانت الصادرات ٧١ مليون دولار والواردات ٤ مليون دولار .

وفى عام ١٩٧٩ كانت الصادرات ١٠٤ مليون دولار والواردات ٢٧ مليون دولار .

وفى عام ١٩٨٠ كانت الصادرات ١٣٤ مليون دولار والواردات ٦٦ مليون دولار (٤٦) .

والى جانب هذا النشاط التجارى يوجد نشاط الشركات الصهيونية

(٤٤) الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل عام ١٩٧٦ ، ص ١٦٥ .

(٤٥) جريدة الجروزيلم بوست فى ٢٨/٥/١٩٧٦ .

(٤٦) مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد ٤٢-٤٣ ديسمبر

والخبراء الصهيونية جنبا الى جنب مع النشاط العسكرى والاستعانة بالخبراء العسكرين (٤٧) .

والسؤال الآن : ما هى العوامل التى ساعدت اسرائيل على مواصلة نشاطها فى القارة رغم التضامن العربى الافريقى ؟

للإجابة على هذا السؤال نجد أن هناك عددا من العوامل التى ساعدت على هذا النشاط الصهيونى الجديد فى القارة . ويمكن ان نوجز هذه العوامل على النحو التالى :

(١) العوامل العربية :

كانت العوامل العربية من الامور التى ساهمت لاسرائيل معاودة نشاطها فى القارة الافريقية وهناك من الأسباب والعلل التى مهدت لاسرائيل الطريق ومنها :

١ — عدم استغلال القرار الافريقى واستثماره وتطويره بعد مرحلة قطع العلاقات لتشمل اوجه النشاط الأخرى .

٢ — عدم بلورة سياسة عربية موحدة تجاه القارة الافريقية تحاول أن تقذف بثقلها السياسى والاقتصادى فى القارة وتؤمن الوجود العربى هناك .

٣ — تباين المواقف العربية من الصراع حيث تباينت مواقف الدول العربية من قضية الصراع العربى الاسرائيلى ووقفت بعض الدول العربية موقف المتفرج من محاولات التفلغل الاسرائيلى فى افريقيا وكانت هذه المواقف المتباينة سببا فى عدم الاقدام على قرار جماعى كان لرد فعله الاثر فى تقليص النفوذ الاسرائيلى فى القارة .

٤ — ضالة تأثير المساعدات الاقتصادية العربية لافريقيا ورغم أن المساعدات الاقتصادية للقارة كانت ضخمة الا أنها لم تحدث الأثر المطلوب فى الحد من النشاط الصهيونى أو تصفيته . ورغم أن المساعدات قد بلغت فى

عام واحد حوالى ١٥٠ مليون دولار وقدمت الى حوالى ثلاث وثلاثين دولة افريقية بالاضافة الى القروض التى قدمها الصندوق العربى للمعونة الفنية الافريقية والمصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى القارة الا ان هذه القروض والمعونات العربية — رغم ضخامتها لم تحقق النتائج السياسية المطلوبة لوضع حد للنشاط الاسرائيلى فى افريقيا . ان السبب فى ذلك هو عدم وجود سياسة عربية مبلورة ومحددة لهذه المساعدات ، ولم توجد برامج مشتركة تخطط لها سياسات معينة ومثال ذلك ان دولاً مثل ليبيا والكونغو تقف الى جانب اسرائيل وتحصل على مساعدات من العرب حيث حصلت ليبيا عام ١٩٧٥ على ١٤ مليون دولار وحصلت الكونغو (زائر) على ١٣ مليون دولار من الصندوق العربى للقروض الافريقية . ومن اغرب الأمور ان تصل المساعدات الى موبوتو حوالى ٣٥٠ مليون دولار وهو يسر فى فلك اسرائيل ، وكان من الواجب ان توجه القروض والمساعدات لمن يقف الى جانب الصف العربى .

يضاف الى ذلك ان المساعدات العربية لم تصل الى العدد الأكبر من الاقطار الافريقية ولم تمتد الى المجالات المختلفة التى تفيد الصالح العام ولم يحس الرجل الافريقى بقيمة هذه المساعدات لأنها لم تكن جميعها فى شكل مشروعات انمائية أو انشائية كشق الطرق أو مد شبكات الري واقامة السدود كما لم تخصص القروض للمشروعات التى يستفيد منها الأفارقة . والأهم من ذلك أن الكوادر الفنية الافريقية لم تصاحب هذه المساعدات ولو اقترنت هذه القروض بالخبرة العربية لأحس الافريقى بالكيان العربى ولأسهم فى تجسيد الشخصية العربية فى القارة .

٥ — ضالة التمثيل الدبلوماسى فى افريقيا حيث لم تكن للدول العربية شبكة واسعة من التمثيل الدبلوماسى مع أقطار افريقيا حتى عام ١٩٧٦ ووصلت هذه البعثات الى حوالى ١٩ بعثة على مستوى القارة الا انها لم تبلغ المستوى المطلوب لتقطع الطريق على الكيان الصهيونى فى العودة للقارة ، ويضاف الى ضالة الوجود الدبلوماسى العربى فى القارة فانه لم يكن هناك اهتمام باختيار المبعوثين الدبلوماسيين الذين تتوافر فيهم المواصفات المطلوبة والمستوى الرفيع وفهم اللغات الافريقية والمحلية وعادات الانفارقة ودراسة التاريخ الافريقى حتى يتسنى لهم أداء واجبهم على الوجه الأكمل .

٦ — تقصير الاعلام العربى الذى كان فى مقدوره أن يحقق الكثير على الصعيد العربى والافريقى لو أنه ركز على مخاطبة الأفارقة وإبراز مخاطر الكيان الصهيونى وأن يستغل بعض الأحداث الهامة ويسخرها لخدمة قضايا العرب والأفارقة وكان من الممكن استغلال الترابط الوثيق بين إسرائيل وجنوب أفريقيا فى محاولة لتشويه صورة هذا الكيان الصهيونى فى القارة بالإضافة الى التركيز على الجوانب السلبية للنشاط الصهيونى وإبراز أهمية التضامن العربى وما يحمله من فوائد للعرب والأفارقة (٤٨) .

ولكن هذا التقصير الاعلامى لا يعنى أن الاعلام لم يطور صورته ، بل على العكس فقد حدثت بعض الأعمال والجهود العربية منذ عام ١٩٧٣ تمثلت فى النشاط الاعلامى الذى بداته الادارة العامة للاعلام بجامعة الدول العربية وإنشاء عدد من المكاتب الاعلامية فى عدد من الدول الافريقية وعقد سلسلة من اللقاءات بين الاعلاميين العرب والأفارقة ومنها اللقاء بين الاذاعات العربية واتحاد المنظمات الدولية الوطنية للاذاعة والتلفزيون فى أفريقيا فى مدينة الرباط عام ١٩٧٣ ، وأيضاً انعقاد المؤتمر التأسيسى لاتحاد الصحفيين الأفارقة فى القاهرة عام ١٩٧٥ ، وكذلك انعقاد الندوة العربية الافريقية لوكالات الأنباء فى عام ١٩٧٥ بتونس .

والخلاصة أن العوامل العربية وقصور وسائل الاعلام وعدم وضع استراتيجية عربية للقروض لافريقيا كانت كلها عوامل ساعدت على عودة النشاط الاسرائيلى للقارة خصوصا بعد مرحلة قطع العلاقات الدبلوماسية بين الأفارقة وإسرائيل ، والتي كانت قمة التعاون العربى الافريقى ، لكن القصور العربى فى وضع البرامج ورسم السياسات تجاه افريقيا جعل من هذه القطيعة أمراً قليل التأثير فى السياسة الافريقية ، وعادت إسرائيل من جديد الى القارة . ولم تكن العوامل العربية وحدها هى المسئول عن ذلك بل هناك عوامل أخرى على الصعيدين الافريقى والدولى .

(ب) العوامل الافريقية :

تكمّن العوامل الافريقية فى عودة العلاقات واستمرار النشاط بين

(٤٨) محمد على العوينى : الاعلام الدولى لجامعة الدول العربية فى افريقيا ، مجلة معهد الدراسات العربية ، العدد ١٩٧٦/٧ ، ص ١٩٧٥ .

إسرائيل وأفريقيا أى أن الدول الأفريقية لم تكن جادة حين تبت الفالسية قرار قطع العلاقات وكانت مجرد استجابة لموقف منظمة الوحدة الأفريقية . ومعنى هذا أن هذه الدول الأفريقية لم تكن تعنى إنهاء الوجود الاسرائيلى فى القارة (٤٩) .

كذلك حرصت الدول الأفريقية على عدم ضياع مورد من المعونات يأتى إليها من الكيان الصهيونى ، أو المعونات الفنية التى تقدمها إسرائيل لهم فى فترة هم فى أشد الحاجة الى هذا الدعم المالى والفنى والاقتصادى ، وكانت الدول الأفريقية تحاول الاستفادة من الحصول على دعم سواء من العرب أو إسرائيل .

(ج) العوامل الدولية :

من العوامل الدولية التى ساعدت على استمرار إسرائيل فى نشاطها الاقتصادية فى القارة الأفريقية ذلك الدعم الأمريكى للنشاط الصهيونى منذ النصف الثانى من الخمسينات حيث تكفلت الولايات المتحدة الأمريكية بتمويل النشاط الصهيونى فى هذه القارة . ولذا قامت إسرائيل بالدور نيابة عن الدول الاستعمارية ، وتعهدت أمريكا بتقديم مساعدات فى حدود ١٥٠ مليون دولار لتمويل المساعدات الاسرائيلية لأفريقيا وتعويض إسرائيل عن أية خسارة تلحق بها نتيجة إمداد إسرائيل بالأسلحة لأفريقيا وهناك أيضا الدعم الفرنسى الذى حاول الصهاينة الاستفادة منه فى أفريقيا وخصوصا فى مجموعة الدول الناطقة بالفرنسية ولذا سعت إسرائيل لتحسين علاقاتها مع باريس واستفادت إسرائيل أيضا من الموقف البريطانى الذى سهل عملية عودة النشاط الصهيونى لأفريقيا والمعروف أن بريطانيا لها علاقات مع دول الكومنولث البريطانى وهو ما حاولت إسرائيل الاستفادة منه فى زيادة علاقاتها مع دول القارة ولا ننسى الدور الذى لعبته الأمم المتحدة فى مساعدة إسرائيل لاعادة نشاطها للقارة وذلك عن طريق اختيار عدد من الخبراء الصهاينة لمساعدة الدول النامية ومنها دول أفريقيا ، وهذه كلها عوامل ساعدت على ازدياد النشاط الصهيونى فى القارة الأفريقية . ونتيجة هذه العوامل الثلاث حققت إسرائيل نشاطا مكثفا بعودة علاقاتها مع دول أفريقيا

وتكتف هذا النشاط فى أكثر من عشرة دول افريقية مثل زائير وساحل العاج وليبيريا وافريقيا الوسطى وأوغنده وتشاد وكينيا وتوجو والجابون والكاميرون ونيجيريا . كما نجحت اسرائيل فى دفع ثلاثة دول افريقية لاستئناف علاقاتها الدبلوماسية كاملة وهى زائير وليبيريا والجابون وهناك دول أخرى تعتزم عودة العلاقات مع اسرائيل مثل ساحل العاج ونيجيريا وكينيا وتوجو والكاميرون والسنغال ووصل الأمر الى حد وقف دول أفريقية مثل زائير والجابون وليبيريا فى الجمعية العامة ضد أية مبادرة تستهدف تجميد عضوية اسرائيل فى الأمم المتحدة . كما أعادت اسرائيل تدريب قوات الحماية الخاصة وأشرف المستشارون الصهاينة على إعادة تنظيم الجيوش الافريقية .

سادسا : دور العرب لمواجهة النشاط الاسرائيلى الجديد :

مما لا شك فيه أن التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا ووصوله الى مكان الصدارة فى بعض الدول الافريقية يشكل خطرا كبيرا على الأمن القومى العربى ويتمثل هذا فى محاولات اسرائيل لأن تجد لها موقع قدم لها عند مدخل البحر الأحمر وفى المحيط الهندى عن طريق تعزيز وجودها فى كينيا وبعض الدول الافريقية الأخرى وسعى اسرائيل لاقامة علاقات مع دول متاخمة للبلاد العربية مثل تشاد ونيجيريا والنيجر وافريقيا الوسطى والسنغال بقصد توسيع الدائرة المعادية للعرب . وايضا محاولات اسرائيل للاضرار بالعلاقات العربية الافريقية بقصد تقوية نفوذها على حساب العرب . وفى مقابل هذا النشاط الصهيونى فى القارة الافريقية لابد من تحرك عربى لمواجهة هذا النشاط الصهيونى ، ولعل الفراغ فى القارة . وهناك عدة عوامل لابد من التحرك العربى من خلالها حتى يأتى التحرك بالثمار المرجوة من هذا التعاون العربى الافريقى .

(٢) ضرورة الحضور العربى فى القارة الافريقية :

لقد كان واضحا أن ضعف العلاقات العربية بالدول الافريقية فى أواخر الخمسينات كان من العوامل الرئيسية التى ساعدت على انتشار النشاط الصهيونى فى أفريقيا .

وكذلك محاولة الدول العربية الاستفادة من عضوية بعض الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية . وبالطبع يخدم هذا الكثير من القضايا

الافريقية من خلال هذه الدول . وكذلك يجب أن يعتمد العرب على بعض الدول الصديقة لهم والتي يمكن أن تساهم فى عرقلة النشاط الاسرائيلى فى القارة ومن هذه الدول الاتحاد السوفيتى والصين وكوبا .

(ب) توسيع شبكة العلاقات دبلوماسية مع الاقطار الافريقية :

تقتضى المصالح القومية اعادة النظر فى علاقات دول افريقيا مع اقطار العالم العربى ووضع خطة تحرك دبلوماسى فى المرحلة القادمة لأن التمثيل الدبلوماسى العربى أقل من ناحية الحجم من التمثيل الدبلوماسى الاسرائيلى حيث احتفظت بحوالى واحد وثلاثين بعثة دبلوماسية على مستوى السفارة أو القنصلية بينما لم يصل التمثيل الدبلوماسى العربى الى هذا الرقم وكان لمصر وحدها احدى وستين بعثة حتى عام ١٩٦٧ ، والجزائر ثلاث بعثات وتونس أربع بعثات ولبنان ٩ بعثات (٥٠) .

أما بقية الدول العربية فلم يكن لها بعثات دبلوماسية من اقطار افريقيا وبعد عام ١٩٦٧ اتسعت الدائرة ، وصار لمصر ٣٤ بعثة عام ١٩٦٧ والجزائر ١٥ بعثة وتونس ١٥ ولبنان ١٣ بعثة ، وبدأت بعض دول المشرق تقيم مع الاقطار الافريقية لكنها دون المستوى المطلوب (٥١) .

وعلى الدول العربية أن تدعم نشاطها الدبلوماسى فى افريقيا وأن يكون هناك اهتمام باختيار البعثات الدبلوماسية فى الاقطار والتركيز على الكفاءة والتخصص والامام بعادات الأماقة ولغاتهم وأن يكون هناك تنسيق بين البعثات الدبلوماسية لضمان أكبر قدر من النجاح لمهامها .

(ج) تنحية العلاقات السياسية :

يجب أن تتم التنحية للعلاقات السياسية بين الشعوب العربية والافريقية من خلال منظمة الوحدة الافريقية وأن يشارك العرب فى عضوية المنظمة كما يتم التعاون من خلال العلاقات بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وأن يكون هناك حوار عربى افريقى من أجل تعزيز التعاون

(٥٠) رياض القنطار : التغفل الاسرائيلى فى افريقيا وطرق مجابهته مركز الأبحاث منظمة التحرير ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧٩ .
(٥١) عصام الجبورى : مصدر سابق ، ص ٢٨٠ .

وتوطيد أشكال هذا التعاون فى كافة المجالات . وأن يتم الدعوة لعقد مؤتمرات قمة مشتركة مثل مؤتمر عام ١٩٧٧ وأقرار برامج مشتركة والسعى لتنفيذها ومعالجة أوجه القصور ومناطق الضعف فى مسيرة التعاون العربى الافريقى .

ويجب على العرب أن يكتفوا العمل العربى الجماعى بمنظمة الوحدة الافريقية وأن تحاول الجامعة العربية مد جسور بين أقطار افريقيا والعالم العربى وأن تعمل على تطوير شبكة التعاون مع دول المنظمة لتحقيق الفائدة المشتركة لدول الجامعة ومنظمة الوحدة الافريقية . وذلك لان هذا التعاون يمكن أن يسد الثغرات ويقلل الأبواب أمام تحركات اسرائيل فى القارة .

(د) اقامة العلاقات وتبادل الزيارات :

تستطيع الدول العربية أن تسد الطرق أمام اسرائيل من خلال تطوير العلاقات مع الدول الافريقية وخصوصا الدول التى يشكل المسلمون غالبية بها مثل نيجيريا والسنغال ومالى وتشاد والنيجر ولو تحركت الدول العربية نحو هذه الأقطار لاستطاعت أن تعزز العلاقات وأن تكسر الحواجز وأن تقطع الطريق أمام اسرائيل ومما لا شك فيه أن تبادل الزيارات مع الدول الافريقية يوطد من أواصر الصداقة ويدعم العلاقات الثنائية ويذيب الخلافات ويقضى على الفرقة ويغير بن أثار السياسة الاسرائيلية التى تهدف دائما الى تشويه صورة العرب واعتبارهم من تجار الرقيق وإذا ما تمت الزيارات وتبادل زعماء القارة اللقاءات مع العرب كلما اتضحت صورة هذا التعاون وازدادت رسوخا وشموخا ، ومع رسوخها تتلاشى الدعاية الاسرائيلية ، وتقعد الصهيونية أسلحتها الدعائية ضد العرب .

(هـ) الدعم العسكرى والاقتصادى :

يجب على الدول العربية أن تنشئ المؤسسات والأجهزة التى نتاج النشاط العربى والاشراف على تنفيذ المشروعات أسوة بما تقوم به اسرائيل من نشاط مماثل وواجب على العرب أن ينسقوا الجهود وأن يوحّدوا الأطراف فى شكل مؤسسة واحدة تعمل فى المجال الاقتصادى . وأن ينشئوا شركة عربية متخصصة لدعم هذا التعاون الاقتصادى العربى فى افريقيا وأن يزداد حجم هذا التبادل التجارى لتغطية احتياجات القارة ولنع تسرب التجارة الاسرائيلية ، وأن تكون هذه السياسات قائمة على برامج متخصصة تضم

الخبراء العرب والأفارقة لوضع السياسات واعداد البرامج وطريقة التنفيذ(٥٢) .

وأن تقوم الدول العربية بتقديم المساعدات للدول الافريقية وخصوصا فى مجال التدريب العسكرى وتقديم الخبرات اللازمة والخبراء فى هذه الناحية .

(و) دعم المجال الاعلامى العربى :

يلعب الاعلام دورا خطيرا فى دعم العلاقات العربية الافريقية ، ولقد نجحت اسرائيل من خلال أجهزة اعلامها أن تشوه صورة العرب وأن تعرقل عمليات التعاون الثقافى العربى الافريقى خصوصا فى الدول التى ندين غالبيتها بالاسلام(٥٣) وتتطلب هذه الدعاية الصهيونية النشطة خطة اعلامية عربية وقيام الاعلاميين بالانتقال الى واقع الأحداث فى افريقيا ومخاطبة الأفارقة واعداد المعارض الفنية للرسوم والافلام الوثائقية التى تناقش القضايا العربية وفى مقدمتها الصراع مع الصهيونية ومحاولة التوصل الى اتفاقيات للتعاون الثقافى الاعلامى بالاضافة الى انشاء محطة اذاعة عربية موجهة الى القارة الافريقية ويضاف الى ذلك دعم الصحف الافريقية التى تخدم القضايا العربية وأن توزع الكتب العربية التى تعكس الواقع الحضارى للأمم العربية وارتباطها التاريخى بالقارة الافريقية حتى تصحح المفاهيم وتجلى الحقائق ويعيش الافريقى فى جو من الصراحة التامة بعيدا عن تأثير الدعاية الصهيونية التى لوشت افكاره وغيرت من وجهة نظره نحو أخيه العربى الذى يشاركه فى نفس التاريخ الاستعمارى والذى عانى مثله من الاستعمار والاضطهاد والتمييز العنصرى . ان الدعاية هامة فى هذه المرحلة من تاريخ العرب وعلاقاتهم بافريقيا واذا لم توضع خطة مدروسة للاعلام العربى ، فسوف تظل الساحة خالية أمام اسرائيل وسوف تظل التربة الافريقية خصبة تزرع فيها ما تشاء من أفكار وتجنى ثمر هذا الغرس على حساب العرب والأفارقة .

(٥٢) حلمى عبد الكريم الزغبى : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٥٣) انظر جدول الدول الاسلامية ونسب المسلمين فى القارة شكل رقم (٥) .

وفى الختام نستطيع القول أن ضعف الدور العربى فى القارة الافريقية تمثل فى غياب البرامج وقلة اساليب التخطيط ونقص الموارد التى تحتاج اليها القارة الافريقية كما أن سياسة الارتجال أدت الى غياب التنسيق وبعثرة الجهود العربية وهذا ما جعل التأثير العربى ضعيفا اذا ما تورن بالآثر الصهيونى . كما أن الأموال العربية لم توجه الوجهة السليمة فى افريقيه لأنها قدمت فى شكل أموال نقدية لحكومات هذه الدول الافريقية ولم يستفد منها السواد الأعظم من الشعب ولم تحس الجماهير الافريقية بأثر هذه المساعدات المموس .

يضاف الى ذلك أن عدم وجود الخبراء العرب الذين يتابعون المشروعات ويشرفون على التنفيذ أثره فى قلة الوجود العربى الحقيقى ، ولذا لابد من ارتباط الأموال العربية بتلك الخبرة التى تتفاعل على الأرض الافريقية بجسده آمال الأفارقة والعرب فى التصدى للكيان الصهيونى .

ولقد كان غياب الشركات العربية التى تقوم بتنفيذ المشروعات عاملا هاما فى احساس الافريقى بالواقع العربى ، ولهذا لم تحقق المشروعات العربية فى افريقيا الهدف المطلوب بسبب غياب الخبراء العرب والشركات العربية .

كل هذه العوامل لابد وأن تتكاتف جميعا نحو هدف واحد هو التصدى العربى للانتشار الاسرائيلى فى افريقيا ، ولن تتحقق هذه الرغبة العربية فى التعاون مع الأمارقة ضد الاسرائيلين الا بالسياسات القومية الجماعية التى تقوم على اسس علمية لا تقل أثرا ، بل تضارع الدعاية والنشاط الصهيونى فى القارة .

ان الامكانيات العربية كثيرة والجهود العربية مخصصة نحو مساعدة الأفارقة والوقوف بجانبهم أمام المحاولات الاستعمارية التى تسعى للنيل من استقلالهم ، وأن الأمة العربية تدرك البعد السياسى والجغرافى والاقتصادى للقارة الافريقية وأن محاولات التعاون مع القارة واجب عربى نحو الأمارقة .

لكن هذه النظريات لا تصبح حقيقة ملموسة الا اذا ترجمت الى برنامج منسق وخطط ملموسة ومشاريع مدروسة وخبرة عربية محسوسة تتابع التنفيذ ، وتعالج أوجه القصور فى ظل مناخ عربى افريقى سليم .

جيدول (١)

جدول الدول الافريقية وتاريخ استقلالها

اسم الدولة	تاريخ استقلالها
١ — مصر	١٩٢٢
٢ — ليبيا	١٩٥١
٣ — السودان	١٩٥٦
٤ — المغرب	١٩٥٦
٥ — تونس	١٩٥٦
٦ — غانا	١٩٥٧
٧ — غينيا	١٩٥٨
٨ — جمهورية افريقيا الوسطى	١٩٦٠
٩ — تشاد	١٩٦٠
١٠ — توجو	١٩٦٠
١١ — الجابون	١٩٦٠
١٢ — داهومي	١٩٦٠
١٣ — زائير	١٩٦٠
١٤ — ساحل العاج	١٩٦٠
١٥ — السنغال	١٩٦٠
١٦ — الصومال	١٩٦٠
١٧ — فولتا العليا	١٩٦٠
١٨ — الكاميرون	١٩٦٠
١٩ — الكونغو برازافيل	١٩٦٠
٢٠ — مالي	١٩٦٠
٢١ — مالاياش	١٩٦٠
٢٢ — موريتانيا	١٩٦٠
٢٣ — النيجر	١٩٦٠
٢٤ — نيجيريا	١٩٦٠
٢٥ — سيراليون	١٩٦١

(تابع) جدول (١)

اسم الدولة	تاريخ استقلالها
٢٦ — اوغندة	١٩٦٢
٢٧ — بورنسى	١٩٦٢
٢٨ — الجزائر	١٩٦٢
٢٩ — رواندا	١٩٦٢
٣٠ — كينيا	١٩٦٣
٣١ — زامبيا	١٩٦٤
٣٢ — جامبيا	١٩٦٤
٣٣ — مالاوى	١٩٦٤
٣٤ — بتسوانا	١٩٦٦
٣٥ — ليسوتو	١٩٦٦
٣٦ — غينيا الاستوائية	١٩٦٨
٣٧ — موريشيوس	١٩٦٨
٣٨ — سوازي لاند	١٩٦٩
٣٩ — غينيا بيساو	١٩٧٣
٤٠ — موزمبيق	١٩٧٥
٤١ — أنجولا	١٩٧٥
٤٢ — ساوتومى وبرنسيب	١٩٧٥
٤٣ — جزر الكومور	١٩٧٦
٤٤ — كيب فردى	١٩٧٦
٤٥ — جزر سيشل	١٩٧٦
٤٦ — جمهورية جيبوتى	١٩٧٧

جدول (٢)

التمثيل الدبلوماسى لاسرائيل فى افريقيا

اسم الدولة	اسم الدولة
١٧ — السنغال	١ — غينيا الاستوائية
١٨ — سيراليون	٢ — اثيوبيا
١٩ — تنزانيا	٣ — الجابون
٢٠ — تشاد	٤ — جامبيا
٢١ — توجو	٥ — غانا
٢٢ — اوغندا	٦ — ساحل العاج
٢٣ — فولتا العليا	٧ — كينيا
٢٤ — زامبيا	٨ — ليسوتو
٢٥ — جنوب افريقيا	٩ — ليبيريا
٢٦ — بتسوانا	١٠ — مالاوى
٢٧ — بوروندى	١١ — ملاجاش
٢٨ — الكاميرون	١٢ — مالى
٢٩ — افريقيا الوسطى	١٣ — موريشيوس
٣٠ — الكونغو برازافيل (زائر)	١٤ — النيجر
٣١ — الكونغو كينشاسا	١٥ — نيجيريا
٣٢ — داهومى	١٦ — رواندا

جدول (٣)

صادرات وواردات اسرائيل لافريقيا

السنة	الصادرات للتجارة	الواردات منها	ملاحظات
	مليون دولار	مليون دولار	
١٩٥٨	٤٥٦٤	١٤١٠.٨	
١٩٥٩	٦١٢٦	١٤٠.١٨	
١٩٦٠	١٠٥٢٥	١٧٨٢.٠	
١٩٦١	١٣٤٣٢	٢٠٣٧٦	
١٩٦٢	١٠٧٢١	٢٠٣٢٥	انخفاض الصادرات :
١٩٦٣	١١٦٥٠	٢١٩١١	لاحظ ان حجم الصادرات
١٩٦٤	١٢٦٢٠	٢٧٤٤٠	ارتفع من ١٠٥ مليون عام
١٩٦٥	٢١٢٥٠	٢٧٢٨٦	١٩٦٠ الى ٤٧٥ مليون عام
١٩٦٦	١٩٥٥٠	٢٦٦٧١	١٩٧١ (اربعة اضعاف)
١٩٦٧	٢٤٠٠٠	٢٧٠٨٣	لم ترتفع الواردات الا من
١٩٦٨	٢٨١٢٥	٣٠٩٦٥	١٧٨٢ مليون دولار الى ٢٥٥
١٩٦٩	٣٤٢٤٦	٣١١٣٣	مليون دولار .
١٩٧٠	٤١٥٤٢	٣٠١٤١	
١٩٧١	٤٧٤٢١	٢٥٢١١	

المصدر : الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل لعام ١٩٧١ — ١٩٧٢ .

جدول (٤)

الدول التي قطعت علاقاتها مع اسرائيل

اسم الدولة	تاريخ قطع العلاقات
١ — غينيا	١٩٦٧/ ٦/ ٥
٢ — تشاد	١٩٧٢/ ١١/ ٢٧
٣ — أوغنده	١٩٧٢/ ٣/ ٣٠
٤ — الكونغو برازافيل	١٩٧٢/ ٣/ ٣١
٥ — النيجر	١٩٧٣/ ١/ ١
٦ — مالي	١٩٧٣/ ١/ ٥
٧ — بوروندي	١٩٧٣/ ٥/ ١٦
٨ — توجو	١٩٧٣/ ٩/ ٢١
٩ — زائير	١٩٧٣/ ٤/ ١٠
١٠ — داهومي	١٩٧٣/ ٥/ ٩
١١ — رواندا	١٩٧٣/ ١٠/ ٩
١٢ — فولتا العلييا	١٩٧٣/ ١٠/ ١٠
١٣ — الكاميرون	١٩٧٣/ ١٠/ ٣
١٤ — غينيا الاستوائية	١٩٧٣/ ١٠/ ١٥
١٥ — تنزانيا	١٩٧٣/ ١٠/ ١٩
١٦ — مالايا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٠
١٧ — افريقيا الوسطى	١٩٧٣/ ١٠/ ٢١
١٨ — أثيوبيا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٣
١٩ — نيجيريا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٥
٢٠ — جامبيا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٦
٢١ — زامبيا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٦
٢٢ — غانا	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٨
٢٣ — السنغال	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٩
٢٤ — جابون	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٩
٢٥ — سيراليون	١٩٧٣/ ١٠/ ٢٩

اسم الدولة	تاريخ قطع العلاقات
٢٦ — كينيا	١٩٧٣/١١/ ١
٢٧ — ليبيريا	١٩٧٣/١١/ ٢
٢٨ — بتسوانلاند	١٩٧٣/١١/ ٤
٢٩ — ساحل العاج	١٩٧٣/١١/ ٣

الدول التي لم تقطع العلاقات :

- ١ — مالاوى
- ٢ — سوازی لاند
- ٣ — موريشيوس
- ٤ — ليسوتو

المصدر : جريدة المحرر اللبنانية فى ١٣/١١/١٩٧٣ .

جدول (٥)

نسب المسلمين فى القارة الى عدد السكان

اسم الدولة	النسبة المئوية
١ — موريتانيا	٩٩.٥%
٢ — السنغال	٧٦.٥%
٣ — جامبيا	٥٦%
٤ — مالى	٥٦%
٥ — غينيا	٧٩%
٦ — غانا	٣٥%
٧ — فولتا العليا	١٩%
٨ — داهومى	٧.٥%
٩ — نيجيريا	٤٤%
١٠ — النيجر	٧٨%
١١ — ساحل العاج	١٩%
١٢ — توجو	٧%
١٣ — الكونغو برازافيل	٧%
١٤ — جمهورية افريقيا الوسطى	٣%
١٥ — الجابون	٣.١%
١٦ — تشاد	٥٠%
١٧ — الكاميرون	١٧.٥%
١٨ — ملاجاش	٤.٤%
١٩ — كومورو	٩٥%
٢٠ — السودان	٧٠%
٢١ — اثيوبيا	٣٣.٧%
٢٢ — ارتيريا	٥٠%
٢٣ — الصومال	١٠٠%
٢٤ — ساحل الصومال	١٠٠%
٢٥ — كينيا	١٠%

اسم الدولة	النسبة المئوية
٢٦ — أوغندا	٥٤ ٪
٢٧ — تنزانيا (تنجانيقا)	٢٧ ٪
٢٨ — زنجبار	٩٨ ٪
٢٩ — مالاوى	١٠٦ ٪
٣٠ — زامبيا	٥ ٪
٣١ — روديسيا الجنوبية	ار ٪
٣٢ — أنجولا	صفر ٪
٣٣ — موزمبيق	٢٤٥ ٪
٣٤ — بتشوانلاند	صفر ٪
٣٥ — سوازی لاند	صفر ٪
٣٦ — اتحاد افريقيا الجنوبية	٢٢ ٪
٣٧ — سيراليون	٦٨٨ ٪
٣٨ — مصر	٩٣٣ ٪

المصدر :

Jacques Baulin . The Arab Role in Africa, p. 29.

oboiikan.com

باب المندب والامن العربى الافريقى

لواء ا. ح دكتور

محمد رضا توفيق فودة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

(صدق الله العظيم)

مقدمة :

نحن نعيش اليوم فى عالم متشابك المصالح يتميز بدرجة عالية من الاعتماد المتبادل بين دولة فى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية . وكل دولة تحاول أن ترسم لنفسها نمطا للحياة يساعد شعبيها على ادارة شئونها على أساس المشاركة فى تحمل الأعباء والتمتع بالازايا . كما أن هذا النمط يجب أن يحقق للدولة أسلوبا مناسبا لحل مشاكلها مع جيرانها ومع باقى دول العالم .

ولا شك أن المصالح المتشابكة ليست بالضرورة متطابقة أو متجانسة ، لذا فعندما تتعارض المصالح فقد تضطر الدولة للدخول فى مواجهة مسلحة مما يؤثر على أمنها القومى ، لذا فعلى الدولة أو الدول التى تسعى لتحقيق أمنها القومى أو الاقليمى أن تعمل على رفع قدرتها الشاملة اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا .

ولا شك أن الأهمية الجيوبولوتيكية للدولة هى أحد العوامل التى تعرض الدولة للصراع الدولى وخاصة اذا ما كانت تطل على أحد الممرات المائية الهامة مثل مضيق باب المندب .

وتواجه الدول العربية والافريقية بمشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية معقدة تهدد أمنها القومى ، لذا كان عليها أن تسعى للوقوف على

التحديات الموجهة إليها سعيا وراء الوصول الى صيغة مقبولة لتحقيق الأمن العربى الافريقى .

وهناك خلط فى مفهوم الأمن القومى وأصبح يشوبه الغموض والتباين ، حيث نجد الخلط الملحوظ بين عدة مفاهيم للأمن مثل :

- الأمن القومى .
- الأمن الوطنى .
- الأمن الاقليمى .
- الأمن الجماعى .

ونجد ان هناك غموضا فى مفهوم الأمن القومى سائدا فى جميع — الأوساط حيث يقع فى فحه كثير من السياسة والكتاب والقادة والمفكرين بل والرأى العام ، مما يؤدى الى استخدام المفهوم فى غير موضعه (١) .

اولا — مفاهيم الأمن القومى :

ويقصد بكلمة الأمن الطمأنينة وهذا يعبر عن الوجود السياسى والالتزام بالولاء والطاعة ازاء السلطة وصاحبها ، والاستقرار والقدرة على مواجهة المفاجآت المتوقعة وغير المتوقعة دون ان يترتب على ذلك اضطراب فى الأوضاع السائدة بما يعنيه ذلك من تقلص للطمأنينة والاستقرار (٢) .

وفى نطاق التعاملات الدولية المعاصرة يجب ان نفرق بين ثلاثة مفاهيم متداولة وهى الأمن القومى ، الأمن الاقليمى ، الأمن الجماعى . واقدم هذه الاصطلاحات هو اصطلاح الأمن القومى والذى ظهر مع ظهور الدولة القوية فى أوروبا الحديثة وبصفة خاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقد تناوله العديد من المفكرين بتعاريف مختلفة كالاتى :

— هو تلك المجموعة من القواعد الحركية التى يجب على الدولة ان

(١) د. السيد عليوة : الأمن القومى العربى ومضاعفات حرب الخليج ، السياسة الدولية ، العدد ٨١ ، القاهرة ، يوليو ١٩٨٥ ، ص ٣٠—٣١ .
(٢) د. حامد ربيع : نظرية الأمن القومى العربى ، القاهرة ، دار الموقف العربى ١٩٨٤ ، ص ٣٧ .

تحافظ على احترامها ، وأن تفرض على الدول المتعاملة معها مراعاتها
لمستطيع أن تضمن لنفسها نوعاً من الحماية الذاتية الوقائية الإقليمية (٣) .

ولقد عبر روبرت مكنمارا عن ذلك بالآتي :

(أ) أن الوضع العسكري الخالص ليس هو العنصر الرئيسي في
الأمن القومي حيث أن أي دولة يمكنها أن تزيد رصيدها من التسليح إلى نقطة
عندها لا يمكن أن تشتري مزيداً من الأمن لنفسها بمجرد حوزتها لمزيد من
السلاح والعتاد (٤) .

(ب) أن الأمن ينشأ من التنمية ولكن قد يحدث تخريب من الداخل أو
عدوان من الخارج ، ولهذا يجب احتفاظ الدولة بقدرة عسكرية مناسبة
لمواجهة هذا التهديد . فالقوة العسكرية يمكن أن تساعد في توفير القانون
والنظام ولكن لا يمكن أن يتم ذلك إلا بقدر وجود أساس للقانون والنظام في
المجتمع النامي ورغبة أساسية في التعاون من جانب الشعب .

(ج) أن الأمن هو التنمية وبدون تنمية لا يوجد أمن ، والدول النامية
التي لا تنمو في الواقع لا يمكنها في بساطة أن تظل أمة ، وذلك لأن مواطنيها
لا يمكنهم التخلي عن طبيعتهم الإنسانية ، كما أنه لا يمكن أن تتم التنمية
بدون قدر أدنى من النظام والاستقرار ، وأن عدم التنمية يجلب عدم
الاستقرار والنظام ، فالقانون والنظام هما مظلة الاستقرار والدرع التي
تتحقق خافه التنمية وهي الحقيقة الأساسية للأمن .

(د) أن أي مجتمع يمر بمرحلة التحول إلى مجتمع عصري فإن الأمن
يكون معناه التنمية ، والأمن ليس هو المعدات العسكرية وأن كان يتضمنها ،
وليس القوة العسكرية وأن كان أطارها ، وليس النشاط العسكري التنقيدي
وأن كان يشملها .

أما فردريك ليسيت فقد عبر عن ذلك : بأن امتلاك الدولة للقوة
العسكرية الكافية يحقق لها الاستقرار والرخاء في الداخل والخارج ، وأن

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤) روبرت مكنمارا : جوهر الأمن ، القاهرة ، ترجمة هيئة الأمن
القومي ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

الفرض الأساسى من الاقتصاد فى الدولة ليس الثروة فقط ، ولكن القوة والثروة معا ، لأن الثروة القومية تزداد وتؤمن بالقوة الوطنية ، ومن هنا فان القوة أكثر أهمية من الفنى والبسر ، لأن الضعف يؤدى الى التخلّى عن جميع الممتلكات ليست فقط الثروة ولكن جميع قوى الانتاج والحربية والاستقلال الوطنى حيث توضع جميعا فى يد الطرف الذى يستطيع أن يملأ ارادته بالقوة على الدولة نتيجة لتفوقه فى القدرة العسكرية .

وقد عرفه أمين هويدى « بأنه الاجراءات التى تتخذها الدولة فى حدود طاقاتها للحفاظ على كيانها ومصالحها فى الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات الدولية » وهذا التعريف يتضمن : (٥)

— أن تشمل الاجراءات كافة المجالات فى الدولة ، فمسائل الاقتصاد والدفاع والأمن كل لا يتجزأ .

— أن تكون هذه الاجراءات داخل طاقتها اذ أن الامال الطموحة التى تتجاوز الامكانيات كثيرا ما تقود الى التهلكة .

— التخطيط للحاضر والمستقبل القريب والبعيد .

— مراعاة المتغيرات الدولية التى تحتاج الى اعادة التقييم بين وقت وآخر ومطابقة اجراءاتنا مع المتغيرات الحاضرة والمنتظرة .

— ومن هنا يتضح أن الأمن القومى مجاله الاستراتيجية للدولة أى استخدام كافة موارد الدولة المتاحة لتحقيق اغراضها .

وفى تعريف آخر انه : « تأمين كيان الدولة او مجموعة من الدول من الاخطار التى تتهددها داخليا وخارجيا ، وتأمين مصالحها ، وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق اهدافها وغاياتها القومية (٦) » .

(٥) أمين هويدى : الأمن العربى فى مواجهة الأمن الاسرائيلى ، بيروت ، دار الطليعة ١٩٧٥ ، ص ٤٤ .

(٦) د. على الدين هلال : الأمن العربى والصراع الاستراتيجى فى البحر الأحمر ، المستقبل العربى ، العدد ٩ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٧٩ ، ص ٩٨-٩٩ .

ويدور هذا المفهوم حول ثلاثة محاور رئيسية :

— تأمين كيان الدولة أو مجموعة الدول الذى يتمثل فى المقام الأول فى وحدة أراضيها وحماية اقليمها .

— ان هذا التأمين يكون فى مواجهة كافة الاخطار الداخلية والخارجية القائمة والمحتملة .

— تحقيق الأهداف العامة للمجتمع التى تتمثل عادة فى الاستقرار السياسى والاجتماعى والتنمية الشاملة مع اختلاف الأساليب التى يمكن أن تتحقق بها هذه الأهداف .

اما مفهوم الأمن القومى فى نظر والترليمان فيتحقق « عندما نكون الدولة آمنة وذلك عند المدى الذى تكون فيه غير معرضة لخطر التضحية بقيمتها الجوهرية ، اذا ما رغبت فى تحاشي الحرب ، وتكون قادرة على المحافظة عليها اذا ما تعرضت للتحدى ، وذلك بالانتصار فى الحرب » .

وهناك تعريف آخر يعرف الأمن القومى بأنه « يهدف الى تأمين الأمة من الداخل ودفع التهديد والعدوان الخارجى بما يكفل للأمة حياة مستقرة تساعد على النهوض والتقدم » (٧) .

وهناك من يعرف الأمن القومى بأنه « يشير الى :بدأ يتضمن حق الافراد والجماعات — المؤسسية وغير المؤسسية — للحماية ضد الانتهاك التمسفى لشكل وجودهم المتكامل ، بما فى ذلك اعراضهم وثقافتهم » . وقد ارتبط هذا المفهوم تقليديا باقليم جغرافى محدد تتمتع فيه سلطة حكومية ما بصفة السيادة (٨) .

ومن التعاريف السابقة يمكننا أن نحدد خصائص مفهوم الأمن القومى كالآتى :

— انه ينبع أساسا من الخصائص الجيوبولوتيكية للأقليم .

(٧) لواء أ.ح. عدلى حسن سعيد : الأمن القومى واستراتيجية تحقيقه ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ ، ص ١١ .

(٨) د. محمد السيد السعيد : الأمن الافريقى ، مشكلاته وافاقه ، السياسة الدولية ، عدد ٧٩ ، القاهرة ، يناير ١٩٨٥ ، ص ٧٧ .

— يتجه مفهوم الأمن القومى أساسا الى الدول المجاورة ، حيث يدور حول حماية الاقليم القومى .

— هو مفهوم استراتيجى حيث يتلمس عناصر الضعف الاستراتيجى فى الاقليم القومى ، ومحاولة تخطى ذلك الضعف باتخاذ اجراءات وقائية تضمن الا يكون ذلك الضعف مصدرا لتمزقات معادية قد تكون قاتلة لذا يجب أن يكون حصيلة التعاون بين المخطط العسكرى والسياسى .

— هو عملية تقنين لمجموعة من المبادئ تتضمن قواعد للسلوك القومى تمثل الحد الأدنى للحماية الذاتية .

الأمن الاقليمى :

وهو اصطلاح اكثر حداثة برز بشكل واضح ما بين الحربين العالميتين ليعبر عن سياسة مجموعة من الدول تنتمى الى اقليم واحد تسعى من خلال وضع وتنظيم تعاون عسكرى لدول ذلك الاقليم من منع أى قوة أجنبية أو خارجية عن التدخل فى الاقليم . وجوهر هذه السياسة هو التعبئة بالاقليم من جانب والتصدى للقوى الداخلية على الاقليم من جانب آخر ، وحماية الوضع القائم من جانب آخر ، وحماية الوضع القائم من جانب ثالث (٩) .

الأمن الجماعى :

أضاف دالاس الى فكرة الأمن الاقليمى مفهوم الأمن الجماعى ، ويعنى « التزام جميع دول منطقة معينة فيما بينها بحيث أن الاعتداء على أى دولة من تلك الدول يعنى دخول جميع دول ذلك التنظيم مباشرة فى الحرب ضد الدولة المعتدية » .

وهدف دالاس من ذلك الى احاطة الاتحاد السوفيتى بمجموعة من الاتفاقيات الاقليمية المتناسقة والمترابطة حيث كل اتفاقية تتضمن دوة هى طرف ثابت فى اتفاقيتين فى آن واحد .

ولا شك أن الأمن الحقيقى للدولة ينبع من معرفتها العميقة لمصادر

قوتها فى الميادين المختلفة ، ثم تنمية هذه القدرات تنمية حقيقية حيث تكون المحصلة المترجمة لذلك هى زيادة قدرة الدولة التى تعتبر درع الأمن الحقيقى لحاضرها ومستقبلها . فالأمن يبنى على التنمية ، والتنمية تبنى على التقدم فى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والمربطة مع بعضها ارتباطا مباشرا ، ويتوقف النمو فى احداها على النمو فى غيرها من المجالات ، فكلما تطورت التنمية كلما زاد الأمن وزادت أعماقه وارتفع بنيانه .

وهكذا يتسع مفهوم الأمن القومى ليشمل عناصر المصلحة القومية السياسية والاقتصادية والعسكرية . ولما كانت المصلحة القومية هى عامل متغير ، لذا فقد اتصف الأمن القومى بصفة التغير والنسبية ، فالأمن القومى للدولة العظمى يتصف بالهجوم والعالية نظرا لأن مصالحها تنتشر وتتسع على رقعة العالم ، بينما الأمن القومى للدولة الصغرى يتصف بالدفاع والذاتية لأن مصالحها اقليمية ومحدودة .

ومن هنا فان الأمن القومى يعتبر متغيرا ومختلفا من نظام لآخر ، ويتأثر بالنظام السياسى القائم ونوع الزعامات فى الدولة والوطن ، ويتفاعل الأمن القومى بابعاده السياسية ، الاقتصادية ، العسكرية ، الاجتماعية والبيئية داخل مجالاته الثلاثة وهى المجال الداخلى والمجال الاقليمى والمجال الدولى ليفرز ويعزز الأمن والاستقرار والرخاء والسكينة للمواطنين (١٠) .

ثانياً — الأهمية الجيوبولوتيكية لباب المندب :

يبلغ اتساع مضيق باب المندب ٢٣٢ كم فيما بين رأس باب المندب شرقا ورأس سيعان غربا . وتقسم جزيرة بريم التى تبلغ مساحتها ١٢٨ كيلو متر مربع المضيق الى ممرين ملاحيين ، الشرقى وهو الممر الاسيوى ويبلغ اتساعه حوالى ثلاثة كيلو مترا ، والغربى ويبلغ اتساعه حوالى ٢٠ كيلو مترا ويوجد فى هذا الممر ست جزر يطلق عليها مجموعة جزر « سيبا » وهى تقترب من الساحل الغربى للبحر الاحمر أكثر بالاضافة الى وجود بعض الشعب المرجانية التى تحد من حرية الملاحة ، وبذا فان الممر الغربى يبلغ اتساعه الصالح للملاحة حوالى ١٧ كيلو مترا .

(١٠) د. محمود محمد خليل : المصلحة القومية ، المجلة العسكرية للقوات المسلحة ، العدد ٢٢٨ ، ١٩٨٣ ، ص ١٨ .

ويبلغ قاع المضيق فى الممر الشرقى حوالى ٨١ مترا ، أما على الغربى فيبلغ ٦٣ مترا ، وينحدر القاع نحو خليج عدن حيث يصل عمقه الى ١٠٠٠ متر وبذا فان صلاحية الملاحة تكون أكثر فى الممر الغربى من المضيق . وكلما اتجهنا جنوبا أو شمالا من المضيق يتسع البحر الأحمر ، وبالتالي فلن فوة الضغط من قبل الدول المطلة عليه تقل .

ويمكننا تقسيم الدول المطلة على المضيق والبحر الأحمر من حيث مدى امكانياتها فى التأثير والسيطرة على المضيق سواء اكانت هذه السيطرة سيطرة جغرافية أو سيطرة استراتيجية الى مجموعتين : (١١)

المجموعة الأولى :

وهى الأكثر تأثيرا والتي تتوفر لها السيطرة الجغرافية وهى اليمن الجنوبي وجيبوتى . وان كانت امكانيات اليمن الجنوبي أكثر لسيطرة ميناء عدن على المضيق ، ولبعد ميناء جيبوتى وانحرافه عن خط الملاحة الرئيسى حيث يلزم للسفن المتجهة الى جيبوتى أن تقطع مسافة تستغرق ست ساعات للوصول الى الميناء .

المجموعة الثانية :

وهى الصومال واثيوبيا واليمن الشمالى ، ويتوفر لهما السيطرة الاستراتيجية حيث توفر ذلك مجموعة الجزر المنتشرة أمام سواحلها . ومن يسيطر على تلك الجزر يمكنه السيطرة على المضيق من اتجاه الشمال حيث جزر : دهلك ، قمران ، الطير ، الزبير ، فراسان وكذلك من اتجاه الجنوب حيث جزر : عبد الخورى ، سمحا ، درزى ، سوقطرة .

ونفتقر مجموعة الجزر فى باب المندب الى السكان بل ان بعضا منها يخلو من السكان ، وهذا يؤدى الى امكانية استغلال تلك الجزر بواسطة قوى خارجية بحرية فى سرية تامة . كذلك تتميز المنطقة بوجود مجموعة من الموانئ الحيوية مثل : الحديد ، المكلا وعدن على الساحل الاسيوى وموانئ

(١١) د. محمود توفيق محمود ، المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، دار المريح الرياض ١٩٨٣ ، ص ٩٠ — ١٢٠ .

مصوع ، عصب ، أبوك ، بربرة وجيبوتى على الساحل الإفريقى . وجميعها من الموانى الحيوية التى تصلح للاستخدامات العسكرية وهذا يزيد من الأهمية الجيواستراتيجية لكل من اليمن الجنوبى واثيوبيا وجيبوتى . وبالرغم من ذلك فهناك صعوبة فى عمليات الانزال البحرى فى المنطقة نتيجة لوجود الشعب المرجانية والتى تشكل حواجز موازية لخط الساحل ، ولكنها تسمح بعمليات انزال بحرئ محدودة .

ولا شك أن باب المندب قد اكتسب أهميته من وجهة النظر الاستراتيجية من وجوده كبوابة جنوبية للبحر الأحمر حيث يقع بين الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية وبين إفريقيا . وقد أظهرت حرب أكتوبر ١٩٧٣ أهمية مضيق باب المندب حيث تمكنت البحرية المصرية من اغلقته والسيطرة عليه ، وبذا فإن من يسيطر على باب المندب يمكنه السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر وقناة السويس .

ولا شك أن وجود قناة السويس قد زاد من الأهمية الجيوبولوتيكية له خاصة مع ما تم من تطوير بها بحيث تسمح بمرور ناقلات البترول حمولة ١٥٠.٠٠٠ طن ، والناقلات الفارغة فى رحلة العودة حتى حمولة ٣٧٠.٠٠٠ طن .

أما من وجهة نظر الأهمية الاقتصادية فهو بوابة الممر المائى الذى يحمل الطاقة الى أوروبا ، حيث يربط منابع البترول فى الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية بالدول الأوروبية ، وتمر عبره ناقلات البترول الخام والمواد الأولية اللازمة للصناعة الى أوروبا ، وكذلك المواد المصنعة أو النصف مصنعة من أوروبا الى دول شرق إفريقيا ومنطقة الخليج العربى ، أى أنه حركة ملاحية دائبة ، ومتنفس حيوى لمجموعة دول أوربا ومصدر التجارة المتصلة الى دول الشرق الأقصى واسيا وأستراليا .

وقد ركزت التجارة الدولية على استخدام البحر الأحمر نظرا لقصر المسافة بين الغرب والشرق ، حيث تبلغ المسافة من جبل طارق الى مضيق باب المندب حوالى ٦٥٠٠ كيلو مترا ، بينما تصل المسافة بينهما عن طريق رأس الرجاء الصالح الى حوالى ١٩٠٠٠ كيلو مترا أى ثلاثة أضعاف المسافة ، بالإضافة الى ما توفره من طاقة مستهلكة واختصارا للوقت .

ويمر من مضيق باب المندب ٤٠٪ من اسطول الناقلات المحمل بالبترول وحوالى ٩٣٪ من هذا الاسطول فارغة فى اتجاهها لمصادر انتاج البترول فى المنطقة .

أما من وجهة نظر الأهمية السياسية فإنه يمثل تيار هجرة بشرية عظيمة الشأن من البلاد العربية الى السواحل الافريقية والتي مثلت أولى الروابط العربية الافريقية فى الجوانب الاقتصادية والثقافية والسياسية والحضارية ، كما كان باب المندب همزة الوصل بين شعوب الاقاليم الواقعة عليه والعالم المحيط بها ومع العالم الخارجى فى الشرق والغرب (١٢) .

ثالثا - العلاقات العربية الافريقية حول باب المندب :

تطل كل من جيبوتى واثيوبيا والصومال على المضيق من جهة الغرب أى من الساحل الافريقى ، واليمن الجنوبي واليمن الشمالي من جهة الشرق أى من الساحل الاسيوى . ويمكن تقسيم هذه الدول الى مجموعتين : المجموعة الأولى : وهى ذات التأثير المباشر على المضيق وهى اليمن الجنوبي وجيبوتى ، أما المجموعة الثانية : فتأثيرها غير مباشر وهى الجمهورية العربية اليمنية واثيوبيا والصومال .

وقد كانت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية مستعمرة بريطانية منذ عام ١٩٣٧ حتى قيام ثورة اكتوبر عام ١٩٦٣ ، ونجاح جبهة التحرير فى الحصول على الاستقلال فى نوفمبر ١٩٦٧ وأعلن عن قيام « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » وبرحيل بريطانيا عن شرق السويس وظهور الحركات الاشتراكية فى المنطقة ولجوء اليمن الجنوبي الى الاتحاد السوفيتى لاداعه بالسلاح ، تطورت العلاقات بينهما حيث وقعت معاهدة صداقة وتعاون بينهما ودخل اليمن الجنوبي فى دائرة الاستقطاب السوفيتى .

أما جمهورية جيبوتى وهى ما سميت بالصومال الفرنسى سابقا ، حيث يرجع ارتباط فرنسا بالمنطقة منذ عام ١٩٦٢ وقامت ببناء ميناء فى منطقة رأس جيبوتى فى عام ١٨٨٨ ، وقد نالت جيبوتى استقلالها فى ٨ مايو عام ١٩٧٧

(١٢) أحمد بن بريك : أثر صراعات دول القرن الافريقى على أمن باب المندب ، مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، ص ٢ .

وانضمت الى جامعة الدول العربية ، ولكنها ما زالت على علاقات وثيقة مع فرنسا وما زال الوجود الفرنسى بها حتى اليوم .

وقد ظهر اليمن الشمالى بظهور المملكة المتوكلية الهاشمية نى اعتاب الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقلت الى الولايات العثمانية عام ١٨٧٢ . ونى مارس ١٩١٤ اعترفت تركيا لبريطانيا بحمايتها للولايات التسع المعروفة باليمن السفلى ، ولكن بهزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى أعلن الامام يحيى بن حميد الدين قيام دولة اليمن المستقلة بما فيها الولايات التسع السفلى .

ولجأ الامام يحيى للتفاوض مع انجلترا التى رفضت الاعتراف له بأى سيطرة على الولايات التسع ، مما أدى الى لجوءه للمقاومة المسلحة وانتهت ادت الى عقد معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤ ، والتى اعترفت فيها الامام بحدود اتفاق عام ١٩١٤ . وبقيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ أعلن عن قيام الجمهورية العربية اليمنية . وهى خارج دائرة الاستقطاب العالمى حالياً ، وتحاول ان تقيم علاقات متوازنة بين كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .

وترتبط نشأة اثيوبيا بقيام مملكة اكسوم نى شمال هضبة الحبشة نى القرن الأول الميلادى ، وبدأت فى التوسع فى عهد منليك الثانى (١٨٨٩ — ١٩١٣) حيث ضمت اقاليم الأوجادين وهود ثم ارتيريا عام ١٩٦٢ عندما انشأ الامبراطور هيلاسلاسى الاتحاد الفيدرالى وأعلن ارتيريا كأحد محافظات اثيوبيا . وبقيام انقلاب عام ١٩٧٤ وتغيير نظام الحكم الى نظام رئاسى اتبع الخط الاشتراكى . وبذا نجد انه قد حدث تحول فى العلاقات بين اثيوبيا والولايات المتحدة لتتجه اثيوبيا نحو الاتحاد السوفيتى وتوقع معه معاهدة صداقة وتعاون مازالت سارية المفعول حتى اليوم . بل وارتبطت اثيوبيا بحلف ثلاثى يضم كل من اليمن الجنوبى وليبيا ، ولا شك أن هذا الحلف يشكل خطورة حيث يضم دولتين — تابعتين للخط السوفيتى — ومسيطرتين على المضيق ، احدهما وهى اليمن الجنوبى لها تأثير مباشر على المضيق والاخرى وهى اثيوبيا ذات تأثير غير مباشر عليه .

لا شك أن للصومال بموقعها الحالى أهمية كبيرة فى السيطرة على المنطقة جنوب مضيق باب المندب . وقد تعرض الصومال لعمليات التقسيم

والتفتت نتيجة لاطماع الدول الكبرى فى المنطقة ، ونتيجة لاتفاقيات الحماية التى وقعتها تلك الدول مع شيوخ القبائل فى المنطقة . وقد قسم الصومال الى الصومال الفرنسى الذى خضع للسيطرة الفرنسية ، الصومال الانجليزى وخضع للسيطرة البريطانيع والصومال الايطالى وكان يخضع للسيطرة الايطالية ثم استقطع اقليم الاوجادين بواسطة بريطانيا ومنح لاثيوبيا مقابل منع التغفل الايطالى فى اتجاه السودان ، وعند اعلان استقلال كينيا اعلنت انجلترا ان اقليم N. F. O هو جزء من كينيا .

ونتيجة للمقاومة الوطنية الصومالية اضطرت كل من انجلترا وايطاليا الى منح الاقليم الاستقلال حيث توحدوا عام ١٩٦٠ وشكلا جمهورية الصومال الديمقراطية والتى أصبحت عضوا بالجامعة العربية .

وقد أقامت الصومال علاقات وطيدة مع الاتحاد السوفيتى ووقعت معه معاهدة صداقة وتعاون ، وتمكنت من بناء قواتها المسلحة بمساعدته وخاضت عدة جولات حربية مع اثيوبيا آخرها عام ١٩٧٧ بهدف استرداد اقليم الاوجادين ، وقد أدت هذه الجولة التى حدثت ضد ارادة الاتحاد السوفيتى — الذى كان يرغب فى فرض استرخاء عسكرى على المنطقة وتكوين اتحاد كونفيدرالى بين اثيوبيا واليمن الجنوبي والصومال — الى تحوله لمساعدة اثيوبيا ، مما اضطر الصومال الى الغاء معاهدة الصداقة والتعاون وطرد الخبراء السوفيت ، وتحولها اتجاه الولايات المتحدة للحصول على السلاح الذى يمكنه من تأمين حدوده . وبالرغم من قيام هذه الجولات بين دولتين احدهما شمال المضيق والآخرى جنوبيه ، الا ان الملاحه فى المضيق لم تنعزض لاي مخاطر نتيجة لعدم قيام معارك بحرية بينهما (١٢) .

وبذا فاننا نجد ان هناك علاقات صداقة وارتباط تربط بين بعض الدول ذات التأثير على المضيق مثل علاقات اليمن الجنوبي واثيوبيا . وعلاقات عداء بين بعض هذه الدول مثل العلاقات الاثيوبية الصومالية ، وهناك دول أخرى تقيم علاقات متوازنة مع باقى الدول مثل اليمن الشمالى وجيبوتى . الا أنه توجد صراعات بالمنطقة بالاضافة الى الصراع الصومال الاثيوبى ، والاثيوبى

(١٣) د. محمد رضا فودة : اثر التكامل المصرى السودانى على الصراع فى القرن الاخير ، رسالة دكتوراه ، كلية الدفاع الوطنى ١٩٨٥ ، ص ٢٠٠ .

الكينى وهذه الصراعات تؤثر على أمن البحر الأحمر ككل والذي يعتبر أمن مضيق باب المندب جزءاً منه وهذه الصراعات هي :

- الصراع العربى الاسرائيلى .
- مشكلة ارتيريا .
- النزاع على الحدود بين السودان واثيوبيا .
- النزاع الصومالى الاثيوبى حول الوجوديين .

رابعا — الصراع الدولى فى منطقة القرن الافريقى واثره على الأمن العربى الافريقى :

اهتم المصريون فى العصور القديمة بوجود موطىء قدم لهم على الشواطىء فى كل من ارتيريا والصومال وجنوب الجزيرة العربية للحصول على البخور والعطور والاختشاب اللازمة للمعابد وكذلك لجلب الفضلة والذهب . وقد دخل فى دائرة التنافس الفينيقيون حيث أرسل « جبرام » ملك صور سفنه الى البحر لتأتى له بالذهب الذى اشتهر فى تلك المنطقة ، وكان المارون عبر باب المندب والبحر الأحمر يدفعون الجزية للمسيطرين على شواطىء المنطقة .

أما فى العصور الوسطى وبانتشار الاسلام فى ربوع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال أفريقيا ، سيطر العرب على المداخل الجنوبية والشمالية للبحر الأحمر وعلى أهم مواقع التجارة . وفى عهد الخلفاء الأمويين جرد العرب حملة بحرية لاتخاذ مركز بحرى على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر « الشاطىء الارتيرى » حيث احتلت مجموعة جزر دهلك المقابلة لمصوع ، وانطلقوا منه الى بقية المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى . وقد أقام العرب القلاع والحصون فى هذه الجزر تأميناً لحرية الملاحة وقيام ولايات اسلامية غربية مزدهرة فى دهلك والشاطىء الارتيرى .

وبافتتاح قناة السويس اشتد الصراع بالمنطقة حيث حاولت الدول الاستعمارية الكبرى الحصول على محطات بحرية على طريق المواصلات الحيوى بين الشرق والغرب ، ثم تحولت تلك المحطات الى قواعد هامة ونواة للاستعمار الأوروبى فى المنطقة . فنجد أن بريطانيا قد سيطرت على (م ٣١ — العرب فى أفريقيا)

عدن حيث منها تسيلر على مضيق باب المندب والمحيط الهندي ، وبذا يمكنها الانطلاق شرقا صوب باقى الجزيرة العربية وغربا نحو مستعمراتها فى افريقيا ، وقامت كذلك بالسيطرة على زيلع وبربرة فامكنها السيطرة من خلال الصومال البريطانى على المدخل الجنوبى للمضيق .

أما فرنسا فقد سيطرت على ميناء جيبوتى من خلال تواجدها فى الصومال الفرنسى وربطته بخط سكة حديد جيبوتى/أديس أبابا للانطلاق منه غربا .

أما إيطاليا فانها سيطرت على ارتيريا أملا فى السيطرة على الحبشة والانطلاق منه غربا للسودان .

وهنا يظهر بوضوح دور دول الكتلة الغربية فى السيطرة على منطقة المضيق حتى الستينيات من هذا القرن .

أما فى الفترة التى تلت الستينات وخاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وما أثبتته من أهمية السيطرة على المضيق للدولة التى ترغب فى أن تلعب دورا حيويا رئيسيا فى المنطقة يحقق لها أمنها القومى ، ومع التطور التكنولوجى الهائل فقد ازداد الصراع حدة فى منطقة المضيق .

ويحتل الصراع العربى — الاسرائيلى المركز الأول فى هذا الصراع حيث يشكل باب المندب أهمية استراتيجية لاسرائيل :

— فمن وجهة النظر السياسية تحاول اسرائيل اثبات وجودها فى منطقة باب المندب والبحر الأحمر لنفى ما تنادى به الدول العربية من أن البحر الأحمر وهو بحيرة عربية . ومن هنا جاء التعاون الاسرائيلى الاثيوبى ومحاولة اخماد الثورة الارتيرية حتى لا تستقل وتصبح جميع الدول المطلة على البحر الأحمر هى دول عربية . وبالرغم من أن العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين اثيوبيا واسرائيل ، وبالرغم من التحالف السوفيتى الاثيوبى ، إلا أن العلاقات تحت السطح مازالت مستمرة مع اثيوبيا (١٤) ، نتيجة للمصالح المتبادلة بين اسرائيل واثيوبيا .

— كذلك فان الوجود الاسرائيلى فى منطقة باب المندب يحقق لها
تفادى اغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الاسرائيلية خاصة بعد ما حدث
فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ .

— وهذا الوجود يحقق أيضا اقترابها من المحيط الهندى حيث تصلها
بشرق افريقيا وجنوب شرق آسيا ، ومن هنا فقد سعت للتواجد فى مجموعة
جزر أرخبيل دهلك الاثيوبية (١٥) .

— تسعى اسرائيل لتجعل من البحر الاحمر حاجز فصل بين العرب
والأفارقة والعرب والاسيويين بدلا من أن يكون همزة وصل او رباط
بينهم (١٦) .

— وفى اطار التعاون الاستراتيجى الأمريكى الاسرائيلى يمكن لاسرائيل
أن تلعب دورا حيويا فى منطقة باب المندب فى نطاق الاستراتيجية الأمريكية
فى المنطقة .

— كذلك فان باب المندب يشكل نقطة رئيسية فى البعد الاقتصادى
للامن القومى الاسرائيلى حيث من خلاله يمكنها غزو أسواق شرق افريقيا
والاقتراب من منابع البترول فى الخليج العربى ، ويمثل أقصر الطرق الى
شرق اسيا ، بل وإلى جنوب افريقيا حليفة اسرائيل .

— تتبنى اسرائيل فى استراتيجيتها فكرة تدويل باب المندب مع
استمرار التواجد البحرى لها فى المنطقة ومن هنا جاء حرص اسرائيل على
استمرار علاقتها مع اثيوبيا وارسالها مجموعة من القوات الخاصة فى يناير
١٩٧٦ لتدريب القوات الخاصة الاثيوبية .

ولا شك أن اسرائيل تلعب دورا حيويا فى تغذية الصراعات الدائرة
فى منطقة البحر الاحمر ، سواء كانت تلك الصراعات بين دول عربية أو بين
دول عربية وأخرى افريقية ، وتهدف من ذلك الى بث الفرقة بين دول المنطقة

(١٥) د. السيد عليوة : باب المندب فى الاستراتيجية الاسرائيلية ،
مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، ص ١٣ .
(١٦) المرجع السابق ، ص ١٧ .

واثارة النزعات القبلية حتى تضمن عدم اتحاد دول المنطقة وقيامها بوضع استراتيجية موحدة تضر بالمصالح الاسرائيلية فى المنطقة . وهناك من الأمثلة الكثير حيث نجد مشكلة ارتيريا ، الصراع الصومالى الاثيوبى وانحياز اليمن الجنوبى الى جانب اثيوبيا ، مشكلة جنوب السودان وأثرها على العلاقات السودانية الاثيوبية . كذلك الخلافات المصرية السعودية أبان حرب اليمن .

ويجبىء التدخل الاسرائيلى اما مباشرا بالامداد بالأسلحة والذخائر وبعثات التدريب أو غير مباشر بمحاولة اثارة النزاع دون ظهورها على السطح ، ولا شك أن فشل الدول المطلة على البحر الأحمر فى عقد مؤتمر أمن البحر الأحمر عام ١٩٨٤ عند قيام ليبيا ببث اللامام فيه كانت وراءه اسرائيل بالتنسيق مع اثيوبيا ، اقتناعا من اسرائيل بأن أى استراتيجية أمنية سوف توضع للبحر الأحمر دون اشتراكها فى وضعها سوف تجيىء فى غير صالح اسرائيل .

ولا شك أن الاستراتيجية الاسرائيلية فى منطقة باب المندب سوف تؤدى الى اضعاف الروابط العربية الافريقية فى أبعادها السياسية والاقتصادية والحضارية ، وأن هذه الاستراتيجية لن يقتصر تأثيرها على الدول المحيطة بباب المندب ، بل سوف تمتد لتشمل دول افريقية وعربية أخرى .

ويدخل باب المندب ضمن الاستراتيجية السوفيتية فى المنطقة حيث يحقق له وجوده فى المنطقة أهدافه ومصالحه سواء اكانت هذه المصالح هى مصالح سياسية أو اقتصادية أو عسكرية (١٧) حيث :

— يرى الاتحاد السوفيتى أن وجوده فى المنطقة يعكس مصالحه العامة فى افريقيا والمحيط الهندى ومنافسته للمصالح الغربية .

— تأمين وبقاء التسهيلات الجوية والبحرية التى تمكنه من مراقبة تحرك القوات الامريكية وتقوية وجوده فى منطقة المحيط الهندى وفى داخل البحر الأحمر .

(١٧) د. محمد رضا فودة : الدور السوفيتى فى منطقة البحر الأحمر ، مجلة الحرس الوطنى السعودى ، العدد ٥٢ ، الرياض ، فبراير ١٩٨٧ ، ص ٦٨ — ٧٠ .

— مساندة الأنظمة الماركسية فى المنطقة .

— استمرار وجوده فى المنطقة سيجعله يوضع فى الاعتبار — على الأقل بطريق غير مباشر — فى أى تطور يطرأ فى البحر الأحمر والخليج العربى .

— فتح مزيد من الأسواق الخارجية فى المنطقة أمام صادرات السلاح السوفيتى والصناعات السوفيتية المدنية مقابل عملات صعبة أو سلع استراتيجية (البن — القطن — الذهب — الخ) .

— تخليص النفوذ والوجود الأمريكى والغربى فى المنطقة وإبعاد دول المنطقة عن التحالف الغربية .

— السيطرة على الممرات المائية ومنطقة المضيق حيث يمكن تهديد خطوط الملاحة الغربية ، بل وقفل المضيق فى حالات التوتر أو الدخول فى مواجهة سافرة مع الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من أن كليهما يتحاشى ذلك .

— العمل على قيام أنظمة حكم صديقة أو موالية من دول المنطقة تعمل على الحفاظ على مصالحه بها .

— محاولة السيطرة على مصادر الطاقة والمواد الاستراتيجية فى المنطقة وجعلها وسيلة ضغط على المعسكر الغربى .

وعلى ضوء أهداف ومصالح الاتحاد السوفيتى فى المنطقة وفى ضوء المتغيرات الدولية يمكن أيضاً استراتيجية الاتحاد السوفيتى فى المنطقة كالآتى :

— محاولة احتواء دول القرن الإفريقى (الصومال — اثيوبيا) بالإضافة الى اليمن الجنوبى وادخالها فى حلف أو اتحاد يدور فى فلك الاتحاد السوفيتى وبذا تتم له السيطرة على باب المندب (١٨) ، وقد نجح فى توقيع اتفاق بين

كل من اثيوبيا واليمن الجنوبي وليبيا ، ومازالت محاولاته لاختضاع الصومال وضم السودان جارية . وهنا يجب ان نلاحظ موقف الاتحاد السوفيتى فى حالة نجاحه فى الحفاظ على علاقات قوية او سيطرته على كل من الصومال واثيوبيا واليمن الجنوبي والسودان ، فيمكنه بذلك السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وايجاد وجود مستمر له داخله ، ولا شك أن ذلك سوف يكون دافعا للاتجاه شمالا لاحكام سيطرته على البحر الاحمر شماله وجنوبه .

— نشر النفوذ السياسى والاقتصادى فى المنطقة بما يمكنه من التخفيف من حدة النفوذ والسيطرة الامريكية والاوربية الغربية ، ويساعد على نشر الايديولوجية السوفيتية فى المنطقة (١٩) .

— استنزاف جهود وامكانيات الولايات المتحدة والدول الغربية نتيجة لتواجده ونشاطه فى المنطقة ، بما يجعلها تشعر بقوة التهديد السوفيتى لاستغلال مثل تلك المواقف فى مباحثاته مع الولايات المتحدة الامريكية .

— التوسع فى عقد اتفاقيات الدفاع المشترك والحصول على التسهيلات البحرية والجوية مع زيادة التواجد العسكرى فى دول المنطقة .

— الاحتفاظ بمعدات عسكرية كبيرة محفوظة فى بعض دول المنطقة ، مع الاحتفاظ بقوات جوية حديثة متمركزة فى قواعد جوية فى بعض دول المنطقة يعمل عليها طيارون كوبيون او من المانيا الشرقية او سوفيت بما يمكنه من سرعة التحرك فى المنطقة .

— مواجهة التحدى الايديولوجى والسياسى لجمهورية الصين الشعبية بعد اكتسابها مواقع جديدة فى القارة فى تنزانيا وزائير ولدى حركات التحرير فى افريقيا الجنوبية وفى موزمبيق (٢٠) .

(١٩) عبد الرحمن اسماعيل الصالحى ، التدخل الأجنبى فى القرن الافريقى ، الندوة الدولية للقرن الافريقى ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، يناير ١٩٨٥ ، ص ١٦ .
(٢٠) د. مجدى حماد : الاتحاد السوفيتى وكوبا والقرن الافريقى ، السياسة الدولية ، عدد ٥٤ ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .

وقد جاء موقف الاتحاد السوفيتى من مشاكل المنطقة انطلاقا من استراتيجيته فيها ، فنجد انه كان يمد جبهات التحرير الارتيرية بالمساعدات خاصة الجبهة الشعبية لتحرير ارتيريا ، وجاءت جميع مواقفه فى الأمم المتحدة مؤيدة لاستقلال ارتيريا بهدف امكانية السيطرة عليها عند استقلالها وبذا يمكن أن يحقق وجوده فى البحر الأحمر . ولكن بتحوله من الصومال الى اثيوبيا أوقف مساعدته لجبهات التحرير الارتيرية حتى لا تستطيع أن تحقق استقلالها، حيث لا تمثل اثيوبيا بدون ارتيريا أى قيمة استراتيجية للاتحاد السوفيتى .

وقد حاول الاتحاد السوفيتى تكوين اتحاد كونفيدرالى يجمع كل من الصومال واثيوبيا واليمن الجنوبى بهدف التغلب على مشكلة الاوجادين حيث سوف تصبح جزءا من الاتحاد سواء أكانت تتبع اثيوبيا أو تنتقل تبعيتها الى الصومال . ولكن مع قيام جبهة تحرير الصومال الغربى بمحاولة تحرير الاوجادين وتدخل الصومال الى جانبها دون علم الاتحاد السوفيتى ، مما أدى الى تحوله اتجاه اثيوبيا . ومازال الاتحاد السوفيتى يعمل على تثبيت أقدامه فى داخل اثيوبيا بهدف زيادة سيطرته على منطقة باب المندب بتواجده أيضا فى اليمن الشمالى . ولا شك أن استراتيجية الاتحاد السوفيتى المبنية على السيطرة على اكتاف المضيق ، تعززها عملية اضعاف لدول المضيق عسكريا وابقائها فى احتياج للاتحاد السوفيتى بصفة مستمرة ، مع تجميد مشكلة ارتيريا والاوجادين ، سوف يجعل احتياج كل من اثيوبيا واليمن الجنوبى للاتحاد السوفيتى مستمرة وبذا يضمن استمراره فى المنطقة وابعاد الولايات المتحدة الامريكية عنها .

أما بالنسبة لمشكلة الحدود السودانية الاثيوبية فيقوم الاتحاد السوفيتى بتفذية المتمردين بجنوب السودان من خلال اثيوبيا بهدف زعزعة الاستقرار بالسودان وردا على نشاط جبهات التحرير الارتيرية عبر الحدود السودانية .

أما الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية ، فيقلقها الوجود السوفيتى فى المنطقة بهذه الصورة خاصة بعد توطد العلاقات الاثيوبية السوفيتية وهذا يشكل تهديدا للاهداف والمصالح الامريكية التى نوضحها فيما يلى :

— العمل على تخفيف حدة التوتر على الحدود الاثيوبية مع الصومال والسودان .

— تشجيع التعاون الوثيق بين كينيا والصومال .

— مساعدة الدول الصديقة فى المنطقة وخاصة كينيا والصومال والسودان ، ومدهم بالمعونة الاقتصادية والعسكرية لتنفيذ المخططات العسكرية لها .

— تشجيع الجهود المحلية المناهضة للسوفييت .

— منع الاتحاد السوفيتى من الوصول الى منابع البترول أو المياه الدافئة أو تنفيذ حلمه القيصرى القديم .

— تأمين حرية حركتها فى البحر الأحمر ومنطقة المضيق ، وفى المقابل محاولة تعويق الكتلة الشرقية من التمتع بنفس المزايا .

— تأمين المصالح الاقتصادية والاستثمارات الامريكية والغربية فى المنطقة والقارة الافريقية ، مع المحافظة على الأسواق الامريكية ومحاولة فتح أسواق جديدة فى المنطقة .

— استخدام العون الاقتصادى والسياسى والعسكرى كوسيلة ضغط لتحقيق أهدافها وتنفيذ سياستها فى القارة ، والعمل على استقطاب الصومال بعيدا عن الفلك السوفيتى مع توسيع هوة الخلاف بينهما (٢١) .

— تجنب الوصول بالمشاكل الافريقية الى المواجهة المباشرة مع السوفييت حفاظا على استمرار نجاح سياسة الوفاق الدولى بينهما (٢٢) .

وقد وجدت الولايات المتحدة فى نطاق استراتيجيتها فى المنطقة أن أى وجود عسكرى كبير على الأرض كثيرا ما يؤدى الى عكس الفرض المقصود منه فقد كانت القواعد البريطانية أحيانا بحاجة الى اعداد كبيرة من الجنود

(٢١) لواء أ. ح. محمد نجاتى إبراهيم : استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية وأثرها على الأمن القومى ، الندوة العسكرية العلمية الافريقية أكاديمية ناصر العسكرية العليا ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٤ ، ص ١٥ .

(٢٢) كلية الدفاع الوطنى ، دراسة النظام الدولى والقوتين الأعظم ، بحث غير منشور ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١٠ .

لحمايتها . لذا فقد لجأت الولايات المتحدة الى استخدام أسلوب التسهيلات بالرغم من انها تحتاج الى منشآت أمنية فى المنطقة المباشرة بالإضافة الى مطارات ومنشآت دعم متقدمة ، مع التركيز على القدرات الجوية والبحرية (٢٣) .

وانطلاقا من استراتيجية الولايات المتحدة فقد احتفظت بعلاقات وثيقة مع اثيوبيا واستمرت كذلك لفترة طويلة فى فترة حكم الامبراطور هيلاسلاسى ، ولم تكن المشكلة بين الصومال واثيوبيا — من وجهة النظر الامريكية — تشكل خطرا كبيرا على اثيوبيا ، وقد قامت الولايات المتحدة بعمل دراسة عسكرية خاصة خلصت منها انه من غير المنطقى أن تهدد دولة تعدادها ثلاثة ملايين نسمة ، دولة كاثيوبيا يبلغ تعدادها اكثر من ثلاثين مليون نسمة ، واستبعدت الدراسة امكانية قيام الصومال بعدوان عسكري على اثيوبيا ، بالرغم من ان الاحداث التى طرأت بعد ذلك فى عام ١٩٦٤ ، ١٩٧٧ اثبتت عكس ذلك (٢٤) .

وانطلاقا من الاستراتيجية الامريكية فى المنطقة جاء موقفها من مشاكل المنطقة . فنرى انها ترى ان انسب أسلوب لحل المشكلة الارتيرية هو الحل السلمى باعطاءها استقلال اداريا ذاتيا فى اطار الوحدة الاثيوبية وذلك الموقف لم يتغير حتى بعد قيام الثورة الاثيوبية وتوجهها اتجاه الاتحاد السوفيتى ، نظرا لاعتناعها بأن استقلال ارتيريا وتوجهها العربى سيحيل البحر الأحمر بحيرة عربية ، وهذا يتعارض مع استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية التى تعارض أى تكتل عربى فى المنطقة خاصة بعد حرب ١٩٧٣ . كذلك تحاول الولايات المتحدة الامريكية تحسين علاقاتها مع اثيوبيا املا فى أن تعود مرة اخرى الى الحظيرة الامريكية ، وهذا يتمشى مع استراتيجية الولايات المتحدة فى المنطقة والتى تعمل على ابعاد الوجود السوفيتى منها (٢٥) .

(٢٣) هيئة الاركان البريطانية ، تقرير اللجنة الاطلسية البريطانية ، وثائق سلسلة الدراسات الاستراتيجية ، مركز العالم الثالث ، لندن ١٩٨٣ ، ص ١٨ .

(٢٤) سوسن حسين ، السياسة الامريكية فى افريقيا ، السياسة الدولية ، عدد ٥٤ ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٣٨ .

(٢٥) د. محمد رضا فودة : اثر التكامل المصرى السودانى على الصراع فى القرن الافريقى مرجع سابق ، ص ٣٩٩ .

أما الموقف الأمريكى من مشكلة الوجوديين فهو أيضا بقاء الوجوديين كجزء من اثيوبيا ولم يتغير ذلك الموقف حتى بعد خروج الولايات المتحدة من اثيوبيا وتحولها اتجاه الصومال ودعمها بالأسلحة الدفاعية . بل حافظت الولايات المتحدة على عدم قطع الخيط نهائيا مع اثيوبيا فاقفقت منحها الهبات الا انها لم توقف مبيعات السلاح المتعاقد عليها . وتهدف الولايات المتحدة من حل المشكلة سلميا الى :

— عدم تطور المواجهة الاثيوبية الصومالية الى مواجهة بين القوتين العظميتين .

— ان استمرار التوتر فى الوجوديين سوف يؤدى الى زيادة الاحتياج الاثيوبى للوجود السوفيتى والكوبى للمعاونة فى مجابهة الموقف وهذا يتعارض مع السياسة الامريكية فى المنطقة .

وبتكرار الاعتداءات الاثيوبية على الصومال واحتياج الصومال لتسليح أمريكى يعوضها ما فقدته من أسلحة سوفيتية ، توصلت الولايات المتحدة الى اتفاق مع الصومال على أن تمدها بأسلحة دفاعية مقابل الحصول على تسهيلات جوية وبحرية فى شمال الصومال وبذا نجد انه قد تم تحول الولايات المتحدة الى الصومال لتعوض الوجود الذى فقدته فى اثيوبيا وبذا يمكنها أن تؤدى الدور الذى ترغبه من جنوب المضيق بدلا من شماله .

وهنا يجدر الاشارة الى أن كلا من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية ترغبان فى بقاء ارتريا كجزء من اثيوبيا ، حيث باستقلال ارتريا تصبح اثيوبيا دولة حبيسة غير ذات أهمية لكليهما . كذلك يوجد صراع بين الدولتين لاستقطاب اليمن الشمالى الذى يحاول أن يحتفظ بعلاقات متوازنة بينهما .

أما فرنسا فانها تثبت أقدامها فى جيبوتى بالرغم من نيلها الاستقلال ويأتى ذلك من خلال تقديم المعونات وتدريب القوات المسلحة لها .

وبذا فأننا نجد أن الصراع العالمى رخصة بين القوتين العظميتين وجه الى السيطرة على السلع الاستراتيجية والممرات المائية الدولية . فبينما نجد أن الولايات المتحدة الامريكية تضع ضمن استراتيجيتها ضرورة لمحافظة

على أمن دول الخليج العربى حتى لا تتأثر صادرات البترول اليها او الى الدول الأوروبية ، نجد أن الاتحاد السوفيتى يتسابق لتكوين احزمة تحيط بمناطق البترول التابعة للولايات المتحدة ويحاول الاتحاد السوفيتى ادخال دول عربية وافريقية فى تلك الأحزمة مثل اليمن الجنوبى ، اثيوبيا ، ليبيا ، أنجولا .

كذلك نجد أن كلا من الدولتين يتصارعان للسيطرة على الدول العربية والافريقية ذات المواد الأولية الحيوية سواء للصناعات الحربية او للناحية الاقتصادية وهنا نجد أن اسلوب وشكل السيطرة يختلف من قوة لأخرى وكذلك من موقف لآخر فنجد أن :

— الاتحاد السوفيتى قد استطاع أن يكتسب فى السنوات الأخيرة مواقع هامة لتحقيق استراتيجيه فى القارة الافريقية تحت ستار مساعدة حركات التحرر ، واصبح الوجود السوفيتى واضح فى كثير من الدول العربية والافريقية مثل اليمن الجنوبى ، ليبيا ، أنجولا . الخ .

— أما الولايات المتحدة الامريكية فنجد انها قد اقتنعت عقب مشوبه الحرب الايرانية العراقية ، واستيلاء الاتحاد السوفيتى على أفغانستان بضرورة دعم وجودها فى افريقيا والدول العربية حيث سعت الى الحصول على التسهيلات العسكرية بالاضافة الى دعم وجودها فى كينيا والصومال وكذلك وجودها البحرى فى المحيط الهندى ، بالاضافة الى دعم المملكة العربية السعودية باحتياجاتها من كافة انواع الأسلحة المتطورة للغابة لدعم قدراتها القتالية .

وبذا فان قيام الدول العظمى بامداد الدول العربية والافريقية بأحدث ما فى ترساناتهم من الأسلحة والمعدات المتطورة والتي لا تقوى جيوش هذه الدول على استيعابها ، وتقوم فى مقابل ذلك بأخذ ائمانها ان لم تكن نقدا فتكون مقابل سلع استراتيجية مثل البن والقطن ، ولا شك أن ذلك يؤثر على الأمن القومى لتلك الدول فى بعده الاقتصادى والداخلى ويؤثر على التنمية الشاملة للدولة .

ان الاستقطاب العالمى للدول المحيطة بباب المندب بواسطة القوى العظمى واتباعها للخط السياسى والايديولوجى لتلك الدول ادى الى زيادة

الفرقة وزيادة حدة المشاكل بين تلك الدول وخلق التكتلات مما أدى الى عدم استقرارها وتفرغها للتنمية الشاملة التى هى محور أمن تلك الدول .

كذلك فان استمرار الاضطرابات بين دول المنطقة وعدم حل مشاكلها بالطرق السلمية سوف يؤدى الى زيادة اقبالها على استيراد السلاح ، كذلك سوف يؤدى الى زيادة حدة مشكلة اللاجئين وما لها من اثار ضارة بالأمن القومى للدولة المضيفة لهم .

يشكل الصراع الدولى بالمنطقة تهديدا للمصالح العربية والافريقية ، ويهدد بغلق باب المندب فى وجه ناقلات البترول من الخليج الى الدول العربية والافريقية .

ولا شك أن لمحاولات التسلل الاسرائيلى للمنطقة مرة أخرى خاصة بعد اعادة علاقاتها مع زائر ، وما تسعى اليه من محاولة خلق تيار معارض للدول العربية فى افريقيا أثره على توتر العلاقات العربية — الافريقية نظرا لأن الدول العربية ترى فى استمرار قطع الدول الافريقية لعلاقاتها مع اسرائيل وسيلة للضغط عليها لاعادة الحق العربى الى أصحابه .

خامسا — نحو مفهوم لأمن منطقة باب المندب :

هناك عوامل عديدة تحتم وجود أمن عربى — افريقى مشترك وبصفة خاصة لمنطقة باب المندب : (٢٦)

— فمن الناحية الجغرافية تشكل الدول العربية الاسيوية والدول الافريقية كتلة استراتيجية واحدة يحدها شرقا الخليج العربى وشمالا البحر المتوسط وغربا المحيط الأطلسى وجنوبا المحيط الهندى ويعتبر باب المندب أحد النقاط الحيوية فى تلك الكتلة . كذلك فان الدول العربية يقع بعضها منها فى اسيا وهذه تعتبر حلقة وصل بين العالم العربى واسيا ، وباقى الدول العربية فى افريقيا وعددها تسع دول يبلغ تعداد سكانها حوالى ثلث تعداد سكان افريقيا وهى تعتبر كحلقة وصل لافريقيا باوروبا .

(٢٦) د. محمد رضا فودة : مستقبل التعاون العربى الافريقى ، الندوة العسكرية العلمية الافريقية ، اكااديمية ناصر العسكرية العليا ١٩٨٤ ، ص ١٥ — ١٨ .

— ومن الناحية الاقتصادية تعتبر الدول العربية والافريقية مخزنا هائلا للمواد الخام والمواد الاستراتيجية التى تحتاجها الدول الكبرى للصناعة ، بالإضافة الى انها أيضا مصدرا رئيسيا للطاقة المطلوبة لتصنيع المواد الخام . كذلك فان الدول العربية والافريقية فى منطقة باب المندب تعتبر خطوط مواصلات استراتيجية تمر فيها المواد الخام فى طريقها للدول الكبرى وكذلك المواد المصنعة فى طريقها الى الدول العربية والافريقية ، وبالرغم من الموارد الهائلة التى تمتلكها كثير من الدول العربية والافريقية الا أن حالة الفقر والتأخر ما زالت سائدة بين شعوبها مما يهدد أمنها القومى .

وهناك قضايا أمنية مشتركة تحتم وجود أمن عربى — افريقى مشترك وهى :

- مشكلة اللاجئين .
- مشكلة التخلف واهدار الامكانيات .
- امتلاك القدرة النووية .
- الاستقطاب الدولى .
- ضعف فاعلية المنظمات الاقليمية .

وبذا فاننا نجد : أن هناك تأثيرا متبادلا بين ما يحدث فى الدول العربية وما يحدث فى الدول الافريقية ، وان هناك علاقات افريقية عربية قديمة ومستمرة فى جميع المجالات ، وانه يجب وجود نظرة مشتركة لأغلب المشاكل المتشابهة والقضايا المشتركة ، لذا يجب وضع استراتيجية وسياسة موحدة لمواجهةها وتعاون كامل فى التنفيذ .

ولما كان مضيق باب المندب هو أحد مفاتيح الأمن العربى الافريقى لذا يجب أن يولى عناية خاصة من قبل الدول العربية والافريقية ، ولتحقيق أمن باب المندب يجب :

- ١ — تحقيق الأمن القومى للدول المطلة على المضيق ، وهذا لن يتأتى الا اذا تم حل المشاكل الداخلية بتلك الدول كخطوة أولى ، يليها حل المشاكل بين تلك الدول وبعضها ، أى انه يجب حل مشكلة ارتريا ومشكلة الوجوديين والحفاظ على استقلال جيبوتى .

٢ — إبعاد دول المنطقة عن دائرة الصراع والاستقطاب الدولى ولا شك ان الخطوة الأولى والخاصة بتحقيق الأمن القومى لدول المنطقة ستكون العامل الأساسى لتحقيق الخطوة الثانية ، نظرا لانه اذا ما حلت مشاكل المنطقة فلن يكون هناك احتياج لتدخل قوى خارجية تحمى نظام ضد الآخر .

٣ — الامتناع عن منح القواعد والتسهيلات للدول الأجنبية بالمنطقة .

٤ — لابد من تحقيق السيطرة على جزر باب المندب بالتواجد فيها سواء اكان تواجدا عسكريا أو مدنيا أو مشتركا منعا لاستغلالها من قبل دول أخرى دون علم من الدول صاحبة السلطة الشرعية على تلك الجزر ، وكذلك وضع خطة مستمرة لمراقبة تلك الجزر خاصة تلك التى يصعب الإقامة المستمرة فيها من قبل مواطنى دول المنطقة .

٥ — وضع استراتيجية عربية افريقية مشتركة لتأمين باب المندب تراعى الاعتراف بحق الدول الأخرى فى استخدام المضيق ، ولا شك ان مثل تلك الخطوة لن تؤدى الى الغرض المنشود منها الا اذا تم ازالة الخلافات القائمة بين بعض الدول العربية بالمنطقة واثيوبيا ، وذلك بهدف أن تقوم كل دولة بتحمل مسؤوليتها فى تأمين المنطقة . ويمكن أن يتأتى ذلك عن طريق تكوين هيئة دول حوض البحر الاحمر لتكون هيئة مسئولة عن وضع خطة تأمين البحر الاحمر والذى يمثل باب المندب أحد قطاعاته ، وتتولى تحديد مسؤوليات كل دولة المادية والعسكرية والاقتصادية ، وكذلك القيادات المسئولة عن تأمين كل قطاع ، وحجم القوات وأماكن تمركزها وأسلوب التنسيق بينها ومسئولية السيطرة عليها ، وأسلوب التأكد من استعدادها المستمر ، ونظام للمراقبة والانذار .

٦ — أن تشارك الدول العربية المعنية بأمن باب المندب فى تكاليف خطة التأمين مثل المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى .

٧ — تنشيط منطقة باب المندب اقتصاديا وسياسيا حتى تصبح كمنطقة جذب يمكنها تحقيق عائد بالعملات الحرة يعود على دول المنطقة .

الخاتمة :

لا شك أن مضيق باب المندب يلعب دورا رئيسيا فى تحقيق أمن المنطقة وان من يسيطر على المضيق يمكنه التأثير فى الملاحة بالبحر الاحمر وكذلك بقناة السويس . وان وجود استراتيجية موحدة لدول المنطقة لتأمينه اصبح ضرورة ملحة لابعاد الوجود الأجنبى من المنطقة ، وان الامتناع عن منح التسهيلات هو أحد الضروريات لابعاد ذلك الوجود الأجنبى ، وانه فى غياب أمن عربى جماعى وأمن أفريقى جماعى أصبحت هناك ضرورة للتنسيق بين دول المنطقة لتحقيق أمن باب المندب مفتاح افريقيا من الشرق ومفتاح آسيا من الغرب . ومن هنا جاء المقترح الخاص بإنشاء هيئة دول حوض البحر الاحمر والتي ستكون مسئولة عن وضع الخطط اللازمة للتأمين مع استمرار المتابعة والتنسيق بين الدول وتدبير الموارد المالية اللازمة لخطة التأمين ، وذلك حتى لا تتكرر حوادث تلغيم البحر الاحمر وما لها من أثر على الأمن القومى لدول المنطقة .

oboiikan.com

الزعماء (المتطوِّرون) فى حزب التجمع الافريقى

١٩٥١ - ١٩٤٦

د. عبد القادر زبانية

يمر الزعيم الافريقى (المتطور) حسب نظرية فرانتز فانون بثلاثة مراحل وذلك فى طريقه لبلوغ مرحلة « التطور الفكرى ليلعب درجة الوعى الكامل » :

١ — المرحلة الأولى : هى الامتزاج اللامتوازن ، وفيها يكون استيحاؤه أوروبا ، وعند التجربة يعطى الدليل على انه تمكن من ثقافة « الوطن الام » ويستطيع الاتيان فيها بانتاج مماثل ومقلد (بفتح اللام) .

٢ — المرحلة الثانية : هى مرحلة الاضطراب والنهوض الذاتى وفيها : « يقرر (الزعيم) أن يتذكر من هو .. ولكن بما انه ليس جزءا من شعبه وذلك لأن علاقاته بشعبه هى علاقات خارجية فقط ، فانه يكتفى بتذكر كيف يعيشون ليس الا ، فتبرز حوادث الماضى فى اعماق ذكرياته من خلال أيام صباه كما كان قد عاشها ، فالاساطير القديمة يعاد تفسيرها على ضوء الجغاليات المستعمارة وعلى أساس مفاهيم العالم المكتشف تحت أجواء أخرى » (١) .

٣ — المرحلة الثالثة : تتصف بالانتاج القتالى والكتابة الثورية والوطنية وفيها : « فان كثيرا من الرجال والنساء الذين كانوا حتى هذه المرحلة لم يفكروا أبدا فى العمل الأدبى أو الكتابى يجدون أنفسهم فى ظروف استثنائية فهم اما أن يكونوا فى السجن مع ثوار الجبال أو على وشك التنكيل بهم فيشعرون بالحاجة الى الحديث لشعبهم ، فيركبون الجمل المعبرة عما يختلج فى صدر أمتهم ، وهكذا يصبحون اللسان الناطق عن واقع جديد للعمل » (٢) .

(1) Frantz Fanon, Présence Africaine, paris 1963, p. 179.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

ان هذه المرحلة الأخيرة لم يمثلها الزعماء السياسيون فى افريقيا الفرنسية قبل مرحلة الاستقلال الا فى حالتين استثنائيتين جدا وهما :

١ — هفويت بوانبى أثناء فترة تزعمه لحركة التجمع الافريقى الديمقراطى فى الفترة ما بين ١٩٤٦ و ١٩٥١ حينما كان ذلك التجمع كنفدراليا شعبيا كما سيأتى بيانه .

٢ — بعض الذين كانوا أوفياء لمبادئ ذلك الاتحاد فى الفترة نفسها وعلى رأسهم دربوسى (D'Arboussier) فى فولتا العليا (بوركينا فاسو حاليا) .

وفى غير ذلك فان الزعماء المتطورين (Les Evolvers) (٢) كانوا يتوقفون عند بلوغ المرحلة الثانية فقط ، وكانت مطالبهم ومطالبهم لا تخرج عن نطاق ابراز الشخصية فى نطاق النظام السياسى والاقتصادى والثقافى للوطن الام للتخلص من عامل الشعور الاجبارى بالنقص من جراء التمييز الذى يجعلهم فى درجة أقل والذى ظل يلاحقهم بصورة قانونية وعملية حتى بعد بلوغهم مرحلة الثقافة والتطور التى كان يوجد عليها اترابهم من الفرنسيين لحما ودما ، ويضاف الى هذا المطالبة بتطبيق القوانين الدستورية على شعوبهم بالشكل الذى اعترفت به واقرته السلطات الفرنسية نتيجة للتطور الذى أدخل عليها بعد الحرب فيما يتعلق بالمستعمرات كنتيجة وتفادى معا للظروف الخارجية القاهرة .

ويعزى للهجين السنغالى أبى بولات (Abbé Boilat) حين تأليفه لكتاب فى النحو للغة الولوف (Wolof) سنة ١٨٥٣ ضيقه ، ولأول مرة ، ذرا بما كان يذهب اليه الفرنسيون من نفى أى تطور حضارى لغوى للانفارقة ، فاستفهم : كيف يكون ممكنا لهؤلاء الرجال من غير ثقافة ومن غير نحويين ولا اكاديميين ولا حتى قواعد كلامية أن يكون فى لفهم مثل هذا الترتيب وقواعد البناء والطريقة ؟

(٣) أى الذين تتقنوا الى حد ما فى المدارس الفرنسية وارتقوا عن مستوى الاهالى العاديين واصبحوا أقرب الى الفرنسيين فى تفكيرهم وارتباطهم ونظام حياتهم .

ثم اجاب عن هذا التساؤل بقوله : « انه بالرغم من أن الولوف هم سود كمعظم السود الأفارقة ، فان لهم الاعتقاد الأكثر تواضعا فى أنهم البيض الأكثر نقاوة ، وان أكثر ما يجرحهم هو أخذهم كمبيد او جنود مكبلين للحمل (Serrers) .. ومعنى ان تكون مسيحيا فانت أبيض ومعناه أن تكون حرا وان تكون لك حقوقك » (٤) .

مثل هذا الشعور هو تعبير عما كان يختلج فى نفسية كل افريقى (متطور) تجاه موقف الاوروبيين منه فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهذا يشير الى حقيقة هى أن مطالب المتطورين كانت تتطور مع الزمان ، والانسان ابن محيطه كما يقولون فبعد خمسين سنة من الشعور الذى أبداه بوالات هذا نجد سنغاليا (متطورا) آخر هو ندياي سلدور (N'Daye Celdor) الذى كان فى سنة ١٩١٢ نائب الرئيس فى الاتحاد السنغالى لنشر اللغة الفرنسية يصرح بأن الحاكم الفرنسى العام : « لا يحب السود .. وقد عمل منذ مجيئه فى عام ١٩٠٤ على القائنا بوحشية خارج مجموعة زملائنا من الوطن الام » (٥) .

ولكن قضية المتطورين لم تظهر بوضوح الا فى بداية الحرب العالمية الاولى واثناها وبعدها ، ومن بين الأوائل الذين يمثلونها فى الحقبة الاولى هو بليزديان (Bilaïse Diagne) ولذلك فهو يستحق هنا بعض العناية . ينحدر بليزديان من طبقة وسطى ازداد اتساعها من جراء قرنين من التجارة الفرنسية فى منطقة الساحل السنغالى ، وقرن واحد من الثقافة الفرنسية فى الأربع بلديات السنغالية التى ارتقى قسم من سكانها حتى ذلك الوقت ، الى درجة التمتع بالحقوق السياسية وأصبحوا (مواطنين) فرنسيين ، ولهم الحق فى انتخاب ممثل عنهم الى الجمعية الوطنية الفرنسية . وقد كان بليزديان أول افريقى ينتخب لهذا المنصب فى السنة ١٩١٤ (٦) .

وإثناء المعركة الانتخابية وقف الى جانب ديان طائفة لبو (Lebou) والزعماء المسلمون والمثقفون المتطورون الذين كانوا قد انضموا فى جمعية

(4) Claude Wauthier, L'Afrique des Africains, paris 1944,p.41.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(6) Robert Delavignette, Freedom and authority in French west Africa, London 1950, p. 420 ff.

أطلقوا عليها اسم « الشباب السنغالي » ، وكان هدفها هو المطالبة بالاجور المماثلة للموظفين الأفارقة باجور الفرنسيين ، وفى سنة ١٩١٦ ، كان هناك اتجاه فى فرنسا لالغاء حقوق المواطنة التى كانت البلديات السنغالية الأربع تتمتع بها ، فوقف بليزديان ضد ذلك الاتجاه ، ونجح فى تثبيتها . وفى سنة ١٩١٧ عين بليزديان مندوبا ساميا للتجنيد فبلغ عدد الأفارقة الذين جندوا مائة وثمانين الفا ، وكانت فرنسا فى حاجة شديدة لهم وكانت الخسائر بينهم كبيرة ، ولكن الحاكم العام فولنهافن (V. Vollenhaven) وقف ضد تعيين بليز فى هذا المنصب لأن ذلك يؤدى الى التضيق من صلاحيته ولأنه كان ضد تكاثر الأفارقة فى الجيش ، وعندما لم ينجح فى مسعاه اضطر الى الاستقالة (٧) . وقد اعيد انتخاب بليز فى سنة ١٩٢٠ بأغلبية ، وعمل كرئيس للمؤتمر الأمريقى لسنة ١٩١٩ (٨) . وفى الوقت الذى كان فيه ديان يدافع دائما عن امتيازات المواطنة الفرنسية للبلديات الأربع السنغالية فانه عرف الى جانب ذلك بوقوفه الى جانب النظام الاستعمارى فى البلاد الى حد انه كان يوجد المبررات للعمل الاجبارى ولانعدام الديمقراطية التى تتمتع بها البلديات الأربع بين المؤسسات الفرنسية الأخرى خارج حدود تلك البلديات ، وأمام نداء ماركوس فريفى للحرية وتصريح ١٩٢٠ المتعلق بحقوق الشعب الزنجى فى العالم ، أجاب بليزديان :

« نحن الأهالى الفرنسيين نرغب أن نبقى فرنسيين ما دامت فرنسا قد اعطتنا كل حرية .. ان النخبة من الأهالى الفرنسيين التى هى المسئولة عن الأهالى فى مستعمراتنا لا تستطيع أن تسمح ، دون أن تكون فاشلة فى واجباتها الجديدة ، بنظريات الانفصال والانعتاق الثورية التى اعطيتوها اسمكم لتحدثوا القلاقل وانعدام النظام » (٩) .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) عمل قبله فى هذا المنصب كاربوت ولكن هذا كان يختلف عن ديان بكونه كان هجينا ، أبوه فرنسى وأمه سنغالية ، وهو من سان لوييس .
(٩) CF. Thomas Hodkin «Background to Afrique occidentab Francaise : Afrique Reaction and French role», in west africa, Janury, 1954, p. 313;

Wesley Johnson «The ascendancy of Biaise Diagne and the beginning of African Politics», In Africa No 3 July 1966, pp. 235-252;
Chrls Cris, La paroll est. Me Biaise Diagne, premu homme d'etat Africain, paris 1961, p. 15.

وعند مقارنة هذا التصريح بما جاء فى منشور الدعاية الانتخابية الذى أصدره ديان مع انصاره نلاحظ الى أى حد كان للرجل (المتطور) مجال يعمل فى نطاقه ولا يتعداه فقد جاء فى ذلك المنشور :

« اذا كنتم ترغبون فى أن يكون لكم مكان تحت الشمس ، اذهبوا لصناديق الاقتراع ، ليس لتتخذوا لكم سيّدا ولكن لتختاروا بحرية صديقا من جنسكم يدافع عنكم فى كل مجال ، وذلك مما يجعل مناهضكم يضطرون أمام فكركم السياسى وتيقظكم الاجتماعى » (١٠) .

وقد ذهب الزعماء المسلمون الى تأييد بليز ضد منافسه كاريوت وكان لهم دور كبير فى انجازه ، قال كاريوت : ان « المرابطين » قد حصلوا على التزام من عدد كبير بين الناخبين فحلفوهم بالقرآن لى ينتخبوا ويحصلوا على أصوات أخرى لصالح ديان . وهذا الآخر قد قدم نفسه على أنه المرشح الأهلئ الحقيقى ، وقد قرر المرابطون أن كل من لا ينتخب لصالحه يعتبر مرتدا ولن يسمح له أن يتزوج أو يذفن وفقا لقواعد الدين الاسلامى » (١١) .

وكان الزعماء المسلمون يؤيدون ديان ليحميهم ضد تدخل الادارة فى شئونهم عند الحاجة ، أما فى غير ذلك فان ديان المتطور لم يكن لينظر الى استقلال الافارقة بغير المنظار الذى كان ينظر به اليه الفرنسيون مثلا (١٢) . يقول ديان فى هذا الصدد : « يمكن للإنسان أن يتصور يوما سيأتى ، يستطيع فيه الجنس الاسود التحكم فى مصيره بكل نضج ، مع ثقافة عميقة تعطى السود فكرة الشعور القوى بالتضامن الوثيق الذى سيتواجد بينهم وبين فرنسا » (١٣) .

ويذهب ديان فى تفكيره داخل اطار الاستعمار الفرنسى الى حد الاقتناع بالمصير الفرنسى لبلاده ، وهو ينظر الى ذلك بمنظار المقتنع المغتبط بفضائل ذلك الاستعمار فيقول : « اننى من حيث الجوهر من أولئك الذين يقبلون أن

(10) Ibid, p. 18.

(11) Irving Markovitz «The Political thought of Bilaise and Lamjne Guye, in Présence Africaine, No 72 paris 1969, p. 28.

(12) Cros, op. cit. p. 137.

(13) Ibid.

التقليد السياسى لفرنسا .. يمكن أن يجد أهدافه النهائية فى الوحدة ، وفى نفس الوقت فى الفكرة والعقيدة وفى الوحدة الروحية بين الوطن الام فرنسا وبين عرقيات الشعب المنتشر عبر ممتلكاتها وراء البحار .. اقول ذلك وأنا احمل فى فكرى ان نهاية الاستعمار هى الوحدة ويجب على أن اضيف أن كل خاصيات الاهالى يجب أن تحترم فى تقاليدها وعاداتها « ويستطرد ديان (المتطور فى تفكيره هذا) الى القول : ان كل ما يربطنا والذي يجب أن يربطنا فى الوضعية النهائية هو الروح المشتركة ويبدأ ذلك بالمصالح المادية أولا ، ثم تتبع بمجهودات مشتركة لتثقيف الاهالى الذين سوف يؤدى بهم ذلك تدريجيا الى مستوى (الفرنسيين) وذلك ما سيكون اسمنت الرابطة التى لا تنفصل بيننا » .

ثم يضيف ديان الى رايه هذا الاشارة الى ما أحدثته ظروف الحرب . ويفسر دور الافارقة الذين كان يسهر على تجنيدهم لها بانه مجهود مشترك فى هذا النطاق ، فيقول « والى هذا الحد يجب أن نذكر ، بالرغم من أن هذا أصبح الآن بديها ، ان الحرب قد تجاوزت كل هذا وخلفت وضعية ، سواء من أحب أم كره ، فانها انتجت الجهود المشتركة والتضحيات المشتركة والمصير المشترك » (١٤) .

ويرى ديان أن الاستعمار الفرنسى لا يمكن أن يقارن بفيره ، لأن (اساسه انسانى) فى حين أن غيره من أنواع الاستعمار انما بدفعها دوافع مادية . ويرى أن من واجب جميع المواطنين أن يعملوا ما فى وسعهم للتغلب على المساوىء الموجودة فى الاستعمار كأي شئ انسانى فى الحياة له مساوئه ومحاسنه ، وهو فى هذا التحليل يذهب الى حد نعت الاستعمار الفرنسى بالتقدم والاجابية « . ثم يستطرد الى القول :

« اذا كنا نعترف بأن الاستعمار الفرنسى ، كأي عمل انسانى آخر له بعض النقائص ، ونحن هنا لنعمل على اختفائها ، فانه من حقنا أن نؤكد على القول بان فرنسا قد تسببت للاهالى الافارقة أن يجتازوا فى وقت قصير مرحلة من التطور ، اذا نحن أردنا وزنها فانها أكثر اعتبارا مما مرت به فرنسا خلال ما يقرب من العشرين قرنا ، وما ذلك الا لأنكم اشتملتمونا وضممتونا فى

اهتماماتكم الوطنية الأساسية تحت ظروف معينة ، وسيصبح منذ الآن فصاعدا لا يخدم بلاده ولا مصالحها ولا مصالح فرنسا القارية ولا مصالح مواطنيه ، من سيقول لكم هنا أن الاستعمار يجب أن تكون له نهاية أخرى غير التي تربط مصالحنا أكثر وتجعلها مشتركة » (١٥) .

لقد عبر وأكد ديان عن نظريته وفلسفته هذه تجاه الاستعمار الفرنسي في خطبته أمام أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ فاتح يناير (جانفى) ١٩٣٠ ، وكانت بمثابة رد منه على بداية احترام المطالب الوطنية في جهات أخرى ، لأنه كان يرى أن من مصلحة بلاده هو الارتباط بفرنسا الى الابد ولا عجب في ذلك فهو رجل (متطور) .

ان ديان يمثل فكرة الجيل الأول من (المتطورين) في نطاق الاستعمار الفرنسي بافريقيا الفرنسية دون شك ، ولم يتعد جيل المتطورين الذى أتى بعده عن هذه الفكرة الا في بعض الشكليات .

يمكن أن يعتبر لمن قاى (Lamine Gueye) شخصية بارزة أمام المؤرخين لتمثيل الجيل الثانى . لقد حارب لمن قاى حتى الاستقلال المظاهر البيروقراطية والتمييز العنصرى في الاستعمار الفرنسي ، وقد كان من الوجوه البارزة بين المتطورين من حيث المستوى الثقافى فقد حصل على درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس في سنة ١٩٢١ وخصص بحثه فيها لاثبات التعايش الحاصل بين المجموعة التي ارتقت الى مستوى (المواطنة الفرنسية) وبين المجموعة التي كانت تعيش تحت طائلة القوانين الخاصة بالأفارقة ، وقد كون لنفسه انصارا من حوله ، ادعوا اتباع افكار الاشتراكيين ، وهم المجموعة التي تطورت تحت زعامته في سنة ١٩٣٠ لتشكل (الفدرالية السنغالية) كفرع افريقي للحزب الاشتراكي الفرنسي .

وقد دافع بشدة مع انصاره في الفدرالية السنغالية وبمساعدة الحزب الاشتراكي الفرنسي لهم على وجوب القبول القانوني للنخبة الافريقية (المتطورون) كي تصبح لها حقوقها في المساواة مع المواطنين الفرنسيين بالأصالة وذلك ، فيما يتعلق بالواجبات والفوائد الاجتماعية والاقتصادية والامتزاج السياسى أيضا (Assimilation Politiqué) .

ورغم ذهاب لين قاى هذا المذهب منذ وقت مبكر ، فانه لم يستطع البداية فى تحقيق ما كان يصبو له تدريجيا الا بعد الحرب الكونية الثانية ، ففى ٧ مايو ١٩٤٦ صدر قانون لين قاى الأول القاضى بان كل هؤلاء الذين هم تحت تشريع الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار لهم كمواطنين فرنسيين نفس اتساع ذلك التشريع لمواطنى الوطن الام . لقد كان لين قاى (متطورا) لذلك كان يدافع عن طبقة المتطورين بالدرجة الاولى ، وهو الذى قدم مشروع هذا القانون وسمى باسمه .

وفى سنة ١٩٥٠ صدر قانون ثان باسم لين قاى أيضا يقتضى بان الموظفين الأماركة جديرون بان تكون لهم حقوق متساوية مع الموظفين الفرنسيين .

وفى كتابه مراحل وآفاق الاتحاد الفرنسى (E'Tapes et perspectives de L'union Francaise) الذى أصدره حينما أصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الفرنسى فى باريس ، دافع لين قاى عن الاتحاد الفرنسى، ولم يتوقف فيما أبداه من آراء فى هذا الكتاب عند حدود ذلك الاتحاد كما اقتضاها دستور ١٩٢٤ بل ذهب الى الدفاع عن فكرة (العمل العقائدى) على حد تعبيره فيما يتعلق بهذا الاتحاد ، وكان يرى أن نظرية العمل العقائدى هذه تهدف الى توحيد الأماركة بالفرنسيين (مخترعى الحريات) على حد تعبيره ، واقترح عددا من الاصلاحات تهدف كلها الى اشتراك الأماركة فى مختلف المؤسسات السياسية الموجودة آنذاك ، وكان من جملة ما اقترحه فى هذا الصدد :

« على المستوى الوطنى (يتكون) مجلس يدعى للعمل ليتعرف على المشاكل الكبرى لما وراء البحار ، وتعطى له الصلاحية اللازمة كبرلمان مختص ، وان حضور أغلبية منتخبة من خارج الوطن الام فيه سوف يجعل امامه مشاكل عاطفية وسياسية أقل من تلك التى تظهر فى حالة مجلس الاتحاد الفرنسى الحالى الذى سيتطلب دستوره ادخال تغييرات عليه » (١٦) .

ويرفض لمن قاي كبقية المتطورين فى افريقيا الغربية الفرنسية فكرة الاستقلال ليستبدلها بفكرة المناداة بالمساواة تحت السيادة الفرنسية فيقول حرفيا : « ان المطلوب من فرنسا هو بكل دقة المعاملة بالمساواة فى تطبيق قوانينها » (١٧) .

وعندما تأسست المجالس الاقليمية والمجلس (الفدرالى) المسمى بالمجلس الكبير فى افريقيا الاستوائية والغربية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ، كان لمن قاي من المتحمسين للاستفادة من هذا العمل الفرنسى فى تأكيد نظرياته الاتحادية ، فخطب فى روفيسك مثلا فى ٢ ديسمبر ١٩٤٦ قائلا : « اننا نستمكن من عمل كل شىء من خلال فرنسا ، كل شىء من خلال الجمهورية ولكن لا شىء بدون فرنسا ولا يمكن شىء بدون الجمهورية » (١٨) .

بين لمن قاي وسنغور :

كان سنغور من اتباع ومحمى لمن قاي فى البداية ، وكان قد قضى فترة طويلة خارج السنغال ، قضاها فى فرنسا ، حيث حصل على شهادة التبريز فى نحو اللغة الفرنسية ، فلما رجع للسنغال انضم الى لمن قاي فاصبغ عليه من الحماية ما مكنته من الدخول فى سلك الزعامة السياسية بين فئة (المتطورين) .

وكان سنغور قد حضر عددا من المؤتمرات الطلابية بالخصوص اثناء تواجده فى أوروبا وكان من بين الذين التقى بهم وتأثر بانفكارهم هو ايمى سيزار من المارتينيك الذى كان من ابرز من تعود اليهم الدعوة الى الجامعة الزنجية ، وهى فكرة يعود الفضل الأول فيها الى زنوج البحر الكاريبى واميركا ، وقد وجدت رواجاً بين فئة (المتطورين) والافارقة فى البداية ، لما كانت تشبعه فى نفوسهم من حب البحث عن الاصل الحضارى والشخصية ، وهى قضية لا تتعارض مع التفكير الاوروبى بحال .

وبعد نهاية الحرب الكونية الثانية كان هناك تطور فى المستعمرات الافريقية من حيث الافكار والمطامح يفوق مجرد طلب المساواة مع الفرنسيين

الذى لم يستطع لين قاي الخروج عنه ، لأنه بحكم تكوينه وارتباطاته الاجتماعية على الأقل كان ليس فى امكانه ملاحظة تلك التطورات الجديدة فى عقول الأمازيغة من حوله ، وقد استطاع سنغور أن يفهم ذلك ، فانشق عن لين قاي وبزه فى الزعامة منذ نهاية الخمسينات ، ولم يخرج سنغور عن المحيط الفكرى والسياسى الذى كان لين قاي يعمل فيه ، ولكنه تفوق عليه فى اتساع المحيط الاجتماعى الذى اختاره للعمل ، دون أن يرتبط بالثناء على كل ما تنجزه فرنسا وانه لصالح الأمازيغة بالصورة التى اشتهر بها لن قاي .

كان لين قاي ارستقراطيا من سكان دكاك ، وتولى من المناصب الهامة شيخا لبلديتها ، ورئيسا للمجلس الفدرالى ، وأخيرا وزيرا فى الحكومة الفرنسية ولمدة طويلة كان نائبا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وأهم من ذلك كله كان يعيش فى صداقات مستمرة مع الحكام الفرنسيين ، ويعين أنصاره فى المناصب المحلية بمساعدتهم ، فى حين انحدر سنغور من وسط اجتماعى أقل وعرف كيف يتقلب على زعامة قاي ، وهو الكاثوليكي المخلص ، حتى فى الأوساط الاسلامية ولم يتم له ذلك دون مساعدة الفرنسيين بالطبع ، وذلك بعد أن ادركوا أن سنغور بأفكاره أصبح يستطيع ملء الميدان السياسى فى الفترة الجديدة التى أصبحت تعج بها لا تكفى له مبادئ لين قاي وحدها .

لا يمكن اعتبار سنغور وجها للجيل الثالث فى فئة المتطورين ولكنه حلقة وصل بين أفكار الجيل الثانى ومتطلبات الوضعية الجديدة بعد الحرب الكونية الثانية .

فهو استمرار للجيل الثانى فى قالب جديد ، يتفق سنغور مثلا مع لين قاي فى الارتباط مع فرنسا ولكنها كانا قد (اختلفا) فى الطريقة التى تنتهجها فرنسا فى الصرف المالى ، فسنگور له أوليات فى هذا الشأن ، فقد جرت بينهما محاوراة علنية فى سنة ١٩٤٦ حينما بدأ فى السير نحو (الخلاف) فانتقد سنغور الأسلوب الفرنسى فى انفاق ١٤ مليون من الفرنكات على التعليم الابتدائى فى كامل السنغال ، ولكنها صرفت فى الوقت نفسه ١٧ مليوناً من الفرنكات على انشاء محطة خاصة بالشرطة فى دكاك فكان جواب لين قاي (ليس نحن الذين ندفع) ، فراح سنغور فى الرد على هذه الحجة قائلا : « هل قدمت فرنسا لافريقيا لتدفع حضارتنا الى الامام عن طريق الاحتكاك بها أو انها جاءت لتدخل دون سابق انذار خطر الشرطة وذلك على

اكتاف الناس الذين يعيشون أصلا وفق حضارة جماعية لا حاجة لها بالشرطة» (١٩) ؟

وإذا كانت مثل هذه النظرة للأشياء تكشف عن الكيفية التي يختلف حولها تفكير الرجلين فهي تعبر إلى حد كبير عن اختلاف الفترة الزمنية كذلك، فقد جاء سنغور في وقت أصبحت فيه النظرة إلى واجب الحكمة لا تنحصر في مجرد المحافظة على الأمن ، وكانت هناك مطاعم الفئات الاجتماعية الأخرى من خارج المدن لما اتسع مجال الانتخاب ليشملهم أكثر من السابق ، يضاف إلى ذلك توسع المجال أمام فئة (المتطورين) الدنيا الغير محظوظة حتى ذلك الوقت (٢٠) . وبالنظر إلى أن الاكثية العظمى من السنغاليين مسلمة ، فقد عرف سنغور كيف يتقرب من الزعماء المسلمين ويضمن تأييدهم له ، معتمدا على (انتقاداته) في نطاق الارتباط بفرنسا ، وقد أعلن ذلك مفتخرا في المجلس الوطني الفرنسي بقوله : « لقد استقبلنا بحفاوة من طرف كبراء المرابطين السنغاليين ، أما منا هضونا فقد ردوا بأدب » (٢١) .

وأخيرا فقد استقبل السنغاليون الاستقلال تحت زعامة حزب الكتلة الديمقراطية السنغالي Bloc Démocratique Sénégalais (B.D.S) الذي أسسه وتزعمه سنغور ، ثم تحول إلى حزب الاستقلال الأفريقي ، وظهر كأن كل التطورات كانت تسير بانسجام منذ مؤتمر برازا فيل سنة ١٩٤٤ والذي خطط فيه الفرنسيون لتطور أفريقيا السوداء الفرنسية في إطار الاتحاد الفرنسي وبإشراك (المتطورين) الأفارقة ، ووضع الحكم في أيديهم في حالة الاضطراب .

هوفيت بواني والفترة الاستثنائية :

ركزنا لحد الآن عن الأوضاع السياسية بل تطور التفكير السياسي لدى فئة الزعماء (المتطورين) كما تمثلها السنغال ، وذلك لأن السنغال وداكار بصورة خاصة كانت لا تزال لهما أهميتهما في التأثير بالفرنسيين أولا

(19) Recueil des Intervention faite a l'ensemble national francaise par le peruidet Lequid sédar seyhed de 1946, (DAKAR),inteventian de 21 Mars 1946.

(20) Erving, M., Leopdd Sedar senghor and The politics of negritudi, N.York, 1969.

(21) Sengor, hecueil. op. cit., 21/8/1951.

ثم فى التأثير ضمن المخطط الفرنسى دائما وبواسطة فئة المتطورين هذه على المستعمرات الفرنسية الأخرى فى أفريقيا جنوب الصحراء ، ويعود ذلك الى أنها أقدم المستعمرات فى أفريقيا السوداء ، وقد ركز الفرنسيون عليها كمحطة لكل ثقلهم الثقافى والتجارى فى أفريقيا السوداء بمثل ما كان الأمر بالنسبة للجزائر فيما يتعلق بموقعها فى الشمال الأفريقى ، وبوضعيتها الخاصة كذلك بالنسبة لجميع مستعمراتهم فى أفريقيا . وقد كان لما يجرى فى السنغال صدهاء وأثره على بقية المستعمرات ، الا فيما يتعلق بفترة التجمع الديمقراطى الأفريقى الذى أسسه وتزعمه هوفويت بوانى (من ساحل العاج) ، وقد وقف منه الزعماء المتطورون فى السنغال موقفا خاصا كما سنرى ، وتراجع فى الأخير عن شكله الثورى الفدرالى بتراجع زعيمه .

تأسس حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى فى اكتوبر ١٩٤٦ بمدينة باماكو (٢٢) ، ويعود أساس وجوده الى فكرة اقتناع المثلثين الأفارقة بوجود الاتحاد ضد التحفظ الذى يبيده المثلثون الفرنسيون والادارة أمام بعض مقتضيات الدستور فيما يتعلق بالمستعمرات ، ولتحقيق هذه الفكرة تنادوا لاجتماع فى باماكو على هذا الأساس ، وقد احتوى البيان الذى صدر انذاك آراء كل من هوفويت بوانى ، لين قاي ، سنفور ، ابى (من الداومى آنذاك ، بنين الآن) ، فيلى دابو سيسوكو (من السودان) (مالى فيما بعد) ، ياسين دىالو (من غينيا) ، فيليكس تشيكاييا وغابريال داربوسى (من أفريقيا الاستوائية) . وكانت فكرة الجميع أن يشكوا جبهة موالاة للدستور والعمل على تطبيقه دون اهمال فيما يتعلق ببلدانهم . وقد شاعت الظروف أن يتزعم هذا التجمع هوفويت بوانى بروح ثورية فعلا ولمدة تقرب من عشر سنوات . وكان هوفويت بوانى قد تأثر فى هذه الفترة بتطور الوضع النقابى فى بلاده ساحل العاج ، حيث وقعت احتكاكات بين المزارعين الأوروبيين والأفارقة من منتجى الكاكاو والقهوة ، ونتيجة لتضارب المصالح ووقوف الادارة الى جانب الأوروبيين لتضمن لهم مجال التنافس الأقوى هناك ، وذلك بتطبيق اجراءات على غاية من التمييز لصالح الأوروبيين . وهذا ما أدى الى تأسيس النقابة الأفريقية الزراعية

Syndicat Agricole Africain (S.A.A) في ساحل العاج وأسندت رئاستها الى هفويت . وكانت تلك النقابة أول تجمع جمع حوالى ٢٠ ألف افريقى فى نطاق يتجاوز الاطار القبلى ليقف ضد شره الاوروبيين وعنصرية الادارة .

ولد هفويت بوانى فى ١٩٠٥ فى ياموسوكرو بساحل العاج ، وهو ينحدر من أسرة رئاسة تقليدية فى منطقته . وقد خلف على الزعامة المحلية هناك أحد أعمامه العمدة اكوى (Chef Akoué) الذى كان قد اغتيل نتيجة لشدة موالاته للفرنسيين . وقد حاول ولداه تحويله عن المدرسة الفرنسية خفية ، وذلك لى يتتقف تقليديا وينتهيأ لمهامه فى المستقبل . الا ان تهرب بعض اولاد الاهالى الاخرين أيضا عن المدرسة الفرنسية ، كما هى عادة الانفارقة فى جهات كثيرة فى ذلك الوقت ، جعلت رئيس مركز بوزى الفرنسى؛ يحتجز الصبى فيليكس هفويت بوانى ليتعلم فى المدرسة الابتدائية الفرنسية، وقد فعل رئيس المركز ذلك تمشيا مع رغبة الفرنسيين فى جلب اولاد الذوات والعائلات ذات الواجهة التقليدية الى مدارسهم ، كى يكونوا قدوة لغيرهم ويلتزموا بخدمة ثقافتهم على المدى البعيد(٢٣) . وقد تابع هفويت دراسته حتى دخل المدرسة الطبية فى داکار حيث تخرج منها فى سنة ١٩٢٥ طبيا ، وعاد الى بلاده رئيس مجلة (Chep de Canton) وملاكا من اكبر المزارعين للقهوة ووجيها فى اكبر مجموعة عرقية قبلية هى باوليه (Baoulé) هى اكبر القبائل أهمية وكثرة فى ساحل العاج . وعندما قامت النقابة الافريقية فى سنة ١٩٤٧ بثورة احتجاج دموية فى ابغورو (Abengourou) بساحل العاج . كان هفويت بوانى على رئاستها ومؤيدا من الحزب الشيوعى الفرنسى ، وقد اكسبه ذلك شهرة فى كامل افريقيا الفرنسية وخاصة بين الاوساط المناهضة للفرنسيين . وكل ذلك جعل هفويت بوانى يصبح الشخصية الاولى فى مؤتمر باماكو الذى تأسس فيه التجمع الديمقراطى الافريقى على اساس فدرالى يجمع كل الاتجاهات الوطنية فى افريقيا الفرنسية ، وقد حدد هفويت بوانى انذاك اتجاه الحزب فى (استهداف تحرير افريقيا من تسلط مقيت هو الامبريالية) .

(23) HARDY, G., Une Conquête morale. L'enregistrement en Afrique occidentale Française. paris 1919.

لقد بقي التجمع الديمقراطي الافريقى هدف الادارة الاستعمارية للقضاء على اتجاهاته التى لقيت صدى كبيرا فى الأوساط الوطنية منذ البداية ، وبقي هفويت بوانى على رئاسته يتعرض للمضايقات حتى الخمسينات . اما بقية النواب « الزعماء المتطورين » فقد ابتعدوا شيئا فشيئا عن حزب التجمع الديمقراطي الافريقى منذ البداية نتيجة للضغط الذى تعرضوا له بشكل مباشر من الادارة الفرنسية . فقد تغيب فى آخر لحظة عن الحضور فى مؤتمر باماكو لين قاي وسنغور ، وذلك نتيجة لطلب تلقيه مباشرة من ماروس موتى (Marus Moutet) الوزير الفرنسى للمستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار آنذاك فى أن لا يحضرا ذلك المؤتمر . وبعد احدى عشرة سنة كاملة من تلك المناسبة التاريخية كان سنغور لا يزال يحاول تبرير ذلك بخطأ شخصى كان قد ارتكبه دون قصد منه فقال : « ان هناك خطأ قد ارتكب من طرف النواب السنغاليين .. فى رفضهم لحضور مؤتمر باماكو لحزب التجمع الديمقراطي الافريقى ، وبالتأكيد فقد كنت شخصا أريد الحضور الى هناك ، ولم أتردد فى أن أقول ذلك فى ذلك الوقت لزعماء حزب الوطن الام الذى كنت انتسب له (٢٤) لكن يجب على بكل تواضع أن اتحمل نتيجة النقد الذاتى ، وخطئى كان يتمثل فى اطاعتى للأوامر التى فرضت على من الخارج ، فليكن هذا درسا لكم انتم يا اصدقائى » (٢٥) .

كما انسلك عن هذا الحزب بعد ذلك بمدة قصيرة كل من دابوسيكو وابيتى (Apity) وقد لخص المؤرخ الافريقى جـوزيف كى زربو (Ki-Zerbo) وضعية التجمع الديمقراطي الافريقى أمام الاحزاب والحكام الفرنسيين فى تطيله التالى : « ان مشروع الاتحاد المقدس هذا من طرف جميع القوى الافريقية الحية والمرموز له باسم التجمع الديمقراطي الافريقى لم يتحقق .. وباختصار فان احزاب الوطن الأم ألقت منذ البداية بعدم رغبتها فى التشكيلات الافريقية وكان الحزب الشيوعى الفرنسى الوحيد الذى استجاب لدعوة التجمع الديمقراطي الافريقى ، وبالنتيجة فان احزاب الوطن الام الأخرى ، وخاصة مناهضى الشيوعيين ، وبواسطة خداع الحكام الاداريين

(٢٤) كان سنغور وقتئذ منتسبا للحزب الاشتراكى الفرنسى .

(٢٥) انظر وثائق الاجتماع التأسيسى لمؤتمر الوفاق الافريقى فى داكار ،

جانفى ، ١٩٥٧ ، ص ٣ .

الذين كانوا يشترونهم لخدمة أغراضهم فى كثير من الأحيان وكانوا هم الذين يعينونهم ، قد اتخذت التجمع الديمقراطى الافريقى كهدف لها « (٢٦) .

ان موقف الاحزاب الفرنسية من التجمع الافريقى الديمقراطى يعود الى أن جميع الحركات التى أظهرها الزعماء المتطورون كانت فى نطاق الاحزاب الفرنسية وبالانتساب لها ، ومن الطبيعى فان أول ظاهرة للتطور خارج (المؤسسات الام) كانت تعتبر بداية سيئة فى نظر الفرنسيين الذين وجدوا فى مستعمراتهم السوداء مجالا ناجحا ومثاليا للالحاق بعد ان فصلوها عن انتماءاتها الحضارية القديمة وقطعوها عن الاتصال بها (٢٧) .

لقد نجح حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى شكله الظاهرى كندالية لمعظم التشكيلات الحزبية المحلية ، فانخرطت تحت مبادئه : الحزب الديمقراطى للكامرون ، والاتحاد السودانى ، والحزب الديمقراطى لغينيا ، واستطاع أن يكون له فروعاً شملت كل افريقيا الفرنسية ابتداء من القرى الهامة حتى المدن الكبرى ، وكانت له هيئة تنسيق فدرالية (Comité de Ciorndation) تشرف وتوجه جميع فروعها ، واستطاع بواسطة هذا التنظيم أن يحافظ خلال المؤتمرات الثلاث التى عقدها بين ١٩٤٦ و ١٩٥٨ على الاخذ بناصية التوجيه الشامل ويؤكد من خلالها على الولاء انعمام والاهتمام المشترك لجميع أتباعه فى كامل افريقيا الفرنسية ، بخدمة الأهداف السامية للافارقة ، ونظراً لمبادئه التى تتناقض تماماً وأهداف الفرنسيين ، فقد سلطت الادارة عليه جملة من المضايقات فى كل المناطق ، وكانت علاقته بالحزب الشيوعى الفرنسى قوية الى درجة كبيرة ، ومع بداية الخمسينات أثرت عليه عدة عوامل داخلية سلبية من أبرزها الحساسية الاقليمية بين زعمائه . والحقيقة انه منذ البداية كان بين الأعضاء السنغاليين وغيرهم خلافات شخصية ناتجة عن اتجاه الأولين الى عدم الرضى عن تنفيذ غيرهم فى تشكيلات هذا الحزب الفيدرالى ، وهم يعتبرون أن دور الزعامة السنغالية

(26) Ki-ZERBO, Histoire de L'Afrique, Paris 1969. p. 505.

(٢٧) كانت كل افريقيا الفرنسية جنوب الصحراء جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية الاسلامية وهذا حتى بداية القرن العشرين ، حيث منع السكان بمرسوم ١٩١١ من استعمال اللغة العربية سعياً لقطع جميع العلاقات الحضارية مع العرب .

فى المنطقة يجب أن يعكسه واقع المكانة الخاصة للسفغال كما اقترتها
الاعتبارات الفرنسية بالنسبة لكامل المستعمرات الفرنسية فى كامل الغرب
الافريقى .

أما هفويت بوانى فقد مال هو الآخر فى الآخر الى التخلّى عن الهدف
الفيدرالى وكان من جملة الدوافع لديه على ذلك أن ساحل العاج فى هذه
الحالة سيكون نصيبه من المساهمة الضرائبية أكبر وبالتالي فان بقية الاقاليم
تستفيد من ذلك على حساب بلاده . لقد امتاز الزعماء المتطورون على الدوام
بالاقلية والمحلية ، وهو واقع ليس له من سبب آخر غير روح القبيلة او
الجهوية الضيقة التى تتناسب دائما والتوجيه الفرنسى الأوروبي المبنى على
تشجيع الايديولوجية العرقية فى المستعمرات لأن ذلك يساعدهم على التحكم
والسهولة فى التسيير حينما تصبح عوامل الوحدة ضعيفة فى كل مستعمرة
ويخشى كل قسم من سكانها قسما او بقية أقسام أخرى .

فى سنة ١٩٥١ قرر هفويت بوانى كزعيم لحزب التجمع الديمقراطى
الافريقى المقاطعة مع الشيوعيين ، فنتج عن ذلك انقسام فى صفوف اللجنة
المركزية المسيرة ، وقد تزعم الفئة المعارضة لهذا الاتجاه الجديد غابريال
داربوسى (الكاتب العام لتلك اللجنة) ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين أعضاء
اللجنة المركزية ولذلك كان لمعارضته قيمتها وتأثيرها داخل اللجنة المركزية
منذ ١٩٥٠ قبل أن يخرج الخلاف حول هذه النقطة عن مراقبة الرجلين .
ان داربوسى كان هجينا ، فأبوه كان أحد الحكام الفرنسيين فى افريقيا وأمه
تنحدر من سلالة الحاج عمر الفوتى الذى كان كخليفة للتيجانية فى منتصف
القرن التاسع عشر بالغرب الافريقى ، وقد دخل فى حروب واسعة ومكن
للتيجانية كطريقة من أن تأخذ مكانتها الى جانب القادرية (٢٨) .

وقد شغل داربوسى لفترة منصب حاكم فرنسى فى المنطقة قبل ذلك
وكان خبيرا بكل شئوننا الادارية والسياسية ، وكان خطيبا موهوبا فدخل
فى معركة عنيفة ضد هفويت بوانى حول اتجاهه الجديد ، وكان الأول فى
تلك المعركة وكان له أنصار كثيرون بين صفوف الطلبة خاصة ، وقد انتهت

(28) A. ZEBADIA, AHMAD AL-BAKAY AL-Kunti- An Historical study of the political and religion role, London, PH.D. thesis 1974, 887 ps.

تلك المساجلات الفوغائية بانسحاب داربوسى من منصبه كمستشار فى الاتحاد الفرنسى وانسحب من الحزب ولم يتصالح مع زعيمه . ولم يعد اليه الا فى سنة ١٩٥٦ حينما أصبحت المعارضة لا قيمة لها ، وكان ممن انسحبوا أيضا وشكلوا اتجاهات مناهضة لزعامة هفويت فى اتجاهه بالتجمع الديمقراطى الافريقى وجهته الجديدة هذه ، جيبو بكارى الذى شكل حزبا مناهضا للتجمع الديمقراطى الافريقى فى النيجر ، وسلك الطريق نفسه أم نيوبى الذى كان كاتباً عاماً لفرع الحزب فى الكاميرون ، لما أبعد فرعه من الحزب .

وفى سنة ١٩٥٦ أصبح سنغور زعيماً للسنگال فحاول استقطاب الزعماء البرلمانيين لافريقيا السوداء الفرنسية والمناهضين لمبادئ حزب التجمع الديمقراطى الافريقى ، من خلال التجمع البرلمانى لهؤلاء والموجود منذ سنة ١٩٤٨ تحت اسم نواب ما وراء البحار المستقلون .
(Les indépendants d'outre-mer (I.O.M)

وقد فعل سنغور ذلك معتمداً على محاولة توسيع ذلك التجمع بحيث يشمل غير النواب أيضاً ، ولكن محاولته هذه لم تنجح ، لأن اتحاد النواب رغم ما أصبغ عليه من طابع شعبى فى الفترة الأخيرة ، فان أهدافه لم تستقطب الناس وبقيت محدودة بين الأعضاء السياسيين النواب وبعض أنصارهم الطبيعيين (٢٩) .

وخلال فترة قيام حزب التجمع الافريقى الديمقراطى وفقاً لمبادئه السياسية كما شرحناها آنفاً التفت حوله فئات عديدة من الأماقة ، ونشطت فروعه فكان لها أعداد كبيرة من المنخرطين فى كل الجهات ، وأرسل كاتبه العام برقية تهنئة للزعيم الروسى ستالين فى عيد ميلاده سنة ١٩٤٨ وكل ذلك مما أثار حفيظة الساسة الفرنسيين فى الوطن الأم وفى افريقيا ، وخلقت الإدارة أحزاباً مناوئة لمبادئه كالفئة التى أنشأها سانوفو Sanogo فى ساحل العاج ، كما ألقى القبض على عدد من أتباع ذلك الحزب من أمثال زوروبى ترا Zoro Bi-Tra وسامبا أمبرواز Samba Ambroise واغتيل بعض أتباعه كما حصل فى قضية السناتور بياكا Biaka وبلغ فى هذه

(29) Ki - ZERBO, op. cit., p. 506.

الفترة عدد القتلى من أتباعه حسب الاعترافات الرسمية للإدارة ٥٢ إفريقيا .
أما المساجين فقد بلغ عددهم حسب الإحصاءات المعترف بها إداريا فقط
٣٠٠٠ منازل ، وقد منعت الاجتماعات في حقّه . ويبدو أن تراجع هفويت
عن مبادئ حزبه الأولى تعود إلى تقديره لضعف الإمكانيات حيث أصبحت
النتائج لا تتلاءم مع التضحيات المبذولة مما دفعه حسب تعبيره للعودة إلى
(طريق الواقعية والتعاون) مع الفرنسيين طبعاً .

وقد أعلن انسلاخه عن التعاون مع الشيوعيين على أثر محادثات
أجراها مع فرانسوا ميتران الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب وزير
المستعمرات (فرنسا ما وراء البحار) La Francé outer-mer ثم جاءته
المناسبة للتصالح الكامل مع الإدارة أثناء تدشين ميناء أيجان في سنة ١٩٥١ ،
وقد استفادت مجموعة (النواب) من المتاعب التي أصبح يعانيها حزب
التجمع الديمقراطي الإفريقي منذ تراجع زعيمه ولكن بصورة غير مباشرة ،
إلا أن النتائج المرتقبة من طرفهم في هذا الاتجاه كان هفويت بوانى أكثر
منهم ذكاء في قطعها ، ففي سنة ١٩٥٦ أصبحت الإدارة الفرنسية والزعماء
السياسيون في فرنسا في انسجام تام مع حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي
في اتجاهه الجديد ، واعطوه كل المساندة بتعيين زعيمه وزيرا كامل الحقوق
في الحكومة الفرنسية ، فكان أول إفريقي يحظى بهذا المنصب .

والخلاصة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث في هذا الصدد انه بتخلي
هفويت بوانى الذي كان أول وآخر (متطور) يسلك بالتجمع الإفريقي هذا
الاتجاه ، ولو لفترة محدودة كما أسلفنا ، أصبح من الواضح أن زعامة المتطورين
التي هي وليدة الفترة الاستعمارية ، لن تؤدي إلى غير التماشي والخط
المرسوم لها في النهاية (٣٠) .

(٣٠) وهناك من يذهب الآن إلى أن العالم كله ذاهب إلى الانصهار الكلي
في الحضارة الغربية وهي مسيرة كانت قد بدأت منذ بداية التوسع الاستعماري
الأوروبي ، ولا تزال مستمرة وبخطوات حثيثة جدا . بحيث أصبح معها مصطلح
كلمة (الغرب) لا معنى له من الناحية الحضارية لدى كل البشر باستثناء
المؤرخين . ينظر :

المرأة العربية والافريقية

فى اطار حركات التحرر الوطنى

دراسة حالة : فلسطين وجنوب أفريقيا

١. د. عواطف عبد الرحمن

بذور التحالف الصهيونى — العنصرى :

قد يبدو ظاهريا أن أساس التحالف الذى يقوم عليه محور تل أبيب — بريتوريا لا ينسجم تماما على الأقل فى نظر الغرب مع التاريخ المختلف لكل من الحركة الصهيونية فى فلسطين وحركة الافريكاز المسيطرين على سياسة جنوب افريقيا منذ عام ١٩٤٨ . ذلك أن الأساس الايديولوجى لكل منهما كان مخالفا للآخر فالافريكاز كانوا يرتبطون ارتباطا وثيقا بالنازية خلال الثلاثينات والاربعينات بينما لعبت السياسة النازية التى كانت تهدف الى اباداة اليهود دورا حاسما فى التعجيل باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . وعلى الرغم من ذلك فقد حرصت اسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ على المحافظة على العلاقات الطيبة مع حكام جنوب افريقيا ابتداء من مالان حتى فورستر وهؤلاء لهم تاريخ خاص يتميز بالتزامهم بأكثر اتجاهات الافريكاز تطرفا فى معاداة الافريقيين وفى معاداة السامية على السواء ولكنهم تخلوا عن معاداة السامية على الأقل من الناحية العلنية وذلك حرصا على الهدف الاسمى وهو المحافظة على سيادة البيض . وترتبط اسرائيل وجنوب افريقيا ارتباطا وثيقا فى كافة الميادين الاقتصادية والعسكرية وشئون الامن والمخابرات وكذلك فى المجال السياسى والثقافى . ورغم وضوح هذه العلاقات المتعددة الجوانب بين كل من اسرائيل وجنوب افريقيا الا أن رصد هذه الحقيقة مهما كانت أهميتها لا تقدم لنا تفسيراً علمياً شاملاً لأسباب الصلة الوطيدة بين النظامين . فالواقع أن العلاقة بينهما تنطوى على جذور أعمق بكثير من العلاقات المتبادلة سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى والعسكرى . فالواقع أن هناك أدراك لدى

حكام هاتين الدولتين أى إسرائيل وجنوب افريقيا فان هناك تشابه كبير بينهما وذلك بالرغم من وجود اختلافات فى تاريخ كل منهما واختلافات لاتزال موجودة حتى اليوم فاسرائيل مثلا ليست لديها مشكلة أهل البلاد على نفس النطاق الموجود فى جنوب افريقيا لانها طردت غالبية الفلسطينيين . كذلك يختلف مفهوم التمايز العنصرى بالنسبة لكل منهما ففى جنوب افريقيا يكفى ان يكون المرء ابيضاً بينما بالنسبة لاسرائيل يكفى أن يكون يهودياً ولكن يكمن التشابه فى كونهما أنظمة استيطانية تعتمد على أقليات اجنبية زرعت بالقوة فى اراضى شعوب تناضل من أجل استعادة حقوقها الوطنية (١) .

ولا يمكن فى هذا الصدد اغفال الدور الذى قامت به الجالية اليهودية فى جنوب افريقيا فى دعم العلاقات بين حكومتى اسرائيل وجنوب افريقيا (هاجر الى اسرائيل حتى منتصف السبعينات حوالى ١٠ آلاف يهودى من جنوب افريقيا) . وعلى أساس هذه العلاقات أمكن دعم الصلات المباشرة بين الايديولوجيتين أى بين الذين ينادون بالتفرقة العنصرية وبين زعماء الحركة الصهيونية داخل اسرائيل ذاتها .

ولقد كانت هناك أوقات تباعدت فيها مصالح الدولتين مما أدى الى تعكير صفو العلاقات بينهما مؤقتاً وخصوصاً فى الفترة التى توطدت خلالها العلاقات بين اسرائيل والدول الافريقية المستقلة ولكن لم يؤثر ذلك على طبيعة العلاقة بينهما والتى تستند الى السمات المشتركة بينهما . فقد استطاعت هذه العلاقة أن تتطور على النحو الذى تشير اليه ارقام التجارة وخصوصاً تجارة الماس وتصدير الأسلحة والتعاون العسكرى ضد حركات التحرر فى فلسطين المحتلة وناميبيا وجنوب افريقيا علاوة على تعاونهما المستمر فى خرق قرارات الأمم المتحدة . وهذا التطور يرجع فى الأساس الى أوجه الشبه الكامنة بين النظامين فالتفرقة العنصرية والصهيونية ايديولوجيتان عنصريتان . وعلى الرغم من أن كل منهما تزعم انها تستمد تبريرها من العهد القديم الا أن مواقفهما الحالية وهى المواقف التى تشكلت داخل اطار الاستعمار الاستيطانى هى التى حددت السمات التى يتميز بها

(١) انظر : بيتر هيلر : اسرائيل وجنوب افريقيا — فى (الصهيونية والعنصرية) ، اعداد احمد يوسف القرعى ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ، يناير ١٩٧٧ ، ص ٨٨ — ٩٠ .

كل منهما وهويته وكذلك العلاقة الوثيقة التى تربط بينهما باعتبارهما كيائين
عنصريين يستمد كل منهما وجوده من تشريد شعوب أخرى . مما يجعل
التحالف بينهما ذا طابع استراتيجى طويل المدى (٣) .

ممارسات القهر العنصرى والصهيونى :

يعد القمع القاسم المشترك لنظامى بريتوريا وتل ابيب فى معاملتهما
اليومية للسكان الأصليين فى فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا وفى جنوب لبنان
وناميبيا .

فى فلسطين المحتلة يكاد لا يمر يوم واحد دون أن تتعرض الصحف
العالية الى أعمال القمع والاضطهاد التى تمارسها سلطات الاحتلال
الصهيونى ضد سكان الاراضى العربية المحتلة هذا القمع يأخذ اشكالا مختلفة :
منع التجول فى المخيمات ، اطلاق النار على المتظاهرين وقتل الاطفال
والنساء ، مdahمة منازل المدنيين ، الاعتقالات على نطاق واسع ، تعذيب
السجناء وضع مواد كيميائية فتاكة فى مياه الشرب التى يستهلكها سكان
الاراضى المحتلة وأخيرا الاستيلاء على ٨٠٪ من مصادر مياه الضفة الغربية
المحتلة فى حين أن المناطق المزدحمة بالسكان العرب تواجه حاليا نقصا خطيرا
فى مياه الشرب والرى . فضلا عن الاعتداءات المتكررة على الأماكن المقدسة
وطمس المعالم الثقافية والحضارية للاراضى العربية المحتلة (٣) .

وفى جنوب افريقيا يعانى الستة وعشرون مليوناً من السكان السود
الذين يمثلون ما يزيد عن ٧٠٪ من سكان البلاد من نفس المعاملات التعسفية
والمضايقات اليومية التى يمارسها ضدهم الحكام البيض فى بريتوريا . وتؤكد
التقارير الواردة من جنوب افريقيا أن الاعتقالات بين صفوف أبناء شعب
جنوب افريقيا من الامريقيين تجاوزت ٤٧١ ألفاً عام ١٩٨٤ وذلك طبقاً
للقانون العنصرى حول « مراقبة السود فى المناطق الخاصة بالبيض » (٤)
علماً بأن هذه الاعتقالات تهدف عادة الى تشريد هؤلاء نحو المناطق النائية

(٢) المصدر السابق : ص ٩١ — ٩٤ .

(٣) صحيفة لوموند الباريسية ٧ نوفمبر ١٩٨٢ .

(٤) صحيفة لوموند ٢٦ فبراير ١٩٨٣ .

المعروفة بالبانطوستان . وبرغم كل التنديدات الصادرة عن المنظمات الدولية التى تدافع عن حقوق الانسان وبرغم كل ما تكتبه الصحافة الغربية الحرة لنضج هذه الاساليب يؤكد كل مرسل الى الصحف الأجنبية فى بريتوريا ان النظام العنصرى يتمادى فى اعتداءاته وتجاوزاته فى حق المواطنين السود .

وعلاوة على القوانين الاستثنائية التى تمنع أى مواطن اسود من التنقل والعمل فى مناطق البيض اذا كان لا يملك فى حوزته ترخيصا بهذا الصدد . فقد واصل نظام جنوب افريقيا برغم الانفتاح الامريكى سياسة التشريد الجماعى للسكان السود نحو المناطق المقفرة اقتصاديا والاعتقالات غير القانونية والتوقيفات الطويلة بدون محاكمات وابعاد المعارضين فضلا عن تعدد القوانين القسرية والقمعية فى مجالات حرية الصحافة والاجتماعات والتجمعات «(٥)» .

ويسمى النظام العنصرى ايضا الى قلب موازين النظام الديموجرافى لصالحه فى البلاد . فقد اكدت الصحف الغربية فى الصيف الماضى أن بريتوريا قامت بحملة كبيرة للحد من النسل لدى السود فى جنوب افريقيا . وتقول صحيفة ليبراسيون الفرنسية أن ٤٠٪ من النساء السود فى جوهانسبورج يستعملون حبوب منع النسل رغما عن ارادة أزواجهن ذلك أن الأربعة ملايين من البيض فى جنوب افريقيا الذين لا يمثلون سوى ١٧ من مجموع السكان مهددون ديمغرافيا أمام نمو المواطنين السود الذين سيتضاعف عددهم خلال العشرين سنة المقبلة (من عشرين الى أربعين مليوناً حسب التقديرات الأخيرة) . حيث ستصل نسبة البيض الى أقل من عشرة بالمائة (٦) .

العدوان والتوسع على حساب الجيران :

استكمالا لسياسة داخلية قوامها القهر والقمع يتبع الكيانان فى نل أبيب وبريتوريا سياسة خارجية تعتمد فى الأساس على العدوان والتوسع على حساب جيرانهما فى منطقتى الشرق الأوسط و افريقيا الجنوبية .

ففى فلسطين المحتلة اعتمد الكيان الصهيونى منذ نشأته فى ١٩٤٨ على

(٥) المصدر السابق ، ٣٠ نوفمبر ١٩٨٢ .

(٦) صحيفة ليبراسيون الباريسية ، ٢١ أغسطس ١٩٨٢ .

أسلوب الاعتداءات المتكررة والعدوان الدائم على جيرانه من البلدان العربية متذرعا بمقتضيات أمنية من أجل تبرير مشروعية هذه الممارسات الوحشية ، ابتداء بعدوان ٤٨ ومذابح دير ياسين النكراء والمشاركة فى العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ ومرورا بالحرب التى شنها الصهاينة فى يونيو ١٩٦٧ ضد الاردن ومصر وسوريا وانتهاء بضم الجولان والاعتداءات المتكررة على جنوب لبنان والتى انتهت بغزو لبنان وبمذابح صبرا وشاتيلا واحتلالهم لجنوب لبنان وتصفيتهم للوجود العسكرى الفلسطينى فيه . فى الواقع ان الكيان الصهيونى الذى يعتمد أسلوب العدوان الدائم ومنطق القوة ضد جيرانه مبررا ذلك بضرورات أمنية لا أساس لها من الصحة يرمى الى ضرب قدرات المنطقة بأكملها حتى تبقى على الدوام تحت رحمة سيطره والى تحقيق مشروع اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات الذى نادى به قادة الصهيونية الأوائل . وبالتالي فان ممارسات الصهاينة ليست سوى امتداد طبيعى لنشاطات الامبريالية العالمية الرامية الى ضرب حركات التحرر والى تكبيل شعوب العالم الثالث حتى يمكن نهب خيراتنا وثرواتها الطبيعية دون مواجهة اية رادع .

وتتجلى نفس الأساليب والمراعى فى منطقة افريقيا الجنوبية حيث يمارس نظام بريتوريا العنصرى بانتظام على مرأى ومسمع من العالم بأكمله عدوانه ضد البلدان الافريقية المجاورة وبهذا الصدد تقول صحيفة ليبيراسيون « ان ما يزيد عن ١٥ دولة افريقية أى ثلث بلدان القارة السوداء تواجه بطريقة أو بأخرى ضربات هجمة اليأس التى تشنها بريتوريا . خمسة من بين هذه البلدان توجد على خط المواجهة انغولا وموزمبيق وهما البلدان اللذان يعانيان بشكل اكبر من وطأة الضغوط العسكرية ثم زيمبابوى ومالاوى وزامبيا وهى ثلاثة بلدان مهددة بالاختناق الاقتصادى الذى تفرضه عليها جنوب افريقيا (٧) .

اما فى زيمبابوى حيث تجرى عملية اخماد الفتن العنصرية فان بريتوريا تواجه أخطر تنفيذ لسياستها . لأن نجاح موجابى فى سياسته الرامية الى المصالحة بين السود والبيض سوف يأتى على ما تبقى من مصداقية نظام التمييز

العنصرى فى جنوب افريقيا . لذلك فان بريتوريا تسعى بكل وسيلة الى افشال هذا المسار فى زيمبابوى .

وفى ناميبيا يتميز الموقف بتعنت بريتوريا الدائم أمام الجهود الرامية الى انجاح المفاوضات الرامية الى ايجاد تسوية قوامها تمكين الشعب الناميبى من الحصول على استقلاله وبرغم وساطة رئيس زامبيا « كواندا » الذى التقى مرتين مع قيادات النظام العنصرى لتسوية المشكلة الناميبية وبرغم اللقاءات التى تمت فى جزر الراس الاخضر بين مسؤولين من جنوب افريقيا وانغولا فضلا عن ابداء بلدان المواجهة استعدادها لايجاد تسوية عادلة للقضية الناميبية فان بريتوريا تمادت بفضل الدعم الديبلوماسى الأمريكى لها فى عنادها واضرارها على افشال كل محاولة ترمى الى منح الشعب الناميبى حقه فى تقرير مصيره .

اوضاع المرأة فى فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا

الأم المتحدة وحقوق المرأة :

وضعت الأمم المتحدة نصب عينها تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات وفرص الحياة وفيما يجب لكل منهما من الاحترام والعدل فى الاطار (الانسانى) كما جاء فى ديباجة الميثاق ، ونصت عليه المواد ١٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، فتكونت لجنة المرأة من الدول الأعضاء عام ١٩٤٦ للعمل على مساواة المرأة بالرجل فى ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم والحقوق المدنية والاجتماعية . هذا فضلا عما نص عليه الميثاق الدولى لحقوق الانسان ، واعلان القضاء على التمييز ضد المرأة ، ثم الاعلان الخاص بحماية النساء والاطفال عند أى طارئ أو فى النزاع المسلح كما تناولت بعض أجهزة الأمم المتحدة حقوقا معينة للنساء كالاتفاق الخاص بالحقوق السياسية للمرأة (١٩٥٢) . والاتفاق حول جنسية الزوجة (١٩٥٧) والاتفاق الخاص بتحديد سن الزواج ، وتسجيله واحترام رغبة المرأة فى الرفض أو القبول (١٩٦٢) ثم التوصيات الخاصة بهذه الحقوق (١٩٦٥) وأخيرا الاتفاق بمنع البغاء أو التجارة بالأفراد (١٩٥٠) تم الاتفاق الاضافى بمنع الرق وتجارة الرقيق أو ممارسة أى عمل من هذا القبيل (١٩٥٦) . كما أدانت اليونسكو أى تفرقة بين الرجل والمرأة فى التعليم (١٩٦٠) (٨) .

(٨) انظر : مطبوعات لجنة المرأة — الأمم المتحدة — رقم ٦٨ ، ٧٨ لعام ١٩٧٩ ، أرشيف المركز الاعلامى للأمم المتحدة ، القاهرة .

ولعل ابرز ما قامت به الأمم المتحدة من العمل على تقدم المرأة وقرار حقوقها هو ما أقرته الجمعية العامة بجلستها فى ٧ نوفمبر ١٩٦٧ باعلان القضاء على أى تفرقة ضد المرأة ، فقد جاء فيه : انه بالرغم مما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة ، والاعلان العالمى لحقوق الانسان ، والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الانسان ، وما عرضت له أجهزة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة بهذا الشأن ، وبالرغم مما حققه مبدأ المساواة فى الحقوق من تقدم ، فان المرأة مازالت تعاني الكثير من ألوان التفرقة والتمييز ضدها .

ولكى توضع المعايير والمبادئ التى أقرها الاعلان وتوصيات الأمم المتحدة موضع التنفيذ وتكون لها قوة الزامية فقد صيغ مشروع اتفاقية للقضاء على التمييز ضد المرأة تبلورت فيه جميع المبادئ التى سبق أن صدرت عن مختلف أجهزة الأمم المتحدة نيابة عن المجتمع الدولى . وقد صدرت هذه الاتفاقية فى ديسمبر ١٩٧٩ وأعلن عن صدورهما فى مؤتمر المرأة العالمى الذى انعقد فى كوبنهاجن ١٩٨٠ لمناقشة ما تم تنفيذه خلال الأعوام الخمسة التى مضت على اعلان بدء عقد المرأة العالمى فى المكسيك عام ١٩٧٥ .

وقد تضمنت مقدمة هذه الاتفاقية عرضا عاما لأسباب صدورهما .

وقد جاء فى هذه المقدمة :

« ان الجمعية العامة اذ ترى أن أحد مقاصد الأمم المتحدة المنصوص عليها فى المادتين ١ و ٥٥ من الميثاق هو تعزيز الاحترام العالمى لحقوق الانسان والحريات الأساسية دون تمييز بما فى ذلك التمييز على أساس الجنس . واذ نشير الى أن الجمعية العامة قد أصدرت فى ٧ نوفمبر ١٩٦٧

اعلان القضاء على التمييز ضد المرأة .

واذ نشير بوجه خاص الى قرارها الصادر فى ديسمبر ١٩٧٨ بشأن صياغة اتفاقية للقضاء على التمييز ضد المرأة .

واذ نرى أن التمييز ضد المرأة يتنافى وكرامة الانسان ورفاهية المجتمع وبشكل عقبة فى سبيل التحقيق التام لقدرات المرأة .

فانها تؤكد أن المرأة والرجل يجب أن يشتركا ويسهما على أساس

المساواة فى عمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وإن
ينعما بالتساوى فى الأحوال المعيشية المحسنة واقتناعاً منها بأنه من الضرورى
تأمين الاعتراف العالى قانوناً بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة .

وتشدد على أهمية استئصال جذور التمييز العنصرى ، وجميع أشكال
العنصرية ، والاستعمار الجديد ، والعدوان والاحتلال الأجنبى والسيطرة
الأجنبية والتدخل فى الشؤون الداخلية للدول ، أمر أساسى بالنسبة لتمتع
الرجال والنساء بحقوقهم تمتعاً كاملاً (٩) .

كما تؤكد هذه الاتفاقية على أن تحقيق المساواة بين المرأة والرجل
يتطلب أحداث تغيير فى الدور التقليدى المتعارف عليه بالنسبة للرجل .
والحقيقة أن هذه المقدمة قد لمست كل ما يجب أن يتحقق وما يجب أن يختفى
من على خريطة العالم من أجل تحقيق المساواة أو بمعنى آخر زوال التمييز
ضد المرأة .

وقد جاءت بنود الاتفاقية الثلاثين فى ستة أجزاء ولعله من المفيد أيضاً
أن نذكر التعريف الذى قدمته هذه الاتفاقية فى الجزء الأول لمصطلح التمييز
ضد المرأة .

جاء « أنه يعنى أى تفرقة أو استبعاد أو تقييد ويتم على أساس الجنس .
ويكون من اثاره أو أغراضه النيل من الاعتراف للمرأة على أساس تساويها
بالرجل — بحقوق الانسان والحريات الأساسية فى الميادين السياسية
والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والمدنية أو فى أى ميدان آخر ، أو ابطال
الاعتراف للمرأة بهذه الحقوق أو تمتعها بها أو ممارستها لها بفض النظر
عن حالتها الزوجية » .

ومن المهم أيضاً إبراز ما جاء فى هذه البنود من ناحية واجب الدولة
الموقعة على الاتفاقية من أجل تحقيق سياسة القضاء على التمييز ضد المرأة
وقد جاء ذلك فى ٧ فقرات تدور كلها حول مسئوليات الدول فيما يلى :

(٩) انظر : اتفاقية القضاء على اشكال التمييز ضد المرأة — الأمم
المتحدة ، ١٩٧٩ .

✳ ان تجسد مبادئ المساواة فى دساتيرها الوطنية وتشريعاتها المناسبة اذا لم يكن هذا المبدأ قد ادمج فيها حتى الآن .

✳ اقرار الحماية القانونية لحقوق المرأة على قدم المساواة مع الرجل وضمان الحماية الفعالة عن طريق المحاكم .

✳ التزام السلطات والمؤسسات بالامتناع عن الاضطلاع بأى عمل او ممارسة تمييزية ضد المرأة .

✳ اتخاذ جميع التدابير اللازمة والمناسبة . بما فى ذلك التشريع لتعديل أو إلغاء القوانين والأنظمة والأعراف والممارسات القائمة والتي تشكل تمييزاً ضد المرأة .

✳ إلغاء جميع أحكام قوانين العقوبات الوطنية (١٠) .

والواقع ان هذه الاتفاقية ليست الوحيدة التى تتناول حقوق المرأة ومبادئ مساواتها بالرجل مع الأخذ فى الاعتبار التمييز فى طبيعة المرأة ولذلك تضمنت الاتفاقية المسائل الخاصة بالأمومة وحقوقها .

ويلاحظ انه رغم تعدد الاتفاقيات التى تصل الى ٤٤ اتفاقية حالية تعالج قضايا المرأة ومشاكلها — ان هذه الاتفاقيات لم تغط كل المشاكل الخاصة بالمرأة مثل قوانين الأسرة التقليدية وتأثيرها على أوضاع المرأة وأيضا العنف الجسدى ضد المرأة .

ويمكن القول ان هناك ١٧ اتفاقية صدرت عن الأمم المتحدة ، واتفاقية واحدة عن اليونسكو تتعامل مع مشاكل المرأة وحقوقها مباشرة . ثم حقوق المرأة السياسية والزواج ، والحد الأدنى لسن الزواج ، وجنسية المرأة المتزوجة وإلغاء جميع أشكال التفرقة العنصرية ، والابارتيد وتحريم السرقه والتجارة فى البشر .

أما الاتفاقية الصادرة عن اليونسكو ، فخاصة بضرورة إنهاء التفرقة وتطوير المساواة فى الفرص والمعاملة للجميع فى مجال التعليم .

وهناك ٢٦ اتفاقية صدرت عن منظمة العمل الدولية ، تتناول أساسا ظروف العمل والحقوق الخاصة بعمل المرأة ، وحماية الأم ، وحقوق المرأة فى الريف .

وحتى الآن لم توقع على هذه الاتفاقية ٧٦ دولة منها جنوب افريقيا واسرائيل ولعل اسوأ مظاهر التفرقة والتمييز بمعناه الشامل تلك التى تعانى منها المرأة الفلسطينية فى ظل الحكم الصهيونى فى فلسطين المحتلة والمرأة الافريقية فى ظل النظام العنصرى فى جنوب افريقيا وقد يستلزم هذا الكشف عن حقيقة الأوضاع النسائية الفلسطينية والافريقية فى مجالات التعليم والانتاج والمشاركة فى النضال الوطنى فى ظل النظامين الصهيونى والعنصرى ولكن هناك صعوبة موضوعية تحول دون الحصول على المعلومات الدقيقة فى هذا الشأن وذلك بسبب الحظر الذى تفرضه تلك الأنظمة على المعلومات التى تتعلق بالواقع المأساوى للشعبين الفلسطينى والافريقى فضلا عن أن الإحصاءات الرسمية التى تصدرها تلك الحكومات لا تشمل أوضاع المرأة . كما أن واقع الشتات الذى يعيشه الشعب الفلسطينى يضاعف من هذه الصعوبات التى تزداد ازاء ندرة الدراسات الميدانية لواقع المرأة الفلسطينية .

ولذلك سوف نقتصر محاولتنا على رصد المؤشرات العامة بهدف استخلاص الملامح الأساسية لخريطة الواقع النسائى العربى والافريقى فى كل من فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا .

أوضاع المرأة الفلسطينية فى الأراضي المحتلة :

يخوض الشعب الفلسطينى فى الاراضى المحتلة نضالات عدة فى حين تقف كافة شئانه وشرائحه بقوة وصلابة لمقاومة الاضطهاد القومى المتمثل فى سياسة التجويع والتفريغ والقهر تخوض المرأة الفلسطينية نضالات مستمرة ضد الاضطهاد الاجتماعى الذى عانت منه كثيرا والذى تمثل فى خضوعها الطويل وتبعيتها لسلطة الرجل سواء كان زوجها أو والدها أو أخاها مما ابتاعها طويلا فى عزلة وسلبية وأبعدها عن ممارسة ادوارها الأخرى سواء فى مجال الانتاج الاجتماعى العام أو المشاركة الفعالة فى عمليات التغيير الاجتماعى والاقتصادية والسياسية وتتواكب نشأة الحركة النسائية

الفلسطينية مع تصاعد الحركة الوطنية الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني والنفوذ الصهيوني وهى تعود الى عام ١٩٢١ حيث نشأت جمعية (نادى السيدات العربيات) ومركزها القدس لتدارس مهامها فى رفع مستوى المرأة فى مجالى التعليم والتدريب المهنى . كما مارست مهامها فى تقديم العون الاجتماعى للمجتمع الفلسطينى ، الا انه لم يمس عامين على نشأة هذه الجمعية حتى اجبرت على التوقف عن ممارسة نشاطها الاجتماعى الذى اقتصر على ما يسمى (لجان الاسعاف) وذلك لجمع التبرعات لغايات اجتماعية وقومية .

وفى عام ١٩٢٩ تم انشاء أول نقابة فلسطينية تحت اسم (الاتحاد النسائى العربى) وقد شارك هذا الاتحاد فى النضال الوطنى الفلسطينى ضد الانتداب البريطانى وانتشار الحركة الصهيونية على الاراضى الفلسطينية ومارس دوره كجزء أساسى فى اطار انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ .

وفى عام ١٩٣٨ دعى (الاتحاد النسائى العربى) الى عقد مؤتمر عام للمرأة العربية وكان ذلك بالاتفاق مع المناضلة الرائدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى العربى العام فى البلاد العربية ، وبالفعل عقد هذا المؤتمر فى مدينة القاهرة تحت شعار (الدفاع عن فلسطين) من أجل فضح سياسة الانتداب البريطانى ومؤامراته لتهويد الأرض (١١) .

وفى عام ١٩٤٨ استكملت المرأة الفلسطينية دورها فى النضال الى جانب الرجل وارتقت به الى اعلى درجاته حيث حملت البندقية من أجل الدفاع عن وطنها وفى نفس الوقت استمرت فى تقديم خدماتها فى الحقل الانسانى فكانت تقوم بتضميد جراح المناضلين ورعاية اسر وأبناء الشهداء . ومن هذا نقول بأن كفاح المرأة الفلسطينية حالياً فى الاراضى المحتلة وعلى كافة المستويات ليس الا امتداداً طبيعياً لدورها التاريخى فى النضال كجزء لا يتجزأ من الوطن الفلسطينى .

هذا وقد ازدادت معاناة المرأة الفلسطينية بعد الاحتلال الاسرائيلى

(١١) انظر : جمعية الهلال الاحمر : اوضاع المرأة الفلسطينية ونشاطاتها فى الاراضى المحتلة ، ورقة مقدمة الى المؤتمر الدولى الاول للمرأة العربية والافريقية ، القاهرة ، فبراير ١٩٨٥ .

١٩٦٧ لما تبقى من الأرض الفلسطينية حيث يستخدم الحكم العسكرى الاسرائيلى صلاحيات ادارية واسعة جدا ، وشبكة خاصة من المحاكم العسكرية تحت ستار الحفاظ على ما يسمونه بالأمن ، ويرتكب الحكم العسكرى الصهيونى صورا عديدة من الارهاب والاضطهاد ضد الأقلية العربية فى الشريحة المحتلة عام ١٩٤٨ وفى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين لا يجرى مثلها الا فى الدول التى تسيطر عليها الأقلية البيضاء العنصرية مثل جنوب افريقيا وناميبيا .

ان المرأة الفلسطينية التى تمثل شريحة أساسية فى المجتمع الفلسطينى حرمت بسبب الاحتلال الصهيونى من كافة حقوق الانسان التى تنص عليها المواثيق والأعراف الدولية ويتمثل ذلك فيما يلى :

١ — سلب حقوقها فى الملكية (المنقولة وغير المنقولة) ، ومنعها من استخدامها أو منعها من الاتصال بشخص آخر .

٢ — انتهاك حقوقها المهنية وخصوصا فى الأجهزة الاعلامية كالصحافة مثلا وأبرز مثال عمليات الاعتقال المتكررة وفرض الإقامة الجبرية على الصحفية رموندا الطويل وغيرها .

٣ — الإقامة الجبرية فى مناطق يحددها الحكم العسكرى .

كما يفرض الحكم العسكرى الاسرائيلى من خلال المادة (١١١) الاعتقال الإدارى على كل شخص تقرر سلطات الحكم العسكرى لسبب ما ، اعتقاله فترة غير محدودة دون محاكمة ، ودون توجيه أى تهمة اليه وقد سن المادة (١١٢) خصيصا حتى يتمكن من طرد أى مواطن عربى خارج البلاد ونفيه .

واستغل الحكم العسكرى الاسرائيلى هذه المواد التى ضمها لما يسميه بالقانون لطرده عائلات وعشائر بكاملها . كما يمارس الاسرائيليون عمليات قمع جماعية ضد العرب فى القرى واحياء المدن حيث يجرى غرض منع التجول والقيام بحملات تفتيش اراهابية ، واخراج السكان من منازلهم ووضعهم فى الساحات العامة لمدة طويلة يتعرضون اثنائها الى قسوة الطبيعة بالإضافة الى قسوة الارهاب الصهيونى المنظم لدفعهم على الهجرة والنزوح .

ويطبق الحكم الصهيونى نفس المشروع المشبوه الذى يسمى مشروع نقل وتوطين السود الذى سنته سلطات جنوب افريقيا لانتزاع الانماقة من أماكنهم الطبيعية ليلقى بهم فى أماكن يختارها النظام حيث لا يجدون بالفعل أى مصدر للعيش (١٢) .

قد اتخذ دور المرأة الفلسطينية الوطنى أبعادا جديدة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ حيث دفعتها فظائع الاحتلال الاسرائيلى الى المشاركة فى قيادة النضال المدنى فى الأراضى المحتلة فخرجت على رأس أول مظاهرة نسائية فى غزة فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ احتجاجا على الفظائع الاسرائيلية ضد العرب وفى أول اكتوبر من العام نفسه القت السلطات الاسرائيلية القبض على فاطمة برناوى بتهمة القاء قنبلة فى سينما « صهيون » وبسبب انتمائها لحركة التحرير الوطنى الفلسطينى وقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة .. وقد أظهرت جراءة بالغة لدى محاكمتها وكانت من الطلائع النسائية فى تطور أوجه نضال المرأة .

وقد شكلت المرأة نواة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال عام ١٩٦٨ حيث التحقت الكثرات بحركة المقاومة وحملن السلاح .. وفى شهر كانون ثانى عام ١٩٦٨ اعتقلت خمس فتيات من نابلس لاشتراكهن فى النضال المسلح وايوائهن مناضلين ينتمون الى حركة فتح .. وفى تشرين الأول ١٩٧٣ اعتصمت ثلاثمائة امرأة فلسطينية من اقارب السجناء فى نابلس وجنين وطولكرم وبيرو السبع .

وفى عام ١٩٧٤ خرجت النساء بمظاهرة تأييد لياسر عرفات لظهوره أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة بمناسبة مناقشة قضية فلسطين .

وفى عام ١٩٧٥ أعلن شمعون بيريز الوزير الاسرائيلى مشروع الادارة المدنية فقامت المظاهرات احتجاجا على ذلك واستمرت لمدة اسبوعين .

وقد شهد عام ١٩٨٢ سلسلة طويلة من الاحداث والمصادمات بين

(١٢) انظر : امينة الخطيب : وحدة نضال المرأة الفلسطينية والافريقية ورقة مقدمة الى المؤتمر الدولى الاول للمرأة العربية والافريقية — القاهرة ، فبراير ١٩٨٥ .

المرأة الفلسطينية وسلطات الاحتلال في الأراضي المحتلة ذهب ضحيتها
الكثيرات واعتقل الآلاف ومن أبرز هذه الاضرابات والمظاهرات والاعتصامات
والمسيرات الاحتجاجية ما اشارت اليه الصحف التي تصدر في الأراضي
المحتلة . وهذه بعض الأمثلة :

١ — صحيفة القدس في ١٣/١/١٩٨٢ منظمة نسائية في الجولان
توزع منشورات مناهضة لقرار ضم الجولان .

٢ — صحيفة القدس ٢٥/١/١٩٨٢ الهيئات النسائية وامهات ذوى
المعتقلين تطالب بتحسين أوضاع المعتقلين .

٣ — صحيفة الفجر ٢٥/٣/١٩٨٢ — فرض نظام التجول على جنين
ورفع الاضراب العام يعم غزة واستمرار المظاهرات العارمة في مدن
وقرى الضفة والقطاع مما أدى الى وقوع اصطدامات مع مواقع الجيش
الاسرائيلي وجرحت كل من ملكية اسماعيل (١٤ سنة) وسوسن فايز رضوان
(١٢ سنة) وفاطمة حسن السر (١٤ سنة) وهناء بولحية وهم من خان يونس .

٤ — صحيفة الشعب ٨/٨/١٩٨٢ اعتصام نسائي بالقدس احتجاجا
على الغزو الاسرائيلي لبلبنان .

وعلاوة على مشاركة المرأة الفلسطينية في قيادة النضال المدنى ضد
الحكم العسكرى الاسرائيلي في الأراضي المحتلة فقد شاركت في تنفيذ العديد
من العمليات المسلحة واستشهد منهن الكثيرات . كما قامت السلطات
الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ بأبعاد عدد كبير من القيادات النسائية البارزة
خارج الأراضي المحتلة باعتبارهم يشكلون خطرا على أمنها (١٢) .

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمرأة الفلسطينية :

لا تزال مساهمة المرأة الفلسطينية في النشاط الاقتصادي محدودة

(١٣) انظر : لجنة العمل النسائي — رام الله : دراسة ميدانية حول
أوضاع المرأة الفلسطينية في المناطق المحتلة — مجلد المرأة والتنمية في
الثمانينات الصادر عن المؤتمر الاقليمي الثانى للمرأة الخليجية ، الكويت ،
ص ٩٢٧ — ٩٧٧ .

ويزداد انخراطها فى مجال العمل بازدياد تدهور الحالة الاقتصادية فى المناطق المحتلة . ولكن يلاحظ ان مجالات العمل المتاحة للمرأة الفلسطينية محدودة جدا وهى تنحصر فيما يلى :

- ١ — الأعمال المرتبطة بالمفهوم الاجتماعى الشائع حول دور المرأة التقليدى (أعمال الخياطة — التنظيف — الطبخ — الأوممة) .
- ٢ — الأعمال البسيطة الروتينية مثل تعبئة الدواء والحلويات .
- ٣ — مجالات العمل التى تضم خبرات يدوية ومادية كالعمل فى الزراعة او بعض الحرف اليدوية (١٤) .

ويمكن ارجاع ذلك الى عدة عوامل تتلخص فيما يلى :

- ١ — التفتت والتشتت الذى يعيشه المجتمع الفلسطينى والى ارتباط اوضاع التجمعات الفلسطينية الاقتصادية بأوضاع الأقطار المتواجدة فيها .. وبطبيعة العلاقات السائدة فى هذه الأقطار ودرجة تطورها .
- ٢ — والعامل الثانى له علاقة بالقيم الاجتماعية السائدة التى باتت تتقبل عمل المرأة فى هذه المجالات (التعليم — الصحة — السكرتاريا) بلغت نسبة اللواتى تمارسن نشاطهن الاقتصادى فى قطاع الخدمات من مجمل القوة العاملة النسائية فى المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ اكثر من ٤٧٪ مقابل ٢٤٪ بين الذكور (عام ١٩٧٨) وفى الضفة الغربية تعمل نحو ٤٦٪ من مجموعات المستخدمين (الموظفات والعاملات بأجر) فى مجالات مهنية وفنية واكاديمية مقابل ٨٪ من الذكور من الفئة نفسها .. وفى غزة بلغت النسبة ٦٢٪ بين الاناث مقابل ٦٦٪ بين الذكور (١٩٧٩) وفى مخيمات لبنان بلغت نسبة الاناث اللواتى يمارسن عملا فى المجال المهنى والفنى والاكاديمى وفى مجال الخدمات الأخرى نحو ٤١٪ من مجموع القوة العاملة النسائية .. مقابل ٢٢٪ بين الذكور فى حين بلغت هذه النسبة ٦٤٪ فى مخيم اليرموك ٢١٪ فقط بين الذكور (١٩٧٩) ونجد الظاهرة نفسها فى الاماكن الأخرى للتجمعات الفلسطينية .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٩٣١ .

(م ٣٤ — العرب فى أفريتنا)

٣ — ان تقسيم العمل هذا .. المفروض على المرأة الفلسطينية فى اماكن تواجد الشعب الفلسطينى المختلفة جزء من الواقع الطبقي وامتداد للتركيبات الاقتصادية الاجتماعية للمجتمعات التى يتواجد فيها شعبها ان وضع المرأة الفلسطينية امتداد لظروف الاحتلال والاقتلاع والتشريد من جهة ولتركيبة المجتمعات العربية التى تعيش ضمنها التجمعات الفلسطينية .. ولطبيعة الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية الاستيطانية من جهة أخرى .. ومن هنا يأتى التداخل الحاد بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية بالنسبة للمرأة الفلسطينية والعربية .. فاضطهاد المرأة وكافة اشكال التمييز او التفرقة التى تعرض لها هى جزء من الواقع الطبقي الذى تعيشه وانعكاس للايديولوجية السائدة .

٤ — ان بقاء الأمومة (رعاية الطفل والعناية البيئية) مهمة محصورة بالمرأة بشكل القاعدة المادية لعدم المساواة بين الجنسين .. ولابد من تحويل الأمومة الى وظيفة اجتماعية لتأمين المساواة بين الرجل والمرأة فى العملية الانتاجية .

ويعكس تقسيم العمل القائم بين الرجل والمرأة اثاره السلبية على سائر الظواهر الاجتماعية مما يجعلها تساهم بدورها فى استمرارية التمييز ضد المرأة فالزواج المبكر لا يزال العرف السائد .. فاعلبية النساء الفلسطينيات يتزوجن ما بين سن ١٤—١٩ (تتراوح النسبة ما بين ٦٠ ٪ / ٧٥ ٪) يتزوج غالبية الرجال ما بين سن ٢٠—٢٩ (٦٥ ٪ الى ٧٥ ٪) وفى الضفة الغربية تبين من احدى الدراسات التى تناولت وضع مئة امرأة متزوجة ان ٧٥ ٪ منهن تتزوجن قبل سن العشرين وان اكثر من ٥٠ ٪ تزوجن من اقرباء لهن .. هذا رغم ان الهجرة بين الشباب من العوامل التى ساهمت فى تأخير سن الزواج فى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين .. ان نسبة التكاثر بين الشعب الفلسطينى لاتزال من أعلى النسب فى العالم .. وفى ظل غياب المؤسسات الاجتماعية الخاصة برعاية الطفولة .. وفى ظل التخلف والتشويه الاقتصادى اللذين يسودان المجتمعات العربية التى تتواجد فيها التجمعات الرئيسية للشعب الفلسطينى .. وفى ظل الايديولوجيا المسيطرة تقف اعباء الأمومة والمسئولية المنزلية كحواجز موضوعية امام مشاركة المرأة الجديدة فى النشاط الاقتصادى وفى المجال الانتاجى غير التقليدى .

المرأة الفلسطينية فى مواجهة الغزو الثقافى الصهيونى (التعليم) :

تدرك اسرائيل أن العملية التعليمية ليست عملا محايدا بل هى عملية تهدف الى تغيير واعادة بناء للشخصية الوطنية بغية توجيه هذه الشخصية نحو مسؤولياتها القومية والاجتماعية . ولذلك استحدثت الحكومة الاسرائيلية معوقات عديدة كى تحول بين أبناء الشعب الفلسطينى وخصوصا النساء وبين الاستمرار فى العملية التعليمية .

وتتلخص أهداف السياسة التعليمية الاسرائيلية فى المناطق العربية المحتلة فيما يلى :

١ — عرقلة عملية النمو الثقافى واعاقة تطويرها كما ونوعا فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

٢ — اعاقة التعاون المتبادل بين المؤسسات الاكاديمية والتعليمية وصولا الى تفكيك العلاقات الثقافية والوطنية بين سكان المناطق المحتلة .

٣ — استغلال قدرات الشباب الفلسطينى وتحويلها الى قوة عمل رخيصة تعمل فى دائرة الاقتصاد الاسرائيلى .

٤ — تهجير الكفاءات والكوادر العلمية .. التى ترفض التعاون مع السلطات الاسرائيلية .

كما تواجه اسرائيل محاولات الجامعات الفلسطينية لتطوير كلياتها وتوسيعها من أجل استيعاب أكبر عدد ممكن من الطلاب والطالبات (بخاصة أن هذه الجامعات تستوعب سنويا حوالى ٣٠٠٠ طالب وطالبة من أصل ١١٠٠٠ طالب وطالبة يجتازون المرحلة الثانوية) بفرض الأوامر العسكرية والتعديلات « القانونية » التى تستخدمها السلطات الاسرائيلية فى تحقيق أهداف سياستها التربوية تجاه التعليم فى المناطق المحتلة (١٥) .

(١٥) زيورا طوبى وآخرون : المرأة والتعليم فى الاراضى المحتلة ، ورقة مقدمة الى مؤتمر المرأة العالمى بمناسبة انتهاء عقد المرأة ، نيروبي ، يوليو ١٩٨٥ .

ورغم اشكال القهر المتعددة التى تمارسها السلطات الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى ككل والمرأة على وجه الخصوص لحرمانه من ممارسة أبسط حقوقه التى نصت عليها المواثيق العالمية والمحلية ومنها تحصيل العلم واكتسابه فان الجامعات الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة تخوض نضالا دؤوبا من أجل تكريس وجودها وذلك اقتناعا منها بأن القوانين والأوامر العسكرية الاسرائيلية لا تشكل سوى حلقة من حلقات القهر القومى والاجتماعى الذى تفرضه سلطات الاحتلال الصهيونى على أبناء وبنات الأرض المحتلة .

وضع المرأة الافريقية فى ظل النظام العنصرى فى جنوب افريقيا :

قد يكون من المفيد الاشارة بايجاز الى ملامح النظام العنصرى المعروف بالابارتيد الذى لا يكاد يطبق الا فى جنوب افريقيا وناميبيا وهو يعنى انعدام قيام صلات من أى نوع بين المجموعات السكانية فى جنوب افريقيا وبشكل الافريقيون أغلبية السكان (٢٢ مليون) ويليهم الاسيويون (٣٥ مليون) ثم البيض سلالة المستعمرين والمهاجرين الأوروبيين (٣ مليون) ويشغل البيض قمة السلم الاجتماعى وسيطرون على كافة مصادر السلطة والنفوذ السياسى والاقتصادى ويبلغ أجر العامل الابيض خمسة أضعاف أجر الافريقى الأسود . كما يملك البيض ٨٧٪ من الأراضى الخصبة ولا يبقى للافريقين سوى الأراضى القاحلة الجرداء حيث يعيشون فى المعازل المعروفة بالبانانتوسكان ولا يجوز لهم اجتيازها أو الدخول فى مناطق البيض الا باذن أو تصريح للعمل (١٦) .

وفى ظل هذا النظام تعيش المرأة الافريقية محرومة من كافة الحقوق الانسانية .

لا تعاني المرأة الافريقية من التفرقة العنصرية فحسب بل تعاني من التفرقة القائمة على الجنس اشد مما يعاني الرجل الافريقى من التفرقة العنصرية . اذ تضع قوانين الابارتيد كثيرا من القيود على اقامتها وعلى فرص العمل المتاحة لها وعلى حريتها فى التنقل مما لا يدع لها فرصة للاقتراب من مدن البيض ، فضلا عن الإقامة بها ، فاذا و انتهت فرصة العمل فيها فان

(١٦) انظر : مجلة سيشابا لسان حال حزب المؤتمر الوطنى الافريقى، الأعداد : ديسمبر ١٩٨١ ، يونيو ١٩٨٢ ، يوليو ١٩٨٤ ، لندن .

أجرها يقل عن أجر الرجل الإفريقى فى العمل الواحد بكثير . كما لا يتاح لها فرص البقاء أو الإقامة فى مناطق البيض إلا لمدة قصيرة مقيدة بتصريح من المسؤولين يلقى فى أى وقت ودون سبب .

وبينما تضطر الحاجة الرجل الأبيض الى العمالة الإفريقية . فيسمح للإفريقى بالإقامة المقيدة كنزير غير مقيم ولمدة العمل محسب . فانه لا يسمح له باصطحاب زوجته وأولاده ، وعليه أن يقيهم فى معازلهم الجرداء ، ولا يتاح له فرصة زيارتهم إلا لمدة اسبوعين فى العام مما يدمر حياتهم الأسرية (١٧) .

أما المرأة السوداء المتعطلة فهى على حد قول جين كولز « نفاقية لا حاجة انيها » فإذا قعد بها المرض أو أدركتها الشيخوخة أصبحت فريسة العزل والإبعاد ، تحملها مع أمثالها (لوارى) الحكومة من المدن أو من أرض الإيواء التى تجاور أراضى البيض والمعروفة « بالبقع السوداء » حيث يلقى بهن فى بيوت عارية من غير أسقف تقام فوق أرض جرداء وعرة ، وفى مكان ناء عن إقامة البيض خال من كل وسائل الراحة أو أى نوع من أنواع الخدمات العامة فلا طرق ولا مدارس ولا تلفون ولا وسيلة للإسعاف ، وفى تلك المعازل النائية تعيش أربعة ملايين امرأة سوداء ، وعليهم أن يقمن بكل ما تتطلبه حياتهن من الغذاء والكساء لهن ولأطفالهن فضلا عن أداء الضرائب الحكومية المقررة (١٨) .

فإذا كانت المرأة الإفريقية أكثر حظا ووجدت الزوج والحياة الأسرية فى مدينة من مدن البيض فانها تعيش تحت تهديد الإبعاد لأى سبب من الأسباب كالطلاق أو الترميل اذ تفقد حقها فى البقاء فى مسكنها ، فإذا كانت تعيش فى كنف أبويها قبل أن تتزوج ، فانه لا يسمح لها بالعمل ما لم تجد بيتا وهو ما يتعذر على المرأة الإفريقية أن تحصل عليه ، فإذا اشتركت فى النضال السياسى أو فى عمل من أعمال الإضراب أو تعطلت ولم يعد لها عمل ، فانها تفقد حقها فى الإقامة ، ويقصى بها الى المعازل .

(١٧) انظر : وثائق لجنة مناهضة التفرقة العنصرية — إدارة الشؤون السياسية ومجلس الأمن ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، يونيو ١٩٧٦ .

(18) Jane Coles : Some Facts of life for Women in South Africa. The Committee against apartheid. New York. 1978. pp 8-11.

وتشير جين كولز فى تقريرها الذى أشرنا اليه أن التفرقة الثنائية التى تعاني منها المرأة الافريقية وهى تشمل الفرقة العنصرية والتفرقة على أساس الجنس قد كتبت عليها منذ مولدها وعليها أن تواجهها فى كل أدوار حياتها فكل حق من حقوقها قد تحدد مسبقا ولا يوجد أى شكل من أشكال المساواة بينها وبين الرجل وما من سبيل لتغيير ذلك الا بتغيير المجتمع من أساسه .

الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمرأة الافريقية :

من أسوأ ما تتضمنه قوانين الإبارتهيد حرمان الملونين والسود من أراضيهم وإضافتها الى أراضى البيض ، وحين ينتزع السود من أراضيهم يوضعون فى المعازل أو فى أراض جافة متفجرة . وهذه المعازل قد أعدت فى الواقع للمسنين من الرجال والنساء والأطفال عامة ممن لا يحتاجهم سوق العمل فى مؤسسات البيض ، وكثيرا ما يعوزهم المأوى فيقيمون فى الخيام ، حين تغفل السلطة إقامة مساكن لاستقبالهم . فاذا حدث وأعدت السلطة لهم المساكن فانها تكون من السوء بدرجة لا تليق بسكنى الآدميين .

وتقاسى المرأة حين تضطلع بخدمة المسنين والأطفال كثيرا فهى المسئولة عن اعاليتهم ، وفى مثل تلك المعازل الجافة البعيدة عن موارد الماء عليها أن تحمله من منابعه النائية وغالبا ما تكون حفرا بقاع الأنهار الجافة وإذا قدر لها أن تعيش فى المدن فان قوانين الإبارتهيد تعمل على حرمانها من كل وسائل الراحة ، فالأحياء المعدة للملونين فى مدن البيض تفتقر الى الماء ووسائل الإضاءة . والمنازل لا توفر لقاطنيها الراحة أو الحياة الخاصة . ولا تستطيع المرأة أن تملك فيها دارا الا بالايجار ، وقد حرمت حتى هذا الحق منذ عام ١٩٦٨ فاذا تزلزلت كان عليها أن تنزح عنها وتعود الى حياة المعازل . أو تعيش فى كنف رجل محظية أو خلية ، فاذا عادت تكون قد فقدت مسكنها (١٩) .

التعليم :

لا يلقى الملونون فى جنوب افريقية أى نوع من الرعاية التعليمية

(١٩) انظر : حسين فوزى النجار : المرأة والإبارتهيد فى جنوب افريقيا — مركز مناهضة العنصرية ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، أغسطس ١٩٧٩ ، ص ١٧ — ١٩ .

واكثرهم لا يتلقى أى نوع من التعليم الا فى مدارس الارساليات التبشيرية ومع ذلك فان عليهم أن يقوموا بنفقات تعليمهم ، وكثيرا ما يتعذر على الطفل الافريقى أن ينال نوعا من التعليم لعجز أسرته عن القيام بنفقات تعليمه ، فاذا استطاعت الاسرة أن تقوم بنفقات تعليم أبنائها فانها تقدم تعليم البنين على البنات ، ولما كان الفقر هو العائق الأساسى للتقدم فى المجتمعات الافريقية فانه غالبا ما يكون السبب فى حرمان البنات من التعليم ، هذا فضلا عن هبوط مستوى التعليم وقصوره فى مدارس الملونين .

ومن المؤلف أن تنزع من نالت حظا من التعليم من بين النسوة الافريقيات للعمل فى المدن فلا يبقى فى الريف غير الأميات ، ونادرا ما تجد زوجه قد نالت حظا من التعليم فى الريف . ولما كان تعليم المرأة الافريقية مقاصرا غاية القصور فانها لا تنال حظا من الوظائف العامة ، ولا تستطيع بالتالى الارتفاع بمستواها المادى ومادام هذا الحرمان قائما فانها لا تستطيع أن تتخطى سلك الدائرة المقتلة من العجز والحرمان ومازالت أعداد المتعلقات من البنات دون اعداد المتعلمين من البنين بمراحل . ولم يكن حتى عام ١٩٧٣ من النساء الافريقيات اللواتى نلن تعليما عاليا غير أربع طبيبات ومدرستين بالجامعة وأربع أمينات للمكتبات .

العمل :

ونادرا ما تحصل المرأة الافريقية على العمل وإن حصلت عليه فبأدنى الأجور وتكون تحت رئاسة من هن دونها فى القدرة وأصغر منها فى السن ، حتى الأعمال التى لا يقوم بها غير النساء فى البلاد التى تفرق فى العمل بين المرأة والرجل يقوم بها الرجل الابيض وتحرم منها الملونة والافريقية وفى المعازل ، كما يقول « ه.ج سيمون » تتضائل فرص العمل المجزى أمام المرأة الافريقية فليست هناك صناعات يمكن أن تعمل فيها ، وليس أمامها غير الخدمة فى البيوت وأكثرهن يعمل فى فلاحه الأرض وتتراوح نسبة العاملات منهن فى هذا الميدان ما بين ٨٠٪ و ٩٠٪ والأرض التى يعملن فيها ليست لهن بل هى ملك البيض أما القلة التى تعمل منهن فى حقل التعليم أو فى التمريض فانها من الضالة بحيث لا تذكر . وفى دراسة أعدتها منظمة العمل الدولية ، اكتشفت أن ١٣٦٪ من العاملات الافريقيات فى الريف هن اللواتى يجدن عملا مجزيا وأكثرهن من العاملات فى فلاحه أراضى البيض أو فى خدمة

أسرهن ، حتى وان كن ممن يحسن القراءة والكتابة أو ثلن حظا طيبا من التعليم . اذ أن قوانين الإبارتهيد تحول بينهن وبين الإقامة أو العمل فى المدن وتحملهن على الإقامة فى المعازل (٢٠) .

المرأة الإفريقية فى ظل القوانين العنصرية :

لا تتساوى الزوجة الإفريقية مع الزوج من الناحية القانونية سواء من حيث القانون العرفى أو من حيث القانون الوضعى بنصوصه الملثوية . فطبقا للقانون الخاص بإدارة البانتوستان لعام ١٩٢٧ : ليس للزوجة حق المساواة بزوجها وفى قانون الناتال أن المرأة الإفريقية تابعة للرجل وهو وليها سواء كان هذا الرجل هو الأب أو من يرثه أو الزوج ، فإذا طلقت انتقلت الولاية الى الأب أو من يرثه ، ولا تملك المرأة الإفريقية غير المتزوجة فى قوانين الناتال حرية التصرف ما لم تثبت أنها تملك عقارا ثابتا . أو انها رشيدة متعلمة تحسن التصرف مدبرة وغير مسرفة ، ولا يسرى هذا النص على الزوجة حتى وان هجرها زوجها أو تركها دون نفقة . ولا يتيح هذا الوضع للمرأة الإفريقية حق التعاقد أو المقاضاة أو التقاضى . كما لا يتيح لها حق الانتقال من مكان الى آخر دون إذن من وليها وليس لها أن تملك الا حاجياتها الشخصية ، وما تكسبه من مال يكون تحت وصايته وله أن يسئوفى منه ديونه .

ويبرر المسئولون فى حكومة جنوب افريقية هذا الوضع بأنه يتفق مع القوانين القبلية الإفريقية الا أن هذه القوانين — كما جاء فى تقرير الأمين العام للأمم المتحدة الى لجنة المرأة — وان اتفقت مع الحياة الجماعية للمجتمعات الإفريقية ، فانها لا تتفق مع الطابع الفردى الذى تقوم عليه قوانين البانتوستان ، فبينما ترعى القوانين القبلية حقوق المرأة ، يهدمها قوانين البانتوستان الجديدة وتعمل على استعبادها (٢١) .

الزواج والاسرة :

يخضع الزواج فى جنوب افريقيا لقيود اللون والعنصرية ، ونقلا

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢١) تقرير الى لجنة أوضاع المرأة من السكرتير العام للأمم المتحدة ، نيويورك ، ربيع ١٩٧٨ ، ص ٢١ .

للقانون الذى يحول دون قيام علاقة جنسية أو زواج بين البيض والسود ،
ففى قانون ١٩٢٧ تعد مثل هذه العلاقة جريمة ، بينما يمنع قانون الزواج
المختلط لعام ١٩٤٩ أى زواج بين البيض وغير البيض ، فاذا خالف الابيض
هذا القانون كان جزاؤه اقل بكثير مما يلقيه الملون من عقاب قاس ، واكثر
من طبق عليهم هذا القانون من البيض كن من النساء .

ووفقا لهذا القانون فان أى زواج يتم بين ابناء الجنس الواحد لا ينال
الاعتراف ما لم يتم وفقا لقوانين المدنية أو الكنسية ، ولما كان الافريقيون
يجرون مراسم الزواج وفقا لتقاليدهم فان مثل هذا الزواج يكون باطلا قانونا
ولا يعترف به امام أى محكمة من محاكم جنوب افريقية ، مما يهضم حق
الزوجة قبل الزوج عندما يهجرها أو يطلقها كما يشجع الزوج على الطلاق
ويقوض بالتالى اركان الأسرة الافريقية .

أما كارثة الأسرة الافريقية حقا فانها الحصاد السيئ لقوانين العمل
القاسية اذ انها تلزم الافريقى رجلا أو امرأة بالحصول على اذن مسبق
بالعمل وفى مناطق معينة لا يتجاوزها ، ولا يسمح للزوجين بالعمل فى مكان
واحد مما يحول بينهما وبين تكوين أسرة تتمتع بنوع من الاستقرار . وغالبا
ما يتحطم الزواج بسبب هذه القيود البغيضة ، هذا فضلا عن الأعباء التى
تنوء بها المرأة فى معازل البانتوستان عندما يفترق عنها الزوج للعمل بعيدا ،
فاذا أجبرتها مطالب الحياة القاسية على العمل لتعول ابناءها أو المسنين من
أسرتها لا تجد سوق العمل الا فى خدمة أسرة البيض وما أقساها من خدمة
تباعدها بينها وبين من تعولهم فلا يبقى فى هذه المعازل غير المسنين والاطفال
يقاسون الفقر والجوع والمرض والتشرد ، ولا يجد الأطفال من الرعاية
الواجبة فى تلك السن الفضة ما يصون حياتهم ويحميهم من الانحراف .

المرأة وحق التملك :

ليس للمرأة الافريقية فى المعازل الحق فى ملكية أى أرض ، فاذا مات
عنها زوجها فقدت حق الارث فى أرضه اذا ما اضطرتها الظروف للاتامة
بعيدا عن بيت زوجها المتوفى ، أو رفضت العيش فى مكان آخر لا يرضى
عنه أهل زوجها واذا كان عليها أن تعمل لتعول ابناءها بعيدا عن بيتها فانها
تفقد الحق فى استغلال قطعة الأرض التى تحيط ببيتها على عكس الافريقى

من الرجال فانه يبقى مالكا لقطعة الأرض الملحقة ببيته وله حق استغلالها وزراعتها ، وكثيرا ما تكون تلك المرأة الافريقية هى العائل الوحيد لأسرتها ، وحرمانها من الأرض يعنى حرمان من تعولهم من وسيلة العيش الوحيدة ، كما تمثل قوانين الوراثة تفرقة صارخة بين الرجل والمرأة الافريقيين ، اذ أن ماترثه يذهب الى وليها وهو الذى يديره لها دون مشورة منها ، ويجرى العرف بين الافريقيين بالا ترث الاناث ويذهب الميراث الى الذكور ، حتى وان كان ما ورثته قد جاءها عن طريق الأم .

حرية الانتقال :

تحول قوانين جمهورية جنوب افريقيا دون حرية الانتقال للملونين الى مناطق البيض . وقد صدرت عدة قوانين تنظم وتراقب انتقال وهجرة الملونين الى مناطق البيض وهو القانون رقم ٢٥ لعام ١٩٤٥ وقانون الغاء تصاريح البانتو وترتيب المسوغات رقم ٦٧ لعام ١٩٥٢ وقانون اعادة توطین البانتو رقم ١٩ لعام ١٩٥٤ . وبمقتضى هذه القوانين لا يجوز للملونين الاقامة فى المدن الا لوقت محدود ولحاجة العمل . واذا قدر للمرأة الافريقية أن تحصل على تصريح يتيح لها حرية الانتقال الى مناطق البيض فانها عرضة لسحب التصريح منها لآى سبب كأن تشترك فى اضراب او اى عمل سياسى (٢٢) .

المقاومة الافريقية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا

لقد بدأت المقاومة الافريقية للفرز الأبيض يوم بدأ الفرز الأوروبى لجنوب افريقيا ورغم أن الممارك التى دارت بين الافريقيين والأوروبيين لم تكن متكافئة مما أدى الى نجاح الأوروبيين فى فرض سيطرتهم الكاملة على الأرض والموارد الطبيعية ولكنهم فشلوا فى اطفاء جذوة المقاومة الافريقية فقد ظلت مشتعلة تتخذ صوراً عديدة غير انها لم تأخذ شكلها المنظم الا فى عام ١٩٢٢ حين تأسس حزب المؤتمر الوطنى الافريقى . وقد بدأ الحزب فى تعبئة الافريقيين للنضال ضد التفرقة العنصرية ومن أجل استخلاص حقوقهم المشروعة وكان العمال الافريقيون الذين يعيشون فى المدن هم ركيزة الحزب فى نضاله ومع تطور الوعى الوطنى وتساعد نشاط الحزب وتغلغله بين

التجمعات الافريقية فى المعازل والمناطق الزراعية التى يملكها البيض أخذ الحزب يطور خطته واساليب عمله فانتهج عدة أساليب تتلائم مع طبيعة وحجم الممارسات العنصرية التى كانت يقوم بها حكم الأقلية البيضاء ضد الافريقيين ومن أبرز هذه الأساليب الاضرابات والمقاطعة واشكال التظاهر المختلفة . وفى عام ١٩٥٥ أصدر الحزب ميثاق الحرية كمنهاج للعمل الوطنى من خلال التحالف مع القوى الأخرى المعارضة لنظام الابارتهايد فى داخل وخارج جنوب افريقيا . وقد واصل الحزب برنامجه فى تعبئة وتجنيد الآلاف من الشباب وقام بتشكيل تنظيم للشباب وآخر للنساء الى جانب تنظيماته الأخرى من صفوف العمال فى المدن . وتركزت استراتيجية الحزب فى النضال من أجل اقامة دولة ديمقراطية تضمن لجميع سكان جنوب افريقيا العدالة والمساواة فى الحقوق والمسؤوليات دون تفرقة تمييز بسبب اللون أو العنصر أو الجنس . ويؤمن حزب المؤتمر بسياسة التعايش والمساواة بين البيض والمولدين الافريقيين داخل دولة ديمقراطية (٢٢) . ولم تنحصر المقاومة الافريقية للنظام العنصرى فى اطار حزب المؤتمر الوطنى الافريقى فحسب بل ظهرت بعض ردود الفعل الوطنية التى طرحت أساليب أخرى لمواجهة العنصرية تبثت فى رفض الطرح السياسى الذى يتبناه حزب المؤتمر والذى يدور حول فكرة أساسية مفادها أن جنوب افريقيا وثروتها ملك لمن يعيش فوق أرضها فقد اعتبروا ذلك نوعا من المساواة بين المقتصب الدخيل والوطنى الأصيل وأسسوا حزب مؤتمر الوحدة الافريقية P A C عام ١٩٥٩ وقادوا الحملة ضد تصاريح المرور وقاموا باحراقها فى مارس ١٩٦٠ مما أدى الى مذبة شاريكيل التى قتل فيها ٦٩ متظاهرا من الافريقيين واتخذت الأمم المتحدة من هذا التاريخ (٢١ مارس) يوما عالميا ضد التفرقة العنصرية وقد أصدرت الحكومة العنصرية قرارا بوقف نشاط حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بعد مذبة شاريكيل . الا أن كفاح الحزب لم يتوقف بالرغم من حركات القمع والمصادرة واعتقال زعمائه وقد أعرب حزب المؤتمر الوطنى فى جميع بياناته عن عدم ايمانه بالمواجهة العنصرية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا . كما أكد الحزب فى وثائقه الأساسية أن الاستراتيجية التحررية للحزب لن تتحقق الا باجتذاب للنساء الى صفوف النضال الوطنى واشراكهن

(٢٣) انظر : وثائق ومطبوعات حزب المؤتمر الوطنى الافريقى —

الجمعية الافريقية — القاهرة ١٩٨٥ .

فى جميع المعارك والا فانهم سوف يتحولن الى احتياطى الثورة المضادة ويصبحن قوة معادية لتحرير الوطنى يستفيد منها العدو العنصرى ولو بصورة غير مباشرة (٢٤) .

المقاومة النسائية للحكم العنصرى فى جنوب افريقيا :

يقود النشاط النسائى العلنى فى جنوب افريقيا مجموعة من التنظيمات النسائية التى ترجع نشأتها الى الخمسينات وهى تشمل على التوالى :

- ١ — رابطة نساء البانتو .
- ٢ — التنظيم النسائى التابع لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى .
- ٣ — اتحاد نساء جنوب افريقيا .

وتعمل حركة التحرر الافريقى على اجتذاب اكبر عدد من النساء الافريقيات المنعزلات فى البانتوستان وتعبئتهن من أجل تنظيمهن كقوة ثورية ضد النظام العنصرى . والواقع أن غياب الشروط الانسانية الأولية من الحياة اليومية لآلاف النساء فى جنوب افريقيا يضاعف من صعوبة الدور الذى تقوم به الأحزاب الوطنية لتحرير النساء ومن ثم تنظيمهن كقوة ثورية فاعلة اذ يلاحظ أن وضع النساء الافريقيات فى المعازل أو هؤلاء اللواتى يعملن فى منازل ومزارع البيض تطلق عليهم القوات العنصرية الكلاب والغازات المسيلة للدموع وتذك منازلهم بالبولدوزارات عند وقوع أى اضراب أو مظاهرة احتجاج فهن مستهدفات بالدرجة الأولى من قبل السلطات العنصرية فى جنوب افريقيا اذ يمارسن أخط الأعمال وأول من يتعرض للطرده والابادة المنظمة مما يجعلهن فريسة لكل المخاطر وتزداد بينهم نسبة البطالة بصورة مخيفة اكبر بكثير من البطالة بين الرجال . كما يتقاضين اجرا أقل عن نفس الأعمال التى يقوم بها الرجال ويفقدون أعمالهم فى حالة الحمل كما أن الخوف من الفاقة والخوف من الاغتصاب فى الشوارع ليلا يجعلهن يحجمن عن المشاركة فى العمل العام فضلا عن معارضة أزواجهن ولا يجدن الا الخدمة فى المنازل مما يكرس الوضع التقليدى للمرأة باعتبارها لا تصلح الا للأعمال

(٢٤) انظر : وثائق حزب مؤتمر الوحدة الافريقية ، الجمعية الافريقية ، القاهرة ١٩٨٥ .

المنزلية مما يكرس الوضع ويفقدون الفرص لتطوير امكانيتهن واكتساب مهارات جديدة . كما أن الخدمة فى المنازل تحرم هؤلاء النساء من مزايا التجمع فى روابط واتحادات أو نقابات تتولى الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم أو تمكنهن من المشاركة فى النضال الوطنى ضد البيض وحتى النساء الافريقيات اللواتى يعملن باعداد كبيرة فى مزارع البيض لا يستطعن تنظيم صفوفهن بسبب الفقر وتخلف الوعى رغم انهن اقل عزلة من الفئة الاولى . كما أن وجودهن داخل هذه المزارع يحول دون اتصالهن بحركة التحرر الوطنى أو بالخارج أو امكانية النفاذ والوصول اليهن من قبل حركة التحرر الوطنى لاثراكن فى المقاومة الوطنية اذ تعتبر هذه المزارع سجون من نوع آخر (٢٥) .

لا شك ان وطأة الفقر والتمييز ضدهن تجعلهن غير مؤهلات للمقاومة من خلال الجهد الذاتى فى ظل العزلة المفروضة عليهن .

وهنا تبرز مسئولية حركة التحرر فى ضرورة تعبئة النساء الافريقيات بالعمل أولا على كسر عزلتهن واقتناعهن بأهداف حركة التحرر فى ظل ميثاق الحرية الذى يهدف الى اقامة مجتمع غير عنصرى يضمن المساواة للجميع ويضمن للمرأة على وجه الخصوص المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد أدركت حركة التحرر الافريقى أن القطاع النسائى يحتاج الى جهد مضاعف لتوعيتهن وتعبئتهن وتنظيمهن حول أهداف التحرر الشامل للمجتمع رجاله ونسائه واطفاله .

هذا وقد أدركت المرأة الافريقية تدريجيا أن الكفاح للتحرر من التفرقة بين الرجل والمرأة لابد أن يضى جنبا الى جنب مع الكفاح ضد الإبرتهيد والتفرقة العنصرية . فعندما تكون الاتحاد النسائى بجنوب افريقية وقد قام لتوحيد جهود المرأة الافريقية من كافة العناصر لمناهضة التفرقة بين الرجل والمرأة بصورة خاصة والكفاح ضد التفرقة العنصرية بوجه عام نشر بياناً يحمل شعار « الحرية والأمن وحق المساواة والسلام للجميع » كما أعلنت لجنة

(٢٥) انظر :

حقوق الإنسان فى جنوب افريقية عند احتفالها بالعام الدولى للمرأة ان التغيير الجذرى لتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة لابد وأن يبدأ باقامة مجتمع جديد خال من التفرقة العنصرية سواء فى ذلك التفرقة القائمة على الجنس أو العنصر أو الثقافة وما الى ذلك من كافة أنواع التفرقة (٢٦) .

وفى هذا الاطار من الكفاح المشترك للقضاء على التفرقة العنصرية بكل ألوانها شاركت المرأة الافريقية الرجل فى كفاحه ضد الابارتيد . ففى أوائل الخمسينات وقفت المرأة الملونة الى جانب الرجل فى حركة المقاومة السلبية لقوانين العنصرية الظالمة وقامت لجنة المرأة فى حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بتنظيم النشاط النسائى ضد الابارتيد وتوجيهه فاعتقل بعضهم وأرسلن الى السجون .

ولعل اكثر ما عانيت المرأة بمقاومته ورفضه تصاريح المرور فحتى الخمسينات كان الرجل وحده هو صاحب الحق فى اذن المرور بينما كان على المرأة التى تعيش فى مدن البيض أن تجدد هذا الاذن كل شهر .

وقد تجسد احتجاج المرأة الملونة على تصاريح المرور فى القيام بحرقها أمام مقر الحكومة ولم تأبه الحكومة بحركتهن وصممت على تنفيذها بكافة الوسائل وهو ما تصفه هيلدا برنشتين بقولها (لقد صممت السلطات على رأيها فالمسلمات من النساء حين ذهبن فى طلب معاشهن الضئيل قيل لهن لا اذن ولا معاش وتوجيهات من رجال الشرطة وقمعت أشد العقوبات واقساها فقتل بعضهن برصاص الشرطة وضرب الأخريات ضربا مبرحا واشعلت النيران فى بيوتهن حتى التهمتها تماما ودمرت كل ممتلكاتهن حتى عم الخراب ونفى من ألقى القبض عليه ودمرت واختفى الآخرون من الرجال والنساء عن عيون السلطة) (٢٧) .

وبالرغم من المعاملة اللاانسانية وقسوة رجال الشرطة فقد استمرت الافريقيات فى الاحتجاج على مظالم الابارتيد وعلى انخفاض اجور أزواجهن وقصور الخدمات العامة من المرافق الصحية الى وسائل الاضاءة وغير ذلك من ضروب الحرمان .

(٢٦) المصدر السابق ، العدد ٩٨ ، ص ٥٧ — ٦٠ .

(٢٧) أنظر : فوزى النجار — مصدر سابق — ص ١٤ .

وعندما صدرت قوانين مقاومة الارهاب فى الستينات القى القبض على عدد من النساء اللواتى عارضن الابارتهايد وحكم عليهن بالسجن الا ان ذلك لم يضعف من مقاومتهن واصرارهن .

وضع المرأة فى موائيق الثورة الوطنية فى جنوب افريقيا :

ينص ميثاق الحرية على حقوق متساوية للنساء فى المجال السياسى (التصويت والادارة) وينص على ضرورة تمتع المرأة بحقوق متساوية فى العمل والاجازة المدفوعة للمرأة العاملة اجازة اموية (برنامج حزب المؤتمر الوطنى والحزب الشيوعى بجنوب افريقيا ١٩٦٢) وينص الميثاق على أن جميع العمال فى المناجم والمزارع والمساكن يتمتعون بكافة الضمانات التى تنص عليها قوانين النقابات العمالية ويطالب الحزب بضرورة ايلاء النساء العاملات رعاية خاصة وازالة جميع القيود المفروضة على النساء العاملات المتزوجات ومنحهم كافة أشكال الرعاية اثناء الحمل وبعد الولادة والفاء تعدد الزوجات . وقد أعلن الحزب أنه سوف يناضل من أجل الفاء كافة أشكال وصور اللامساواة ضد المرأة والتى تنظر اليها باعتبارها مجرد خادمة أو مديرة منزل أو مربية اطفال وسوف يناضل من أجل اشتراك النساء فى مختلف ميادين النشاط الانتاجى المادى والفكرى على أسس متساوية مع الرجال .

وقد أكد حزب المؤتمر الوطنى الذى يقود النضال هو والحزب الشيوعى فى جنوب افريقيا ضمن الجبهة الوطنية الديمقراطية على أهمية مشاركة النساء فى النضال الوطنى وضرورة تعبئتهن من خلال عمل سياسى مكثف وقد أعلن المؤتمر العام للحزب عام ١٩٥٥ أن التجمع النسائى التابع للحزب قد أثبت وجوده فى العمل السياسى والجهادى وان كان يحتاج الى مزيد من الاهتمام والتدريب كى تخرج منه قيادات نسائية جماهيرية كما أعلن الحزب أن التجمع النسائى ليس مجرد فرع تابع للحزب ولكنه يمثل العمود الفقرى للعمل الوطنى ويؤكد ذلك بقوله « اننا ندرك جيدا اننا لن نكسب معركة الاستقلال والتحرر دون مشاركة النساء ولذلك علينا أن نعمل على اجتذاب الجموع النسائية الى صفوف النضال الوطنى بأن نساعدنهم على تحقيق التحرر الذاتى أولا بتوفير المساواة لهم داخل الاسرة وخارجها وتحريرهم من الأعباء المنزلية ومن هنا تبرز مسؤولية أعضاء الحزب من الرجال فى أن يضربن المثل الحى لتحسين

هذا الموقف الملتزم ازاء النساء داخل الحزب وخارجه « (٢٨) .

وفى عام ١٩٨١ عقد التنظيم النسائى التابع لحزب المؤتمر الوطنى الافريقى مؤتمرا تاريخيا فى لواندا وقد أعلن رئيس الحزب اوليفر تامبو ما يؤكد هذا الاتجاه عندما صرح قائلا : « ان على النساء العضوات فى الحزب ان يعملن بالفعل على انتهاج السلوك المتحرر الذى يتمثل فى التخلص من رواسب الفكر التقليدى ويعملن فى ذات الوقت على مساعدة الرجال لانتهاج نفس المواقف المتحررة ضد اعداء المرأة فالمضطهدين الذين يمارسون الاضطهاد لا يستطيعون مساعدة المضطهدين بقدر ما يستطيع هؤلاء مساعدة انفسهم فالتحرر مسألة ذاتية فى الأساس كما ان النضال من أجل التغلب على القهر القومى الذى يمارسه الحكم العنصرى ضد شعبنا لهو ايسر بكثير من التغلب على القهر القومى الذى يمارسه الحكم العنصرى ضد شعبنا لهو ايسر بكثير من التغلب على القهر التاريخى الذى يمارسه الرجل ضد المرأة منذ مئات السنين وعلينا ان نتعاون جميعا لتغيير أنماط السلوك اليومية والقيم المتوازنة التى تعمل على ابقاء المرأة فى وضع أدنى من الرجل ويجاوز مرحلة الشعارات الثورية التى تمجد المرأة فحسب وتنتقل الى مرحلة السلوك الثورى التى تنظر الى المرأة كشريك متساوى فى الحقوق والمسئوليات . لذلك نحن ندعو النساء الفقيرات اللاتى يقع عليهن الاضطهاد وبصورة مزدوجة الى الخروج من دائرة المطبخ والأعمال المنزلية الى آفاق النضال الرحبة للمشاركة فى تحرير الوطن بصورة فعالة وإيجابية والتنظيم النسائى ليس غاية فى حد ذاته بل هو أداة مرحلية لتنظيم النساء ولضمان اشتراكهن فى دائرة النضال القومى العام . وفى عام ١٩٨٣ أعلنت السيدة جيرترود شوب الأمانة العامة للتنظيم النسائى بحزب المؤتمر الوطنى الافريقى : « ان أولى مهامنا هى تحقيق التنمية السياسية لنسائنا مما سيضمن المشاركة الكاملة من جانبهن فى تحرير بلادنا ثم تحرير المجتمع من رواسب السلوك التقليدى المعادى للمرأة » (٢٩) .

كل هذه التصريحات تؤكد على أهمية المشاركة النسائية فى حركة التحرر الوطنى وأستحالة تحقيق التحرر الكامل دون المشاركة الواسعة

(٢٨) انظر : مجلة سيشابا — ديسمبر ١٩٨١ ، ص ٨ — ١٧ .

(٢٩) المصدر السابق .

يختلف القطاعات الشعبية وفى مقدمتها النساء كما يتضح أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال عمل سياسى وعلى نطاق واسع بين التجمعات النسائية مما يساعد على بروز قيادات نسائية تتسم بالشجاعة والقدرة على التأثير فى الجماهير .

الأوضاع الراهنة للنضال النسائى فى جنوب أفريقيا :

كان التحدى الرئيسى الذى تواجهه حركة التحرر الوطنى فى جنوب أفريقيا خلال عام المرأة (١٩٨٤) هو كيفية انجاز المهمة الأساسية للحزب التى تتمثل فى ضرورة بناء حركة نسائية ديمقراطية موحدة سواء من الناحية التنظيمية أو السياسية تتشكل من التنظيمات النسائية الموجودة فى الساحة مثل اتحاد نساء جنوب أفريقيا الذى يتركز نشاطه فى منطقة الراند والتنظيم النسائى المتحد ويتركز فى منطقة غرب الكيب وهناك بعض التنظيمات النسائية مثل التنظيم النسائى فى الناتال وتنظيم بورث الزبابيث .

وشارك هذه التنظيمات فى الاضرابات التى تتصاعد فى مختلف أنحاء جنوب أفريقيا بسبب ارتفاع أسعار المواد الغذائية واجور المواصلات تدنى أجور العمال الأفريقيين وسائر أشكال التفرقة العنصرية . وبسبب طبيعة هذه الانتفاضات وما تتسم به من كونها استجابة مباشرة للأوضاع الجائرة التى يعانى منها الأفريقيين مما يجعلها أشبه بموجات الغضب المتفجرة أكثر منها انتفاضات مسيحة ذات رؤية بعيدة المدى ولذلك فهى تترك انعكاساتها السلبية على النضالات الوطنية للقطاعات النسائية فى جنوب أفريقيا ومن هنا انبست أهمية بل ضرورة العمل على توحيد وتسييس العمل النسائى فى جنوب أفريقيا مع ربطه بالنضالات الوطنية للقطاعات الشعبية الأخرى مثل الشباب والعمال والمزارعين . وقد انضمت معظم هذه التنظيمات الى الجبهة الديمقراطية المتحدة التى تقود النضال الوطنى فى جنوب أفريقيا مما ساعد على نقل هموم وقضايا المرأة الى جدول أعمال سائر التنظيمات الجماهيرية وخصوصا الطلبة والعمال ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يلى :

١ — أجازة الأمومة التى وافقت عليها أحد المتاجر الشهيرة فى جنوب أفريقيا نتيجة المفاوضات التى أجرتها معها الجبهة المتحدة لعمال التجارة .

٢ — الندوة التى عقدها اتحاد نقابات جنوب أفريقيا فى يوليو ١٩٨٣ لمناقشة أوضاع النساء العاملات وموقف العمال الرجال والأزواج من قضايا (م ٣٥ — العرب فى أفريقيا)

الاعمال المنزلية وتربية الأطفال وضرورة المشاركة فيها لتخفيف العبء عن النساء . وقد طرحت بعض الاقتراحات التى تنادى بضرورة النضال المشترك من جانب الرجال والنساء من أجل تخفيض ساعات العمل لتخصيص مزيد من الوقت لاشتراك الرجال فى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال .

٣ — اقام مؤتمر شباب سويتو لجنة نسائية تعمل على نشر روح المساواة بين جميع الأعضاء من أجل التغلب على الاحساس بالنقص لدى النساء وسعيا الى دفعهن للمشاركة الكاملة فى جميع النضالات الوطنية . وقد أصدر المؤتمر الميثاق النسائى الذى أعلن الاتحاد العام لنساء جنوب افريقيا تبنيه وذلك فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر القومى فى عام ١٩٨٤ .

٤ — أعلن اتحاد طلاب آزانيا تعيين امرأة فى احدى المواقع القيادية وذلك لأول مرة فى تاريخ الاتحادات الطلابية فى جنوب افريقيا . كما أعرب الاتحاد فى أغسطس ١٩٨٢ عن اهتمامه بدراسة اسباب نقص المشاركة النسائية فى التنظيمات الشعبية والسياسية وقد أرجع سبب سلبية النساء الى التربية المنزلية والمجتمعية الخاطئة التى تغرس فيهن الاحساس بالدونية تجاه الرجل مما يخلق منهن توابع وأدوات للاستغلال والقهر المركب . وقد أصدر اتحاد طلاب آزانيا ميثاق للتعليم أوضح فيه ضرورة إلغاء الفوارق من الجنسين فى التعليم العام كما نظم الاتحاد الوطنى مؤتمرا عن النساء فى عام ١٩٨٢ تناول فيه العوائق التى تحول دون مشاركة المرأة فى شتى مجالات الانتاج والنضال الوطنى (٣٠) .

لقد أسفر هذا الاهتمام الشعبى المتعدد الوجوه بقضية المرأة فى جنوب افريقيا عن اتساع رقعة الاعتراف الجماهيرى بأهمية وخطورة الاسهامات والتضحيات التى تقدمها المرأة لحركة النضال الوطنى الاجتماعى . كما تبلور هذا الاعتراف فى صورة اجتماعات سنوية منتظمة للاحتفال باليوم القومى للمرأة فى جنوب افريقيا . ومما يجدر ملاحظته أن تراكم النشاط الحزبى المنظم قد ساعد على ظهور وبلورة استراتيجية كاملة لتحرير النساء الافريقيات وذلك ضمن استراتيجية التحرير الشامل الوطنى والاجتماعى لجميع أبناء ومواطنى جنوب افريقيا .

(٣٠) انظر :

وتستعين هذه التنظيمات فى نشاطاتها الموجهة الى النساء بكافة ادوات الاتصال المباشر فى المعازل والمعسكرات والمزارع التى يمتلكها البيض والمدارس والكنائس والمصانع واطراف المدن . كما تستعين بوسائل الاتصال الجماهيرى المتاحة وأبرزها الراديو والكتيبات والصحف الى تصدرها الأحزاب والتنظيمات الشعبية مثل (ماى بى) ، سيشابا ، افريكان كومينست والفجر وصوت المرأة التى يصدرها اتحاد نساء حزب المؤتمر الافريقى . وتطرح وسائل الاعلام الوطنية فى جنوب افريقيا مضمون موحد وان تعددت أساليبه وهو يدور حول هذه الحقيقة التى تقول : « ان الثورة الوطنية الديمقراطية لن تحرر النساء من القهر الوطنى والاستغلال الطبقي فحسب بل سوف تحررهم فى الأساس من الاضطهاد الذى يلاقوه بسبب كونهن نساء . اننا عندما نتحدث عن تحرير النساء فان ذلك لا يعنى تحرير المرأة من سيطرة واستغلال الرجل فحسب بل تهدف الى تحريرهما معا من الاستغلال والقهر القومى والاجتماعى .

قضية تحرير النساء فى اطار العلاقات العربية الافريقية :

رغم أهمية المساندة الرسمية التى توليها الحكومات العربية والافريقية لآى مبادرة تتخذ لدعم التقارب بين العرب والافريقيين ورغم محاولات التقارب التى تزداد وضوحا بين حركات التحرر الوطنى العربية والافريقية وخصوصا منظمة التحرير الفلسطينية وحزب المؤتمر الوطنى الافريقى ومنظمة سوابو الا أن الرؤية الاستراتيجية لأبعاد العلاقات العربية الافريقية لاتزال تطرح من منطلق براجماتى قصير النظر ولازال تحاول حصر العلاقات العربية الافريقية فى الاطار الرسمى كى تظل أساسا ذات مضمون اقتصادى بحث مما يؤدى الى انفصال هذه العلاقات عن جذورها الشعبية واطارها التحررى سواء فى مجال النضال الوطنى أو التحول الاجتماعى وبالتالي تصبح عاجزة عن تجاوز المرحلة الأولى من الاستقلال الوطنى التى ترجع الى نهاية الخمسينات . واذا كانت ظروف التبعية الثقافية للغرب التى سادت فى أغلب الدول العربية والافريقية بعد مرحلة الاستقلال السياسى قد لعبت دورا حاسما فى سيادة واستمرار المفاهيم الخاطئة والاستجابة للمحاولات الاستعمارية لتثويوه وعزل الجبهة العربية عن الجبهة الافريقية فان تراكم النضال الوطنى على الجبهتين وادراك شمول الظاهرة الاستعمارية الذى

تجسد فى امتداداتها العنصرية فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا قد ساعد على ظهور عدة محاولات جادة لإنهاء التبعية الاقتصادية والثقافية فى بعض الدول الافريقية والعربية التى تسعى لتحقيق الاستقلال الشامل . وقد انعكس ذلك بصورة ايجابية على العلاقات العربية الافريقية اذ أسهم فى كسر اطواق العزلة المصطنعة بين الشعوب العربية والافريقية وكان مؤتمر باندونج ١٩٥٥ هو نقطة البداية حيث انطلقت منه حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث وبدأت علاقات التقارب الافريقية عام ١٩٥٨ كخاتمة للعديد من المؤتمرات النسائية والشبابية والعمالية .

واذا كانت الستينات قد شهدت ذروة المد الوطنى وبما صاحبه من تصاعد ملموس فى العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الشعوب العربية والافريقية ، فان النصف الآخر من الستينات قد سجل بداية حركة الجذر الوطنى بكل نتائجها السلبية على صيغة العلاقات العربية — الافريقية التى بلغت أوج ازدهارها فى فترة المد التحررى . فقد شهدت هذه المرحلة على السبعينات الهجمة الاستعمارية الشرسة لتصفية النظم الوطنية ذات البرامج الثورية سواء على الجانب العربى او الافريقى . وكان من آثارها ظهور التجمعات الاقليمية ذات الطابع الاقتصادى على الجانب الافريقى بالذات ، وكان ظهورها نذيراً بمرحلة جديدة من التفتت والتفكك بين الدول الافريقية ذاتها وبينها وبين البلدان العربية .

وقد تحددت المعركة الرئيسية لحركة التحرر الوطنى ضد التبعية والتخلف بكل ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد كان لكل هذه التطورات آثارها المباشرة وغير المباشرة على خريطة العلاقات العربية — الافريقية ، حيث طرأت مجموعة من التغيرات فى أولويات ومضامين العلاقات العربية — الافريقية فقد أصبحت مطالبة بالعمل على :

١ — مواجهة الاحتكارات الدولية متعددة الجنسيات ، وذلك بانتهاج سياسات اقتصادية تكفل لها انجاز برامج تنموية مستقلة ، تساعد على اعادة استثمار مواردها طبقاً لمصالح القوى الاجتماعية صاحبة الاغلبية .

٢ — مواجهة قضية اعادة بناء الثقافة الوطنية بما يتيح بعث وازدهار الشخصية القومية فى كل بلد عربى وافريقى ، ولا يتحقق ذلك الا بالسيطرة

على حركة بناء التعليم والثقافة والاعلام ، التى تلخص مجمل طموحات وهموم هذه المجتمعات وتسهم فى تحقيق التمايز الحضارى والقومى والاجتماعى للشعوب العربية والافريقية . ولا شك أن هناك سلبيات ومعوقات عديدة لا تزال تعترض المسيرة الموضوعية للعلاقات العربية - الافريقية ، وخصوصا فى ظل المحاولات التى تبذلها الدوائر الاستعمارية لتشويه جوهر هذه العلاقات ، ومحاولة افراغها من محتواها الحقيقى ، واطهارها فى ثوب استغلالى لا تجنى منه الشعوب العربية والافريقية الا اشكالا جديدة من التخلف والتبعية وانعدام الثقة المتبادلة . ولكن لا شك ان ذلك يلقى تبعات جديدة على المثقفين وقادة الفكر العرب والافريقيين ، تتمثل فى ضرورة العمل على اقتحام هذا المجال بالدراسة العلمية والجهود المخلص الدؤوب من أجل اكتشاف نقاط الالتقاء المشتركة ، والعمل على تعميقها ورصد المعوقات الفعلية والرواسب ومعالجتها من خلال الفهم الموضوعى الذى ينطلق من الاعتراف بالاختلافات القائمة فى داخل كل من العالمين العربى والافريقى والاعتراف بوجود بعض الرواسب المعادية التى تركتها الدعاية الصهيونية والاستعمارية خلال سنوات عديدة مضت . وهنا تبرز أهمية العمل الثقافى والاعلامى لازالة الاثار السلبية التى روجها الاعلام الصهيونى لفترة طويلة فى افريقيا ، فضلا عن مسئولية كل من الاعلام العربى والافريقى فى تقديم الواقع الوطنى بكل متناقضاته وصراعاته وتعتيداته وخلفياته الحضارية والسياسية الى الشعوب العربية والافريقية .

٣ — التنسيق بين حركات التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا وناميبيا وذلك لتبادل الخبرات النضالية وخصوصا ما يتعلق بمناهضة الصور المختلفة للتمييز العنصرى التى تمارسها حكومة جنوب افريقيا ضد الافريقيين الملونين فى جنوب افريقيا وناميبيا وايضا مقاومة الشعب الفلسطينى لكافة اشكال الارهاب العنصرى والسياسى الذى يمارسه الحكم العسكرى الاسرائيلى ضد مختلف فئات الشعب الفلسطينى فى الاراضى المحتلة . وذلك مع الحرص على تدعيم اساليب الاتصال الشخصى المباشر بين قادة حركات التحرر الوطنى الفلسطينى والافريقى وتنظيم تبادل الوثائق والمطبوعات وعقد الندوات والمؤتمرات النوعية التى تضم فصائل المناضلين والمناضلات فى المجالات الثقافية والاعلامية والعمل الجماهيرى . مع العمل على تشجيع الكتاب والمفكرين العرب والافريقيين للاقتراب من جبهات النضال

المدنى والسياسى للجماهير الفلسطينية والافريقية واجراء بحوث ميدانية يمكن الاستناد اليها فى صنع القرارات الخاصة بتعزيز العلاقات النضالية بين شعبى فلسطين وجنوب افريقيا .

وتبرز قضية تحرير المرأة العربية فى فلسطين المحتلة والمرأة الافريقية فى جنوب افريقيا وناميبيا كجزء لا يتجزأ من قضية التحرر الوطنى والاجتماعى الذى تتحمل تبعاته التنظيمات الثورية برجالها ونسائها فى كلا البلدين ولكن علينا أن ندرك أن انجاز المهام الأساسية لحركة التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا والتي تتمثل فى تحقيق التحرير الكامل لشعبى جنوب افريقيا وناميبيا من الحكم العنصرى الأبيض وضمان تحقيق المساواة بين كافة القوى التى يتكون منها هذا الشعب علاوة على استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وعودته الى أرضه وتشكيل دولته الديمقراطية على كامل ترابه الوطنى كل هذه الأهداف الرئيسية لم تتحقق بعد ولذلك فإن النضال من أجل تحرير النساء فى فلسطين وجنوب افريقيا لن يحقق أهدافه كاملة خلال المرحلة الراهنة من النضال بل قد يستغرق عدة أجيال بعد انجاز أهداف التحرر الوطنى فى كل البلدين .

فالواقع أن تحرير النساء الافريقيات والعربيات وتحقيق المساواة الفعلية بينهن وبين الرجال يحتاج الى ثورة اجتماعية شاملة تقتلع جذور المهانة والتحقير التاريخية نحو المرأة التى تمتد مئات بل آلاف السنين وتترسب فى عقول ومواقف الأفراد والطبقات وتنعكس على سلوكياتهم اليومية وتحدد نسق القيم الاجتماعى بل وتؤثر بصورة غير مباشرة فى خريطة المصالح الاقتصادية ومتفعل فى الاطار الثقافى والحضارى للمجتمع . ولا يمكن انجاز هذه الثورة بالقوة او بالوعظ او من خلال الاعتقاد الخاطىء بأن نجاح الثورة الوطنية قد يؤدى بالتالى الى تحرير النساء فلا شك أن هناك تداخلا لا يمكن تجاهله بين أهداف كافة الثورات الوطنية والاجتماعية ولكن علينا أن ندرك جيدا أن لكل ثورة قوانينها ومعطياتها وأهدافها الخاصة بها وإذا كانت ثورات التحرر الوطنى فى كل من فلسطين وجنوب افريقيا سوف تسهم بصورة فعالة فى دفع قضية المرأة العربية والافريقية عدة خطوات الى الامام وانجاز بعض الأهداف العامة التى تشكل جزءا هاما من قضية تحرير النساء ولكن يبقى الجزء الرئيسى من هذه القضية فى حاجة الى جهد جماعى تبذله النساء

هو الرجال معا لانجازه فى مراحل تاريخية تالية . اذ لابد من القيام بجهد شاق ودؤوب تشارك فيه جميع القوى الاجتماعية ويشمل مختلف المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتشريعية وذلك حتى يؤمن الجميع بأهمية بل وضرورة هذا التغيير فى شكل ومضمون العلاقات السائدة بين النساء والرجال فى المرحلة الراهنة . ومن الواضح أن هذا الهدف لن يتحقق نورا أو بالنوايا الحسنة أو الكتابات المتفائلة بل يستلزم إعادة بناء جذرية للقيم وأنماط السلوك السائدة فى المجتمع وداخل الأسرة العربية والأفريقية . بالإضافة الى ضرورة تحمل الدولة لمسئولياتها فى تربية الأطفال وتوفر التربية السياسية والاجتماعية للرجال والنساء من أجل ضمان مشاركة الرجال فى الأعمال المنزلية وتحرير النساء من عبودية هذه الأعمال واشراكهن بصورة فعالة فى النشاط الانتاجى والسياسى ومن أجل تغيير النظرة الدونية للمرأة والايمان بها ككائن مبدع وقادر على الخلق والتغيير (٣١) .

(٣١) انظر : د. عواطف عبد الرحمن : صورة افريقيا فى الصحافة العربية — بحث مقدم الى ندوة العرب وافريقيا — الاردن ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٥٤٤ — ٥٤٦ .

oboiikan.com

الحوار العربى - الافريقى

من أين ٠٠٠ والى أين ؟

د. حسن نافعة

١ - مفهوم الحوار العربى - الافريقى واطرافه

شاع لفظ الحوار مؤخرا فى الأدبيات السياسية . فكثيرا ما نتحدث عن « الحوار بين الشمال والجنوب » و « الحوار العربى - الأوروبى » و « الحوار العربى - الافريقى » . غير أن الجمال اللغوى الذى ينطوى عليه لفظ الحوار لا ينبغى أن يصرف نظرنا عن عدم دقته بالنظر الى خصوصية العلاقات العربية - الافريقية .

فالحوار قد ينطوى على معنى الانتقال أو الرغبة فى الانتقال من حالة « الصراع » الى حالة « التعاون » أو من حالة « القطيعة » الى حالة (الاتصال) وإذا كان هذا يصدق بدرجة أو بأخرى على « الحوار العربى - الأوروبى » أو « الحوار بين الشمال والجنوب » فإنه لا يصدق على « الحوار العربى - الافريقى » ، لأن العرب والأفارقة لم يكونوا فى حالة صراع أو قطيعة .

كذلك يفترض الحوار وجود طرفين مختلفين فى المصالح والمآرب ومحددتين على نحو واضح أو قاطع . وقد يصدق هذا على طرفى الحوار العربى - الأوروبى أو الشمالى - الجنوبى ، ولكنه لا يصدق على طرفى الحوار العربى - الافريقى ، لأن التمييز بين العرب والأفارقة ليس واضحا أو قاطعا الى هذا الحد ، فالشطر الأعظم من العالم العربى أفريقى بالجغرافيا والانتماء أيضا .

يضاف الى ذلك أننا حين نتحدث عن حوار فإنه يسهل فى العادة أن نحصل على نقطة البداية التى شكلت تحولا فى العلاقة سمح بإجراء

الحوار . وقد تكون هذه النقطة واضحة فيما يتعلق بالحوار بين الشمال والجنوب أو بين العرب وأوروبا ولكنها ليست بهذا القدر من الوضوح فى الحوار العربى — الافريقى . ذلك أنه يستحيل أن نؤرخ للحوار العربى — الافريقى بقرار مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية خلال دورته الثامنة غير العادية بتشكيل لجنة سباعية مهمتها تعزيز التعاون بين منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية أو بقرار القمة العربى السابع بالرباط عام ١٩٧٤ بالموافقة على عقد مؤتمر قمة للدول العربية والافريقية ، ذلك أن هذه القرارات لم تكن بداية الحوار العربى — الافريقى ولكنها كانت بداية مرحلة بناء المؤسسات فى العلاقات العربية — الافريقية .

والواقع أن العلاقات العربية — الافريقية ، صراعية كانت أم تعاونية هى علاقات قديمة تضرب بجذورها أعماق التاريخ ، وكانت هذه العلاقة تتم بشكل طبيعى من خلال المعطيات الجغرافية والبشرية التى توجه حركتها ودون تدخل طرف ثالث ، الى أن تمكن الاستعمار الغربى من القارة ، وقد حال هذا الاستعمار بين هذه التفاعلات العربية الافريقية ، واصطنع الحواجز والسدود بين أفريقيا العربية أو البيضاء التى تقع شمال الصحراء وأفريقيا الزنجية أو السوداء التى تقع جنوب الصحراء . لكن عاد الاتصال العربى — الافريقى مرة أخرى فى اطار النضال المشترك ضد الاستعمار الغربى وتطور عبر مراحل مختلفة كمحصلة لتفاعل عوامل محلية واقليمية ودولية الى أن دخل مرحلته المؤسسية التى وصلت ذروتها بانعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى الاول بالقاهرة فى ٧ مارس عام ١٩٧٧ .

نخلص من هذا الى أن للعلاقات العربية — الافريقية خصوصيتها التى لا بد أن تنعكس على طبيعة ومضمون واهداف الحوار العربى — الافريقى على نحو يميزه بشكل حاسم عن الحوارات الأخرى الدائرة على الساحة الدولية بين كافة النظم الفرعية . لكن هذه الحقيقة لا تعنى بالضرورة أن اهداف الحوار العربى — الأفريقى وأسس ومضامينه واضحة أو أنها تدرك بطريقة موحدة من جانب أطرافه . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الحوار بين الأشقاء أحيانا قد يكون أكثر صعوبة بسبب ما يكتنفه من حساسيات عديدة وردود فعل لا عقلانية .

وربما يكون من المفيد أن نحدد منذ الآن بعض السمات المتعلقة بطرفي الحوار العربى — الافريقى .

١ — تعدد أطراف الحوار ، حيث شارك فى مؤتمر القمة العربى — الافريقى (١٩٧٧) ستون دولة لكل منها سياستها الخارجية المستقلة التى يحددها أدراك النخبة الحاكمة فى كل منها لمصالحها القومية أو الذاتية . وعادة ما يكون من الصعب الاتفاق على أرضية مشتركة واضحة المعالم بين هذا العدد الهائل من الدول .

٢ — جميع هذه الدول تنتمى الى العالم الثالث بكل ما يميزها من خصائص أهمها عدم الاستقرار الداخلى وتشوه الهياكل والبنى الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسهولة اختراقها من الخارج . وهذا يضاعف من احتمالات التذبذب وصعوبة الحفاظ على مسار موحد للحوار أو ضمان تطويره بشكل منظم . ولذا فإن احتمالات الانتكاسات قائمة ومطروحة باستمرار .

٣ — يترتب على ذلك صعوبة استخلاص ارادة عربية موحدة و ارادة أفريقية موحدة تسمح بحوار بين مجموعتين متماسكتين رغم وجود اطار مؤسسى لكل منهما ممثلا فى منظمة الوحدة الافريقية من ناحية وجامعة الدول العربية من ناحية أخرى . ويعكس ظهور التباين السياسى والاجتماعى والايديولوجى فى كل مجموعة ، نفسه على مسار الحوار ويؤدى الى ظهور محاور متقاطعة ومتوازية تتجاوز الاطر المؤسسية للحوار ، وتجعل الحوار يبدو كما لو كان حوارا متعدد الأطراف والمراكز وليس بين طرفين محددين الأهداف والمصالح .

٢ — معطيات الحوار العربى — الافريقى

(١) الجذور التاريخية :

لم ينشأ الحوار العربى — الافريقى من فراغ ولا جاء نتيجة لحاجة مصلحية عابرة فرضها تطور النظام الدولى ، وانما يستند الى معطيات جغرافية وحضارية وتفاعلات بشرية منذ أقدم العصور ، تجعل هذا الحوار يقف على أرضية صلبة .

ففى العصور السحيقة لم يكن المشرق العربى منفصلا عن افريقيا وانما كانت افريقيا والمشرق العربى رقعة واحدة قبل أن تؤدى المتغيرات الجيولوجية الى ظهور البحر الأحمر كحاجز مائى يفصل بين حدود آسيا وافريقيا . ولم يقف البحر حائلا دون اتصال المشرق العربى بافريقيا ، وانما كان هذا الاتصال ميسورا عبر باب المندب وشبه جزيرة سيناء . وشهد المجتمع العربى الجاهلى هجرة عدد من القبائل الافريقية التى استقرت فيه قبل الاسلام كما شهدت افريقيا هجرات عربية وخصوصا الى السواحل الشرقية والشمالية مما أدى الى تداخل عرقى ولغوى قبل ظهور الاسلام (١) .

وقد أدى ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، وانطلاقه منها الى أرجاء العالم ، الى ترتيب نتائج بعيدة المدى وعميقة الأثر على مسيرة العلاقات العربية — الافريقية :

— فقد تم تعريب الجزء الشمالى من القارة الافريقية ، حيث لم تكتف شعوب هذه المنطقة بالدخول فى الاسلام دينا وانما تبنت ايضا لغة القرآن ونسيت تدريجيا ما عداها من اللغات واللهجات السابقة ، وهكذا أصبحت شمال افريقيا جزء لا يتجزأ من الوطن العربى ولعبت دور المحور المفضل فيما سقى بعد ذلك بالحوار العربى — الافريقى .

— تكونت أغلبية اسلامية فى عدد من الدول الواقعة شرق ووسط وغرب افريقيا وأقليات اسلامية فى دول افريقية أخرى .

— ظهور جاليات عربية قوية فى عدد من الدول سواء فى شرق افريقيا أو غربها وهى جاليات استقرت فى مر اهل تاريخية مختلفة .

وقد انعكس ذلك كله فى تفاعل حضارى وتداخل اثنى واتصال تجارى بين العرب والأمازقة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل . وتأثرت العديد من اللغات الافريقية واللهجات المحلية باللغة العربية تأثرا عميقا .

(١) يوسف فضل حسن ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، ندوة العرب وافريقيا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص ٢٧ — ٢٨ .

وإذا كان من الطبيعي أن يشكل هذا التفاعل التاريخي جذورا متينة للعلاقات العربية الافريقية فى العصر الحديث ويفتح آفاقا هائلة لتطوير هذه العلاقات ، إلا أنه ليس من الضروري أن تكون كافة هذه المعطيات التاريخية ذات تأثيرات ايجابية على مسار الحوار العربى — الافريقى فقد مارس العرب تجارة الرقيق فى افريقيا . واستفلت هذه الحقيقة التاريخية لتثويهِ صورة العرب لدى الافريقيين فى العصر الحديث (٢) ، كما ارتبطت بعض الجاليات العربية ، وخصوصا تلك الجاليات التى استقرت خلال الحقبة الاستعمارية فى غرب افريقيا ، بالاستعمار الغربى وحصلت على امتيازات اقتصادية مما جعل منها قوى معرقله للتغيير فى مرحلة ما بعد الاستعمار (٣) .

وقد يكون من المفيد هنا أيضا أن نذكر أن وجود الجاليات الاسلامية فى بعض الدول الافريقية ، سواء شكلت أغلبية أم اقلية ، أثار ويثير بعض الحساسيات فى العلاقات العربية — الافريقية خصوصا مع تصاعد موجة المد الدينى وولد مخاوف افريقية من الاستخدام السياسى للاسلام .

وتجدر الاشارة هنا الى أن الاستعمار الغربى للقارة الافريقية قد حال دون استمرار التفاعلات العربية — الافريقية حتى على صعيد الاتصال الدينى والثقافى . ولم يعد فى مقدور مسلمى غرب افريقيا مثلا أن ينهلوا من مراكز العلم فى المغرب أو أن يزوروا الأماكن المقدسة أو الحجاز فى يسر . وحاصر الاستعمار النشاط الإسلامى فى افريقيا من خلال بعثات تبشيرية مكثفة ، وشجع استعمال الاعراف المحلية بدلا من الشريعة ، كما حاصر انتشار اللغة العربية وضيق نطاق استخدامها وروج لمفهوم « الاسلام الاسود » أى الاسلام على الطريقة الافريقية وهو مزيج من التراث الإسلامى والتقاليد الافريقية ، واستغل الى أقصى حد ممكن تجارة الرقيق عند العرب .

(٢) المصدر نفسه ، وانظر على وجه الخصوص ما أثير فى اطار مناقشة هذا البحث من تعليقات حول موضوع الرقيق ص ٥٤ — ٦٦ .

(٣) انظر : أحمد عيضة سالم : الجاليات العربية فى افريقيا ، ندوة العرب و افريقيا ، ص ١٤٧ وما بعدها .

وباختصار اقام الاستعمار كل الحواجز الممكنة بين ما أسماه «أفريقيا العربية» و«أفريقيا السوداء» (٤) .

(ب) التضال المشترك ضد الاستعمار ::

خضع كل من أفريقيا والمشرق العربى للاستعمار الغربى . وكان من الطبيعى أن تظهر حركات وطنية تقاوم الاستعمار وتنشد الاستقلال والتحرر من التبعية . لكن هذه الحركات كانت محصورة ومحاصرة داخل الحدود والحواجز السياسية التى اصطنع الاستعمار معظمها . ومن الثابت أنه لم تنشأ صلات وروابط عضوية بين حركات التحرر فى كل من الوطن العربى وأفريقيا طوال عصور طويلة . ويرجع الفضل فى مد الجسور بين حركات التحرر العربية والأفريقية الى الثورة المصرية التى قادها عبد الناصر عام ١٩٥٢ كما سنوضح فيما بعد . وفى آتون معارك التحرر ضد الاستعمار نمت لدى الشعوب الأفريقية والعربية وعى مشترك بوحدة المصير وزادت التفاعلات العربية كثافة وعمقا على المستويين الرسمى والشعبى .

وإذا كان معظم البلدان العربية والأفريقية قد حصلت على استقلالها فقد بقيت مشكلتان من بقايا الحقبة الاستعمارية هما : إسرائيل وجنوب أفريقيا . وتمثل الأولى مشكلة تحظى باهتمام رئيسى فى السياسات الأفريقية . وقد ساعدت أوجه التماثل بين القضيتين سواء من حيث طبيعتهما كأستعمار استيطانى أو من حيث الوظائف والأدوار التى يقوم بها فى خدمة الاستعمار الغربى ، كما ساعد الكشف عن صلاتهما الوثيقة على نمو الوعى لدى كل من العرب والأمارقة بخطورة كل منهما على أمنهما المشترك . وهكذا أصبحت جنوب أفريقيا قضية عربية بقدر ما أصبحت إسرائيل قضية أفريقية (٥) .

(4) J. F. Ade Ajayi : The Impact of colonialism on Afro-Arab Relations in west Africa.

ورقة مقدمة الى الندوة التى نظمها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم عن « العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الأفريقية » .
وانظر أيضا عز الدين عمر موسى : الاسلام وأفريقيا فى ندوة العرب وأفريقيا .

(٥) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : مجدى حماد ، النظام السياسى الاستيطانى : إسرائيل وجنوب أفريقيا ، بيروت ، دار الوحدة ١٩٨١ .

يضاف الى ذلك كله ويرتبط به أن افريقيا والعالم العربى قد أصبحت منذ الحرب العالمية الثانية من أهم مناطق الصراع على النفوذ فى العالم بين قطبى النظام الدولى . وقد فرضت هذه الحقيقة على كل من الدول العربية والافريقية تعاونا مشتركا لدعم سياسة عدم الانحياز ومقاومة الأحلاف العسكرية ورفض سياسة الهيمنة أو فرض النفوذ .

وإذا كان من شأن هذه المعطيات السياسية أن تسهم ، نظريا على الأقل ، فى إيجاد أرضية مشتركة للتعاون السياسى والاستراتيجى بين المجموعتين العربية والافريقية ، إلا أنه من المهم ملاحظة أنه لا يوجد ادراك عربى موحد أو ادراك افريقى موحد لهذه القضايا . وعلى سبيل المثال فالسياسات العربية نفسها تجاه اسرائيل تختلف والقول نفسه يصدق على موقف الدول الافريقية من جنوب افريقيا . كما أن ادراك هذه الدول جميعا لحقيقة أهداف القوتين العظميين يختلف هو الآخر .

(ج) دور مشترك مطلوب للإسهام فى صياغة نظام اقتصادى عالمى جديد :

لم تكن أهمية البعد الاقتصادى للعلاقات العربية — الافريقية واضحة فى المراحل الأولى لتطور هذه العلاقات . وكان ذلك يرجع الى أسباب عديدة منها تشابه أو تقارب البنى والهيكل الاقتصادى وأنماط الانتاج . . الخ مما ولد انطبعا اوليا بأن اقتصاديات هذه الدول هى اقتصاديات تنافسية وليست تكاملية فى الأساس . وكانت العلاقات الاقتصادية الافقية لا تمثل إلا جانباً ضئيلاً جداً من حجم النشاط الاقتصادى بهذه الدول بالمقارنة بحجم النشاط مع العالم الخارجى وخصوصاً مع الدول المسيطرة على هيكل النظام الرأسمالى .

لكن هذا لم يمنع أن تصبح المعونة واحدة من أهم أدوات السياسة الخارجية للدول العربية ، وخصوصاً تلك التى اكتشفت مبكراً أهمية العمق الافريقى للامن القومى العربى وبالذات مصر . وقد اقتصررت هذه المعونة فى مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال على الدعم العسكرى والمادى لحركات التحرر الافريقية . وبعد حصول معظم الدول الافريقية على استقلالها بدأت أشكال أخرى من المعونات تتدفق فى شكل خبراء وبعثات فنية أو منح دراسية . . . الخ . وكانت هذه المعونات تتم لأغراض سياسية أساساً

من بينها محاربة التفلغل الصهيونى فى القارة الافريقية او التصدى قدر الامكان لبعض محاولات الابتزاز التى تتعرض لها الدول الافريقية من جانب القوى الكبرى .

وعندما قطعت بعض الدول العربية شوطا معقولا فى عملية التصنيع بدأ يتضح أهمية السوق الافريقية لتصريف المنتجات الصناعية . وبالتالى بدأ بعد جديد يظهر كأحد الأبعاد الهامة فى الحوار العربى — الافريقى . لكن البعد الاقتصادى للحوار العربى — الافريقى بدأ ينتقل نقلة كيفية مع بداية الوعى بحقائق النظام الاقتصادى المسيطر التى تقتضى نضالا مشتركا لتعديل شروط التبادل التجارى الدولى وشروط نقل التكنولوجيا واستراتيجيات الشركات متعددة الجنسية ونظام النقد الدولى ... الخ . وحول هذه القضايا شكلت مطالب العالم الثالث نسقا فكريا متكاملًا يهدف الى اقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وفى هذا الاطار برزت أهمية تنسيق مواقف الدول العربية والافريقية فى المنظمات الدولية .

لكن هذه المطالب المشتركة بقيت كدقات الطبل الأجوف الى أن اطلت أزمة الطاقة براسها وتمكنت الدول المنتجة للنفط على اثرها من زيادة الاسعار وتكوين فوائض مالية ضخمة . ولأول مرة تبرز مجموعة من دول العالم الثالث كقوة مؤثرة وتلوح امكانية استخدام هذه القوة لاجبار الدول المتقدمة على تعديل موقفها من قضية النظام الاقتصادى العالمى الجديد . وفى الوقت نفسه برزت على السطح أهمية استقلال هذه المتغيرات الجديدة لدفع الحوار العربى — الافريقى من خلال :

١ — توجيه قدر كبير من الفوائض المالية العربية تجاه افريقيا لخدمة المصالح والأهداف السياسية والاستراتيجية لكل من العرب وافريقيا .

٢ — اعادة النظر فى خطط التنمية على مستوى المجموعتين العربية والافريقية فى اتجاه فك الروابط مع العالم الرأسمالى وتهيئة الأوضاع لتنمية معتمدة على الذات .

٣ — تنمية التفاعلات الأفقية بين اقتصاديات دول المجموعتين والبدء فى مسيرة تكاملية تعطى للأبعاد السياسية للحوار قاعدة مادية تكفل تماسك الحوار على نحو يصعب فصله بعد ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن الحوار العربى — الافريقى وصل ذروته فى هذه المرحلة . . وبدأت عملية بناء مؤسساته . لكن ذلك لا يعنى أن هذه الفرصة التاريخية قد تم اغتنامها على الوجه الأكمل كما سنوضح فيما بعد .

نخلص من هذا الاستعراض الى أن كافة المعطيات للعلاقات العربية — الافريقية تعطى مساحة واسعة لعمل عربى — افريقى مشترك ، فالمعطيات الجغرافية تؤكد حقيقة أن « البلاد العربية الاسيوية والبلاد الافريقية تشكلان فى واقع الأمر كتلة استراتيجية واحدة » (٦) والمعطيات السياسية تشير الى أن مصادر تهديد الأمن القومى لكل من المجموعتين تكاد تكون واحدة والمعطيات الاقتصادية تؤكد وجود مصلحة مشتركة على مستويات عديدة .

لكن يبقى أن استغلال هذه المساحة الموضوعية لبناء عمل عربى — افريقى مشترك وجاد يتوقف على عوامل كثيرة تتعلق بطبيعة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كل من الدول العربية والافريقية كما تتعلق بالأوضاع الدولية أيضا .

٣ — تطور مسار الحوار العربى — الافريقى

سبق أن أشرنا الى أن التفاعلات العربية — الافريقية — تمتد الى ما قبل عصر الفتوحات الاسلامية . ثم أضاف الفتح الاسلامى لمناطق عديدة من القارة الافريقية أبعادا جديدة لهذه التفاعلات . غير أن التغلغل الاستعمارى فى افريقيا وضع حواجز متعددة بين « افريقيا السوداء » و « افريقيا البيضاء » مما أوقف أو كاد حركة التفاعلات العربية — الافريقية ولم تنشأ ، فى اطار النضال ضد الاستعمار ، روابط أو صلات أو عمليات تنسيق بين حركات التحرر العربى وحركات التحرر الافريقية فى المراحل الأولى لظهور هذه الحركات . بالاضافة الى أنه « لم يكن لدعوة العرب للوحدة العربية أو الجماعة الاسلامية أى صدى فى غرب افريقيا أو شرقها .

(٦) أمين هويدى : العرب وافريقيا وقضايا الأمن المشترك ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٥٨٣ .

(م ٣٦ — العرب فى افريقيا)

ويبدو أنه لم يبق للمسلمين الأفارقة أى تصور للوشائج « العربية — الأفريقية » أو « الأفريقية — الإسلامية » وانهم (الأفارقة) تأثروا بما نادى به الأوروبيون من أن أفريقيا السوداء وأفريقيا العربية كانتا ومازالتا تمثلان عالمين منفصلين « (٧) .

لذلك فعندما نشأت حركة البان أفريكانزم Pan - Africanism أو الجامعة الأفريقية أو « الوحدة الأفريقية » بقيت هذه الحركة بأجنحتها وتصوراتها المختلفة حركة خاصة بأفريقيا السوداء . وحتى « نكروما » عندما بدأ فى مناقشة فكرة انشاء « اتحاد الجمهوريات الأفريقية الاشتراكية » مع بعض أصدقائه فى لندن عام ١٩٤٦ لم يشرك معه تنظيمات أو قيادات من الشمال الأفريقى ، رغم أن الحركة الوطنية فى هذه المنطقة كانت متقدمة عنها فى جميع مناطق أفريقيا الأخرى (٨) . أما من ناحية الدول العربية فيبدو أنه لم تبذل أى محاولة جادة من جانب حركة التحرر العربى لبناء جسور مع حركات التحرر فى أفريقيا أو تهتم بحركة الجامعة الأفريقية . وحتى مصر فقد بقى اهتمامها محصورا حتى عام ١٩٥٢ فى السودان كأحد « شطرى وادى النيل » . وفى أحسن الأحوال لم تكن اهتمامات مصر الفعلية تتجاوز حوض وادى النيل .

فى هذا الإطار يأتى اهتمام عبد الناصر بأفريقيا منذ سنوات الثورة الأولى بمثابة طرفة أو حتى ثورة فى العلاقات العربية — الأفريقية . وكان هذا الاهتمام بداية الطريق المستمر والمتصل للحوار العربى — الأفريقى .

وفى اعتقادنا أن مسيرة هذا الحوار قد مرت بمرحلتين متميزتين سواء من حيث المضمون الفكرى أو السلوك السياسى : مرحلة ما قبل الحقبة النفطية والتي تمتد منذ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٤ ، وهى مرحلة تميزت بوجود ملامح لمشروع قومى عربى تقوده مصر . وقد مثلت أفريقيا فى إطار هذا المشروع مجالا حيويا للعمل العربى هدف الى ربط المصير الأفريقى عضويا بالمصير العربى . وقد استثمرت قوة دفع هذا المشروع بعض

(٧) يوسف فضل حسن ، مرجع سابق ، ص ٤٤—٤٥ .

(٨) محمد نائق : عبد الناصر والثورة الأفريقية ، دار المستقبل العربى ، للقااهرة ١٩٨٢ ، ص ١٧ — ١٨ .

الشيء حتى بعد رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ . أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحقبة النفطية التي انحصر خلالها الدور المصرى وآلت فيه قيادة العمل العربى للدول النفطية أساسا وتميزت بغياب المشروع العربى ، وفيها اتخذ الحوار العربى — الافريقى مسارا آخر من حيث المضمون الفكرى والممارسات السياسية .

أولا — مرحلة ما قبل الحقبة النفطية

حدد عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » مجال حركة السياسة الخارجية المصرية من خلال دوائر ثلاثة متشابكة ومتراصة : الدائرة الأولى وهى الدائرة العربية والدائرة الثانية وهى الدائرة الافريقية والدائرة الثالثة وهى الدائرة الاسلامية . وأوضح عبد الناصر فهمه للدائرة الافريقية على النحو التالى :

« اننا لن نستطيع بحال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقين . لا نستطيع لسبب هام وبديهي وهو اننا فى افريقيا . ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين: نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله » (٩) .

وبالمقارنة بمرحلة القطعية فى العلاقات العربية — الافريقية السابقة على قيام ثورة يوليو ، بدأت مسيرة الحوار العربى — الافريقى بعد الثورة المصرية فى اطار سياق خاص لم ينشأ نتيجة التقاء طبيعى بين ارادتين أحدهما عربية والاخرى افريقية وانما نتيجة وعى مبكر بدور مصرى — عربى هدف الى اعداد المسرح الافريقى وتهيئته للالتحام بالامة العربية . ومن هذه الرؤية الناصرية تبلورت أهداف الامة العربية وحركتها فى اتجاه افريقيا على النحو التالى :

تصفية الاستعمار على مستوى القارة ، بناء نظام اقليمى يتجاوز اطار الزنجية وتلعب فيه الدول الافرو عربية دورا فاعلا ، ومقاومة التغفل الاسرائيلى فى القارة الافريقية .

(٩) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، وزارة الاعلام (هيئة الاستعلامات) ، د . ت ، ص ٨١ — ٨٢ .

تصفية الاستعمار :

من منطلق أن حماية الاستقلال المصرى تتطلب سياسة نشطة للقضاء على الاستعمار فى المناطق التى يرتبط بها الأمن القومى ارتباطا عضويا تبنت مصر سياسة نشطة لدعم حركات التحرر فى كافة الدول العربية والافريقية وفى هذا الإطار قدمت مصر دعما مهما لكافة حركات التحرر فى افريقيا . ولم يقتصر هذا الدعم على التأييد السياسى فى المحافل الدولية وإنما اتخذ الى جانب ذلك صورا متعددة أهمها تقديم الدعم العسكرى لحركات التحرر التى انتهجت خط الكفاح المسلح وخصوصا فى روديسيا وأنجولا وموزمبيق وجنوب افريقيا وتدريب أعداد كبيرة من المناضلين الأفارقة فى المعاهد العسكرية للقوات المصرية المسلحة . كما قامت بفتح العديد من المكاتب السياسية لحركات التحرر الافريقى فى القارة ووجهت اذاعات بمعظم اللغات واللهجات الافريقية الى مختلف أنحاء القارة (١٠) .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن سياسة مصر لم تكن قائمة على محاولة شراء العملاء أو الارتباط بفصيل دون آخر ، فكثيرا ما ساعدت أكثر من حركة تحرر فى دولة واحدة وحاولت أن تستخدم رصيدها السياسى مع الجميع لتوحيد هذه الحركات وزيادة فعاليتها ، وشملت مساعداتها حركات تحرر ذات توجه ليبرالى وأخرى ذات توجه ماركسى . وهكذا .

ولهذا تجمعت بالفعل خيوط الثورة الافريقية فى القاهرة التى أصبحت السند الأول والقاعدة الأساسية لهذه الثورة .

وأخيرا يجب أن نشير الى نقطة هامة كثيرا ما يتم التغافل عنها أو تجاهلها وهى أن الدعم المصرى (العربى) لحركات التحرر الافريقية لم يكن دعما فى اتجاه واحد وإنما سرعان ما تحول الى تلاحم نضالى حقيقى ودعم متبادل . فسرعان ما أصبحت معركة تحرير الجزائر معركة افريقية ونشير هنا بالذات الى قرار مؤتمر الدول المستقلة الذى انعقد فى اكرام عام ١٩٥٨ بالاعتراف بجهة التحرير الجزائرية كممثل شرعى للجزائر . كما عقد وزراء خارجية الدول المستقلة فى مونتروfia عام ١٩٥٩ ، وبناء على طلب حكومة

(١٠) فائق ، عبد الناصر والثورة الافريقية ، ص ٤٤ .

الجزائر المؤقتة ، لبحث المزيد من الدعم السياسى والمادى للثورة الجزائرية، وفيه تقرر قبول حكومة الجزائر المؤقتة كعضو كامل العضوية فى مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة والاجتماعات المنبثقة عنها . وفى المؤتمر الثانى للشعوب الافريقية الذى انعقد فى تونس فى بداية عام ١٩٦٠ صدرت توصية بتكوين فرقة من المتطوعين الافارقة للمشاركة فى حرب التحرير الجزائرية وهكذا . وفى الاطار نفسه ينبغى ان نشير الى بداية تحول الموقف الافريقى من قضية الصراع العربى — الاسرائيلى بعد عدوان ١٩٦٧ كما سنوضح فيما بعد .

بناء الاطار المؤسسى لنظام افريقى على مستوى القارة :

ترتب على مساعدة مصر لحركات التحرر الافريقية مد جسور متينة للعلاقات العربية الافريقية وخصوصا بعد أن برر دور مصر كزعيمة للعالم انعربى . وكانت حركة الوحدة الافريقية قد بدأت تدخل مرحلة جديدة بعد استقلال عدد من بلدان القارة ووصول عدد من زعماء حركة الوحدة الافريقية الى السلطة فى هذه البلدان .

وكان يمكن لحركة الوحدة الافريقية أن تستمر متوقعة فى اطارها الزنجى ذى الأساس العنصرى وأن تبقى الحواجز قائمة الى الأبد بين افريقيا السوداء والبيضاء . لكن الجسور التى أقامتها مصر العربية مع حركات التحرر ساعدت على تخلص حركة الوحدة الافريقية من عقدة الزنجية واتجهت نحو بناء نظام تضامنى على مستوى القارة . وكان من اللافت للنظر أن يشارك فى أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة ، الذى دعى اليه نكروما لبحث قضية الوحدة الافريقية ، خمس دول عربية هى مصر وليبيا والسودان والمغرب وتونس الى جانب ثلاث دول افريقية هى غانا وأثيوبيا وليبيريا .

ونظرا لأن الظروف التى حصلت فيها الدول الافريقية على استقلالها لم تكن واحدة ، حيث انتزعت بعض هذه الدول استقلالها الحقيقى بعد معارك سياسية أو عسكرية عنيفة بينما حصل بعضها على استقلاله الشكلى على اطار ترتيبات محددة فرضت نوعا من التبعية لدول المتروبول ، فسرعان ما انقسمت الدول الافريقية المستقلة الى فريقين تكتلا فى مجموعتين متنافرتين مجموعة دول برازافيل وهو تكتل يضم بعض الدول الناطقة بالفرنسية ويرتبط

ارتباطا وثيقا بالسياسة الفرنسية ، ومجموعة دول « الدار البيضاء » التى تبنت خطا تحرريا ثوريا يطالب بتصفية الاستعمار نهائيا فى القارة ويعتمد مفهوم عدم الانحياز كأسس لسياسته الخارجية . ولأن هذا التجمع الأخير لم يكن تجمعا لغويا لأنه ضم دولا ناطقة بالفرنسية وأخرى ناطقة بالانجليزية ودولا عربية ، فضلا عن شعبية التيار الثورى فى القارة فى ذلك الوقت فقد اعتبر هذا التجمع نفسه النواة الحقيقية لحركة الوحدة الافريقية . لكن سرعان ما أدت حركة التحالفات داخل القارة الى ظهور كتل آخر عرف باسم « مجموعة مورتوفيا » .

وبدون الدخول فى تفاصيل الدور المصرى فى اقامة منظمة الوحدة الافريقية يمكن القول دون تجاوز أن مصر لعبت دورا أساسيا للتقريب بين وجهات نظر الدول الافريقية المحافظة منها والثورية للتوصل الى اطار للوحدة الافريقية يحافظ على الشكل الوجودى على مستوى القارة دون أن يفرغ حركة الوحدة من مضمونها الثورى والتحررى . ولذلك نجح مؤتمر أديس أبابا على تأسيس منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ حيث أكدت المنظمة أصرارها على تصفية الاستعمار وشكلت لجنة لتحرير أفريقيا أطلق عليها « لجنة التنسيق » تكونت من تسع دول من بينها مصر وضمت معظم الدول الثورية فى القارة ، كما تبنت المنظمة رسميا سياسة عدم الانحياز .

وهكذا كالت جهود مصر ، والتى لحقت بها جهود دول عربية أخرى على رأسها الجزائر ، بالنجاح فى ربط النضال العربى بالنضال الافريقى وأصبحت جميع الدول العربية الافريقية تدريجيا جزءا أساسيا وفاعلا فى النظام الافريقى ، ولعبت هذه الدول دور المحور المفضل الذى يربط بين النظامين العربى والافريقى . ثم بدأت تدريجيا تظهر أطرا مؤسسية للتنسيق بين منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية وخصوصا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولم يكن تحقيق هذا التلاحم بين النظامين العربى والافريقى عملية سهلة فقد استمرت حملة التشكيك فى انتماء مصر الافريقى وفى علاقة القومية العربية بالوحدة الافريقية حتى بعد قيام منظمة الوحدة الافريقية .

مقاومة التفلفل الاسرائيلى فى القارة الافريقية :

لم يكن الصراع العربى — الاسرائيلى واحدا من المحاور الرئيسية للتفاعلات العربية — الافريقية ، على الرغم من أن احدى الدول الافريقية وهى مصر كانت احدى دول المواجهة الرئيسية مع اسرائيل وتعرضت للغزو الاسرائيلى مرتين فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، على الأقل طوال الخمسينات والستينات .

ويرجع ذلك الى اسباب عديدة منها :

١ — تركيز الجهود فى البداية على مهمة تصفية الاستعمار التقليدى فى القارة . وربما أعتقد عبد الناصر أنه ليس من المفيد طرح قضايا خلافية تضعف من جبهة النضال العربى — الافريقى المشترك ضد الاستعمار التقليدى فى القارة . فضلا عن أن نجاح تصفية هذا الاستعمار من شأنه اضعاف الركيزة الاستراتيجية التى تعتمد عليها اسرائيل . وقد يكون من المفيد هنا أن نلاحظ أن مصر نفسها لم تقم بتصعيد عدائها لاسرائيل فور قيام الثورة حيث ركزت جهدها فى هذه المرحلة على قضيتى الجلاء والتنمية (١١) .

٢ — نظرا لعمق التفلفل الصهيونى فى افريقيا ، والموروث عن الحقبة الاستعمارية، آثرت مصر ألا تصبح قضية الصراع العربى — الاسرائيلى وسيلة لضرب العلاقات العربية — الافريقية فى مرحلة بناء الاطار المؤسسى للنظام الافريقى . ولذلك لم تصر مصر والدول العربية — الافريقية على ادراج قضية الصراع العربى — الاسرائيلى على جدول أعمال المؤتمرات الافريقية العديدة التى شهدتها تلك الفترة ، وخصوصا فى المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الافريقية .

وليس المجال هنا لدراسة أسباب التفلفل الاسرائيلى فى القارة

(١١) انظر فى هذه النقطة حسن نائفة : مصر والصراع العربى الاسرائيلى من الصراع المحتوم الى التسوية المستحيلة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ .

الافريقية ، فهناك دراسات عديدة تناولت هذا الموضوع (١٢) . وقد اتخذ هذا التفلغل مظاهر متعددة اهمها ، تزايد عدد البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية فى افريقيا بصورة مضطردة حتى عام ١٩٧٣ . فقد ارتفع عدد هذه البعثات من ٦ عام ١٩٦٠ الى ٣٢ فى ١٩٧٣ (١٣) . وتزايد عدد الخبراء الاسرائيليين فى كافة المجالات بشكل ملحوظ . ولكن ربما كان اخطر هذه المظاهر ابرام اسرائيل لعدد من الاتفاقيات العسكرية والأمنية مع العديد من بلدان افريقيا مع التركيز على دول حوض وادى النيل وفى الفترة من ١٩٦١ — ١٩٦٣ أبرمت اسرائيل اتفاقيات من هذا النوع مع اثيوبيا واوغندا وكنيا ورواندا وزائير وافريقيا الوسطى وتشاد (١٤) .

وكان من الطبيعى أن يتجه العرب صوب افريقيا بحثا عن التأييد السياسى لموقفهم فى الصراع العربى — الاسرائيلى ، حيث تشكل الدول الافريقية ثقلا تصويتيا كبيرا فى المنظمات الدولية .

وقد بدأ التحول فى الموقف الافريقى تجاه هذا الصراع تدريجيا وبشكل بطيء وخاصة بعد حرب ١٩٦٧ . وأسهمت عوامل كثيرة فى احداث هذا التحول منها : الرصيد السياسى لعدد من الدول العربية — الافريقية وفى مقدمتها مصر والجزائر لدى افريقيا والناجم عن مساندتها التاريخية لحركات التحرر فى القارة ، سقوط القناع الذى تخفت وراءه اسرائيل كدولة صغيرة ومسالمة محاطة ببحر من الكراهية العربية وسفروجها كدولة توسعية وعنصرية بعد حرب ١٩٦٧ وما تلاها من احداث ، تعنت اسرائيل تجاه قضية الشعب الفلسطينى ورفضها لكافة التسويات السلمية ، بروز دور منظمة

(١٢) انظر على سبيل المثال : عبد الملك عودة : النشاط الاسرائيلى فى افريقيا ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٦ .
عواطف عبد الرحمن : اسرائيل وافريقيا ٤٨ — ١٩٧٣ ، كتب فلسطينية (٥٧) ، بيروت ١٩٧٤ ، انظر على سبيل المثال المراجع التالية :
— مدثر عبد الرحيم : نظرة افريقيا للصراع العربى — الاسرائيلى ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق .

(١٣) مدثر عبد الرحيم ، المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

(١٤) حلمى الشعراوى : السياسة الاسرائيلية فى افريقيا ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٢٩ .

التحرير الفلسطينية كحركة تحرر واقامتها لجسور قوية مع عدد من حركات التحرر الافريقية ، وأخيرا بداية وعى افريقيا بحقيقة وطبيعة علاقات اسرائيل بجنوب افريقيا العنصرية .. وغيرها من العوامل .

ويبدو أنه كان لاشراك الدول الافريقية فى محاولات التسوية السلمية عام ١٩٧١ أثر هام فى أحداث هذا التحول . فقد لمست « لجنة الحكماء » الافريقية التى تشكلت بقرار من مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٧١ بناء على اقتراح كينيث كاوندرا مدى تعسف اسرائيل .

وكان لتقرير هذه اللجنة الى مؤتمر القمة الافريقى الذى انعقد بالرباط عام ١٩٧٢ أثره فى صدور قرار من المؤتمر يطالب الدول الافريقية بدعم الموقف العربى والامتناع عن تقديم أى مساعدة مادية أو معنوية لاسرائيل (١٥) .

وانتقل الموقف الافريقى تجاه اسرائيل نقله كيفية أخرى بعد أن قررت أربع دول افريقية هى غانا والكونجو وأوغنده وتشاد قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل عام ١٩٧٢ ، ثم تبعتها ٥ دول أخرى هى زائير والنيجر وبوروندى ومالى وتوجو ، وكان لحرب ١٩٧٣ تأثيرات اقليمية وعالمية هامة ساعدت على تعميق العزلة الاسرائيلية وشجعت الدول الافريقية الأخرى على اتخاذ نفس الموقف . وبحلول منتصف السبعينيات كانت جميع الدول الافريقية التى لها علاقات دبلوماسية باسرائيل قد قررت قطع هذه العلاقات ولم يشذ عن هذا الاجماع الافريقى سوى جنوب افريقيا بالطبع والدول التى ترتبط بها ارتباطا وثيقا (١٦) .

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن الموقف العربى عقب حرب ١٩٧٣ بدى صلبا ومتماسكا وخصوصا فى مواجهة اسرائيل مما أسهم اسهاما رئيسيا فى تهيئة الظروف لهذا الاجماع الافريقى . غير أنه يتعين علينا أن نضيف

(١٥) عصام محسن الجبورى ، العلاقات العربية — الافريقية ٦١ — ١٩٧١ ، وزارة الثقافة والاعلام ، سلسلة دراسات (٢٤٧) العراق ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٧ ، نقلا عن يحيى رجب : الرابطة بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ .

أيضا حقيقة على جانب كبير من الأهمية وهي أن قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل بقى شكليا لأنه لم يستتبعه قطع العلاقات الاقتصادية أو الثقافية أو العسكرية . أيضا فان هذا الموقف لم يكن يعبر عن تحول جوهري فى النظرة الإفريقية للصراع العربى — الاسرائيلى ، فقد بقى الموقف الإفريقى مستندا فى أعماقه الى قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٨ . ذلك لا يعنى التقليل من شأن خطوة قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولكننا نود أن نؤكد على أن هذه الخطوة لم تكن نهاية المطاف وإنما كانت تقتضى عملا عربيا مكثفا لكى تتلوها خطوات تهدف الى اقتلاع التأثير الصهيونى فى إفريقيا من جذوره وأحداث تحول جوهري فى رؤية إفريقيا للحركة الصهيونية وارتباطاتها الاستعمارية والعنصرية وما تمثله من خطورة على الأمن القومى الإفريقى من خلال ارتباطها بحكومة جنوب أفريقيا .

وقد لاح هذا الأمل لفترة عقب حرب أكتوبر لكنه ما لبث أن أنهار مع قنكك الوضع العربى الذى أحدث تأثيرات عكسية خلقت وضعاً مواتياً نكى تعيد أو تفكر بعض الدول الإفريقية فى إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل .

تخلص من هذا الى أن الفترة الممتدة من ١٩٥٢ — ١٩٧٤ قد شهدت غربا واعيا فى تربة العلاقات العربية — الإفريقية كما شهدت بداية الحصاد أيضا . وقد تميزت هذه الفترة بقيادة مصر للنظام الاقليمى العربى ووجود تصور لمشروع قومى عربى حاولت سياسة مصر الإفريقية خدمته ودعمه . وتمت فى هذه الفترة تعبئة الموارد المصرية والعربية لبناء قاعدة مادية لدور عربى مشترك مؤثر فى إفريقيا . واعتمدت مصر فى بناء هذه القاعدة على علاقاتها النضالية بحركات التحرر الإفريقية . وفى مرحلة ما بعد الاستقلال حاولت قدر طاقتها ، أن تقدم الخبراء لسد بعض احتياجات التنمية فى هذه البلدان كما فتحت أبواب معاهدها التعليمية لاستقبال آلاف الطلاب الأماركة .

وحول هذه النقطة الأخيرة قد يكون من المفيد أن نذكر أن مصر اهتمت اهتماما خاصا بالجاليات الاسلامية والعربية فى إفريقيا فأقامت العديد من المساجد والمراكز الاسلامية ووجهت لافريقيا اذاعة خاصة تبث القرآن الكريم وخصصت اذاعة لتعليم اللغة العربية للافريقيين ، لكن مصر لم تحاول

افتعال ضجة حول هذا النشاط الموجه للجاليات الاسلامية بسبب حساسية الحكومات الافريقية تجاهه (١٧) . وعرفت مصر عبد الناصر كيف تفرق بين واجبها ودورها كدولة عربية — اسلامية وبين اهدافها السياسية الرامية الى تصفية الاستثمار فى افريقيا والتي يتطلب تحقيقها توحيد الجهود وليس تفجير خلافات جديدة . ولذلك لم تنساق مصر وراء اغراء اقامة تكتلات من الدول الاسلامية فى القارة الافريقية (١٨) ، أو تحدد مواقفها من التغيرات الاجتماعية التى هبت على القارة فى مرحلة ما بعد الاستقلال على أساس دينى .

واهتمت مصر أيضا بالبعد الاقتصادى لتوسيع رقعة مصالحها فى افريقيا وحاولت تطوير تجارتها مع الدول الافريقية رغم كل العقبات التى واجهتها نتيجة سيطرة الاحتكارات الأجنبية على عمليات استخراج وتسويق المواد الأولية فى السوق الافريقية . ومنذ عام ١٩٦١ انشأت مصر فروعاً عديدة لشركة النصر للتصدير والاستيراد فى أفريقيا كما قدمت بعض القروض .

واذا كنا قد ركزنا فى حديثنا عن الحوار العربى — الافريقى فى هذه الفترة على الدور المصرى فذلك لأن هذا الدور كان هو الدور الرائد والأتومى تأثيراً . وقد أدت دول عربية أخرى مثل الجزائر والمغرب وليبيا والكويت والسعودية أدواراً متفاوتة فى مرحلة أو أخرى من مراحل تطور النظام العربى ، لكن هذه الأدوار استوعبت أجمالاً فى إطار المشروع القومى الذى تقوده مصر أو على الأقل لم تؤثر على توجهه الرئيسى حين كان بعض هذه الأدوار خارجاً عليه .

ولقد تأثر دور مصر فى النظام العربى بالطبع نتيجة تأثير نمط التحالفات ونموذج توزيع موارد وامكانيات هذا النظام وخصوصاً بعد حرب ١٩٦٧ ، وانعكس ذلك على فاعلية السياسة العربية تجاه افريقيا . ومع ذلك فقد

(١٧) محمد فائق ، عبد الناصر والثورة الافريقية ، مرجع سابق ، ص

بقيت التوجهات الرئيسية لمصر والمشروع العربى كما هى ودون تعديل يذكر اللهم الا فى الأساليب والتكتيكات . ومع نهاية حرب أكتوبر كان واضحا أن النظام العربى بدأ يجنى ثمار غرس تم زرعه بصبر وأناة طوال أعوام عديدة من المعاناة .

ومن الملاحظات الرئيسية على هذه المرحلة أيضا أن التعاون العربى - الافريقى لم يدخل خلالها طور التنسيق المؤسسى بين جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ، صحيح أن جامعة الدول العربية بدأت تهتم ، تحت ضغط الدول العربية الافريقية ، بالتضاياف الافريقية اعتبارا من عام ١٩٥٧ لكن دورها وتأثيرها على مجرى الأحداث بقى محدودا (١٩) .

ثانيا : مرحلة ما بعد أكتوبر ١٩٧٣

(الحقبة النفطية)

أتمت هذه المرحلة فى بدايتها بتعاظم قوة النظام العربى بدرجة كبيرة كمحصلة لعاملين رئيسيين :

الأول : تماسك النظام العربى بدرجة لم يسبق لها مثيل أثناء حرب أكتوبر وما بعدها مباشرة . فقد كان هناك تنسيق عسكرى كامل بين دولتين من دول المواجهة مع اسرائيل وهما مصر وسوريا ، وساهمت الدول العربية الأخرى بمجهود حربى ودعم عسكرى ملحوظ . وجاء الأداء العسكرى للجانب العربى فى هذه الجولة من جولات المواجهة العسكرية مع اسرائيل رائعا بالمقارنة مع الجولات الأخرى . وفى الوقت نفسه شاركت الدول العربية النفطية بدعم تماسك النظام العربى بقرار الحظر البترولى على الولايات المتحدة والدول المساندة لاسرائيل فى الحرب . وهكذا بدى النظام العربى بجناحيه الراديكالى والمحافظ وكأنه نسقا واحدا على الصعيد الدولى .

الثانى : توافر امكانات مادية هائلة لم تتح للنظام العربى من قبل من خلال الزيادات المتلاحقة فى أسعار النفط عقب حرب أكتوبر ، وتراكم

(١٩) انظر يوسف الحسن : التعاون العربى الافريقى ، بيروت ، دار الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ١٩ .

لدى الدول العربية المصدرة للنفط أرصدة مالية ضخمة وفى فترة زمنية وجيزة .

وفى ظل تماسك النظام العربى فقد بدت هذه الأرصدة المالية المتراكمة وكأنها اضافة كبرى لقدرات وامكانات النظام ككل .

فى الوقت نفسه ارتسمت على النظام الافريقى بعض ملامح الوهن نتيجة انخفاض امكاناته وبالذات امكاناته الاقتصادية بسبب استمرار الأزمة الاقتصادية فى الغرب وانعكاساتها السلبية على اقتصاديات الدول الافريقية المرتبطة بها . وزاد رفع أسعار النفط من حدة الأزمة الاقتصادية فى افريقيا (٢٠) .

وقد كان لهذه المعطيات الجديدة ، وفى ضوء التقارب الكبير الذى تم بين النظامين العربى والافريقى فى المرحلة السابقة ، وانعكاساتها المباشرة على مسيرة الحوار العربى — الافريقى .

ومما يلفت النظر فيما يتعلق بمسيرة هذا الحوار وخصوصا فى السنوات الأولى لتلك المرحلة وبالذات فى الفترة من ٧٣—٧٧ ما يلى :

- ١ — ان مبادرات التقارب واقتراحات العمل المشترك كانت تأتى أساسا من الجانب الافريقى .
- ٢ — ان استجابة الجانب العربى كانت سريعة بل وفى كثير من الأحيان فورية .

فقد اجتمع مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دورة استثنائية عقدت فى اديس أبابا فى الفترة من ١٩ — ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ . وفى التقرير الذى قدمه السكرتير العام لمنظمة الوحدة الافريقية الى المؤتمر والذى على ضوئه أصدر المجلس قرارا شاملا يتعلق بالوضع فى الشرق الأوسط برزت مواقف افريقية واضحة وقاطعة لأول مرة منها :

(٢٠) ناصيف حتى : العربو الافارقة فى عالم متغير ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٨١٦ .

١ — إبراز أن التحالف الذى ظهر أثناء الحرب بين جنوب افريقيا والبرتغال واسرائيل يشكل تهديدا لأمن القارة الافريقية .

٢ — التأكيد على حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وشرعية نضاله ضد الاستعمار .

وفى الوقت نفسه أوصى المؤتمر بالابقاء على قطع العلاقات مع اسرائيل لحين انسحابها من كافة الاراضى العربية المحتلة ولحين استعادة الشعب الفلسطينى لكافة حقوقه القومية المشروعة . كما دعى جميع الدول الأعضاء فى المنظمة لفرض حظر اقتصادى كامل وخاصة فى مجال البترول بالنسبة لاسرائيل والبرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا .

وكان ابرز ما اتخذه هذا المؤتمر من قرارات تتعلق بالحوار العربى — الافريقى هو تشكيل لجنة من سبع دول افريقية هى : تنزانيا — غانا — الكاميرون — مالى — بتسوانا — السودان — زائير مهمتها تنظيم وتطوير التعاون العربى — الافريقى عن طريق الاتصال بجامعة الدول العربية .

ولم تمر سوى ايام قليلة حتى انعقد مؤتمر القمة العربى السادس فى دورة طارئة بالجزائر فى الفترة من ٢٦ — ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ وكان من اللافت للنظر أن يحضر موبوتو هذا الاجتماع كمراقب ممثلا لمنظمة الوحدة الافريقية وكانت استجابة المؤتمر للمبادرة الافريقية فورية على جميع المستويات :

— فقد اتخذ المؤتمر قرارا بقطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا من جانب الدول العربية التى تقم بذلك من قبل ، وفرض حظر بترولى عليها مع اتخاذ اجراءات خاصة لضمان وصول امدادات النفط الى الدول الافريقية حتى لا تتأثر بقرار الحظر على بعض الدول الغربية .

— رحب بقرار تشكيل اللجنة السباعية وقام بدوره بتكليف الامانة العامة لجامعة الدول العربية باتخاذ الاجراءات التنفيذية لتنظيم المشاورات اللازمة مع اللجنة .

— اتخذ عدة قرارات لتقديم مساعدات عاجلة للشعوب الافريقية المتضررة من الكوارث الطبيعية والقحط وانشاء مصرف عربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا يدار على أسس تجارية(٢١) .

وفى الدورة العادية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية المنعقد فى مقديشيو فى الفترة من ٦ — ١١ يونيو ١٩٧٤ طالب المؤتمر بدراسة امكانية عقد مؤتمر وزارى افريقى — عربى « للتعاون المشترك من أجل وضـع استراتيجية عربية — افريقية للتنمية » . كما تقدمت الصومال باقتراح للامانة العامة لجامعة الدول العربية بعقد مؤتمر قمة افريقى/ عربى . وفى مؤتمر القمة العربى السابع بالرباط (اكتوبر ١٩٧٤) ووافق على اقتراح مؤتمر القمة الافريقى/العربى .

وقد شهدت الفترة التالية مشاورات مكثفة بين الجانبين انتهت بتوسيع اللجنة الافريقية السباعية الى لجنة مكونة من اثنى عشر عضوا وانشاء لجنة عربية مقابلة بنفس العدد . وفى ٩ يوليو ١٩٧٥ عقد أول اجتماع مشترك بين لجنتي اثنى عشر على مستوى الوزراء وصدر عن هذا الاجتماع بيان مشترك يحدد أسس التعاون العربى — الافريقى وأهدافه ويتضمن برنامجا للعمل . وفى الفترة من ١٩ — ٢٢ ابريل ١٩٧٦ اجتمع فى داكار جميع —ع وزراء الخارجية العرب والانارقة وصدر عن المؤتمر « اعلان وبرنامج عمل بشأن التعاون العربى — الافريقى المشترك » . ثم عقدت لجنة الاربعة والعشرين اجتماعا آخر فى لومى بتوجو على مستوى وزراء الخارجية فى يناير ١٩٧٧ ، فمؤتمر وزراء الخارجية العرب والانارقة الثانى بالقاهرة فى الفترة من ٣ — ٦ مارس ١٩٧٧ وهو المؤتمر الذى سبق مباشرة انعقاد أول مؤتمر قمة عربى — افريقى فى الفترة من ٧ — ٩ مارس ١٩٧٧ بالقاهرة(٢٢) .

وهكذا شهدت هذه الفترة ايقاعا سريعا للعمل العربى — الافريقى المشترك . ويانعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى الأول دخلت العلاقات

(٢١) انظر التعاون الافريقى — العربى (١٩٧٧ — ١٩٧٨) ، وزارة الخارجية المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ — ١٧ .
(٢٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨ — ٢٣ .

العربية — الافريقية مرحلة بناء المؤسسات لضمان استمرارية هذه العلاقات وشمولها وتحديد المبادئ والاسس التى تحكمها . وسوف نتعرض فيما بعد لهذه المؤسسات بقدر أكبر من التفضيل .

ان تحليل الوثائق الصادرة عن مؤتمر القمة الافريقى — العربى الأول يولد انطباعا بأن هذه الوثائق تعكس رؤية شاملة ومتوازنة لطبيعة العلاقات العربية — الافريقية وتحاول تطوير هذه العلاقات آخذة فى الحسبان تراث هذه العلاقات والخبرة التاريخية التى تكونت نتيجة للتفاعلات العميقة التى تمت بين العرب والأفارقة طوال الخمسينات والستينات . وتنفذ هذه الوثائق كل الادعاءات الاسرائيلية التى حاولت الترويج لمقولة ان التعاون العربى — الافريقى ما هو فى حقيقة الأمر سوى شراء لموقف الدول الافريقية السياسى تجاه الصراع العربى — الاسرائيلى مقابل حفنة من دولارات النفط .

وليس فى هذه المقولة أى انصاف لا للعرب ولا للأفارقة لأن الموقف الافريقى تجاه الصراع العربى — الاسرائيلى كان قد بدأ يتطور بشكل ملحوظ قبل الحقبة النفطية كما سبق أن أشرنا . فوثائق المؤتمر تعكس حقيقة ان العلاقات العربية — الافريقية أوسع بكثير من مجرد مقايضة موقف سياسى بدعم مالى أو اقتصادى . واعتقد أن هذه الوثائق تعبر عن محاولة فكرية للامساك بلحظة تاريخية بدى فيها النظام العربى وكأنه قادر بالفعل على أن يشارك مشاركة حقيقية فى إعادة صياغة النظام الدولى لمصلحته ، على الرغم من ان الممارسات سارت فى طريق آخر .

وقد صدر عن مؤتمر القمة أربع وثائق : اعلان سياسى ، وبرنامج عمل ، وعلان حول التعاون الاقتصادى والمالى ، ووثيقة عن تنظيم طريقة العمل لتحقيق التعاون العربى — الافريقى . وللانصاف فان المنطلق الفكرى بهذه الوثائق ارتكز على دعامين رئيسيتين أحدهما سياسية والأخرى اقتصادية :

الدعامة السياسية تنطلق من الاقرار بحقيقة تشابه مصادر تهديد الأمن القومى العربى والأمن القومى الافريقى . فالسياسات العنصرية والتوسعية لحكومة جنوب افريقيا تشكل مصدر التهديد الرئيسى للدول الافريقية كما أن السياسات التوسعية والعنصرية لاسرائيل تشكل مصدر التهديد الرئيسى للدول العربية والتنسيق السياسى والعسكرى بين حكومتى

جنوب افريقيا واسرائيل يفرض تنسيقا مضادا بين الحكومات العربية والافريقية . وتشدد هذه الوثائق كلها على أهمية النضال المشترك فى مواجهة كل من اسرائيل وجنوب افريقيا .

الدعامة الاقتصادية : تنطلق من الاقرار بحقيقة اوضاع التخلف التى فرضت على الشعوب العربية والافريقية طوال الحقبة الاستعمارية وتؤكد ضرورة العمل المشترك للخروج من اثار التبعية . وتشير هذه الوثائق فى أماكن متعددة الى أهمية تعديل علاقات عدم التكافؤ فى النظام الاقتصادى الدولى مستندة الى ميثاق الجزائر واعلان ليما وقرارات وبرنامج العمل للتعاون الاقتصادى الصادرة عن مؤتمر القمة الرابع لدول عدم الانحياز ووثائق الأمم المتحدة الخاصة بإقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وهنا تكمن حقيقة أن التعاون الاقتصادى العربى — الافريقى لم يكن مقصودا منه مجرد تقديم دعم من جانب الدول التى لديها فوائض مالية الى دول تحتاج الى هذه الفوائض وانما تعاون مشترك من أجل تعديل وتصحيح علاقات عدم التكافؤ فى اطار النضال الأشمل لدول العالم الثالث .

وبدل تطوير التعاون العربى — الافريقى فى المرحلة اللاحقة على أن هذه المنطلقات الفكرية والتى عكست فى حقيقة الأمر الخبرة التاريخية للعلاقات العربية — الافريقية وتوهجت فى ضوء حرب أكتوبر ، قد جاءت عام ١٩٧٧ فى غير أوانها . ذلك أن النظام العربى كان يمر بفترة تحولات عميقة سوف يكون لها أكبر الأثر على مسار الحوار العربى — الافريقى . بل لو كان قد قدر أن يتأخر انعقاد مؤتمر القمة العربى — الافريقى عدة شهور أخرى ، فلربما استحال عقد هذا المؤتمر على الإطلاق . من هنا فليس من المستغرب أن تحدث هذه المفارقة بين المنطلقات الفكرية لوثائق مؤتمر القمة العربى — الافريقى ، وهى فى جوهرها تحررية وراдикаلية ، وبين الممارسات الفعلية التى عكست حقيقة التحولات التى كانت تعمل فى احشاء النظام العربى منذ فترة وظهرت بوادرها فى مؤتمر القمة نفسه حين أعنت السعودية ودول الخليج عن حجم الموارد التى تعترم تخصيصها للتنمية فى افريقيا ، بشكل مفاجئ ودون التشاور المسبق مع احد ، وتوقف على هذا (م ٣٧ — العرب فى أفريقيا)

انعقاد المؤتمر نفسه (٢٢) وكان هذا الاعلان يعنى شيئا واحدا أن مركز الثقل في الحوار العربى — الافريقى قد تغير وأن حقائق جديدة قد طرأت على النظام العربى .

ومن بين التحولات التى شهدتها النظام العربى فى فترة الحقبة النفطية وكان لها اكبر الأثر على مضمون ومسار الحوار العربى — الافريقى فى تلك المرحلة بالمقارنة بالمرحلة السابقة تحولان رئيسيان :

الأول : اعادة توزيع القدرات والامكانات داخل وحدات النظام العربى بحيث انتقلت مواقع التأثير والقيادة فى النظام العربى من « دول الثورة » الى « دول الثروة » . وقد أدى هذا بدوره الى انتقال مركز الثقل فى الحوار العربى — الافريقى من منطقة الترابط الجغرافى الى الدول الافرو — عربية الى منطقة الخليج الاسيوية . ونظرا لارتباط هذه المنطقة العربية أكثر من غيرها بالقطب الأمريكى فقد انعكس هذا فى قواعد سلوك معينة مشتقة من طبيعة وسلوكيات هذه الأطراف العربية (٢٤) .

وبالتالى أصبح مسار الحوار العربى — الافريقى أكثر عرضة للتأثير أو الاختراق الأمريكى من قبل . يضاف الى هذا أن منطقة الخليج وبالذات السعودية لم تكن دوما شديدة الحماس للنظام العربى — وكانت تفضل عليه تقليديا النظام الإسلامى أو العلاقات الثنائية — فان سلوكها وتأثيرها على مسار الحوار العربى — الافريقى قد عكس مصالحها الخاصة وعلاقاتها الثنائية بالأطراف الافريقية بأكثر مما عكس مصالح النظام العربى ككل . ومما يؤكد هذا اصرار هذه الدول على أن تتدفق معظم المعونات التى أعلنت عنها فى مؤتمر القمة العربى — الافريقى لصالح الدول الافريقية من خلال الصناديق الوطنية الخاصة وليس من خلال مؤسسات الحوار أو حتى مؤسسات الجامعة العربية المخصصة للتعاون العربى — الافريقى (٢٥) .

(٢٣) على أبو سن ، العرب وتحديات الحوار مع افريقيا ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٥٠ .

(٢٤) جميل مطر : ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، من تعقيب على بحث ناصيف حتى السابق الاشارة اليه ، ص ٧٣٣ .
(٢٥) انظر على أبو سن ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

ونظرا لافتقاد هذه الدول الى الخبرة فى التعامل مع افريقيا وعداؤها التقليدى للمشروع القومى العربى فقد حاولت أن تمد نفوذها الى افريقيا ، لا من خلال توثيق العلاقة بحركات التحرر أو تقديم خبرات تنمية كما كان يحدث من قبل ، وانما من خلال نشر الدعوة الاسلامية أو دعم الأقليات أو الأغليات الاسلامية فى القارة مما اثار العديد من الحساسيات السياسية .

ومما لا شك فيه أن الدول العربية المصدرة للنفط قد وجهت معونة اقتصادية كبيرة الى الدول الافريقية وخصوصا تلك الأقل نموا وبشروط ميسرة نسبيا بالمقارنة بشروط المعونة المحولة من الدول الصناعية الى الدول النامية . فقد بلغ مجموع الالتزامات العربية تجاه الدول الافريقية فى الفترة من ٧٣ — ١٩٨١ ٣٥ مليار دولار لم يسحب منها من جانب الدول الافريقية خلال تلك الفترة سوى ١٧ مليار ويلاحظ على هذه المعونة ما يلى :

١ — ان الجزء الأعظم من هذه المعونة تم من خلال قنوات ثنائية . فقد بلغ حجم الالتزامات العربية الثنائية للدول الافريقية فى الفترة من ٧٣ — ١٩٨١ ٢٤ مليار دولار أى حوالى ٧٠٪ من الالتزامات الكلية بينما لم يقدم المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا وبنك التنمية الافريقى وصندوق التنمية الافريقية سوى ٧١ مليون دولار فقط . والباقى من مؤسسات دولية أخرى مثل البنك الاسلامى وصندوق الاوبك (٢٦) وهذا يعنى فى الواقع أن المؤسسات التى أنشأت لدفع الحوار العربى الافريقى لم تسيطر الا على حوالى ١٢٪ من المعونة المقدمة .

٢ — ان هذه المعونات لم توظف فى اطار استراتيجية تنمية جديدة يكون هدفها فك روابط التبعية والاعتماد على الذات من خلال محاولة تحقيق « الاكتفاء الذاتى الجماعى » بين العرب وافريقيا ، على الأقل فى قطاعات معينة ، وانما لعبت هذه المعونات نفس وظيفة المعونات المقدمة من الدول الرأسمالية والرامية الى الإبقاء على نفس علاقات التبعية القديمة (٢٧) بل وربما حلت المعونات العربية فى بعض الأحيان محل المعونات المقدمة من

(٢٦) طاهر حمدي كنعان : البعد الاقتصادى للعلاقات العربية — الافريقية المعاصرة ، ندوة العرب وافريقيا ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .
(٢٧) انظر تعقيب سمير أمين على بحث طاهر كنعان ، المرجع السابق .

الدول الرأسمالية للبلدان الافريقية للتخفيف عن أزمة النظام الرأسمالي، مع خدمة نفس الأهداف .

الثانى : تغير جذرى فى المفاهيم والمنطلقات الفكرية للتوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر انعكس على تصور مصر لدورها' الاقليمى والدولى ومن ثم اختلف نمط تحالفاتها الاقليمية والدولية اختلافا أساسيا فى هذه المرحلة بالمقارنة بنمط تحالفاتها الاقليمية والدولية فى الخمسينات والستينات . وقد انعكس هذا على دور مصر فى الحوار العربى - الافريقى بصفة خاصة ومن ثم على مسيرة هذا الحوار بشكل عام وذلك من زوايا عديدة :

١ — فى ظل العلاقات الخاصة والمتنامية بين مصر والولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤ ، أصبح الدور المصرى فى الحوار العربى — الافريقى مرتبطا بشكل او باخر بالاستراتيجية الامريكية فى افريقيا والشرق الأوسط . وكانت مصر بثقلها السياسى واشعاعها الثقافى وبدورها المحورى فى العلاقات العربية — الافريقية توجه هذه العلاقات فى اتجاه التمرد على النظام الدولى المهيمن وتحقيق الاستقلال والتحرر السياسى والاقتصادى للمنطقة طوال الخمسينات والستينات . فاذا ما اضفنا الى هذا حقيقة انتقال مركز الثقل والتاثير فى الحوار العربى — الافريقى من منطقة الترابط الجغرافى اى الدول الامرو — عربية الى منطقة الخليج العربية حيث تتكدس الثروة — وهى منطقة مرتبطة تقليديا بالاستراتيجية الامريكية — لادركنا مدى الخل الذى حدث فى توجهات الحوار العربى — الافريقى بالنسبة لمعلاقة أطراف هذا الحوار بطرفى النظام الدولى وبالتحديد فى الوقت الذى بدأ فيه هذا الحوار بدخول مرحلة بناء مؤسساته المشتركة .

ويقول أحد خبراء السياسات العربية ، « أن مصر لعبت دورا أساسيا باعتبارها الدولة التي تقوم بثلاثة أدوار فى وقت واحد ، فهى الطرف القلب فى أحد النظامين وهو النظام الإقليمى العربى ، وهى الطرف الرئيسى فى « منطقة القلب » فى النظام الأمريقى ، وهى أهم أطراف منطقة الترابط الجغرافى بين النظامين العربى والإفريقى .. وحين تحول هذا الطرف القلب من دور « المنظم » لنضى وتفاعلات النظام العربى الى دور « الوسيط »

«بين أطراف خارجيه وأطراف النظام كان عليه أن يقوم بالوظيفة نفسها فى النظام الآخر .. وقد أدى هذا التحول الى حدوث ارتباك فى التفاعلات القائمة بين أطراف النظام ، وكان لابد أن تعاد صياغة التفاعلات العربية ومن يعدها التفاعلات العربية — الافريقية بحيث تستند الى قلب نوعى » يحل محل القلب السياسى أو الطبيعى « (٢٨) .

٢ — ترتب على تغير النهج المصرى فى الصراع العربى — الاسرائيلى نتائج خطيرة الأهمية على مضمون الحوار العربى — الافريقى ومساره . فمن ناحية تصورت مصر انها تستطيع اغراء الولايات المتحدة وحثها على أن تلعب دورا أكبر فى الضغط على اسرائيل للانسحاب من الاراضى العربية وإيجاد تسوية شاملة فى الشرق الأوسط ، من خلال اقناعها بأنها تستطيع أن تلعب لحسابها دورا أكثر تأثيرا فى أفريقيا من الدور الذى تستطيع أن تلعبه اسرائيل . ويصعب فهم الدور المصرى فى احداث شابا عامى ٧٧ ، ١٩٧٨ ومساندتها لنظام موبوتو خارج هذا السياق .

وكان هذا يعنى بشكل أو باخر تحولا فى مفهوم مصر لقضايا الأمن المشترك فى اطار الحوار العربى الافريقى اذ أصبح الاتحاد السوفيتى مهددا للامن الافريقى والعربى بأكثر مما تهدده اسرائيل والولايات المتحدة .. ومن ناحية أخرى فقد فتح إبرام مصر لاتفاقية صلح مع اسرائيل ثفرة هائلة فى جدار عزلة اسرائيل الافريقية ، وأصبح من السهل تبرير التراجع الافريقى عن قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بمقولة أن اسرائيل تهدد انسحب من الاراضى المحتلة ، وهى الدولة الافريقية الوحيدة التى كانت اسرائيل تحتل اجزاء من اراضيها ، وانه من غير المعقول أن تقطع الدول الافريقية علاقاتها باسرائيل فى وقت تقوم فيه أكبر دولة عربية وأهم دولة افريقية « بتطبيع » علاقاتها مع اسرائيل . فى هذا الاطار فقد كانت زيارة اسرائيل السرية لست دول افريقية هى جمهورية أفريقيا الوسطى ، وساحل العاج والجابون وزائير وربما نيجيريا وليبيريا ممكنة (٢٩) ، كما كان اعلان

(٢٨) جميل مطر ، مرجع سابق ، ص ٧٣١ .

(٢٩) حلمى الشعراوى : السياسة الاسرائيلية افريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٦ .

موبوتو نفسه للعودة للعلاقات مع اسرائيل عام ١٩٨٣ ممكنا ايضا . . ومن ناحية ثالثة فقد أدت عزلة مصر عن النظام العربى بسبب تغير النهج المصرى . فى الصراع العربى — الاسرائيلى الى انفراط العقد العربى تماما وارباك مسيرة الحوار العربى — الافريقى نفسها حيث ادى الاصرار على عزل مصر من مؤسسات الحوار الى توقف معظم هذه المؤسسات . فلم ينعقد مؤتمر القمة العربى — الافريقى والذي كان مقررا له أن يعقد اجتماعا دوريا كل ٣ سنوات منذ انعقاد مؤتمره الأول فى مارس ١٩٧٧ حتى الآن .

وهكذا أدت التحولات المختلفة التى شهدتها النظام الاقليمى العربى . خلال الحقبة النفطية الى تغير فى عقيدة الحوار العربى — الافريقى واهدافه وتوزيع الأدوار بين اطرافه وتعرض لاختراق من الخارج لم يسبق له مثيل فى نفس لحظة محاولة « ما أسسه » هذا الحوار ، وذلك قبل أن تتجسد هذه المؤسسات نفسها نتيجة خروج مصر من النظام الاقليمى العربى .

٤ — مؤسسات الحوار العربى — الافريقى

تثير دراسة مؤسسات « الحوار » العربى — الافريقى عددا من القضايا الرئيسية وهى تفصح عن عمق المشاكل الهيكلية أو البنوية فى هذا «الحوار» فعندما نتحدث عن مؤسسات الحوار العربى — الافريقى فمن الطبيعى أن يتصرف الذهن الى المؤسسات العربية — الافريقية المشتركة أى تلك التى تشارك اطراف الحوار فى تأسيسها وادارتها ، سواء بشكل جماعى أو على الأقل باختيارهم الجماعى . لكننا حين نحاول حصر المؤسسات المهمة بالتعاون العربى — الافريقى سوف نجدنا امام أربعة انواع على الأقل من هذه المؤسسات :

أولا : هناك المؤسسات الوطنية للتنمية فى العديد من البلدان العربية التى توجه قسطا كبيرا من استثمارات أو معونات أو أنشطتها الاقتصادية بصفة عامة الى الدول الافريقية . من ذلك مثلا : الصندوق السعودى للتنمية ، والصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية ، وصندوق أبو ظبى للانماء الاقتصادى العربى « والمصرف العربى الليبى الخارجى » . . وغيرها ، ويمكن أن ندرج فى هذا الاطار ايضا الصندوق المصرى لأمعونة الفنية لافريقيا والتابع لوزارة الخارجية المصرية .

وحكومات الدول المعنية هي التى تدير هذه المؤسسات وتوجه سياستها ، وهى وان كانت توجه قدرا من انشطتها الى الدول الافريقية الا أن هذه الأنشطة تدخل فى حقيقة الأمر فى اطار العلاقات الثنائية وليس فى اطار العمل الجماعى العربى الموجه لافريقيا أو العمل العربى — الافريقى المشترك .

ثانيا: هناك المؤسسات الدولية للتنمية والتى تسهم عدد من الدول العربية بالقسط الأكبر من رأسمالها ، وتوجه قدرا من استثمارات أو أنشطتها الاقتصادية الى افريقيا . من هذه المؤسسات البنك الإسلامى للتنمية ، وصندوق الأوبك للتنمية الدولية . وعلى الرغم من أن الثقل العربى فى هذه المؤسسات هو ثقل ملحوظ ومؤثر ، الا أن أطارها أوسع من الأطار العربى ، ومن ثم فهى بدورها لا تعتبر مؤسسات عربية جماعية صرفة موجهة لخدمة التنمية فى افريقيا أو مؤسسات عربية — افريقية مشتركة .

ثالثا : هناك مؤسسات عربية للتنمية الاقتصادية أو التعاون الفنى فى افريقيا وهذه المؤسسات نشأت بقرار من مؤتمرات القمة العربية وتعتبر بشكل أو باخر أجهزة تابعة لجامعة الدول العربية . من هذه المؤسسات : المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى افريقيا والصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية والعربية .

والمصرف العربى هو مؤسسة عربية مالية تتمتع بالشخصية القانونية المستقلة وتهدف الى الاسهام فى تمويل التنمية وتشجيع رؤوس الأمـوال العربية وتوفر المعونة الفنية اللازمة للتنمية فى افريقيا . والعضوية فى هذه المؤسسة قاصرة على الدول العربية التى تقبل المساهمة فى رأسمال المصرف . وقد بلغ رأس المال المكتتب فيه ابتداء ٢٣١ مليون دولار امريكى .

أما الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الافريقية والعربية فهو — طبقا لنظامه الأساسى — احد أجهزة الامانة العامة لجامعة الدول العربية ويتمتع بالشخصية القانونية فى الحدود اللازمة لتحقيق أهدافه والتى تمثل فى تقديم المعونة الفنية فى مجالات التنمية الاقتصادية والعلمية للدول العربية والافريقية . ويرأس الأمين العام لجامعة الدول العربية مجلس ادارة الصندوق وينوب عنه الأمين المساعد .

وعلى الرغم من بعض التباين بين هاتين المؤسستين حيث تعتبر الأولى منظمة عربية مستقلة بينما تعتبر الثانية فرعا من فروع جامعة الدول العربية الا انهما يشتركان فى سمة أساسية وهى انها اجهزة جماعية عربية خالصة توجه نشاطاتها نحو الدول الافريقية ، على الرغم من أن نشاط الصندوق يشمل الدول العربية أيضا .

لكن هذه المؤسسات لا تعتبر مؤسسات عربية — افريقية مشتركة .

رابعا : وأخيرا هناك المؤسسات العربية — الافريقية المشتركة وهى تلك المؤسسات التى نشأت بقرار من مؤتمر القمة العربى — الافريقى الذى انعقد بالقاهرة فى الفترة من ٧ — ٩ مارس ١٩٧٧ .

ففى هذا المؤتمر قررت الدول العربية والافريقية انشاء مؤسسات دائمة للتعاون العربى — الافريقى بهدف تطوير ومتابعة هذا التعاون والمفروض أنه من خلال هذه المؤسسات الدائمة تكون العلاقات العربية — الافريقية الجماعية قد انتقلت من مرحلة « الحوار » الى مرحلة « التعاون المؤسسى » وأهم هذه المؤسسات هى :

١ — مؤتمر القمة العربى — الافريقى :

ويعقد مرة كل ثلاث سنوات .

٢ — مجلس الوزراء العربى — الافريقى :

ويعقد مرة كل ثمانية عشر شهرا .

٣ — اللجنة الدائمة :

وتتكون من ٢٤ وزيرا او ممثليهم يتم اختيار اثنى عشر منهم بواسطة منظمة الوحدة الافريقية واثنى عشر بواسطة جامعة الدول العربية .
بالاضافة الى امين عام المنظمة وامين عام الجامعة . وتجتمع مرتين كل عام . وتتولى هذه اللجنة تنفيذ أعمال التعاون العربى — الافريقى ومتابعة تطوراتها فى كافة المجالات .

٤ — لجنة التنسيق :

وهى بمثابة سكرتارية أجهزة التعاون العربى — الافريقى بمستوياته المختلفة . وتتكون من اثنين من الجانب الافريقى هما رئيس لجنة الاثنى عشر الافريقية والامين العام لمنظمة الوحدة الافريقية واثنين من الجانب العربى هما رئيس لجنة الاثنى عشر العربية والامين لجامعة الدول العربية .

٥ — محكمة افريقية — عربية :

مهمتها التوفيق والتحكيم والتفسير القانونى للنصوص التى تحكم العمل العربى — الافريقى المشترك وقد ترك مؤتمر القمة للجنة من الخبراء الاتفاق على تشكيلها .

هذا بالاضافة الى مجموعات العمل العربية — الافريقية وهى عبارة عن لجان خبراء فى كافة المجالات .

ومن يتأمل هذه المؤسسات بأنواعها الاربعة يلاحظ عملية فصل تبدو قاطعة بين المؤسسات الاقتصادية والمؤسسات السياسية . فالانواع الثلاثة الاولى من هذه المؤسسات تدخل فى اطار المؤسسات الاقتصادية المانحة للمعونة وهى تشترك كلها فى سمة أساسية وهى أنها ليست مؤسسات عربية — افريقية مشتركة ، فالطرف الافريقى ليس ممثلاً فيها على الإطلاق . وهى اما مؤسسات وطنية أو مؤسسات عربية خالصة أو مؤسسات دولية تتمتع فيها بعض الدول العربية بثقل خاص . والسبب فى هذا يرجع الى أن الطرف العربى هو الطرف المانح للمعونة وقد حرص الطرف العربى على ألا يشارك الطرف الافريقى فى ادارة هذه المؤسسات أو فى توجيه سياساتها . وكانت تنزانيا قد حاولت ذلك فى الورقة التى قدمتها الى مؤتمر القمة العربى — الافريقى . كما يلاحظ أيضاً أن الدول العربية المانحة للمعونة قد حرصت أشد الحرص ليس فقط على استبعاد الجانب الافريقى من توجيه سياسات هذه المؤسسات المانحة للمعونة ولكن أيضاً وعلى وجه الخصوص على « قصر استخدام الجزء الأكبر من العون الذى أعلنه على أجهزة التعاون الثنائى القائمة فيها ، مثل صناديقها الوطنية للتنمية ، ثم حاولت اقناع أجهزة التعاون المشتركة بعدم التعرض لحرية تلك الصناديق حرية مطلقة فى

اتخاذ القرار النهائي فى تمويل المشروعات الافريقية حتى فيما يخص الأموال التى أعلن عنها فى مؤتمر القمة المشترك (٣٠) .

وهكذا فإن المؤسسات الوحيدة التى يمكن اعتبارها مؤسسات عربية — افريقية مشتركة هى تلك المؤسسات السياسية التى تقرر انشاؤها فى مؤتمر القمة العربى — الافريقى وهى مؤسسات للتشاور السياسى أكثر منها مؤسسات لصنع القرار وليس من بينها أية مؤسسات تنفيذية .

ويلاحظ :

أنها تشكل جميعا ما يمكن اعتباره منظمة دولية من نوع خاص العضوية فيها ليست للدول وإنما لمنظمتين دوليتين هما جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية . فاعضاء مؤتمر القمة أو مجلس الوزراء هم أعضاء المنظمتين ، كما أن اختيار أعضاء اللجنة الدائمة موكول لكل من المنظمتين . وتعتبر مشاركة كل من سكرتير عام منظمة الوحدة الافريقية وأمين عام الجامعة العربية فى عضوية اللجنة الدائمة جنبا الى جنب وعلى قدم المساواة مع وزراء الدول الأعضاء تجديدا لا مثيل له فى التنظيم الدولى .

ونختتم بملاحظة أخيرة حول تعثر عمل هذه الأجهزة بشكل عام . فمؤتمر القمة لم يجتمع منذ اجتماع القاهرة عام ٧٧ حتى الآن لا على مستوى الرؤساء ولا على مستوى أدنى . ولو كان العمل قد انتظم فى هذه المؤسسات لكان المفروض أن يكون هذا المؤتمر قد أتم دورته الرابعة فى العام الماضى . . كذلك توجد صعوبات جمة فى عمل لجنة التنسيق والاتفاق على ترتيبات تشكيلها وتمويلها (٣١) .

(٣٠) على أبو سن : العرب وتحديات الحوار مع افريقيا ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

٥ — الحوار العربى — الافريقى بين الواقع والطموح

مما يكن حجم الطموح والامال التى نعلنها على مستقبل الحوار العربى — الافريقى فانه لى يكون هذا الطموح مشروعا يتعين الانطلاق من تحليل دقيق للواقع وتقويم للمنجزات التى تمت والتعرف على مواطن الضعف والافخاق فى مسيرة الحوار حتى الآن .

وفى اعتقادنا ان العلاقات العربية — الافريقية تمر بمحنة حقيقية تستوجب نظرة فاحصة جديدة على مجمل المنطلقات التى تحكم العمل العربى الافريقى المشترك حتى الآن وخاصة منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

ان صورة العلاقات العربية — الافريقية اليوم بالنظر الى حجم التوقعات المنتظرة من التعاون العربى — الافريقى تبدو محبطة اجمالا .

١ — فاذا ما نظرنا الى مناطق التماس الجغرافى بين الدول العربية والافريقية سوف نجد أن معظم هذه المناطق متازمة أو ملتبئة . فهناك صراع حاد بين ليبيا وتشاد وهناك أزمة فى العلاقات السودانية الاثيوبية وأزمة فى العلاقات الصومالية — الاثيوبية . وهذه كلها أزمات تضم أطرافا عربية فى ناحية وأطرافا افريقية فى الناحية الأخرى . ومن السهل تبين صعوبة دفع العمل العربى — الافريقى المشترك قدما الى الامام بدون معالجة هذه الازمات أو على الأقل ايجاد صيغة ملائمة لوقف تدهورها .

٢ — اذا اعتبرنا ان الموقف الافريقى من القضية الفلسطينية والصراع العربى — الاسرائيلى وكذا الموقف العربى من جنوب افريقيا يمثل المحور الرئيسى للتعاون العربى — الافريقى على الصعيد السياسى ويعتبر المقياس أو المؤشر الرئيسى لجدية وعمق هذا التعاون ، فان الصورة على هذا الصعيد تبدو غير مشرقة على الاطلاق . فالموقف الافريقى من الصراع العربى — الاسرائيلى يعتبر الآن أسوأ كثيرا مما كان عليه الحال عام ١٩٧٣ . فقد أعلنت ثلاث دول هى زائير وليبيريا والكاميرون عودة العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ويقال أيضا أن افريقيا الوسطى قد أعادت هذه العلاقات أو فى طريقها اليها . وبالرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية ما تزال اسرائيل

تمارس نشاطها الاقتصادي والثقافي والعسكري مع ٢٢ دولة افريقية (٣٢) . وقد زاد حجم التجارة الاسرائيلية مع افريقيا ولم يقل . ففي عام ١٩٧٠ كانت صادرات اسرائيل الافريقية لا تتجاوز ٤١٥ مليون دولار وصلت في عام ١٩٨٠ الى ١٩٠٩ مليون دولار كما زادت واردها في نفس الفترة من ٣٠ مليون دولار الى ١٣٥٧ مليون دولار (٣٣) . وقد ذكر ديفيد كحى امام الجمعية العامة مؤخرا أن ما يقرب من ثلاثين ألف افريقي اكلوا دراستهم في اسرائيل في السنوات الثمانية والعشرين الماضية كما تم اينافدا ما يزيد على العشرة آلاف خبر اسرائيلي الى افريقيا (٣٤) . وفي هذا الاطار لا يمكن أن نلقى باللوم كله على الجانب الافريقي وحده لأن الموقف العربي نفسه من القضية ذاتها اصابه الانهيار والتفكك بعد اتفاقيات كامب ديفيد وتوقيع معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية .

اما عن الموقف العربي تجاه جنوب افريقيا فيبدو بشكل عام أكثر تماسكا وان كانت تتردد بين الحين والآخر أنباء عن بعض الدول العربية تتاجر مع جنوب افريقيا وتزودها بالنفط بل والسلاح (٣٥) . ويبدو أن الموقف الافريقي نفسه تجاه جنوب افريقيا قد طرأ عليه بعض التغير وخصوصا بعد ابرام حكومة افريقيا اتفاقيات مع حكومتى كل من موزمبيق وانجولا . وقد أصدر المجلس الوزاري لمنظمة الوحدة الافريقية قرارا يبدى فيه تفهمه للدوافع والأسباب التي دعت الى اجراء المفاوضات وعقد هذه الاتفاقيات ، وان ظلت المنظمة تتمسك بمبادئها الأساسية في مكافحة العنصرية ورفض التعامل مع النظام العنصرى في جنوب افريقيا (٣٦) .

(٣٢) عبد الملك عودة : التعاون العربي الافريقي : الواقع والمستقبل ، شئون عربية ، العدد ٣٨ ، يونيو ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

(٣٣) عبد الفتاح الجبالى ، افريقيا بين التغفل الاسرائيلي والموقف العربي ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ .

(٣٤) جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، تقرير عن مخاطر توقف نشاط الصندوق دراسة اعداها سمير حسنى عطية ، ديسمبر ١٩٨٦ ، ص ١٦ .

(٣٥) من مفكرة بطرس غالى ، الاهرام ، ٥ يناير ١٩٧٧ .

(٣٦) عبد الملك عودة ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

٣ — اذا نظرنا الى نشاط المؤسسات المشتركة للتعاون العربى — الافريقى وخصوصا تلك التى ظهرت الى حيز الوجود مع مؤتمر القمة العربى — الافريقى الأول فسوف نجد ايضا ان الصورة قائمة . فلم ينعقد مؤتمر القمة منذ عام ١٩٧٧ حتى الآن رغم انه من المفروض وفقا لقرارات المؤتمر الأول أن ينعقد كل ثلاث سنوات ، كما اشرنا من قبل . وتوقفت اجتماعات اللجنة الدائمة للتعاون العربى — الافريقى منذ ١٩٧٨ ولم تعاود اجتماعاتها الا عام ١٩٨٢ والمفروض أن تجتمع هذه اللجنة مرتين كل عام على الأقل . كما ان لجنة التنسيق لا تدرى حتى الآن كيف تنظم عملها وتضع لوائحها الداخلية .

٤ — الجانب الوحيد الذى لم يصبه الارتباك فى العلاقات العربية — الافريقية هو استمرار تدفق الأموال العربية على افريقيا منذ ١٩٧٣ رغم تباطؤ معدل هذا التدفق نتيجة لانخفاض اسعار النفط بعد ١٩٨٠ . وتذكر بعض التقارير أن مجموع التحويلات العربية لصالح افريقيا فى الفترة من ٧٥ — ١٩٨٢ بلغ حوالى ٧٦٠.١ مليون دولار بمتوسط سنوى قدرة مليون دولار (٢٧) . وهذه الأموال لا تعتبر كافية فى الواقع ، من وجهة النظر الافريقية ، بالقياس الى حجم متطلبات التنمية فيها . فضلا عن ذلك فان هذه المعونة لا تسلم من بعض الانتقادات الحادة ، حتى من وجهة النظر العربية والقومية بالذات وهى أنها لم تقدم فى اطار تصور محدد لمشروع تنموى عربى — افريقى يؤكد الاعتماد على الذات بل كانت أقرب الى دعم شبكة الاقتصاد الراسمالى وتعميق التبعية .

وهذه الصورة القائمة فى معظم جوانبها تؤكد ما يلى :

أولا : عدم وجود سياسة عربية واضحة المعالم تجاه افريقيا . فالعرب لا يعرفون بالضبط ما الذى يريدونه من افريقيا . وربما لو قام باحث باستطلاع رأى وزراء الخارجية العرب عن تصوره لما يجب أن تكون عليه العلاقات — الافريقية من حيث السياسات الواجبة الاتباع وترتيب القضايا من حيث الأولويات وشكل المؤسسات المنوط با إدارة هذه العلاقات . . الخ لوجدنا ٢٢ اجابة مختلفة او حتى متناقضة . فليست هناك عقيدة تحكم

السياسة العربية تجاه افريقيا ولا يوجد نظام عربى قادر على بلورة سياسة محددة تجاه افريقيا . وتعكس مؤسسات الحوار القائمة حقيقة غياب الدور القومى فى هذا الحوار .

ثانياً : وهم الربط بين المعونة العربية والموقف الافريقى من الصراع العربى — الاسرائيلى لأن مثل هذا الربط فى حد ذاته يحمل شبيهه شراء الموقف الافريقى وفيه اهانة للعرب وللانفاقة على حد سواء . وعلى اى حال فلا تمثل العلاقات العربية الافريقية استثناء فى هذا الاطار بالمقارنة بالسلوك الدولى الشائع . وعلى سبيل المثال فان نسبة انحراف الاتجاه التصويتى لمصر فى الأمم المتحدة بالمقارنة بالاتجاه التصويتى للولايات المتحدة يصل فى بعض الدورات الى ٨٥٪ أى أن ٨٥٪ من القرارات التى توافق عليها مصر عند التصويت فى الأمم المتحدة هى قرارات ترفضها الولايات المتحدة والعكس . هذا رغم أن مصر تتلقى مساعدة كبيرة من الولايات المتحدة .

ثالثاً : عدم ملائمة واقع مؤسسات الحوار العربى — الافريقى مع الطموحات أو الامال المتوقعة فى هذا الحوار . ولا يمكن أن يوجد تعاون حقيقى تتوافر له عناصر الاستمرار والاستقرار بدون مؤسسات قوية وفعالة .

نضعف مؤسسات الحوار العربى الافريقى لا ترجع فقط الى ضعف قدرات العاملين فيها بالنظر الى ما هو مطلوب منهم وانما ترجع فى الأساس الى طبيعة نمو هذه المؤسسات تاريخياً حيث ظهرت الى حيز الوجود فى مراحل متفاوتة وفقاً لمقتضيات الحاجة ولم تظهر من خلال رؤية عامة وشاملة للحوار العربى — الافريقى تأخذ فى اعتبارها ضرورة أن تكون هذه المؤسسات على مستوى الاهداف المطلوب تحقيقها من الحوار .

وكما سبق أن اشرنا فهناك خلل كبير فى مؤسسات الحوار وعلى مستويات متعددة :

— فهناك هذا الفصل غير المبرر بين المؤسسات « الاقتصادية » أو الفنية والمؤسسات السياسية .

— وهناك هذا التعدد فى طبيعة مؤسسات الحوار فبعضها يدار وطنيا وبعضها يدار قوميا (عربيا) وبعضها يدار عربيا — افريقيا مشتركا . وما تزال المؤسسات التى تدار وطنيا هى فى الواقع المؤسسات التى تتحكم فى الجهاز العصبى لعملية التعاون العربى — الافريقى برمتها . بل تقول أحدث التقارير الصادرة عن جامعة الدول العربية أن الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، وهو الجهاز الوحيد التابع لجامعة الدول العربية فى مؤسسات الحوار ، يواجه خطر توقف نشاطه بسبب امتناع الدول العربية عن دفع حصصها فى ميزانيته ، رغم ضعف وهزال هذه الميزانية . فقد بلغ مجموع الموارد التى تعهدت الدول العربية بسدادها للصندوق فى الفترة من عام ٧٤ — ٨٦ حوالى ١٠١ مليون دولار لم يسدد منها خلال هذه الفترة سوى ٥٣ مليون دولار (٢٨) .

ومعنى أن هذه المؤسسات القومية فى الحوار تذبذب لصالح المؤسسات الثنائية : وهذا يقتضى إعادة نظر شاملة فى طبيعة مؤسسات الحوار لانه يصعب أن يكون الهدف قومى والوسائل قطرية الا اذا كان هناك على الأقل تنسيق قومى بين هذه الوسائل القطرية لصالح الأهداف القومية .

فى هذا الاطار يتوقف مستقبل الحوار العربى — الافريقى ، فى تقديرى ، على احتمالات إعادة ترتيب البيت العربى وابتداع صيغة أخرى للعمل الجماعى العربى . لكن تلك قضية أخرى .

(٣٨) دراسة سمير حسنى عطية عن مخاطر توقف نشاط الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول العربية والافريقية ، جامعة الدول العربية ، ديسمبر ١٩٨٦ ، مرجع سابق ، ص ٧ .

obeikan.com

حركة التحرر الوطني ٠٠٠ الى أين ؟

حلقة نقاش

المشاركون

- السفير فؤاد البديوي
- أ. د. عبد الملك عودة
- د. ابراهيم نصر الدين
- د. محمد السيد سعيد
- الاستاذ حلمي شعراوي
- الاستاذ احمد يوسف القرعى

كلمة رئيس الجلسة : السيد السفير فؤاد البديوى

بدأت حركة التحرر الافريقية بفكرة الجامعة الافريقية ، وذلك فى اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقد جاءت الفكرة من خارج افريقيا ، اثارها الزنوج الذين نقلوا من افريقيا الى اوربا والى امريكا ، والذين راوا انه يجمعهم هدف واحد يتمثل فى مواجهة الاستعمار والعنصرية والظلم الاجتماعى الذى كان يسود المستعمرات الافريقية . وبذلك ظهرت حركات فى اوربا تطالب باستقلال المستعمرات الافريقية ، وقد كان لهذه الأخيرة انعكاس داخل افريقيا خلق وعيا وفكرا سياسيا جديدا معاديا للاستعمار والعنصرية ، توج بظهور عدة تنظيمات سياسية تطالب بأهداف معينة لتحرير المستعمرات من السيطرة الأجنبية ، وتمثلت هذه التنظيمات واشكالها اما فى شكل مؤتمرات أو تجمع وطنى الى أن وصلت الى أحزاب .

وابان انشاء هيئة الأمم المتحدة تطورت وسائل الاعلام وكثر الحديث عن حقوق الأقليات والقوميات وانتشرت حركة مؤتمرات حكومية وشعبية حول القضايا الانرية . مثل مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ ومؤتمر اكرا للدول الافريقية ومؤتمر الشعوب الامرو آسيوية ، وعقب هذه الحركة من المؤتمرات — وبالأخص اواخر الخمسينات وبداية الستينات — شهدت أفريقيا اعلان استقلال عدد كبير من الدول الافريقية ، وقد جاء هذا الاستقلال نتيجة لعدة عوامل أهمها تلك التغيرات التى حدثت فى نظم الحكم فى المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة بالنسبة للمستعمرات الفرنسية حيث أن دستور ديجول حول المستعمرات من الاندماج الكامل مع فرنسا الى الاستقلال مع الحكم الذاتى ، وقد حدث ذلك أيضا فى المستعمرات البريطانية التى أصدرت عدة دساتير كانت تتجه الى اشراك الافريقيين فى حكم بلادهم . وقد حدث تطور فى شكل وموضوع حركات التحرر الوطنية ووسائل كفاحها وذلك بعد أن شارك العديد من الجنود الأفارقة فى الحرب العالمية الثانية وبذلك واثر هذا العامل تحولت حركات التحرر التى بدأت بطرق سلمية الى اشكال من الاضرابات والمظاهرات وتوزيع للمنشورات ، لتتطور فى الأخير الى استعمال السلاح فى النضال ضد الاستعمار والعنصرية .

وقد توجت هذه الحركات الاستقلالية بانشاء منظمة الوحدة الافريقية سنة ١٩٦٣ والتي كان الهدف منها توحيد الدول الافريقية المستقلة فى اطار جبهة واحدة لمواجهة الاستعمار وفى نفس الوقت انشا الرؤساء الافارقة لجنة التنسيق لتحرير افريقيا ، وقد كان الهدف منها تنسيق وتنظيم وتقديم المساعدات المختلفة لحركات التحرر الافريقية سواء كانت هذه المساعدات مادية ، (سياسية او عسكرية) ، وفى ذلك الوقت كان عدد حركات التحرر الافريقية التى كانت ترعاها اللجنة ١٨ حركة تمثل عشرة اقاليم . وحاليا وبعد استقلال مجموعة من الدول الافريقية لم تبق الا ثلاث حركات معترف بها من طرف منظمة الوحدة الافريقية وترعاها اللجنة وهى حركة سوابو التى تمثل شعب ناميبيا وحركتين فى جنوب افريقيا وهى A. N. C المؤتمر الوطنى الافريقى و P. W. C المؤتمر الافريقى .

وهناك معايير للاعتراف بحركات التحرر الافريقية منها جدية هذه الحركات ونشاطها وشعبيتها داخل الاقليم الذى تناهض من أجل استقلاله .

وقد لعبت مصر دورا مهما بالنسبة لحركات التحرر الوطنى فى افريقيا فقد عقدت عدة مؤتمرات فى القاهرة ، نذكر منها مؤتمرات الشعوب الافريقية وكذا مؤتمرات الشباب الأفرو آسيوية .

وبعد ثورة ٢٣ يوليو احتضنت الثورة حركات التحرر الافريقية وذلك بواسطة الدعم المادى والسياسى والعسكرى ، وقد كان العديد من الرؤساء الافارقة يديرون النضال من مبنى الجمعية الافريقية التى اقيمت فى مصر نذكر منهم الرئيسى كاوندنا .

وتجدر الإشارة الى ان حركة التحرر لا تنتهى عند تأسيس الدولة وتحقبق الاستقلال ، ولكن التحرير يمتد الى ما بعد ذلك حيث نسمع عن الاستعمار الجديد ، وهو اساسا تكون سيطرته على الدولة المستقلة بطريقة غير مباشرة . فاذن التحرير والنضال ضد الاستعمار والعنصرية سواء الاستعمار القديم او الجديد مازال مستمرا .

١٠٠ د. عبد الملك عودة :

ابدا بضبط العنوان « حركة التحرر الافريقية الى أين ؟ » ..

فالافريقية نعنى بها التعريف الوارد فى ميثاق منظمة الوحدة الافريقية وهو القارة الافريقية بما تشمل من دول ناطقة باللغة العربية ودول ناطقة بالانجليزية أو الفرنسية أو البرتغالية هذا بالإضافة الى الجزر المحيطة بالقارة كمدغشقر وغيرها .

أما بالنسبة لمفهوم حركة التحرر فهناك مدرستين كبيرتين تحدثنا عن حركة التحرر بوجه عام .

— فهناك مدرسة أولى ترى أن حركة التحرر هى تصفية الاستعمار ونقل السلطة من الادارة الأجنبية الى الادارة الوطنية وترى هذه المدرسة أن مفهوم حركة التحرر ينتهى ببناء الدولة الوطنية المستقلة .

— وهناك مدرسة ثانية ترى أن حركة التحرر الافريقية لا تقف عند بناء الدولة المستقلة انها ترى أن ذلك هو مجرد علامة فى طريق واحد ولابد من استمرار حركة التحرر فقد تتغير بعض الأشخاص ، قد تتغير بعض الترتيبات والأولويات لكن تستمر حركة التحرر حتى يتم قيام مجتمع العدل ، مجتمع الاشتراكية أو التقدمية ، وبإعادة بناء الطبقات والتركيب الاجتماعى .

فحركة التحرر الافريقية لانشاء الدولة تعتبر الأصل السياسى لانها حققت أغراضها — تحقيق الاستقلال — لكن بعد هذا الاستقلال بدأت تظهر الازمة الشديدة فى بناء الدولة ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب منها : ما يتعلق بطبيعة تفكير الحركة الوطنية المتمثلة من جهة فى النخبة القائدة للحركة ، وفى الجماهير المؤيدة لهذه الحركة من جهة ثانية ، وإذا ما تتبعنا هذا التفكير سنجد أن الحركات الوطنية فى افريقيا لتصفية الاستعمار ولانشاء حكم وطنى قامت على أساس مفهوم فى الأصل أوروبى . لكن تحولت نتيجة قيام عصبة الأمم والأمم المتحدة وانتشار الفكر العالى الأوروبى الى عقيدة شبه عالمية وهو أن الاستقلال يتم على أساس بناء الدولة الوطنية أو الدولة القومية أو الدولة الأمة ، ومن ثم فالاستقلال يتم على أساس الحدود الموروثة

عن الاستعمار وبذلك — ومن ناحية الفكر العام — بدأت تظهر بعد الاستقلال أزمة الدولة أو الأمة لأن مفاهيم الدولة أو الأمة كما طرحت فى الفكر السياسى والفكر التاريخى غير موجودة فى هذه البلدان ، وبذلك ظهرت نظريات جديدة فى بناء الدولة وبناء الأمة أو العمل من أجل التكامل الوطنى .

ومنها ما يتعلق بالتركيب الاجتماعى حيث نجد أن الحركات الوطنية تحظى بالتأييد العام لعملها ضد الاستعمار أو ضد السلطة الأجنبية وذلك لأسباب اقتصادية وثقافية خاصة بالكيان الذاتى لكن بمجرد الاستقلال تبين أن التركيب الاجتماعى لهذه البلاد جد معقد حيث أن هناك بلاد فيها أقليات كانت تناضل من أجل الاستقلال لكن بعد تحقيقه بدأت تطالب بحقوقها ، أما فى اللغة أو الثقافة أو فى نصيبها فى الحكم والتنمية والانفاق الحكومى فبدأت بذلك تظهر الأزمة الشديدة فى أفريقيا بين حكم الأقليات ووحدة التراب الوطنى فهناك فى الجزائر صراع مفتوح أو مكتوم بين العرب والبربر ، فى إثيوبيا قوميات كثيرة ، فى السودان ... الخ . ولكن هذا الصراع لا يظهر على مستوى واحد أى أنه لم يصل الى مستوى رفع السلاح ، فقد يكون فى صورة سلبية ، قد يكون فى شكل مظاهرات ، قد يكون فى بداياته مطالبات أدبية وفكرية . لكن هناك أزمة فى بناء الدولة وبالذات فى أفريقيا فى الدولة المستقلة التى أعلنتها حركة التحرر ، خاصة بالتركيب الاجتماعى هذه الأزمة تلحقها أزمة فى اللغة لأن هذه البلاد كلها متعددة اللغات ، حيث نلاحظ أنه كانت تجمع فصائل ووحدات الحركة الوطنية لغة أجنبية لكن بعد تحقيق الاستقلال أخذت الأقليات تطالب بحقوقها اللغوية .

يضاف الى هذا كله صراع النخبة المدنية والعسكرية ، فنحن نعرف أن الدولة الوطنية فى أفريقيا بنيت على أساس سيادة النخبة المدنية التى تتحكم فى الإدارة والسياسة والتنمية ، لكن فى المدة الأخيرة تبين أن النخبة العسكرية بدأت تنافس النخبة المدنية ، وبدأ مسلسل من الانقلابات قام بها بالإضافة الى العسكريين المحافظين عسكريين راديكاليين ثوريين أو ماركسيين .

ومن الملاحظ أنه فى أغلب الأحوال يحدث تحالف مدنى وعسكرى اليد العليا غيه للنخبة العسكرية والمركز الثانى للنخبة المدنية وهذه العملية سائدة فى أفريقيا فى بلاد كثيرة . صحيح أن هناك أوضاع خاصة حيث أننا فى بعض

الحالات حينما نقول الدولة المصرية نجد أن هناك مؤسسات مهما كان الرأي
فى بعضها . لكن حينما نتكلم عن أزمة الدولة فى السودان أو أزمة الدولة
فى زائير ، فالدولة هنا لا زالت حديثة فى مؤسساتها ، وفى ممارساتها فهى
لم تصل الى مستوى الدولة بمعناها الشامل .

فحينما نتحدث عن هذه القضايا نتحدث عنها فى اطارها العام ، لكن
فى نفس الوقت يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن هناك أوضاع خاصة فى بعض
الدول وذلك تبعا لظروف التاريخية التى تكونت فيها كل دولة فى أفريقيا .

د . ابراهيم نصر الدين :

حركة التحرر الوطنى المفاهيم والأساليب والأيديولوجيات :

كثيرا ما نسمع فى البلاد العربية حركة المقاومة الوطنية ، الحركة
الوطنية ، حركة التحرر ، فنسمع عن المقاومة فى الجزائر ، فى المغرب ، فى
مصر .. وفى القارة الافريقية نجد حركة سوابو فى ناميبيا فهى حركات
مقاومة بهذا المعنى وكثير من الدراسات الأوروبية تتحدث عن حركة التحرر
الوطنى والتحرر الوطنى فى القارة الافريقية وفى العالم العربى بصورة
خاصة بعد الحرب العالمية الاولى وغائبا بعد الحرب الثانية ، ومن الملاحظ
أن هذه الحركات برزت تحت شعارات ظهرت فى أوروبا ، كحق تقرير المصير
وغيرها من الشعارات ، والذى يجب تأكيده هو أن الشعوب العربية
والافريقية لم تعرف من أدوات المواجهة ، والتحرير ، وتقرير المصير ، الا
بعد أن نادى بها الشعوب الأوروبية والقيادات الأوروبية .

وبهذا يمكن القول أن حركة المقاومة المسلحة ظهرت فى أفريقيا وفى
العالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية ، وأن الحديث عن الحركة الوطنية
قبل الحرب العالمية الثانية خداع تاريخى لن يؤدى الى نتيجة حيث لم تكن
هناك حركة مقاومة مسلحة قبل هذا التاريخ .

هذه الحركة المسلحة تطورت تاريخيا تحت رد فعل الفزوة الاستعمارية
وبذلك — وأثناء القرن العشرين — ظهرت حركات يمكن أن نطلق عليها اسم
الحركة الوطنية بمفاهيمها التى بدأت بتجمعات ثقافية حول النوادى لتتطور

الى شكل اضرابات ومظاهرات ، ولتتحول فى الأخير من الأسلوب السلمى الى الأسلوب المسلح .

ان المتتبع لنشاطات الحركات الوطنية يرى ان الأساليب السلمية لا تؤدى الى تغيير وانه من الضرورى الالتجاء الى الكفاح المسلح .

ومن الملاحظ ان غالبية الدول الافريقية حصلت على استقلالها بالأسلوب السلمى وهذا يؤدى بنا الى الحديث عن نمو حركة التحرر الوطنى الافريقية ، واعتقد ان هناك ظاهرة ملفتة وقابلة للتأمل فى انقارة الافريقية ، فنجد أن الحركات التى اعتمدت على أسلوب الكفاح المسلح لتصفية الاستعمار فى القارة الافريقية كانت كلها وبدون استثناء حركات لمقاومة الاستعمار الاستيطانى فى الجزائر ، فى أنجولا ، فى موزمبيق .. كلها حركات كانت تواجه النظام الاستعمارى الاستيطانى ، ولا يوجد سبيل لمواجهة هذا الاستعمار الا بالقوة المسلحة . (والاخوة الذين يتحدثون عن امكانية التفاوض مع اسرائيل وحل مشكلة الشرق الأوسط بالطرق السلمية يجب ان يأخذوا فى اعتبارهم أن هذا استعمار استيطانى شأنه فى ذلك شأن التجربة الافريقية ولا يوجد سبيل لمواجهة هذا الاستيطان الا بالقوة المسلحة فحيثما يوجد استعمار استيطانى هناك حركة تحرير مسلحة) .

نعم هناك فى بعض المناطق ، حيث نجد استعمار استيطانى لم نسمع عن حركة تحرير مسلحة ، حيث أن التحرر تم بأسلوب سلمى ، وهذا يؤدى بنا الى التساؤل :

هل قضية الاستعمار الاستيطانى هى التى أفرزت هذه المسألة أم أن طبيعة الاستعمار الاستيطانى الذى يعامل الشعوب الافريقية بوحشية وبأساليب بربرية أعلى شأن القبلية فى هذه المجتمعات الى حد ما ، مما أدى الى بروز نوع من الهوية الوطنية تعلو فى هذه المجتمعات القبلية على النحو الذى سمح بنمو بداية لقومية افريقية .

ومن الملاحظ كذلك أننا لا نجد دولة افريقية حصلت على استقلالها بالكفاح المسلح الا وتبنت النظام الاشتراكى ، وهناك حالات أخرى حصلت على استقلالها بالأسلوب السلمى وأعلنت الاشتراكية كأيدولوجية للنظام

الحاكم فيها ، ولكن — على العموم — حتى فى هذه المرحلة نجد مثلا الجزائر ، أنجولا ، موزمبيق ، زيمبابوى ، غينيا — بيساو ، وحتى فى ناميبيا حركة سوابو تعلن صراحة الماركسية أو الاشتراكية العلمية . ويظهر ذلك أيضا فى المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى يناهض النظام العنصرى فى جنوب افريقيا فهل هذا يعنى أن اسلوب الكفاح المسلح له علاقة مع النظام الاشتراكى أم لأن البنية التحتية لهذه المجتمعات ابان الفترة الاستعمارية تطورت على النحو الذى يسمح بالحديث عن طبقات وتجاوز المرحلة الاستعمارية ؟

الاستاذ حلمى شعراوى :

مسار ومصير التوجهات اليسارية فى حركة التحرير الافريقية :

ان المصدر الأول من مصادر دفع الحركة التحررية يتمثل فى الحركة الشعبية الفلاحية الثورية ، أما المصدر الثانى فهو المتمثل فى حركة الجهاد الاسلامى التى ظهرت فى السودان الغربى ، فماذا أصاب هذه الحركات الاصل لى تأخذ حركة لتحرر الوطنى توجهاتها التقدمية أو الثورية أو اليسارية بشكل متجدد فى العصر الحديث أو اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟ هذا سؤال جدير بالدرسة ، حول الانقطاع التاريخى الذى حدث للمجتمعات الفلاحية بدخول الاستعمار ودخول السوق الرأسمالى، وللتحولات التى حصلت فى الاقتصاد الداخلى الوطنى للمجتمعات الافريقية ، انقطاع نماذج الدولة نفسها أو تشكيلات الدولة التى كانت موجودة سراء فى غرب افريقيا أو شرقها .

فحركة بناء الدولة حصلت بعد المرحلة الاستعمارية فى ظروف جديدة، لكن تشكيلات الدولة لم تكن غائبة عنها أو تجهلها ، لأن هذه التكوينات كانت معروفة فى التاريخ الإفريقى .

بالنسبة للحركة الفلاحية أقول أن دخول الاستعمار والسوق الرأسمالى العالمى غير التكوينات الاجتماعية مما أدى بهذه الحركة الى عدم الاستمرار لتتصل بالتاريخ الحديث بعد الاستعمار ، ونفس الشيء بالنسبة لحركات الجهاد كالمهدية والسنوسية وحركة عثمان بن فوديو والشيخ عمر ، فلاسف

هذه الحركات اختفت بمجىء الاستعمار وتحولت الى حركات صوفية أصبحت اقرب للتعاون فى كثير من الأحيان مع الاستعمار أكثر منها ميراث لحركات الجهاد الإفريقية . ومن هنا حدثت القطيعة لحد كبير بين هذه الحركات الاجتماعية كمصدر « لتفكير ثورى » لكل اشكال المقاومة والتقدم والتغيير والنمو المستقل ، وبين الحركات الجديدة التى كانت لها نفس الأهداف . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، نلاحظ ولظروف الاتصال مع المجتمعات الأوروبية ، وللتجربة البرالية الأوروبية ، وتوجهات كثير من المثقفين والثوريين والسياسيين للمجتمع الغربى بالأساس ، كان اقرب الى التفكير الديمقراطي على أكثر تقدير . وفى هذا الصدد فالقادة السياسيين والثوريين بالنسبة لمجتمعهم لم يأتوا صدفة ، وهنا لا الجأ للتفسير الطبقي التقليدى ، أى انهم كانوا يمثلون طبقة برجوازية غير راغبة فى العمل الثورى ... الخ . ولكن عندما بدأت حركات التحرير — وقبل بدء ونمو حركة الكفاح المسلح — اتجهت هذه الحركات للنموذج الهندى مثلا ، فغاندى والغاندى كان لها تأثير كبير فى هذه الحركات ، والى حد كبير تعتبر التجربة الهندية لفترة طويلة مصدرا أساسيا عند نكروما وعند الكثير من الحركات الوطنية ، فالى ذلك الحين لم تكن هذه الحركات ثورية بعد بالمعنى اليسارى ، الى أن ظهر نموذج آخر ، تمثل فى النموذج الصينى ، وبالتالي بدأت تظهر أفكار الكفاح المسلح من جنوب شرق آسيا الى شرائح ولفة ثورية جديدة .

من الملاحظ أن كلمة العنف سنة ١٩٥٨ لم تكن ذات شعبية كبيرة بعد فى إفريقيا حتى ظهرت حركات الكفاح المسلح التى اتخذت العنف كاسلوب ثورى لمواجهة الاستعمار .

وهناك مصدر آخر من المصادر التى جاءت كتأثير للصلة بالدولة الاشتراكية وبالفكر الاشتراكى عموما ، وذلك بتوجهات مختلفة كالماوية التى كانت مصدرا أساسيا بالنسبة للفلاحين والفانونية (نسبة الى فرانز فانون) الذى يدين له شباب الحركات الوطنية فى الكثير من مناطق إفريقيا ، وبذلك بدأت التيارات تنمو بنوع من الإفريقية الفلاحية ، فيها نوع من العنصرية ، الشعب الأسود ضد الشعب الأبيض ، فأصبحت بذلك حركة التحرر الوطنى أمام هذه النماذج من الكفاح المسلح المبلور من التجربة الصينية ثم الفيتنامية من الفانونية التى تعبر عن ضرورة انتفاض الفلاحين ومحاربتهم المدن ،

لنتحول الى الطريق العام فى الأدبيات السوفيتية التى كانت على 'تصال بحركات التحرر مباشرة لكن بصورة غير قوية لأن السوفيت كانوا براجمانيين حيث أن الشعار الذى وضعوه هو شعار التطور اللاراسمالى ، وعلاقتهم بحركات التحرر كانت عن طريق الدول المتحررة او التقدمية كمصر ونكروما وهذا الاتصال هو الذى كان يبعث هذا التيار اليسارى الذى أثر فى الحركة الوطنية .

وقد قيل الكثير عن التجارب التى أعلنت الاشتراكية والتقدمية والثورية على يد النخب العسكرية او المدنية .

فالى أى شىء ترجع هذه التوجات الجديدة ؟ لماذا ظهرت ؟ هل حل عنصر استعمارى جديد بديل للعنصر الاستعمارى القديم فى سلب التجارب اتصالها التاريخى وامكانياتها فى فرض تجربة تحرر وطنى ذا توجه يسارى أو كفاحى بالشكل القديم ؟ أم هو مجرد فشل فى بنية حركات التحرر ؟ وهذه المسألة جديرة بالدراسة ، لكى تبين دراسة أشكال الاستعمار الجديد وطريقة الاحتواء ، وما اذا كانوا قد حولوا الفلاحين الى فكرة السوق واقتصاديات السوق عن طريق الراسمالية الجديدة ، فلأن هناك تحولات كثيرة جاءت عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات على يد التغفلل الثقافى الامبريالى والتسلط الثقافى والاقتصادى على المجتمعات الجديدة ، هل هذا يرجع الى النخب العسكرية التى لم تستفد من تجارب التاريخ بشكل جاد ولم يقدموا تجارب تحول اساسى فى معظم الدول الافريقية ؟ أم أنه ما زال هناك مشكل التسلط الامبريالى بوسائل جديدة لاستمرار القطيعة التاريخية بين الجماهير وتنظيماتها السياسية ونخبها المعبرة عنها وبين امكانيات تحولات جديدة لصالح حركة التحرر الوطنى الافريقى ؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أنه ما زالت حركات الكفاح المسلح فى أنحاء مختلفة من افريقيا تثبت أن عملية التحرر لم يكن أمامها الا هذا الاختيار الثورى والتوجه اليسارى ، وهذه بارزة فى جنوب افريقيا ، وهى تجربة كبيرة جدا لشعب يصل الى ٣٠ مليون نسمة يمثلها حزب المؤتمر الوطنى الافريقى الذى يعتبر من اكبر التنظيمات السياسية فى افريقيا بل وفى العالم الثالث ، والذى له توجهات يسارية بالكامل . والمشكل القائم هو أنه لا الدول الافريقية تستطيع كدول مستقلة أن تعزل نفسها عن المواقف التى

تواجه فيها حركة التحرر الافريقية بشكلها المباشر ، ولا حركات التحرر نفسها تستطيع أن تعمل بعيدا عن توجهات الوحدة الافريقية والحركة الافريقية . والتشابكات التى تحدث لحركات التحرر وتوجهاتها بين الدول المستقلة وهى جزء من حركة التحرر شهدت فى اطار نظرة واسعة للنظام الرأسمالى والنظام الامبريالى لم يتمثل فقط فى اطار اقتصادى ولكن فى اشكال تسلط والاعاقبة بالنسبة لحركة التحرر ، كبيرة جدا وصعبة وتحتاج الى دراسات كثيرة .

د . محمد السيد سعيد :

حركة التحرر الوطنى الأفريقى ٠٠٠ الى أين ؟

التميز بين حركات التحرر الوطنى فى افريقيا يقوم على المهام المحددة التى تبرزها ظروف النضال من أجل الاستقلال السياسى ، والتميز العنصرى ، وتأمين سيادة الدول الافريقية على أرضها . وهذا التمييز له حدود معينة :

التميز بين حالة الدول الافريقية المستقلة بالفعل ، والدول الافريقية التى لا تزال تناضل من أجل الاستقلال . وهناك مجالات عديدة للاشتباك بين الفئتين . أولاها فى جنوب افريقيا . فالأولى وهى حركة مستقلة سياسيا ولكنها مشتركة مباشرة فى حركة النضال السياسى والعسكرى الضرورى لتحرير ناميبيا وجنوب افريقيا من ناحية الهجوم والدفاع ، هناك اشتباك ثانى يتحدد فى نوع معين فى القضايا التى تشترك فيها حركات النضال والتحرر الوطنى فى داخل جنوب افريقيا وناميبيا من ناحية ، وباقى افريقيا الاستوائية وافريقيا بصفة عامة .

من ناحية ثانية هناك قضية الوحدة الوطنية بين التيارات السياسية الوطنية والتى تستند ايضا على قاعدة من الوحدة الوطنية بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة ، وفى حالة جنوب افريقيا عموما شاملة ناميبيا نجد أن قضية الوحدة الوطنية على المستوى السياسى وعلى المستوى الاجتماعى والثقافى قضية شائكة باعتبار أن أحد الاستراتيجيات الذى يتبناها النظام العنصرى فى جنوب افريقيا هو اطار التغيرات القبلية ، وتقسيم الشعب فى جنوب افريقيا وناميبيا وأحد التقنيات المستعملة فى ذلك لجمع السكان

الأصليين فى مناطق مختارة ، وفى مناطق زراعية محدودة الموارد ، وبالتالي يصبح من الصعب الحديث عن وحدة هذا الشعب الإفريقى من خلال الصراع على الأرض المتاحة للزراعة .

مجال شتباك آخر بين حركة التحرر الوطنى الإفريقى بين الدول المستقلة والدول التى لا تزال تناضل من أجل الاستقلال ، وهو المتمثل فى المركز السياسى لإفريقيا الاستوائية فى العالم ، فحركة التحرر الوطنى فى جنوب إفريقيا وناميبيا قد اشتدت عودها بعد منتصف السبعينات بعد حصول المستعمرات البرتغالية على استقلالها ، وقد أدى ذلك الى أمرين :

الأمر الأول : اشتعال الحرب الباردة من جديد بين دول المعسكر الاشتراكى ودول المعسكر الرأسمالى وفى هذه الحرب يتضح — فى تقديرى الشخصى — أن المبادرة قد انتقلت تاريخيا من المعسكر الاشتراكى الى المعسكر الغربى فهذا الأخير هو الذى يضغط بشدة على المعسكر الاشتراكى من أجل تشييته وضعفته ومن أجل أحداث القلاقل فيه وجباره على تقديم تنازلات فى السياسات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية ، وفى الميدان الاستراتيجى العسكرى أيضا .

الأمر الثانى ، هو أن الدول والمجتمعات الإفريقية التى حصلت على استقلالها منذ عقدين على الأقل فى فترة منتصف السبعينات ، كانت قد اتضحت مشكلات التطور الاقتصادى والاجتماعى فيها الى الدرجة التى انعكست سلبا على دور الحركة الوطنية فى جنوب إفريقيا وناميبيا .

ومن ثم هناك درجة من التمييز وهناك حدود لهذا التمييز بين تطور الحركتين من أجل التحرر فى جنوب إفريقيا وفى بقية دول إفريقيا المستقلة .

ففى حالة الدول المستقلة سياسيا بالفعل ، نجد أن مستوى حركة التحرر الوطنية يختلف عما قبل فى إطار حركة الاستقلال السياسى . ففىما قبل الاستقلال السياسى كان الأمر واضحا وهو النضال من أجل انتزاع الدولة الإفريقية المستقلة من الاستعمار التقليدى ، أما فى الوقت الراهن فتقضية التحرر الوطنى أصبحت غامضة وبالتالي هناك درجة ما من الاختلاف فى تحديد المضمون التاريخى المحدد للحركة الوطنية أو لحركة التحرر الوطنى فى إفريقيا المستقلة سياسيا (من الناحية الأسمية على الأقل) .

والملاحظ بصورة عامة أن الفكر الأفريقي في مجال تحديد المستوى الراهن لحركة التحرير الوطني يتراوح بين اتجاهين أساسيين هو الاتجاه الرومانسي الثوري ، والاتجاه البراجماتي .

ولم نجد بعد نوع من التداخل بين المهمات العملية للنضال من أجل التحرير الوطني للوصول الى المثل الأعلى للتحرر الوطني وهو الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي المتكامل ، والاتجاه السائد بين أغلبية المثقفين الأفريقيين هو الاتجاه الذي يؤكد أن الاستقلال الاقتصادي هو المستوى الرئيسي لحركة التحرير الوطني في الوقت الراهن . وقد تكون هناك بعض الاختلافات في التحديد الفنى للمدى المطلوب من الاستقلال الاقتصادي ولكن النزعة السائدة بين المثقفين الأفارقة هي نزعة تتمثل في الانفصال شبه التام أو الديناميكي عن النظام أو السوق الرأسمالي العالمي .

في واقع الأمر ، أننا يجب أن نحيط هذا الشعار — شعار الانفصال التام عن السوق الرأسمالي العالمي — بالمشكلات المحددة التي تواجهها الدول الأفريقية ، واعتقد أن الشعار المناسب لتحديد المضمون لحركة التحرير الوطني في افريقيا المستقلة ينبغي أن يقاس بطبيعة التناقضات التي تعاني منها افريقيا المستقلة في الوضعية الراهنة . ففي رأبي أن التناقض الأصلي يدور في مجال انهاء التآكل الاجتماعي واعادة البناء بعد فترة طويلة من تفاقم المشكلات الأفريقية التي هي مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية في نفس الوقت . فافريقيا تواجه ثلاث مجالات من المشاكل مرتبطة فيما بينهما :

فهناك أول مشكلة المجاعة بكل آثارها الاجتماعية والاقتصادية فهي تعنى مجرد حرمان الانسان الأفريقي في مجال البناء الاجتماعي مما يدفعه في اتجاه انخفاض وفي اتجاه اسقاطي . ثم هناك مشكلة التحلل المؤسسي ، فبعد فترة طويلة من عجز التشكيلات الأفريقية عن انتاج ما يمكن تسميته تكتل سلطة قادرة على فرض الاستقرار في حدود أداء واجبات الدولة الوظيفية بصورة تمكن المجتمعات الأفريقية من الانتقال من مرحلة التضعف السياسي والاقتصادي الزمن الى حد أدنى من الاستقرار الاقتصادي والتنموي .

المشكلة الأخيرة تتمثل فى الضغط العميق على النظم الاجتماعية نتيجة مراحل طويلة فى العنف المستديم وهو يمثل ظواهر تاريخية ضخمة لها اثر كبير على افريقيا تتمثل فى الهجرة الى الداخل أو الخارج .

فى اطار هذه المشاكل الثلاث اعتقد — شخصا — أن الحصول على الاستقلال التام فى اللحظة الراهنة لا هو امر ممكن ولا هو امر من الحلول الصحيحة للتناقضات التى أوردتها ، انما اعتقد اذا أخذنا المفهوم بمعنى اعادة البناء الديموقراطى للمجتمع الوطنى والمجتمع الافريقى بصورة عامة . اذا أخذنا بهذا المفهوم كمركز اساسى اعتقد اننا سننظر الى قضية الاستقلال الاقتصادى بمنظور جديد وهنا اعتقد أن الاعتماد الذاتى والجماعى على النفس الى أقصى حد ممكن تاريخيا يصبح هو الشعار المناسب فى اطار العلاقة بين الدول الافريقية والدول الغربية بمعنى أنه ليس المطلوب هو فك الارتباط بين الاقتصاديات الافريقية المعاصرة من ناحية ، والسوق الراسمالى العالمى من ناحية أخرى ، انما هو اعادة صياغة هيكل هذه العلاقات وشروطها على نحو جذرى .

أما فيما يتعلق باعادة البناء الديموقراطى فذلك يقتضى التفكير فى تغيير هام فى بنية النظام الاقليمى الافريقى أو فى مبادئ منظمة الوحدة الافريقية . فال موقف الحالى لمنظمة الوحدة الافريقية لم يعد مناسباً فى المرحلة الراهنة . وليس مناسباً كذلك البدائل المطروحة لدى الرحكات الانفصالية ، فالانفصال والوضع القائم ليس حلاً انما يؤدى الى تعميق المشكلات الافريقية واعتقد أن الحل المطروح هو تعميم وتعميق المشاركة فى الحكم السياسى على أقصى نطاق ممكن ، وبناء مؤسسة افريقية اقليمية قادرة على تثقيف المواطن الافريقى وتوعيته بالنسبة للحالة الثانية وهى حالة النضال من أجل الاستقلال وتصفية العنصرية فى جنوب افريقيا .

اعتقد أن المشكلة الأساسية الراهنة تتمثل فى رؤيتنا لمهام النضال الوطنى فى ناميبيا وجنوب افريقيا على نحو ايجابى خاصة بعد الاتفاق الدبلوماسى بين موزمبيق وجنوب افريقيا ، ففى اعتقادى أن الحلقة المركزية فى النضال من أجل انتزاع استقلال ناميبيا وجنوب افريقيا هى حلقة النضال العسكرى ، وداخل هذه الحلقة هناك درجة محددة من التدهور ادى الى اغتيال سامورى ميشيل والى الوضع الحالى فى انجولا ، وأن مهمة تشديد

النضال العسكرى واعادة بناءه من جديد هى مهمة كل افريقى ، وأن من الضرورى لذلك اعادة بناء التضامن والوحدة التى لها مضمون عسكرى بين كل افريقيا وبين حركات التحرر الوطنى الافريقى والتى ينبغى أن تفكر فى هذا العامل بصورة اكثر جدية اكثر مما هى عليه الآن ، وذلك بالنسبة لمستويات النضال الداخلى والخارجى .

الاستاذ أحمد يوسف القرعى :

دروس حركة التحرير فى جنوب افريقيا من وجهة النظر العربية :

هى ليست دروس بالمعنى المألوف وانما هى مجرد ملاحظات من واقع الدراسة المقارنة لواقع الفصل الآخر فى عصر التحرير العربى والافريقى .

فمصر التحرير العربى الافريقى الذى بدأ أوائل القرن العشرين وبلغ مرحلة من النضج فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، واقصد به التحرير بالمعنى الضيق أى فى منطقة الجنوب الافريقى وفى فلسطين وبالذات قضايا عصر التحرير الراهن ، هناك خمسة دروس اقدها باختصار من واقع الدراسة المقارنة لحركة التحرير العربى والافريقى معا ، لأننى أعتقد أن الدراسات الافريقية فى مصر والوطن العربى تفتقر الى المزيد من الدراسات المقارنة ، هناك فعلا كتابات عديدة ومتنوعة فى الشؤون الافريقية باللغة العربية ، وهناك كذلك كتابات عديدة فى حركات التحرر العربى ، لكن من النادر جدا أن نجد دراسات مقارنة تحاول استخلاص الدروس المستفادة .

— الملاحظة الأولى : درس تنظيمى حول ظاهرة استمرارية حركات التحرير الافريقية العربية ، فنذكر أنه منذ أسابيع قليلة احتفلنا بمرور ٧٥ سنة على قيام المؤتمر الوطنى الافريقى لجنوب افريقيا ، وظاهرة الاستمرارية تلازمها ، وهذا لا يعنى أنها كانت طوال هذه السنوات اطارا واحدا ، بل بالعكس تنوعت القيادات من المقاومة السلمية الى الكفاح المسلح ... الخ ، حتى نوعية الشخصيات من بتولى ، تامبو الى نلسن مانديلا ، كل هذه الزعامات وهذه القيادات شكلت حركة التحرير ولكن كان ذلك فى اطار تنظيمى واحد هو المؤتمر الوطنى الافريقى الذى تأسس فى سنة ١٩١٢ ولازال يقود حركة التحرير فى الجنوب الافريقى .

— الملاحظة الثانية : درس حول تعبئة الراى العام العالمى لمواجهة الامر الواقع التى تطبقها كل من اسرائيل وجنوب افريقيا ، وارى ان الأمم المتحدة تمارس دورا فعلا فى القضية لناميبية أكثر من القضية الفلسطينية ، فقد أنشأت سنة ١٩٦٦ صندوقا لناميبيا ، بل أكثر من هذا أوجدت خطة لما قبل الاستقلال وخطة لما بعده ، خطة تنمية كاملة للواقع فى ناميبيا نفسها من حيث التعليم والاقتصاد والسياسة وكل نواحي الحياة على أرض ناميبيا ، وأعتقد أن الأمم المتحدة لم تمارس مثل هذا الدور بالنسبة لفلسطين .

— الملاحظة الثالثة : درس حول تسريب الفكر الارهابى الصهيونى الى جنوب افريقيا ، وأعتقد ان هناك نقطة يجب ان أوليها عناية أكبر من واقع قراءتى لمحاكمة نلسن مانديلا سنة ١٩٦٤ وجدت اعترافات هذا الزعيم الوطنى ، الذى لا يستطيع الانسان التشكيك فى وطنيته بالنسبة لبلاده ، وبدى تأثره بالفكر الصهيونى فى اعداد منظمة رمح الوطن التى تعتبر الجناح العسكرى للمؤتمر الوطنى الافريقى ، والتى قادت الكفاح المسلح منذ بداية الستينات فى جنوب افريقيا ، هذا المواطن الافريقى نلسن مانديلا اعترف فى محاكمته انه تأثر بالعصابات الصهيونية التى قادت المقاومة ضد العرب وضد الاستعمار البريطانى قبل اعلان قيام دولة اسرائيل .

وهناك حركات تحرر افريقية كثيرة تأثرت بهذا التسريب الاسرائيلى أو الصهيونى حيث أن شكل رمح الوطن تكاد تشبه « منظمة فتح » الجناح العسكرى لحركة التحرير الفلسطينية ، ويحكى نلسن مانديلا كيف التقى بجماعة صهيانية فى جنوب افريقيا ، وكيف أثروا فيه فى تشكيل رمح الوطن على نفس التنظيم ونفس التكتيك ونفس الاستراتيجية ، وأعتقد أن رمح الوطن أثبتت وجودها فعلا فى خلال مدته ، وهذا قصور من الدراسات العربية والدراسات المصرية بصفة خاصة ، لان الوطن العربى قاد كفاح مسلح متعدد الألوان والأشكال منذ عصور قديمة وحديثة ومعاصرة ، لكن للأسف كنا نتحدث عن حركات التحرير العربية بأسلوب اعلامى لم نحاول تقديمه على هيئة كتب تنظيم . ككتب ماو وجيفارا المنتشرة بين أيدي الثوار الأفريقيين . وكان من الممكن لنلسن مانديلا — الذى زار القاهرة قبل اعتقاله بشهور قليلة — ان يستفيد من تجارب الكفاح المسلح العربى بدلا من استفادته من تجارب المقاومة الصهيونية للوجود العربى والاستعمار البريطانى قبل ١٩٤٧ .

— الملاحظة الرابعة : هو درس اعلامى من واقع الدراسة المقارنة لمذبحتى ساردفيل ودير ياسين . فمذبحة ساردفيل وقعت فى جنوب افريقيا فى ٢٠ مارس سنة ١٩٦٠ وفى ٢١ مارس تحتفل اجهزة الاعلام المصرية والعربية بهذا اليوم وكذلك الراى العام العالمى ، لاننا نحتفل فى اطار احتفالات أو توصية الأمم المتحدة نفسها ومنظمة لوحدة الافريقية بالاحتفال بهذه المناسبة ، وبعدها بأيام قليلة تأتى فى ٩ ابريل ذكرى مذبحة دير ياسين ، ولم نجد صوتا عاليا ليتذكرها واعتقد ان الجيل المعاصر لا يتذكر أحداث دير ياسين .

لماذا يحتفل الراى العام العالمى بذكر مذبحة ساردفيل بينما ينسى مذبحة دير ياسين رغم ان هذه الأخيرة تفوق الأولى من ناحية الخسائر والقَتلى فمذبحة ساردفيل جاءت نتيجة لحدث طارئ بينما مذبحة دير ياسين جاءت اثر مخطط موضوع تماما فى اطار استراتيجية عسكرية . ويمكن انطلاقا من الاستفادة من دروس هاتين المذبحتين على الأقل كمدخل اعلامى للقضية العربية .

— الملاحظة الخامسة : درس حول الممارسة الصهيونية والعنصرية فى الأرض العربية المحتلة والأرض الافريقية المحتلة . ومن الملاحظ ان السلطات الاسرائيلية استطاعت بشكل مباشر أو غير مباشر السيطرة على أكثر من نصف أراضى الضفة مما حول المجتمعات الفلسطينية الموجودة فى الأراضى المحتلة الى خليط من الجزر المعزولة . وهذه بالضبط هى الصورة الموجودة فى الجنوب الافريقى .

اعتقد اذن ان الدراسات المقارنة لواقع حركة التحرير العربى فى الأراضى المحتلة وواقع حركة التحرير الافريقى فى الجنوب الافريقى سيفيدنا كعرب وكأفارقة .

التعليقات والمناقشات

د. رضا فودة :

— من الملاحظ أن هناك سمة غالبة على حركة التحرر الإفريقية وهى تعدد حركات التحرر فى الدولة الواحدة ، وهذا يؤدي الى اضعاف عمل هذه الحركات وابطاء سرعة تحقيق الاستقلال وبالتالي يكون التأثير فى الحركات وسرعة تحقيق الاستقلال ضعيفا ، وقد نشأ من تخوف الحركات من بعضها خشية قيام بعض الحركات بالاستيلاء على الحكم . وبذلك يقوم الصراع وتحاول كل حركة السيطرة على الأخرى . كما حصل فى أنجولا ، ونلاحظ أن نفس هذه العملية قائمة داخل منظمة التحرير الفلسطينية .

— وما دمتنا فى ندوة العرب فى إفريقيا أرى أننا كعرب ليست لنا استراتيجية موحدة للتحرر فى إفريقيا فى حين أنه يوجد حاليا ست دول عربية من دول إفريقية كان من الممكن أن تكون كحلقة وصل وتقوم بدور مساعدة حركة التحرر الإفريقية ، فالمساعدات العربية اذن لحركات التحرر ضعيفة جدا وخاصة فى المناطق التى توجد فيها حركات تحرر اسلامية .

د. ابراهيم صقر :

هناك استعمار اقتصادى واستعمار استيطانى لا يزال قائما وبالذات فى دول العالم الثالث التى لم تحقق بعد استقلالها الشامل والكامل ، فهناك صراع قائم بين الدوائر المحلية والدوائر الإقليمية ، ولهذا فعملية التحرر بالمعنى الشامل عملية صعبة تحتاج الى وقت وتواجه مقاومة شديدة ، وذلك رغم الاتجاه العام لعملية التحرر .

لكن ما هو الدور الذى يلعبه العرب فى حركة التحرر الإفريقية فالتأثير السياسى الكبير الموجود داخل إفريقية آت من أثر وحى عبد الناصر فى عملية الدائرة الإفريقية وفى عملية التحرير فى إفريقيا وبالتالي فقد ساعد حركة التحرر الوطنى لأنها كانت تتلاءم مع الظروف وبمرونة شديدة .

فنحن كذلك يجب أن نتلاءم مع الظروف الحديثة ويجب أن نعمل لتحقيق

مرحلة من مراحل التحرر الاقتصادى والاجتماعى وذلك لن يتم الا بمساندة ومؤازرة الجماهير والشعوب الافريقية وتوعيتهم قصد تحقيق الهدف الأساسى من التحرر .

د. على الدين هلال :

لى ثلاث ملاحظات :

أولا : أريد تحديدا دقيقا لحركة التحرر الوطنى من أين أتى هذا المفهوم؟ وأنا غير مستريح لبعض الاجتهادات التى تبدو منطقية لكن هذا المفهوم له أساس تاريخى ، وفى اعتقادى أن هذا المفهوم اشتراكى ، فنحن نتحدث عن الحركة الوطنية ، عن الكفاح ضد الاستعمار ، وضد الاحتلال ، كيف أتى اسم « التحرر الوطنى » أو « التحرر القومى » ، فالجذور التاريخية لهذا المفهوم تساعدنا على وضعه فى سياقه التاريخى وعلى الاستخدام الصحيح له . ويدخل فى هذا هل أن الانفارقة أطلقوا هذا الاسم ، أو أن الانفارقة سموا ما يفعلونه بحركة التحرر الوطنى أو القومى الأمريقى .

ثانيا : ألم يأت الأوان لكى نتعدى العموميات وندخل فى الخصوصيات؟ هل نستطيع أن نتحدث عن حركة تحرر وطنى افريقى واحدة ؟ أم أنه هى تنوعات فى القارة ، وخصوصيات ومراحل تطور مختلفة تفرض علينا الأخذ بعين الاعتبار لهذه الخصوصيات ؟

ثالثا : ضرورة وضع ما يحدث فى افريقيا فى إطاره الاقليمى والدولى ، فما نسميه حركة تحرر وطنى هو فى واقع الأمر حركة تحلل الامبراطوريات التقليدية ، وهو أصلا التزام المعسكر الاشتراكى والوحدة الصينية السوفيتية لدعم هذه الحركات ، وانتصار حركة التحرر الافريقية ووقف مدها ارتبط أيضا بانقسام المعسكر الاشتراكى ، وارتبط أيضا بهزائم حركة التحرر الوطنى فى آسيا من ناحية وفى الوطن العربى من ناحية ثانية ومن ثم السؤال :

كيف نجد هدف العملية الآن فى إطار وفاق أمريكى سوفيتى أو فى إطار حرب باردة أمريكية سوفيتية ؟ بعبارة أخرى لا اعتقد حلا افريقيا يمكن أن يستمر بمعزل عن التواجد العالمى فهناك قوة متحركة فى العالم وأى حلول فى هذه الأمور لابد أن تكون فى سياق هذا العالم .

د. أحمد عبد الله :

ان التصور المعاصر لواقع القارة الافريقية يفرض على شعوب أن يكون فيها حد أدنى من المسؤولية ، فالتحاور المطروح حولها يقتضى قدرا من المفهوم فمن حيث المفهوم التقليدى للتححر لم يتم حسم قضية الأهداف الشرعية والسياسية للمجتمعات الافريقية ، حيث موضوع الدولة ما زال موضوعا للجدل . من يحكم وكيف ؟ ... الخ . اذن التححر بمعناه القديم ما زال قائما حيث لم يوجد بعد شكل الدولة المستقلة وقواعد الصراع السياسى فى داخلها ، وفى ظل استمرار النزاعات فى القارة الافريقية وتوزيع أكثر من قضية على أكثر من دولة مستقلة ذات سيادة ، الا يصح فى تحديات التححر للمجتمعات الافريقية اتباع مفهوم السيادة المشتركة وليس فقط مفهوم السيادة الموحدة للدولة الواحدة كما هو مطروح عند الأوروبيين مثلا لحل المشاكل الإقليمية والقرمية ؟ فمنظمة الوحدة الافريقية بتركها للأوضاع على ما هى عليه لم تنجح فى منع الصراعات الإقليمية ، بل حدثت تدخلات عسكرية فيما بين دول افريقية وبعضها البعض كما هو الحال فى أوغندا وتنزانيا ...

— التححر بمفهومه الاقتصادى ، هل هناك أى أمل فى تححر الدول الافريقية اقتصاديا بمعنى تغيير نظام القوى فى توزيع الثروة الدولية بدون موقف جماعى ؟ أم أن الأمر منوط بالموقف الجماعى للقارة الافريقية ؟ وبمعنى أصبح لخلق كتلة تنمية أو محور افريقى واضح ومحدد يساعد على ايجاد نصيب أكبر من الثروة الدولية على المستوى الدولى .

— التححر بالمفهوم الثقافى : فنحن نشهد فى افريقيا مثلا حركات اسلامية واسعة النطاق لم تقتصر على العالم العربى فقط ، بل نجدها فى افريقيا المسلمة ، بل ونجد عودة الى التراث والأصول الاسلامية حتى لدى الشعوب الافريقية غير المسلمة ، وفى هذا المدى هناك طرد لقضية التححر الثقافى ، وأظن أن الربط بين قضية التححر الثقافى والتحرر الوطنى قضية معقدة ولكن رغم ذلك نلاحظ انه داخل المناطق التى توجد فيها حركات التححر الوطنى فى افريقيا توجد جماعات اسلامية وأقصد بذلك الجماعة الاسلامية داخل جنوب افريقيا حيث ثبت لدينا ما يفعله هؤلاء فى مشاركتهم فى تحرير الجنوب الافريقى .

الردود على المناقشات والتعليقات

٤. د. عبد الملك عودة :

ان موضوع حركة التحرر الافريقى جد معقد وفيه آراء مختلفة وكثيرة
وانا اتفق مع ضرورة ايجاد مفهوم محدد لحركة التحرر الوطنى ، فالأمم المتحدة
كانت تتكلم فقط عن الاستعمار وحركة الاستقلال الوطنى فى المستعمرات
واشباه المستعمرات ، وقد تطور المفهوم بعد انعقاد أول مؤتمر آسيوى فى
فى الهند ، قبل ان يتطور باندونج وبذلك بدأت تنتقل كلمة « تحرر » الى
المناطق المستعمرة .

اما كلمة **National** والتي تترجم الى وطنى أو قومى ، والعيب
يرجع الى الترجمة التى لم تحدد مفهوم واضح لهذه الكلمة .

وعلى العموم بدأ استعمال هذا المفهوم فى مختلف الأدبيات التى تحدثت
عن الاستعمار ، ومن الملاحظ ان المد اليسارى الذى تحول الى المستعمرات
والامبراطوريات الاستعمارية لعب دورا كبيرا فى ابراز الحركات الوطنية
وفى مساعدة حركات التحرر الوطنى لتصفية الاستعمار ، ومن ثم نجد ان
كل الحركات المناهضة للاستعمار اخذت تسمى نفسها بحركات التحرر حتى
تلك التى تعتبر حركات انفصالية اطلقت على نفسها هذا الاسم . فحركة
التحرر بمفهومى الخاص هى تصفية الاستعمار وعملية بناء الدولة الافريقية
المستقلة ، وبعد ذلك يمكن تناول حركات التحرر حسب ايدولوجيات مختلفة
فهناك من يريد تغيير المجتمع بثورة أو بانقلاب ، وهناك من يريد تبنى
الاشتراكية أو الديمقراطية فى بناء المجتمع ... الخ .

انا متفق على وجود عموميات هى التى قادت الحركات الافريقية
والعربية فى بدايتها لكن وبعد المعارك بدأت تظهر الخصوصيات وبالذات
فى مرحلة التحول من فترة تصفية الاستعمار الى مرحلة بناء الدولة ، والتى
تمثلت فى كيف نبني الدولة ومن يسيطر عليها ... الخ .

ان دور الغرب الأوروبى واضح وكذا بالنسبة لمصطلحات الاستقلال
القومية وبالتالي دور الاشتراكيين الأوروبيين فى بناء الأحزاب الوطنية ،

فرغم رفضنا لكل ذلك فهي أشياء مفروضة علينا ولا يمكن أن نتحرك خارج إطارها والمتغيرات الدولية واضحة في بلدان العالم الثالث ، وبالتالي نرى انه سواء الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتي لا يسمحان بتفكك أية دولة ، فنحن نعني بالحركة الوطنية — اذن — الدولة المستقلة بمفهوم الأمم المتحدة والقانون الدولي .

فيما يخص التحرر بمعناه الثقافي : أرى أن الثقافة مهمة جدا في التفكير الأفريقي ، والثقافة هنا ليس بمعناها الاسلامي فقط ، ولكن بمعناها التقليدي كذلك فالأصول الاسلامية واضحة في الطرق الصوفية الاسلامية التي انتشرت في أفريقيا المسلمة قبل مجيء الاستعمار بدليل أن معظم الزعماء كانوا صوفييين الأمير عبد القادر الجزائري ، عبد الكريم الخطابي ، الشيخ عمر عثمان بن فوديو ... كل هؤلاء تربوا في إطار الطرق الصوفية ولعبوا دورا مهما في الحفاظ على الاسلام في أفريقيا غير العربية ، بل وشاركوا مشاركة ايجابية في تحرير المستعمرات ، والأمر واضح في جنوب افريقيا حيث يشكل التيار الاسلامي قوة فعالة في تحرير جنوب افريقيا .

السيد السفير البديوي :

ان رصد العرب في مساعدة افريقيا جد كبير فمصر بالذات منذ الثورة — على وجه الخصوص — لعبت دورا كبيرا يختلف عن باقي الدول العربية فيما يخص تقديم المساعدات لحركات التحرر الوطنية . ومن الملاحظ انه بالعمل داخل منظمة الوحدة الافريقية أمكن للدول الافريقية أن تتعاطف مع الدول العربية وبالأخص فيما يتعلق بقضية فلسطين ، ففي سنة ١٩٧٥ اعتبرت القضية الفلسطينية قضية افريقية شأنها في ذلك شأن باقي القضايا الافريقية ، وقد وصل الأمر الى عقد مؤتمر للتعاون العربي الافريقي في القاهرة في سنة ١٩٧٧ ، الا انه لم يكتب له الاستمرار وذلك بعد تجميد عضوية مصر في جامعة الدول العربية ، وكذا لانعكاس الموقف العربي المتردى على رصد العرب داخل افريقيا ، وتحول بذلك هذا المؤتمر العربي الافريقي من الايجاب الى السلب .

قضايا الأمن والاستراتيجية فى أفريقيا

حلقة نقاش

المشاركون :

— أ. د. على الدين هلال

— السفير أحمد حجاج

— أ. د. عبد الملك عودة

— د. نازلى معوض أحمد

كلمة رئيس الجلسة : أ. د. علي الدين هلال

نحن نتحدث عن تكامل العلوم الاجتماعية ، وعن ضرورة الحاجة الى مفاهيم مركبة تلخص وتجمع البيانات والمعلومات المختلفة المشتقة من العلوم الاجتماعية المختلفة .

ومفهوم الأمن أو مفهوم الاستراتيجية هما من المفاهيم المركبة ، فعندما نتحدث عن الأمن مثلا على الفور يأتى الى ذهن الابعاد الاقتصادية للأمن : الاجتماعية ، السياسية ، الثقافية ، والمعنوية . فحينما نتحدث عن الأمن نتحدث عن ظاهرة معقدة متعددة المستويات متنوعة الأبعاد ، فهذه الجلسة تتناول بعض أو أهم قضايا الأمن والاستراتيجية فى القارة الافريقية ، سواء على المستوى الاقليمى (أى افريقيا) أو على المستوى الدولى أى علاقاتها بالتوازن الدولى أو بالقوى الخارجية ، واعتقد أن هذه الجلسة تنمط طبيعية لجلسة حركة التحرر الوطنى ، أو استكمال استقلال الدول الافريقية ، وهذه المسألة مرتبطة أشد الارتباط بقضية الأمن سواء بمعناه الداخلى أو بمعناه الاقليمى والدولى ، فأمن الدول داخليا مرتبط بقضية بناء الدولة وبالتحرر ، أما خارجيا فتثار قضية مهمة خاصة بالنسبة للدول الصغيرة ومنها الدول العربية والمنتملة فى ماهية علاقة أمن الدول الصغيرة بأمن الدول الكبرى ، وبغض النظر عن الشعارات المرفوعة أو الامانى النبيلة ، قدر لنا أن نكون أبناء لدول صغيرة محدودة الامكانيات ، فأين نحن بين صراع العملاقة ؟ وهل نستطيع فعلا أن نحقق امانينا بمعزل عن أى علاقة ما بهذه الدول الكبرى أو تلك ؟ اعتقد أن هذا السؤال وارد وربما الإجابة عليه لا تكون بنعم أم لا . وانما يجب أن نتعرف على حدود الحركة وعلى قيود هذه الحركة .

وأريد أن أطرح رايًا للبحث مؤداه أن افريقيا لم تدخل بعد ساحة الصراع الدولى ، فلا أستطيع أن اقارن افريقيا استراتيجيا بالمنطقة العربية ، ولا بأوروبا ولا بآسيا ، فهناك فى هذه المناطق يتصارع السوفيت والامريكيون بجيوش أحيانا بين الواحد والآخر مسافة عشرة دقائق أو ربع ساعة ، هناك توجد قواعد الصواريخ ، هناك توجد الاهداف المنصوبة ازاء بعضها البعض ، اذن اعتقد أن النظرة الاستراتيجية لافريقيا يجب عندما تقارن بأقاليم العالم الأخرى ، أن تكون على مؤخرة مناطق الصراع الاستراتيجى ، ولكن اذا وافقنا

على ذلك يجب ان نطرح السؤال التالى ، الى متى سوف يستمر هذا الوضع ؟
ألا توجد مؤشرات توحى لنا بأن هذا الوضع سوف يتغير ؟ واذا تغير فالى
أين ؟ وما هى تداعيه ؟ .

الملاحظة الثانية : تتمثل فيما يمكن أن نسميه بتدننى البناء التحتى
للصراعات الافريقية يعنى انها صراعات تنتمى الى القرن التاسع عشر
بأساليبه وقدراته ، فلا توجد معركة مثل معركة ٦ أكتوبر فى حجم السلاح
وفى قوة النيران ، وفى حجم التدمير ، فنحن فى افريقيا نتحدث عن صراعات
تستمر بالشهور والسنين ، ولكن بوسائل قتالية محدودة القدرة التدميرية ،
وهذه سمة من سمات الصراع فى افريقيا .

الملاحظة الثالثة : تتمثل فى تعاظم دور دول غير الدولتين الأعظم فى
أفريقيا : من المعسكر الغربى فرنسا على سبيل المثال ، ومن المعسكر
الاشتراكى كوبا ، واذا القينا نظرة فى قائمة صادرة عن وزارة التعاون
الفرنسية فيوجد وفقا لوثائق هذه الوزارة سنة ١٩٨٥ ، ١٢٧٨ منشارا
عسكريا فرنسا من خمسة وعشرين دولة افريقية وندهش أن أسماء هذه
الدول تأتى مفاجأة للبعض لأنها تضم الجزائر ، بنين ، بوركينا فاسو ، ليبيا ،
موريشيوس ، تونس ، المغرب ، والسنغال ، وتوجد قوات عسكرية دائمة
لفرنسا فى السنغال وفى ساحل العاج وفى الجابون وفى جيبوتى .. ثم
توجد قوة تدخل سريع فرنسية على غرار قوة التدخل السريع الامريكية .

الملاحظة الرابعة : والى تكاد تنفرد بها ظاهرة الصراع فى افريقيا
هى ظاهرة المرتزقة والى لا تندثر بل تتزايد ، فهناك قوات مرتزقة تؤجر
للقتال فى أماكن مختلفة من القارة الافريقية وهى ليست ظاهرة هامشية ،
بل هى جزء مكون للقوات القتالية فى عدد من مسارح الأرض الافريقية الآن .

وهنا لابد من النظر الى الأمن الافريقى وأمن افريقيا سواء على مستوى
الدول أو على مستوى أكبر ، وفى تقديرى الشخصى يتم ذلك فى اطار عمليتين
تاريخيتين :

العملية الأولى : تتمثل فى الاشكال الذى تعرفه افريقيا بين سيادة
الدولة وبين حق تقرير المصير ، بين الحفاظ على حدود الدولة الاستعمارية
التي أصبحت مستقلة الآن وبين حركة تقرير المصير للاقليات والقبائل

التي ترى أنها لا يجب أن تكون داخل هذه الدولة ، وربما يفرض هذا علينا إعادة النظر فى الكيانات السياسية القائمة وربما التفكير فى اشكال للتركيبات الاقليمية .

العملية الثانية : تتمثل فى أن قضية الأمن لا تنفصل عن موضوع الاستقلال الوطنى أو التحرر الوطنى بصفة عامة وأن الأمن الافريقى مرتبط داخليا بحق تقرير المصير وخارجيا باستكمال حركة الاستقلال الوطنى والتحرر الوطنى .

فما هى — اذن — الأسئلة التى نريد أن نتحاور معها وبخصوصها فى موضوع الأمن والاستراتيجية فى افريقيا ؟ هناك عدة أسئلة منها :

— ما هى أهم بؤر التوتر أو الصراع فى القارة الافريقية ؟

— ما هى الأفاق الافريقية والدولية المترتبة على هذه البؤر من التوتر والصراع ؟

— كيف تأمت بعض المنظمات الاقليمية كمنظمة الوحدة الافريقية أو غيرها بمحاولات لمعالجة مصادر هذا التوتر وهذا الصراع ؟ ثم كيف يتغير وضع افريقيا وما هى علاقة الأمن الافريقى بالتوازن الاستراتيجى فى العالم . أى ما مدى تأثيرها على التوازن بين الكتلتين ؟ فالى أى مدى ما يحدث فى افريقيا سلبا أو ايجابا ، صراعا أو تعاونا يؤثر على التوازن الاستراتيجى العالمى وتحديد التوازن بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية ؟

للإجابة على هذه الأسئلة تصورنا أن هناك ثلاثة مجالات للحديث .

المجال الأول : هو مجموعة الصراعات الموجودة فى الجنوب الافريقى والمرتبطة بجنوب افريقيا .

المجال الثانى : مجالات الصراع التى هى على هامش الوطن العربى وتمس افريقيا وهى جنوب السودان ، تشاد ، والصحراء الغربية .

المجال الثالث : وهو مجال الصراع فى القرن الافريقى .

السفير أحمد حجاج :

صرعات الجنوب الأفريقى والمرتبطة بجنوب افريقيا :

مفهوم الأمن مفهوم مركب ومعقد ، وبالرغم من كثرة التفسير التى قيلت عن الأمن بصفة عامة والأمن القومى بصفة خاصة ، وبالرغم من اتفاق الباحثين والقانونيين والسياسيين على أن الأمن القومى أحد الدوافع الرئيسية لتفسير سلوك الدولة ومواقفها ازاء أزمة معينة ، الا أنه لم يمكن حتى اليوم تحديد اطار نظرى أو تعريف جامع شامل لمفهوم الأمن القومى ، ويمكن فى هذا المجال تفسير الأمن القومى بحماية الدولة ، ووحدة أراضيها وسيادتها واستقرارها واستقلالها ومن ثم فانه يشمل عنصرين :

أولا : حماية كيان الدولة ضد اعمال العدوان الخارجى .

ثانيا : حماية الدولة داخليا وعدم تعرضها لحرب دعائية أو نفسية أو لضغوط اقتصادية .

إذا انتقلنا من هذا التعريف المجرد للأمن ، لمحاولة تطبيقه على افريقيا، لوجدنا أن هناك ظاهرة تنفرد بها هذه القارة عن غيرها ، هذه الظاهرة تتمثل فى استمرار التدخلات العسكرية الأجنبية وبصورة واضحة فى السنوات القليلة الماضية ، سواء كان هذا التدخل اجنبيا أى من دول خارج القارة أو من داخل افريقيا أى من بعض دول القارة . ويكفى للدلالة على ذلك أنه منذ منتصف السبعينات فقط بلغت التدخلات العسكرية التى أمكن حصرها حتى الآن عشرون تدخلا عسكريا ، وهذا العدد الضخم من التدخلات العسكرية فى أفريقيا يعكس ما يمكن تسميته بتدهور الأمن فى أفريقيا . وبطبيعة الحال فان منطقة جنوب افريقيا ليست استثناء فى هذا الاتجاه العام ، بل ان تدهور الأمن فى الجنوب الافريقى أوضح بكثير مما هو عليه فى مناطق أخرى من القارة ، وذلك بحكم تواجد النظام العنصرى فى جنوب افريقيا من جهة ، وبحكم تواجد قوات غير افريقية فى بعض دول القارة كإنجولا وغيرها .

هذه ظاهرة قد تستعمل للبحث عن الأسباب التى أدت اليها :

فهناك أسباب اقليمية حيث اذا ما حاولنا تحليل هذا العنصر للملاحظة وجود خلاصات حادة داخل حدود الدولة الواحدة ، ترجع لأسباب عرقية أو

دينية بمعنى غياب الوحدة الوطنية ، وافتقار التجانس القومى فى دول المنطقة مما يؤدي الى صراعات داخلية للاستيلاء على السلطة .

وقد ترجع هذه الخلافات ايضا الى الأسلوب الذى يتم به تخطيط الحدود فى افريقيا حيث استهدف التقسيم تفكيك القبيلة الواحدة بين دولتين أو أكثر ، وهذه الحدود ذات طبيعة سياسية أهملت تماما الظروف الاجتماعية للقارة ، مثال ذلك ما حدث لبعض القبائل فى جنوب زائير وشمال أنجولا ، وهما ساعدا بصورة مباشرة على تفاقم الخلاف بين الدولتين .

هناك عامل آخر : وهو ارث الحكم الاستعماري ، فالدولة الاستعمارية حاولت تنمية القبائل بصورة متفاوتة وفقا لما تحتاجه العاصمة الاستعمارية لهذه المنطقة ، مما أوجب نوعا من التمايز وعدم التجانس بين القبائل وبعضها البعض ، وبطبيعة الحال عند نشوب خلاف ولو داخلى بين قبيلتين أو أكثر وعجزت احدهما عن حسم الخلاف لصالحها فانها تلجأ الى قوة خارجية اجنبية أو داخلية مما يزيد من تفاقم الخلاف العسكى القائم .

هناك سبب آخر يتمثل فى تفاوت درجات النمو الاقتصادى فى افريقيا . وقد شهدت سنوات السبعينات والنصف الأول من الثمانينات استمرار تدهور الأوضاع فى افريقيا ، فكل فئة الدول ذات الدخل المنخفض تضعها فى خندق لا يسمح لها بالتعامل مع البنك الدولى ، كذلك فان معدل الناتج القومى العام بالنسبة لافريقيا فى انخفاض مستمر الى جانب ذلك العجز فى المديونية بالنسبة لجميع الدول بدون استثناء ، فقد شهدت افريقيا فى السنوات الأخيرة مشكلة الجفاف والتصحر وهما ظاهرتان قديمتان الا انهما اصبحتا أكثر الحاحا عن ذى قبل .

من العوامل الأخرى التى تدل على ظاهرة تدهور الأمن فى افريقيا تفاوت القوى العسكرية لدول المنطقة ، فجنوب افريقيا بصفة خاصة شهدت تضخما فى التسليح أو فى التدريب ، أو فى الانفاق العسكى بصفة عامة ، خاصة وأن السنوات القليلة الماضية أبرزت امثلة واضحة على تفاوت القوى العسكرية للدول الافريقية .

من الأسباب الدولية ، هناك عدة أسباب تتمثل فى امتداد التنافس بين القوتين الاعظم الى افريقيا ، فبالرغم من توقيع اتفاق هلسنكى للامن والتعاون

الأوربي . الا ان التنافس بين القوتين انتقل الى مناطق جديدة شملت بالأساس منطقة الجنوب الافريقى ، وكان للاتحاد السوفيتى فضل السبق فى هذا الموضوع بفضل دعمه المباشر لحركات التحرر فى المستعمرات البرتغالية وفقا لمبدأ بريجنيف ومستغلا فى ذلك النكسة التى منيت بها السياسة الخارجية فى فيتنام ، وقد أسفر هذا التنافس عن وجود اختلاف فى اهداف ومصالح القوتين الأعظم فى المنطقة ، فالاتحاد السوفيتى يستهدف أولا وأخيرا دعم ونأمين النظم المولية له من ذلك تحقيق استقلال ناميبيا ، ثم القضاء على النظام العنصرى فى بريتوريا ، بينما تهدف الولايات المتحدة الامريكية الى اخراج القوات من أنجولا وتحقيق استقلال ناميبيا بالطرق التى تراها واصلاح ما نسميه بالنظام العنصرى فى جنوب افريقيا ، وقد اتخذ التنافس بين القوتين بالمنطقة أشكالا عديدة منها التشاور الامريكى السوفيتى ومنها التشاور السوفيتى — الانجولى — الكوبى .

وهناك عامل عام ومستمر ويتمثل فى التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا ، فاذا نظرنا الى كلا النظامين نجد أن هناك تشابها فى النظام الداخلى والتوجهات الخارجية ، ولم يكن من الغريب أن نشهد فى تقرير الخارجية الأخير أن اسرائيل كانت على رأس الدول التى سلّمت بالنظام "عنصرى فى افريقيا ، والتى لم تقم باعلان قرارات ، دودة للعقوبات ضد جنوب افريقيا — وهى ليست عقوبات بالمفهوم الصحيح — الا بعد أن ظهر أن هناك قرار من الكونجرس الامريكى يطالب الادارة الامريكية بوقف اية مساعدات تقدمها الولايات المتحدة الى أية دولة تقدم مساعدات عسكرية الى جنوب افريقيا .

هناك أيضا دور الشركات عبر القومية ، التى يوجد مقر لها فى دولة متقدمة ، ولكن لها فروع او مصانع فى الدول الافريقية ولا سيما الدول النامية . وبالرغم من أن النشاط الزراعى هو النشاط الاقتصادى الرئيسى فى افريقيا الا أن نسبة اسهامه فى التجارة الدولية أقل من نسبة اسهام التعدين ، وذلك لاعتماده على وسائل انتاج متخلفة من جانب ولزيادة حاجة الدول الافريقية الغذائية من جانب آخر وبذلك نجد أن نشاط الشركات متعددة الجنسية نشاط ضخم وقوى فى الدول الافريقية ، وبالتالى استتبعه التأييد والتدخل غير المباشر للدول التى تتبعها هذه الشركات .

أما فيما يخص ترتيبات الأمن فى الجنوب الافريقى فنقول أن افريقيا

ككل فى حاجة الى تدعيم الأمن بداخلها ولذلك برزت الحاجة الى اتخاذ اجراءات لتحقيق هذا الهدف وذلك عن طريق وضع ترتيبات لدعم الأمن فى القارة .

ومن هذه الترتيبات ما تقدمه منظمة الوحدة الافريقية وما تسعى اليه من أجل ذلك لاقرار الأمن على مستوى القارة ، حيث حدد ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ذلك بالالتزام بمجموعة من المبادئ أهمها ، مساواة السيادة بين جميع الدول الأعضاء فى المنظمة ، عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأعضاء ، احترام سيادة كل دولة وسلامة أراضيها وتحقيق كيان مستقل ، التسوية السلمية للنزاعات المختلفة فى القارة عن طريق التوفيق والتحكيم ، الاستنكار المطلق لاعمال الاختيار السياسى بجميع صوره وكذلك النشاط الهدام الذى تقوم به احدى الدول ضد الدول المجاورة ، التأييد المطلق لقضايا التحرر الافريقية ، وتأکید سياسة عدم الانحياز تجاه جميع النظم .

كما انشأ الميثاق عدة اجهزة لتحقيق هذه الأهداف فى مؤتمر رؤساء الدول والحكومات ومجلس الوزراء ، والامانة العامة ، ولجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم ، ولكن من الناحية الواقعية يلاحظ ان قدرة المنظمة على تحقيق الهدف الرئيسى لها ما زالت محدودة ، ومن أبرز مظاهر ذلك عدم اجتماع لجنة التنسيق والتوفيق والوساطة والتحكيم حتى الآن منذ انشائها ، وبالتالي لم يعرض عليها أى نزاع بين دولتين افريقيين .

فهناك — اذن — عجز داخل المنظمة عن حل المشاكل التى تعرض عليها كمشكلة الصحراء والمشكلة التشادية والمشكلة العنصرية فى جنوب القارة ، كذلك عجز المنظمة فى قدرتها على دعم قوة فى افريقيا لدعم السلام سواء نتيجة الخلاف حول التشكيل أو مهام القوى وحول النمويل ، وتشاد هى الاستثناء الوحيد فى تاريخ المنظمة لتكوين هذه القوة ولكن حتى الآن هناك مشكلة تتمحور حول الناحية المالية .

ايضا نلاحظ أن هناك بعض الدول بين حين وآخر تأتى بأفكار معارضة لأهداف ومواد منظمة الوحدة الافريقية ومنها دعوة الرئيس الزائرى موبوتو

لإنشاء منظمة لأفريقيا جنوب الصحراء إلا أن القاهرة وبعض الدول الأخرى اتصلت بزائير لعدم الاستمرار فى هذه الدعوة لأنها ستؤدى الى تفكيك افريقيا بين افريقيا السوداء ، وباقى القارة .

هناك أيضا عجز المنظمة عن التصدى للوجود العسكرى الأجنبى على أراضى دول القارة المستقلة التى استعملت سيادتها فى دعوة بعض القوات الأجنبية مثل القوات السوفيتية فى انجولا واثيوبيا والقوات الفرنسية فى بعض دول الفرائكوفون ويرجع ذلك أساسا الى عدم قدرة المنظمة على التوصل الى صياغة واضحة محددة حول قيام هذا الدور العسكرى أو الدور الانهزامى لحل المشكلات الافريقية . وهناك أيضا عدم تنفيذ المنظمة لتوصيات لجنة الدفاع التى تكونت فى سنة ١٩٦٣ والتى استهدفت قيام تعاون عسكرى بين دول افريقيا .

أما عن ترتيبات الأمن فى الجنوب الافريقى ، ففى ظل ما ذكرناه سابقا عن تناقض مصالح القوتين الأعظم فى منطقة الجنوب الافريقى وأهمية المنطقة بالنسبة لكل من هاتين القوتين نتيجة ما تتوفر عليه من معادن رئيسية ذات صبغة استراتيجية ، فقد نجحت الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٣ فى عقد مباحثات مباشرة بين جنوب افريقيا من جانب وانجولا من جانب آخر فى جزر الراس الأخضر ، وقد أسفرت هذه المباحثات عن توقيع اتفاقية لوساكا فى فبراير ١٩٨٤ .

كذلك امكن التوصل لانساق النكامل بين جنوب افريقيا موزمبيق (نيا كونانى) الذى استهدف إيقاف حد أدنى من التفرقة العنصرية ضد موزمبيق .

ولكن وكما كان متوقعا فإن أى من الاتفاقيين لم ينفذ والسبب الرئيسى فى ذلك هو تمايز القوة بين طرفى الاتفاق ، فالسلام لا ينم باتفاقات موقعة على الأوراق ، ولكن السلام الحقيقى لابد أن يلتزم بتوازن حقيقى للقوة بأوسع معانيها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . أما الاتفاقات التى تتم بين طرفين يميل ميزان القوى فى اتجاه احدهما بقوة فلا يمكن أن نسميها اتفاقات سلام .

اتفاقيتى لوساكا ويناكوناتى لم يعكسا نظام القوى فى منطقة الجنوب افريقى ، لأن الميزان فى صالح الحكم العنصرى فى بريتوريا ، ولذلك فشل الاتفاقيين فى تحقيق السلام فى المنطقة ، بل على العكس من ذلك نشط المؤثر الوطنى الافريقى ومنظمة شعب ناميبيا (سوابو) لاثبات الذات ، وتأكيدهما على توجيه ضربات قوية للنظام العنصرى .

وازاء هذه التطورات ادركت السياسة الامريكية عدم امكانية تجنب القوة الوطنية فى القارة الافريقية وخاصة فى منطقة الجنوب مما دفع وزير الخارجية الامريكى الى مقابلة السكرتير العام للمجلس الوطنى الافريقى ، ويجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا ونعترف أنه لا يوجد انقسام داخل حركة التحرير الافريقية ، ولكن يوجد انقسام داخل منظمة التحرير الفلسطينية .

أما من ناحية ترتيبات الأمن الافريقية فى المنطقة فيصعب الحديث عن انجازاتها ، فقد ظهر شكل من أشكال التعاون الاقليمى ، متمثلة فى اجتماع دول الجنوب الافريقى وهى دول موزمبيق وأنجولا وبتسوانا وزيمبابوى وتنزانيا . سواء على المستوى العسكرى أو على مستوى وزراء الدفاع إلا أن هذه الاجتماعات لم تسفر عن نتائج محددة باستثناء المساعدات القيمة التى قدمتها زيمبابوى لموزمبيق ، كان الهدف منها حماية المنشآت الحقيقية فى موزمبيق التى تغذى البترول الى زيمبابوى ، ولكن بالرغم من أهمية هذه الخطوة إلا أنها تظل محدودة الفعالية بحيث لا يتوقع لها الاستمرار طويلا ما لم تحصل على دعم خارجى أو افريقى حيث أن امكانيات كل من موزمبيق وزيمبابوى لا تسمح بتوفير الدعم المادى أو الادارى المطلوب .

ما هو المطلوب من الأمن القومى المصرى والأمن القومى الافريقى ، إذا كانت تلك هى الصورة بالنسبة للأمن الافريقى ، وبصفة عامة فى الجنوب الافريقى ، فما هى العلاقة بين الأمن القومى المصرى والأمن القومى الافريقى ، وكيف يمكن تحديد متطلبات الأمن القومى المصرى فى ظل الاستمرار فى تدهور الأمن الافريقى ؟

خلال سنة ١٩٨٥ أصدر وزير دفاع الحكومة العنصرية فى جنوب افريقيا تصريحاً قال فيه انه يمكنه أن يقود قوة عسكرية تكسح كل افريقيا حتى القاهرة دون أن تواجه بمقاومة تذكر ، وهذا التصريح حالياً يبين الترابط

بين الأمن القومى المصرى والأمن القومى الإفريقى ، وحتى يمكن ادراك سريع لهذه العلاقة يجب العودة الى كتاب « فلسفة الثورة » الذى أشار الى الدوافع السياسية لمصر ، والتي أوضحت أهمية القارة الإفريقية والأمن الإفريقى بالنسبة لمصر ، والأمن الإفريقى كذلك مرتبط بالأمن العربى ، فهناك عدد كبير من الدول العربية موجود فى إفريقيا ، ولذلك هناك ارتباط وثيق وقوى بين الأمن الإفريقى والعربى والأمن المصرى بصفة خاصة .

د. نازلى معوض أحمد :

مقاربة تحليلية بين قضايا أفرو عربية ثلاث (تشاد — الصحراء الغربية — جنوب السودان)

فى محاولة لوضع اطار تحليلى عام يجمع ما بين قضايا أفرو عربية ثلاث، ويوضح نقاط التلاقى ما بين خصائص ومقومات وتطورات تلك القضايا، يسمى هذا البحث فى ايجاز الى اثبات حقائق خمس تمثل فى تفاعلها ركيزة المقاربة — لدرجة التماثل فيما بين قضايا تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان .

الحقيقة الأولى :

هذه القضايا تقدم نماذج كاملة لموارث وآثار ظاهرة التجزئة الرسمية الحدودية كنتاج أساسى للحقب الاستعمارية فى التاريخ السياسى الإفريقى . ان الدراسات السياسية والاجتماعية لتطور القارة الإفريقية توضح أن الدول الأوربية الكبرى صاحبة المستعمرات فى إفريقيا منذ القرن ١٦ قد تطاحت طويلا فيما بينها فى صراعات دموية بسبب تناقضات التيارات الاستعمارية حتى توصلت الى صيغة توفيقية معينة تجاهلت تماما الحقائق البشرية والظروف الاجتماعية والاقتصادية الواقعية للجماعات والقبائل والشعوب الإفريقية الأصلية وذلك بأن قامت تلك الدول الاستعمارية منذ أواخر القرن ١٩ (مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥) برسم وتحديد كيانات مصطنعة إفريقية خططت أقاليمها وفقا لحدود وهمية طبقا لخطوط الطول والعرض الفلكيين أو وفقا لخو طهندسية صماء دون أدنى مراعاة لاعتبارات معيشة القبائل (م ٤٠ — العرب فى إفريقيا)

أو الجماعات الموجودة في تلك الأراضي المجزأة تعسفيا من قبل الإدارات الاستعمارية الأوروبية المختلفة .

وبناء على تلك الحدود المجافية للحقائق الاجتماعية استقلت الدول الأفريقية في شتى بقاع القارة وورثت مع حدودها المصنعة ثلاث أنواع من المشكلات الجسيمة (١) . فعلى الصعيد المحلي الداخلي للدولة تعاني الدول الأفريقية من معضلات البناء الوطني للدولة الحديثة وذلك من حيث مشكلات التناقضات الاجتماعية ، وانخفاض الولاء الوطني السياسي وشيوع الصراعات القبلية بين مستويات المؤسسة العسكرية وتصادم المطالبات الانفصالية . وعلى المستوى الإقليمي أدت أوضاع انقسام الجماعة البشرية الواحدة بين دولتين أو أكثر إلى بروز المنازعات حول مناطق الحدود المشتركة بين مختلف الدول الأفريقية وتوطرها إلى صراعات مسلحة . وعلى الصعيد العالمي تتراكم تلك المشكلات المذكورة لتجعل من الدويلات الأفريقية كيانات هزيلة القوى وقاصرة عن مواجهة احتياجات شعوبها نظرا للثغرات العميقة في بنائها الاقتصادي والاجتماعي بما يؤدي إلى وقوعها فريسة سهلة لكافة ممارسات ظاهرة الاستعمار الجديد ، رغم استقلالها الرسمي (٢) .

والملاحظة الأساسية في هذا الصدد تكمن في أن القوى العالمية المعاصرة تستهدف إعادة تشكيل الواقع السياسي الداخلي الوطني للدول الأفريقية بما يحقق تلقائيا المصالح الاستراتيجية ، سياسيا واقتصاديا ودعائيا ، لتلك القوى العالمية في المنطقة الأفريقية المعنية أو في الدولة الأفريقية المستهدفة . وتستخدم القوى العالمية لتحقيق هذا التخطيط المذكور، القوى المحلية الأهلية في تلك المناطق وتلك الدول وذلك انطلاقا من منافذ أو جسور أو معابر متنوعة الطبيعة وتكمن بنيانها في داخل الكيان الأفريقي ذاته ، ألا وهي مشكلات التخلف الاقتصادي والاجتماعي العام ، ثم ظاهرة

(١) مجدى حماد ، صراع القوى الكبرى في أفريقيا ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام (١٧) ، القاهرة ١٩٧٧ ، صص ٢١-٣١ .

(٢) حورية توفيق مجاهد : الاستعمار كظاهرة عالمية « حول الاستثمار والإمبريالية والتبعية » ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٥ ، صص ١٢٨-١٣٦ .

التجزئة سالفه الذكر ، ثم استمرارية التبعية الاقتصادية للسوق العالمى للمواد الأولية الاستراتيجية (٣) .

هذا وتعتبر قضايا تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان نماذج معبرة لأقصى درجة عن استثمار القوى الخارجية العالمية ، والقوى الافريقية ذات المصالح المتناقضة ، لمنفذ او لمعبر « التجزئة » التاريخية الاستعمارية وهذا ما يوضحه التحليل التالى .

فى ٥ سبتمبر ١٩٠٠ اعلنت فرنسا قيام الاقليم العسكرى التابع لها لبلاد ومحميات تشاد بحيث جمعت ما بين عرقيات مختلفة أهمها قبائل الطوبو العربية الاسلامية فى الشمال والوسط ثم قبائل السارا الزنجية بالجنوب والتي تنصرت على يد البعثات التبشيرية والارساليات المسيحية فى ظل الحكم الاستعمارى الفرنسى . وطوال ستين عاما من الحكم الاستعمارى ، مدنى وعسكرى ، دأبت الادارة الاستعمارية الفرنسية على تحويل اقتصاديات تشاد عن اتجاهها الطبيعى الى البحر المتوسط شمالا ، الى الجنوب وذلك بهدف ربطها بالمحور الفيدرالى الذى اقامته فرنسا بين برازافيل (الكونغو الفرنسى) وفورت لامى (النيجر) وهو المحور الذى كانت فرنسا تعدده العرود الفقرى لما أسمته بالاتحاد الفيدرالى لافريقيا الاستوائية الفرنسية ، وكان من الطبيعى أن تقاوم الأغلبية الاسلامية العظمى لسكان الامبراطوريات القديمة فى الأجزاء الشمالية من البلاد التشادية (مثل امبراطورية كانم فى القرن ١٣ — وامبراطورية كانو فى القرن ١٤ — وامبراطورية وودى) ، الوجود الفرنسى الاستعمارى . لهذا اتجهت الادارة الفرنسية الى التقرب من سكان الجنوب واستعانت بهم ليشكلوا كوادراتية فى خدمة شئون الاقليم . وهكذا تكونت فى ظل الحكم الاستعمارى كوادراتية من سكان الجنوب ممن اعتنقوا الدين المسيحى كما انتقل النشاط الاقتصادى من الشمال الى اقاليم الجنوب والجنوب الشرقى الذى سعى بالتشاد المفيد Le Chad Utile وكانت تلك الكوادرات الجنوبية تنتهى الى قبائل السارا وهى التى ستتولى شئون الحكم بعد الاستقلال والتي منها

(3) A.P. Thornton, Imperialism in the Twentieth Century, the Macmillan Press Ltd., 1977, London, P. 3.

سيكون الرئيسان الأولان لدولة تشاد المستقلة ، فرانسوا طومبلياي حتى ١٩٧٥ ، ثم فيليكس معلوم (١٩٧٥ — ١٩٧٩) (٤) .

كذلك أدت السياسة التعليمية التي انتهجتها فرنسا في تشاد الى خلل جسيم في موازين القوى الاجتماعية والثقافية حيث تركزت الشهادات العلمية في ابناء الجنوب وارتفع مستواهم الثقافى وخبراتهم الادارية بالنسبة لابناء الشمال مما أدى الى خلل اقتصادى واجتماعى وثقافى خطير فى البنية الوطنية للدولة التشادية بعد الاستقلال ، برز فى صورة انقسام حاد بين أهالى الشمال وأهالى الجنوب (٥) .

يضاف الى ذلك أن فرنسا بعد استقلال تشاد قد أبقت قوات عسكرية لها فى اقاليم الشمال الثلاثة بوركو — ايدى — تيبستى B. E. T فى ادارة شاملة للمنطقة حتى ١٩٦٥ حيث كان العسكريون الفرنسيون حتى ذلك التاريخ يقومون بأعمال المحافظين والقضاة والأطباء فى ذلك النطاق الأرضى الشاسع الذى تبلغ مساحته ٥٨٠ ألف كم^٢ (٦) . هذا بالإضافة استمرار وجود قوات فرنسية قدرت بحوالى ألف رجل فى قاعدة نجامينا وذلك بناء على اتفاقيات التعاون العسكرى المبرمة بين فرنسا وثلاث من دول المجموعة الفرنسية الافريقية هى تشاد وجمهورية وسط افريقيا وجمهورية الكونغو برازافيل فى اغسطس ١٩٦٠ (٧) .

وهكذا ورثت الدولة التشادية نظاما مركزيا بحدود مصطنعة ويضم عرقيات مختلفة متنافرة واقتصاد قومى متباين التوزيع يخضع لتفوق

(٤) نبيه الاصفهانى : أزمة تشاد بين الصراع والمصالحة الوطنية ، السياسة الدولية ، العدد ٥٧ ، يوليو ١٩٧٩ ، ص ١١٦ .

(5) Virginia Thomson & Richard Adloff, Conflict in Chad, Berkeley, University of California, Institute of International Studies 1981, PP. 2 — 7.

(٦) نبيه الاصفهانى : تشاد من الحرب الأهلية الى حرب التحرير ، السياسة الدولية ، العدد ٨٨ ، ابريل ١٩٨٧ ، ص ٢٢٠ .

(٧) الهيئة العامة للاستعلامات ، الحرب الأهلية فى تشاد ، دراسة تحليلية ، نشرة خاصة ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٦٠ .

العرقيات التى تعاونت بالأمس مع الادارة الفرنسية وذلك على حساب سائر العرقيات الأخرى .

ولا أدل على عمق تعبیر القضية التشادية عن ظاهرة ميراث التجزئة الاستعمارية من تصريح أدلى به وزير الدفاع الفرنسى الأسبق بيير مسمير فى يوليو ١٩٨٣ حين قال : « ان تشاد ما هو فى الحقيقة سوى نتاج للاستقطاعات التى أجراها الاستعمار فى افريقيا . فبعد أن قامت كل من الامبراطوريات الفرنسية والبريطانية والمانية برسم خط حدود لها ، كان الجزء المتبقى فى وسط افريقيا هو تشاد » .

أما فيما يتعلق بقضية السودان ومدى تعبیرها الواقعى عن مضاعفات ظاهرة التجزئة الاستعمارية التاريخية فى افريقيا ، فان الحدود السياسية للسودان بالمعنى القانونى الدولى المتعارف عليه قد رسمتها القوى الاستعمارية الأوربية عبر عقود متعددة من الزمن (٨) ، فقد تحددت الحدود الشمالية مع مصر نتيجة اتفاقية الادارة الثنائية سنة ١٨٩٩ بين بريطانيا ومصر ، وخطت بريطانيا الحدود الشرقية للسودان بالاتفاق مع اثيوبيا ، وبالنسبة للحدود الغربية فقد دخلت بريطانيا وفرنسا فى مساومات استمرت حتى عام ١٩٢٤ وتم بموجبها تخطيط الحدود مع تشاد وجمهورية افريقيا الوسطى . وفى الشمال الغربى تم اتفاق بريطانى ايطالى عام ١٩٣٤ بمنح ايطاليا — الدولة الاستعمارية فى ليبيا — المثلث الواقع فى شمال غرب السودان .

أما الحدود الجنوبية فقد تم تخطيطها فى فترة زمنية امتدت حتى عام ١٩٣٠ بموجب اتفاقيات بريطانية بلجيكية حول تخطيط الحدود بين السودان والكونغو البلجيكية (زائر حاليا) . كذلك قامت بريطانيا بصناتها الحاكمة فى السودان وفى أوغندا وكينيا بتعديلات الحدود الادارية بين هذه البلاد الثلاث . هذا وقد قررت بريطانيا بعد احتلال كل السودان ، فصل الجزء الجنوبى عن الشمالى واعتبرت خط عرض ١٠ شمالا هو الحد الفاصل بين الشمال والجنوب . ومن ثم يتحدد النطاق الأرضى لجنوب السودان بخط

(٨) عطية عبد الجواد : مشكلة جنوب السودان ، السياسة الدولية ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٦٥ ، صص ١٧٣—١٨٢ .

العرض ١٠ ويمتد جنوبا حتى شمال بحيرة البرت فى أوغندا ويضم مديريات بحر الغزال والاستوائية واعالى النيل وفتحت السياسة الاستعمارية البريطانية المديريات الجنوبية أمام البعثات الكنسية العالمية لنشر الديانة المسيحية فى جنوب السودان كما منحت تلك البعثات حق فتح المدارس لتعليم النشء وكان رجال الكنيسة فى تلك المدارس يصورون لأطفال الجنوب أبناء الشمال كتجار رقيق لا هم لهم سوى قنص الجنوبيين وبيعهم فى أسواق النخاسة فى الشمال كما كانوا يؤكدون لهم بأن الشماليين هم غزاة للسودان قدموا من الجزيرة العربية ويجب تحرير السودان منهم (٩) .

وفى ظل الحكم البريطانى صدرت عدة قوانين تفصل ما بين الشمال والجنوب حتى على مستوى الانتقالات البشرية فيما بين النطائين السودانيين وذلك مثل قانون المناطق المغلقة (١٩٢٢) . وترتب على تطبيقات هذه القوانين انشاء نظم ادارية وعسكرية وثقافية خاصة فى مناطق جنوب السودان . هذا ولقد كان الاتجاه السياسى السائد لدى الادارة الانجليزية ، وهو فصل مناطق جنوب السودان فى صورة دولة مستقلة عن باقى السودان أو ضمها الى أوغندا فى دولة واحدة . الا أن السياسة البريطانية تغيرت فى اطار مؤتمر جوبا سنة ١٩٤٧ حيث تقرر بقاء المديريات الجنوبية جزءا من السودان (١٠) .

وللدلالة على مدى انطباق ظاهرة التجزئة على الكيان السودانى الوطنى فان أول تعداد للسكان فى السودان عام ١٩٥٦ قد أوضح أن البلاد يعيش فيها ٧٥٢ قبيلة تتحدث ١١٤ لغة مكتوبة ومنطوقة ومن بين هذه اللغات نجد ٥٠ لغة فى مناطق جنوب السودان وبالنسبة للاصول الاثنية للسكان يتضح أن ٤٠٪ من السكان ينتسبون الى قبائل عربية وان ٣٠٪ من السكان جنوبيون من أصول افريقية وان ١٢٪ من السكان من قبائل غرب افريقيا

(٩) صلاح كردوس : السودان ومشكلة الجنوب ، مجلة الباحث العربى ، العدد ٨ ، يوليو ١٩٨٦ ، مركز الدراسات العربية ، لندن ١٩٨٦ ، صص ٤١ — ٤٢ .

(١٠) عبد الملك عودة : حالة جنوب السودان ، ندوة التعددية فى الدول العربية ، المركز الاردنى للدراسات والمعلومات ، الاردن ١٩٨٦ ، ص ٧ .

المتجنسون بالجنسية السودانية ، كما ان ٥١٪ من السكان يتكلمون اللغة العربية وان ٤٨٪ يتكلمون لغات محلية (١١) .

اما مشكلة الصحراء الغربية فهي كذلك انعكاس مباشر لميراث التحزنة الاقليمية الاستعمارية الأوروبية في غرب وشمال غرب القارة الافريقية منذ القرن الماضي . فلقد كان اقليم الصحراء الغربية تاريخيا جزءا من الممالك والدول الاسلامية التي تعاقبت على شمال غرب افريقيا مثل الادارسة والأغالبة والمرابطين ثم العلويين (١٢) .

وفي اطار التسابق المحموم بين الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى (فرنسا وبريطانيا والبرتغال واسبانيا) على اقتسام القارة الانريقية بينها في اواخر القرن ١٩ قامت اسبانيا باحتلال اجزاء من الصحراء الغربية في ١٨٨٤ ، هي وادي الذهب والساقية الحمراء . وبعد سلسلة من المقاصات الاستعمارية بين فرنسا واسبانيا استحوذت اسبانيا على منطقتين اضافيتين هما طرفاية وسيدي افنى التي اصبحت مركزا للادارة الاستعمارية الاسبانية لاقليم الصحراء الغربية . وتعاقبت الاتفاقيات الاستعمارية بين فرنسا واسبانيا ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٣٤ بشأن تحديد النطاق الأرضي للصحراء الغربية (١٣) . وبذلك خططت حدود اقليم الصحراء وفقا لاعتبارات التوازن المصلحي في شمال غرب القارة الافريقية بين فرنسا واسبانيا .

وفي عام ١٩٥٨ تنازلت اسبانيا للمغرب بعد استقلاله في ١٩٥٦ عن منطقة طرفاية التي كانت فرنسا قد منحها لاسبانيا بموجب اتفاقية ١٩١٢ . ثم تنازلت اسبانيا عن منطقة سيدي افنى للمغرب في ١٩٦٩ وبذلك تقلص اقليم الصحراء الغربية الى منطقتين فقط هي وادي الذهب والساقية

(١١) المرجع السابق ، ص ٥ .

(١٢) جمال زكريا وصلاح العقاد : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٦ ، صص ٣٦٣-٣٦٩ .
(١٣) مجلة الموقف العربي : الملف الكامل لمشكلة الصحراء ، يناير ١٩٧٧ .

الصحراء ، وهما حاليا القاعدة الأرضية لمشكلة الصحراء لغربية بين اطرافها المتعددة (١٤) .

نخلص من العرض السابق أن القضايا الثلاث هي تجسيدات سياسية حية لنواتج وموارث سياسات القوى الاستعمارية الأوروبية مى تجزئة أراضى القارة الافريقية بحدود مصطنعة تجافى الحقائق البشرية والمعطيات الاجتماعية الواقعية فيها .

الحقيقة الثانية :

هذه القضايا الثلاث تقدم نماذج عملية تطبيقية لاستمرارية الحقيقة الأزلية لطبيعة محدّدات الصراع الدولى على مر العصور فى التاريخ الانسانى ، تلك الحقيقة التى تحورت دوما حول تصارع القوى العالمية الرئيسية المهيمنة فى المرحلة الزمنية المعينة ، على نقاط أرضية محددة من بقاع العالم تتوافر فيها ركيزتان أساسيتان : أولهما الأهمية الاستراتيجية الخاصة للموقع محل الصراع ، اقليميا بحريا أو بريا . وثانيهما وفرة الموارد الطبيعية بأنواعها فى باطن أو سطح ذات الموقع محل الصراع .

وبالنظر الى مواقع وموارد كل من تشاد والصحراء الغربية وجنوب السودان ، نجد أن هذه الحقيقة الأزلية المذكورة تنطبق تمام الانطباق على القضايا الثلاث محل التحليل فى هذا البحث .

ان تشاد تمثل نقطة أساسية فى القلب الاستراتيجى للقارة الافريقية وتتوسط بأقاليمها اراضى كل من ليبيا شمالا والنيجر ونيجيريا غربا وجنوب غرب ، والسودان شرقا ، وافريقيا الوسطى والكاميرون جنوبا . وبذا تكون أراضى تشاد حلقة الوصل الاستراتيجية والحضارية ما بين عالم العروبة والاسلام فى شمال القارة ثم دنيا الزنوجة والديانات غير الاسلامية ، داخل

(١٤) ايناس المهدي : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

(١٥) اجلال محمود رافت ، تشاد ، دراسة تحليلية لجذور وطبيعة الحرب ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٨٣ ، ص ٥ - ٧ .
— V. Thomson & R. Adloff, op. cit., P. 3.

القارة فى وسطها وجنوبها(١٦) . كذلك فان اراضى تشاد تمثل الجسر الارضى الاستراتيجى البالغ الخطورة ما بين دول شرق القارة ودول غرب القارة . ومن الناحية الاقتصادية قد تبدو تشاد خارجة عن نطاق البلاد ذات الجذب الاقتصادى ، الا انها تشتمل على قدرات اقتصادية مستقبلية هامة(١٦) .

فبالاضافة الى ثروتها الزراعية من محصول القطن أساسا فى المناطق الجنوبية منها ، وثروتها الحيوانية فى القطاع الأوسط بها ، فان الدراسات الحديثة تثبت توافر خام اليورانيوم بكميات كبيرة فى شمال البلاد بجبال تيبستى وقطاع أوزو بالذات هذا الى جانب اكتشافات نفطية حديثة فى جنوب وجنوب شرق وشمال البلاد التصادية(١٧) .

ولاقليم الصحراء الغربية اهمية استراتيجية بالغة الخطورة ، فهو يطل على المحيط الاطلسى بساحل شديد الوطيل يبلغ ١١٠٠ كيلو مترا ومساحته ضخمة (ثلث مليون كم^٢) (١٨) . وهو يقع بين ثلاث دول فى موضع شديد التميز والخصوصية . فالمغرب تحده شمالا وغربا وموريتانيا تحده جنوبا وشرقا بينما تتلاصق معه اراضى الجزائر فى أقصى شمال شرق اقليم الصحراء وأقصى جنوب غرب الجزائر(١٩) .

وتتميز الصحراء الغربية بثروات اقتصادية طبيعية وتعدينية هائلة . فبالاضافة الى الثروة السمكية الهائلة على طول سواحلها فان باطنها يزخر بالثروات المعدنية الضخمة ، من الفوسفات والنفط والحديد واليورانيوم

(١٦) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام : التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٨٥ ، القاهرة ١٩٨٦ ، صص ١٣٣ — ١٢٧ .
(١٧) V. Thomson & R. Adloff, op. cit., p. 142.

(١٨) Halim Barakat ed., Contemporary North Africa : Issues of Development & Integration. Center for Contemporary Arab Studies, Washington D.C., 1984, P. 3.

(١٩) John Damis, «The Western Sahara Dispute» in Halim Barakat ed., Contemporary North Africa, op. cit., PP. 138 - 150.

والزنك والرصاص . وتقدر كميات انتاج الفوسفات الصحراوي بـ ١٠ مليون طن سنويا مما يجعل للصحراء الغربية المرتبة الرابعة العالمية فى انتاج هذه المادة المسماة بالذهب الأبيض نسبة الى شدة تخصيبها للاراضى الزراعية، وذلك بعد امريكا والاتحاد السوفييتى والمغرب (٢٠) .

كذلك تتعاظم أهمية اقاليم جنوب السودان بالمنظور الاستراتيجى والاقتصادى ذلك أن جنوب السودان يمثل عمقا أرضيا بالغ الخطورة لمنطقة بلاد القرن الأفريقى وهو حلقة وصل ما بين أقصى شرق القارة ، وقلب القارة بالإضافة الى وقوع كامل اراضيه فى نقطة متميزة الأهمية بالقرب الشديد من منابع نهر النيل ، وهو الشريان النهري الضخم الذى تعتمد عليه فى أنشطتها الزراعية ٩ دول افريقية .

وفى جنوب السودان ثروة تعدينية كبيرة متمثلة فى اليورانيوم والحديد والنفط والنحاس ، خاصة فى مديرتى أعالي النيل وبحر الفزال ، حيث تفجر النفط عام ١٩٨١ بطاقة ١٥ ألف برميل يوميا . كما تقدر احتياطيات النفط فى المنطقة ما بين ٢٣٠ و ٤٠٠ مليون برميل (٢١) . ومن ثم فإن جنوب السودان يقدم كل مقومات الوفرة الانتاجية فى المجالات الزراعية والحيوانية والصناعية .

وبذلك تتلاقى القضايا الثلاث من حيث كونها ميادين صراع وبؤر ساخنة افروعرية يجمع ما بينها الموقع الخطير استراتيجيا والثروات الواعدة اقتصاديا .

الحقيقة الثالثة :

هذه القضايا الثلاث محل التحليل هى قضايا افروعرية صميمة الازدواجية فى طبيعة اراضيها محل الصراع وفى هوية اطرافها الاقليمية

(20) John Damis, «Conflict in Northwest Africa. The Western Sahara Dispute.» Stanford, Hoover Institution Press, 1983, PP. 38 - 44., PP. 133 - 137. H

(٢١) صلاح كردوس ، مرجع سابق ، صص ٣٩ — ٥٠ .
— عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

المتنازعة بما قد يؤدي بالباحث أو الدارس الى توقع ان تثير تلك القضايا مسائل تدخل فى نطاق تنازع الاختصاص التنظيمى فى تسوية أو حل تلك الصراعات الثلاث ما بين جامعة الدول العربية وهى الاطار التنظيمى الذى يجمع ما بين كافة الدول العربية الاسيوية منها والافريقية ، وبين منظمة الوحدة الافريقية بصفتها الهيكل التنظيمى القارى المختص بشئون السلم القارى فى افريقيا ما بين جميع الدول الافريقية العربية منها وغير العربية .

الا ان الواقع الجدير بالملاحظة والتسجيل هو ان الاهتمام الفعلى الدؤوب بتطورات هذه القضايا الثلاث وبصفة خاصة بقضيتى تشاد والصحراء الغربية نظرا لطبيعة مشكلة جنوب السودان الداخلية فى اطار دولة واحدة ، انها جاء من جانب المنظمة القارية الافريقية أساسا فى صورة قرارات واضحة بالاعتراف بالجمهورية الصحراوية العربية الديمقراطية المنبثقة تنظيما من جبهة البوليساريو ثم الاعتراف بشرعية حكومة حسين حبرى المركزية فى نجامينا وكذا رفض محاولة من قبل أبناء جنوب السودان للنيل من البناء الوطنى الموحد لدولة السودان .

وعلى الرغم من أن هذه القضايا الثلاث جميعها تتجسد فيها هموم حقيقية للضمير العربى العام وتتمثل فيها مخاطر أكيدة على الفكرة العربية ذاتها الا أن جامعة الدول العربية لم يكن لها دور يذكر فيها ربما لغلبة الطابع الافريقى على الصبغة العربية فى أغلب جوانب تلك القضايا باستثناء قضية الصحراء الغربية وربما لظروف الضعف الشديد الذى لحق بفعاليات وقدرات المنظمة العربية الاقليمية من جراء تجميد عضوية ونشاط مرفى أجهزتها المختلفة . الا أن الاعتبار الأرجح الذى يفسر النشاط الكثيف نسبيا الذى تضطلع به المنظمة الافريقية فى جهود تسوية تلك القضايا سلبيا انما يكمن فى كون الصراعات الدائرة فى الصحراء الغربية وتشاد وجنوب السودان . تتركز فى جوهرها حول معضلة المفاضلة أو الخيار الحاسم ما بين الوحدة الوطنية للدولة الافريقية المستقلة بنفس الحدود الرسمية التى أنشئت ككيان مستقل دولى على أساسها وبصرف النظر عن خلفيات رسم تلك الحدود فى ظل الحكم الاستعمارى السابق ، أم اطلاق الحق السياسى الانسانى المعترف به فى الفقه الدولى المعاصر وهو حق تقرير المصير للشعوب أو الجماعات أو للقبائل المتواجدة داخل الدولة الافريقية المعنية والتى تحكمها اقليميا سياسيا تلك الحدود الرسمية القائمة .

ولقد عالج المشرع الافريقى وهو بصدد وضع ميثاق اديس ابابا المنشئ لمنظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ هذه المعضلة المذكورة بأن قرر مبدأ قانونيا ثابتا ضمن المبادئ المتقنة للعلاقات الدولية الافريقية بين دول القارة بعضها البعض وهو مبدأ قدسية الحدود السياسية الافريقية وقت الاستقلال أى الرضى البات لأى محاولة ماس بالحدود القائمة رسميا فيما بين أقاليم الدول الافريقية . والحكمة العملية التى بنى عليها هذا المبدأ القانونى المذكور عن الاحترام المطلق للحدود القائمة عند الاستقلال تكمن فى نظرة واقعية الى العواقب الوخيمة التى لابد وأن تنجم عن محاولات تغيير أو تعديل تلك الحدود بما يتوافق مع مطالب الجماعات البشرية والقبائل الافريقية التى تقسمها تلك الحدود بين دولتين افريقيتين متجاورتين أو أكثر (٢٢) ولذا فقد قدر المشرع الافريقى انه مهما كانت الحدود الافريقية القائمة ظالمة على المستوى الاجتماعى والانسانى ، فان الحفاظ عليها يمثل أضرارا أقل بكثير من الجازر وحمامات الدم التى ستنزلق اليها الدول الافريقية فى دوامات من الحروب المحلية التى لا نهاية لها لو حاولت احداها أو بعضها تغيير تلك الحدود أو تعديلها بالقوة .

وقد اعترفت جميع الدول 'لافريقية' بالتزامها القانونى الكامل بهذا المبدأ عن الاحترام المطلق المتبادل لحدودها السياسية الرسمية القائمة ما عدا دولتين هما المملكة المغربية وجمهورية الصومال واللذان انضمنا الى عضوية منظمة الوحدة الافريقية بصورة لاحقة على نشأة المنظمة مع استخدام حقها فى مبدأ التحفظات الملزمة فى الفقه الدولى وبناء عليه تحفظت الدولتان على مبدأ قدسية الحدود وذلك لأن للمغرب مفهوم خاص تاريخى للحدود كما أن الصومال كانت وما تزال تطمح الى توحيد القومية الصومالية المتقسمة فى القرن الافريقى ما بين اثيوبيا وكينيا وجمهورية الصومال .

وجدير بالذكر على وجه الخصوص أن منظمة الوحدة الافريقية قد قبلت فى عضويتها الجمهورية الصحراوية العربية الديمقراطية فى ١٩٨٢ انطلاقا من

(٢٢) بطرس غالى ، العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، مكتبة .

مبدأ قدسية الحدود ونظرا لاعتراف أكثر من نصف الدول الأعضاء فى المنظمة بالدولة الصحراوية (٢٣) .

. ولنظمة الوحدة الافريقية جهود واضحة فى تسوية قضية تشاد سواء فى نطاق مؤتمرات القمة المتعاقبة فيها منذ أواخر السبعينيات أو فى شكل لجان موفيق ومصالحة وتوسط بين الأطراف المتصارعة محليا فى تشاد أو حتى فى صورة تشكيل قوة حفظ سلام افريقية تكلفت ٦٠ مليون دولار من ميزانية المنظمة (٢٤) ، وتكونت من قوات تابعة لخمس دول افريقية هى السنغال وبنين ونيجيريا وزائير وكينيا ، وتم ذلك فى إطار مؤتمر القمة الافريقى الثامن عشر فى نيروبي سنة ١٩٨١ (٢٥) .

واقصر دور جامعة الدول العربية فى مواجهة ومعالجة قضية الصحراء الغربية رغم عروبة جميع أطرافها على مهام الوساطة الدبلوماسية أو المساعى الحميدة التى يقوم بها الأمين العام لجامعة الدول العربية لتقريب وجهات النظر المتعارضة بين تلك الأطراف وذلك سواء من قبل الأمين العام السابق محمود رياض أو الأمين الحالى الشاذلى القليبي فى صورة زيارات شخصية الى عواصم الدول المتنازعة الثلاث المغرب والجزائر وموريتانيا ، ثم تقديم تقارير بهذا الشأن الى مجلس الجامعة (٢٦) . الا أن هذا الجهد من أجل التسوية السلمية لصراع الصحراء لم يحقق المرجو منه حتى الآن .

نخلص مما سبق الى أن الطبيعة الافرو عربية حميمة الازدواجية للمنازعات الثلاث محل التحليل فى هذه الدراسة لم يتولد عنها أى شكل

(٢٣) محمد عيسى الشرقاوى : أزمة المنظمة الافريقية وقضية البوليساريو ، مجلة السياسة الدولية ، عدد ٦٩ ، يوليو ١٩٨٢ ، صص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٢٤) أحمد أحمد السولية : تشاد وقوات حفظ السلام الافريقية ، السياسة الدولية ، عدد ٦٨ ، ابريل ١٩٨٢ ، صص ١٣٠ — ١٣٤ .

(٢٥) مجدى حماد : مؤتمر القمة الافريقى فى نيروبي ، السياسة الدولية ، عدد ٦٦ ، أكتوبر ١٩٨١ ، صص ١٢٢ — ١٢٥ .

(٢٦) بطرس غالى : جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٧٨ .

من أشكال التضارب في الاختصاص التنظيمي ما بين المنظمين الإفريقية والعربية القائمتين بالفعل في الساحة السياسية البعامة المحيطة بالقضايا الثلاث . بل على العكس ورغم جهود منظمة الوحدة الإفريقية الواضحة في قضية تشاد على وجه الخصوص فإن المنظمين لم تقدمان حتى وقتنا الراهن إنجازا حقيقيا في مجال تسوية إحدى تلك القضايا . ومن دلائل ضعف منظمة الوحدة الإفريقية في المواجهة الحاسمة لتلك القضايا أنها قد لجأت في توصيات مؤتمرات القمة في السنوات الأخيرة ، إلى شبه إحالة إلى الأمم المتحدة ومثال ذلك توصيتها في مؤتمر القمة التاسع عشر في نيروبي بإجراء استفتاء شعبي لحق تقرير المصير بين أهالي إقليم الصحراء الغربية تحت إشراف ورقابة الأمم المتحدة والمنظمة الإفريقية معا (٢٧) .

الحقيقة الرابعة :

هذه القضايا الإفريقية الثلاث تجمع ما بينها خصائص الصعوبة الشديدة أو التعسر في الحل أو في التسوية النهائية التوفيقية فيما بين أطرافها . وآية ذلك تتجلى في تكتيكات أو آليات التعامل مع تطورات ووقائع تلك القضايا من جانب مختلف القوى المعنية بها حيث تجتمع القضايا الثلاث في نفس الأدوات المتزامنة وفي نفس الأساليب المستخدمة من أجل الحل أو السعي نحو التسوية النهائية .

لقد لجأت الأطراف المتصارعة جميعا إلى أداة العنف المادي المسلح بصورتها الأساسية : العنف المادي غير الرسمي وغير النظامي أي حرب العصابات ، ثم العنف المادي النظامي أو الحكومي أي استخدام القوات المسلحة الرسمية الحكومية .

ففي تشاد استمرت الحرب الأهلية بين قوات الحكومة المركزية المثلة حتى عام ١٩٧٥ للعناصر الجنوبية ضد حرب العصابات الشاملة التي شنتها فصائل القوات العسكرية الشمالية وتحول الموقف منذ أواخر السبعينيات إلى صراع مسلح على السلطة المطلقة بين نفس الفصائل الشمالية فيما بينها

(27) John Damis, «The Western Sahara Dispute», op. cit., PP. 149 - 150.

حيث أصبحت القوات الحكومية متمثلة في جناح يقوده حسين حبرى ضم فصائل المنشقين بزعامة جوكونى عويدى والتي حملت السلاح ضد رفاق الأملس . وعاد المسرح السياسى يتحول مرة ثالثة فى السنوات القليلة الماضية الى مواجهة عسكرية من جانب القوات التشادية ضد قوات خارجية قوامها القوات المسلحة النظامية الرسمية الليبية (٢٨) .

كذلك فان اقليم الصحراء الغربية هو ساحة دموية منذ فبراير ١٩٧٦ فيما بين قوات البوليساريو التى تشن حرب عصابات متقطعة ما بين الشدة والكثافة والوهن والتباطؤ حسب امدادات السلاح الخارجية اليها ، ضد القوات المسلحة المغربية التى تحتل معظم مساحة الاقليم لصحراوي ومعها القوات المسلحة الموريتانية التى كانت تحتل وادى الذهب بجنوب الاقليم حتى خرجت موريتانيا من ميدان المعركة ذاتها فى ١٩٧٩ بعد ان انهك اقتصادها من جراء نفقات الصراع المسلح فأصبحت المواجهة العسكرية منذ بداية الثمانينيات تتركز ما بين القوات المغربية النظامية والعمليات الفدائية لقوات البوليساريو (٢٩) .

أما فى جنوب السودان فقد حمل الجنوبيون السلاح ضد الحكم المركزى فى الخرطوم منذ أواسط الخمسينيات وحتى الآن ، حيث قادت منظمة الانبانيا الجناح العسكرى لحزب سانو الجنوبى هذه المعارك حتى أوائل السبعينيات ، ثم أصبحت القيادة فى حرب العصابات الجنوبية لجيشى التحرير الشعبى السودانى بزعامة العقيد جون قرانق فى الوقت الحالى . كذلك فقد واجهت القوات المسلحة الحكومية المركزية بالعنف المنظم ، كافة تطورات القضية الجنوبية منذ استقلال السودان وحتى الآن (٣٠) .

(٢٨) التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٨٥ ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢٩) بطرس غالى : حرب الصحراء فى المغرب العربى ، السياسة الدولية ، عدد ٤٤ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ص ٢٥ — ٤٥ .

— Tony Hodgas, «The Origins of Saharouri Nationalism Thrid World Quarterly 5, n. 1 (January 1983). PP. 28 - 57.

(٣٠) عبد الملك عودة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٢ — ٤٢ .

— صلاح كردوسة ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢ — ٤٦ .

ومن جهة أخرى فإن أطراف الصراع والقوى المعنية بهذه القضايا الثلاث قد مارست وما تزال تمارس أساليب وأدوات أخرى تهادنية للتعامل مع تطور تلك النزاعات الحادة ومعالجتها بجهود تفاوضية دبلوماسية سلمية جرت بالفعل وما تزال جارية بصورة متزامنة مع المعارك العسكرية المذكورة.

ففى قضية تشاد نذكر جهود المصالحة الوطنية بين فصائل الشماليين فى مؤتمر كانو الأول (٧ — ١٦ مارس ١٩٧٩) ومؤتمر كانو الثانى (٣ — ١١ ابريل ١٩٧٩) ثم اتفاق الانسحاب المتزامن من أراضى تشاد ما بين ليبيا وفرنسا فى سبتمبر ١٩٨٤ ، ثم مؤتمر المصالحة الوطنية فى برازاڤيل فى أكتوبر ١٩٨٤ واجتماع ميتران والقذافى فى كريت يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٤ ثم الجولة الافريقية لرولان ديبا وزير خارجية فرنسا لاجراء حوارات مع أطراف الصراع التشادى فى ابريل ١٩٨٥ .

وفىما يتعلق بالجهود الدبلوماسية الأخيرة لتسوية مشكلة الصحراء الغربية فانها تتركز فى دور الوسيط الدولى الذى يضطلع به بيريز دى كويلار الأمين العام للأمم المتحدة منذ العام الماضى (١٩٨٦ — ١٩٨٧) لاستطلاع آراء ومواقف الأطراف المتصارعة فى الشمال الإفريقى وذلك بناء على تكليف الجمعية العامة للمنظمة الدولية بقرار فى نوفمبر ١٩٨٥ للأمين العام بالسعى لحل النزاع حول الصحراء الغربية .

واقترح دى كويلار على الأطراف المعنية ما أسماه « خطة الأمم المتحدة » وقوامها اجراء وساطة من جانبه باسم الأمم المتحدة بين تلك الأطراف وهى المغرب والجزائر وموريتانيا والبوليساريو ، على أن تتم هذه الوساطة بطريقة غير مباشرة أى مع كل طرف على حدة . وهنا رفضت الجزائر لتصميمها على الحوار المباشر بينما رفض المغرب لعدم اعترافه بالوجود السياسى الحقيقى لظاهرة البوليزاريو (٣١) .

كذلك فشلت محاولة أخرى للتسوية الدبلوماسية الجماعية المغربية ، وظهرت فى اطار مؤتمر الأحزاب السياسية فى دول المغرب والذى انعقد

(٣١) أحمد نافع : مؤتمر هراى وتشجيع دى كويلار فى مهمته لحل مشكلة الصحراء ، الأهرام ، ١٥/٨/١٩٨٦ .

فى طنجة عام ١٩٨٣ فى مناسبة الذكرى الثامنة والعشرين للتضامن المشترك. المغربى من أجل الاستقلال وكان الاقتراح يدعو الى عقد ما عرف باسم « القمة المغاربية » التى تجمع رؤساء الدول الخمس فى شمال افريقيا كاجراء تنظيمى على اعلى مستوى سياسى كحيل بانتهاء نزاع الصحراء . الا ان هذه المحاولة اخفقت بدورها بسبب اصرار الجزائر على حضور ممثلى البوليساريو ضمن دول المغرب الكبير (٣٢) .

وللملك فهد بن عبد العزيز آل سعود جهود واضحة فى السعى نحو تقريب وجهات النظر بين الملك الحسن الثانى والرئيس الشاذلى بن جديد فى الؤونة الأخيرة ولكن دون نتائج ملموسة واقعية .

ومن ابرز مظاهر المساعى السلمية لحل صراع جنوب السودان ما تم فى العام الماضى (١٩٨٦) من اتصالات رسمية تمت فى اجتماع بمدينة كوكادام فى اثيوبيا فى شهر مارس بين ممثلى التجمع الوطنى السودانى وممثلى حركة جيش تحرير شعب السودان ، ثم اجتماع صادق المهدي بصفته رئيس حزب الأمة القومى فى السودان مع العقيد جون قرانق بصفته رئيس حركة تحرير شعب السودان ، فى اديس ابابا باغسطس ١٩٨٦ . هذا ولم تسفر هذه الاتصالات المذكورة عن أى تقدم ايجابى نحو انتهاء الحرب الأهلية داخل الدولة السودانية .

اذن نخلص الى ان الاخفاق العام كان هو القاسم المشترك. الأعظم بين جميع تلك المساعى الدبلوماسية للحل السلمى ، المذكورة بشتى صورها، والتى لم تتوصل حتى الآن الى الانهاء الجذرى الحاسم لتلك النزاعات الثلاثة، بحيث استقرت فى الاذهان فكرة الأحادية المطلقة للحل العسكرى . وبمعنى آخر ، ان تستمر الأطراف المتصارعة فى الحرب العسكرية وبأدوات العنف المادى المنظم الحكومى وغير الحكومى ، حتى يتم لأحد طرفى الصراع انهاء الطرف الآخر فيجهز على قواه ويفرض عليه ارادته الشاملة بسياسات الأمر الواقع .

(32) John Damis, Conflict in Northwest Africa, op. cit., PP. 139 - 146.

الحقيقة الخامسة :

تتماثل هذه القضايا الأورو عربية الثلاث فى عمق تأثير تطوراتها المتلاحقة بأدوار القوى الخارجية فيها ، والتي تحدد تحديدا حاسما منعطفات كثيرة فى نفس المسارات الواقعية للنزاعات الثلاثة وان كان هذا التحديد الحاسم المذكور يتفاوت فى الدرجة والكثافة والمدة من نزاع الى آخر .

وقبل تحليل أدوار القوى الخارجية فى هذه القضايا ، يجدر بنا ملاحظة ظواهر المناقض الحاد بين ما هو معلن رسميا ودعائيا ، وما هو واقع وحقيقى ، فى مواقف تلك القوى الخارجية المتدخلة بشدة فى تلك القضايا .

فالجائر تؤسس موقفها من قضية الصحراء على مبادئ مثالية على رأسها مناصرة الشعب الصحراوى فى ممارسة حقه السياسى الطبيعى فى تقرير مصيره القومى ، ومساندة حركة التحرر الوطنى الصحراوى ضد المغتصب المحتل المغربى ثم ترفع الجزائر لواء قدسية الحدود الافريقية التى تستقل بناء على تخطيطها الاقليمى أى دولة افريقية من الحكم الاستعمارى الأوروبى السابق .

أما المملكة المغربية فهى تعلن ممارستها لحقها السيادى الطبيعى كدولة فى استعادة جزء مغتصب فى الماضى القريب من ترابها الوطنى الأصيل ، واسترداد جزء أصيل من امتدادات شعبها المغربى جنوبا . وترفع المغرب فى هذا الصدد شعار احترام الحدود التاريخية الواقعية للدولة المغربية الكبرى والتى لم يعرف التاريخ الوسيط والحديث حتى أواخر القرن الماضى ، سواها ، فى كل النطاق الأرضى الشاسع الذى يصل ما بين السواحل الشمالية والشمالية الغربية لافريقيا ، ونهر السنغال جنوبا .

وفرنسا تدعى أن تدخلاتها العسكرية السافرة المتكررة فى أراضى تشاد ما هى الا تنفيذ قانونى طبيعى للالتزامات وردت فى اتفاقيات تعاون عسكرية شاملة مبرمة بين دولتى تشاد وفرنسا وارتبطت بها كل من الدولتين ومن ثم فان التحرك العسكرى الفرنسى فى تشاد هو تصرف دولى مشروع خاصة وانه يستهدف مساعدة « دولة صديقة » فى الحفاظ على بقائها وكيانها من الهدم فى مواجهة القوى العسكرية الليبية التى تغلغلت حتى أعماق الاقليم التشادى .

وليبيا استندت فى تحركاتها العسكرية الكثيفة فى تشاد الى مبدأ اقرار الوحدة الوطنية وتحقيق المصالحة الشاملة بين فصائل الصراع السياسى التشادى فى جبهاتها الجنوبية المباشرة التى ترتبط مع ليبيا بأواصر شديدة الأهمية ، من النواحى الطبيعية والأمنية والبشرية والدينية والحضارية التاريخية .

واثيوبيا تظهر ذاتها فى الأونة الأخيرة بمظهر الوسيط المنزّه عن الأغراض ، والهادف الى اقرار السلام الوطنى بين ربوع الدولة السودانية ، الجار الغربى المباشر .

هذه الشعارات المثالية سالفه الذكر المعلنة من قبل الأطراف الخارجية التى تتدخل فى تطورات القضايا الثلاث محل التحليل ، انما تخفى فى طياتها الدوافع الحقيقية لتلك القوى . فهى جميعا بلا استثناء تستهدف من حركتها ، سواء العسكرية العنيفة أو الدبلوماسية التهادنية السلمية ، تحقيق مصالح اقتصادية واستراتيجية واقرار أو استتباب نفوذ سياسى اقليمى لقوى محيية يعكس أغلبها تخطيطات استراتيجية لقوى خارجية تسعى الى التحكم فى مصر افريقيا العربية .

ان ليبيا تدفع بقواتها المسلحة منذ ١٩٧٣ الى العمق الاقليمى التشادى سعيا الى فرض تحقيق مصالح جوهرية بمنظور الأمن القومى الليبى ، فتشاد تمثل عمقا استراتيجيا عسكريا اقليميا وبشريا واجتماعيا للكيان الليبى ذاته . ان شمال ووسط البلاد يقطنه نحو مليون مسلم من اصول عربية كما أنه يشتمل طوغرافيا على نقاط عسكرية بالغة الخطورة فى جبال التبستى بصفة خاصة ، بالإضافة الى المراكز الحضارية الهامة فى تلك المناطق . كذلك تقدم ثروة تشاد التعدينية من النفط واليورانيوم ضمانة مستقبلية بديلة عن نضوب احتياطات البترول الليبى . ثم تأتى الأهمية القصوى لشريط اوزوفى أقصى شمال جبال التبستى فى اراضى تشاد ، بالنسبة لليبيا . فالنظام الليبى يدعى لنفسه أحقية اقليمية تاريخية فى ذلك الشريط المذكور والذى تبلغ مساحته ١٠٠ ألف كم^٢ وتوجد فى باطنه خام البترول وخام اليورانيوم وتسكنه قبائل هى امتدادات بشرية واجتماعية وحضارية لقبائل اقليم فزان بجنوب ليبيا . ولقد احتلت القوات الليبية بالفعل شريط أوزو منذ عام ١٩٧٣ بموجب اتفاقية

حسن جوار أبرمها القذافى مع الرئيس التشادى الأسبق فرانسوا طومبلای واقیمت بناء عليها « منطقة تضامن » على الحدود المشتركة بين البلدين . ومن المفارقات التاريخية الساخرة أن القذافى يستند فى مطالبته بضم شريط اوزو نهائيا الى اقاليم بلاده ، الى مقاصد استعمارية قديمة تعود الى عام ١٩٣٥ وأبرمها موسولینى مع بير لانال فى اتفاق لم يصدق عليه رسميا آنذاك ، وينص على أن تبادل فرنسا ليبيا التى كانت مستعمرة ايطالية فى ذلك التاريخ ، جزءا من شمال تشاد مقابل جزء من غرب ليبيا تم بالفعل الحاقه بالشرق الجزائرى(٣٣) . واستكمالا لاعتبار الثروة المعدنية التشادية فى تفسير الموقف الليبى هناك ، يذهب بعض المحللين الى أن الدافع الأول لليبيا من توغلها فى تشاد هو نشر القوات الیبية فى مواقع تساعد على نشر القاتل العنيفة وهدم استقرار دولة النيجر، المتاخمة غربا لأراضى تشاد ، والتى تتميز بثروة كبيرة من خام اليورانيوم(٣٤) .

ومن ناحية أخرى تنطلق السياسة الليبية فى تشاد من «عقدة المحاصرة» أو عقدة العزلة الاقليمية التى يعانى منها النظام الليبى نظرا لتوتر علاقاته شرقا مع مصر وغربا مع تونس والجزائر بعد تكرار فشل محاولاته للتقارب أو للوحدة مع أى من جيرانه الثلاثة المذكورة . هذا بالإضافة الى الضغوط الامريكية الدبلوماسية والمقاطعة الاقتصادية الامريكية الآتية من الشمال . ومن ثم تظهر ضرورات فى الرؤية الليبية للامتداد جنوبا نحو تشاد من أجل تخفيف آثار تلك الضغوط المذكورة من الشرق والغرب والشمال .

هذا وان كانت بعض الدراسات الغربية تركز فى تحليلها للموقف الليبى من قضية تشاد على الأبعاد الدينية والثقافية والعرقية فتعتبر هذه الدراسات أن سياسة القذافى فى تشاد ما هى الا خطوة أولية لتحقيق ما يستهدفه الرئيس الليبى من اقامة امبراطورية اسلامية فى الصحراء الكبرى الافريقية تحت زعامته ، على أن تنطلق من تشاد أولا ثم تمتد بعد ذلك الى السودان

(٣٣) نبیه الاصفهانى ، تشاد من الحرب الاهلية الى حرب التحرير ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(34) David Yost, French Policy in Chad and the Libyan Challenge. Orbis, vol. 26, n. 4 (Winter 1983), P. 971.

والنيجر ونيجيريا ، ومن ثم فإن تحرك القذافي في شمال تشاد يستهدف
اقرار السيطرة الاسلامية الشمالية على الجنوبيين المسيحيين (٣٥) .

وترى دراسات أخرى أن التدخل الليبي الكثيف في شئون الجارة
الجنوبية ، تشاد ، إنما يرجع أساسا الى امتصاص مظاهر الغضب الشعبى
الداخلى بين أوساط الشعب الليبي من جراء ممارسات القذافي القمعية
الشديدة لخصومه وتحويل الرأى العام الليبي الى شواغل خارجية مثيرة
للاهتمام (٣٦) .

وأخيرا ، وببساطة ، ألا يسعى القذافي الى ايجاد نظام حكم موال له في
عجamina ، عاصمة دولة المؤخرة الاستراتيجية لليبيا ؟

أما فرنسا التى احتلت تشاد احتلالا عسكريا مباشرا طيلة ستين عاما
من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٦٠ ، فإنها عادت وتدخلت عسكريا علينا بعد استقلال
الدولة التشادية أكثر من ٤ مرات متتالية على مدى عشرين عاما وكانت أهمها
عملية « مانتا » من ديسمبر ١٩٨٣ الى فبراير ١٩٨٤ لمساعدة قوات حسين
حبرى ضد قوات عويدي وما زال الوجود العسكرى الفرنسى الكثيف قائما
في أراضى تشاد جنوب خط عرض ١٦٥ شمالا . كما أن فرنسا قدمت الى
تشاد منذ استقلالها ما قيمته ثلث المعونة الفرنسية العسكرية الاجمالية الى
افريقيا الفرنكوفونية جنوب الصحراء (٣٧) .

والتفسيرات الموضوعية لهذا الموقف الفرنسى شديد الخصوصية من
قضية تشاد تتبلور في اعتبارات مصلحة اقتصادية وسياسية محضة .
ففرنسا تحتكر محصول تشاد الرئيسى من القطن ، كما أن فرنسا تسعى الى
اثبات مصداقيتها في قيامها بالفعل بالحماية الواقعية العسكرية للنظم الموالية
لها في اطار الدول الافريقية الناطقة باللغة الفرنسية خاصة في غرب ووسط
افريقيا ، وتحرص فرنسا على اقرار استمرارية نفوذها الشامل في هذا

(35) Thomson, op. cit., P. 119.

(36) Charles Tripp, «La Libye et l'Afrique,» in La Politique
Etrangere, n° 2, 1984, P. 317.

(37) David Yost, French Policy .., ou. cit., P.P. 956 - 968

الجزء من افريقيا بالذات فى مواجهة محاولات نيجيريا لاحتلال موقع الدولة القائد فى غرب افريقيا(٢٨) .

ومن جهة أخرى تمثل تشاد من المنظور الاستراتيجى الفرنسى لمصالحها فى القارة الافريقية ، خط دفاع أساسى عن أمن ثلاث دول فرانكوفونية هامة بوسط القارة هى النيجر والكاميرون وجمهورية وسط افريقيا . كما تحتل قاعدة نجامينا الجوية ذاتها نقطة ارتكاز خاصة فى مجال التسهيلات الجوية العسكرية المفتوحة امام الطيران الفرنسى الى جانب قواعد داكار وجيبوتى . وليبرفيل .

ومن الحقائق التى يجدر بنا تسجيلها ان الدور الفرنسى فى قضية تشاد ، رغم كثافته واستمراريته ، انما يتفاعل مع تيارين متناقضين من الضوابط الموضوعية الحركية والتى تعتبر واقعا خارجة عن نطاق المصالح الفرنسية المباشرة فى اراضى تشاد واقتصادياتها . التيار الأول يعمل على تحديد ذلك الدور الفرنسى أو تضيق آثاره وهو مجمل المصالح الفرنسية الخاصة الموجودة فى ليبيا . والتيار الثانى يضبط فى سبيل توسيع وتكثيف الدور الفرنسى فى تشاد ، وهى مقتضيات تمثيل فرنسا لمصالح المعسكر الغربى ككل فى وسط وغرب القارة الافريقية .

ذلك أن فرنسا لا تتدخل فى قضية تشاد تدخلا مطلقا لا حدود له بل ان مصالحها الاقتصادية فى ليبيا تضع تحفظا وتنسبيا على حركة السياسة الفرنسية فى تشاد .

فهناك أكثر من خمسين شركة فرنسية عاملة فى ميادين التجارة والأعمال والاستثمارات داخل ليبيا وهناك اتفاقيات صناعية قيمتها أكثر من مليار دولار تربط ما بين طرابلس وباريس ، والشركات البترولية الفرنسية تتمتع بمعاملة متميزة داخل دوائر النفط الليبية . هذا بالإضافة الى مبيعات السلاح الفرنسى الضخمة الى ليبيا .

أما المجموعة الثانية من الضوابط الحركية التى يخضع لها الدور الفرنسى فى تشاد فتركز فى لزوميات قيام فرنسا بتمثيل مصالح المعسكر الغربى فى

أواسط وغرب القارة الافريقية . ذلك أن تشاد ، كما سبق ذكره ، تحتل بموقعها جزئية رئيسية من القلب الاستراتيجى للقارة مما يجعل لها بالضرورة أهمية خاصة فى تخطيط استراتيجيات الصراع العالمى بين القطبين على قفريقيا . وهذا ما يفسر كلا من الامدادات السوفيتية العسكرية للتدخل الليبى حتى تشاد وكذلك المعدات العسكرية الامريكية بعشرات الملايين من الدولارات المقدمة الى قوات الحكومة التشادية بزعامة حسين حبرى مما كان له ابلغ الأثر فى الانتصارات الأخيرة للقوات التشادية على القوات الليبية خاصة بعد انضمام قوات عويضى المنشقة فى السابق الى قوات حسين حبرى منذ أكتوبر الماضى (١٩٨٦) .

هذا بالإضافة الى اعتبار اقتصادى امريكى آخر حيث تسير شركة النفط الامريكية « كوتكو » على عمليات التنقيب عن البترول خاصة فى القسم الشمالى والشرقى من الاراضى التشادية .

وفى جنوب السودان وعلى الرغم من الطبيعة الداخلية الصميمة للصراع الدائر بين الشماليين والجنوبيين فان القوى الخارجية تلعب دورا هاما وان كان دون الصبغة العلنية أو الدعائية ، فى استثمار تلك القضية لتحقيق مصالحها الذاتية المختلفة وعلى رأس تلك القوى الخارجية الهيئات والبعثات التبشيرية المسيحية وكذلك الهيئات والمنظمات الاسلامية العالمية . مثل رابطة العالم الاسلامى والمؤتمر الاسلامى . كما تقوم دول حوض نهر النيل بأدوار متباينة الأثر والفعالية فى مسار الصراع الجنوبى الشمالى . بالسودان تبعا لاعتبارات الأمن القومى لكل من تلك الدول ووفقا لطبيعة علاقاتها بأحد طرفى هذا الصراع أو حسب ارتباطاتها الدولية الأوسع بأحد القبين أو بأحد المعسكرين . لكبرين ولذلك تتفاوت وتتلون وتتأرجح مواقف كل من اثيوبيا وأوغندا وكينيا ومصر وزائر ، انطلاقا من الاعتبارات سالفه الذكر .

أما بالنسبة لمصالح القطبين العظميين فى قضية جنوب السودان فان الباحث لا يجد تعبيرات سلوكية أو دلائل مادية قاطعة على تدخل العملاقين فى تطورات تلك القضية ، الا أن التحليل الجيوستراتيجى وكذلك اعتبارات توازن القوى العالمى انما توضح جميعها أن منطقة جنوب السودان تمثل ثلاثحاد السوفيتى ما يمكن أن يسمى « كردون صحى » لمناطق النفوذ

السوفيينى القائمة والمستقرة منذ السبعينيات فى باب المنذب والقرن الافربقى وقواعد مدخل البحر الابيض والمحيط الهندى . وفى الجهة المتابلة وبالمناظر العكسى فان السياسة الاميريكية تنظر الى منطقة جنوب السودان بصفتها حاجزا وقائيا يستطيع بحكم موقعه أن يكون مانعا للمد الشيوعى الى عمق القارة الافريقية .

ومن ثم فان الدور السوفيينى والدور الامريكى فى قضية جنوب السودان قائمين من حيث الجوهر الموضوعى وان كان تطبيق لزمياتهما يتم بقوى اخرى وسيطة ، بعضها محلى يقع بالقرب من أرض النزاع والبعض الآخر اخرج عن القارة الافريقية .

وفى قضية الصحراء الغربية تتضح بجلاء الأبعاد المصلحية الاستراتيجية والاقتصادية لمواقف الأطراف الخارجية المتصارعة .

ان كلا من المغرب والجزائر على حد سواء ترى فى السيطرة على هذا الاقليم الصحراوى الضخم قيمة استراتيجية مزدوجة قوامها النفاذ الى العمق الافريقى عبر الصحراء الكبرى ثم الحماية الأمنية الاستراتيجية الذاتية غربا بالنسبة للجزائر وجنوبا بالنسبة للمغرب . كذلك فان من يسيطر على هذا الاقليم يكون اقرب من سواه فى التوصل الى وضعية « الدولة الربان » أو الدولة القائد لمنطقة شمال افريقيا أو المغرب العربى ككل . وهذا هو ما تطمح اليه كل من الدولتين على أساس من اقتناع ذاتى لدى كل منهما فى هذه الوضعية الزعامية المتميزة اقليميا . فالجزائر تبنى طموحها وأحققتها فى هذه الزعامة المغربية على ثقلها الثورى الوطنى التحررى فى اطار العالم الثالث عامة وفى افريقيا والعالم العربى على وجه الخصوص . والمغرب تؤسس قناعتها فى هذه الأحقية على تراثها التاريخى والروحى والحضارى فى منطقة شمال غرب افريقيا حتى حدود الصحراء الكبرى الافريقية على مر العصور الوسيطة والحديثة .

ولكن للاعتبارات الاقتصادية تحديد حاسم فى مواقف المغرب والجزائر من قضية الصحراء . ان المغرب اذا دان له اقليم الصحراء بثروته الفوسفاتية الضخمة انما يصبح القوة الثانية فى السوق العالمى لهذه المادة الأساسية.

فى المجال الزراعى ، جنباً الى جنب الاتحاد السوفييتى ، وخلف الولايات المتحدة الامريكية مباشرة .

والجزائر اذا استطاعت ان تقيم دولة تابعة لها فى الاقليم الصحراوى غانها سوف تضمن نافذة اطلنطية شديدة الأهمية تمر منها بسهولة وبتكاليف منخفضة ، صادراتها الى العالم الخارجى من الحديد والبتترول والغاز الطبيعى حيث ان مناجم الحديد تتركز فى تندوف فى أقصى الجنوب الغربى الجزائرى كما تقع الغالبية العظمى من آبار البترول ومناطق الغاز الطبيعى فى جنوب البلاد الجزائرية .

كذلك فان للجزائر مصالح اكيدة فى الاستفادة من مزايا التعامل الاستثنائى مع جار ضعيف يدين للجزائر بوجوده ويمتلك طبيعياً ثروات معدنية واحتياطيات ضخمة غير مستغلة من الحديد والبتترول تحت سواحله الاطلنطى (٣٩) .

الا أن الاسنقطاب العالمى غير قائم حتى الآن بين طرفى قضية الصحراء الغربية نظراً للتشابك الشديد فى علاقات الدولتين العظميين ، المصلحية الاقتصادية ، مع كل من طرفى الصراع . فعلى الرغم من الاتجاه السياسى الخارجى العام لدولة المغرب المتقارب مع المعسكر الغربى ومع مصالحه فى افريقيا ، الا أن للاتحاد السوفييتى مصالح اقتصادية ضخمة فى المغرب ممثلة فى صفقة القرن من الفوسفات المبرمة بين موسكو والرباط عام ١٩٨٠ ، وفى حصول الاتحاد السوفييتى على امتيازات للصيد فى المياه المغربية الساحلية المحيطة .

وفى الجهة المتابلة فان للولايات المتحدة مصالح ضخمة تكاد تكون احتكارية فى مجال الغاز الطبيعى الجزائرى ، هذا رغم الصبغة الاشتراكية التقدمية الغالبة على ايدولوجية النظام الجزائرى الحاكم ورغم الروابط الدولية الخاصة ما بين موسكو والجزائر .

(٣٩) محمد عبد الفنى سعودى : مشكلة الصحراء الغربية ، دراسة فى خلفية الصراع وتوطره ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ابريل ١٩٨٣ ، ص ٧ ط.

أما فرنسا الدولة الاستعمارية الأم في شمال إفريقيا . في الماضي القريب ، فبعد أن اتخذت في بداية الصراع موقفا مؤيدا تماما للدعوى المغربية ورافضا لانتشار ظاهرة الدول القزمية في إفريقيا ، إلا أنها عادت واتخذت موقفا وسطا بسبب ارتباطاتها التجارية بالجزائر ، فأصبحت تؤيد إجراء استفتاء حول مصير الصحراء تحت إشراف الأمم المتحدة .

هذا ورغم عدم وضوح ظاهرة الاستقطاب الدولي في غمار صراع الصحراء المغربية ، حتى الآن ، فإن الحقيقة المطلقة تظل قائمة وهي أن منطقتي شمال وشمال غرب إفريقيا تحتلان نقطة تركيز واهتمام بالغين ضمن محددات الاستراتيجية البحرية لكل من العملاقين ، سواء في البحر الأبيض المتوسط أو في المحيط الاطلنطي (٤٠) .

وختاما للتحليل ، ان كانت هذه الدراسة المقدمة تسعى الى اثبات أوجه واقعية للمقاربة التحليلية بين أهم القضايا الافروغربية في عقد الثمانينيات المعاصر فان هذه القضايا الثلاث نفسها تتباعد فيما بينها اذا سعت الدراسة الى تصور الحل الأمثل لكل منها وفقا لمقتضيات الطبيعة الخاصة لكل من تلك القضايا .

ذلك ان حل مشكلة جنوب السودان يتركز أساسا في تغييرات جزرية تندرج في اطار السياسة الداخلية السودانية وفي صورة مشروعات انمائية شاملة تطويرية وتحديثية لمناطق الجنوب وبصفة خاصة اقامة شبكات مواصلات برية ونهرية وجوية تربط ما بين أقصى البقاع الجنوبية النائية بالعاصمة السودانية . هذا مع ضرورة التعديلات الدستورية النظامية للبنين الرسمي للدولة السودانية ذاتها بحيث تترسخ مبادئ العلمانية في السياسة والحكم مع اعتبار خاص للتعددية الثقافية والعرقية القائمة واقصا في البنية الاجتماعية السودانية .

(٤٠) ايناس المهدي : مشكلة الصحراء الاسبانية سابقا ، مرجع سابق ص ٨٦ .

— عبد الرحمن اسماعيل محمد الصالحى : التسوية السلمية للمنازعات في اطار منظمة الوحدة الافريقية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٨٨ — ١٨٩ .

ويختلف الأمر جوهريا فى قضية تشاد حيث تركز التسوية النهائية السلمية للصراع على اعادة تخطيط مشترك لأسس وأولويات الحركة الخارجية لكل من النظام الليبى والنظام التشادى ، كل فى مواجهة الآخر . وبمعنى آخر ان يتخلى القذافى عن نظريته التوسعية الاقليمية تجاه اراضى تشاد وان تعترف حكومة نجامينا بالروابط الاقتصادية والبشرية المتميزة بين بلدين جمعت بينهما حتميات التاريخ والجغرافيا والحضارة .

أما فى قضية الصحراء الغربية فهناك متغير ثالث غير الطرفين الأساسيين ، هو كيان دولى جديد ، مهما كانت خلفيات نشأته الواقعية ، فانه معترف به حاليا من قبل ٦٤ دولة من أعضاء المجتمع الدولى (منها الهند ويوغسلافيا) ، وأعنى به الجمهورية الصحراوية العربية . ومن ثم فان أى حل حقيقى بين الطرفين المتصارعين الأساسيين ، المغرب والجزائر ، يكمن فى الصيغة التوفيقية الوسطى ، التى يمكن ان تتوصل اليها الدولتان بشأن مصير هذا الكائن الدولى الجديد .

٠١. د . عبد الملك عودة :

مجال الصراع فى القرن الافريقى :

هناك عدة ملاحظات تخص ازمت القرن الافريقى تتمثل فى معطيات جغرافية تاريخية واقتصادية تراكمت لتعطى مجموعة من الازمت :

الملاحظة الأولى : هناك استمرار فى صراعات القرن الافريقى وهذا له ارتباط بالمتغير الخارجى فنذكر انه ما بعد الحرب العالمية الاولى وما بين الحربين هناك صراع ايطالى فرنسى وانجليزى ، وحاليا هناك صراع امريكى سوفيتى وفرنسى ، فالدور الاصلى للمتغير موجود ونجد كذلك وبشكل متغير دورا لليبيا واليمن الجنوبية والسعودية ومصر فى فترة من الفترات ، فالصراع الدولى قائم مع كل ابعاده وكل دولة مع حلفائها ، ويتم ذلك سواء تعلق الأمر بدولة مستعمرة او مستقلة بالمعنى القانونى فى الأمم المتحدة .

وهذه النقطة ترتبط معها نقطة أخرى تتعلق بالبحر الاحمر فالافتراض أن البحر الاحمر فى نظرى بحر داخلى قيمته تابعة وليست أصلية حيث ان

قيمته الأساسية تتمثل فى الاخدود السكانى والبشرى الذى هو وادى النيله الذى يعتبر نقطة مهمة للحرب فى البحر الاحمر او ما بعده الى الخليج البترولى ، وأظن أن تجربة قناة السويس بعد العدوان الاسرائيلى والنكسة وتجربة اغلاق باب المندب فى حرب ١٩٧٣ تؤكد هذا أى أن البحر الأحمر اثر هذه الأحداث يمكن أن يفلق وتبقى قيمته تابعة وليست أصلية .

الملاحظة الثانية : هناك تقدم فى نوعية السلاح العالمى فى قوة النيران ووسائل نقل السلاح ، وأنواع الصواريخ والفواصات عابرة القارات ، القنابل النووية ، المركبات الفضائية ، شبكات الاتصال والتجسس العالمية لجمع المعلومات ، لكن بالرغم من هذا مازال للارض فى القرن الافريقى قيمة ، وهذا واضح من السيطرة على السواحل وعلى الهضبة وفى انتقال تحالف الاتحاد السوفيتى من الصومال الى اثيوبيا ، مما أدى بالولايات المتحدة الى تطبيق المنطقة بعد هذا التحالف .

الملاحظة الثالثة : الصراعات فى القرن الافريقى كشفت عن تناقضاته جذرية أحيانا وشكلية أحيانا أخرى بين ما يسمى سياسات التضامن العربى وسياسات التضامن الافريقى فبحكم جامعة الدول العربية هناك تضامن عربى وهناك معاهدات دفاع مشترك وبحكم ميثاق منظمة الوحدة الافريقية هناك تضامن أفريقى يؤمن بعدم تغيير الحدود وإبقائها على ما كانت عليه والدول الافريقية متعارفة على هذا . هاتان السياستان ومن خلال التحالف الاستراتيجى العربى الافريقى يجب الا تتناقضا ، لكن الذى حدث أنه نتيجة الصراع الدولى ونتيجة قيام بعض الدول العربية بادانة الدولة التابعة أو الدولة الأداة ، بدأ يظهر التناقض ، فهناك قضية الصراع الصومالى الاثيوبى فهما قتل فى قضاياها الفكرية وهل هو استثمار أو نصف استثمار ، لكن هناك اقرار بوجود أقليات ولكن تأييد الدول لجانب ضد جانب آخر له دور فى أزمة ومصادقية التعاون العربى الافريقى ، فوحدة أراضى اثيوبيا تأتى من قضية أرترىا وقضية الاوجادين ، فى الصومال قضايا الحرب الأهلية وهل تعتبر حرب تحرير لتثريك الدولة الاثيوبية او للحفاظ عليها . المبدأ هنا فى كلا الدولتين ، وفى جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية هو ابقاء الحدود على ما هى عليه يعنى أن أرترىا تبقى تابعة لاثيوبيا .

الملاحظة الأخيرة : تمحور حول العلاقة بين مصر واثيوبيا ، وهى علاقة قديمة بين الدولتين سواء علاقات تاريخية اقتصادية أو دينية ، عسكرية وسياسية ، وأرى أن هذه العناصر وجدت فى عصر المماليك وفى عصر محمد على وخلفائه ، فى عصر الملكية ، ووجدت فى عصر عبد الناصر ، فالقضية هى قضية تنشئ معادلة تجمع هذه العناصر ، بحيث تقلل السلبيات والمناقضات وتعظم وتنمى الايجابيات او المصالح المشتركة . فهذه العلاقة يجب أن تكون علاقة مباشرة بين القاهرة واديس ابابا ، ولا يمكن اغفالها وانها تقوم على مجموعة من المصالح المشتركة ، فمصر كانت تبنى سياستها وامنها التوهم على أساس وحدة وادى النيل . وهذا شعار موروث عن بريطانيا شعار استعماري ، لأن بريطانيا حكمت جميع بلاد وادى النيل فيما عدا راوند و بورندى التى كانت تحت سيطرة بلجيكا .

بعد الاستقلال أصبح النظام الاقليمى لوادى النيل يبحث عن تركيب علاقات تشمل هذه الدول وتمثل مصالح مشتركة عمودها الفقرى مياه وادى النيل والمصالح المشتركة والأمن والدفاع فلا بد أن تدخل مصر فى علاقة مباشرة مع هذه الدول . من هنا يأتى دور اثيوبيا ، وأوغندا القوى جدا فى بناء النظام الاقليمى واختراق النظام الاقليمى يجعل مركز مصر ونسقتها ضعيفا ، ويجعل أيضا الصراع الدولى قويا ، ويتضح ذلك من الاختراقات الاقليمية الليبية السعودية ، ولن أقول الامريكية السوفيتية والفرنسية ، لأن النظام الاقليمى لوادى النيل ومحاولة بنائه حتى الآن لن يقوم الا على التفاهم المباشر بين الدول القوية وفى مقدمتها مصر واثيوبيا .

المناقشات والتعقيبات

د. حسن نافلة :

مفهوم الأمن القومى مفهوم شامل ينطوى ويندرج فى البعد العسكرى بالإضافة الى البعد الاقتصادى ، ولكن وفى هذا العالم لا توجد غير الدولتين الأعظم اللتين هما قادرتين بالفعل على تحقيق هذا الأمن القومى لشعوبهما ، فيما عدا ذلك أعتقد أن جميع دول العالم سواء دول العالم الثالث أو دول متوسطة فهى تعتمد بدرجة أو بأخرى فى أمنها على الارتباط بهذه الكتلة أو تلك .

فى هذه الأوضاع الدولية أعتبر أن هناك ظاهرة على جانب كبير من الأهمية وخصوصا أننا عندما نتحدث عن منظمة الوحدة الإفريقية وما تلعبه هذه المنظمة لتحقيق مفهوم جماعى للامن فى القارة ، وهذا لا يقتصر فقط على منظمة الوحدة الإفريقية وإنما ينبق بشكل عام على المستوى الدولى . وفى جميع المنظمات الدولية ، لكن ما نلاحظه هو أنه ليس هناك مفهوم جماعى للامن فى جميع هذه المنظمات ، وبالتالي فالمسألة تعتمد على القوة الذاتية أولا وإمكانية بناء هذه القوة الذاتية ، فمقدرة الدولة على بناء وحدتها الوطنية وعلى بناء قوتها الذاتية عسكريا واقتصاديا ، وارتباطاتها الخارجية هى التى تشكل بصورة عامة مفهوم الأمن .

والملاحظ أن جميع المحاولات سواء على المستوى الاقتصادى أو العسكرى فى شكل منظمات دولية أو فى شكل تحالفات أو اتفاقيات جماعية كلها فشلت إما بسبب التناقضات الداخلية داخل هذه الدول أو بسبب التغفل الأجنبى وبالتالى نقول أن الحديث عن مبادئ القانون الدولى مسألة لا تسمن ولا تغنى من جوع فى هذا الإطار . فمنظمة الوحدة الإفريقية تعتمد على عدم التدخل فى الشؤون الداخلية لأية دولة ، إلا أن هذا المفهوم ليس له أى أساس على الواقع فهو مفهوم نظرى بحث ولا علاقة له بالواقع .

— أريد استفسار حول ارتباط الأمن المصرى بالأمن الإفريقى وإلى أى مدى هذا الطرح .

هو طرح موضوعى ، فهل هناك علاقة طبيعية ومؤيدة ، وما هى الترتيبات التى تقوم بها مصر فى سبيل تأكيد هذا المفهوم ، فهناك تطورين فعلا فى الجنوب الإفريقى وهما الاتفاقيات التى تمت بين جنوب إفريقيا وموزمبيق ، ثم دخول الولايات المتحدة فى الصراع العربى الاسرائيلى ، فالى أى مدى يؤثر هذا على قضية الأمن فى إفريقيا وهذا التضامن بشكل عام .

السيد عبد الكامل دنيا (المستشار الثقافى بالسفارة المغربية بالقاهرة) :

لا أشاطر الدكتورة نازلى فى قولها أن قضية الصحراء المغربية طرحت للتنفيس عن النظام المغربى فى الداخل ، فالطرح المغربى لقضية الصحراء كان منذ عهد الاستقلال منذ سنة ١٩٥٧ ، وفى إطار هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٦٠ ، وذلك فى إطار تصفية الاستعمار الاسبانى فى المغرب انطلاقا من

تحرير سيدى افنى و طرفاية ثم الصحراء المغربية فى ١٦ نوفمبر فى اطار اتفاقية مدريد مع الاستعمار الاسبانى ، فهناك تمييز بين حالة المغرب منذ الاستقلال والتحويلات التى حدثت بداخله منذ عام ١٩٧٤ لماذا ؟

هناك ثلاثة اسباب :

— فالمغرب فى سنة ١٩٧٤ كان فى اطار نهضة فى الميدان التعليمى والاقتصادى ونذكر هنا مساهمة الشقيقة مصر فى الميدان التعليمى وفى اطار التعاون الثقافى .

— وعلى الصعيد الخارجى نرى اسهام المغرب لدى اشقائه العرب سواء على مستوى الدول العربية أو على مستوى الدول الافريقية أو الاسلامية ونذكر فى هذا الاطار مساهمة المغرب فى حرب أكتوبر .

— الهدف من طرح هذه القضية هو فى الحقيقة ضرب لوحدة المغرب العربى كقوة اقتصادية كقوة اجتماعية لأن هذه الوحدة كانت تشكل دعما للمشرق العربى . فوحدة المغرب العربى وحدة للامة العربية عامة .

اللواء لطعت مسلم :

ابدا حديثى عن المتغير الداخلى والمتغير الخارجى ، وأرى كما جاء فى عرض الدكتور نازلى أن النماذج الصارخة للاستثمارات الخارجية لثغرات فى البنية الافريقية العامة هى الحقيقة العامة فى المتغير الخارجى فى مشاكل الامن ، فالملوضوع هناك يتمحور حول قضايا الامن والاستراتيجية ، وفى الحقيقة سمعت الكثير فى قضايا الامن ولم اسمع عن قضايا الاستراتيجية ، وأرى اننا نضخم من قيمة المتغير الخارجى بينما هو فى الحقيقة استثمار نصف افريقى ، فرغم القوة الكبيرة للدول العظمى الا انها من الواضح غير قادرة على مواجهة شعب يقف امامها ولكنها حينما تجد الفرصة سانحة لاختراق هذا الشعب هنا تمنح الاستثمارات الخارجية المشكلة اذن فى البنية الداخلية لافريقيا فحتى الدول التى تكلم عنها الدكتور عودة على أنها دول مستقرة وثابتة ولها تقاليد كحصر واثيوبيا ، هذه الدول بدات تظهر فيها بعض مظاهر التفكك حيث انها تظهر بشكل واضح فى اثيوبيا فالحقيقة فى اثيوبيا تتمثل فى انها غير قادرة على الحفاظ على التماسك الوطنى الداخلى ، بحيث

ظهرت هناك حركات مضادة وقوية داخل اثيوبيا الدولة العريقة وبالنسبة لباقي الدول هذه الظاهرة واضحة .

— بالنسبة للمتغير الخارجى حصل نوع من الخلط بين التدخل العسكرى والوجود العسكرى الاجنبى فى افريقيا ، فيجب ان نفرق بين وجود عسكرى خاضع للارادة الوطنية ، يعنى يوظف لصالح البلد ، ووجود عسكرى اجنبى يخضع الارادة الوطنية رغم تحفظى لا أقول ان ليبيا خاضعة للنفوذ السوفيتى ، بينما استطيع ان أقول ان تشاد خاضعة للنفوذ العسكرى الخارجى .

والمشكلة انه حتى فى الدول التى قادت حركة التحرر الوطنى فى افريقيا تحولت الى نوع من التبعية السياسية للوجود الاجنبى ، ويدخل فى هذا الاطار الوجود العسكرى فى الدول العربية فى مصر ، فى ليبيا ، تونس ، المغرب ، طبعاً الوجود العسكرى فى انجولا غير الوجود السوفيتى فى ليبيا ، وهنا اريد توضيح نقطة ، وهى ان انجولا تدخل فى اطار الصراع الدولى ، معن طريقها حصل نوع من تقسيم المحيط الاطلنطى واصبح شماله تابعاً للمعسكر الغربى بينما جنوبه تابعاً للمعسكر الشرقى ، وهذا يؤكد لنا تأثير الأمن الافريقى على الصراع الدولى .

د. احمد عبد الله :

موضوع الامن يفرض علينا ان نتحدث عن ظاهرة معتدة لها عدة مستويات فى نفس الوقت ، فهناك الأمن الوطنى والأمن الاقليمى الصغير ، والأمن القارى والامن الكونى أو العام ، فلا يمكن استبعاد الواحدة منهم عند الحديث عن الأخرى .

والشئ المهم هنا هو أن ندرس الاطار التنظيمى لصياغة مفهوم الامن نفسه والاطار التنظيمى لتطبيقه .

فعند كل هذه المستويات الأربعة نجد أن الدولة الوطنية المستقلة ، هى المنوطة ، على صياغة مستوى الامن فى اطاره القومى ، اما على مستوى الأمن الاقليمى الصغير من القارة نفسها فتقوم به منظمات قارية صغيرة على المستوى القارى ، هناك منظمة الوحدة الافريقية وعلى المستوى العالمى

هناك الحضور الشامل لهيئة الأمم المتحدة . وما الى الى ذلك من منظمات
عالية .

أنا أدعى أن هناك ضعف تنظيمي فيما يخص مفهوم الأمن وما يخص
صياغة مفهوم الأمن وتطبيقه على كل هذه المستويات ، ونضرب مثالا على
مستوى الدولة الوطنية وكيفية اتخاذ القرارات الأمنية فيها فسنجد أنه في
بعض الدول الإفريقية يقسم باتخاذ القرارات الأمنية شخص واحد هو
الشخص الحاكم والبعض الآخر منها تقوم به المؤسسات العسكرية دون
الصفوة المدنية ، وفي البعض الثالث هناك خليط من هذا وذلك ، لكن هناك
صفوة محددة من الناس تتخذ قرارات الأمن . وإذا أخذنا أكبر دولتين
إفريقيتين سنجد الى أي مدى هذا الأمر واضحاً ، فمصر ليس لها منظور
أمني في تشاد سوى لأنها في صراع مع ليبيا ، وهذه نقطة ضعف كبيرة ،
فلا بد أن يكون لمصر موقف أمني استراتيجي طويل المدى في تشاد ، بغض
النظر عن من بيده الحكم في طرابلس ومتدخلا في تشاد أو غير متدخل .

المثال الثاني يتمثل في دولة أخرى وهي نيجيريا في حين اتخذت نيجيريا
قراراً بطرد مليون عاطل غاني بين عشية وضحاها ، له انعكاسات قوية على
الأمن القومي والإقليمي ، في تلك المنطقة ستشهد الأجيال القادمة ، وبهذا
أريد أن أقول أن صياغة المفاهيم الأمنية في القارة الإفريقية ضعيف للغاية ،
مرتبط بالقرار السياسي بمعناه الفردي وليس بمعناه الاقتصادي والاجتماعي
والحضاري وهنا سنجد أن المواطن العادي في القارة الإفريقية بدولها
وأقاليمها له دور ضعيف للغاية في الصياغات الأمنية المختلفة على عكس
المواطن في القارة الأوروبية حيث مستوى النضج السياسي أعلى بكثير ،
بعبارة أخرى فطالما أن الأمن يقدم للمواطن الإفريقي في عبوات سابقة
التجهيز فلا أمل في صياغات جديدة ومحترمة تراعي مصالح الشعوب في
نهاية المطاف .

الردود على التعليقات والمناقشات

السفير احمد حجاج :

لا يوجد أمن قومى مائة بالمائة لأى دولة فى العالم ، وكان هذا هو المحك الرئيسى بين المفاوض المصرى والمفاوض الاسرائيلى ، فمصر التى أقامت معاهدة السلام مع اسرائيل لم يمنعها هذا من تأييد منظمة التحرير الفلسطينية فى حين أن القوى العربية الأخرى التى تدعى التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية هى التى تقوم بضرب الفلسطينيين فى المخيمات وتقوم بتصفيات جسدية لا مثيل لها ، ولم تقم بها اسرائيل نفسها حتى الآن ، مصر التى خرجت من الجامعة العربية حافظت على اتفاقية الدفاع المشترك ، فى حين أن الدول العربية الأخرى التى تدعى العروبة لم تؤيد هذه الاتفاقية أو لم تعمل بها .

ومصر اذا رجعنا الى القارة الافريقية هى التى وقعت اتفاقية السلام مع اسرائيل ، ولها علاقات طيبة مع الولايات المتحدة ، فلم يمنعها ذلك من تقديم مساعدات عسكرية الى انجولا ، وموزمبيق ، والتى لها علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتى ، وأقول أن لا الاتحاد السوفيتى ولا الولايات المتحدة يرغبان فى رؤية علاقات مصرية مميزة فى النظام العسكرى والسياسى والاقتصادى مع دول جنوب القارة .

منذ عشر سنوات عقد فى مصر مؤتمر القمة العربى الافريقى وحضره كل الرؤساء الأفارقة والرؤساء العرب وكانت مصر هى المحرك الرئيسى لهذا المؤتمر وقد تم خلاله انشاء أجهزة لتوثيق الصلات بين افريقيا وبين الدول العربية وللأسف اتخذت المعاهدة بين مصر واسرائيل للقضاء من دور مصر فى التعاون العربى الافريقى بحيث لا يمكن لافريقيا أن تتعاون مع دولة وقعت اتفاقية مع اسرائيل ، فمصر انسحبت من اللجنة المشكلة للتعاون العربى الافريقى وكنا ننتظر من دول أخرى التى تدعى أنها تساند التعاون العربى الافريقى أن تحل محلها لكن هذا لم يحصل فحتى الآن الدولة الوحيدة التى تقوم بدور فى هذا التعاون هى مصر ، ونلاحظ أن كل الدول التى انتقدت مصر وقاطعتها بعد كامب ديفيد تعود للتعامل معها .

د. نازلى معوض :

فيما يتعلق باقليم الصحراء الغربية أنا فى اعتقادى من واقع دراستى لها ، انها مشكلة تتعلق بعملية التجزئة فى القارة الافريقية ، فمن المعروف أن المغرب قد دخل منظمة الوحدة الافريقية وهو يبدى تحفظه رسميا على مبدأ عدم تصفية الحدود . أما الجزائر فتدعم هذا الكيان الجديد فى الصحراء عن طريق فكرة الاستفتاء فى الاقليم الصحراوى .

انا لم أقصد بكلمة تنفيس أن اقلل من موقف المغرب فى قضية الصحراء بل أقول أننى أكثر اقتناعا بالموقف المغربى من الموقف الجزائرى ، بل أقصد بالتنفيس تكر المقدرات فى هذا الصراع فى وقت معين بمعنى الأسباب المباشرة فأنا لا أجادل فى صميم القضية بالنسبة للمغرب فى كونها أراضى مفتصة ، وهذا وضح فى المنظمات الدولية التى أكدت على أن اقليم الصحراء الغربية ثبت على مر التاريخ أن له علاقات قانونية شرعية بمركز السلطة فى المغرب .

٤. د. عبد الملك عودة :

— الاستقرار بالنسبة لبعض الدول الافريقية والذى تحدثت عنه ليس استقرارا مطلقا ، وانما هو استقرار نسبى وكلمة نسبى كلمة تبدأ من الصفر وترتفع الى أعلى ، فكل دولة من دول افريقيا عرفت استقرارا من نوع خاص ، فالحرب الأهلية فى السودان استمرت سبعة عشر عاما ، والاستقرار بالتالى فى هذه المنطقة سيأخذ شكلا مميزا خاص به ، أما فى اثيوبيا ، فلا أرى أن الاضطرابات الحالية قد وصلت الى مرحلة اثارة المخاوف عنها ، فالصراع مستمر بين الامراء والرؤساء منذ فترة طويلة ، وحتى لما سيطر هيلاسلاسى على الحكم بمساعى الأمريكيين والانجليز . فكلما نسبى هنا مهمة ، والقياس فيما بين الدول بشأن الاستقرار يتم مع الأخذ بعين الاعتبار بخصوصية كل دولة .

— الأئمن القومى مرتبط بالدولة وبالشعب فمن الضرورى أن يكون للشعب دولة وللدولة حكومة تعبر عن نظام سياسى اقتصادى اجتماعى ، فكل دولة لها أئمن قومى خاص بها ، فهناك مثلا اثنتا وعشرون أئمن قوميا عربيا . وذلك بعدد الدول العربية ، والاشكال الذى يجب أن نبحث فيه

حاليا هو ما هو كائن اما ما يجب أن يكون فذلك لن يؤدي بنا الى نتائج ايجابية .

١. د. على الدين هلال :

بالنسبة لرؤيتنا للامن القومى المصرى يجب ان نسلم ان هناك مؤسسات مصرية داخل القوات المسلحة وداخل وزارة الخارجية ، وفى داخل المخابرات العامة تقوم بمهام التقرير الاستراتيجى لكافة أمن مصر واحيانا نصل الى قناعات قريبة جدا الى ما نصل اليه نحن المدنيين ، المشكل هو ان هذه الحوارات لا تطرح على الراى العام ، وهى ليست جزء من الحوار السياسى ولكن يقوم بها بعض الاخوة الفنيين الذين يرفعونها الى صانع القرار والذى قد يقرأها وقد لا يقرأها ، قد يفعل بها وقد لا يفعل .

العرب والافريقيين فى مواجهة المستقبل

حلقة نقاش

المشاركون :

— أ. د. جودة عبد الخالق

— أ. د. عصام الدين جلال

— أ. د. اسماعيل صبرى عبد الله

كلمة رئيس الجلسة : ٠١ د. جودة عبد الخالق :

ما يحمله المستقبل على الصعيد الاقتصادى بالنسبة لكل من العرب والأمازقة ، اذا كان المستقبل يتحدد بدرجة كبيرة بما حدث فى الماضى ، وما يتشكل فى الحاضر ، فلا شك ان هناك تعقيدات كثيرة يحملها المستقبل وتجعل من التكهّن بما سيحدث مسألة بالغة الصعوبة .

وهنا لست فى حاجة الى الاطالة فى العوامل المشتركة التى تجمع العرب والأمازقة ، فهناك الجغرافية ، وهناك التراث المشترك ، وهناك الأثر أيضا ، كما أن هناك الموقع من النظام العالمى سواء اكان نظاما اقتصاديا عالميا أو نظاما سياسيا أو اعلاميا ، والنظام هنا بمعنى النسق الفكرى الراقى ، ثم هناك من العوامل المشتركة . كذلك أن الاستعمار الاستيطانى كان قسمة مشتركة بين العرب والأمازقة وهو فى حالة العرب متمثل فى اسرائيل ، وفى حالة الأمازقة متمثل فى اتحاد جنوب افريقيا ، وهذا بطبيعة الحال يطرح على القطبين تحديات مشتركة وأسس مشتركة .

أما فيما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية التى يواجهها العرب والأمازقة ، فيمكن أن نحدد أربعة مجالات أساسية لوجود مشكلات يواجهها الطرفان سواء حاليا أو مستقبليا ، فهناك مشكلات فى مجال الطاقة وفى مجال الغذاء والديون والبيئة ، فبالنسبة للطاقة فى افريقيا فهى مشكلة حالية ومستقبلية ، أما بالنسبة للعرب فهى مشكلة مستقبلية ، أما فيما يخص الغذاء فرغم الموارد الهائلة لدى كل من الطرفين فانهما يواجهان نفس المشكل سواء فى الوضع الحالى أو بالنسبة للمستقبل . فيما يتعلق بالديون فالعرب والأمازقة يواجهان هذا المشكل ربما بدرجات مختلفة ومتفاوتة لكن المشكلة قائمة ، وأخيرا فيما يتعلق بالبيئة فكلاهما يعانى من التلوث والتصحر بالدرجة الأولى .

فأفريقيا اقتصاديا عانت خلال السنوات العشر الأخيرة من نمو اقتصادى منخفض فى بعض البلاد ، بل سلب فى العديد من البلاد الأخرى هذا بالإضافة الى انتشار المجاعات .

أما بالنسبة للعالم العربى هناك انخفاض فى النمو الاقتصادى فى حقبة الثمانينات بالإضافة الى وجود تدهور فى مستوى المعيشة .

وإذا ما حاولنا أن نتساءل عن ماهية التوقعات المستقبلية بالنسبة للطرفين ، سنجد ومن خلال تتبع العديد من الدراسات ، أن هناك دراسات توضح تطورات الوضع المستقبلي لأفريقيا والعالم العربي حتى عام ٢٠٠٠ وهناك دراسات تنشغل بمتابعة الوضع بعد عام ٢٠٠٠ ، ودراسات أخرى تتبّع الوضع قبل عام ٢٠٠٠ .

وفى كل هذه الحالات يمكن أن نقارن بين صورتين من صور المستقبل فيما يتعلق بأفريقيا والعالم العربي .

الصورة الأولى : رسمتها دراسة هامة للأمم المتحدة تحت عنوان مستقبل لاقتصاد العالمى The Future of the World Economy وهى عبارة عن تصورات لما يتوقع أن يكون عليه الوضع فى اسريقيا والعالم العربى فى ظل ظروف معينة حتى عام ٢٠٠٠ .

الصورة الثانية : دراسة أعدها البنك الدولى فى تقرير عن التنمية فى العلم سنة ١٩٨٤. World development Report 1984 ، وهى عبارة عن توقعات تمتد حتى عام ١٩٥٥ ، وهى تشير الى التطورات العالمية التى حدثت حتى أوئل الثمانينات من حيث الأزمة لعالمية فى الدول الرأسمالية المتقدمة .

فالصورة فى الحالتين غير مشرقة تنذر عن مشكلات حدة الأزمة الاقتصادية وتساعد الديون بالنسبة للدول الافريقية وما يترتب عن ذلك من تضعف فى مستوى المعيشة .

الاستنتاج الرئيسى بالنسبة لدراسة الأمم المتحدة هو أنه لضمان التنمية المضطردة فى الدول النامية ومنها الدول الافريقية يلزم توفير شرطين رئيسيين :

الشرط الأول : يتمثل فى حدوث تغيرات داخلية واسعة المدى فى هذه البلاد تشمل النواحي الاجتماعية والسياسية والمؤسسية بالإضافة الى تغيرات فى النواحي الاقتصادية . **والشرط الثانى :** يتمثل فى حدوث تغيرات جوهرية فى النظام الاقتصادى العالمى .

وهناك بعض الأرقام التى لها دلالة بالنسبة لهذه الدراسة والتى تكشف عمق الأزمة التى يواجهها الطرفان فى المستقبل ، فنصيب كل من الدول العربية والدول الإفريقية فى الناتج العالمى كان من المتوقع أن يزداد فيما بين سنتى ١٩٧٠ و ٢٠٠٠ ولكن هذه الزيادات ضعيفة فى حالة إفريقيا وهذا الجدول يوضح ذلك .

معدلات النمو والنصيب النسبى من الناتج العالمى

١٩٧٠ — ٢٠٠٠

المنطقة	معدل النمو السنوى %	النصيب من الناتج المحلى للعالم %	
		١٩٧٠	٢٠٠٠
الدول الرأسمالية المتقدمة	٣٣٠	٦٦١	٥٠٩
دول التخطيط المركزى	٥٢	١٨٦	٢٠٧
الدول النامية	٧٢	١٣٣	٢٨٤
الشرق الأوسط	٩٠	١١	٤٠
إفريقيا القاحلة	٥٥	٠٨	١٠
إفريقيا الاستوائية	٦٥	٤٢	٦٤
آسيا	٦٧	٣٨	٦٦

فعلى سبيل المثال كان نصيب إفريقيا من الناتج العالمى حوالى ٥٪ فى سنة ١٩٧٠ وتتوقع هذه الدراسة أن يصل الى حوالى ٦٥٪ بحلول عام ٢٠٠٠ . أما فيما يتعلق بالشرق الأوسط شاملا الدول العربية فنصيب هذه المنطقة من حيث هذه الدراسة سيرتفع من ١٪ الى حوالى ٤٪ .

لكن التطورات التى حدثت فى اواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات أطاحت بأساس هذه التصورات جميعا لأنها مبنية على تحسن فى البيئة الاقتصادية الدولية ونجاح نسبي للدول المتقدمة فى الخروج من أزمتها وهذا أمر لم يتحقق .

ومن هنا وربما نجد من خلال الدراسة الثانية التى أقامها البنك الدولى بعض الضوء على هذا لأنها تتناول تنبؤات للنمو الاقتصادى فى مجموعات دول مختلفة بين سنة ١٩٨٥ وسنة ١٩٩٥ .

ففى افريقيا نجد أن معدل النمو الاقتصادى فيما بين سنة ١٩٨٠ و ١٩٨٥ معدل ثابت يصل الى أقل من ٢٪ وبالتحديد ١٫٧٪ ، وإذا ما اعتمدنا معدل نمو السكان فى هذه البلاد كمتوسط يقرب من ٣٪ ، معنى هذا أن هناك تدهور واضح فى مستوى معيشة الفرد فى هذه البلاد ، وما انتشار المجاعات فى الكثير من لدول الافريقية الا دليل على ذلك .

بالنسبة للتوقعات فى العقد القادم والممتدة بين ١٩٨٥ — ١٩٩٥ اشير أن ٢٫٨٪ تقريبا فى معدل النمو السكانى وبالتالي لا يتوقع أن يأمل الفرد الافريقى فى أن يتحسن مستوى معيشته تحسنا جوهريا خلال العقد القادم الذى ينتهى سنة ١٩٩٥ .

أما الصورة فى الجانب العربى فليست أكثر اشراقا ، ربما عامل البترول وما يتصل به يعادل الصورة على الارشيف ولكن الآلية فى جوهرها واحدة ، وهى أن التطورات الاقتصادية فى افريقيا ، وفى العالم العربى من انعكاس للتطورات الاقتصادية فى الدول المتقدمة من الانقصاد العالى وهذا الجدول يوضح ذلك .

الأداء الاقتصادي للاقتصاديات الصناعية والنامية

(١٩٦٠ — ١٩٩٥)

المنطقة	١٩٦٠ —	١٩٧٣ —	١٩٨٠ —	١٩٨٥	١٩٩٥
	١٩٧٣	١٩٧٩	١٩٨٥	مرتفع	منخفض
الدول الصناعية :					
نمو الناتج المحلي	٤٩	٢٨	١٩	٤٣	٢٥
معدل التضخم	٦١	٩٩	٢٣	٤٣	٦٨
معدل الاقتراض الاسمي	٥٨	٨٤	١١٦	٦٠	٩٥
الدول النامية :					
(جنوب بلاد افريقيا)					
نمو الناتج المحلي	٦٣	٥٢	٢٨	٥٥	٤٧
الدول النامية					
منخفضة الدخل (د.٤٠٠)					
فى آسيا	٥٩	٢٢	٥٨	٣	٤٦
فى افريقيا	٣٥	٢١	١٧	٣٢	٢٨
الدول النامية					
المستوردة للبترو	٥٣	٤٣	١٩	٤٣	٣٨
الدول النامية					
المصدرة للبترو	٦٩	٤٩	٢٤	٥٤	٤٧

فما هى اذن التحديات التى يطرحها هذا التوقع ؟

تتمثل هذه التحديات من خلال العشرين عاما لماضية حيث انتقلت دول افريقيا من الاستقلال الى المجاعة . ويمكن ان نضيف الى هذا انها انتقلت أيضا من الوحدة الى التجزئة وذلك ما حدث لعدة كيانات افريقية كالكونغو مثلا ، وذلك من حيث انشقاق الوحدات القومية الى وحدات متعددة .

فيما يتعلق بالوطن العربي ، فقد انتقل في نفس الفترة من الاستقلال الى التبعية أو على الأقل وجود امكانيات من التبعية ، المهم أنه انتقل كذلك من الوحدة الى التجزئة .

فالأمر يستوجب اجراء تعديلات بالخصوص في الانساق المتبعة في كل من المنطقتين وتعديل في العلاقات الموجودة بين الانساق الجزئية والانساق الاشمل وهو النظام الاقتصادي العالمي .

ربما في الآليات التي برزت خلال الفترة الأخيرة في منظمة الوحدة الافريقية ما يحمل بعض الأمل ، ولكن في المقابل سنجد ان هناك آليات جديدة تحاول عرقلة الاندماج الافريقي أو العربي أو العربي الافريقي . وأقصد بهذا معاهدة لومي التي انضم اليها العديد من الدول الافريقية ، بل وايضا العربية والتي تركز في نهاية المطاف اندماج هذه الدول في النظام الرأسمالي العالمي .

١٠ د . عصام الدين جلال :

التكنولوجيا والبعد الأمني العربي والافريقي :

موضوع التكنولوجيا يحتاج الى شيء من التفسير باعتبار ان الرأي العام تناول بشكل كامل أهمية الأبعاد الاقتصادية والسياسية في تطورات العالم الثالث أما البعد العلمي والتكنولوجي ، فليس دائما على قدر كبير من الوضوح هناك بعض الحقائق التي تعكس طبيعة لعصر الذي نمر به وهذه الحقائق تنطبق على العالم الثالث كما تجرى على العالم الثاني والعالم الأول ، اول هذه الحقائق من ان الثورة التكنولوجية المعاصرة غيرت تركيبات مكونات العملية الانتاجية بمعنى انه خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانت العملية تنموية مرتبطة أساسا باستخدامات الرأسمالية بالعمالة بموارد الخام والتحكم في الأسواق ، واذا انتظمت هذه المقومات أمكن تصور ان عملية تنموية متكاملة . وفي الحقيقة كان يراود فكر الدول النامية في الثلاثينات محاولات استيراد هذه التطورات للعالم الثالث حتى يلحق بالعالم الأول كاستغلال المواد الخام واستغلال التكنولوجيا والرأسمالية واليد العاملة والأسواق وكان في تصورهم أن الخطوة التالية الى الرقي والمساواة خطوة اكيدة ومضمونة .

ولكن فاتهم أن طبيعة العصر تغيرت وأنه فى خلال القرن العشرين
اختلفت العملية التنموية اختلافا كاملا .

فكل العناصر التى نتحدث عنها منها الرأسمالية ، العمالة ، الموارد
الطبيعية ، الأسواق لم تعد تمثل أكثر من ١٠ ٪ من الزيادة فى القيمة
المضاعفة اذن أصبحت الركيزة التى يبنى عليها التور العالمى ، هو التطور
العلمى والتكنولوجى . وهذا السبب هو الذى يؤدى بنا الى القول أن
الانتاجية للعامل الصناعى فى دول العالم الثالث تمثل ٥ ٪ من انتاجية العامل
الصناعى فى الدول المتقدمة ، هل هذا راجع لأنه يبذل جهدا اقل ؟ لا طبعا ،
فالعملية متشابكة لا تدخل فيها الادارة والتخطيط ونظم التسويق فقط وانما
فيها تكنولوجيا متطورة وعلم متطور لمضاعفة الانتاج ، من هذا المنطلق لا يمكن
الحديث عن تصورات مستقبلية فى مجال من المجالات الاقتصادية او
السياسية او الأمنية بالتعامل مع هذا العصر الا بالأخذ فى الاعتبار العناية
المناسبة لهذا المكون : التطور العلمى والتكنولوجى .

العالم العربى والدول الافريقية يعانيان من تخلف فى كلا المجالين
العلمى والتكنولوجى ، وان كانت طبيعة هذا التخلف مختلفة فى العالم
العربى عنها فى العالم الافريقى .

ففى الدول العربية لم تعد المشكلة من مشكلة الكم بمعنى أن عدد
خريجي الجامعة فى سنة ١٩٨٠ وصل الى مليون وأربع مائة ألف ، منهم
٤٠ ٪ علوم أساسية وهندسية وفى التقدير حسب درجة النمو المعاصرة أنه
لن يصل عندنا عدد خريجي الجامعة الى ١١ مليون عربى منهم ٥ مليون
فى العلوم الأساسية والهندسة .

فاذا اخذنا فى الاعتبار أن الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٥٠ كانت
كل ما تملكه من خريجي العلوم والهندسة لا يزيد عن نصف مليون ونحن
نتكلم عن ٥ مليون بالنسبة للعرب سنة ٢٠٠٠ نلاحظ أن مشكلة الكم لم تعد
مشكلة تمثل العرقلة الأساسية فى العالم العربى .

أما اذا اخذنا البعد الآخر للتنمية والمتمثل فى نقل العلم والتكنولوجيا
فالعصرين بعد ثورة ١٩٤٧ أول شئ قامت به بعثها لعشرة آلاف عامل الى

الاتحاد السوفيتى وهؤلاء هم الذين كونوا القاعدة التى بنى عليها نقل العلم والتكنولوجيا والصناعة السوفيتية الى الصين . الآن فى الثمانينات بعثت الصين خمسة آلاف عامل الى الولايات المتحدة الامريكية لنقل التكنولوجيا الغربية ضرورة من ضرورات التنمية .

فالصين لم تبعث اذن الى الناحيتين سوى ١٥ ألف وفى المقابل العرب عندهم ١٠٠ ألف يتعلمون فى الخارج فى أوربا فى أمريكا فاذا كانت المشكلة كمية فلا بد لنا أن نكون فى مستوى أحسن من الصين التى تتوفر على الطاقة الذرية والصواريخ ... الخ . فالمشكلة ليست مشكلة كم .

هل هى مشكلة تموينية ؟ يمكن أن نقول نعم ولا بمعنى أن انفاقات العالم العربى على المشاريع الاستثمارية مع هيئات اجنبية فى أوائل الثمانينات بلغ ٤٠٠ مليار دولار أى ما يعادل ١٠٠ مليون دولار فى السنة ، طبعاً جزء كبير من هذا الانفاق هو على العلم والتكنولوجيا واذا أخذنا فى الاعتبار أن ما أنفقته أوروبا أثناء مشروع مارشال لتخطى الفجوة العلمية والتكنولوجية التى عرفتها أوروبا بعد الهزيمة يصل الى ٤٥ مليون دولار بأسعار سنة ١٩٨٠ ونحن نصرف ١٠٠ مليون دولار سنوياً بأسعار هذه السنة سنلاحظ اذن أن المشكلة ليست مشكلة انفاق .

ما هى المشكلة — اذن — فى العالم العربى ؟

من مشكلة توجهات فلو أخذنا البحوث المنشورة فى العالم العربى سنة ١٩٧٥ نجد أن ٣٤ر٥٪ منها فى المجال الصحى والطبى ، ٢٦ر٣٪ فى المجال الزراعى والانتاج الحيوانى ٤٪ فقط فى مجال الفيزياء والميكانيكا الذى يعتبر مجال التطور العلمى المعاصر ، فهناك اذن فقدان واضح فى التوجه فنحن لا نتوجه حيث الضرورة التنموية تحتم أى نتوجه .

هناك كذلك مشكلة تحديد المؤسسات فهناك ضجيج فى دول العالم الثالث وعلى رأسها مصر . ماذا عملت الجامعات ماذا عملت المعاهد والبحوث فمن يسأل هذا السؤال لا يفهم أن الطريقة الوحيدة لتقييم أداء مؤسسة هو بقياس الأداء فى مقابل المهام الموكلة الى المؤسسة ، فالجامعات فى مصر من أنجح التنظيمات العلمية فى العالم بمعنى أنه اذا أخذنا أن الجامعات

فى مصر القصد منها اخراج متعلمين ، وهذه من الوظيفة الوحيدة الموكلة اليها ، نجد ان تكلفة تكوين الطبيب أو المهندس فى مصر تمثل ٥٠٪ منها فى ألمانيا أو فى الولايات المتحدة وهذه هى أعلى درجة فى الكفاءة .

حقيقة أن هناك فرق فى النوعية يغطى ٢٠٪ من فارق التكلفة لى يبقى الفرق عدة أضعاف . فالتقضية أن تحديد دور هذه المؤسسات لازال يدور فى التخلف السابق لعصر النهضة عندما كان العلم وسيلة من وسائل تحديد النخبة وتدعيم تسلطها على المجتمع وأداء وظائف تسمح بمسار دولاب الدولة ، وفى إطار هذا المفهوم لدور هذه المؤسسات لازالت المؤسسات فى مصر تعمل وتؤدى وظيفتها على خير درجة من النجاح وبالتالي ليس لها أى عائد لا تنموى ولا سياسى ولا اجتماعى وهذه قضية مختلفة فنحن نتكلم عن عدم وضوح الدور .

من ناحية أخرى مسألة تتعلق بالنوع والكم فمشكلة العالم العربى فى المرحلة القادمة هى مشكلة النوع لأن التطور العلمى والتكنولوجى يتكثف يتعمق يزداد تعقيدا ، ولم تعد عملية الكم هى العنصر الحاسم فيه ، فالانتقال من عملية الكم الى عملية النوع تمثل ثورة فى تفسير فى التنظيم والادارة والتخطيط والتعلم والاعلام والثقافة .

لكن هل النظم السياسية الموجودة فى العالم العربى قادرة على تحمل تبعات هذه النقلة من الكم الى النوع هناك شك فى نظرى فى تحمل هذه النظم لهذه النقلة .

طبعاً هناك مشاكل أخرى تتعلق بالسياسة فليس هناك سياسة تنموية عربية فى أى دولة من الدول العربية أو حتى لها استيعاب للمداخل العلمية والتكنولوجية . فلا بد أن يكون هناك فهم بأن الادارة عملية عاكسة للمستوى الحضارى السائد .

والموقع وبالتالي عملية ادارة المؤسسات المتقدمة ذات الركيزة العلمية والتكنولوجية عملية متوقعة التعقيد بالغة الحساسية وشديدة الاهمية ، فلم نستطع حتى الآن الوصول اليها ، وفى تقديرى ان الدعوة للمدخل الأساسى والتنموى لكل عملية تنموية أساسها العلم والتكنولوجيا .

أما فى افريقيا فمشكلتها مغلقة ، صحيح أن هناك تخلف إنما هناك نقص فى البنية الأساسية ونقص كمى فى سد احتياجات فهناك بعض الإحصائيات عن افريقيا تبين المشاكل التى تعيشها هذه القارة .

فلو أخذنا جملة الإنفاق على التنمية العلمية والتكنولوجيا فى آسيا فى أوائل السبعينيات نجد أنها كانت تبلغ ١٦٪ من مجمل الإنفاق العالمى ككل وهو إنفاق ضعيف جدا أما افريقيا فهى تنفق ٣٪ ، آسيا كانت تملك ٩٤٪ من مجموع المهندسين والعلماء أما افريقيا فكانت لا تملك سوى ١٢٪ وهذا يبين لنا حجم القصور فالمشكلة بالنسبة لافريقيا تتمثل فى وجود عراقيل كثيرة تمنع معالجة الموقف معالجة حسنة فالدراسات التى تمت فى احتياجات العالم الثالث حتى يسد مطالبه الأساسية والمتمثلة فى السكن والتعليم والعلاج والأكل فإذا أراد العالم الثالث أن يحقق هذه المطالب عليه أن يرفع درجة التنمية فيه بمعدل ١٠٪ بمعنى أن افريقيا أمامها حوالى ١٠ قرون حتى تحصل على هذه الكفاءة الضعيفة . فعلمية التمويل فى مجال العلم والتكنولوجيا صعبة هذا بالإضافة الى تدهور صادرات افريقيا فى المواد الغذائية وزيوت نباتية ومستخرجات تعدينية والتى تدهورت بما يتراوح ما بين ٦٠-٣٠٪ وبالتالي تدهور نصيبها فى التجارة الدولية وهذا يؤدى بنا الى احتمال أن افريقيا لن تستطيع فى المستقبل ايجاد التمويل الكافى لسد النقص الذى تعيشه .

فيما يتعلق بالتنمية العلمية والتكنولوجية ما هو اذن المنطلق المشترك بين العرب والأفارقة فهناك نمو فى العالم العربى وهنالك استكشاف فى الاستغلال .

والاستفادة من هذه التنمية الكمية وهناك وصول الى نتائج سلبية لا تحقق اية درجة مناسبة للاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية وفى قارة تعانى من عجز فى تمويل الاحتياجات الكمية التى تسمح لها فى المستقبل بالتعاون والتطور .

أما فيما يخص مسألة الأمن فى العالم العربى والافريقى لهما خواص مشتركة كثيرة من ناحية الأمن فكلهما يمثل منطقة من أكثر مناطق العالم من حيث عدد الحروب ومن حيث هذه الحروب ومن حيث عدد الدول المشاركة فيها .

هناك مجال آخر للعرب والأفارقة فضل السبق فيه وهو الممثل في وجود عميل استعماري فعال قادر على توصيل المنفعة وتحقيق المنفعة الاستعمارية بأقل درجة من التكلفة .

من هذا المنطق نتصور أنه لابد أن يكون هناك شغل شاغل بين العرب والأفارقة في تصور وجود نوع هي أنواع التعاون والتفاهم أو على الأقل التطوع لمعالجة هذه الخواص الشاذة التي لا يمكن أن تكون موضوع ترحيب .

نما هي الأوضاع الأمنية في العالم العربي والأفريقي ؟

نجد أن العالم العربي سنة ١٩٨٥ ينفق ٧.٥٪ من جملة الانفاقات العسكرية العالمية وهنا يمثل رصيذا ضخما وإذا وزن لأنه تقريبا يمثل ثلث ما يصرفه الاتحاد السوفيتي . أفريقيا تنفق ١.٩٪ من جملة الانفاقات العالمية وبالتالي فدرجة استغلالها العسكري أقل من العالم العربي . والظاهرة التي يمكن ملاحظتها في هذا المجال أن هناك عملية تظهر بوضوح في كل من العالم العربي والأفريقي فمثلا ٣.٢٪ من جملة الاستيراد العسكري في العالم العربي قد تذهب الى ثلاثة دول هي العراق ومصر وسوريا ، في حين أنه بين العسكريين دوله الكبرى المستوردة لسلاح في أفريقيا لا توجد الا دولتين مستودرتان للسلاح وهما نيجيريا وأنجولا .

وغالبية هذه الدول العسكرية مشتركة في مواجهة عسكرية من نوع ما وهي مرتبطة بمعسكر من المعسكرات الدولية بنوع ما وبالتالي فهي غير منشغلة بالمواجهة الرئيسية في المنطقة يعني أن غالبية الدول الأفريقية ذات القدرة العسكرية ليس لها اهتمام بجنوب أفريقيا ، وكذا بالنسبة للعالم العربي الذي لا يهتم بإسرائيل وبالتالي فعملية الانفاق وعملية التسليح والاعتماد يبدو أنها لا تساهم في حل مشاكل انعدام الأمن في هذه المنطقة .

فاذا كانت الصور بهذا الشكل في المجال التكنولوجي والمجال الأمني ما هي انز احتمالات الالتقاء في المستقبل بين لمنطقتين ؟ فهناك التقاء من حيث وجود مصالح مشتركة من حيث وجود مواقف عدائية مشتركة للعالم الخارجي من حيث وجود دوافع مشتركة للتكامل والاستفادة من الامكانيات المتاحة . أما من حيث الارادة السياسية ومن حيث وجود أجهزة تنفيذية قادرة

على ترجمة هذه الارادات السياسية الى سياسات ومخططات ومشاريع كل.
هذا غير موجود وفي تقديرى انه فى المجال العلمى والتكنولوجى وفي مجال
الامن تستبقى احتمالات التعاون العربى الإفريقى معلقة الى أن يتم تحديد
الإرادة الوطنية محليا .

٠١ د . اسماعيل صبرى عبد الله :

وضع العرب والأفارقة فى النظام الدولى :

ان وضع العرب والأفارقة فى النظام الدولى له اثره الواضح وقد
يكون حاسما فى كل ما يجرى فى هذه المنطقة من تطورات وكثيرا ما يهمل هذا
البعد واذا كنا لا ن فكر بأنفسنا فى مستقبلنا فهناك أطراف أخرى تحدد لنا
هذا المستقبل .

فالنظام العالمى بدأ خطواته الأولى فى أوائل القرن السادس عشر
وشهدت منه أفريقيا بعض المواقف كالاحتلال البرتغالى فى انجولا وموزمبيق
وغينيا بيساو ولكنه اكتمل تماما فى القرنين الأخيرين ، وجوهر هذا النظام
هو نمط الانتاج الراسمالى ولذلك يختلف فى معناه الضيق فى اطار هذا
النظام عن كل اشكال الامبراطوريات القديمة . فالامبراطوريات القديمة لم
تكن تتدخل كثيرا فى نمط الانتاج فى البلاد التى تحكمها حيث كانت تكتفى بأن
تأخذ منها الجزية أو الخراج أى تقتطع جزء من الفائض الاقتصادى ولكن
ترك النمط الانتاجى على ما هو عليه ، لكن النظام الراسمالى بالضرورة لابد
أن يحول فى أنماط الانتاج داخل المستعمرات ليضعها فى خدمة اقتصادات
الدول الاستعمارية نفسها ، ومن هنا برز استقطاب هذا النظام من المركز الذى
يمثل ١٧٪ من سكان العالم والذى يحصل على ٨٠٪ من الناتج الاجمالى
المحلى على مستوى العالم والذى بيده مغانج القوة العسكرية والنفوذ
السياسى ، والتاثير الفكرى والحضارى ، فعملية بناء هذا النظام العالمى
قامت بشكل جوهرى على نهب ثروات المستعمرات ، وقد أخذ هذا النهب
بالنسبة لافريقيا شكلا متميزا وحادا أثر فى حياة افريقيا حتى الآن ، وذلك
تمثل فى نهب القوة البشرية فى شكل تجارة الرقيق التى كانت سائدة فى
افريقيا والتى كان يحلو للغرب أن يفهموا الافريقيين أن العرب هم الذين
(م ٤٣ — العرب فى أفريقيا)

أدخلوا الرقيق فى افريقيا ، وهذه غربة لأن الرقيق كان موجود بين الانارة أنفسهم ولأن التجار العرب الذين كانوا يشترون الرقيق لم يكونوا يستخدمونهم فى العملية الانتاجية . وانما فى الخدمة العسكرية أو الخدمة المنزلية ، وفى التاريخ العربى هناك منطقة واحدة شهدت انتاج العبيد وهى جنوب العراق، ولذلك شهدت ثورة العبيد أو الزنج كما تسمى فى التاريخ العربى .

اما عملية استنزاف شباب افريقيا على مدى ثلاثة قرون متتالية حيث يقدر من وصل سليما الى الامريكتين حوالى ١٦ مليون ، فعلمية النزف البشرى التى شهدتها افريقيا فى هذه الفترة كانت سببا رئيسيا فى فقدان كثير من معالم الحضارة الافريقية ، كانت سببا فى انتقال قبائل من مناطق الى اخرى كانت كذلك سببا فى نزاعات تاريخية فى بعض القبائل حتى الآن وكذا كانت سببا فى فقدان قوة التجديد والتغير والتقدم داخل المجتمع الافريقى . فقد نجح هذا الاستعمار فى أن يسيطر على العالم كله ويدخله فى اطار نظام واحد وهو النظام الرأسمالى الذى تسيطر عليه سوق واحدة وهى السوق الرأسمالية بقوانينها المعروفة والتى تفيدنا بأن السوق يعمل دائما لصالح الأقوى ويسعد المنتج الحدى عند أول أزمة وهذا ما حدث بالفعل فى السنوات الأولى من الثمانينات وما زالت آثاره حتى الآن ، حين بدأ الكساد فى الدول الصناعية الكبرى فاستمر هذا الكساد واثّر على الدول الصناعية فعملت بذلك على نقل جزء من عبئه من داخل الشعوب الصناعية المتقدمة الى داخل شعوب دول العالم الثالث ، وبدأ التركيب السياسى فى دول العالم الصناعى المتقدم يعلن بشكل ساخر أن افريقيا لا أمل فيها وأنه لا جدوى من مساعدتها ... الخ .

أيضا وقد حصلت عناصر القوى التى سمحت لدول العالم الثالث بإثارة موضوع النظام الدولى واقتراح نظام دولى جديد والتى تمثلت فى اواسط السبعينات فى عمليتين هامتين جدا ، أولا انفصال الفيتنام بعد حرب الثلاثين عاما والتى أوجت بعدم جدوى التدخل العسكرى وتركت نوعا من الاثر الضخم فى داخل المجتمع الأمريكى الذى بدأ يحتفظ ازاء المفامرات العسكرية الخارجية .

ثانيا : ظهور الاوبىك لا من حيث انها رفعت الاسعار أو سببت أزمة فكل هذا الكلام لا يصمد للتحليل الدقيق ، ولكن لأنها عبرت عن أمر خطير جدا

والمتمثل في بدء فقدان الغرب لعناصر السيطرة الاقتصادية ، فالدلالة العميقة لموقف الاوبيك هي أن ١٣ دولة من دول العالم الثالث انفردت باتخاذ قرار يؤثر في الاقتصاد العالمي كله ، وهذه أول مرة يحدث فيها هذا الأمر منذ نشأت النظام الرأسمالي والنظام العالمي المعاصر ، فقد كان هناك انتزاع لعنصر القوة وعنصر السيطرة ، وعنصر اتخاذ القرار بعيدا عن الدول الغربية لكن حين حل الكساد في الغرب كانت هناك مناسبة لضرب الاوبيك ومحاولة تضعيفها والدفع على الأقل بدولها الى تأزم مالى ، وغالبية دول الاوبيك دول فقيرة باستثناء الدول العربية الصغيرة بالاضافة الى السعودية .

هذا التطور ادى الى نتائج منها أن الدول العربية أصبحت كلها دول عجز فلا توجد دول ميزان مدفوعاتها يحقق فائض بما في ذلك السعودية فقد أدى ذلك الى انخفاض معدلات النمو في افريقيا الى ما دون الصفر وفي الدول العربية الى مستويات تقل عن ثلث ما كانت عليه في الستينيات والسبعينات .

هذا الوضع كان اثره على افريقيا اقوى حيث أن المواد الأولية الأخرى فيما عدا البترول انخفض ثمنها بما يعادل ٦٠٪ في المستوى ، وهذا كان بمثابة دخل أساسى في افريقيا . أيضا التحويلات المالية الى افريقيا سواء كانت معونات أو قروض أو استثمارات انخفضت ما بين سنتى ١٩٨١ وسنة ١٩٨٤ من ٧ مليار دولار الى ٣ مليار دولار . كذلك بدأت الدول الغربية تقفل أبوابها أمام اليد العاملة الافريقية المهاجرة . كل هذه العوامل تداخلت حتى أصبحت الصورة واضحة في افريقيا . وعندنا الآن وفقا لآخر دراسة اقامها البنك الدولى أن متوسط دخل الفرد في تناقص حتى لو كان الناتج الإجمالى يزيد بنسبة ١٪ أو ٢٪ ، ولكن نسبة السكان تزيد بـ ٢٥٪ أو ٣٠٪ فتصبح النتيجة أن متوسط الفرد ينقص ومتوسط الناتج الفذائى على حسب عدد الرؤوس ينزل أيضا ، وبذلك فإن متوسط استهلاك الفرد في انخفاض ، هذا دون الأخذ بعين الاعتبار مشكلة المجاعة .

ظهرت لهذا نتائج اجتماعية واضحة جدا تتمثل في تزايد سوء التغذية وتزايد البطالة في المناطق الحضرية تزايدا كبيرا ، فهذه الدول تعيش في حالة فقر مطلق بالاضافة الى انتشار الأمراض وزيادة عدد وفيات الأطفال في معظم الدول الافريقية .

ففى الواقع أن الرأسمالية العالمية تستغل وضع الكساد أو الأزمة لى
تصفى حسابها مع العالم الثالث بعدما بما أحدثه من ضجيج فى النصف
الثانى من السبعينيات وفى هجمة القلب على التخوم يتفق الكثير على اعتبار
أن أضعف مناطق العالم الثالث مقاومة لهذه الهجمة الإمبريالية هى الوطن
العربى وأفريقيا . ففى العالم الثالث كله آسيا حلت مشاكلها الغذائية كتيالاند
والهند حيث ليست هناك مشاكل غذائية ، ونجد ظهور تعاون ريفى فى إطار
زراعة مشتركة تساعد على حل المشاكل الزراعية ، أيضا فى كل من الهند
والصين درجة التقدم العلمى والتكنولوجى لا يقارن بها أى مكان آخر فى
العالم الثالث ، أمريكا الجنوبية كذلك ليست بها مشكلة غذاء فهى تقليديا
بلد مصدر للغذاء ، ونلاحظ أنه خلال العشرين سنة الماضية شهدت بناء
قاعدة صناعية لا يستهان بها ويكفى للدلالة على ذلك أن البرازيل نجحت فى
تحقيق فائض فى ميزانها التجارى يتراوح ما بين ١٢٠٦ مليون جنيه مصرى
فى ثلاثة سنوات متتالية مما ثبت أنه كان عندها قدرة على الإنتاج وعلى
التصدير وهى تشكو الآن من الإجراءات الحمائية التى تتخذها أمريكا والسوق
الأوروبية المشتركة ضد صادراتها .

الدول العربية — السودان والصومال — ذاقوا طعم المجاعة ، مصر
كانت ستعرفها لولا السد العالى ، المجاعة الصارخة لكن لو أخذنا المجاعة
الكبيرة أى نقص الانتاج الغذائى فى مصر . وفى الوطن العربى عن حاجات
الاستهلاك نعرف مدى خطورة الوضع الغذائى فى البسلاد العربية فهى
تستورد ٣٠٪ من اجمالى القمح الذى ينزل فى السوق العالى ، هذه كمية
رهيبية وستزداد مع زيادة عدد السكان ، فاذا كانت أموال النفط وبعض
الأموال الأخرى قد نفذت فليس هناك ما يضمن للوطن العربى مستقبلا .

أفريقيا أفقر من الدول العربية فى بعض أجزائها ولكنها أغنى منه فى
بعض الموارد الطبيعية ، كالجزم الجنوبى منها كإنجولا وزائير وزيمبابوى ،
ويمكن لهم أن يسحبوا من خلالها أكثر مما يسحب العرب من صحاريهم التى
تمثل فى الوطن العربى ، والتى لا توجد فيها قطرة ماء واحدة فأليات النظام
العالمى هى التى تؤدى الى هذه النتيجة ولا أقول أن هناك مؤامرة عالمية
تسعى لتدمير أفريقيا والعالم العربى ، لكن نحن نعتبر جزءا من هذا النظام
آلياته تؤدى الى هذه النتائج . وليس علينا أن ننتظر من هذا النظام العالمى

أن يقدم لنا المساعدات بل علينا أن نقوم بتنمية حقيقية وأن ننظر لهذه التنمية باعتبارها معركة ضد القوة المهيمنة على هذا العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وأنه إذا كنا نريد أن نعنى بالحاجات الأساسية للمواطنين فيجب أن نعتد أيضا على قوتنا الذاتية ، لأنه إذا ما تمكنا أن نحول كل مواطن الى أن يعمل عملا منتجا فانه سينتج أكثر مما يستهلك ، وفى هذا تحدى للنظام المسيطر منذ مائتى سنة ، وهذا لا يمكن أن يتحقق الا بالاعتماد على النفس على مستوى القرية والاقليم وعلى مستوى الدولة ليكتمل فيها بعد فى اشكال مختلفة من التعاون بين دول متجاورة أو تربطها مصالح مشتركة ، كدول مجموعة حوض النيل مثلا . وان التداخل بين افريقيا والعرب واضح ولكننا نعود مرة أخرى لا فقط الى الارادة السياسية ولكن أيضا الى نظرة الراى العام لأهمية هذه الاشكال من التعاون وطرحه لقضايا التنمية طرعا عميقا .

التعليقات والمناقشات

د. رضا فودة :

— ان جميع المشاكل التى طرحت متعلقة بالتنمية فى افريقيا ، بالاستقرار الداخلى ، فمعظم الدول الافريقية تعاني من عدم الاستقرار الداخلى ، هذا بالإضافة الى مشكلة الطاقة والبيئة ، والتنمية تحتاج الى رأسمال خارجى ، وهذا الرأسمال الخارجى لن يدخل الى دولة الا اذا ضمن فى السوق خروجه كرأسمال بارباح مهمة وهذا يستلزم الاستقرار الداخلى للدولة .

أيضا هناك مشاكل لصراع اقتصادى دولى تعاني منها الدول الافريقية حيث لا ترغب الدول الكبرى فى حل مشاكل الدول الافريقية حتى تكون فى احتياج مستمر لها وحتى لا تكون هذه الدول الافريقية من القوة بما يدعوها الى الاستغناء عن مساعدة الدول الكبرى لها .

— يجب علينا كذلك أن لا نغف الحكومات الافريقية والزعماء الأماة من تحمل جزء من المسؤولية فى هذا الموضوع نظرا لتهريبهم لنسبة كبيرة من المساعدات فى بعض الدول الى الخارج ، وهذا يؤثر على التنمية الداخلية للدولة ، والحل أن مبدأ التنمية البشرية وكمحلة أولى تنمية الفرد حتى يمكن له أن يساهم فى تنمية الدولة فى شتى المجالات .

— كذلك نلاحظ فى افريقيا وجود مشاكل اقتصادية ظهرت فى دول نتيجة وجودها فى دول مجاورة وهى بالذات مشكلة اللاجئين نتيجة امه اختلالات او اضطرابات او نتيجة السحر او الجفاف فهذه المشاكل تشكل عبء كبير على بعض الدول فى داخلها وقد تكون هذه الأخيرة بعيدة عن هذه المشاكل التى تأتىها من الخارج .

— بالنسبة للدول العربية والافريقية ذات القدرة العسكرية المحدودة أرى أن هذه القوة رغم أنها موجودة ومحددة الا أنها تتبع لسيطرة الدول الكبرى كذلك حيث أنه اذا قامت هذه الدول بأى عمل عسكرى لصالحها فيمكن للدول الكبرى أن تسيطر عليها من حيث الأمداد بقطع الفيار والنخائر وذلك كما كان واضح فى مصر سنة ١٩٧٣ فى الصومال سنة ١٩٧٧ .

د. أحمد عبد الله :

يتضح من الصور المعروضة أن الواقع مرير ولا يعطى للانسان أن يحلم بأى وضع طيب باعتبار حق الحلم من حقوق الانسان الأخيرة لكن حتى هذا لا يمكن أن يمارسه الانسان الا اذا كان عنده عدة للحلم نفسه يعنى ما من معطيات الواقع التى تعطى للانسان قدرا من الأمل فى تصحيح الأوضاع فى المستقبل والا كان الأمل واهما للغاية باعتبار أن التدهور مستمر فى ظل المعطيات التى قدمها الأساتذة .

فى تصورى أنه قد لا تكون اية ظاهرة للامل فى ظل هذه الأوضاع سوى بوجود ثورة ، والثورات التاريخية كالتى عرفتها الصين والاتحاد السوفيتى وغيرهم والتى مرت بثورات هيكلية فى تاريخها فى اطار عملية ضخمة من انعكاس التراكم الرأسمالى واعادة توزيع الثروة والتأثر على بناء القوة الاقتصادية الدولية . فهل مثل هذا السيناريو منصور فى أفق فكر أساتذتنا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أنه يرتبط بلحظات هذا التحول نوع من النظم السياسية القمعية التى فرضتها طبيعة عملية التراكم الاجتماعى والتفتية الضخمة للمواطنين رجلا رجلا لى يعاد وضع الحياة على الأرض على نحو جديد فكيف يتم المدخل الى هذا السيناريو نفسه هل هو بترتيب الأوضاع داخل صفوف الصفوات الموجودة داخل المجتمع النامى مثل افريقيا والعالم العربى خصوصا فى مستوى الصراع السياسى داخل صفوف الصفوة

فى كل بلد متدننى للغاية فهل المدخل سيكون إعادة ترتيب الأوضاع داخل صفوف الصفوة للوصول الى الحل أو يتم باللجوء الى قاعدة شعبية ترغب فى التغيير وتطيح بأنظمة حكم بأكملها باعتبار أنظمة الحكم هذه هى المعطلة للتغيير الضرورى فى سبيل مواجهة تبعات المستقبل فأى من هذه السيناريوهات والمداخل المعقدة فى طبيعتها تساهم فى إيجاد الحل .

اللواء طلعت مسلم :

لى ثلاثة أسئلة :

من خلال كلمة د. عصام الدين جلال فهمت أنه يجب طرح استبدال الكم بالنوع فاذا كان هذا هو المفهوم فهو يعنى فى نفس الوقت اهدار لقيمة الكم الموجودة فى هذه الدول سواء العربية أو الافريقية أم أن سيادته يقصد المزوجة بين الكم والنوع وهل هذا ممكن أم لا أى أننا يجب أن نركز بحيث نحقق نوعية متكاملة لنفس الكم الموجود أم أننا يجب أن نخصم من الكم لنحدد النوع .

— السؤال الثانى خاص بالامن : ويتعلق بالدول التى لا تشارك فى الصراعات الرئيسية ولكنها تنفق كثيرا على القوة العسكرية وهذا بشكل واضح فى الطرق فى مصر نسبيا الصومال اثيوبيا ولو حاولنا فى الحقيقة البحث عن حل لهذا الموضوع هل نستطيع أن نطلب مثلا من العراق أن يخفف من الانفاق العسكرى فى ظروفه الراهنة . فما هو الحل للخروج من هذا الوضع نفس الشيء بالنسبة لاثيوبيا والصومال .

أما بالنسبة لمصر فقد خرجت من الصراع على الأقل نسبيا ولكن لا شك أن صاحب القرار فى مصر يضع فى اعتباره احتمال أن يتجدد الصراع مرة أخرى مع اسرائيل ومواجهة هذا الصراع يتطلب اتفاقا عسكريا على فكيف تتصور نتيجة للخروج من هذا الوضع القائم .

— استخلصت من كلام الدكتور اسماعيل صبرى أننا يجب أن نتحدى النظام العالمى وذلك استشهادا بمعظم التجارب كالفيتنام مثلا فهل هذه النماذج صالحة للاستخدام فى الوقت الحالى . ونحن نكلمنا عن هذا النظام على أساس أنه نظام رأسمالى ولا شك أن هناك فى داخل هذا النظام

العالمى نظام اشتراكى فهل ما زال التعاون مع هذا النظام الاشتراكى يمكن ان يكون مخرجا للتحدى بالنسبة للنظام العالمى ؟

١. د. عبد العزيز عوض:

ارى ان مشاكل العالم الثالث يمكن اجمالها فى ثلاث نقاط هناك التخلف، التبعية ، التجزئة لكن ما مرجع ذلك ، هل الى عوامل وراثية كما ذكر أحد الباحثين فى مقام آخر ؟ فالمجتمعات الاشتراكية تقدمت كالاتحاد السوفيتى. المجتمعات الرأسمالية تقدمت هى الأخرى فى أوروبا والعالم الجديد نحن أخذنا الاشتراكية ولم نتقدم وأخذنا الرأسمالية ولم نتقدم فكيف السبيل الى التقدم العربى ؟

الردود على التعليقات والمناقشات

١. د. اسماعيل صبرى :

اولا : حين تكلمت عن النظام الاقتصادى العالمى تركت جانبا الدول الاشتراكية وهذا راجع لسبب بسيط وهو أن نصيب كل الدول الاشتراكية فى التجارة الدولية اقل من ٩٪ ونصيبها فى التدخل فى الخارج صفر أما نصيبها فى القروض الى الدول النامية فيصل الى ١٪ وبالتالي وجود الدول الاشتراكية فى النظام الاقتصادى العالمى هامشى وليس مؤثر وهى تعتمد فى سياستها على عدم الاندفاع .

ثانيا : اثرت قضية التخلف والتقدم ، التخلف بالمعنى الاصطلاحي عندنا تنمية مشوهة متوجهة نحو الخارج غير متكافئة داخليا فالتنمية ليست مجرد تأخر زمنى ، فنحن لم نترك وشأننا ، فالوضع الذى نسبه تطلع هو ظاهرة تاريخية وليست ظاهرة عرقية أثبتها وجود النظام العالمى وهذا لم يحصل فى الامبراطوريات القديمة ولكن حصل فى النظام الرأسمالى العالمى .

ثالثا : فيما يتعلق بالدول القومية يجب أن نسلم أن واقع حدود الدول الافريقية والعربية لا يعبر عن أى حقيقة حضارية ولا اسمية ولا لفوية ولا قومية وانعكاس ذلك ظاهرة فى افريقيا فى مدى اعتماد الدول الافريقية على اللغتين الاوروبيتين وأن افريقيا تقسم دائما الى انجلو فون وفرانكو فون .

ومن الملاحظ أن الزعماء الأمارقة، الذين أنشأوا منظمة الوحدة الإفريقية، التزموا بالمحافظة على الحدود الموروثة عن الاستعمار وهذا لا يزيد إلا تعقيدا لمفهوم الوحدة الموجودة داخل المنظمة فهذه الكيانات التى كانت مراكز إدارية للحكم الاستعماري ثم أصبحت دولة كيانات عاجزة عجز أصيل ، فمستقبل التطور حسب الدراسة التى أقامها نادى روما يرى أن أى دولة يقل عدد سكانها عن ٢٠ مليون تخفى وما يجرى فى تشاد وفى أوغندا وفى لبنان دليل على ذلك فالاعتماد الجماعى على النفس تستقدم فكرة تجاوز الحدود الحالية التى تجمعات أكبر وهذا مفيد للمستقبل وقد يعطى بعض الحلول على المدى البعيد .

— قال د. أحمد عبد الله فى ضوء هذه المؤثرات السيئة والمبررة أين الطريق ومن أين نبدأ .

أعتقد بكل أمانة أن أهم مظهر للتبعية هو دعوتنا كأصوات فى سلوكنا اليومى لكل ما أبدعه العرب سواء كان ضارا أو نافعا وذلك انطلاقا من اللباس إلى غاية المفكرين المنبهرين بالفكر الغربى والذين يعتبرون أما ما هو خارج الفكر العربى حتى فى البحوث الحملة بالقيم الحضارية لا مجال للعلم ، وحركة الانبهار هذه هى التى تسبب الأحياط لأنها تتضمن سلف الاعتراف بعدم القدرة على المعرفة وعدم القدرة على الأبداع هذا بالنسبة للمجتمع لكن أين المجموعة داخل هذا المجتمع التى يمكن أن تتصور الثورة التحررية فهى بطبيعة الحال المثقفين والعلميين باعتبار نجمهم الفكرى والعلمى ، وفى الحضارة الغربية تياران كلاهما درس الانبهار والابتداع والتخيل والتوقع وتخيل امكان العودة الى الوراء فاللحظة التاريخية منفردة ولن تتكرر اطلاقا وأن المستقبل مختلف بالضرورة عن الماضى .

فالى أن نتحاور نحن كمثقفين ونتحاور مع العلم كعلم فالمشاكل التى تطرح جديدة بالنسبة للبشرية ككل فكل يوم يعتبر جديدا فلا يمكن أن نعيد صناعة تاريخ الرأسمالية ولا يمكن أن نعيد تجربة الاتحاد السوفيتى ولا تجربة الصين ، لأسباب بسيطة اننا نبدأ وهذه الأشياء تمت وموجودة وغيرت مجرى العالم ، فضرورة التحرر الفكرى مرتبطة بنوعية لمشاكل التى نواجهها ، فإذا أخذنا أنفسنا كبشر وأن الفضل يتحقق من خلال تنظيمات معينة وأولويات

لأنشطة معينة تكون جادة للتعامل مع المشاكل وبذلك يمكن أن نتقدم .
فالتقدم ليس له صورة فريدة ومن الممكن أن نكون متقدمين ومختلفين عن
الأمريكيين والروس وعن الصين لأن كل شعب له عبقرياته الخاصة وله
أسلوبه الخاص ، وتحدى النظام لن يكون بالشكل المادى للتحدى ولكن أعرف
أن تقدمى سيطر على أشكال بالنسبة للعالم المتقدم وبالتالي فإنه سيكون لى شيئاً
من العداء فمثلاً حينما يتحرر اقتصاد مصر فإن أمريكا ستخسر لأن ما كانت
تبيعه فى مصر سوف يتجمد . فالقوة المسيطرة اقتصادياً على العالم
حاليا ترفض كل محاولة لبناء تنمية مستقلة حقيقية وبالتالي فهى تجارب
بشتى الوسائل بدءاً بالوسائل الاقتصادية . فعلينا ونحن نعمل أن نكون
حذرين وأن الأغراء يمكن أن يكون أخطر الأسلحة فى أيدي القوى المسيطرة
على الاقتصاد العالمى .

ما أثر كذلك قضية الأمن والانفاق العسكرى .

فالاستعمار يتربص ولكن لا يتعدى مباشرة فالبدعة من الحرب الأهلية
وشبه الأهلية بين بلدين متجاورين لا معنى للحرب بينهما كحرب الخليج مثلاً،
واعتبارات الأمن الوطنى والدفاع عن التنمية تقتضى وجود قوة عسكرية أما
القضية المطروحة فتتمثل فى مدى كفاءة الأنفاق العسكرى ونواجه هنا
نظريتين :

— نظرية أن الجيش فى حالة الحرب طليعة شعب بأكمله وهنا لا يمكن
أن يكون الجيش متقدم والشعب متخلف .

— نظرية اهتم بالقطاع العسكرى لوحده واجعل منه مجتمعاً قائماً بذاته
وهى نظرية لا يعمل بها لأنه لا يمكن أن نصل الى مستوى من مستويات
الكفاءة حيث تكون الأمور كلها فى كوم مشترك للمجتمع كله يستفيد منها
القطاع العسكرى فى الظروف العادية تبعاً كلها فى حالة ظروف القتال .

١٠ د. عصام الدين جلال :

نحن ولدنا كعالم ثالث بعد ما جاءت الفكرة أوائل الستينات فخلال أقل
من ثلاثين سنة ولدنا وأصبحنا شركاء فاعليين فى الشؤون العالمية وبدأنا نأخذ
ونعطى ولو حسب التقدم الذى حصل فى المعالم التاريخية . ماذا حصل فى

أفريقيا وفى العالم العربى على مدى نصف قرن ، نجد أننا حققنا تقدما مهمما هو المشكلة هي تتمثل في أن إيقاع التطور العالمى تغيرة وشدة اعتماد العالم على بعضه البعض جعل النظام العالمى نظاما حاكما فى تصرفات واحتمالات كل وحدة من وحداته . من هنا لابد أن نكون قلقين انما لا يجب أن نكون يأسين فليس هناك مبرر لليأس لأننا بفعلنا غيرنا الواقع ولو كنا فى ظروف تاريخية مواتية كنا غيرنا بأكثر فاعلية .

— فيما يخص الكم والنوع فانا لا أقصد أن يكون النوع بديلا للكم وحتى فى التنمية العلمية والتكنولوجية ، فنحن نتكلم دائما وأبدا عن حالة لا يمكن أن تتم قبل التطور الدولى فاذا ما أردنا الدخول فى التطور التكنولوجى نحتاج لـ ٥٠٠ باحث و ٧٠٠ مصمم السخ . وانما الذى أقصده أننا فى الدول العربية أمكن لنا أن نحقق انجازا فى مجال التراكم الكمى فظهرت لدينا فرص وتولدت بيننا قدرات تسمح بأن يزدوج مع هذا التطور الكمى تطور نوعى ، وكانت هناك فى الجامعات القديمة محاولات لاندواج الكم مع النوع وظهرت متغيرات كثيرة وضغوط كثيرة فى رأى اوجدت هذا الاتصال وأنا ادعى حتى يستطيع العالم العربى الاستفادة من التطور الكمى الذى حدث لابد أن ينتقل الى التطور النوعى .

٤. د. جودة عبد الخالق :

الثقة ليست مجردة ولكنها بنت النظام والبيئة فيجب تعديل النظام والبيئة أولا حتى تتعدل الثقة وتتطور .

بالنسبة للنظام أرى أنه من الواجب أحداث تعديلات جوهرية داخل بنية الدول الافريقية والعربية لكن رغم أن هذا الشروط ضرورى الا أنه ليس شرطا كافيا وهناك مثال لتزانيا التى حققت تغييرات جذرية داخل المجتمع ولكن نتيجة لطبيعة معطيات البيئة الدولية فهي تواجه أزمة طاحنة .

أريد ونحن نتحدث فى مظلة سمنار التاريخ أن أوجه السادة الحضور الى أهمية استلهم البعد التاريخى لأننى أحسست بنظرة من القلق ونفاذ الصبر .

والحقيقة اذا علمنا ان النظام الحالى وما اتى به بالنسبة للدول العربية والافريقية من تطور عبر عدة قرون فيجب ان نسلم ان الخروج أو الانفكاك من اثار هذا النظام لا يمكن أن يتحقق فى حياة جيل واحد أو اثنين أو حتى ثلاثة أجيال وهذا طبعا ليس من التسليم بالأمر الواقع ولكن اعتقد ان النظرة النوعية للامور تقتضى ذلك واعتقد انه بهذه المناسبة أشير الى أهمية ان يدرك العرب بشكل واضح من ناحية افريقيا ، وتدرك افريقيا بشكل واضح من ناحية العرب وربما لحسن الحظ ان سمنار التاريخ أخذ زمام المبادرة وأرجو أن يناح حزب من اللقاءات حول هذا الموضوع فى اطار معهد الدراسات والبحوث الافريقية وربما يكون هذا فاتحة لمشروع مشترك على أن لا يكون هذا من خلال قنوات البحث الغربية لأنه فى نهاية الأمر سنصبح أسيرين لبنية النظام الدولى الراهن .

الفهرس

الصفحة

- تقديم ٥ — ٨
- تاريخ العرب فى افريقيا سبيل للتقارب أم للتباعد
د. جمال زكريا قاسم ٩ — ٢٦
- صفة افريقيا فى المصادر العربية حتى نهاية القرن
العاشر الهجرى
- د. ايمن فؤاد سيد ٢٧ — ٤٠
- محاولة العرب المسلمين كشف منابع النيل فى القرون
الاولى للاسلام
- د. عطية القوصى ٤١ — ٥٦
- علاقة مصر بالحشة فى عصر سلاطين المائيك
(١٢٥٠ — ١٥١٧)
- د. قاسم عبده قاسم ٥٧ — ٨٤
- التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته
على احوال مصر الملوكية
- د. على السيد على محمود ٨٥ — ١٢٠
- دور العرب وتأثيرهم فى شرق افريقيا
- د. سليمان عبد الفنى المالكى ١٢١ — ١٤٠
- دور العرب الحضارى فى افريقيا
- د. شوقي عطا الله الجمل ١٤١ — ١٦٨

الصفحة

- النشاط التجارى العربى فى شرق افريقيا فى القرن التاسع عشر حتى بداية السيطرة الأوروبية على المنطقة
- ١٦٩ — ٢٢٠ د. محيى الدين محمد مصيلحى
- العرب والكونفـو فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر
- ٢٢١ — ٢٤٦ د. يواقيم رزق مرقص
- دراسة تاريخية للهجرة اليمنية الى شرق افريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين
- ٢٤٧ — ٢٩٠ د. فاروق عثمان أباطة
- المغتربون العرب فى غربى افريقيا
- ٢٩١ — ٣٦٢ حلى شعراوى
- العرب والتفرقة العنصرية فى افريقيا
- ٣٦٣ — ٣٩٦ د. سلوى محمد لبيب
- الدول العربية فى منظمة الوحدة الافريقية
- ٣٩٧ — ٤٢٦ د. عبد الرحمن اسماعيل الصالحى
- العرب والتوغل الاسرائيلى فى افريقيا
- ٤٢٧ — ٤٦٨ د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم
- باب المنـدب والأمن العربى الافريقى
- ٤٦٩ — ٤٩٦ لواء دكتور محمد رضا فودة
- الزعماء المتطورون فى حزب التجمع الافريقى ١٩٤٦ — ١٩٥١
- ٤٩٧ — ٥١٤ د. عبد القادر زبـادىة
- المرأة العربية والافريقية فى اطار حركات التحرر الوطنى ، دراسة حالة فلسطين وجنوب افريقيا
- ٥١٥ — ٥٥٢ ا. د. عواطف عبد الرحمن
- الحوار العربى الافريقى من أين والى أين ؟
- ٥٥٣ — ٥٩٢ د. حسن نافعة

الصفحة

- حركة التحرر الوطنى الى أين ؟ حلقة نقاش
المشاركون : السفير فؤاد البديوى
— أ. د. عبد الملك عـودة
— د. ابراهيم نصر الدين
— د. محمد السيد سعيد
— الأستاذ حلمى شعراوى
— الأستاذ أحمد يوسف القرعى ٥٩٣ — ٦١٤
- قضايا الأمن والاستراتيجية فى افريقيا — حلقة نقاش
المشاركون : السفير أحمد حجاج —
أ. د. عبد الملك عـودة — أ. د.
على الدين هلال — د. نازلى معوض ٦١٥ — ٦٦٠
- العرب والافريقيين فى مواجهة المستقبل
حلقة نقاش
المشاركون : أ. د. جـودة
عبد الخالق — أ. د. اسماعيل
صبرى عبد الله — أ. د.
عصام الدين جـلال ٦٦١ — ٦٨٤

مطبعة الجبلاوي
٤٠٤ شارع الترمذية البو لاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٧١٩١